

جامعة الإسكندرية

كلية الآداب

قسم التاريخ والآثار المصرية الإسلامية

المحن والأزمات الإقتصادية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي

(٣٣٤ - ٥٩٠ هـ / ٩٤٦ - ١١٩٣ م)

Misfortunes and crises in Iraq during the Seljuk and El bouihi era (334 – 590 H – 946 - 1193 AB)

رسالة مقدمة من الطالب

هيثم محمد محمد السايس

لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية

إشراف

أ.د/ حمدى عبد المنعم حسين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب – جامعة الإسكندريه

جامعة الإسكندرية
كلية الآداب
المكتبة : ١٠٧٧

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



كلية الآداب

قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية

المحن والأزمات الإقتصادية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي
(٣٣٤هـ - ٥٩٠هـ / ٩٤٥م – ١١٩٣م)

رسالة مقدمة

ضمن متطلبات درجة دكتور الفلسفة في

التاريخ

مقدمة من

هيثم محمد محمد السايس

ليسانس الآداب – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية ٢٠٠٧م

ماجستير الآداب في التاريخ – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية ٢٠١٣م

٢٠١٨ م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة الدراسة	٢
دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع	١٢
تمهيد : العوامل الجغرافية التي أثرت في تاريخ العراق	٢٩
الجغرافيا الطبيعية للعراق	٣٠
الخريطة السياسية للعراق	٣٥
تحديد معني محنة وأزمة إصطلاحا	٤٦
الفصل الأول **الظروف السياسية للعراق في العصرين البويهي والسلجوقي** **وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية**	
المبحث الأول : الأزمات السياسية بين الخلافة وسلاطين بني بويه والسلاجقة	٥٢
دخول بني بويه العراق	٥٤
العلاقات بين البويهيين والخلافة :خلافة المستكفي	٥٥
خلافة المطيع لله	٥٨
الطائع لله	٦٥
القادر بالله	٧٢
القائم بالله	٧٨
علاقة السلاجقة بالخلافة	٨٠
خلافة المقتدي بأمر الله	٨٤
خلافة المستظهر بالله	٨٦
خلافة المسترشد بالله	٨٩
خلافة الراشد بالله	٩٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلافة المقتفي لأمر الله	٩٣
المبحث الثاني : أثر شغب الجند علي الاقتصاد	٩٨
أولا : شغب الجند البويهي	٩٩
المبحث الثالث : المصادرات المالية وأثرها في ظهور الأزمات الاقتصادية	١١٢
العهد البويهي	١١٢
الخلفاء	١١٢
الوزراء	١١٣
الموظفين	١١٥
العامة	١١٦
العهد السلجوقي	١١٨
الخلفاء وكبار رجال الدولة	١١٩
العامة	١٢٠
الفصل الثاني **الحالة الإقتصادية العامة للعراق في العصرين البويهي والسلجوقي**	
المبحث الأول **نظام الإقطاع الزراعي وأثره في ظهور الأزمات الإقتصادية**	١٢٤
تعريف الاقطاع	١٢٥
نشأة وأثر الاقطاع في البلدان الاسلامية	١٢٧
الاقطاع في العراق قبيل العهدين البويهي والسلجوقي	١٣٤
الاقطاع في العراق خلال العهدين البويهي والسلجوقي	١٣٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النتائج العامة لسياسة الاقطاع	١٤٤
المبحث الثاني : حالة الأسواق ونقص قيمة العملة	١٥٢
أولا التجارة في العهدين البويهي والسلجوقي	١٥٢
ثانيا : أحوال الأسواق في العراق خلال العهدن البويهي والسلجوقي	١٥٧
المعاملات المالية وأثرها في الأسواق العراقية :	١٥٧
نظام الصيرفة	١٦٢
نظام الجهبذة	١٦٣
نظام السفتجة	١٦٣
ثالثا : نقص قيمة العملة في العصرين البويهي والسلجوقي	١٦٤
في العهد البويهي	١٦٤
في العهد السلجوقي	١٦٧
المبحث الثالث : أثر الضرائب علي الحالة الإقتصادية للعراق	١٦٩
العهد البويهي / أنواع الضرائب	١٦٩
العهد السلجوقي / أنواع الضرائب	١٧٤
طرق الجباية وأثرها علي الحياة الاقتصادية	١٧٩
طرق الجباية في العهد البويهي	١٧٩
طرق الجباية في العهد السلجوقي	١٨٤
الفصل الثالث : الحركات الإجتماعية وأثرها علي تدهور الإقتصاد في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي :	
المبحث الأول : الفتن بين السنة والشيعة وأثرها علي حركة الإقتصاد في	١٨٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العراق	
أهم مراحل الصراع بين الطرفين وأسبابها	١٩٠
النتائج العامة للصراع	٢٠٥
المبحث الثاني : حركة العياريين والشطار وأثرها علي الأحوال الإقتصادية في بلاد العراق . التعريف اللغوي والاصطلاحي للعياريين والشطار	٢١٤
هدف الحركة التنظمي وفلسفتها ضد السلطة ولنصرة العامة	٢١٧
العياريون والشطار قبيل العهدين البويهي والسلجوقي	٢٢٥
السرد الحولي لحركة العياريين والشطار خلال العهدين البويهي والسلجوقي	٢٢٨
هل كان العياريون سبباً أم نتيجة للأزمة الاقتصادية (نتائج عامة)	٢٤٩
المبحث الثالث : دور العلماء في التصدي للمحن والأزمات في بلاد العراق .	٢٥١
العلماء في المجتمع العراقي وتقسيمهم إلي علماء فقهاء وعلماء دنيا	٢٥١
دور العلماء والفقهاء في مواجهة الفساد السياسي	٢٥٣
دور العلماء في مواجهة الكوارث الطبيعية والوبائية	٢٥٨
دور العلماء في الفتن الاجتماعية	٢٦٦
دور العلماء والفقهاء في الحد من الفقر	٢٦٩
الفصل الرابع : الكوارث البيئية والطبيعية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية :	
معني الكارثة اللغوي والاصطلاحي	٢٧٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول : الفيضانات والسيول والبرد وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية	٢٧٤
الفيضان	٢٧٤
السيل	٢٧٧
البرد	٢٧٧
السرد الحولي لأهم الظواهر الطبيعية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي	٢٧٨
الزلازل والظواهر الفلكية وأثرها في ظهور الأزمات	٢٩٦
المبحث الثاني : إنتشار الامراض والأوبئة وأثرها علي الحالة الإقتصادية	٣٠٠
أهم الامراض والأوبئة التي ضربت العراق / الأمراض المعدية	٣٠٤
الطواعين	٣٠٥
الحميات	٣٠٩
الخوانيق	٣١٠
علة مركبة من الدم والصفراء	٣١١
الجدري	٣١١
السرسام والبرسامية	٣١٢
أمراض أصابت الحيوانات والماشية	٣١٣
المبحث الثالث : إنتشار المجاعات وغلاء الأسعار وأثره في تدهور الحالة المعيشية للعامة	٣١٥
مفهوم الجوع اللغوي والاصطلاحي	٣١٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسباب المجاعات التي ظهرت في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي	٣١٦
السرد الحولي لأهم موجات الغلاء والمجاعات خلال العصرين البويهي والسلجوقي	٣٢٠
النتائج العامة	٣٣٥
الفصل الخامس : الأزمة الإقتصادية وأثرها علي العامة في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي :	
المبحث الأول : حركة الدخل والفارق بين طبقة الحكام والرعية	٣٤١
في العهد الويهي :	٣٤٢
الخلفاء	٣٤٢
الأمراء البويهيين	٣٤٥
الوزراء	٣٤٨
الفئات الأخري	٣٥١
العامة	٣٥٣
في العهد السلجوقي	٣٥٨
الخلفاء	٣٥٨
السلاطين السلاجقة	٣٦٠
الوزراء وكبار رجال الدولة	٣٦٢
الطبقة الوسطي	٣٦٥
العامة	٣٧٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثاني : مظاهر مستوى المعيشة عند العامة	٣٧٣
العادات الغذائية للعامة	٣٧٥
العادات الصحية للعامة	٣٧٨
ظاهرة الفقر والجوع والشحاذة	٣٨١
دور وأحياء الفقراء وعاداتهم اليومية	٣٨٤
الخاتمة	٣٨٨
الملاحق	
ملحق ١ : أسعار الخبز خلال الفترة السلجوقية	٣٩١
ملحق ٢ : الخلفاء العباسيون المعاصرون للفترة البويهية والسلجوقية	٣٩٢
ملحق ٣ : أسعار الصرف في العراق خلال الفترة البويهية	٣٩٣
ملحق ٤: رواتب بعض الموظفين والجند في الفترة البويهية	٣٩٤
ملحق ٥ :جانب من المصادرات لبعض رجال الدولة في الفترة البويهية	٣٩٥
قوائم المصادر والمراجع	٣٩٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



المقدمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعتبر الأزمات الإقتصادية والمحن التي تتعرض لها الدول ، من أهم المظاهر على ضعف الدول أو قوتها ، فعلى حسب وجود الأزمات الإقتصادية أو تلاشيها ، تكون قوة الدولة ، فالعلاقة بينهما طردية ، تزداد وتنقص علي حسب وجود الأزمة وأيضاً تعاطي مؤسسات الدولة مع هذه الأزمات والمحن التي تتعرض لها .

وبسبب أهمية هذه الأزمات في وجود الدول كما سبق ، يأتي أهمية دراسة هذه الأزمات تفصيلياً في التاريخ العام لدول العالم ، ولا سيما الدول الإسلامية ، حيث تتعرض الدراسة الموسومة بالمحن والأزمات الإقتصادية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي ، إلي موضوع في غاية الأهمية في هذه الفترة ، حيث كانت العراق في تلك الفترة تعيش أسوأ عصورها ، فالمؤرخين المعاصرين قسمّوا في تناولهم تاريخ الدولة العباسية التي قامت في العراق عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م إلي أربع عصور تمتد بين القوة إلي الضعف ، فالعصر الأول والذي أمتد قرابة القرن من الزمان ، كانت الخلافة من القوة بحيث تستقل برأيها وسياستها سواء الداخلية والخارجية ، لذلك؛ إذا تطرقنا إلي مفهوم المحنة والازمة ، سنجد أن الدولة العباسية ومركزها في العراق لم تتعرض الي تلك الأزمات إلا قليلاً ، وحتي لو وجدت ، فسيكون التعامل معها ناجعاً أما العصر العباسي الثاني والمعروف بعصر نفوذ الأتراك ، فنجد أن هذا العصر بدأ الضعف يسرى في أوصال الدولة ، فتفككت ، وبدأ مصيرها محتوما بين مطرقة الأتراك القادة في الجيوش العباسية ، وبين سندان الظروف الخارجية التي أتضح منها تفكيك الولايات العباسية لتصبح دولاً مستقلة سواء في المشرق أو المغرب ، ولتصبح العراق مركز الخلافة معرضة إلي الفتن الداخلية والمعارك الجانبية بين الخلافة والقادة الأتراك ، لتعم الفوضي أرجاء العاصمة بغداد ، ومنها إلي جميع المدن العراقية ، فأشتد الغلاء وزادت الأزمة الإقتصادية بعد الإهتمام بالري والزراعة والصناعة وإضطراب التجارة خاصة مع إشتداد ثورة الزنج في الأقاليم الجنوبية من العراق ، وأيضا الخطر القرمطي الخارجي الذي كان يهدد دار الخلافة نفسها في بعض الأوقات ، كل هذا ساهم في بروز الأزمات الإقتصادية ، وتدهور المجالات الأساسية في الدولة ، وظهور العياريين والشطار وهم من أبرز العوامل التي ساهمت في ظهور الأزمات وكانت من نتائجها الخاصة ، وقد أستمرت هذه الظاهرة وتطورت في العصريين التاليين مناط الدراسة وهما العصرين البويهي والسلجوقي .

أما الدولة العباسية في العصر الثالث وهو عصر تسلط البويهيين علي الخلافة العباسية ، فالظروف السياسية يتضح منها إنحطاط مكانة الخلافة قبلها ، والخلاف الذي نشب بين الخلافة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والبريديين ،وهو ما أشعر العامة بالفراغ السياسي التي تعاني منه الخلافة العباسية في تلك الآونة ، وهو ما جعل قوة جديدة تنظر الي الخلافة نظرة طمع خاصة ، فهذه القوة كانت قوة بني بويه الديلم في فارس ، والذين سرعان ما نمت قوتهم في هذا الإقليم ، وكونوا دولتهم الوليدة والتي كان يحكمها "أحمد بن بويه" وكان من المنطقي أن ينظروا صوب العراق مركز الخلافة الضعيف ، وهو ما تم بالفعل من دخول البويهيين بعدما أستنجد القواد في بغداد بهم وطلبوا منه المسير الي بغداد بل أستقبله الخليفة المستكفي بالله الذي أحتفي بهم من أجل التخلص من الأخطار الداخلية المحيطة به ولقبهم بألقاب المُلك وذلك في ٣٣٤هـ / ٩٤٥م .

ولقد كان بني بويه ينظرون الي الخلافة نظرة خاصة ، حيث كان البويهيين من الشيعية ، وقد فكر معز الدولة علي سبيل المثال من القضاء علي هذه الخلافة وتعيين أحد العلويين مكانها ولكن منعه من ذلك أسباب عدة ستوضحها الدراسة في مجمل الحديث عن الدولة البويهيية .

أما ما يخص الدراسة وهي الناحية الإقتصادية في هذا العصر ، فلم تتحسن الناحية الإقتصادية إلا قليلا ، فقد تعرضت العراق في أوائل هذه الدولة علي سبيل المثال الي أزمة غلاء شديدة أدت الي أكل الناس الميتة والكلاب وهو ما أدي الي إنتشار الأمراض والأوبئة وقد أشتهر العصر البويهي الي تعرض بلاد العراق الي أزمات كثيرة بسبب التطاحن بين الجند في بغداد العاصمة ، وتعرض البلاد الي كوارث طبيعية أدت الي تدهور الزراعة خاصة ، وظهور الأمراض والأوبئة ، والتي ساهمت في إشتداد الغلاء بين العامة ، والتي تسطرها كتب المؤرخين بالسنوات والتفاصيل ، كما أزداد ظهور العياريين وهجماتهم علي الأسواق في بغداد ، وتناقص السلع الأساسية في هذه الأسواق وغيرها من المظاهر التي أدت الي الأزمة الإقتصادية في هذا العصر وهو ما ستتناوله الدراسة بالبحث وبمزيد من التفاصيل .

أما العصر العباسي الرابع فهو منذ إنهيار دولة بني بويه المسيطرة علي الخلافة الي إنهيار الخلافة العباسية علي يد المغول في عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وهو العصر المسمي بالعصر السلجوقي ، و الدولةالسلجوقية التي قامت في إيران ثم أمتدت بعد ذلك الي العراق والشام وآسياالصغرى.

وكانت تنتمي هذه الدولة إلي قبائل الغز الأتراك ، أما عن دخولهم العراق فكان منطقيا خاصة في ظل ضعف دولة بني بويه ، فبعد إستيلاء طُغْرُلبك وهو أحد احفاد سلجوق علي خراسان و٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م ،استنجد الخليفة العباسي القائم بأمرالله بالسلطان طغرلبك لإنقاذه من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البويهيين ؛فانتهزالسلطان هذه الفرصة،وسار بجيوشه إلى بغداد، ودخلها في عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، ومن هنا يبدأ عصر سيرة السلاجقة الأتراك علي مقدرات الخلافة .

أما عن الحالة العامة في البلاد العراقية ، والإقتصادية خاصة فقد كانت متدهورة للغاية بسبب ضعف دولة بني بويه ، والكوارث التي حلت بالعراق ، ومنها سيطرة أبو الحارث أرسلان البساسيري علي بغداد ومحاولته الجدية للقضاء علي العباسيين السنة لصالح خلفاء الفاطميين في القاهرة ، فكان طبيعيا أن يمتد هذا التدهور السياسي للإقتصاد وتشهد بغداد تدهورا إقتصاديا كبيرا أمتد الي أوائل عهد السلاجقة ويصبح مسئولية الإصلاح الإقتصادي علي كاهل السلاجقة.

ولم تكن الحياة الإقتصادية في العراق في العهد السلجوقي مزدهرة طول الوقت ، حيث شهد العصر السلجوقي أحداثا أثرت علي الناحية الإقتصادية ، حيث كان يتميز هذا العهد بالفساد الإقتصادي والإستغلال ، بالرغم ما فيه من مسئولين عظام كنظام الملك الطوسي وزير السلطان السلجوقي ملكشاه ، إلا ان هذا الفساد كان من المؤثرات الخاصة في هذا العصر علي إقتصاد العراق .

كما شهد فتنٌ داخلية وإقتتال داخلي أثرا علي الناحية الإقتصادية وغلق الأسواق مما أدي الي الغلاء ، ونقص الموارد والسلع الأساسية ، كما كان للكوارث البيئية أثرا كبيرا علي الحياة الإتصادية وظهور الأزمات كالفيضانات والزلازل والبرد والرياح التي أدت الي تدهور الزراعة ونقص المحاصيل ومن ثم تدهور الصناعة والتجارة ونقص الاموال والخزينة .

وعلي الرغم من الترتيبات الإدارية التي قام بها السلاجقة لتدارك الوضع القتصادي الصعب وقد نجحوا في ذلك في أوقات كثيرة إلا ان سلبيات اخري ظهرت علي السطح وأثرت في ظهور محن وأزمات إقتصادية حفلت بها بداد دار الخلافة وباقي البلاد العراقية .

و تكمن أهمية الدراسة في إظهار الناحية الإقتصادية للعراق وأهم الأزمات التي مرت عليها خلال العصرين البويهي والسلجوقي ، هذا من الناحية العامة ، اما من الناحية الخاصة فقد كانت للناحية الإقتصادية المتدهورة آثار إجتماعية بعيدة المدي ومنها :

– تحديد مواطن الفتن والصراع الإجتماعي خاصة بين سكان بغداد من السنة والشيعة كمثال أن للأزمات الإقتصادية آثار إجتماعية عميقة أثر علي مايسمي حديثا بالسلام الإجتماعي ، وتحديد أهمية الأزمات الإقتصادية في ظهور هذه الصراعات الإجتماعية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ظهور حركة العياريين وذلك من خلال مناقشة الإشكاليات التي جعلت هذه الحركة مظهرا هاما علي وجود الأزمات الإقتصادية التي شهدها العراق ، ومن خلال التسلسل التاريخي لهذه الحركة الإجتماعية .

- إبراز مظاهر مستوي المعيشة للعامة خلال العهدين البويهي والسلجوقي ، وكيف أثرت الناحية الإقتصادية وظهور المحن والأزمات علي العامة وتدهور مستوي المعيشة وتدهور الدخول الخاصة بهم .

- إبراز الناحية الخدمية للدولتين البويهية والسلجوقية ومحاولاتهم في وقف التدهور الإقتصادي في بعض الأحيان والإنجازات الإقتصادية التي قامت بها الدولتين .

- الفرق بين دخول الخلفاء والوزراء والسلاطين وبين العامة ، وكيف كان البذخ والترف في بعض الأحيان يساهم في تفاقم الأزمات الإقتصادية ، وماهي أسباب المصادرات المالية وأهم مظاهرها .

إشكالية الدراسة :

- يعتبر الحديث عن المحن الإنسانية لا سيما الإقتصادية منها من أهم ما يرتبط في التاريخ العام من مشكلات أهمها تحديد معني المحنة الإنسانية والكوارث التي تحل بالبلدان المنكوبة ، ومدي عمق الأزمات الإقتصادية وتأثيرها في حياة الإنسان ، هذا بشكل عام ، أما من ناحية التاريخ الإسلامي ، فقد كانت المحنة والأزمة الإقتصادية لها تأصيل عقدي في حياة المسلمين ، فقد ربطوا الأزمة بغضب الله أو لأسباب دينية يستحقها الإنسان والمجتمع الذي يبتعد عن مساره الصحيح الذي كفل الله له الحماية والرعاية المعنوية والمادية مثل الإكثار من الثمار والرزق من الطيبات .

- أما الإشكالية في موضوع البحث وهو تاريخ المحن والأزمات الإقتصادية في العراق خلال عصرين من أهم العصور التي مرت في تاريخ هذا البلد وهما العصرين البويهي والسلجوقي أو ما يسميه العصر العباسي الثالث والرابع ، فتكمن الإشكالية الخاصة بالبحث في كيفية ربط المحنة والأزمة الإقتصادية بالنظام العسكري البويهي والسلجوقي وما ترتب عليه من كوارث إقتصادية حلت بدار الخلافة وباقي البلاد العراقية . هذا عن السؤال الأهم في هذه الدراسة .

- ومن خلال الدراسة أيضا يأتي السؤال الثاني المرتبط بهذه الدراسة هو ماهو مدي تأثير نظام الإقطاع في دولتي بني بويه والسلاجقة في الحياة الإقتصادية العراقية خاصة الزراعة وهو ما ربط الحياة العسكرية بالإقتصاد بشكل كبير ، حيث نجد في كتاب سياست نامة لنظا الملك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطوسي أحد أكابر وزراء السلاجقة والمسئول الكبير الذي ربط الإقطاع العسكري بالحياة المدنية فهنا تأتي الإشكالية عن مدي العمق والأثر في إقتصاد العراق .

– الإشكالية الثالثة الهامة في تلك الدراسة هي حركة العياريون والشطار ، فتبرز الدراسة خلال عرض المبحث الخاص بهذه الحركة وأثرها علي إقتصاد البلاد ،تاريخ الحركة في التراث العربي الإسلامي ، وهل كانت حركة لصوصية تهدف الي السرقة ونشر الفوضي ، أما أنها كانت نتيجة خاصة للأوضاع السياسية وأيضا الإقتصادية بمعني أدق أيهما السبب والنتيجة ، الأوضاع الإقتصادية هي من أظهرت هذه الحركة أم ان الحركة تسبب في تدهور أسواق بغداد مثلا ، وتدهور الناحية الإقتصادية .

– الإشكالية الرابعة التي تشغل رأس الباحث في هذه الدراسة المرجوة ، ماهو دور العلماء الحقيقي في تلك الأزمات ، سواء من ناحية التصدي للفساد الإقتصادي ، أو في حل جذري لتلك الازمات ، والعلماء أعني بهم علماء الفقه وحملة الشريعة الذي كان لهم الدور الأكبر بين العامة في العصور الوسطي ، وأيضا علماء الدنيا من دارسي الهندسة والطب وغيرها من العلوم ، فمن المعروف أن بغداد كانت كعبة للعلم والعلماء ، هل كان لهم دورا ولو هامشيا ، وهل كتابات المؤرخين أبرزت هذا الدور بالفعل أن همشته كعادة مؤرخي المسلمين ؟ ، بل وهل كان للشعر والأدب دورا في مظاهر الحياة الإقتصادية والأزمات أم لا ؟

منهج الدراسة :

ستعتمد الدراسة في تحليل الأحداث التاريخية بعد جمعها وهو ما يسمي بالمنهج التاريخي التحليلي ، وهو الذي يعتمد علي تجميع المادة العلمية التاريخية لكل مبحث علي حدة ، ثم تحليل ما تم جمعه من خلال إعطاء فرضيات ونظريات مستخلصة من تحليل الأحداث الخاصة بفصول الدراسة .

ويعتمد هذا المنهج علي نقاط منها :

- تحديد المشاكل التاريخية في إطار علمي .
- جمع وحصر المادة العلمية التاريخية .
- نقد هذه المادة إن وجدت بعض الإشكاليات الخاصة بها .
- تحليل هذه المادة ثم صياغتها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدراسات السابقة :

استفاد الباحث خلال تجميعه للمادة العلمية لهذه الدراسة المرجوة من بعض الدراسات السابقة عن التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للعراق في العصرين البويهي والسلجوقي مثل :

- **كتاب تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري** ؛ للدكتور عبد العزيز الدوري ؛ وهو الكتاب الأساس في تأريخ الإقتصاد للبلاد العراقية في أواخر العصر العباسي الثاني وبداية سيطرة البويهيين علي الخلافة العباسية ، وقد أستفاد الباحث منه في بعض التفصيلات الخاصة للحالة الإقتصادية العامة قبل تاريخ هذه الدراسة وفترة بداية حكم دولة بني بويه .

- **دور العلماء في الحياة العامة في العراق خلال العصر السلجوقي** ؛ وهي رسالة دكتوراه في جامعة أم القري للدكتورة نادية عبد الصمد عبد الكريم ؛ وقد أستفاد منها الباحث في الفصل الثالث في المبحث الخاص بدور العلماء في مواجهة الأزمات الإقتصادية .

- **الحياة الاقتصادية فى العراق فى العصر البويهى (٣٣٤-٤٤٧ هـ / ٩٤٥-١٠٥٨** للباحثة ايمان منير سعد محمد غنيم ؛ و مدي الإستفادة من هذه الرسالة ، في جميع فصول الدراسة .

- **الكوارث الطبيعية في بلاد العراق و فارس ابان العصرين البويهي و السلجوقي ٣٣٤ - ٥٩٠ هـ / ٩٤٦ - ١١٩٣** م للباحث طه حسين عبدالعال حسين؛ وهي رسالة دكتوراه ، وستستفيد منها الدراسة في الفصل الخاص بالكوارث الطبيعية خلال العصرين البويهي والسلجوقي ، ومعرفة الآثار السلبية التي عقبت هذه الكوارث من غلاء للأسعار وإنتشار الأمراض والأوبئة ، وغيرها من النتائج .

و تحتوي الدراسة علي خمس فصول بخلاف التمهيد الخاص ودراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع التي عنيت بها هذه الدراسة ، أما التمهيد فهو يتحدث عن **المقدمة الجغرافية للعراق** ، فالناحية الجغرافية تمثل الإطار الخارجي لهذه الدراسة ، فبدون جغرافية البلاد السياسية والإجتماعية والإقتصادية ، يصعب البحث في أسباب الأزمات الإقتصادية ، وعدم معرفة طبيعة النشاط الإقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة ، وحركة لنهري دجلة والفرات ، وما تقوم به من زيادة في المياة مما يؤدي الي المجاعات والأوبئة الناتجة عن الفيضانات وما تقوم به من غلاء الأسعار وظهور الأزمات الإقتصادية ، ومن الناحية الإجتماعية بتوزيع السكان علي الأساس الإثني والمذهبي والذي ساهم في الصراع الإجتماعي الذي ظهر كنتيجة للأزمات الإقتصادية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبقي في التمهيد الخاص لهذا الدراسة هو تحديد معني المحنة والأزمة إصطلاحا ، والتسلسل التاريخي للأزمات خاصة عند المسلمين ، ومحاولة تفسيرها في الإسلام من حيث أسبابها عند المسلمين ومحاولات إتقاءها ومواجهتها عند حدوثها في البلدان الإسلامية .

بعد التمهيد ؛ يأتي الفصل الأول من هذه الدراسة بعنوان : **الظروف السياسية للعراق في العصرين البويهي والسلجوقي وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية** ، ويضم خلال هذا الفصل ثلاث مباحث وهي ، الاول الأزمات السياسية بين الخلافة وسلاطين بني بويه والسلاجقة ، وكيف كانت الأزمات السياسية بين الطرفين مهيئة لتدهور الحياة العامة للعراق والذي ساهم في ظهور الأزمات الإقتصادية وعدم وقف التدهور ، فكان دائما يوجد صراع خفي بين الخليفة العباسي والبويهيين ومن بعدهم السلاجقة ، وفي هذا المبحث سنكون لنا وقفة مع هذا الصراع وإبرازه .

أما المبحث الثاني فهو يتحدث عن التقاتل بين الجند وأثرها علي الإقتصاد العراقي ، فكثيرا ماكان الإقتتال الداخلي أثره المباشر علي الأسواق وحركة التجارة في بغداد والمدن العراقية الأخري ، فكانت تلك الفتن من المظاهر المباشرة لتدهور حركة الإقتصاد .

أما المبحث الثالث فيتناول ؛ المصادرات المالية التي كانت تتم بين الفينة والأخري وكانت في الأغلب لأسباب سياسية ، ومن أجل تمويل الحملات العسكرية في العهدين البويهي والسلجوقي ، وكيف كانت لهذه المصادرات أثرا نعتبره غير مباشرا علي حركة الإقتصاد .

ثم يأتي الفصل الثاني من هذه الدراسة والذي تم تخصيصه لإبراز الحالة الإقتصادية العامة ومظاهرها وهو بعنوان : **الحالة الإقتصادية العامة للعراق في العصرين البويهي والسلجوقي** ؛ ويضم ثلاث مباحث وهي : الأول ؛ ويتحدث عن حركة الإقطاع الزراعي وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية ، وهو ما يسمي بالإقطاع العسكري ، خاصة في العهد السلجوقي والذي كان من المظاهر الخاصة لهذا العصر ، أما المبحث الثاني فهو عن حالة الأسواق في بغداد والمدن العراقية والصعوبات التي كانت تواجهها والكوارث التي حلت بها ، ومعه نقص قيمة العملة الذي كانت تهدد الإقتصاد دائما ، ومظاهر هذا النقص سواء علي الذهب والفضة .

أما المبحث الثالث ، فهو يتحدث عن الضرائب ونظام الإحتكار وأثره المباشر وغير المباشر علي حركة التجارة وعلي المحاصيل الزراعية وإرتباطه علي الأسعار وغلاءها وحركة الأسواق ومن ثم ظهور الأزمات الإقتصادية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم يأتي الفصل الثالث الذي يحتوي علي المظاهر الإجتماعية لهذه الأزمات ويأتي بعنوان ؛ **الحركات الإجتماعية وأثرها علي تدهور الإقتصاد في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي** ؛ ويتحدث عن الحركات الإجتماعية التي ظهرت خلال الأزمات الإقتصادية وأثرها في بعض الأحيان علي تفاقم هذه الأزمات ويتضمن ثلاث مباحث ؛ فأما الأول فهو الصراع بين السنة والشيعة ، وكيف أن هذا الصراع هدد المجتمع العراقي وأدي الي تفاقم المحن والأزمات الإقتصادية وغلق الأسواق في أحيان كثيرة ؛ أما المبحث الثاني فهو يبحث في حركة العياريين والشطار والتي ظهرت كأحدي النتائج علي ظهور هذه الأزمات ، ونبحث في إشكالية خاصة في تاريخ هذه الحركة ؛ أما المبحث الثالث فهو يتضمن دور العلماء في التصدي للأزمات والمحن الإقتصادية ومظاهر ذلك من خلال كتابات كتب التاريخ العام كابن الجوزي في المنتظم وابن الأثير في الكامل في التاريخ والذين تحدثوا ضمنيا عن دور العلماء في تذكير الناس بعقاب الله ، وبقي أن نشير أن المبحث سيتضمن بحثا عن أسئلة خاصة عن دور العلماء سواء الفقهاء أو علماء الدنيا في محاربة الأزمات الإقتصادية .

أما الفصل الرابع ؛ فيتحدث عن **الكوارث البيئية والطبيعية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية** ؛ فهو يتضمن ثلاث مباحث ، فالمبحث الأول يبحث في الزلازل التي عصفت بالعراق خلال العصرين المناط بهم البحث وأيضا الفيضانات والسيول والرياح والبرد وكل هذه المظاهر الذي كان لها أثر مباشر علي تدمير المحاصيل الزراعية وظهور غلاء الأسعار والمجاعات ؛ أما المبحث الثاني ، فهو يتحدث عن الأمراض والأوبئة التي كانت نتيجة مباشرة عن الأزمات الإقتصادية ، وتسلسل هذه الأمراض من خلال المصادر المعاصرة وكيف تم مواجهتها ؛ أما المبحث الثالث ، فهو يتحدث عن المجاعات وغلاء الأسعار ، ويعتبر هذا المبحث تتمة ونتيجة للمبحثين الأول والثاني في هذا الفصل .

أما الفصل الخامس والأخير فهو عن **الأزمة الإقتصادية وأثرها علي العامة في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي** ؛ فيعتبر نتيجة لكل ما تم في الفصول السابقة ويتضمن مبحثين ؛ الأول يتحدث عن الفروق الخاصة بين الدخول للخلفاء والوزراء وأصحاب المناصب العليا وبين دخول العامة والفارق بينهما وهي كنتيجة للأزمات الإقتصادية ؛ اما المبحث الثاني فيتحدث عن المظاهر الخاصة لمستوي المعيشة للعامة خلال العصرين المناط بهم البحث .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتضمن الدراسة أيضا نقطة أخيرة قبل الخاتمة وهي تجميع نقاط من نتائج هذه الدراسة ، واهم ما تم إستخلاصه بين ثنايا فصول هذه الدراسة ، ثم الخاتمة ، ثم القائمة الخاصة بالمصادر والمراجع التي تم الإعتماد عليها خلال كتابة الدراسة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدراسة التحليلية للمصادر والمراجع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولا : المصادر التاريخية :

- **ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي أبو الفرج ؛ (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)** [1]، وضع ابن الجوزي عدد كبير من المصنفات ، وقد أستفاد الباحث من هذه المصنفات ، إلا أن أهم هذه الكتب على الإطلاق كان كتاب "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم " دراسة وتحقيق محمد ومصطفي عبد القادر عطا ، نشر دار الكتب العلمية ببيروت ، ١٩٩٢م ؛ وقد رجع الباحث إلي الأجزاء ١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨ ؛ وقد حوى الكتاب علي معلومات في غاية الأهمية مما خدمت البحث وهي علي سبيل المثال :

- أحوال العامة في العهدين البويهي والسلجوقي
- السرد الحولي للأزمات الاقتصادية وموجات الغلاء والمجاعات التي مرت على العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي .
- السرد الحولي للأمراض والأوبئة التي مرت على العراق خلال تلك الفترة التاريخية .
- السرد الحولي للفتن المتلاحقة بين السنة والشيعة وهجمات العياريين والشطّار على الأسواق .
- السرد الحولي لشغب العسكر علي السلاطين البويهيين أو السلاجقة ، والآثار الإقتصادية المترتبة على ذلك وأهمها التأثير علي الأسواق التجارية .
- أستفاد الباحث من الوفيات التي ذكرها ابن الجوزي في كل سنة يؤرخ فيها ، سواء العلماء أو الفقهاء أو القادة العسكريين وغيرهم .
- الإستفادة من السرد لبعض الأحداث السياسية التي عاصرها ابن الجوزي نفسه ، ونقل عنه عدد من المؤلفين المتأخرين أشهرهم ابن كثير ، مما نخلص بنتجة أن ابن الجوزي كان دقيقا في سرده هذا .

أما المصنف الثاني الذي أعتمد عليه الباحث خلال البحث من مؤلفات ابن الجوزي ؛ هو كتاب " **شذور العقود في تاريخ العهود** " [2]، نشر الدكتور أحمد عبد الكريم نجيب ، عام ٢٠٠٦م ؛ وهو كتاب صغير إذا ما قورن بمجلدات المنتظم ، لكنه شديد الأهمية من حيث تركيزه علي التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي ، كما أعتمد علي

---

[1]) ابن الجوزي ، تاريخ الملوك والأمم ، دراسة وتحقيق محمد مصطفي عبد القادر عطا ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م ، الأجزاء ١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨ .

[2]) ابن الجوزي ، شذور العقود في تاريخ العهود ، نشر أحمد عبد الكريم نجيب ، مركز نجيبويه للمخطوطات ، ٢٠٠٦م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السرد الحولي ، بحيث يختصر السنة في حدث أو حدثين بالكثير مما يوحي بتركيز وأهمية هذا الحدث ، وهو ما أفاد الباحث في التالي :

- السرد الحولي للكوارث الطبيعية من الزلازل أو الفيضانات التي مرت علي العراق وأثرت تأثيرا إقتصاديا .
- بعض الأحداث السياسية التي مرت علي العراق خلال الفترة مناط البحث ، والتي كان ابن الجوزي يسلط الضوء عليها دون غيرها .
- السرد الحولي لبعض الفتن الاجتماعية كالفتن بين السنة والشيعة والتي أثرت تأثيرا إقتصادياً علي العراق خلال تلك الفترة التاريخية .

أما المصنف الثالث من مصنفات ابن الجوزي وأعتمد عليه الباحث في الدراسة كتاب " **مناقب بغداد** "[1] ، **نشر مطبعة دار السلام في بغداد عام ١٣٤٢هـ** ؛ وهو أحد المخطوطات لهذا الكتاب ، وهو مخطوط صغير خصصه ابن الجوزي لمدينة بغداد ، لكنه كان يتحدث عن تفاصيل هامة بالنسبة للباحث ، فهو بشكل أساسي يتحدث عن بغداد المدينة من بناءها حتي عصر ابن الجوزي في عدة مواضيع مختصرة وقد استفاد الباحث من الكتاب في الآتي :

- حدود العراق القديمة ، وقد استفاد الباحث منه في التمهيد لهذه الدراسة .
- استفاد الباحث في ذكر أحياء بغداد ، وأهمها حي الكرخ ، وقد كان حيا مشتعلا بالأحداث والتي ذكرها الباحث في عدة مواضع في فصول هذه الدراسة .
- الحديث عن بناء الحمامات والحديث عن العادات الصحية بها ، وقد أستفاد الباحث من هذه النقطة في الفصل الخامس من هذه الدراسة والذي كان مخصصا لأحوال العامة .

- **مسكويه ؛ أبو علي أحمد بن محمد بن بن يعقوب**[2] **(ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)**

وقد ولد في فارس ما بين عام ٣٢٠هـ / ٣٢٥هـ - ٩٣٢م/ ٩٣٦م ، وكان يطلق عليه بأبي علي الخازن ، وذلك لأنه كان خازنا لمكتبة ابن العميد وزير ركن الدولة البويهي ، ثم أنتقل لخدمة عضد الدولة البويهي الذي أستخدمه أميناً لمكتبته وفي نفس الوقت كرسول أو سفير .

وبعد وفاة عضد الدولة اتصل بخلفاءه مثل صمصام الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة ، وفي نفس هذا الوقت كان قد تفرغ للتأليف والتدريس ، مستغلاً خبرته السياسية جرّاء إتصاله بسلاطين

---

[1]) ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، مطبعة دار السلام ، بغداد ، ١٣٤٢هـ .

[2]) مسكويه ، تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تحقيق سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٣م ، الجزء الخامس .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدولة البويهية ، ومعاصرته لكواليس الأحداث السياسية وإطلاعه على المؤلفات السابقة ومن هنا جاء أهمية مصنفه " تجارب الأمم وتعاقب الهمم " ، ولقد كان مسكويه غزير التأليف حيث أحصيله حوالي ٣٣ مصنفاً

إلا أن مصنفه هذا هو من بقي ، وهذا من حسن حظ المؤرخين المحدثين بلا شك .

ولقد أستفاد الباحث من هذا المصنف إستفادة قصوي في عدة مواضيع هامة شغلت الباحث أثناء الكتابة ، فلقد حوي كتاب مسكويه ومن بعده ذيله والذي سنتحدث عنه بعد قليل العديد من المعلومات القيمة عن الدولة البويهية ، وفيما يلي توضيح للإستفادة من هذا الكتاب :

- الأحداث السياسية والعلاقات بين البويهيين والعباسيين ، سواء كانت علاقات طيبة أو غير ذلك من المصادرات للخلفاء وإذلالهم في بعض الاحيان .

- أستفاد الباحث من نقطة المصادرات المالية ، فلقد أورد مسكويه العديد من المصادرات المالية للخلفاء ، ورجال الدولة من القضاة أو رجال الشرطة او الوزراء أو غيرهم ، فلقد اثرت المصادرات في المناخ الاقتصادي للعراق خلال تلك الفترة .

- أورد مسكويه العديد من المعلومات في الشق الاداري للدولة البويهية ، مما أعطي الباحث رؤية أثناء الكتابة عن طبيعة الدولة البويهية الادارية والاقتصادية ، وفلسفتها القائمة علي الاقطاع الزراعي وغيرها من الأمور .

- أورد مسكويه معلومات إقتصادية قيمة عن العراق ، وعن إصلاحات معز الدولة وعضد الدولة الزراعية ، والتحدث عن النظام الضريبي علي البضائع وغيرها وهو مما أفاد الباحث بلا شك .

- أستفاد الباحث من معلومات قيمة حول الاقطاع الزراعي والاستيلاء علي الأراضي الزراعية وتوزيع هذه الأراضي علي الجند البويهيين ، بل وتعليق مسكويه علي هذه السياسة أنه ذات خراب علي العامة والفلاحين بالأخص ، وقد أوردها الباحث في عدة مواضع من فصول هذه الدراسة .

- بالرغم من ميول مسكويه الشيعية ، إلا انه لم يكن مناصراً للدولة البويهية ، بل تحدث في عدة مواضع عن سياسة الدولة المخربة في بعض الأحيان ، إلا أنه لم يورد مثلاً الفتن بين السنة والشيعة ، فقد آثر فيما يبدو التركيز علي الحياة السياسية والاقتصادية والادارية للدولة البويهية وعلاقتها بخلفاء بني العباس .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **ابن العمراني ؛ محمد بن علي بن محمد ،ت (٥٨٠هـ / ١١٨٥م)**[1] ، وقد اعتمد الباحث علي المخطوطة التي نشرها الدكتور قاسم السامرائي وقام بالتقديم والتحقيق فيها ، حيث تحدث السامرائي علي عدة مخطوطات لهذا الكتاب تجاوزت الخمس ، من ضمنها نسخة لايدن ، واسطنبول مجموعة فاتح او مجموعة بايزيد ، هذا إلي جانب نسخة باريس والتي ذكرها في مقدمة التحقيق لهذا الكتاب المشار آنفا .

وابن العمراني هو محمد بن علي بن محمد الرئيس ، وقد سمي الرئيس لأنه كان رئيسا أو واليا لميدنة سرخس في عهد السلطان سنجر السلجوقي ، وقد نقل الدكتور السامرائي عدة ترجمات له عند الذهبي والسيوطي وابن الفوطي وغيرهم موجودة في مقدمة التحقيق .

وما يهم الباحث في هذا المقام تناول ابن العمراني للتاريخ ؛ خاصة تاريخ الخلفاء ، حيث كان الكتاب مخصص لتاريخ الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين وهو ما يهم الباحث ، فلقد كان ابن العمراني مميزا في تناوله لتاريخ الخلفاء ، فقد كان يورد نسب الخلفاء ثم الأحداث التي جرت في عهدهم ، وقد أستفاد الباحث من هذا الكتاب في :

- الحديث خلفاء بني العباس المعاصرين للدولة البويهية والسلجوقية علي السواء.
- الاستفادة من الأحداث السياسية الخاصة بالخلفاء ، ولقد كان الكتاب غنيا بهذه الأهداث التي سدت فجوة كتاب آخر وهو تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي والذي أعتمد عليه الباحث أيضا ، لكن ابن العمراني كان متقدماً في كتابة التاريخ وعن وروده أحداث لم ينقلها السيوطي في مصنفه .

- **ابن الأثير ؛ عز الدين أبو الحسن علي بن ابي الكرم محمد الجزري ؛ ت (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) ومصنفه الأشهر الكامل في التاريخ**[2]؛ وقد أعتمد الباحث علي نسخة هذا الكتاب من نشر دار الكتب العلمية في بيروت ، والتي حققها الدكتور محمد يوسف الدقاق عام ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، الأجزاء ٧ و٨ و٩ و١٠ .

وكتاب الكامل في التاريخ يعتبر من كتب التاريخ العام ، حيث لم يخصص مصنفات خاصة بالعراق أو خاصة بالعصرين البويهي والسلجوقي كمصنفات كثيرة من ضمنها مصنفات ابن

---

[1]) ابن العمراني ؛ (محمد بن علي بن محمد)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

[2]) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧هـــ / ١٩٨٧م ، الأجزاء ٧ و٨ و٩ و١٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجوزي ، لكنه اعتمد علي السرد الحولي علي السنوات الهجرية ، بحيث يذكر أهم الأحداث السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية في شذرات في جميع البلدان الاسلامية تقريبا ، ومن ضمنها العراق والخلافة العباسية بلا أدني شك .

وقد أستفاد الباحث من الأجزاء ٧ و٨ و٩ و١٠ من هذا الكتاب في عدة مواضيع منها :

- الأحداث السياسية في العصرين البويهي والسلجوقي ، وعلاقات السلاطين البويهيين والسلاجقة بالخلافة العباسية ، والحروب التي دارت بين جميع هذه الأطراف .

- أستفاد الباحث من حوادث كل سنة ، حيث أورد ابن الاثير شذرات بسيطة عن الأحوال الاقتصادية والمجاعات والأوبئة والأمراض التي ضربت العراق خلال تلك الفترة ، فقد كانت شذرات بسيطة لكنها أفادت الباحث كثيرا .

- أورد ابن الاثير العديد من الأحداث التي لم يذكرها ابن الجوزي في مصنفات ، او مسكويه أو غيرهما ، مما غطي فجوة في الأحداث قد كانت ستحدث لو لم يقم الباحث بالاستعانة به .

ابن كثير[1] ؛ أبي الفداء إسماعيل بن كثير المتوفي عام ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م :

ويعتبر ابن كثير من المؤرخين الذين أعتمدوا علي النظام الحولي في السرد التاريخي ، خاصة في كتابه البداة والنهاية ، والتي أرخت لتاريخ البشرية من لدن آدم حتي وفاته في عام ٧٧٤هـ ، وقد اهتم كغره من مؤرخي التاريخ العام لذكر تاريخ البلدان الإسلامية وكانتا الدولتين البويهية والسلجوقية بلا شك في صدر تلك الكتابات .

ومن الملاحظ أن الإمام ابن كثر من المؤرخين المتأخرين في ذكره للأحداث ، فكثيرا ما وجد الباحث أنه ينقل بالنص من ابن الجوزي خاصة في الأحداث التي تتعلق بالظواهر الطبيعية أو الإجتماعية مثل الفتن المتلاحقة بين السنة والشيعة ، أو هجمات العياريون في الأحياء البغدادية ، أو الحديث عن بعض الأحداث السياسية التي رواها ابن الجوزي وكان شاهداً علها ، وقد ذكر ابن كثير أن ينقل عن ابن الجوزي خاصة كتاب المنتظم المشار إليه آنفاً ، وهو ما يطمئن الباحث لرواية ابن كثير أو بالأدق تعضيد رواية ابن الجوزي بآخر من المتأخرين ، وتعضيد الرواية التاريخية لمتن الدراسة .

وقد أعتمد الباحث على الأجزاء الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر من كتاب البداية والنهاية ، طبعة دار ابن كثير للنشر في بيروت لعام ٢٠١٠م ، ، وتغطي هذه الأجزاء الثلاث الفترة

---

[1]) أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، البداية والنهاية، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط و بشار عواد معروف ،نشر دار ابن كثير ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١٠م ، الأجزاء ١٢ و١٣ و١٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشار إليها في البحث وهي القرن الرابع والخامس والسادس من الهجرة ، وهي مرحلة الدولتين البويهية والسلجوقية حتي نهايتها .

وقد أستفاد الباحث من كتاب البداية والنهاية في النقاط التالية :

- في السرد الحولي حول الفتن بين السنة والشيعة ، والخسائر التي لحقت بالطرفين والأحداث التفصيلية التي تمت بنيهما .
- في الحديث عن العيارين والشطّار وهجماتهم علي أحياء بغداد ، وفي هذا نقل كثيرا عن ابن الجوزي .
- في الحديث عن الزلازل والظواهر الطبيعية والفيضانات والسيول التي أفرد لها الباحث الفصل الرابع .

ثانيا : المصادر الجغرافية :

ابن حوقل ؛ أبي القاسم بن حوقل النصيبي [1]: ت (٣٦٧هـ / ٩٧٧م)

يعتبر ابن حوقل النصيبي وكتابه صورة الأرض من أهم المصادر التي أعتمد عليه الباحث في جغرافيا العراق سواء في التمهيد لهذه الدراسة ، او في خلال الفصول بحيث تعريف المدن الهامة في العراق ، أو النواحي الإقتصادية في هذه المدن من حيث الموارد الزراعية والصناعية والتجارية .

ويعتبر كتاب صورة الأرض من المصادر الجغرافية المعاصرة لفترة البويهيين في العراق والحمدانيين في الجزيرة الفراتية ، فهو كمصدر عام جغرافي تحدث عن أقاليم البلدان الاسلامي ومن ضمنه العراق ، إلا أنه يتحدث حتي عهد البويهيين وتحديدا في أوائل هذا العهد ، لكنه يفصل بعد ذلك من خلال ناسخ الكتاب الذي يبدو أنه عاش وكتب المخطوطة الرئيسية للكتاب بعد تاريخ وفاة ابن حوقل .

وقد أستفاد الباحث من خلال الكتاب في :

- التحدث عن الموارد الإقتصادية خاصة في مدن العراق المختلفة قبيل دخول البويهيين العراق وحتي دخولهم ، كما أستفاد من توضيح السياسة الإقتصادية لهم في العراق لا سيما السياسة الزراعية ، كما أستفاد من توضيح سياسة الحمدانيين الزراعية وكيف كان الجور والعسف الإقتصادي سببا في الخراب والأزمات الاقتصادية المتلاحقة .

---

[1]) ابن حوقل النصيبي ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة للطبع والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٢م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- توضيح جغرافية المدن العراقية والجزرية المختلفة من تحديد الأماكن وبناء هذه المدن ، وكان الكتاب وافرا في المعلومات بحيث أعطي للباحث فرصة في عرض جغرافية هذه المدن من الناحية الإقتصادية علي وجه الخصوص .

المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد) ؛ ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م

يعتبر كتاب المقدسي المعروف بالبشاري والموسوم بأحسن التقاسيم[١] في معرفة الأقاليم من الكتب المهمة التي أعتمد عليها الباحث في الجزء الخاص بالتمهيد لهذه الدراسة ، حيث كان من البلدا التي أهتم بها المقدسي في كتابه العراق حيث كان يقسم كتابه إلي وصف تفصيلي لأقاليم إسلامية شتي وفي القلب منها بلد الخلافة العراق وفيما يلي النقاط الهامة التي أستفاد منها الباحث في هذا الكتاب:

- وصف تفصيلي لجغرافية العراق خلال العصر البويهي والعصر السابق له ، حيث وصف المقدسي العراق جغرافياً وبشرياً وإقتصادياً ، حيث قدم خريطة متكاملة من اهم المدن العراقية مثل بغداد والكوفة والبصرة والموصل وغيرها من المناطق والمدن .
- كان الكتاب دقيقاً في وصف الأمور الإقتصادية مما أفاد الكتاب ، حيث تحدث عن الخراج والضرائب وأهم المحاصيل الزراعية ، وأهم طرق الري المرتبطة بالزراعة وغيرها .
- تحدث الكتاب عن الأحوال الجوية والطقس وما تتميز به مدن العراق ، حيث أستفاد الباحث من أخذ صورة كاملة عن الطقس خلال تلك الفترة ، وكيفية تأثير ذلك علي إقتصاد العراق .

ثالثا: كتب الرحالة :

- **ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير)[٢]؛ ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م**

ومن ضمن الكتب الهامة التي اعتمد عليها الباحث كتاب رحلة ابن جبير ، وابن جبير كان من علماء الأندلس حيث ولد في مدينة بلنسية وأنتقل إلي شاطبة حيث تلقي العلم ، وقد قام برحلته إلي المشرق التي أستمرت حوالي ثلاث سنوات دوّن فيها اهم المشاهدات التي رأها حيث الأحوال السياسية والعمرانية والإجتماعية والإقتصادية .

---

[١]) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نشر مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

[٢]) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، نشر دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ب ت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد أستفاد الباحث من هذه الرحلة خاصة مشاهدات ابن جبير في العراق التي زارها في الفترة التي تناولتها الدراسة ، حيث زار كل من مدينة الكوفة والحلة وبغداد ثم أنتقل إلي الموصل ونصيبين وغيرهما من بلاد الجزيرة الفراتية .

ويمكن تلخيص الإستفادة من هذا المصنف في النقاط التالية :

- وصف تفصيلي لطريق الحج العراقية حيث قام ابن جبير بأداء فريضة الحج ثم الذهاب إلي العراق من هذا الطريق ، وقد تناولت الدراسة إغلاق طريق الحج بسبب الاضطرابات الأمنية التي نتجت عن بعض الأزمات السياسية .
- وصف ابن جبير مدينتي الكوفة والنجف وأعطي صورة تفصيلية حقيقية عن نتائج الأزمات الإقتصادية التي مرت علي جنوب العراق حيث الخراب الذي حل بمدينة الكوفة جرّاء غزوات البدو المتكررة والتي تناولتها الرسالة في شذرات متناثرة .
- وصف ابن جبير لبغداد دار الخلافة بالتفصيل ، مما أعطي للباحث معلومات عن بغداد التي كانت صورة مصغرة لأحوال العراق في تلك الفترة ، وقد أعطي لنا ابن جبير صورة عن أحوال الاسواق والمعاملات التجارية بها ، كما وصف النواحي العمرانية بها مثل الحمامات والمساجد، بالغضافة إلي حديثه عن دار الخلافة وكان وصفا وافياً.
- أفاد الباحث في النواحي الإقتصادية لمدن الموصل ونصيبين وتكريت وغيرهم من مدن الجزيرة الفراتية إلي جانب وصف تفصيلي للقري وأسواقها والنواحي العمرانية مما أعطي صورة كاملة عن احوال الجزيرة في فترة أواخر الدولة السلجوقية .

ناصر خسرو علوي؛ ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م [١]:

يعتبر كتابه سفر نامة من اهم كتب الرحلة في عهد السلاجقة ، حيث قام ناصر خسرو بعدة رحلات غلي بلاد المشرق الإسلامي وكانت من اهم البلدان التي زارها ووصفها وصفاً شيقاً مصر والشام والعراق بالإضافة إلي مكة والمدينة وغيرهما من المدن .

وقد أستفاد الباحث من هذا المصنف من خلال النقاط التالية :

- في وصفه لمدينة البصرة ، وهي المدينة العراقية التي وصل إليها ناصر خسرو في طريقه من مكة إلي إيران ، وقد قدم وصف عمراني هام للمدينة من أسوارها وتخطيطها العمراني كالأسواق والمباني والأحياء البصرية الهامة والتي قدم لها مسحاً جغرافيا بديعاً.

---

[١]) ناصر خسرو علوي ، سفر نامة ، ترجمة يحيي الخشاب ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وصف الأنهار التي تخترق البصرة والميناء المقابل للبصرة المعروف بالأبلة والحركة التجارية الداخلة للمدينة بوصفها أهم المدن التجارية في الجنوب العراقي .

رابعاً :كتب الفقه :

- **الماوردي ؛ أبو الحسن (الاحكام السلطانية والولايات الدينية)** [١]

وهو من أهم كتب الفقه في عصره ، وتكم اهمية هذا الكتاب في ثلاث أمور كما يراها الباحث الأول أن أبو الحسن الماوردي كان معاصرا للفترة البويهية في العراق بل كان فاعلاً في السياسة والدبلوماسية والوساطة بين الخصوم السياسية في العراق وفي بلاد فارس ، الثاني وهو تأصيل السياسة الشرعية أو الولاية كما يسميها الماوردي نفسه ، ولقد كان الماوردي جزء من كتب فقهية اهتمت بالسياسة الشرعية او إعطاء أحكام خاصة بالحكم والولاية والقضاء وغيرها من مؤسسات الدولة . اما الأمر الثالث الذي يضفي أهمية علي هذا الكتاب وهو ما أستفاد منه الباحث في الأمور الإقتصادية الدقيقة مثل :

- تقسيم الأراضي وإقطاعها من قبل السلطان علي القادة العسكريين والجند بما يعرف بالإقطاع العسكري أو توزيع الأراضي علي الموظفين والوزراء والقضاة وغيرهم بما يعرف بالإقطاع المدني.
- كما أستفاد الباحث من بعض شذرات الكتاب عن الحسبة وأحكامها وإعطاء صورة عامة لحالة الأسواق والمعاملات المالية بها .

خامساً : المراجع :

- **الدوري ؛ عبد العزيز : كتاب تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** [٢]:

يعتبر من أهم المراجع التي أعتمد عليها الباحث خلال كل فصول الدراسة ، فالدكتور عبد العزيز الدوري من خلال هذا الكتاب فصّل وأسرد كل شيء علي حياة العراق الإقتصادية وهو ما فتح للباحث مواضيع وأفكار شتي من خلال دفتي الكتاب ، فيعتبر هذا الكتاب وهو من نشر مركز الدراسات الوحدة العربية ببيروت ، لبنان عام ١٩٩٥ م من الكتب المؤسسة للتاريخ الاقتصادي للعراق خلال فترة العصر العباسي الثاني وبدايات عصر البويهيين .

---

[١]) أبو الحسن الماوردي ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق أحمد مبارك البغدادي ، دار ابن قتيبة ، الكويت ، ١٩٨٩م .

[٢]) عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالكتاب كان يؤرخ للنواحي الاقتصادية والإجتماعية المؤثرة في تاريخ العراق خلال طيلة القرن الرابع الهجري ، وهو ما يغطي فترة كبيرة من مباحث هذه الدراسة وهي التي تتحدث عن عصر البويهيين وسياستهم الاقتصادية والسياسية والتي أثرت علي وجود الأزمات الاقتصادية ، وإن كان لم يفصل الكتاب الحديث عن الأزمات الإقتصادية لكنه كان يؤصل الأسباب وهو ما استفاد منه الباحث بلا شك .

وفيما يلي النقاط الهامة التي أستفاد منها الباحث من خلال هذا الكتاب :

- الحديث عن جغرافية العراق الطبيعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وهو ما نراه مفصلا في فصول هذه الدراسة ، فقد تحدث الدوري عن كل هذه النقاط وأخذ الباحث هذه النقاط بما يخدم فصول الدراسة .

- الحديث عن الأنظمة الاقتصادية والمالية مثل الصيرفة والسفتجة والجهبذة وغيرها من الأنظمة المالية في الاسواق العراقية ، وهو ما نجده في مبحث كامل في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

- أستفاد الباحث من النواحي الاجتماعية التي ذكرها الباحث في عهد البويهيين خاصة العياريين والشطّار وأيضاً أصحاب الحرف ووضعهم الاقتصادي والاجتماعي في ظل حكم الدولة البويهية .

- أستفاد الباحث من خلال الكتاب أيضا الحديث عن نظام الأراضي وسياسة الاقطاع الزراعية العسكرية التي أنتهجها البويهيين والحمدانين والنتائج المترتبة علي الوضع الاقتصادي للعراق عموماً .

- الحديث عن نظام الضرائب البويهية وطرق الجباية ، مثل ضريبة الخراج والعقار والمكوث والإرث والمستغلات وغيرها ، وتبيان طرق جبايتها والظلم الذي كان واقعا علي فئة العامة .

- أستفاد الباحث من قائمة الأسعار التي أوردها الدوري من خلال الكتاب ، وتبيان مستوي معيشة العامة ومساكنهم وطرائق حياتهم لا سيما في العهد البويهي .

- الحديث عن مرتبات الصناع والزراع ودخل التجار والجنود وقادة الجيش ، والفرق بينها وبين دخول الأمراء والوزراء ومستوي معيشة الخلفاء العباسيين سواء قبيل البويهيين أو الخلفاء العباسيين الواقعين تحت تسلط البويهيين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **محمود إسماعيل ؛ سيسولوجيا الفكر الاسلامي [1].**

ويعتبر من الكتب الهامة التي أعتمد عليها الباحث في بعض الفصول لا سيما في الفصل الثاني والخامس من هذه الدراسة ، وكتاب او موسوعة سيسولوجيا الفكر الاسلامي من ضمن الموسوعات التي تناولت التاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للبلدان الاسلامية بشكل مغاير لما تناولته الكتب الأخري ، فربما كانت خلفية الدكتور محمود إسماعيل اليسارية حاضرة بشدة بين دفتي الموسوعة إلا أنها كانت مفيدة في التناول الاجتماعي والاقتصاد للعراق وغيرها من البلدان وفي فترات شتي استفاد منها الباحث في تناول الدراسة .

فقد أستفاد الباحث من الجزئين الثاني والسادس من هذه الموسوعة ، وذلك من خلال النقاط التالية :

- السياسة الاقطاعية العسكرية لكل من الدولة البويهية والسلجوقية في العراق ، وآثارها السياسية علي الخلافة العباسية أو علي النواحي الاقتصادية العامة ، ومدي التدهور ووجود الأزمات الاقتصادية والاجتماعية جراء توزيع الأراضي الزراعية علي القادة العسكريين والرتب العسكرية دون باقي الطبقات .
- أستفاد الباحث من الحديث عن دخول الطبقات الاجماعية التي تناولها إسماعيل ، مثل طبقة الأمراء السلاجقة ومقدار البذخ الذي كان موجودا في تلك الفترة وأثره علي الناحية الاقتصادية .
- الحديث عن السياسة الاقتصادية للبويهيين والسلاجقة علي السواء في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة ، ومقدار التدهور الذي كان موجودا كنتيجة طبيعية للسياسة الاقطاعية وفلسفتها السياسية .
- الحديث علي النواحي الاجتماعية في ظل الأزمات الاقتصادية المتلاحقة التي مرت علي البلدان الاسلامية خاصة العراق .

---

[1]) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، سينا للطباعة والنشر ،بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٠م ، الاجزاء ٢ و٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **فهمي سعد : كتاب العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين [1]:**

وهو من المراجع الهامة التي أعتمد عليها الباحث في الفصل الخامس الذي يتحدث عن حياة العامة ومستوي معيشتهم والدخول المالية لكل من العامة وغيرهم من الطبقات .

فقد تناول الكتاب العامة في بغداد دون غيرهم من مدن العراق ، إلا أنه أفاد الباحث من عدة نقاط منها :

- الحديث عن مستوي المعيشة للعامة في بغداد كمثال علي الحياة التي كان يحياها جميع فئات العامة في كل المدن ، فقد كانت بغداد مرآة صادقة علي جميع مدن العراق في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وقد تحدث الكتاب عن بغداد فقط وفي فترة معينة وهي فترة قبيل البويهيين وحتي أواخر القرن الرابع الهجري ، إلا انه أعطي صورة متكاملة عن تلك الفترة خاصة في مظاهر مستوي المعيشة للعامة مما أفاد الباحث خلال الفصل الخامس من هذه الدراسة .
- الحديث عن الفارق بين الطبقات سواء الطبقة العليا والتي كانت تضم الخلفاء والوزراء وأمراء البويهيين وغيرهم من رجال الادارة والحكومة وبين العامة ، حيث أفاد الباحث من خلال المبحث الأول من الفصل الخامس ، والذي تحدث بشكل رئيسي عن الفارق بين الدخول بين هذه الطبقات والمرتبات التي نالها كل من العامة وغيرهم من الطبقات ومظاهر الترف والبذخ الذي كان يحيا فيه الخلفاء بالرغم من التسلط البويهي عليهم .
- الحديث عن العادات الغذائية والصحية للعامة والتي أفرد لها الكتاب نقاط بحثية أفادت الباحث كثيرا في تلك النقاط خاصة الحديث عن الاطعمة البغدادية المشهورة لا سيما أطعمة العامة البغاددة والتي كانوا يأكلونها في ظل الأزمات الاقتصادية خاصة ، وأيضا الحديث عن الحمامات ومظاهر النظافة الشخصية وجهود الحكومات في تصريف المياة وغيرها من الأمور الصحية .
- الحديث عن الأحياء الخاصة للعامة البغاددة خاصة شكل وتصميم الدور والمساكن وما كان يتوافر من مظاهر صحية في هذه الدور ، وكيف كان يعاني البغاددة في ظل الأزمات من الشوارع الضيقة والأحياء المتكدسة وما قد يعكسه ذلك علي حياتهم في ظل الأزمة وهو ما وضحه الباحث في النقطة البحثية الأخيرة من هذه الدراسة .

---

[1]) فهمي سعد ، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، دار المنتخب العربي ،بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- محمد رجب النجار : الشطّار والعياريين (حكايات في التراث العربي)[1]:

كان من ضمن الكتب الهامة التي أعتمد عليها الاحث في الفصل الثالث من الدراسة خاصة المبحث الذي يتحدث عن العياريين والشطّار ، حيث كان كتاب رجب النجار مؤصلا لهذه الظاهرة خاصة في حكاياتهم الشعبية التي لها مدولات تاريخية خلال الفترة التي تناولتها الدراسة.

فقد تناول الكتاب الجانب الشعبي والروائي والحكائي للعياريين والشطّار ، وهذا بالتوازي مع تاريخ ظهورهم ونشأتهم وتفاعلهم مع مجتمع بغداد الأول ، وتاريخهم وعاداتهم أثناء الأزمات السياسية والاقتصادية قبيل دخول البويهيين وما بعدهم حتي وصولا لحكم السلاجقة للعراق .

ولقد تناول الكتاب أيضا الكتابات التاريخية والأدبية التي تناولت العياريين بالدراسة العميقة مثل كتابات الجاحظ وأبي حيان التوحيدي مما أعطي ثقلا للجانب التاريخي الذي تناول هذه الظاهرة الاجتماعية والتي بينها الكتاب أنها ظاهرة كانت نتاجا للمجتمع ، وهو الرأي الذي تبناه الباحث أثناء الحديث عنهم .

وفيما يلي النقاط التي أستفاد منها الباحث من خلال هذا الكتاب :

- الحديث عن ظهور فئة العياريين والشطّار في التراث العربي سواء الروائي أو التاريخي ، وقد تناول الباحث هذه الفترة بإيجاز كمدخل للموضوع الرئيسي عن العياريين والشطّار .
- أستفاد الباحث من تناول الكتاب لبعض الكتابات التي كانت تتناول ظاهرة العياريين مثل كتابات الجاحظ وأبي حيان التوحيدي وغيرها من الكتابات ، وذلك جعل الباحث يفرد نقطة بحثية خاصة وهي منهج وفلسفة العياريين والكتابات التي أثرت فيهم بشكل واضح او بمعني أدق الجانب المعرفي لهذه الظاهرة .
- أستفاد الباحث من سيرة بعض شخصيات العياريين والتي تناولها الكتاب بالبحث والتدقيق وهو ما أفاد الباحث في طريقة عمل هؤلاء العياريين خاصة أثناء الأزمات .
- في النقطة البحثية الأهم في هذا المبحث وهي السرد الحولي لهجمات العياريين أثناء الأزمات الاقتصادية والسياسية ، هذا إلي جانب الرجوع إلي المصادر الخاصة التي تناولت بالتواريخ والأحداث هذه الهجمات .

[1]) محمد رجب النجار ، الشطّار والعياريين حكايات في التراب العربي ، عالم المعرفة الكويت ، ١٩٨١م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **وفاء محمد علي : الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين [1] :**

وهو من أهم الكتب التي تناولت مظاهر التسلط البويهي علي الخلافة العباسية ، حيث تناول بالبحث العلاقات بين الخلافة العباسية والأمراء البويهيين ، وايضا السيطرة المذهبية علي الدولة العباسية ، وكيف كان البويهيون يأملون في سيطرة المذهب الشيعي علي باقي المذاهب وهو ما أدي إلي نتيجة عكسية من الصراعات الاجتماعية أثرت وبلا شك علي النواحي الاقتصادية .

وقد أستفاد الباحث من بعض النقاط التي تناولها الكتاب من حيث :

- أستفاد الباحث من الكتاب خلال كتاب الفصل الأول خاصة في تناول العلاقات بين الخلفاء العباسيين والأمراء البويهيين ، ومظاهر التسلط السياسي والاقتصادي علي الخلافة العباسية .
- أستفاد الباحث في المبحث الخاص بالمصادرات المالية ، حيث تناول الكتاب المصادرات المالية للخلفاء والوزراء وغيرهم من رجال الدولة ، والتأثيرات الاقتصادية علي النواحي المالية للدولة ومن ثم ظهور الأزمات الاقتصادية المتلاحقة علي العراق .
- أستفاد الباحث من تناول الوزراء البويهيين في الفصل الخامس من الدراسة الذي تحدث عن دخل هؤلاء الوزراء بل والأمراء البويهيين نفسهم ، حيث تناول الكتاب عن مقدار الدخل والبذخ الذين كانوا هؤلاء يعيشون فيه والفرق بينهم وبين دخول الفئات الأخري لا سيما العامة .

سادساً : الدوريات والأبحاث :

- **مها سعيد حميد ؛ الكوارث والأوبئة في الموصل خلال العصر العباسي [2] :**

وهو بحث في مجلة علمية محكمة " دراسات موصلية " العدد ٣٣ بتاريخ ٢٠١١م ، ويتناول البحث بالأساس عن الكوارث الطبيعية والوبائية في مدينة الموصل وأعمالها في الجزيرة الفراتية وعلاقة الدولة الحمدانية بالتعامل مع هذه الكوارث .

وقد تناول البحث بالتفصيل الفيضانات التي ضربت الموصل خلال العصر العباسي ، ومن القلب نه بالطبع الفترة التي تناولتها الدراسة ، كما تناول ظاهرة الجدب وقلة الأمطار والمياة في بعض السنوات مما أدي الي ظهور الأزمات الاقتصادية في نطاق الجزيرة الفراتية ، كما تناول

---

[1]) وفا محمد علي ، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ب ت.

[2]) مها سعيد حميد ، الكوارث والأربئة في الموصل خلال العصر العباسي ، مجلة دراسات موصلية ، العدد ٣٣، جامعة الموصل ، العراق ، ٢٠١١م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البحث والتي أستفاد منه الباحث عموما في سرد الكوارث الطبيعية في الموصل ، الغلاء والمجاعات الناتجة عن الكوارث المائية التي شهدتها الموصل ومدن الجزيرة الاخري .

كما تناول ظاهرة الأوبئة والأمراض المعدية التي أنتشرت جراء الكوارث الطبيعية ، مثل الطواعين والخوانيق ومرض السرسام ، وهذه الأمراض تناولها الباحث خلال الفصل الرابع بالتفصيل وما أدي ذلك ظهور المحن والأزمات الاقتصادية .

كانت مزية البحث بالنسبة للباحث هو تغطية متكاملة في موضوع الفصل الرابع ومباحثه التي تناولت الأمراض والاوبئة والكوارث بأنواعها وأثرها العميق علي الحالة الاقتصادية ، فقد كان هذا البحث وتناوله مدينة الموصل مكملا للباحث في هذا النطاق خاصة أن الموصل ومدن الجزيرة الفراتية الأخري لم يتناولها بعض المصادر المعاصرة بالتفصيل كالكوارث التي حدثت في بغداد علي سبيل المثال .

- مازن صباح عبد الأمير الأعرجي ؛ الإقطاع العسكري وأثره علي الأوضاع الإقتصادية في العراق خلال العصر السلجوقي [1]:

وهو بحث نشرته كلية التربية بالجامعة المستنصرية ببغداد ، ٢٠١٣م ، وقد أستفاد الباحث من خلال البحث في الفصل الثاني من هذه الدراسة والذي تناول الاقطاع بالتفصيل ، فقد تناول البحث تعريف الاقطاع السلجوقي وفلسفته ومنهجيته السياسية ، وإختلافاته عن الاقطاع البويهي في العراق .

كما تناول نشأته علي يد نظام الملك ، وكيف تحول الاقطاع العسكري إلي ضرورة ملحة في اقتصاد دولة السلاجقة ، كما يكمن أهمية البحث بالنسبة للباحث في التوزيع الجغرافي للإقطاع في العراق ، فقد تناول ظاهرة توزيع الأراضي الزراعية في أهم المدن العراقية مثل البصرة والحلة والكوفة وواسط وتكريت ، وهي المدن التي شهدت ظاهرة الاقطاع وآثاره الاقتصادية المباشرة .

ويري الباحث أن هذا البحث قد أستفاد منه كثيرا في الجزء الثاني منه والذي تناول الآثار والنتائج الاقتصادية له وقد وضح ذلك في الفصل الثاني وذلك في خلال النقاط البحثية التالية :

- تأثير الاقطاع علي الخزانة السلجوقية وما أدي ذلك من ظهور أزمات اقتصادية أثرت علي الناس بشكل مباشر وغير مباشر .

---

[1]) مازن صباح عبد الأمير الأعرجي ، الإقطاع العسكري وأثره علي الأوضاع الإقتصادية في العراق خلال العصر السلجوقي ، بحث منشور في كلية التربية بالجامعة المستنصرية ، بغداد ، ٢٠١٣م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وسائل العسف والجور في جباية الأراضي وما يعرف بضمان الاراضي وهو ما أدي إلي غلاء المواد الاساسية في الاسواق .

- تفصيل الضرائب السلجوقية المستحدثة مثل ضريبة المستغلات علي المحال التجارية وضريبة المكوس ، وضريبة العقار ، وحق البيع في الاسواق ، والضرائب علي الثروة الحيوانية ، وأموال البيعة ، وضريبة الخفارة علي القوافل التجارية .

- ظهور ظاهرة الغلاء جراء الاقطاع وتذبذب الاسعار في سنوات كثيرة من سنوات العصر السلجوقي .

- ظاهرة إنخفاض القوة الشرائية للنقود السلجوقية جراء الأزمات الاقتصادية وقد فصل الباحث هذه النقطة تفصيليا في مبحث منفصل .

سابعاً : الرسائل الجامعية :

- **جيهان سعيد الراجحي ؛ الحياة الاجتماعية في بغداد من بداية القرن السادس الهجري حتي سقوط بغداد [١]:**

وهي رسالة ماجستير في جامعة أم القري بمكة المكرمة ، وقد تناولت الرسالة الحياة الاجتماعية في قسم كبير منها في العصر السلجوقي وأواخر هذا العصر حتي نهايته وما بعده حتي سقوط بغداد ، وقد استفاد الباحث من فصول هذه الرسالة في النقاط التالية :

- دور العلماء والفقهاء في الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فقد تناول الباحث في مبحث خاص بدور العلماء في العراق خلال الأزمات الاقتصادية سواء دورهم في التصدي للفساد الاقتصادي ، أو دورهم في حل الصراعات السياسية والوساطات بين الأمراء أو الخليفة والسلطان اثناء الازمات أو الحروب ، أو دورهم في حل المشكلات الاجتماعية مثل الوساطات بين السنة والشيعة .

- تناولت الرسالة أيضا الحالة المعيشية للعامة في مأكلهم وملبسهم ومشربهم ومسكنهم وغيرها من الأمور وهو ما أفاد الباحث في الفصل الخامس من هذه الدراسة .

- تناولت الدراسة حالة بغداد الصحية من حيث تغطية نقطة البيمارستنات أو الحمامات العامة وهو ما أفاد الباحث في تلك الوجوه .

---

[١]) جيهان سعيد الراجحي ، الحياة الإجتماعية في بغداد من بداية القرن السادي الهجري حتي سقوط بغداد ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القري ، مكة المكرمة ، السعودية ، ٢٠٠٦م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ريهان نجدي محروس إبراهيم، عامة البصرة من منتصف القرن الثالث الهجري حتى سقوط الخلافة العباسية[1].

وهي رسالة ماجستير غير منشورة عام ٢٠٠٧م من جامعة طنطا ، وهي بموضوع عامة البصرة في الفترة التي تتحدث عنها الفترة الزمنية التي تتناولها الدراسة ، وهو ما أفاد الباحث في عدة وجوه ومنها :

- تحدثت الرسالة عن الحالة المعيشية للعامة في مدينة البصرة وهي من كبريات المدن العراقية التي تعرضت للأزمة الاقتصادية في أيام البويهيين والسلاجقة ، لذلك استفاد الباحث من الحديث عن مستوي معيشة العامة في البصرة كجزء من مظاهر الأزمة الاقتصادية .

- استفاد الباحث من تناول الرسالة للأطعمة المشهورة في مدينة البصرة والتي تتشابه إلي حد كبير مع بغداد وباقي المدن العراقية ، وكيف كان العامة يتناولون بعض الأطعمة الفقيرة والتي تتناسب مع حالتهم المعيشية .

- استفاد الباحث من هذه الرسالة في الحديث عن التسول والشحاذة والكديّة وهي من مظاهر الفقر التي كانت توجد في صفوف العامة في مدينة البصرة وكذلك في باقي المدن العراقية .

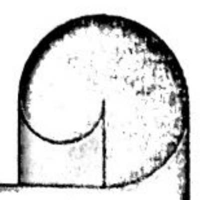
- استفاد الباحث من تناول بعض المهن التي عمل بها العامة في البصرة ومظاهر حياتهم اليومية وهو متشابه بطبيعة الحال في جميع المدن العراقية الأخري .

كان هذا مسحًا لأهم المصادر والمراجع التي رجع إليها الباحث خلال هذه الدراسة .

---

[1]) ريهان نجدي محروس إبراهيم ، عامة البصرة من منتصف القرن الثالث الهجري حتي سقوط الخلافة العباسية ، جامعة طنطا ، ٢٠٠٧م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



التمهيد

العوامل الجغرافية التي أثرت في تاريخ العراق

- مفهوم حدود العراق عند الجغرافيين العرب القدامى
- معنى كلمة العراق وصفاتها في أقوال الجغرافيين
- الجغرافيا الطبيعية للعراق
- الجغرافيا الاقتصادية للعراق
- الجغرافيا الاجتماعية للعراق
- الخريطة السياسية للعراق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هناك بعض النقاط قبل الدخول إلى التمهيد الخاص لهذه الدراسة، والتي تتحدث عن الوضع الاقتصادي الصعب، والمحن التي مرت على العراق، خلال عصرين من أهم العصور التاريخية التي مرت على هذا البلد وهما العصر البويهي ويليه العصر السلجوقي.

وتتركز النقاط بشكل أساسي عن الجغرافيا العراقية بكل ما يعنيه مصطلح الجغرافيا من معاني سواء القديم منها في المصادر الجغرافية العربية، أو الحديث من حيث المصطلحات العلمية الجغرافية التي سوف يستعين بها الباحث خلال التمهيد الذي سيتحدث بشكل أساسي عن الجغرافيا، ولكنها سوف تخدم تاريخ المرحلة التي يتحدث عنها البحث، من حيث الاقتصاد والمجتمع، والأسباب التي شكلت المحن تلك وآثارها الجغرافية البعيدة المدى والتي أثرت في تاريخ العراق عامة، وخاصة.

الجغرافيا الطبيعية للعراق:

تنقسم أراضي العراق طبيعيًا إلى عدة مناطق، لكل منطقة خصائصها الطبيعية والجغرافية وأهميتها من حيث الموقع والمناخ، والطبيعة الاقتصادية، وما يهمنا في هذه النقطة البحثية هو التركيز على هذه المناطق من حيث الناحية الطبيعية وما شملته من أنهار وجبال وخيرات مختلفة.

- **الموقع العام للعراق:** تحدثنا آنفًا عن موقع العراق ونهايته المتداخلة مع الأقاليم المجاورة الأخرى، إلا أننا سنتحدث عن الموقع الجغرافي الداخلي للعراق، حيث بخلاف وجود نهري دجلة والفرات، وروافدهما الكثيرة، وشبكة المياه التي نتجت عن كل هذه الموارد المائية، إلا أن الكثير من أراضي العراق كانت عبارة عن جبال، فنجد أن المنطقة الشرقية من هذه البلاد، كان يوجد بها جبال زاجروس الشديدة الوعورة والتي تفصلها عن خراسان وبلاد فارس عمومًا، أما المناطق الشمالية والتي تعد منابع لنهر دجلة في منطقة آمد وما بعدها فكانت توجد بها جبال طوروس التي تفصلها طبيعيًا عن آسيا الصغرى عمومًا، أما من ناحية الغرب فنجد أن عراق ما بعد منطقة الأنبار غربًا أو القادسية سنجد الصحارى القاحلة الموسومة حديثًا ببادية الشام أو السماوة وهي الصحراء التي تفصلها عن الشام، أما في مناطق الجزيرةفي الشمال والسواد أي وسط العراق، والجنوب حيث السهل الغريني المنخفض فيما بعد بغداد حتى الكوفة والبصرة وعبادان حتى الخليج العربي، فهي مناطق العراق التي شكلتها أنهار دجلة والفرات وروافدهما، وتعتبر أهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المدن نشأت فيها، وهي العراق الحقيقية إذًا[١]، وهي التي سيبدأ الباحث في تقسيمها تفصيليًا خلال النقاط التالية:

- **الجزيرة:** وهي الأراضي الشمالية للعراق، وكما يصفها ابن حوقل أنها الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات[٢]، وكانت طبيعة أراضيها أنها مرتفعة عن الماء،ومما ينبغي قوله إنها أراضٍ جبلية تكثر فيها المراعي الطبيعية، وذلك لسببين هو سهولة وصول الماء بوسائل زراعية بسيطة إلى هذه الأراضي، وأيضًا كثرة أمطارها مقارنة بباقي المناطق العراقية، لذلك تكثر القرى والمزارع في منطقة الجزيرة ككل[٣].

أما موقع الجزيرة فكما قلنا آنفًا،إن الجغرافيين العرب القدامى اختلفوا في حدودها خاصة الشمالية منها التي وصلت إلى آمد وسنجار وربما ملطية إلى منطقة سمسياط[٤]غربًا،على أن الاتفاق كان على حدودها الجنوبية عند مدينة تكريت[٥]، وكانت المناطق الشمالية من الجزيرة سهلية،خاصة منطقة جبل عبد العزيز ومدينة سنجار[٦] التي تختلف طبيعيًا عن باقي الجزيرة التي أشرنا أنها أراضٍ جبلية أو مرتفعة عن مستوى الأنهار،على الرغم من كثرة روافد دجلة التي تصب في كل مناطق الجزيرة ماعدا منطقة ديالي.

ولم تكن للجزيرة موانع طبيعية لاختراقها سواء من الجنوب أو الغرب أو الشمال، وربما كانت سلاسل جبال زاجروس الشرقية هي المانع الطبيعي الوحيد باتجاه بلاد فارس وخراسان.

أما عن الأنهار فيخترق نهري دجلة والفرات الجزيرة من المناطق الشمالية نحو اتجاه الجنوب، هذا إلى جانب العديد من الروافد مثل رافد الهرماس الآتي من نصيبين، وكان رافدًا لرافد أكبر

---

(١)ليسترج، بلدان الخلافة، ص٤٧.

(٢)ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٨٩.

(٣)وهذا حسب وصف ابن حوقل في صورة الأرض حيث فصّل وصفها في قسم خاص بها ؛ انظر المصدر السابق، ص١٨٩ وما يليها.

(٤)سُمسياط: مدينة علي طرف بلاد الروم وتقع على شاطيء الفرات، ولها قلعة يسكنها الأرمن، وتعتبر من المدن الثغرية في وصف ياقوت الحموي ؛ انظر شهاب الدين أبي عبد الله (ياقوت الحموي)، معجم البلدان، مجلد ٣، دار صادر، بيروت، ب ت، ص٢٥٨.

(٥)تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب حيث تبعد عنها ثلاثون فرسخا (تقريبا ١٥٠ كم) وتقع غربي دجلة ولها قلعة حصينة، وفُتحت في عهد عمر عام ١٦هـ ؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، مجلد ٢، ص٣٩.

(٦)سنجار: مدينة من مدن الجزيرة الفراتية وتقع على سفح جبل خصب ولها أنهار جارية وعيون مطردة، وتشتهر بفاكهتها الصيفية، وعليها سور يمنع عن أهلها تظافرهم ؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منه يدعى الخابور الذي يعد نهيرًا صغيرًا من ضمن أنهار الفرات، وكان يصب فيه عند منطقة قريقساء، أما مياه الهرماس فتصب جنوبًا في دجلة عند تكريت بعدما تمر بوادي الثرثار[١].

- **نهري دجلة والفرات:** ومخارج هذه الأنهار أو منابعها من أقصى الشمال،ليخترق الجزيرة ثم العراق كله حتى يصب في الخليج العربي أقصى الجنوب، فأما منبع دجلة فهو يأتي من جبال آمد، التي يعدها ابن خرداذبة من ديار الجزيرة[٢]، حيث يأتي الماء من نواحي أرمينية مرورًا بجبال السلسلة وآمد ثم تخترق الجزيرة جنوبًا نحو تكريت آخر نهايات أرض الجزيرة وينشق منه بعض الروافد مثل الزابين والنهروان والصراتين،حتى يصبوا جميعًا في البطائح[٣]، ثم يكمل طريقه جنوبًا حتى يصل إلى الأبلة ومنها إلى مصبه الأخير في مياه الخليج.

وتعتبر مياه نهر دجلة التي تخرج من منابعه حتى تصل إلى سامراء[٤] في وسط العراق، يخترق مناطق مرتفعة جغرافيًّا عن مستوى النهر،لكنها لا تسمح بحفر القنوات في هذه المناطق، غير أن معظم روافد دجلة كانت في هذه المنطقة، لذلك لم تتأثر بالفيضانات الكثيرة التي حدثت في تاريخ العراق كمنطقة الجنوب.

أما بعد سامراء، فيصل دجلة إلى السهل الرسوبي الذي يبدأ من بغداد ثم السواد ثم جنوبًا نحو المدن الجنوبية لا سيما البصرة[٥]والكوفة[٦]، حيث تغمر مياه النهر هذه المناطق، خاصة ما بين بين الفلوجة والديوانية مرورًا بالكوت أو ماداريا (كوت العمارة) لذلك كانت هذه المناطق من أشد

---

(١)ليسترنج، بلدان الخلافة، ص٤٢ و٤٣ و٤٤.

(٢)ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٠٨.

(٣)البطائح: منطقة عراقية يوجد فيها أغلب السواد، وسميت بطيحة واسط وكانت تعني الأرض التي تبطحت فيها الماء أي سالت ثم اتسعت الأرض بسبب ذلك (وهو ما يدل على خصب هذه الأراضي حيث تجمع الماء فيها) وهي قرى عامرة متصلة بين واسط والبصرة جنوبا ؛ انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد ١، ص٤٥٠.

(٤)سامراء: مدينة أسسها المعتصم بالله بن هارون الرشيد في حدود عام ٢٢١هـ / ٨٣٦م، لتكون مستقرا للخلفاء من بعده مدة من الزمن، وكانت تضاهي بغداد في المكانة وعظمة جامعها ومبانيها ؛ انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٢٢؛ انظر أيضًا وصفها في ؛ أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح (اليعقوبي)، كتاب البلدان، طبعة ليدن، إنجلترا، ١٨٩٣م، ص٢٣ وما يليها.

(٥)البصرة: أجلّ مدن العراق، ومعنى الاسم كما أورده ياقوت الحموي أنها الأرض الغليظة ذات الأحجار الكبيرة، اتخذها المسلمون مصرا بعد فتح العراق في عهد عمر بن الخطاب ؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد١، ص٤٣١؛ انظر أيضًا المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١١٧.

(٦)الكوفة: قصبة جليلة، حسنة البناء، جليلة الأسواق، كثيرة الخيرات، مصرها سعد بن أبي وقاص أيام عمر رضي الله عنهما، ويعني اسم الكوفة الرمل الذي خالطه الحصى، وكانت الكوفة في موضع مدينة الحيرة قديما ؛ المقدسي، المصدر السابق، ص١١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المناطق تضررًا أثناء فترة الفيضان والزيادات[١]التي حفل بها نهر دجلة خلال المرحلةالتاريخية مناط البحث.

أما نهر الفرات، فيأتي من بلاد الروم حيث منطقة قيلقية، مرورًا بملطية ثم سمسياط أول حدود الجزيرة الفراتية، ثم يصل بطريقه إلى وسط العراق حيث السواد ومدنه، ثم بغداد، ثم يصل إلى الكوفة ويصب في دجلة ثم في مياه الخليج العربي[٢].

ويتكون الغرين بكميات كبيرة أثناء الفيضان الموسمي لهذين النهرين، وتحمل مياه النهرين الغرين إلى روافدهما مما يشكل أراضي خصبة خاصة في منطقة البطائح، أو السواد، فمنطقة البطيحة تكاد تكون في كل كتابات الجغرافيين العرب مكونة من غرين النهرين.

أما عن بعض أسماء الروافد وأماكنها فيفصلها ابن خرداذبة، حيث أشار إلى أن بعض الروافد تأتي من منابع النهرين وتصب فيهما مرة أخرى بعد اختراقها لبعض الأراضي[٣]، مثل الثرثار والهرماس فهما من روافد نهر الفرات ويصبان فيه، هذا إلى جانب نهير الخابور، أكبر روافد دجلة الذي يأتي من منطقة رأس العين ويرتبط به الهرماس والثرثار ليشكلوا المئات من الجداول المائية حتى يصب في مياه دجلة بعد اختراقه لبعض الأراضي الزراعية،ورافدي الزاب الأعلى والأسفل، فالأعلىيصب في نهر دجلة أيضًا عند مدينة الحديثة، أما الأسفل والذي يسميه العراقيين بالمجنون لحدة جريانه فيصب في منطقة السن[٤]، ويصبرافد آخر يذكره ابن خرداذبة يسمى البليخ ويصب في جنوب الرقة-إحدى مدن الجزيرة- مباشرة في نهر الفرات[٥]، أما نهر عيسى فهو نهر واصل بين النهرين الكبيرين، حيث يخرج من الفرات ويخترق بغداد عرضيًا إلى نهر دجلة فيصب فيه،إذ يذكر المستشرق الإنجليزي لسترنج أن الخليفة أبو جعفر المنصور[٦] ابتنى بغداد عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م على مصب هذا النهر بشكل رئيس[٧]، لكن الخطيب البغدادي البغدادي يذكر أن عيسى بن علي الأمير العباسي هو من حفر القناة المسماة بنهر عيسى،

---

(١) لسترنج، بلدان الخلافة، ص٥٧.

(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٤٢١ ؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٧٣.

(٣) نفس المصدر السابق، ص١٧٥.

(٤) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٧٥.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٦) أبو جعفر المنصور: أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن العباس بن عبد المطلب، الخليفة العباسي الثاني، الثاني، تولي من عام ١٣٦هـــ حتى ١٥٨هـــ ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار بن حزم، ط ١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ص٢٠٦.

(٧)لسترنج، بلدان الخلافة، ص٤٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتي كانت تصل النهرين وكان قصره مطلًّا عليها، وكان يصل من منطقة الفرسويج مرورًا برستاق الكرخ ودار القطيعة والبطيخ وغيرها من المناطق البغدادية والتي ذكرها الخطيب البغدادي[١].

ولم يكن نهر عيسى هو الرافد الوحيد الذي يخترق بغداد، فنجد أن روافد أخرى أشار إليها المقدسي في "أحسن التقاسيم" مثل رافد الصرصر، ونهر الملك الذي يأتي من بلدة الفلوجة ثم ينتهي إلى الجنوب من بغداد، وكوثي، وكلها تصب في دجلة في اتجاه الجنوب[٢].

- **البطيحة والسواد**:يتشكل وسط العراق فيما بعد حدود الجزيرة الفراتية عند مدن تكريت والسن والحديث، من منطقة البطائح أو السواد العراقي والذي كان يشكل أخصب مناطق العراق طرًّا،حيث كانت هذه الأراضي ذات منفعة اقتصادية عالية، فالبطيحة عمومًا تشكلت من غرين كلٍّ من دجلة والفرات،فهي تعتبر ابنة لهذين النهرين، فالمراعي كثيرة وغنية[٣]، ومعظم القرى الزراعية العراقية في هذه المنطقة، وحدود البطيحة من تكريت في الشمال حتى حدود البصرة تقريبًا، أي إن وسط العراق وجزء كبير من جنوبها يقع في البطائح، وهي التسمية الجغرافية في معظم المصادر العربية القديمة، أما مصطلح السواد، فهو متداخل كالعادة، وكان يطلق على عموم الأراضي الزراعية العراقية، وسمي سوادًا بسبب سواد التربة الزراعية، وقُسم إلى عدة مناطق، حيث المنطقة الأولى الواقعة شرق نهر دجلة وتروى بمياه هذا النهر من مدينة الدور حتى مدينة مادريا أو الكوت[٤]، أما المنطقة الثانية والتي ترويها مياه دجلة والفرات وهي الواقعة بين البطيحة غربًا ومادرايا (الكوت) شمالًا والخليج العربي جنوبًا أي إنها تشمل جزءًا من منطقة البطيحة والجنوب العراقي كله حتى الأبلة في أقصى الجنوب، أما المنطقة الثالثة في المنطقة الوسط بين النهرين وهي الأغزر إنتاجًا والأخصب أرضًا على الإطلاق، حيث كانت تقع من الأنبار والدور شمالًا حتى البطيحة جنوبًا، وتعتمد فيريها المباشر على رافد الدجيل الخارج من نهر دجلة[٥].

(١)الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص٤٠٥.

(٢)المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٢٤.

(٣)عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،١٩٩٥م، ص٢٣.

(٤)نفس المرجع السابق، ص٢٨.

(٥) ليسترنج، بلدان الخلافة، ص٤٣ و٤٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **جنوب العراق**:وأهم مدنها الكوفة والبصرة، فهي العواصم التاريخية للعراق، والتي شهدت مسيرة الفتح العربي الأول لها، فتتكون جنوب العراق من امتداد السهل الرسوبي لنهر دجلة والفرات، حيث يخترق النهرين الآتيين من وسط العراق إلى جنوبها حتى تخترق البصرة وما جاورها وتذهب إلى الخليج لتنتهي رحلة النهرين في المصب الأخير.

إذ أشرنا آنفًا إلى أن النهرين يلتقيانفي البطيحة والتي تقع حدودها مع أحواز البصرة ثم ينتهي الاثنان في الخليج، وهذا يؤدي إلى خصوبة التربة، فهي على أي حال امتداد للسواد وخصوبته، أما مناخها فهو أجف وأشد قسوة مع وسط العراق والجزيرة الفراتية، حيث يتميز بالمناخ الجاف، وعدم سقوط الأمطار[١]، لذلك يعتمد القطاع الزراعي على مورد مياه الأمطار، وسنرى فيما بعد أن البصرة تعرضت لموجات من الحر والقيظ يذهب ضحيتها السكان في بعض الأحيان[٢].

أما الطبيعة الأرضية، فهي بطبيعة الحال سهلية، رسوبية، بسبب الأنهار، فنجد أننا كلما اتجهنا جنوبًا سنجد أن الأرض تنخفض،حتى يتساوى منسوبها مع مياه الخليج العربي، وهو ما أدىإلى تعرض الجنوب العراقي لفيضانات مدمرة في حال زيادة أي من النهرين وهو ما سنتعرف عليه في حينه.

صفوة القول؛ كانت العراق واحة خضراء في وسط منطقة قاحلة، أو في قول آخر بلد زراعي يحيطه الجبال والصحارى من جهات عديدة، حيث جبال طوروس الوعرة في الشمال والتي تفصلها عن آسيا الصغرى، وشرقًا جبال زاجروس التي تفصلها عن إقليم فارس، أما غربًا بادية الشام التي تفصلها عن بلاد الشام، وجنوبًا الخليج العربي وامتداد صحراء الجزيرة العربية، أي يحيطها الصحارى والجبال من أربع جهات، أما في وسط ذلك نجد أن نهري الفرات ودجلة كانا السبب في وجود حياة اقتصادية ومن ثمَّ حضارية في العراق.

الخريطة السياسية للعراق:

بقي لنا النقطة الأخيرة في هذا التمهيد، وهي الخريطة السياسية للعراق قبيل الدخول البويهي للعراق، في محاولة جادة لمعرفة الوضع السياسي المؤثر في ظهور الأزمات والمحن التي مرت

---

[١] لذلك نرى أن زراعة قصب السكر كانت متوفرة في البصرة والسباخ التي يليها من أعمالها، لأنها تعتمد على الري الاصطناعي من الدرجة الأولى بسبب قلة المطر ؛ انظر الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٨٢.

[٢] سيذكر الباحث بالتفصيل في الفصل الرابع من هذه الدراسة عن موجات الحر خاصة في الجنوب العراقي وأثرها في ظهور المحن الاقتصادية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالعراق، وسيكون تمهيدًا خاصًا يبرز الحالة السياسية والتي كانت متردية،حتى تكتمل الصورة للباحث للحديث عن المحن والأزمات في العصرين اللذين تليا هذا العصر ويكون مكمل لهما.

وسيعتمد الباحث على التوزيع السياسي الجغرافي للعراق،على عدم الخوض في تفصيلات سياسية قبيل الدخول البويهي للعراق، بل الحديث عن شذرات عن التوزيع السياسي الجغرافي ومعرفة الأحوال قبيل دخول البويهي بغداد، وسيتم تقسيمها حسب المناطق العراقية وتقسيم مناطق النفوذ بين بعض القوى السياسية التي تحكمت في تاريخ العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ويمكن تقسيمهم للآتي:

- **الخلافة العباسية:**وهي القوى السياسية المتنفذة في الأمور السياسية للعراق، وصاحبة النفوذ الأعلى حتى لو كان شكليًا في تلك المرحلة، فقد مرت الخلافة العباسية بمنعطفات ومحطات تاريخية مهمة، كونت شكلها النهائي في عهد التسلط البويهي ومن بعده السلجوقي، هذه المحطات التاريخية، يمكن تلخيصها في التسلط العسكري للعنصر التركي في مقدرات الخلافة العباسية، وتقويض نفوذها السياسي، ولم يتبق سوى النفوذ الروحي، بعدما تعرضت الخلافة قبل هذا التسلط وبعده إلى اجتزاء ممتلكاتها إلى دول مستقلة.

ويعتبر عام ٢٤٧هـ/ ٨٦١معام فاصل في تاريخ الخلافة العباسية المديد، وهو العام الذي ارتكب فيه الجند الأتراك اغتيالهم للخليفة المتوكل[١]، وهذه كانت قمة العمل العسكري والسياسي للمتنفذين في أمور الجيش والسياسة من الجند الأتراك، الذين رأوا أن الخلافة العباسية على وضعها في عصر المتوكل لا تتناسب مع طموحاتهم في السيطرة والسلطة، ويسمي بعض المؤرخين هذه الفترة التي أعقبت القتل بعصر الفوضى العسكرية، حيث تحكم العسكر التركي في تعيين أربعة من الخلفاء الضعاف على التوالي وهم: المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي[٢].

أما عن قصة الأتراك مع الخلافة فتبدأ باستعانة الخليفة المعتصم بالله بهم، لخلق توازن مع الجند العربي أو إسقاطه بعملية إحلال وتجديد للجيش، بل للمناصب العليا في الدولة، فبعدما انتهت الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، والتي كانت تمثل إحدى محطات الصراع بين الفرس

(١) أبي جعفر محمد بن جرير (الطبري)، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧ م، ص٢٢٢ وما يليها ؛ انظر أيضًا سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٣١ وما يليها ؛ والمتوكل هو جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد، ولد عام ٢٠٧ هـ كان من إنجازاته رفع محنة القرآن وإظهار السنة،بويع بالخلافة ٢٣٠هـ وقتل علي يد الأتراك عام ٢٤٧هـ ؛ انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٤.

(٢) سيدة كاشف، المرجع السابق، ص٣١ و٣٢ و٣٣و ٥١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعرب، والتي انتهت بانتصار الفرس، والذين تحكموا في عصر عبد الله المأمون بالكامل، ثم يجيء عصر جديد، وهو عصر أخيه المعتصم، الذي أدخل العنصر التركي لدوافع سياسية وشخصية على السواء، حيث رأى أن إدخال عنصر جديد إلى الساحة من شأنه ضرب نفوذ الفرس والعرب في مقتل، والقضاء عليهما، وهذا ما حدث، أما عن الدوافع الشخصية، فتتلخص في أن أمه كانت تركية، فبالتالي كان الميل طبيعي مثلما مال من قبله المأمون إلى أمه الفارسية والأمين إلى أمه العربية، ومن هنا جاء الداء الذي أصيبت به الدولة العباسية وهو الحكم القبلي والعرقي حتى آلت الأمورإلى قتل الخليفة نفسه من أجل الطموح الزائد، ومن أجل تحكم العنصر التركي في الأمور السياسية والعسكرية على السواء فيما نسميه عصر الفوضى العسكرية، أو عصر تسلط العسكر على الخلافة، أو العصر العباسي الثاني.

لم يكن المعتصم فقط من استعان بهم، بل نرى أنه كان مجرد فاتحة لدخول العنصر التركي إلى أروقة الخلافة العباسية، وعندما مات المعتصم، جاء خلفه الواثق بالله (٢٢٧هـ-٢٣٢هـ)/ (٨٤١م-٨٤٦م)[١]فاستعان بهم، وزاد عددهم في الجيش، وفي تولي المناصب العليا، ونجد أنه عين أحدهم وهو أشناس التركي[٢] في منصب السلطنة، والذي كان بديلًا جوهريًا للوزارة المتحكمة في الأمور[٣].

وقد استمرت الخلافة العباسية بين شد وجذب مع الجند الأتراك، فتارة نجد أن الخلافة تقوم ببعض المحاولات لتنتعش على حساب النفوذ التركي، وتنجح بالفعل،على أيدي بعض الخلفاء أمثال المعتمد على الله[٤](٢٥٦هـ-٢٧٩هـ)/ (٨٦٩م-٨٩٢م) والمعتضد بالله[٥](٢٧٩هـ-

---

(١)الواثق بالله: هو أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد، ولد عام ١٩٦هـ، تولى الخلافة بعد موت أبيه المعتصم عام ٢٢٧هـ ؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٠.

(٢) أشناس التركي: من أشهر القواد الترك الذين تولوا منصبا جديدا وهو السلطنة في أول عهد الواثق عام ٢٢٧هـ، وكان قد تولى إمارة مصر عام ٢١٩هـ ، وكان له الخطبة بعد الخليفة المعتصم، وامتد نفوذه من بغداد حتى حدود المغرب ؛ انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج ٩، ص ١٢٤ ؛ سيدة كاشف، أحمد بن طولون، ص٤٢.

(٣) السيوطي، المصدر السابق، ص٢٧٠.

(٤) المعتمد على الله: هو أبو العباس أحمد بن جعفر المتوكل، بويع في رجب عام ٢٥٦هـ، وكان من الخلفاء ذوي التدبير، ولكنه كغيره من خلفاء هذا العصر تغلب عليه القواد الترك خاصة وصيف وبُغا، وترجع قوة الخلافة ليس لشخصه بل لأخيه أحمد الموفق الذي قاد الجيوش ودبر الأمر خاصة في محاربة ثورة الزنج ؛ انظر محمد بن علي بن محمد (ابن العمراني)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص١٣٧.

(٥) المعتضد بالله: هو أبو العباس أحمد بن الأمير الموفق بن المتوكل، بويع بالخلافة في عام ٢٧٩هـ كان يتميز بالهمة والعدل ومكارم الأخلاق، وكون جيشا لا بأس به حقق له الأمن والاستقرار وحارب الخارجين على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٨٩هـ)/ (٨٩٢م-٩٠١م) والمكتفي بالله[١](٢٨٩هـ-٢٩٥هـ)/ (٩٠١م-٩٠٧م)؛ فقد عمل هؤلاء الخلفاءعلى قيادة الجيوش ضد الترك، وتقويض نفوذهم السياسي، والاستعانة بالعامة في بغداد وغيرها من المدن إن لزم الأمر ضد القواد الترك[٢].

أما الأمور الداخلية للخلافة في العراق فقد كانت صعبة للغاية، فنجد أن ثورة الزنج على سبيل المثال، كانت من أقوى الثورات التي أقلقت الخلافة العباسية على كيانها، فهذه الثورة التي قادها علي بن محمد الزنجي بداية من عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م[٣]، والتي كان قوامها الزنوج العبيد الذين استجلبوا من شرق إفريقيا للعمل في المزارع والحقول، وقد استمرت هذه الثورة لمدة خمس عشرة سنة، أدت إلى خراب الجهات التي سارت فيها، لا سيما الجنوب العراقي.

أما الفترة الأخيرة قبل التحكم البويهي، فقد كانت سلطة إمرة الأمراء هي الطاغية والمسيطرة على الخلافة العباسية، وقد كان الوضع الاقتصادي هو العنوان المسيطر على الساحة العراقية، وفشلت إمرة الإمارة بقيادة بجكم التركي[٤] في إيجاد حلول اقتصادية ناجعة،فنظرت الخلافة إلى المتحكم في واسط والبصرة الغنيتين وهو ابن رائق[٥]، والذي استدعته الخلافة متمثلة في الخليفة الراضي وكان قائدًا على البصرة وواسط، في محاولة لإنقاذ الموقف وضخ أموال هاتين المنطقتين إلى الخزينة الخلافية، حيث مرت الخلافة بأزمة اقتصادية حادة بحلول عام ٣٢٤هـ/

الدولة وحقق قسطا من الاستقرار الاقتصادي وكان في المجمل ذو سياسة عظيمة ؛ انظر ابن العمراني، المصدر السابق، ص ١٤٠، وأيضًا ؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٩٣.

(١) المكتفي بالله: هو أبو محمد علي بن المعتضد، بويع بالخلافة عام ٢٨٩هـ، وهو الخليفة الوحيد الذي حمل اسم علي، وكان من الخلفاء الأقوياء الذين ردوا المظالم وكان يجلس بنفسه في ديوان المظالم، وقد تخلص من المتغلبين على أمور الحكم خاصة الوزير أبا القاسم بن عبيد الله الذي قتله ليتخلص من تسلطه ؛ انظر السيوطي، المصدر السابق، ص٢٩٨ ؛ ابن العمراني، المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٢) طقوش، الدولة العباسية، ص١٦٧.

(٣) ثورة الزنج: ثورة قادها رجل علوي في قول الطبري ؛ وهو علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى من ولد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وجمع إليه الزنج الذين يكسحون السباخ في البصرة وسوادها؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص ٤١٠.

(٤) بجكم التركي: أمير الجيوش في عهد الراضي، وكان عاقلا لا يفهم العربية، وكان يدفن أمواله في الصحراء، وضاعت هذه الأموال المدفونة بموته، وقد قتل أثناء صيده علي يد مجموعة من الأكراد ؛ انظر ترجمته في أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٤، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣.

(٥) كان السبب في تولية ابن رائق أزمة اقتصادية اجتاحت عموم العراق فتم إقطاعه ضمان واسط والبصرة على أن ينقذ خزينة الخلافة بالأموال ؛ انظر مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص ١٨٨ ؛ وأيضًا، محمد بن يحيى (الصولي)، أخبار الراضي والمتقي لله، تحقيق ج هيورث دن، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م، ص ٧٦ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٩٢٥م، حيث قامت الخلافة بتعيين أربعة وزراء على التوالي وهم: محمد بن علي بن مقلة، عبد الرحمن بن عيسى، سليمان بن الحسن بن مخلد،وابن رائق التركي، وقد فشل الجميع في إيجاد حلول اقتصادية لهذه الأزمات المتتالية[١].

وقد كانت الخلافة العباسية بين أمرين كلاهما مر عليها، وهي الاستعانة بالحمدانيين أصحاب الموصل والجزيرة الفراتية في الشمال العراقي، وكانوا اقتصاديًّا وعسكريًّا أفضل من الخلافة، أو الاستعانة بالبريديين في الأهوازوكانوا يطمعون في البصرة، لكن الخلافة آثرت مؤقتًا عدم اللجوء إلى الاستعانة، والتي كانت سياسة جديدة على الخلافة الضعيفة[٢]، حيث لم تستعن بقوى خارجية عنها من قبل، لكن اللجوء إلى هذه السياسة كان ضروريًّا بعد ذلك وهذا ما سنراه في حالة البويهيين والسلاجقة.

وحقيقة القول؛ أن منصب إمرة الأمراء كان وبالًا على الخلافة، فنجد أن صراعًا كبيرًا كان عليه، خاصة بين ابن رائق وبجكم، والذي انتهى بالتخلص من بجكم حيث قتل في عام ٣٢٩هـ/ ٩٣٠م،ومن قبله بأربعة أشهر أي في نفس العام مات الخليفة الراضي[٣]، وتم تعيين إبراهيم بن جعفر بن المقتدر، وتم تنصيبه باسم المتقي.

خلاصة القول؛ نجد أن الخلافة لم تكن تتحكم في العراق أصلًا، فقد كانت تسيطر على بغداد وأعمالها،حتى هذه البقعة الجغرافية استولىعلى إدارتها منصب أمير الأمراء الذي استحدثه الخليفة الراضي، وكان وبالًا على الخلافة وعلى العامة، وزاد الأمور تعقيدًا خاصة الأمور الاقتصادية، حيث كان هذا المنصب مختص في الأمور الضرائبية والخراجية إلى جانب الأمور الإدارية للدولة.

- **الحمدانيون**:رأينا في العنصر السابق،أن الخلافة العباسية لم تكن لها حول ولا طول في العراق كله، بل إنها سيطرت على الأوضاع في بغداد وأعمالها، وكان منصب إمرة الأمراء هو المتنفذ الحقيقي في الأمور، فماذا عن باقي العراق؟

---

(١) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص٨١ و٨٢ و٨٣ و٨٤ ؛ ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١٦٦ و١٦٧.

(٢) طقوش، الدولة العباسية، ص١٧٠.

(٣) ابن العمراني، المصدر السابق، ص ١٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قسمت العراق إلى مناطق نفوذ بين عدة قوى تحت السيطرة الاسمية للخلافة العباسية في بغداد، ففي الشمال وهو ما سنتحدث عنه في تلك النقطة،سيطر الحمدانيون على الجزيرة الفراتية ومدنها ومن أشهر مدنها الموصل والتي كانت من كبريات تلك المدن.

ينتمي الحمدانيون إلى قبيلة تغلب العربية، وبذلك كانت هذه القبيلة من ضمن قبائل عربية كثيرة سكنت الجزيرة الفراتية وشمال العراق، مثل قبائل بكر وربيعة ومضر وغيرها، ومن هنا جاء دور العرب في الشمال مناقضًا لدورهم في الجنوب والوسط العراقي، حيث نجد أن بغداد وأعمالها ووسط العراق وجنوبه تحكم فيه العنصر التركي ومن قبله الأرسي وبدرجة أقل الديلمي، فجاء العنصر العربي في الجزيرة منفردًا ومتفردًا في السيطرة، فمع أفول نجم الخلافة وتسلط الأتراك عليها، كان العرب وخاصة قبيلة تغلب وزعيمها حمدان بن حمدون تبرز على مسرح الأحداث وتوحد الجهود لبناء إمارة عربية خالصة بعيدة عن السيطرة التركية التي سادت على باقي العراق[١].

وقد مرت على الموصل وباقي مدن الجزيرة أحداث سيئة إبان القرن الثالث الهجري، فمع انشغال الخلافة بالحركة الصفارية في الشرق، وثورة الزنج في الجنوب، كان الشمال يواجه مصيره من الفتن الداخلية والاضطرابات خاصة بين القبائل العربية، وكانت أقواهم بني شيبان وتغلب بقيادة حمدان بن حمدون الذي كان يحذر من بني شيبان ويرى فيهم عدوًا كبيرًا له ولقومه، كما امتد التمرد على الخلافة متمثلًا في مساور بن عبد الحميد الخارجي الذي جمع الأعراب حوله ضد الخلافة، وفشلت الخلافة في القضاء على هذا التمرد، الذي أدى بدوره إلى حالة اقتصادية متردية للغاية[٢].

على أن الحسن بن عبد الله بن حمدان، هو الباني الحقيقي لهذه الإمارة، حيث استبد واستقل بالأمر وبنى دولته على إثر الاضطرابات التي قامت إبان خلافتي المتقي ثم القاهر،وعندما تولى الخليفة الراضي بالله، كانت الجزيرة الفراتية أصبحت تحت سيطرة الحسن، وأصبح ندًا وعدوًا للخلافة، التي لم تقدر على إرجاع الأمر إلى سابقه[٣].

---

(١) أحمد عدوان، الحمدانيون، المنشأة العربية للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٩٨١م، ص٧٣ وما يليها.
(٢) عدوان، الحمدانيون، ص٨٤ و٨٥.
(٣) نفس المرجع السابق، ص ١٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعبت الإمارة الحمدانية في الفترة التاريخية هذه، دورًا محوريًا في الصراع على منصب إمرة الأمراء في بغداد[1]، خاصة ضد البريديين، ومساعدة الخلافة على فك الحصار والأزمة الاقتصادية التي ضربت الخلافة، كما لعبت دورًا مجيدًا في الحفاظ على المناطق الثغرية من البيزنطيين الروم سواء في العراق أو الشام، كما امتدت علاقاتهم مع حكام الشام ومصر من الطولونيين ومن بعدهم الإخشيديين.

أما عن الأحوال الاقتصادية للجزيرة الفراتية في عهدهم،فلا أجد سوى وصف ابن حوقل النصيبي عن الأحوال أنها كانت متردية بسبب الجور والعسف الذي تميزت به السياسة الاقتصادية للإمارة، ففرضت الضرائب على الأرض الزراعية ما أدىإلى هجر الناس لأراضيهم، بل نجد أن سببًا آخر لهذا التدهور كان بسبب الهجمات البيزنطية على المدن الحدودية العراقية، وحالة الحرب التي لا تنتهي بين الطرفين، جعل هذه المناطق تعاني من حالة اقتصادية في الأغلب صعبة[2].

- **القرامطة**[3]:كانت الحركة القرمطية في البحرين وعلى امتداد الخليج العربي، وامتد نفوذها إلى الجنوب العراقي، وكانت تهدف هذه الحركة إلى القضاء على الخلافة وإقامة مشروعها السياسي الخاص بها، فهي تختلف نوعًا وجوهرًا عن الإمارة الحمدانية، التي ظلت إمارة مستقلة تعترف بالخلافة وتساعدها في بعض الأوقات، وبالطبع كان خطرهم أقوى وأعنف من خطر الصراعات الداخلية التي تحدثت عنها آنفًا خاصة بعد ظهور منصب أمير الأمراء وما دار حوله من صراع، بل كان خطر القرامطة، هو الخطر الأعنف الذي واجهته الخلافة على الرغم من ضعفها حيث كان يلتقي هذا الخطر في مبادئه وأهدافه مع خطر الفاطميين على الأقل في المرحلة الأولى[4].

---

(١) نفسه، ١٦٢ وما يليها .

(٢) ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٩١.

(٣) يسميهم ابن الجوزي في مقالة له بأنهم الباطنية الإسماعيلية وقد لقبهم بألقاب كثيرة كالخرمية والباطنية والمحمّرة والسبعية ؛ أي أنه يجعلهم تحت طائلة المذهب الإسماعيلي الشيعي وهو نفس مذهب الفاطميين الذي ظهروا في تاريخ غير بعيد عن الحركة القرمطية ؛ أما تسميتهم القرامطة لأن رئيسهم حمدان بن قرمط ؛ انظر أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، القرامطة، نشر وتحقيق محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٨١م، ص٣١ و٣٥ و٣٧ و٤٤.

(٤) عن العلاقات بين القرامطة والفاطميين ؛ انظر ميكال يان دي خويه، القرامطة (نشأتهم، دولتهم، وعلاقاتهم بالفاطميين)، ترجمة وتحقيق حسني زينة، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٥١ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

امتدت الهجمات أيضًاإلى الشام، خاصة بعد التحالف بينهم وبين الفاطميين في مصر، لكنهم سرعان ما اختلفوا وبدأت كل حركة تعمل لحسابها الخاص، حيث هاجمت الجيوش القرمطية الشام، وهددوا معظم المدن، ووقف لهم الحمدانيون، والفاطميون على السواء[1].

ما يهمنا هو الهجمات والحروب التي خاضوها في الجنوب العراقي، بل وصلت الهجمات إلى بغداد نفسها، ما هدد الخلافة، التي رأت فيها خطرًا كبيرًا.

بدأت هجمات القرامطة على نواحي البصرة بهدف تأمين ممتلكاتهم في هجر، وتشكيل مجموعة مسلحة في هذه المناطق تقوم بالغزو والنهب والسلب، وذلك في عام ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م، واستطاعوا من هزيمة جيوش الخليفة المعتضد في هذه الغزوة والتي كانت تعتبر فاتحة الغزوات والتي أدت إلى تدمير هذه المناطق بسبب السلب والنهب والقتل[2].

على أن العلاقة بين الخلافة والقرامطة في هذه الأثناء تراوحت بين النصر والهزيمة، حيث كانت الخلافة تهدف في النهاية إلى تقويض هذا الخطر وذلك بالتحالف مع الحمدانيين الذين وقفوا ضد هجمات القرامطة على الشام، ونجحت الجيوش الحمدانية في توجيه ضربة عسكرية ضد القرامطة ونجحت في قتل قائدهم أبي سعيد، والوصول إلى القطيف وتدميرها، وبذلك أمكن تقويض الخطر مؤقتًا[3].

كان عام ٣١١هـ/ ٩٢٣م فاصلًا في تاريخ القرامطة، حيث تحالف القرامطة في البحرين مع الفاطميين في المغرب ضد الخلافة مباشرة، حيث هاجمت قوات أبي طاهر بن سعيد الجنابي البصرة ونجحت في غزوها وقتل عدد من أهلها واحتلها وأعمل فيها السيف سلبًا ونهبًا،على إثر ذلك اشتعلت بغداد غضبًا شعبيًا ضد الوزير ابن الفرات، حيث رأى العامة أن الحكومة قصرت في الدفاع عن البصرة، في حين توجه أبو طاهر إلى الأهواز وفعل بها ما فعل بالبصرة، ثم أرسل إلى الخليفة يفاوضه على امتلاك البصرة والأهواز ولحسن نيته قام بالإفراج عن الحجاج الأسرى لديه، لكن الخلافة امتنعت عن هذه الشروط في امتلاك القرامطة للبصرة والأهواز[4].

---

(١) طقوش، الدولة العباسية، ص ١٨٤.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، مراجعة خليل شحادة وسهيل زكار، ج٣، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٤٣٧.

(٣) عدوان، الحمدانيون، ص١٠٣.

(٤) كانت غزوة أبي طاهر الجنابي على البصرة في عام ٣١١هـ أما ثورة العامة ضد ابن الفرات يذكرها ابن الجوزي في السنة التالية ٣١٢هـ ؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٣، ص٢١٩ و٢٢٠، ٢٣٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولمزيد من الضغط؛ تحركت القوات القرمطية إلى الكوفة، فحاصرتها، واستولت عليها بعد مقاومة أهلها، فدخلوها وقتلوا عددًا كبيرًا من أهلها ودخلوا المسجد الجامع فنهبوه، ونهبوا الممتلكات والدور[١].

على أي حال؛ استمر الخطر القرمطي على الجزيرة العربية وعلى العراق وخاصة مدن البصرة والكوفة،وزاد هذا الخطر بعد الاستيلاء على عُمان، ودخول القرامطة إلى مكة، وتهديد مواسم الحج في السنوات التالية،حتى أضحى أبو طاهر الجنابي[٢] سيدًا منفردًا على الجزيرة العربية ومهددًا للخلافة العباسية لسنوات طويلة، غير أن نزاعات داخلية أدت إلى انحطاط دور القرامطة، وأفول نجمهم حتى توفي الجنابي بمرض الجدري عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، ولكن القرامطة استمروا في دورهم التخريبي ولكن بشكل أقل عنفًا عن ذي قبل[٣].

خلاصة القول؛ شهدت مدن الجنوب العراقي خاصة البصرة والكوفة ومنطقة الأهواز، اضطرابات اقتصادية وأزمات كبيرة إبان هذه الهجمات، ما أدىإلى تدهور الحالة قبيل دخول البويهيين بغداد، وهذا ما يهمنا من طرح تاريخ الهجمات مختصرًا على هذا النحو.

- **البريديين**[٤]: وهم المتسلطون على منطقة الأهواز وكان لهم دور كبير في الصراع على منصب إمرة الأمراء، وشكلوا ضغطًا كبيرًا على الخلافة، وكان لهم دور في الصراع مع القائدين ابن رائق أمير واسط وبجكم،كان البريديون شديدو الظلم والعسف والجور خاصة في الأهواز والبصرة، وكانوا ينكثون بعهدهم تجاه الخلافة في إرسال الأموال التي اتفقوا عليها مع ابن رائق والخليفة، بل طمحوا في منصب إمرة الأمراء كما أشرت آنفًا، وبذلوا الغالي والنفيس من أجلها،

---

(١)ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٤٦٩.

(٢) **أبي طاهر الجنابي**: هو سليمان بن أبي سعيد الحسن الجنابي، ابن من أبناء أبي سعيد السبعة، وقد وثب على حكم البحرين بعد موت أبيه أبي سعيد، حيث قام أبو سعيد بجعل سعيد وليا للعهد لكن سليمان استولى عليه وتسمى بأبي طاهر، وهو صاحب الغزوة المشهورة للمسجد الحرام وانتزاع الحجر الأسود من الكعبة وتوفي في رمضان من سنة ٣٣٢هـ بسبب مرض الجدري ؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٥ ؛ وأيضًا ؛ أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ابن الأثير)، الكامل في التاريخ، ج٧، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص١٨٤ ؛ وأيضًا ؛ دي خويه، القرامطة، ٦٩ وما يليها.

(٣) طقوش، الدولة العباسية، ص١٨٥.

(٤)وينتمي البريديون إلى أبي عبد الله البريدي، وهو أحد شياطين الدنيا كما يلقبه مسكويه، وهذه التسمية تدل علي دوره السيء في حياة العراق السياسية، حيث بدأ البريدي كاتبا وعاملا في الدولة، ثم خرج عن الطاعة في الأهواز وشكل هو وعائلته قوة كبيرة سيطرت على المناطق المجاورة فيما يشبه الإمارة المستقلة ؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص١٧٢؛ انظر أيضًا ؛ حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية (مقاطعة فارس)، الدار الجامعية، ١٩٨٧م، ص٦٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وشاركوا في كل الصراعات السياسية في هذه المرحلة التاريخية، بل بهروب البريدي إلى فارس، كان لفت للانتباه لبني بويه الذين أضحوا يراقبون التطورات السياسية في العراق.

ولم ينته دورهم عند هذا الحد، حيث تحالف البريديون مع البويهيين لدخول العراق، ونجحوا في الاستيلاء على الأهواز، لكن الاختلافات بين بني بويه والبريديين برزت، ما أدىإلى استيلاء بني بويه على الأهواز ونكثهم لعهد البريدي[1].

وهنا يأتي دور بجكم الذي تحالف مع البريديين بعد إقرار الصلح لانتزاع منصب أمير الأمراء من ابن رائق، في مقابل أن يعطي واسط للبريدي[2]، وبالفعل قام بجكم بدخول بغداد وانتزع منصب إمرة الأمراء منه وتم الاتفاق على أخذ واسط للبريدي.

لم تنته الصراعات بإقرار الوضع بسبب الصراع بين بجكم وابن رائق الذي حاول ثانية الاستيلاء على المنصب، وكان البريدي في هذه الأثناء حاكمًا على واسط ووزيرًا لبجكم في نفس الوقت، لكنه طمع في الدخول لحلبة الصراع بين الطرفين، فامتنع عن محاربة البويهيين مع الخليفة الراضي وبجكم واستعد لدخول بغداد، لكنه هزم وهرب من واسط إلى البصرة حيث أرسل بجكم جيشًا بقيادة توزون[3]لمحاربة البريدي في البصرة ونجح في مهمته هذه.

وبعد مقتل بجكم على أيدي بعض الأكراد في عام ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م، استغل البريدي الفراغ السياسي في بغداد[4]، وسار إليها طمعًا فيها، خاصة بعد انضمام قسم من جيش بجكم إليه، وعندما دخلها استولىعلى المنصب عنوة من الخلافة، وكانت مدة إقامته ٢٤ يومًا فقط،وذلك بعد ثورة الجنود ضده، وعندما هرب تولى كوركتين إمرة الإمارة لفترة ثم استولى ابن رائق العائد من الشام عليها مرة أخرى.

عاد البريدي إلى الواجهة مرة أخرى فحاصر بغداد، ودخلها بعد هروب ابن رائق والخليفة المتقي إلى الموصل للاستنجاد بالحمدانيين، فاستغل ناصر الدولة الحمداني هذا الوضع وقتل ابن رائق[5]، ثم اتفق مع الخليفة المتقي أن يدخل بغداد ويتخلص من البريدي مقابل المنصب، وبالفعل دخلها بعد هروب أبي عبد الله البريدي منها، واستمرت ولاية ناصر الدولة الحمداني ١٣

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٤ ؛ انظر أيضًا ؛ طقوش، الدولة العباسية، ص ٢٢٢.

(٢) حسن منيمنة، المرجع السابق، ص٦٤.

(٣) توزون: كان رئيس الجيش والشرطة وتولى منصب أمير الأمراء في خلافة المتقي بالله، ومن أكثر القادة الترك تدخلاً في السياسة في تلك الفترة وتوفي عام ٣٣٤هـ ؛ انظر ترجمته في وفيات تلك السنة ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٤٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٣.

(٥) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٤٥ و٢٤٦ و٢٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شهرًا،كان عليه خلالها محاربة قوات البريدي[1]، لكنه فشل في ذلك بسبب الأزمات الاقتصادية فترك بغداد متوجهًا إلى الموصل خاصة بعد مؤامرة قام بها الأمراء الأتراك والديلم ضده بقيادة توزون.

بعد هروب الحمداني من بغداد أصبح توزون أميرًا للأمراء حتى وفاته في عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م[2]، وخلفه في المنصب ابن شيرزاد حتى دخول البويهيين بغداد[3].

وبذلك نجد أن البريدي استمر في الصراعات الداخلية للنهاية بين شد وجذب سواء مع بجكم أو ابن رائق أو حتى مع الحمدانيين والبويهيين، وقد أدت هذه الصراعات إلى إنهاك الاقتصاد وتدهوره تمامًا.

خلاصة القول في هذه النقطة البحثية من هذا التمهيد؛ كانت الخريطة السياسية للعراق مضطربة للغاية، وقد أدت الصراعات إلى أحوال اقتصادية متردية، سواء داخل المدن أو القرى واجتاحت موجات الغلاء على إثر هذه الأزمات والصراعات السياسية.

فنجد على سبيل المثال،أن أعوام ٣٠٧هـ/ ٩١٩م[4]، ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م[5]، ٣٣٠هـ/ ٩٤١م[6]، ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م[7]، شهدت موجات كبيرة من الغلاء ونقص المواد الغذائية، وكلها كانت بسبب الاضطرابات والصراعات والحروب الداخلية.

وكانت كل هذه الأزمات الاقتصادية تصاحبها حملات من اللصوصية وقطاع الطرق،وكثرة كبسات اللصوص على الأسواق في تلك الفترة[8]، كما نجد أن البريديين على سبيل المثال كانوا مضرب الأمثال في الجور والظلم، فقاموا بعدد من المصادرات ضد التجار والمزارعين من أجل إكمال حملاتهم وصراعهم، هذا إلى جانب ابن رائق وسياسته الاقتصادية السيئة التي أنهكت بغداد، وواسط والبصرة، كما نجد أن ظاهرة القتال في الشوارع بين العامة والجند أضحت موجودة

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٢٥٤.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٣٩.
(٣) مسكويه، تجارب الام ، ج٥، ص ٢٧٤.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٤١ و٤٢.
(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٣، ص٣٤٩ و٣٥٠.
(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٩.
(٧) نفس المصدر السابق، ص٣٤.
(٨) مسكويه، المصدر السابق، ٢٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبقوة حيث نجد في حوادث عام ٣١٧هـ/ ٩٠٨م، ٩٢٩م، قتالًا نشب بين الجند الأتراك والديالمة والعامة[١].

هذا إلى جانب هجمات القرامطة كما أشرت آنفًا التي قضت على الأخضر واليابس في مدن الجنوب وتأثرت بغداد من جراء ذلك فزاد الجوع والغلاء، ونشبت عدة انتفاضات على الوزراء، وأشهرها انتفاضة سبق ذكرها ضد الوزير ابن الفرات[٢].

كل هذا كان قبيل دخول البويهيين الذين سنتحدث عنهم بالتفصيل بعد قليل.

معنى "محنة" و"أزمة" لغويًا واصطلاحًا:

بقي لنا في هذا التمهيد؛ معرفة معنى المحنة والأزمة في اللغة،واصطلاحًا، ومعرفة ما يتعلق بهاتين الكلمتين المعبرتين عن عنوان هذه الدراسة، ومعرفة ما يتعلق منهما فيما يسمى بعلم الأزمات الاقتصادية، ومحاولة مقارنته بالمحن والأزمات التي حدثت في العراق، لمعرفة المصطلحات الدقيقة الخارجة من مفهومي المحنة والأزمة، لتكون للباحث نبراسًا على الطريق لإخراج هذه الدراسة في أكمل ما يكون.

نبدأ في اللغة، عن أصل كلمة "محنة"؛ والتي يرجع جذرها اللغوي في المعاجم العربية إلى الأصل (م ح ن)[٣]، والتي تعني الشدة والبلية التي يمتحن الإنسان بها في الدنيا، وجاء منها الفعل "يمتحن" وهو الاختبار،وجمعها محن "بكسر الميم وتشديد النون"[٤].

ونجد المعنى القريب للمحنة، أي الاختبار والبلاء والشدة،حتى يقال، امتحن الرجل، أي بلي واختبر بشيء شديد،وتأتي أيضًا بمعنى التشديد في العذاب بالنسبة للفرد،حتى يقال محن فلان[٥]، أي تم التشديد عليه في العذاب، أو يقال محن الفضة، أي تنقيتها من الشوائب العالقة بها عن طريق النار، أو يقال محن الأديم، أي تم تمديده وتوسيعه،وأيضًا يقال محونة أي بمعنى البخس والمحق، وهي قريبة من الشدة أيضًا[٦]، وهكذا نرى أن المعنى اللغوي والمعنوي أيضًا يسير نحو البلاء والشدة والاختبار بالنسبة للبشر والمجتمعات، والتنقية من الشوائب بالنسبة للمعادن أو الشيء الجماد.

---

(١) ونقصد بها حرب الشوارع بين جند أبي الهيجاء بن حمدان القائد نازوك وخلع الخليفة المقتدر في تلك الحادثة ؛ انظر المصدر السابق، ص١٠٨ وما يليها.

(٢)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٣، ص٢٣٩.

(٣)انظر مادة محن ؛ الرازي، مختار الصحاح، ص٢٥٧.

(٤) نفس المصدر السابق، ص٢٥٧ ؛ انظر أيضًا ؛ المعجم الوسيط، ٨٥٦.

(٥)المعجم الوسيط ص٨٥٦.

(٦) نفسه، ص٨٥٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويجد الباحث أن كلمة أخرى ترتبط بالمحنة، من حيث الحروف والمعنى، فكلمة محل، والتي تأتي بمعنى انقطاع الماء والمطر وبالتالي الكلأ، وتأتي بمعنى الأرض المحل، أي الأرض الجدب[1]، وهنا تشتبك هذه الكلمة مع المعنى اللغوي والمعنوي لكلمة محنة.

أما عن المعنى الاصطلاحي للكلمة فقد نجدها في الكثير من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية التي تتحدث عن المحن سواء باستخدام الكلمة نفسها أو باستخدام ما يقابلها من معان، وهذا بالضرورة نفهم منه المعنى الاصطلاحي للكلمة.

ذُكرتى كلمة المحنة في الآية الكريمة:"**إِنَّ الَّذِين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُول اللَّه أُوْلَئِكَ الَّذِين امْتَحَن اللَّهُ قُلُوبَهُم لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيم**"[2]، ومعنى الامتحان في معظم التفاسير التي تناولت هذه الآية، تعني الاختبار وتنقية قلوب المؤمنين بهذا الامتحان، كتنقية المعادن من الشوائب.

وقوله عز وجل :"**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوف وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَال وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين**"[3]، والآية واضحة أن البلاء والمحنة من الله وهو على هيئة خوف من المصائب أو جوع ومجاعات تضرب المجتمعات أو نقص من الأنفس جراء الحروب أو البلايا الأخرى أو نقص في المحاصيل الزراعية.

وفي كتاب المحن لمحمد بن أحمد بن تميم التميمي، نجد أنه خصص فصلًا كاملًا عن أحاديث المحن والابتلاءات التي مرت على المسلمين، وتأصيلها الديني في الأحاديث النبوية، فمثلًا سئُل النبي صلى الله عليه وسلم أي الناس أشد بلاءً؟ فقال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإذا كان في دينه صلابة زيد في بلاءه، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه، ومايزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وماله خطيئة"[4].

الحديث السابق واضح في تفسيره، أن البلاء هو المحنة التي تصيب الفرد المسلم أو حتى يتخلص من ذنوبه، فتم ربط المحنة بالعقاب الإلهي أو رحمة الله بالعبد.

---

(1) نفسه ص٨٥٦.

(2) سورة الحجرات، آية ٣

(3) سورة البقرة، آية ٥٥.

(4) محمد بن أحمد بن تميم (التميمي)، كتاب المحن، تحقيق، يحيى وهيب الجبّوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧ م، ص٦٢ ؛ انظر أيضا ؛عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، الفتن والبلايا والمحن والرزايا، تحقيق إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر، بيروت، ب ت، ص١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمتي أمة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب وإنما عذابها في الدنيا القتل والزلازل والبلايا"[١]، فجاء ذكر البلايا بمعناالمحنة والشدة التي تصيب المجتمع والتي تصير كعذاب الآخرة.

ومما سبق تدل هذه الأمثلة القليلة للأحاديث والآيات السابقة، أن للمحنة وللبلية وللامتحان وللاختبار معنى واحد.

أما عن الأزمة؛ فمعناها قريب من المحنة، وجذرها اللغوي في المعاجم (أ ز م) بمعنى الشدة أو القحط، فيقال عند التعرض لأزمة "أزمت عليهم السنة" أو اشتد قحطها ويقال أيضًا قل خيرها[٢].

أما عن مفهوم الأزمة وتصنيفها إلى أنواع، فالمفهوم حديث، حيث تصنف الأزمة على أنها خلل يؤثر تأثيرًا حيويًا على المجتمع"[٣].

أو "خلل وتغيير مفاجئ نحو الأفضل أو الأسوأ، وهي لحظة حاسمة أو وقت عصيب يهدد كيان المجتمع أو التجمع الإنساني"[٤].

وهناك بعض المفاهيم التي تعبر عن الأزمة بمعنى الخطر الذي يتهدد الإنسان، وهو على أي حال يعبر عن التأثير الشديد على النظام سواء آثار مادية أو مالية باهظة، بل وآثار نفسية على الإنسان والمجتمع.

وهناك تفسير أكثر وضوحًا أن الأزمات الاقتصادية تعني الخلل الذي يحدث في موارد الدولة بسبب عوامل طبيعية أو بشرية[٥]، فينعكس هذا الخلل على الدولة والأفراد، ومن هنا تحدث الأزمة والمحنة كما سنرى في هذه الدراسة.

سيتضح ذلك من خلال الفصول التالية، فالعوامل السياسية والاجتماعية والطبيعية، كان لها أثر في الأزمة وتأثيرها على المجتمع بالسلب في أغلب الأحوال، وقد تحققت كل مفاهيم الأزمة والمحنة على هذه الفترة التاريخية التي مرت على العراق.

---

(١) وشرح الحديث: أن الأمة الإسلامية مخصوصة بالرحمة وإتمام النعمة في الآخرة على قدر الفتن التي تلاقيها في الدنيا فعذابها في الدنيا على هيئة الزلازل والقتل ؛ انظر محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود في شرح سنن أبي داوود، ج١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م ؛ ص٢٨٠.

(٢) الرازي، مختار الصحاح، مادة (أ ز م)، ص٦ ؛ المعجم الوسيط ص ١٦.

(٣) محمد هيكل، مهارات إدارة الازمة والكوارث والمواقف الصعبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ص٢٢.

(٤) محمد هيكل، مهارات إدارة الأزمة،ص٢٢.

(٥) نفس المرجع السابق، ص ٢٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

الظروف السياسية للعراق في العصرين البويهي والسلجوقي وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية

المبحث الأول : **الأزمات السياسية بين الخلافة وسلاطين بني بويه والسلاجقة.**

المبحث الثاني : **أثر شغب الجند على حركة الاقتصاد العراقي في العهدين البويهي والسلجوقي .**

المبحث الثالث : **المصادرات المالية وأثرها في ظهور الأزمات الاقتصادية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي .**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعل العامل السياسي للمحن والأزمات الاقتصادية، هو العامل الرئيس لها،إذ كانت السياسة هي المحرك الأساسي للأحداث في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي، وقد مرت على العراق ظروف سياسية صعبة منذ ضعف الخلافة إبان العصر العباسي الثاني أو عصر نفوذ العسكر التركي الذي تحكم في كل شيء من مقدرات الخلافة حتى أصغر مؤسسة في الدولة.

عانى الخلفاء العباسيون في هذه الفترة من التسلط التركي، فمنهم من قُتل(١)، ومنهم من عُذِّب على يد القادة العسكريين الأتراك، ومنهم من حاول أن يظفر بشيء من المكانة والهيبة دون طائل(٢)، ومنهم من سكن وخضع وهو لا حول له ولا قوة من أمره(٣).

كل هذه العوامل التي تندرج تحت الظرف السياسي منذ تولي المعتصم بالله العباسي (٤)للخلافة عام ٢١٨هـ ومن جاء بعده من الخلفاء، حيث تحكم الترك في كل شيء، وأصبحت حاضرتهم سامراء تضاهي بغداد وتنافسها سياسيًا وحضاريًا، وأصبحت أروقة السياسة فيها خطرًا على الخلافة العباسية.

هذا العامل كان السبب في ضعف الخلافة وتفكك أوصالها واستقلال المشرق الإسلامي ، كما أثر في الناحية الاقتصادية أيما تأثير، حيث تسلط الجند الأتراك على الخزانة الخلافية وصادروها وسرقوها عدة مرات، بل تنافس القادة الأتراك فيما بينهم أيهم يكن أكثر عزًا ومالًا وجاهًا من الآخر، وبدا الأمر كأنه عصر طوائف وملوك جديد على الدولة العباسية.

وهكذا بدا أن الحكم العسكري المتسلط والذي بدأ مع الجند الأتراك واستمر في العصور التالية سواء في بني بويه والسلاجقة، هو سبب النكبة الرئيسة ليسعلىالخلافة العباسية فحسب بل على

---

(١)نقصد به الخليفة المتوكل على الله العباسي؛ والذي قتله الأتراك عام ٢٤٧هـ/ ٨٥٩م، وكان مقتله يعتبر بداية لما سماه بعض المؤرخين عصر الفوضى العسكرية؛ انظر ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١١٩ و١٢٠؛ وأيضًا؛ خالد عزام موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر العباسي)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٩م، ص١٦١ و١٦٢.

(٢)حاول الخليفة المهتدي (٢٥٥هـ/ ٢٥٦هـ - ٨٦٩/ ٨٧٠م) أن يوقع البغضاء بين القادة الأتراك لمصلحته ولمصلحة إعادة الخلافة وسيطرتها على هذه الفوضى لكن دون طائل، فقد أسرع الأتراك بالتخلص منه واتفقوا على قتله؛ انظر محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (الدولة العباسية)، ج٢، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٦٢.

(٣)تعتبر فترة ما بعد المعتصم بالله العباسي حتى دخول البويهيين العراق وهي ما تسمى بالعصر العباسي الثاني، من أشد الفترات صعوبة على الخلافة العباسية، إذ تحكم الأتراك في مقدرات الخلافة، وتميزت هذه الفترة بأن الخلفاء لم يكن لهم حول ولا قوة في القرارات المصيرية للخلافة؛ انظر محمود شاكر، المرجع السابق، ص٦٥ وما يليها.

(٤)المعتصم بالله: هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد، وهو أول خليفة أدخل الأتراك في الديوان، وقام ببناء مدينة سر من رأى أو سامراء لتكون حاضرة للجند الأتراك، وسرعان ما أصبحت حاضرة الدولة بدلًا من بغداد، وتوفي عام ٢٢٧هـ؛ انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٦٤ و٢٦٥ و٢٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمة بأجمعها، حيث تراجعت المدنية الإسلامية لحساب حكم العسكر أو حالة العسكرتاريا -كما يسميها الدكتور محمود إسماعيل، فهذه الحالة عملت على سلب مقدرات الأمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فكان التسلط العسكري متجبرًا قويًّا ماحيًا لكل شيء ضده حتى لو الخليفة ذاته[١].

أثر ذلك بطبيعة الحال على الحالة العامة سواء اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا على العراق، فمن الناحية الاقتصادية عانت الدولة من تدهور كلي في القطاعات الاقتصادية الحيوية، كما نشبت عدة ثورات كان المحرك الرئيس لها العامل الاقتصادي كثورة الزنج التي قام بها الزنوج في الجنوب العراقي والتي دمرت هذه النواحي[٢]، وتخلصت الخلافة منها بعد سنوات طويلة وشاقة من العمل العسكري ضدها، كما جاء خطر القرامطة في الجنوب أيضًا مكملًا على آمال الخلافة العباسية بالانتعاش، وقد سبق للباحث التحدث عن هذه الحالة من تمزق وتشتت الخلافة داخليًّا، إذ ظهر منصب أمير الأمراء، وتنافس الجند والقادة الأتراك حول هذا المنصب حتى تم دخول البويهيين وتسلطوا على بغداد.

لم يكن الأمر جيدًا الآن عندما دخل بني بويه الديالمة إلى بغداد، بل زاد ضعف الخلافة، وزاد التسلط العسكري، وأسس بني بويه كيانًا خاصًّا وكبيرًا وقويًّا على العراق وفارس،استمر حتى ظهور السلاجقة على المسرح السياسي المشرقي.

في هذا الفصل يتناول الباحث ثلاثة مباحث مهمة تبين كيف كان العامل السياسي مؤثرًا لدرجة كبيرة في الكيان الاقتصادي، وكيف عانى العامة من ظروف سياسية غير مستقرة أثرت على مؤسسات الدولة، ودعم حالة اللامركزية التي عاشها العراق منذ تسلط الأتراك سابقًا، وتردي الأحوال الاقتصادية.

أما عن المباحث الثلاثة فهي:

- الأزمات السياسية بين الخلافة وسلاطين بني بويه والسلاجقة.
- التقاتل بين الجند وأثر ذلك على حركة الاقتصاد.
- المصادرات المالية وأثرها في تردي الأحوال الاقتصادية.

---

[١] ويسميها في بعض المواضع الطغمة العسكرية أو العصبة؛ انظر محمود إسماعيل، سيسولوجيا الفكر الإسلامي، ج٢، ص ٦٢ وما يليها.

[٢] عن هجمات الزنج انظر؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص ٤١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذه المباحث الثلاثة مرتبطة مع بعضها في الأسباب والنتائج إلى حد كبير، حيث ستصبح هذه المباحث مكملة لبعضها، فكلها تندرج تحت العامل السياسي وأثره في اقتصاد العراق.

المبحث الأول: الأزمات السياسية بين الخلافة وسلاطين بني بويه والسلاجقة وأثرها في الاقتصاد:

ظهر بني بويه الديلم في الشرق من العراق حيث مقاطعة فارس التي كانت تعاني كغيرها من الاضطراب الأمني والسياسي، فالمشرق الإسلامي منذ استيلاء الطاهريون أرباب بلاط المأمون والمعتصم من بعده على فارس[1]، وأصبحت شبه مستقلة عن الخلافة العباسية، ثم استقلت مع مرور الزمن وتكالب الصعاب والمحن على الخلافة، وظهرت دول في فارس وبلاد ما وراء النهر، مثل الدولة الصفارية[2] والسامانية[3]، ومن ثم كان المغامرين العسكريين والقادة الطموحين، ينظرون إلى القوة العسكرية نظرة إجلال وإكبار لأنها القوة الوحيدة التي ستدعم طموحهم.

حدث هذا مع يعقوب بن ليث الصفار ومن بعده من بني سامان، ثم جاء الدور على بني بويه الديلم ليؤسسوا كيانًا خاصًا لهم ولبني جنسهم الديلم ذي الصلات القديمة مع المسلمين، حيث دخلوا الإسلام قريب عهد من بناء الدولة البويهية على المذهب الزيدي، لما كان من الدعوة الزيدية من شأن في مناطق طبرستان وجيلان والران، فكان دخولهم هذا إيذانًا بنقطة تحول كبيرة في تاريخ الدولة العباسية.

ويرجع بناء الدولة البويهية إلى ثلاثةإخوة من بني بويه وهم علي والحسن وأحمد[4]، وهم الذين قامت على أكتافهم الدولة في بلاد الديلم الذين توحدوا على أيدي الإخوة الثلاثة وانطلقوا يحتلون

---

(1) الطاهريون: وهي الأسرة التي خدمت المأمون العباسي، ثم تولت أمر خراسان، وأسست دولة مستقلة بها تحت سيادة الخلافة العباسية منذ عام ٢٠٥هـ إلى عام ٢٥٩هـ، وتنتمي الأسرة إلى طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون، والذي احتل بغداد أثناء صراعه مع أخيه الخليفة محمد الأمين عام ١٩٨هـ؛ انظر أحمد محمد عدوان، موجز في تاريخ دويلات المشرق الإسلامي، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١٨ و١٩ و٢٠.

(2) الدولة الصفارية: تنتمي إلى يعقوب بن ليث الصفار، الذي كان له دور بارز في محاربة الخوارج، واستطاع أن يسيطر على سجستان، ثم استولى على أملاك الطاهريين أثناء حكم محمد بن طاهر بن عبد الله، وأسس دولته عام ٢٥٤هـ؛ انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص٣٨٤ وما يليها؛ عدوان، المرجع السابق، ص٤٦ و٤٧ و٤٨.

(3) الدولة السامانية: تنتمي إلى نصر بن أحمد بن أسد الذي يرجع أصله إلى سامان بن بهرام بن جوبين الفارسي، وقد تأسست هذه الدولة في عام ٢٦١هـ، وقد كان نصر هذا من عمال الدولة الطاهرية، وعندما سقطت الدولة على يد الصفاريين، استقل نصر ببلاد ما وراء النهر وأسس هو وأسرته دولة تحت سيادة الخلافة العباسية؛ عدوان، المرجع السابق، ص٩٢.

(4) والإخوة الثلاثة هم أبناء أبو شجاع فانخسرو، وكان من عامة الناس في بلاد الديلم، وقد عملوا في صيد السمك والاحتطاب، ثم التحقوا في جيش ماكان ابن كالي وصعد نجمهم بعد ذلك في الجندية، واستطاعوا تجميع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المناطق المجاورة حتى أصبحت فارس في أيديهم[١].وقد بدأأمر البويهيين الثلاثة عندما ولي مرداويج الزياري [٢]علي بن بويه بلاد الكرج[٣]، وهذه كانت بداية أمره، حيث استطاع بفضل مهارته العسكرية والإدارية أن ينتزع شيراز[٤] وجعلها قاعدة له ولقومه ثم زحف بقواته بعد انتهاء أمر مرادويج على أصفهان[٥] وهمذان [٦]والري[٧] وكرمان[٨] والأهواز[٩]، وبهذا أصبحت فارس كلها في قبضته.

كانت الخطوة الطبيعية والمنطقية هي الزحف البويهي علىالعراق، التي كانت تعاني من التشرذم والتفكك، وأصبح نفوذ الخلافة لا يتعدى في أغلب الأحيان إلا بغداد وما حولها، وأصبحت العراق فريسة سهلة لأمراء الحرب في الشمال والجنوب والوسط.

الديلم في دولة واحدة وهي دولة بني بويه؛ انظر مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص١٥٧؛ وأيضا وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ب ت، ص١٦ وما يليها.

[١]المرجع السابق، ص١٧.

[٢]مرداويج الزياري: هو فارسي الأصل وأحد قواد بلاد الديلم، وقد كون جيشًا كبيرًا، حتى ظن الناس أنه سيبطل الخلافة العباسية ويظهر كلمة الفرس والديلم على السواء، وقد ضم جيشه ديلم وترك وأهل خراسان؛ انظر المرجع السابق ص١٧ نقلًا عن محمد جمال سرور، الحضارة الإسلامية في الشرق الإسلامي، ص ٤٩ .

[٣]بلاد الكرج: هي إحدى مدن الجبال في شمال فارس؛ وتعرف بأنها مدينة كبيرة لها أعمال وقرى كثيرة، حسنة الأسواق خصبة كثيرة الخيرات وتصدر منتجاتها الزراعية إلى أغلب مدن فارس والجبال؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣١٣؛ انظر أيضا ليسترنج، بلدان الخلافة، ص٢٢٣.

[٤]شيراز: مدينة بناها المسلمون بعد فتح فارس، حيث بناها محمد بن القاسم بن أبي عقيل، وسميت شيراز لأن بناءها يشبه تجويف الأسد، وتعتبر كانت قاعدة للجيوش الإسلامية بالقرب من مدينة اصطخر، فهي كما يقول ابن حوقل تبلغ ثلث اصطخر، أي إنها مدينة صغيرة؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص٢٤٦.

[٥]أصفهان: مدينة كبيرة ومن أشهر مدن فارس، يكثر فيها البساتين والمحاصيل المختلفة، خصبية التربة معتدلة الجو كثيرة المعادن والصناعات المختلفة وتعتبر قبلة العلماء والفقهاء في فارس؛ انظر القزويني، آثار البلاد، ص٢٩٦ و٢٩٧.

[٦]همذان: هي من أكبر مدن فارس، كثيرة العيون والبساتين والأسواق والرساتيق، وبها جامع رشيق وبنيان عتيق، وهي من المدن الفارسية القديمة قبل فتح المسلمين لهذا الإقليم؛ انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٨٦ و٢٩٢.

[٧]الري: بلد جليل من الإقليم الفارسي، كثيرة العمران وفسيحة الأسواق حسنة الخانات والحمامات، تكثر فيها البساتين، وتعتبر مدينة تجارية مهمة على الطريق التجاري بين فارس وما يجاورها شرقًا وغربًا؛ انظر المصدر السابق، ص٢٩٠؛ وأيضًا ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١١٦.

[٨]كرمان: هي كورة كبيرة من بلاد فارس وتضم في أعمالها الكثير من القرى والمدن الصغيرة، وموقعها متوسط بين سجستان وخراسان وهي بلاد كثيرة الزراعات والتمور والفواكه والبساتين، وأراضيها خصبة؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٤؛ انظر أيضًا، ابن حوقل، المصدر السابق، ص٢٦٨.

[٩]الأهواز: ناحية بين البصرة وفارس، تتميز أراضيها بالخصوبة وزراعة المحاصيل الصيفية التي تحتاج إلى الماء الكثير مثل الأرز وقصب السكر ومن المعادن النحاس، وتتميز أيضًا بالحر الشديد، لذلك ظهرت فيها بعض الحشرات القاتلة؛ انظر القزويني، المصدر السابق، ص١٥٢؛ وأيضًا؛ الهمذاني، كتاب البلدان، ص٣٩٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويناقش هذا المبحث بعيدًا عن التفصيلات الخاصة بالأحوال الداخلية لبغداد والعراق عامة والتي ذكرها الباحث آنفًا بل سنناقش في السطور القليلة التالية نبذة عن عملية دخول القوات البويهية إلى بغداد ونظرة الخلافة إليها ليكون مدخلًا ضروريًا لنقطة المبحث وهي العلائق بين الأمراء البويهيين والخليفة العباسي.

دخول بني بويه للعراق:

بدأت عملية دخول البويهيين للعراق عندما استنجد أبو عبد الله البريدي المتحكم في البصرة بأحمد بن بويه ضد أمير الأمراء محمد بن رائق، حيث كان عام ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م العام الذي شهد الوحشة بين البريدي وابن رائق، فرأى البريدي أن يرجح كفته بأحمد بن بويه الذي وجدها فرصة في الدخول إلى السياسة العراقية.

وقد استغل أحمد هذا الصراع الداخلي الدائر بين البريدي وابن رائق، فاستولت قواته على بعض المناطق العراقية، مثل السوس وحصن مهدي والأحواز، ولكن هذه الفورة العسكرية البويهية انتهت ورجع بن بويه إلى أصفهان تاركًا الساحة للبريديين، الذين استردوا تلك الأراضي لصالحهم[١].

ومع الحالة الداخلية المتردية والصراعات بين أمير الأمراء توزون التركي وبين الحمدانيين في الشمال والبريديين في الجنوب،استغل بني بويه الأمر وكانوا يراقبون هذه الحالة عن كثب، فدخلت القوات البويهية إلى الوسط العراقي واحتلت مدينة واسط، فأسرع توزون[٢] بعقد صلح مع الحمدانيين ورجع بقواته إلى واسط وقام بمحاربة القوات البويهية وانتصر عليها في عدة مواقع من ضمنها العرس وذلك في عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، وخرج منها أحمد بن بويه منسحبا إلى فارس مؤقتًا، حيث كان يراقب الحالة السياسية العراقية[٣].

في تلك السنة قُتل أبو عبد الله البريدي وبذلك ينتهي خصم شرس في الساحة السياسية العراقية ويخلفه ابن شيرازاد مع وجود حالة اجتماعية واقتصادية صعبة، حيث كانت الحالة الاقتصادية لبغداد صعبة مع بوادر مجاعة كبيرة امتدت آثارها وقت دخول البويهيين للمدينة[٤].

---

[١]وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص٣٣ و٣٤.

[٢]المظفر أبي الوفاء توزون التركي: كان من أكبر قواد الترك في خلافة المتقي بالله، وقد تولى منصب رئيس الشرطة وأمير الجيش، وأصبح أميرًا للأمراء وكان متسلطًا على الخليفة المتقي بالله، وتوفي عام ٣٣٤هـ قبيل دخول البويهيين بغداد؛ انظر الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص٢٥٠ وما يليها؛ وأيضًا انظر ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٠٥.

[٣]مسكويه، تجارب الأمم، ص٢٦٠.

[٤]نفس المصدر السابق، ص٢٦١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استغل أبو جعفر ابن شيرازاد وزير وكاتب توزون موته وأبو عبد الله البريدي ألداءه في الحكم والمنافسين له، في جلب حليف جديد وهو ناصر الدولة الحمداني، وقد سبق للحمدانيين التدخل في شئون الخلافة ورأوا أن الساحة مفتوحة لمن غلب، وجاءتهم الفرصة الذهبية على يد ابن شيرازاد[١].

بايع ابن شيرازاد ناصر الدولة ليكون أميرًا للأمراء،لكن اضطرابات داخلية من جند ابن شيرازاد عطلت هذا الأمر، وكانت هذه الاضطرابات خاصة بالأموال والمرتبات التي سعى الجند لأخذها،كان ذلك دافعًا بطلب ابن شيرازاد أموال من ناصر الدولة مقابل التنازل عن المنصب وبالفعل أرسل الحمداني له خمسين ألف درهم، ولم يكتف بذلك بل سعى لفرض الضرائب ومصادرة الأموال خاصة التجار مما أغضب الناس بسبب حالتهم الاقتصادية الصعبة التي كانت بغداد تعاني منها[٢].

هذه الحالة لم تغضب العامة وحسب، بل أغضبت بعض قواد ابن شيرازاد، وأعني بهم ينال كوشة الذي كان أميرًا على واسط وكان له دور في دخول البويهيين إلى العراق . أرسل ينال إلى بن بويه يطمعه في البلاد ويهون عليه أمر ابن شيرازاد والمستكفي بالله، فجاءت الفرصة لبني بويه الذين كانوا يراقبون الوضع السياسي عن كثب[٣].

تحرك أحمد بن بويه بقواته من الأهواز حتى وصل إلى بغداد في ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وخاف المستكفي بالله الخليفة العباسي وأمير الأمراء ابن شيرازاد واستترا خوفًا من البويهيين، فعندما دخلت القوات البويهية اتفق أحمد مع ابن شيرازاد على توليته الخراج وجباية الأموال حتى يكسبه في صفه، إذ هدفت السياسة البويهية إلى كسب العمال وموظفي الدولة، الذين أيد بعضهم البويهيين أثناء تحركهم لبغداد[٤].

وهنا يبدأ الفصل الأول في العلائق بين الخليفة المستكفي بالله وأحمد بن بويه..

- خلافة المستكفي بالله (٣٣٣هـ/ ٣٣٤هـ-٩٤٤م/ ٩٤٥م):

هو أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بن المعتضد بن الموفق، بويع بالخلافة وهو ابن إحدى وأربعين سنة،وأمه أم ولد تدعى غصن[٥].

---

(١)نفس المصدر السابق، ص٢٦١.

(٢)ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٠٥.

(٣)مسكويه، تجارب الأمم، ص٢٧٥.

(٤)نفس المصدر السابق، ص٢٧٥؛ انظر أيضا ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٤٢.

(٥)السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣١٤؛ وأيضًا ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دخلت القوات البويهية بغداد، وذلك بعد هروب أبي جعفر ابن شيرازاد، والخليفة المستكفي، فظهر ابن شيرازاد وأخذ الأمان فولاه بن بويه على الجباية والأموال،ودخل أحمد إلى دار الخلافة، وعندها ظهر المستكفي عندما أخذ الأمان من أحمد بن بويه فظهر له وبايعه ابن بويه على الطاعة، فلقب المستكفي الإخوة البويهيين الثلاثة بألقاب سنية، حيث تلقب أحمد بمعز الدولة، وعلي بعماد الدولة، والحسن بركن الدولة[١].

وهكذا بدأ حكم البويهيين العسكري المتسلط على الخلافة، فيبدو للوهلة الأولى أن العلاقة ستسير نحو الأفضل مع بداية استقرار الحكم البويهي، ومع الألقاب التي تلقب بها هؤلاء من الخليفة المستكفي، إلا أن بوادر الأزمة كانت تلوح في الأفق.

كان أحمد معز الدولة البويهي يتشكك في كل شيء، فقد تخلص من ينال كوشة أمير واسط الذي ساعده على الدخول لبغداد، ويبدو أن هذه كانت خطته للقبض على الأمور في العراق، حيث ترك فارس وإقليم الجبال لأخويه وركز جهوده على العراق[٢]، وبدا له أن الساحة العراقية مرهقة ومعقدة فحاول أن يثبت أقدامه أكثر فأكثر، وكان عليه أن يتسلط على الخليفة ويسلبه كل شيء.

تقول المصادر إن معز الدولة تشكك في الخليفة المستكفي أنه يدبر مؤامرة ضده عن طريق قهرمانته واسعة النفوذ، التي حاولت التقرب من الطبقة العسكرية الجديدة في بغداد، فصنعت وليمة لكبار القادة العسكريين الديالمة والأتراك، فظن معز الدولة أنه يتعرض لمؤامرة خفية من الخليفة[٣].

هذا التفسير يبدو ساذجًا على مجمل الأحداث،إذ كان البويهيين يخططون لما هو أبعد، ففي ظن الباحث أن السلطة البويهية خططت متعمدة للتخلص من المستكفي حتى يكون عنوانًا لمن بعده من خلفاء، كأنهم يقولون هذه طريقتنا المثلى مع الخلافة، وهو ما سيتضح فيما بعد. هذا عن الشيء الأول.

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٤٢ و٤٣.
(٢)وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص٤٣.
(٣)ابن الجوزي، المصدر السابق ٤٥؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٧٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٠٦ و٢٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما أن ما أورده المسعودي عن مؤامرة قام بها المستكفي بالله بالفعل ضد معز الدولة،إذ كان ضالعًا بمراسلات بينه وبين ناصر الدولة الحمداني في الموصل يحثه على مهاجمة معز الدولة بن بويه وطرده من العراق[١].

الشيء الثاني وهو الدليل الدامغ على تسلط البويهيين على سلطة الخلافة، هو ما فعلوه من ثبات منصب الخلافة السني بالرغم من تشيعهم، حيث أبقوا على هذا المنصب في دليل كبير على عدم تنصيب خليفة علوي يكون له شأن على سلطتهم، فأبقوا على الضعيف حتى يكون لهم الكلمة العليا عليه، وبالتالي على العراق وعلى السلطة الروحية التي يمثلها، وهكذا تحكمت السياسة حتىعلى المبادئ المذهبية[٢].

أمر معز الدولة باعتقال الخليفة المستكفي، حيث نفذ الخطة مع اثنين من القادة الديالمة الذين قبلوا الأرض تحت الخليفة في مجلسه فجذبوه وطرحوه أرضًا ثم أرسلاه إلى بيت معز الدولة، فتم اعتقاله، وقد أمر معز الدولة أيضًا بالقبض على كاتب الخليفة أبي أحمد الشيرازي وعلى "علم" قهرمانة الخليفة وابنتها، حيث اتهمها معز الدولة بالتآمر ضده، كما انتهبت دار الخلافة من الجنود الديلم حتى لم يبق منها شيء[٣].

أما عن نهاية المستكفي، فقد مات بعد هذه الحادثة بأربع سنوات؛ أي عام ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م[٤]،إذ مات في محبسه في عهد الخليفة المطيع الذي عينه معز الدولة في الخلافة بعد اعتقال المستكفي بالله، الذي خلع نفسه أمام الشهود في مجلس الخليفة الجديد المطيع لله الذي بويع بالخلافة في عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م[٥].

أما عن أحوال العراق في هذه السنة، فقد تعرضت بغداد لغلاء كبير أتبعه مجاعة صعبة على المدينة؛فأكل الناس الدواب الميتة والسنانير، وكانت الأسواق تعاني من نقص حاد في الغلال والمواد الغذائية نتيجة لهذه المجاعة،وهرب بعض العامة من الجوع نحو مدن أخرى كالبصرة[٦]،

---

(١)أبي الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، مراجعة كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥ م، ص٢٩٥.

(٢)وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص٤٦.

(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٤٥؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٧٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٠٦ و٢٠٧.

(٤) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣١٥؛ ابن العمراني، الأنباء، ص ١٧٦.

(٦)ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٤٧؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢١٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعل الأسباب الحقيقية لهذه الحالة الصعبة هي الأحوال السياسية المتردية التي تعرضت لها البلاد قبل دخول البويهيين ومن بعد دخولهم، وقد استمرت هذه المجاعة حينًا من الزمن بسبب عدم تثبيت أقدام البويهيين في العراق ومحاولتهم لإثبات ذاتهم في الساحة العراقية، وهو ما أدىإلى حربهم مع الحمدانيين بعد شهر واحد من دخولهم بغداد.

- **خلافة المطيع لله (٣٣٤هـ-٣٦٣هـ/ ٩٤٦م-٩٧٤م):**

هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتمد، ولد سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م،وبويع بالخلافة بعد المستكفي بالله، وقرر له معز الدولة مائة دينار فقط لنفقته[١].

وكان عهد المطيع لله ممتدًا لسابقه في الضعف،إذ استولى معز الدولة البويهي على كل مقدرات الخلافة ولم يبق من الخليفة إلا اسمه، وهذا يدل في حديث المؤرخين المعاصرين وغيرهم:

هاهو ابن الأثير يقول: "ازداد أمر الخلافة إدبارًا، ولم يبق لهم شيء البتة، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل، والحرمة قائمة بعض الشيء، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه، بحيث لم يبق للخليفة وزير، وإنما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته"[٢].

ويقول الذهبي: "فكان من تحت معز الدولة (يقصد المطيع لله) لا له معه حلّ ولا ربط، وقدر له في الشهر ثلاثة آلاف دينار، وانحطت قدر الخلافة"[٣].

ويؤكد ابن كثير ذلك بقوله: "وإنما مورد الدولة ومورد المملكة ومصادرها راجع إلى معز الدولة"[٤].

وهذا يجرنا لحديث عن قضيتين مهمتين في هذا الصدد، وهما الأول يؤكد ظن الباحث في أن معز الدولة كان يعمل وفق خطة محكمة للقضاء على هيبة الخلافة لصالح دولته وسلطات الدولة العليا، لذلك خطط بالتخلص من المستكفي بالله وأرجع ذلك إلى مؤامرة المستكفي والقهرمانة ضده، وهذه ربما لم تكن إلا حجة،إذ كان سبق السيف العزل وبدأ البويهيون في إحكام الأمور بإلغاء سلطة الخلافة والحكم المباشر بأنفسهم ومحاولة تثبيت وضعهم في العراق.

أما القضية الثانية وهي محاولة إلغاء الخلافة؛ وفي هذا يرى الباحث أن حديث ابن الأثير في هذه القضية فيه لبس في الفهم، فيقر ابن الأثير أن معز الدولة فكر في هذا الأمر، ولكن بعد

---

(١) ابن العمراني، المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ص ٢٠٧ و٢٠٨.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص١١٥.

(٤) أبي الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، تحقيق إبراهيم الزيبق، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص١٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشاورات مع مستشاريه رفض هذا الأمر وأعرض عنه[1]، هذا الحديث من المؤكد أنه حدث، لكن ليس بهذه الطريقة،فقد كان البويهيون في فارس يناشدون الخلافة العباسية في عهد الخليفة الراضي بالله أن يبعثوا إليهم بالخلعة والتكليف للحصول على الشرعية ليستقوا بها أمام مرداويج الزياري منافسهم القوي والشرس أثناء قيام الدولة، فحصل علي بن بويه الأخ الأكبر لأحمد معز الدولة في عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م [2]على التكليف الخلافي فلبس الخلعة واللواء بعد وصول رسول الخليفة إليه.

لقد كان هذا التكليف ضروري لوجود شرعية للبويهيين، ولم يمنعهم مذهبهم الشيعي من أن يحصلوا على التكليف الخلافي وتلك الشرعية الروحية، فلا يعقل أنهم عندما يدخلون بغداد يتخلصون من هذه الشرعية، ويعتقد الباحث أن هذا الطرح كان في عقل معز الدولة عندما كان يفكر في الأمر، إضافة إلى أنه لا يريد خليفة قويًا وله شعبية علوية ينافسه في الملك، لذلك لم تخرج القضية من إطارها السياسي، وخلاصته أن معز الدولة يريد أن يسيطر على كل شيء في العراق وفي نفس الوقت يبقي على الخلافة ضعيفة لأنه يحتاج منها الشرعية، وليس للمذهب دخل في هذه القضية السياسية، فلو كان يعمل وفق تعاطف مذهبي وديني لاختلف الأمر ولأخلص معز الدولة لهذه القضية وكان عليه خلع الخليفة السني وإبداله بعلوي مهما كانت التبعات.

على أي حال؛ استمرت الأوضاع بالتردي في عهد المطيع لله،ووصلت هذه الأحوال السيئة إلى الذروة بسبب الآتي:

- الصراع البويهي الحمداني:

حيث تقابل الطرفان في منطقة عكبرا ولم تسفر المعركة عن شيءسوى حصار بغداد من القوات الحمدانية، ما أدى إلى غلاء الأسعار واشتداد المجاعة، ونقص المواد الغذائية، وعانى العامة جراء ذلك معاناة شديدة، وكان معز الدولة قد استعان بالخليفة المطيع لله بالخروج معه في هذه المعركة حتى يرفع من معنويات الجنود ويعطيهم شرعية ضد القوات الحمدانية التي تحارب الخلافة[3].

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٠٨.

(٢) انظر؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١١١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١١٨.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٥٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتهت المعركة إلى لا شيء، بل نجد أن الخطوة الثانية من هذا الصراع، هي توسط الخلافة بين الطرفين على أن يدفع ناصر الدولة الحمداني أموالًا طائلة في مقابل ولاية تكريت وما وراءها من ولايتي الشام ومصر ،إذ كان الوضع في هاتين الولايتين قد تغير بموت الإخشيد، فطمع ناصر الدولة في الاستيلاء عليهما، ولكن المصالحة تلك لم تسفر عنشيء بسبب الأموال الطائلة التي طلبها معز الدولة البويهي[١].

أما المرحلة الأخيرة من هذا الصراع، هي توجه معز الدولة في عام ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م،إلى مدينة الموصل معقل الحمدانيين ومحاصرتها حصارًا شديدًا، ثم احتلها، وفرض ضرائب وغرامات على الناس وجمع منهم أموالًا طائلة، ما أثر على الحالة الاقتصادية في المدينة، وعانى السكان من الاستيلاء على الأموال معاناة شديدة[٢]، وكان قد هرب ناصر الدولة الحمداني إلى نصيبين فطارده معز الدولة إليها ثم تقرر الصلح مرة أخرىعلى أن يدفع ناصر الدولة ثمانية ملايين درهم إليه مقابل ولاية الموصل وباقي بلاد الجزيرة الفراتية إلى جانب الشام، أي أن معز الدولة جعل الموصل والجزيرة رسميًّا تحت طوعه.

- الصراع البويهي البريدي:

حاول معز الدولة البويهي أن يسيطر على العراق، شمالًا وجنوبًا،إذ كانت المعارك متصلة بينه وبين الحمدانيين في الشمال، وقد انتصر وحقق أهدافه فيها، أما في الوسط والجنوب كان البريديون مستمرون في السيطرة على هذه المناطق، فمدن واسط والبصرة وغيرها كانت تحت سيطرتهم، فأراد معز الدولة أن يقضي على هذه السيطرة لصالحه، وقد استغل الخليفة المطيع لله في هذه الحركة العسكرية المضادة ضد البريديين[٣].

لقد كانت السلطة البويهية تتعامل مع الخلافة على أنها سلطة روحية تستمد منها معنويات لرجالهم في الجيش ليس إلا، فالخليفة كان ألعوبة يخرج مع معز الدولة أينما حل كأنه رجل من رجاله وليس خليفة له اعتباره، فأصبح الخليفة يخرج إلى المعارك ووظيفته فقط الشرعية.

على أي حال؛ فقد أسفر الصراع بين البويهيين والبريديين،إلى انتصار بني بويه، حيث دخلت القوات البويهية إلى البصرة في عام ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م وكانت البصرة معقل أبي القاسم البريدي،

---

(١) عدوان، الحمدانيون، ص١٧٨.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٩١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واستولت القوات البويهيية على أموال وخزائن البريدي وحرقت الآلات الحربية التي يمتلكها جيش البريدي، بل وقبض على أبي القاسم وجعله تحت الإقامة الجبرية(١).

لم يقتصر الأمر على تثبيت أقدام بني بويه في العراق في القضاء على الخطر الحمداني والبريدي فقط، بل أيضًا انتصر بنو بويه على القرامطة وأبعدوا خطرهم عنجنوب العراق بعد فترة طويلة من الصراع في هذه المنطقة(٢)، كما أخضعوا حركة عصيان قام بها عمران بن شاهين في البطائح(٣).

استمر تثبيت أقدام البويهيين حينًا من الزمن، ولكن الأمور لم تستقر نوعًا ما إذ:

- استمر الصراع البويهي الحمداني، فنجد أنه في عام ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م، خرج معز الدولة البويهي من بغداد في طريقه إلى الموصل، في محاولة لإخضاع ناصر الدولة بسبب الأموال التي تأخر في دفعها،فهرب ناصر الدولة إلى نصيبين عندما حاصر معز الدولة الموصل، لكن شيئًا جديدًا حدث بإيعاز من ناصر الدولة وهو إثارة الأعراب حول الموصل(٤)للشغب وقطع الطريق،ما أثر على الحالة الاقتصادية في هذه المناطق،فلا يستطيع معز الدولة جباية الأموال أو الضرائب حتى لو دخل الموصل، وهذه من آثار الصراعات السياسية أن يكون ضحيتها الحالة الاقتصادية للعامة، وقد تأثرت الموصل وما حولها من بلدان الجزيرة الفراتية من هذا الصراع المرير(٥).

لم ينته هذا الصراع عند هذه المرحلة، فنجد أن بعد هذه الحملة بخمس سنوات كاملة؛ أي في عام ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م، أرسل معز الدولة حملة عسكرية لتحاصر الموصل إثر الخلاف الذي نشب بين الطرفين بسبب رفض معز الدولة تولية أبي تغلب ابن ناصر الدولة للموصل(٦)، وأدى ذلك إلى إثارة الحرب بينهما ولكن هذه المرة فشلت الحملة البويهية في تحقيق هدفها في احتلال الموصل، وعلى أي حال لم ينته الصراع في عهد معز الدولة، وامتد إلى خليفته عز الدين بختيار.

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٢٢١؛ انظر أيضا مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٨٨ وما يليها.
(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٢١.
(٣) مسكويه المصدر السابق، ص٢٩٢.
(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٢٦٠.
(٥) نفسه، ص٢٦٠.
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- السياسة المذهبية في عهد معز الدولة:

كانت السياسة المذهبية في عهد معز الدولة البويهي من الآثار السيئة التي ظهرت نتيجةللتسلط البويهي على الخلافة، فمن المعروف أن البويهيين الشيعة كانوا قد تسلطوا على خلافة سنية، بل وتركوها على ضعفها وساهموا بجزء كبير من الإضعاف والاستهانة بها، بل من المزري في الأمر أن السلطة البويهية أثارت النعرات المذهبية عن عمد لهدف السيطرة الكلية وإيجاد عصبية في المجتمع العراقي لمناصرتها لذلك ظهرت الفتن بين السنة والشيعة لدرجة وصلت للاحتراب الأهلي في عهد السلطة البويهية.

ولقد نجد سياسة معز الدولة التي تتمثّل في إحياء الاحتفالات الشيعية مما يستفز أهل السنة، وهو ما فجّر خلافات أهلية كانت سنوية في المحرم من كل عام وفي يوم الغدير [١]الذي أحياه أيضًا الشيعة من أهل العراق، كل هذه الاحتفالات كانت مصاحبة لها حرب أهلية في شوارع العاصمة بغداد وفي المدن الأخرى ما أدىإلى مقتل العديد من الطرفين[٢]، وزاد من الحالة الاقتصادية المزرية في البلاد، بل وكان محفزًا لزيادة نشاط العياريين والشطّار من الجانبين.

هذه السياسة المذهبية كانت متعمدة من معز الدولة ومن خلفائه من السلطة البويهية المتسلطة على الخلافة كجزء من سياستهم الداخلية في العراق في السيطرة على كل شيء وشغل المجتمع وإنهاكه من أجل السيطرة عليه وهذا واضح في المصادر المختلفة والتي كان أكثرها ساخط على البويهيين من الناحية السياسية والاقتصادية.

ولا أجد أكثر من كلمات الخليفة المطيع لله أكثر وصفًا لحاله، وهو يصف حاله عندما قامت الثورة التي قام بها عامة بغداد على أثر الهجمات البيزنطية علىنصيبين واحتلالها وقتل الكثير من سكانها حيث كانت الثورة قوية لدرجة الضجيج في الجوامع وكسر المنابر وصاروا إلى دار الخلافة واعتدوا عليها،وذلك في عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، حيث قال لأبي الفضل الشيرازي وزير عز الدولة بختيار البويهي الذي كان يحثه على دفع نفقة للمجاهدين الذين يرغبون بالتوجه إلى

(١) أصبحت الاحتفالات الشيعية تقليدًا سنويًا منذ عام ٣٥٢هـ بأمر من معز الدولة البويهي يصاحبه غلق للأسواق وإظهار الاحتفالات الشيعية وهو ما أدى إلى مصادمات عدة في شهر المحرم من كل عام؛ انظر ابن الجوزي، شذور العقود في تاريخ العهود، تحقيق أحمد عبد الكريم نجيب، نشر مركز نجيبويه للمخطوطات ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ م، ص٢٢٥؛ ويوم الغدير هو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة من كل عام وهو اليوم الذي يعتقد فيه الشيعة تنصيب علي بن أبي طالب الولاية من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ انظر محمد الحسيني الشيرازي، عيد الغدير أعظم الأعياد في الإسلام، مؤسسة المجتبي، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص١١ و١٢.

(٢) انظر المبحث الأول من الفصل الثالث من الدراسة سيناقش الباحث هذه النقطة تفصيليًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نصيبين فقال له: "إنما يجب عليّ ذلك إذا كنت مالكًا لأمري وكانت الدنيا في يدي غير القوت الذي يقصر عن كفايتي فما يلزمني غزو ولا حج وإنما لي منكم الاسمعلى المنبر فإن آثرتم أن أعتزل لاعتزلت"[١]. وهذه لعمري كلمات تفصل كل شيء عن الوضع المزري الذي وصلت له الخلافة في عهد معز الدولة ومن بعده من خلفائه البويهيين.

كان المطيع خليفة يثير الشفقة والتعاطف حقًا، فهو من أطول خلفاء بني العباس عمرًا في الخلافة –حواليتسعة وعشرين عامًا– وأسوأهم حكمًا، فهذا الخليفة لم يملك من أمره أي شيءسوى الاسمعلى المنبر[٢]، دولته كلها تحت سيطرة الشيعة من أولاد بويه الزيديين والفواطم الشيعة الإسماعيلية في المغرب والذي كان يرنو بصرهم نحو مصر، لذلك نجد للمطيع ذكرًا في أحداث عصر معز الدولة سوى ما سبق، وبعد موت معز الدولة يأتي ابنه عز الدولة بختيار وتمتد مرحلة جديدة نشأت على أسس القديم، لكنها كانت مختلفة بطبيعة الحال.

علىأي حال، توفي معز الدولة البويهي في عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م[٣]، أثناء توجهه إلى البطائح لتأديب عمران بن شاهين، وخلفه ابنه عز الدولة بختيار الذي اختاره رؤساء الجند الديلم بعد تدبير من أبيه معز الدولة قبل موته.

تولى عز الدولة بختيار[٤] في ظروف صعبة على العراق، ومن هذه الصعوبات:

– كانت العلاقات بين عز الدولة بختيار والحمدانين من سيئإلى أسوأ؛إذ كانت في عهد معز الدولة سيئة وانحدرت نحو الأسوأ في عهد عز الدولة الذي كان غير حصيفًا في هذه العلاقات،فبدأ عهده بالقيام بمحاصرة الموصل والقضاء على الحمدانيين[٥]، ثم دخل الموصل في الوقت الذي كان فيه أبو تغلب يراسل سبكتكين الحاجب [٦]على دخول بغداد فتكون واحدة أمام

---

(١) وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص ٤٨.

(٢) نفسه، ص٤٨.

(٣) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٦٦.

(٤)عز الدولة بختيار: هو عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة بن بويه، كان شديد القوة متوسعًا في التكاليف والإخراجات، حكم العراق بعد وفاة أبيه وكان عمه ركن الدولة بن بويه في فارس، وكان عز الدولة مشتهرًا باللهو والعكوف عليه مما أضعف سلطته في العراق، صاهره الخليفة الطائع فتزوج ابنته شاه زنان؛ انظر صلاح الدين خليل بن أيبك (الصفدي)؛ الوافي بالوفيات، ج١٠، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٥٢؛ وأيضا ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٢٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٣٩.

(٦) سبكتكين: كان حاجبًا لمعز الدولة بن بويه، خلع عليه الخليفة الطائع ولقبه نصر الدولة ومنحه إقطاعات وأموال جمة، توفي في عام ٣٦٤هـ؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٣٧و٣٣٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واحدةلكن هذه المحاولة فشلت بسبب تردد سبكتكين الذي كان وراءه قوة الوزير ابن بقية وزير عز الدولة.

دخل بختيار إلى الموصل إذن وعانت المدينة من غلاء الأقوات ونقصها ونقص الأموال وتدهورت الأسواق والحالة الاقتصادية للعامة جراء الحرب من ناحية والهجمات البيزنطية وما عانته من حرب أهلية بين أبناء البيت الحمداني.

أما عن الحرب الأهلية في شمال العراق فكانت بين حمدان وأخيه أبي تغلب الذي كان يحكم المنطقة الجزرية كلها بعدما تنكر لأبيه ناصر الدولة وحجر عليه وحكم بدلًا منه، وسرعان ما مات ناصر الدولة هو الآخر في عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م[١]، كل هذا والروم البيزنطيون يسيطرون على الثغور ويعيثون فيها فسادًا.

هذا عن الوضع العام في شمال العراق،أما بغداد فكانت تموج بثورة داخلية من العامة بسبب هذا الوضع، وكان عز الدولة بختيار في لهوه بعيدًا عن تلك الأحداث الخطيرة التي تجاوره، حيث اكتفى فقط بعمل مصالحة بين أبي تغلب وأخيه ونجح في مسعاه ذلك عام ٣٦٣هـ/ ٩٦٧م[٢].

عانت الجهات الجزرية وبالأخص نصيبين للهجمات البيزنطية على يد نقفور الدمستق الذي استغل الضعف والفراغ العسكري والسياسي وقام بهجمات على الجزيرة الفراتية، وواجه الحمدانيون هذه الهجمات العنيفة في جولات سابقة.

علىأي حال، نجح الحمدانيون بعد توحيد جهودهم في رد الهجمات البيزنطية وأسر الدمستق في معركة كبيرة في عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، وهنا تشجعت السلطة البويهية هي الأخرى وبعثت بعد ضغط من العلماء والفقهاء والعامة في إرسال حملة عسكرية إلى الثغور، واستطاعت النصر على الروم والرجوع برؤوس قتلاهم إلى بغداد حتى تسكن نفوس الناس الغاضبة[٣].

ومن غريب الأمر أيضًا،أن الوضع السياسي المتأزم أشعل الفتنة بين السنة والشيعة، وحوصرت الأسواق، لا سيما المناطق الغربية والجنوبية من بغداد خاصة منطقة الكرخ والتي كانت مركز ثقل اقتصادي كبير، وتم إحراق السوق الكبيرة ما زاد من الأزمة الاقتصادية العامة، ولا يستبعد

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣١١.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٣٩٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٦١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباحث أن هذه الفتنة كانت مدبرة للخروج من الضغط الشعبي الذي قام به العامة ضد السلطة البويهية[١].

والتفسير السابق يعضده حوادث عام ٣٦٢هـ/ ٩٧١م، حيث قتل أحد الشيعة على يد أحد عمال الدولة مما كان نتيجته قتل هذا العامل انتقامًا من فعلته وهو ما أدىإلى تدخل السلطة التي بعثت الفضل بن الحسين وقام بإحراق المحال التجارية بالكرخ[٢].

علىأي حال، انتهى عهد عز الدولة بختيار الذي سنتعرف على تفاصيل نهايته بعد قليل، ومعه تنازل الخليفة المطيع الذي أصيب بمرض الفالج،عن الخلافة لولده في عام ٣٦٣هـ/ ٩٧٢م[٣]، وبذلك يسدل الستار على عهد مليء بالاضطرابات والسوء لتدخل العراق فترة جديدة فيها خليفة جديد ضعيف وواحد من أعظم رجالات الدولة وهو عضد الدولة البويهي[٤].

- خلافة الطائع لله (٣٦٣هـ-٣٨١هـ/ ٩٧٣م-٩٩١م):

هو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع الذي تلقب بعد مبايعة القائد التركي سبكتكين له بالطائع لله[٥].

كانت الأحوال في بداية عهده مضطربة وذلك بسبب المنازعات التي قامت بين عز الدولة بختيار وقائده القائد سبكتكين مقدم الأتراك في جيشه، وهو النزاع الذي أثر على الحالة العامة للعراق، سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية.

وعلى الجهة الأخرى من الدولة البويهية كان الرجل القوي عضد الدولة البويهي يراقب الأحداث عن كثب من مقره في فارس في محاولة للتدخل في الأمر، وجاءته الفرصة سانحة عندما دعاه بختيار لنصرته على سبكتكين الذي استبد بالأمر داخل بغداد ودعا لنفسه دون بختيار،إذ كان بهذه الدعوة متمردًا على الدولة البويهية نفسها[٦].

---

(١) انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢١٥.

(٢) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٢٨.

(٣) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٢٣؛ انظر أيضا ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١٧٨.

(٤) عضد الدولة: هو أبو شجاع فانخسرو ابن ركن الدولة حسن بن بويه، كان من أعظم رجالات البيت البويهي، حكم فارس والعراق بعد موت أبيه ركن الدولة منذ عام ٣٦٦هـ/ ٩٦٦م، كان جبارًا عسوفًا، بطلًا مهيبًا شجاعًا محب للعلم والأدب، ومات بعلة الصرع في عام ٣٧٢هـ/ ٩٧٢م؛ انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٢٥٠ وما يليها.

(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٢١.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تستقر الأمور لعضد الدولة البويهي إلا في عام ٣٦٦هـ/ ٩٦٦م، وذلك بعدما واتته الفرصة للتدخل في الساحة العراقية مرة أخرى،إذ مات أبو الحسن ركن الدولة، وكانت سياسة بختيار السيئة على العراق مستمرة على نهجها، وساعده على غزو العراق فرقاء وأعداء الأمس كأبي تغلب الحمداني الذي رأى أن من مصلحته شق الصف البويهي[١]، فراسل عضد الدولة على أنه يساعده، وقد دخلت قوات عضد الدولة إلى بغداد بعد استيلائها على البصرة، وكان هذا الدخول في عام ٣٦٧هـ/ ٩٦٧م[٢]، بعدما اتفق بختيار مع عضد الدولة أنه سيخرج إلى الشام.

ما يهمنا في هذا الصدد هي أحوال العراق الاقتصادية في تلك الأثناء:

- تعرضت بغداد لغلاء شديد ومجاعة كبيرة ألمت بها،إذ نقصت الأقوات مثل الدقيق والسكر والتمر، وزادت أسعار المواد الغذائية الأخرى، بل ونقص التبن والعلوفات التي تتغذىعليها الأبقار في السواد العراقي، وقد سكتت المصادر عن السبب الرئيس لهذه المجاعة والغلاء[٣]، لكن السبب السياسي والاحتقان بين قائد الجيش سبكتكين وبختيار وما نتج عنه من تدخل لعضد الدولة في العراقكان السبب الرئيس لموجة الغلاء تلك.

- تقول المصادر أيضًا، أن طرق التجارة العراقية تأثرت بشدة بسبب الاحتقان السياسي، فقد كان الشغب الذي قام به الجند سببًا في توقف التجارة وقوافل الحج لهذه السنة،إذ أطلق عضد الدولة في تدخله الأول يد الجند وأعطاهم الأمر بالشغب على بختيار،إذ أعجب عضد الدولة ملك العراق وكان لابد من التحرك ضد بختيار في جميع الأحوال[٤].

- من الناحية السياسية، وأخص بالذكر العلاقة بين الخليفة الطائع لله وعضد الدولة البويهي، فقد استمر عضد الدولة في الحجر على الخليفة العباسي وسياساته بطبيعة الحال، فهذه سياسة الدولة منذ بدايتها فلن يحيد رأس الأسرة البويهية عضد الدولة عنها، فمن تلك المظاهر هي نوبات الصلاة، فمن المعروف عادة أن تقرع الطبول عند باب الخليفة في أوقات الصلاة الخمس،وعند وصول عضد الدولة اصطفى لنفسه ثلاث نوبات تقام عند بابه عند صلوات

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٨٣.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص ٤٢٩.

(٣) نقصد بها مجاعة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٢٣٦.

(٤) ليس هذا السبب الوحيد، فقد ذكر مسكويه أن بني شيبان وقطاع الطرق من الأعراب مثل ضبة بن محمد الأسدي قاموا بالشغب والنهب في السواد بأمر من بختيار نفسه؛ كي يقطع الطريق على ألفتكين، وهو أحد قواد الأتراك المتمردين على بختيار، ما أدى إلى زيادة سوء الأحوال الاقتصادية بسبب قطع طرق التجارة والحج وحصار المدن في السواد لا سيما بغداد؛ انظر مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤١١؛ وأيضا ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٣٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثلاث[١]، وهذه عادة استمرت مع خلفائه، بل زادت في بعض عهود من خلفه،وقد لقب الخليفة الطائع عضد الدولة بالملك والشاهنشاه كأول لقب لحاكم في الإسلام[٢]، ويدل ذلك على مدى تسلط البويهيين على الخلافة. ولكن علىأي حال قام عضد الدولة بتعظيم الخليفة وبجَّله وزاد في أمواله [٣]كجزء من علاقته مع الخلافة بالرغم من أن الخليفة الطائع لله كان مع بختيار في حربه ضد عضد الدولة في المرة الأولى لتدخله في العراق،وربما كان مجبورًا على الوقوف بجانب بختيار لأنه كان كارهًا له، وهذا الكره كان واضحًا عندما تركه وسط المعركة وبرز متوجهًا إلى بغداد.

واستمر عضد الدولة في السيطرة على الخلافة حتى وفاته، ويصف السيوطي العلاقة بين الرجلين أنها عجيبة سواء في قوة عضد الدولة وما يقابلها من ضعف شديد من الخليفة الطائع، لدرجة أن الخليفة كان يذهب إلى عضد الدولة ليعزيه كأنه أمير من الأمراء[٤].

– من الناحية الحربية سيطر عضد الدولة على العراق، فقد تخلص من بختيار الخارج إلى الشام ثم نقض عهده وتحالف مع أبي تغلب الحمداني فتخلص منه عضد الدولة بسرعة وقضىعليه، وتفرغ لتثبيت أقدامه من خلال بعض الخطوات إذأزال الدولة الحمدانية وحاصر الموصل حصارًا شديدًا عانى منه الناس، ونقول إن الناحية الاقتصادية تأثرت جراء تلك الحرب على وجهين متوازيين[٥]، وهما الأول أن عضد الدولة تعلم من أخطاء معز الدولة في حصاره على الموصل وفي صراعه مع الحمدانيين حلفاء أولاد بختيار،إذ قام عضد الدولة بجمع الدواب والعلف وجمع الكثير من الأقوات لجيشه حتى يحاصر الموصل فترة كبيرة، والثانية هو تأثر بلاد الجزيرة نفسها من هذا الحصار ومن تلك الحرب المكشوفة بينه وبين أبي تغلب الذي هرب ومعه الدواوين وجمع الميرة من المدينة ما أثر على الناحية الاقتصادية في الأسواق في مثل هذه الحالات العسكرية، وقد هرب إلى ميافارقين ثم إلى آمد ثم الرحبة ومنها إلى الشام، فتأثرت تلك المدن بالناحية الاقتصادية السيئة[٦].

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٣٧٧؛ انظر أيضا محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، تحقيق محمد العثماني، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م ص٤٤٤.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٩١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٩١.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٢٣.

(٥) انظر ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٧٩.

(٦) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤٣٧ و٤٣٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد كان عصر عضد الدولة عصر استقرار وازدهار اقتصادي مؤقت في الدولة البويهية وفي العراق، فلم تشهد المناطق العراقية أي موجات غلاء أو قطع لطرق التجارة أو انتكاسة في قيمة العملة، بل على العكس كانت كل المجالات فيها استقرار وازدهار،حتى من الناحية الاجتماعية، فقد ضرب عضد الدولة بيد من حديد كل الحركات المناوئة له، بل ثبت حكمه في العراق، وأسس إمبراطورية قوية شرقًا وغربًا[١]،حتى أننا نجد رواية وحيدة من ابن مسكويه تفيد بأن عضد الدولة كان يفكر بالاصطدام مع الخلافة الفاطمية وينشر جواسيسه في مصر[٢]، وهذه علىأي حال تدل على عظمة حكم عضد الدولة الذي كان يعتبر من أعظم رجالات بني بويه على الرغم من عدم منطقية رواية ابن مسكويه.

لا أجد وصفًا لاستقرار الدولة في عهد عضد الدولة سوى ما وصفهابن الأثير حين قال: "شرع عضد الدولة في عمارة بغداد، فعمر مساجدها وأسواقها، وأدّر الأموال على الأئمة، والمؤذنين والعلماء والقرّاء،وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجدد ما دثر من الأنهار، وأعاد حفرها وتسويتها، وأطلق مكوس الحجاج، وأصلح الطريق من العراق إلى مكة، وسكّن الناس الفتن، وأجرى الجرايات على بيوتات الأشراف والفقهاء والمحدثين والمتكلمين،والمفسرين والنحاة والشعراء والأطباء، وأذن لوزيره نصر بن هارون -وكان نصرانيًا- في عمارة البيع والأديرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم"[٣].

توفي عضد الدولة البويهي في عام ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م[٤]، وتولى ابنه صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان[٥] أمر الدولة البويهية فخلع عليه الطائع لله لقبه "شمس الملة وخلع عليه سبع خلع وعقد له لوائين".

وكان عهد صمصام الدولة يختلف كلية عن عهد أبيه، فقد ظهرت الفتن الداخلية مرة أخرى

---

(١) انظر إصلاحات عضد الدولة العمرانية والاقتصادية تفصيليًا في مسكويه، المصدر السابق، ص ٤٤٧ و٤٤٨ و٤٤٩.
(٢) أبي شجاع محمد بن الحسين (الروذراوري)، ذيل تجارب الأمم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤٠ وما يليها.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٣٨٧ و٣٨٨؛ وأيضا الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص٤٦ و٤٧.
(٤) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٣١.
(٥) صمصام الدولة: هو أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة البويهي، تولى الأمر بعد وفاة عضد الدولة إذ تمت بيعته على عجل من القواد ومن الخليفة الطائع ولقبه بشمس الملة وذلك بعد عزاء أبيه مباشرة؛ انظر الروذراوري، المصدر السابق، ص٥٠؛ وأيضا ابن الأثير، المصدر السابق، ص٤٠٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وساءت الأحوال السياسية، وهو ما نجده في النزاع بين صمصام الدولة وشرف الدولة [1]أخيه الذي كان يحكم فارس،إذاستقل شرف الدولة بعد موت أبيه بفارس، فلقد كان حاكمًا على كرمان، وما إن سمع بموت أبيه حتى دخل على فارس واستولىعلى حكمها.

كان الصراع بين صمصام الدولة وشرف الدولة مريرًا، وكانت العراق تعاني من هذا الصراع،على الأحوال السياسية ومن ثم الاقتصادية، فمن الناحية السياسية تعرضت وحدة العراق للخطر إذ استقلت البصرة عن سلطة بغداد، وكان يحكمها الأمير البويهي أحمد بن عضد الدولة واستولى أثناء الصراع الأخوي على الأهواز أيضا[2].

هُزم صمصام الدولة في المواجهة العسكرية التي كانت بينه وبين شرف الدولة في عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م، وكانت من نتائجها ضعف الجبهة العراقية.

انتهى هذا النزاع العسكري بهزيمة صمصام الدولة الذي عانى في السنتين التاليتين منعدة مصاعب كان من أبرزها احتلال مدينة الكوفة من القرامطة،إذ هجم جيش من القرامطة على الجنوب العراقي ووصل حتى مقربة من بغداد[3]، وقد تفاوض معهم صمصام الدولة حتى ينسحبوا من المناطق المحتلة، ونجحت المفاوضة إلا أن القرامطة استقروا في الكوفة وجبوا أموالها لصالحهم، ويبدو أن دخول القرامطة المشهد العراقي كان مؤامرة مع شرف الدولة.

أما عن الأحوال الاقتصادية فيحدثنا ابن الجوزي عن مجاعة كبيرة وغلاء شديد عانت من البلاد جراء هذا الصراع،فزادت الأسعار بطريقة كبيرة في عام ٣٧٣هـ/٩٨٤م،ما أدىإلى مجاعة كبيرة لحقت بالناس، وأدت إلى موت الكثير من الناس جوعًا في الطرقات، وعدمت الأقوات بشكل كبير، وقد أدت تلك الأزمة إلى انتفاضة شعبية قام بها العامة في بغداد ضد السلطة الحاكمة،فكسر العامة منابر الجوامع ومنع الصلاة حتى ترخص الأسعار وتتكشف المحنة الاقتصادية[4].

استطاع في النهاية شرف الدولة أن ينهي هذا الصراع لصالحه وذلك بإقناع إخوته بأنه الأجدر بحكم العراق من صمصام الدولة، واستولى بدوره على الأهواز والبصرة، ثم جاء الدور على

---

(١) شرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة كان مع أبيه وحضر وفاته في كرمان، وتنازع مع أخيه على خلافة عضد الدولة، كان يميل إلى الخير وإزالة المصادرات والضرائب على الناس، مرض بعلة فساد المزاج والاستسقاء، توفي عام ٣٧٩هـ؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٤٠.

(٢) وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص١١٣.

(٣) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٣٢.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ٣٠٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموصل التي كانت تعاني بدورها من الفوضى السياسية خاصة من الاضطرابات التي كان يقوم بها الأكراد في تلك الأثناء ولم يبق إلا بغداد.

لم يتسن المقاومة لصمصام الدولة أكثر من ذلك، فرغم أن لديه فرصة أخيرة للمقاومة إلا أنه فضل أن يستسلم لأخيه شرف الدولة الذي دخل بغداد في احتفال مهيب وذلك في عام ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م[١].وقد أمَّن أخاه على ماله ونفسه، لكن هذا الأمان لم يستمر طويلًا،فغدر به شرف الدولة وحبسه وأرسله إلى فارس ثم أرسل من سمل عينيه في محبسه[٢].

والحقيقة أن الخليفة الطائع انتهى دوره؛إذ اقتصر دوره على التعزية في الأمراء البويهيين الواحد تلو الآخر وتهنئة الجديد بتجديد العهد له ورفع لوائه وإرسال الخلع فقط، فتلك سنة سنها البويهيين واستمرت في عهدهم وما بعد ذلك أيضًا.

أما عن العلاقة بين الخليفة الطائع والأمير شرف الدولة بن عضد الدولة البويهي، فلم يكن فيها جديد على الإطلاق،فذهب الخليفة بنفسه إلى شرف الدولة عندما دخل إلى بغداد فهنأه بالإمارة وأرسل إليه الخلع في احتفال رسمي حضر فيه الشهود والقضاة والفقهاء، وذلك بعد شهور من دخوله بغداد إذ تم تنصيبه في ربيع الأول ٣٧٧هـ/ يوليو ٩٨٧م[٣].

لم يستمر شرف الدولة كثيرًا في حكم العراق إذ توفي في عام ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م[٤]، وكانت العراق تعاني من بعض المشاكل الداخلية لا سيما الاقتصادية منها،إذ حاول شرف الدولة منع المصادرات والتوقف على أسبابها، وكلف أبي منصور بن صالحان وزيره في فارس واستوزره في العراق، وقام الوزير بالتشديد على العمال ومطالبتهم بإعمار البلاد[٥].

وبالرغم من محاولات الإصلاح الاقتصادية والعمرانية، فقد نجد في المصادر المعاصرة موجات غلاء ضربت بغداد في سنوات حكم شرف الدولة،إذ نجد ارتفاعًا لأسعار المواد الغذائية ونقصها مثل الدقيق والذي استمر الغلاء فيه في عام ٣٧٦ والعام الذي يليه[٦]، كما نجد في حوادث السنة التالية أي في عام ٣٧٨هـ/ ٩٨٩م،أن غلاء الأسعار استمر في العراق، وقد أدىإلى زيادة

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٢٨.
(٢) حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص١٤٢.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٢١.
(٤) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص٩٢.
(٥) منيمنة، المرجع السابق، ص١٤٢.
(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣١٧ و٣٢٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رقعة الجوع، واشتداد المجاعة وانعدام الأقوات ونقص الغلال،حتى تم بيع الكارة الدقيق بستين درهمًا[١].

تولى بهاء الدولة [٢]الابن الأصغر لعضد الدولة وأخو شرف الدولة وصمصام الدولة حكم العراق، حيث قام الخليفة الطائع لله بتعزيته في أخيه وإرسال الخلع واللواء وتوليته في منصب الأمير[٣]، وقد واجه بهاء الدولة مصاعب كبيرة في حكم العراق حيث قام صمصام الدولة الذي تمكن من الهرب من محبسه في فارس بالخروج والاستيلاء على مقاليد الأمر هناك، في الوقت الذي كان بهاء الدولة يدبر خطة للتخلص من أبيعلي بن شرف الدولة، وبالفعل تخلص منه في مدينة واسط وقتله في عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م[٤].

في نفس السنة قام بهاء الدولة بتجهيز جيش للاستيلاء على فارس، لكنه فشل في ذلك، والحق أن بهاء الدولة كان يعاني في العراق من الأزمة الاقتصادية الطاحنة، حيث قلت الأموال في خزانة الدولة واضطر بهاء الدولة أن يصادر الأموال المتبقية للخليفة الطائع لله حتى تنفرج الأزمة المالية[٥]،ولم يكتف بذلك بل صادر أموال بعض الولاة والعمال واقترض من صاحب البطيحة، وتفشت في عهده القصير مظاهر بيع المناصب لمن يدفع أكثر[٦]، وهكذا وصلت العراق في عهده إلى أسوأ حالتها الاقتصادية وارتفعت الأسعار وانتشرت المجاعات في تلك السنوات بشكل متكرر،حتى أن بهاء الدولة شرع في التجهيز لحملة عسكرية في محاولة منه للاستيلاء على فارس حتى ينقذ العراق من الحالة التي وصلت إليها[٧].

أما عن علاقته مع الخليفة الطائع فقد سبقت الإشارة إلى أنه استولىعلى أمواله لينقذ خزينة الدولة، لكنه لم يكتف بذلك بل قبض على الخليفة الطائع لأنه حبس أحد خواص بهاء الدولة

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٣٢٩.

(٢) بهاء الدولة: فيروز أبو نصر أحمد بن عضد الدولة، تولى العراق لمدة ثلاث وعشرين سنة، وكان جامعًا للمال، يؤثر المصادرات حتى أنه صادر الطائع، وجمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من بني بويه؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٩٥؛ وأيضًا الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص١٨٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٣٧.

(٤) منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص ١٤٣.

(٥) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٣٤.

(٦) منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص١٤٥.

(٧) منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص١٤٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوجدها حجة كافية للقضاء على الطائع وقام بجلب القائم بأمر الله من مدينة واسطليتولى الخلافة وخلع الطائع لله وذلك في عام ٣٨١هـ/ ٩٩١م[١].

وعلىأي حال؛ كان الخليفة الطائع قد توفي بعد ذلك في بيت القادر بالله حيث عاش مكرمًا في هذا البيت حتى وفاته في ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م، وقال السيوطي في حقه: "هو الخليفة المستضعف الذي لم تضعف الخلافة إلا في زمنه"[٢]، وهذا القول صحيح لأنه كان رجلًا فقد ظله السياسي وحتى المعنوي فقد كان حكام البويهيين يعاملونه بمزيد من الاحتقار.

خلافة القادر بالله (٣٨١هـ-٤٢٢هـ/ ٩٩١م-١٠٣١م):

وهو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، ولد في عام ٣٣٦هـ، وكان كثير العلم حتى أنه صنف كتابًا في الأصول وفضائل الصحابة كان يتلى في جامع المهدي كل جمعة[٣].

أما عهده فكان لا يختلف عمن سبقه من خلفاء بني العباس المحكومين من البويهيين، إلا أننا نجد أن عهده الطويل شهد انهيار الدولة البويهيية وانتصار السلاجقة السنة عليها في فارس ثم دخولهم العراق.

فبدأ عهده الطويل باستمرار الأزمة التي يعانيها بهاء الدولة البويهي، حيث تعاهد الاثنان على الوفاء وجدد القادر بالله البيعة والخلعة لبهاء الدولة[٤]، إلا أننا نجد أن بهاء الدولة استمر في السياسة غير القويمة واتخذ بعض الإجراءات وواجه بعض الصعوبات مثل:

- نقل مقر الحكم من بغداد إلى شيراز وعين حاكمًا عامًّا على العراق باسم عميد الجيوش[٥].
- كان عليه أن يواجه قوة صمصام الدولة المتنامية في فارس وقد وصل في النهاية إلى مبتغاه عندما قتل صمصام الدولة واختفى من المسرح السياسي، واستولى بهاء الدولة على جيش صمصام ووصل جيشه إلى خوزستان وبدأت مرحلة جديدة من عمر بهاء الدولة[٦].
- كان على بهاء الدولة أن يستمر في تثبيت أقدامه حيث وجه جهوده نحو بني عقيل الأعراب

---

(١) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٨٣.
(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص٣٢٤ و٣٢٥؛ ابن العمراني، المصدر السابق، ص١٨٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص١٢٨ و١٢٩.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٥٤ و٣٥٥.
(٥) منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص١٤٨.
(٦) نفس المرجع السابق، ص ١٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الذين استولوا على الموصل، فنجح في استعادة السلطة البويهية في عام ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م[١].

- كان الخطر الفاطمي ينتشر في العراق في عهد الخليفة القادر بالله، والذي كان لا يروقه الأمر، فمع النزاعات السياسية الكثيرة في عهد بهاء الدولة قام الفاطميون بمراقبة الأوضاع في العراق حيث استطاعوا باستمالة بني عقيل الذين استولوا على حكم الموصل مرة أخرى في عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦ م[٢]، وذلك في عهد المقلد ومن بعده ابنه قراوش الذي عزم الاستيلاء على بغداد من بهاء الدولة الذي كان يقبع في شيراز في تلك الأثناء.

وكان قراوش يهدف لخلع الخليفة القادر وإعلان بغداد تابعة للخلافة الفاطمية وإزالة شعار السواد ورفع لواء الخلافة الفاطمية، فراسل القادر بالله في جزع بهاء الدولة الذي كلف وزيره عميد الجيوش أبيعلي بن أستاذ هرمز بمراقبة الأوضاع والذي استطاع إخضاع قراوش للخلافة العباسية مرة أخرى[٣].

على أننا في خضم تلك الأحداث السياسية لا ننسى الحالة الاقتصادية السيئة في العراق والتي تأثرت بالناحية السياسية ومن مظاهر تلك الحالة:

- تعرضت بغداد أكثر من غيرها من المدن العراقية للأزمات، ولابد أن هذا راجع إلىأنها المدينة الأهم في العراق وكأنها هي المرآة التي تظهر فيها سواء كانت الحالة مستقرة أو غير ذلك، فقد تعرضت هذه المدينة لحالة اقتصادية متردية وغلاء في الأسعار تبعه مجاعة ونقص في المواد الغذائية وذلك في عام ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م[٤]، هذا إلى جانب إغلاق الأسواق بسبب اضطرابات اجتماعية وفتن متلاحقة بين السنة والشيعة مثل عام ٣٩١هـ/ ١٠٠١م [٥]وكانت هذه الفتنة السبب في تدخل سياسي لنفي الفقيه ابن المعلم الشيعي والذي كان السبب في هذه الفتنة، وقد تسارعت وتيرة الفتنة المذهبية في عهد بهاء الدولة حتى وصول عميد الجيوش إلى الوزارة الذي

---

(١) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٤٦؛ وبني عقيل هم من بني عامر بن صعصعة وبنو طيء من كهلان وكانوا من العرب الذين يؤدون الإتاوة لبني حمدان، ثم غلبوا على أمر الموصل وملكوها بعد سقوط الدولة الحمدانية، وبعث أبو الدرداء محمد بن المسيب أمير بني عقيل لبهاء الدولة أن يبعث عاملًا من قبله على أن يكون هو من يحكمها؛ انظر ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص٣٢٦ و٣٢٧.

(٢) انظر عن إثارة داعية الفاطميين هبة الله الشيرازي للمقلد أمير بني عقيل ليثور ضد الخلافة لصالح الفاطميين؛ خاشع المعضيدي، إمارة بني عقيل في الموصل، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٨م، ص٧٧.

(٣) لم يكن قراوش مخلصًا للحاكم بأمر الله الفاطمي إلا ظاهريًا، إلا أنه أستغل الصراع العباسي الفاطمي لابتزاز الخليفة العباسي فثار عليه؛ ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٤١؛ وأيضًا، المعضيدي، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوقف هذه الفتن الاجتماعية حتى أننا لا نجد فتنة واحدة في عهده سوى فتنة بين الطرفين عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م[١].

- كان الأعراب يعيثون فسادًا في طرق التجارة الواصلة والعائدة من العراق، بل ووصل الأمر إلى تهديد طريق الحج، وكثيرًا ما نجد أن طرق الحج كانت مقفلة بسبب الاضطرابات الأمنية والأخطار التي تعرض لها الحجاج خاصة من الأعراب الذين استغلوا الفوضى السياسية وعملوا لصالحهم عن طريق النهب والسلب، وقد استمرت هذه الفوضى الأمنية لعدد من السنوات مثل ٤٠٣هـ[٢]، و٤٠٦ هـ [٣]و٤١٠هـ[٤].

- تعرضت العملة الذهبية البويهية إلى نقصان متلاحق منذ موت عضد الدولة التي كانت أيامه مستقرة من ناحية قيمة العملة وتوافر المواد الغذائية، فقيمة العملة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالحالة السياسية للبلاد، هذا إلى جانب أنها مظهر من مظاهر استقرار الاقتصاد وهو ما كانت تعاني منه العراق[٥].

- كان الجند الأتراك والديلم يشغبون من أجل المرتبات[٦]، بل كانوا يتحكمون في المصائر السياسية، فنجد أنهم يتحكمون في المناصب التي يوزعها بهاء الدولة، وهو ما أدىإلى كثرة استقلال الأمراء في كل من الجنوب والشمال العراقي، وهو ما يشبه إلى حد بعيد أمراء الطوائف مع الفرق أنهم لم يتخذوا مظاهر ملوكية مثل نظرائهم الأندلسيين.

وقد كان للصراع بين بهاء الدولة وصمصام الدولة أثر كبيرعلى شغب الجند وحافز لهم من أجل كسب مكاسب سياسية ومادية من خلال هذا الصراعوكثيرا ما قاموا بانتفاضات داخلية من أجل رواتبهم.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٥٨.

(٢) مثل حملة ابن مزيد على بني خفاجة بالقرب من الكوفة جنوبي العراق؛ انظر المصدر السابق، ص٩٠.

(٣) في تلك السنة توقفت قافلة الحج الخرسانية بسبب شغب الأعراب في العراق؛ المصدر السابق، ص١١٢.

(٤) نفسه، ص١٣٤.

(٥) استمرت العملة وقيمتها في النقصان منذ موت عضد الدولة حتى وصلت أقل من قيمتها بنسبة ٥٦% في عهد بهاء الدولة؛ انظر منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص ٣٨٩.

(٦) على سبيل المثال شغب الجند في عام ٣٨٢هـ على بهاء الدولة، وكثيرًا ما كان يحدث وسيناقش الباحث تفصيليًا عن الشغب ونتائجه الاقتصادية في مبحث منفصل من هذا الفصل؛ أما عن أحداث الشغب انظر ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٥٩؛ وعن أحداث الشغب في السنة التي تلتها انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٣٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- شهدت العراق نفسها في ذلك العهد عددًا كبيرًا من استقلالات الأمراء ما أثر في الحالة الاقتصادية العامة تبعًا للحالة السياسية المحتقنة، فنجد إمارة لبني مزيد في الحلة[1]، ومن بعدها بني عقيل في الموصل، وهكذا خرج الوسط والشمال العراقي من تحت سيطرة البويهيين وأصبح نفوذهم عليه اسميًا فقط.

- سار بهاء الدولة على درب من سبقوه من ناحية علاقته بالخليفة خاصة في المصاهرة السياسية التي كان يحرص بعض الأمراء البويهيين على عملها مع العائلة العباسية، حيث عقد الخليفة على سكينة بنت بهاء الدولة لكنه لم يدخل بها وتوفيت قبل الزفاف، وذلك في عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م[2].

علىأي حال استقر بهاء الدولة في شيراز وحكم منها وترك الأمر في يد عميد الجيوش أبي جعفر الحجاج الذي استقرت الأحوال السياسية في عهده، لكن الأحوال الاقتصادية لم تكن على ما يرام، حيث شهد عهد بهاء الدولة بالجملة مختلف الأزمات الاقتصادية والفتن والمحن الاجتماعية خاصة في دار السلام بغداد، وقد وصفه ابن تغرى بردي أنه كان ظلومًا غشومًا سفاكًا للدماء[3].

توفي بهاء الدولة بن عضد الدولة إثر مرضه بالصرع، حيث مات به في عام ٤٠٣هـ/ ١٠٠٤م[4]وتولى الحكم سلطان الدولة[5].

عادت الصراعات الأسرية مرة أخرى بعد فترة من الاستقرار خاصة في جبهة العراق، التي استقر فيها مجموعة من الوزراء المتعاقبين أمثال عميد الجيوش أبيعلي بن أستاذ هرمز ومن بعده أبي جعفر الحجاج والذين حاولا أن يستقر العراق في عهدهم[6].

---

(١) إمارة بني مزيد: ينتمون إلى بني أسد المنتشرين ما بين بغداد والبصرة حتى يصلوا إلى نجد من شبه الجزيرة العربية، ومنهم بنو دبيس أمراء الحلة، وقد أسس أبو الحسن علي بن مزيد الإمارة في عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م واستمرت حوالي قرن ونصف؛ انظر ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٦ وما يليها؛ انظر أيضا أحلام فاضل عبود، مدينة الحلّة منذ تأسيسها حتى القرن التاسع عشر، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، جامعة بابل، العراق، ٢٠١٠، ص٨ و٩ و١٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٣٣٢.

(٣) جمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٤، نشر وزارة الثقافة، مصر، ١٣٦٣ هـ/ ١٩٦٣م، ص٢٣٣.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٩٥.

(٥) سلطان الدولة: هو أبو شجاع بن بهاء الدولة البويهي ولقب بسلطان الدولة، وقد توفي في شيراز عن عمر يناهز اثنين وعشرين عامًا وأنجب ولدًا جعله القادة الأتراك وليًا لعهد أبيه وهو أبو كاليجار؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٥.

(٦) منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص١٥٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد تولى العراق بعدهما الوزير أبو غالب فخر الملك[١]، والذي استدعاه سلطان الدولة ثم صادر أمواله وتخلص منه، وقد عين من بعده الوزير الحسن بن سهلان، والذي كان ضعيفًا قليل الحيلة سريع الغضب، قليل الصنعة كما وصفه ابن الأثير[٢].

علىأي حال تمزقت وحدة فارس بسبب الصراعات الأسرية بين سلطان الدولة وإخوته، وهو ما اضطره للاستعانة بجبهة العراق حيث دخل سلطان الدولة بغداد عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، دخول الفاتحين، ويعتبر دخوله باحتفال مهيب كان يهدف منه إلى مظهر الشرعية الذي يحتاجه لتدعيم موقفه[٣].

وبصدد علاقته مع الخليفة القادر بالله، فقدسار على منهج من سبقوه، بل زاد من الإذلال لسلطة الخلافة حيث أمر بضرب الطبول على بابه خمس مرات في موعد الصلوات الخمس وهو ما لم يفعله عضد الدولة في عز مجده[٤].

وكان استقرار سلطان الدولة في بغداد محفوفًا بالمخاطر، خاصة بعد خروج أخيه أبي الفوارس ضده في شيراز، وأيضًا واسط التي اشتعلت بمواجهات بين العامة من جهة والأتراك والديلم من جهة أخرى، وقد اشتعلت واسط بهذه الانتفاضة الشعبية ما جعل ابن سهلان يخرج من بغداد لإخماد فتنة واسط وما أن انتهى منها حتى سمع بأخبار بغداد التي اشتعلت الفتنة بها فرجع مرة أخرى لإنقاذ الموقف[٥].

لم يستقر الأمر بل إننا نجد فتنة أخرى وهي مطالبة مشرف الدولة[٦] بن بهاء الدولة بحقه في أمر العراق، لذلك قام بانقلاب عسكري ويعاونه في ذلك كل من الجند الديالمة والأتراك في واسط

---

(١) فخر الملك أبو غالب محمد بن علي بن خلف: أصله من واسط وكان أبوه صيرفيًا، التحق بخدمة بهاء الدولة الذي عينه نائبًا عنه في بغداد، وكان له عدة إصلاحات في سواد الكوفة وبعض الأعمال العمرانية في بغداد، ثم التحق بسلطان الدولة الذي ولاه وزارته ثم قتله وصادر أمواله؛ انظر ترجمته في: شمس الدين أبي المظفر يوسف البغدادي (سبط بن الجوزي)، مرآة الزمان في تأريخ الأعيان، تحقيق جنان جليل محمد الهمنودي، الدار الوطنية، بغداد، ١٩٩٠م، ص٣٠٢ و٣٠٣.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٣) منيمنة، المرجع السابق، ص١٥٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢١.

(٥) المصدر السابق، ص١٢١.

(٦) مشرف الدولة: هو أبو علي بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، تولى خمس سنين منتقلًا بين العراق وكرمان وشيراز، وملك العراق بعد أخيه جلال الدولة ومات وهو ابن أربعة وعشرين عامًا في عام ٤١٦هـ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص ٤٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والبصرة والأهواز وبذلك صار مشرف الدولة هو المسيطر علىأمور العراق وتوج أعماله بأنه دخل بغداد واستقبله الخليفة القادر ثم قطع الخطبة لأخيه سلطان الدولة في عام ٤١٢هـ/ ١٠٢١م[١].

أما عن الأحوال الاقتصادية في تلك الأثناء فقد كانت متردية كالعادة بسبب هذه الاضطرابات الأمنية،إذ شهد العراق أزمات اقتصادية متلاحقة،فشهدت مدينة واسط مجاعة كبيرة حتى وصل الأمر بالسكان لأكل الدواب الميتة في الطرقات وذلك في عام ٤١١هـ/ ١٠٢٠م[٢]، وكان السبب في هذه المجاعة الاضطرابات السياسية بين مشرف الدولة وسلطان الدولة.

كما تعرضت بغداد لموجة من النهب والسرقة وزيادة نشاط العياريين، ما أنذر بأزمة اقتصادية كبيرة جراء تلك الأحداث، واستمرت هذه الأزمات عدة سنوات، وهكذا يتضح أن الصراع السياسي كان يدفع ثمنه العامة من قوتهم اليومي وأمنهم العام[٣].

تولى جلال الدولة [٤]السلطة في بغداد عام ٤١٩هـ/١٠٢٨م، وقد حكم العراق في وقت كانت تعاني فيه البلاد من أزمات كبيرة فقد شهدت بغداد الفتن والاضطرابات ونهب الأحياء والأموال في تلك السنوات، كما عانت من عبث للجند الأتراك وفرضوا الضرائب على الأحياء البغدادية، ولم يسلم طريق الحج من العبث حيث شرع اللصوص في قطعه سنتين متواليتين[٥].

لم يستقر الأمر في عهد جلال الدولة الذي امتد إلى عام ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣مفقد كان يعاني من شغب الجند الأتراك عليه، حيث أخرجوه من بغداد عدة مرات[٦]مطالبين بالمال، وهو ما أدىإلى تفاقم الأزمات الاقتصادية في العراق وزاد من نشاط العياريين، وعانت بغداد من هجمات الأعراب والأكراد حتى وصلوا في بعض الهجمات إلى داخل المدينة حيث استولوا على جامع

---

(١) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٤٥ و٢٤٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٠.

(٣) على سبيل المثال؛ اضطرابات أمنية في بغداد أدت إلى تدهور الحالة الاقتصادية في عام ٤١٦هـ، واستمرت إلى عام ٤٢٢هـ، ومن مظاهرها استيلاء العياريين على الأحياء البغدادية وسرقة ونهب الممتلكات وعدم مسير القوافل إلى الحج حتى سنة ٤٢٢هـ في قول سبط ابن الجوزي، وأيضا حرب الشوارع بين الأتراك والعياريين في سنة ٤١٧هـ، وغلاء الأسعار جراء بعض اضطرابات حالة الجو في عامي ٤١٩ و٤٢٠هـ؛ انظر سبط الجوزي، مرآة الزمان، ص٣٢٨ و٣٢٩ و٣٣٥ و٣٤٢؛ وأيضًا ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٤٦ و٢٤٧.

(٤) جلال الدولة: هو أبو طاهر فيروزجرد بن بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة بن بويه، ولد عام ٣٨٣هـ وتملك سبع عشرة سنة وكانت دولته لينة ضعيفة؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص٥٧٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٩١.

(٥) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص١٩١ و١٩٧.

(٦) مثلما حدث في عام ٤٣١هـ بشهادة ابن الجوزي من شغب الجند في الشوارع وكانت له آثار اقتصادية وخيمة؛ انظر المصدر السابق، ص٢٧٣ و٢٧٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنصور في وسط المدينة، كما زاد ذلك من موجات الغلاء المتكررة التي عانت منها بغداد وعموم المدن العراقية[١].

علىأي حال توفي القادر بالله عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، بعد صراع مع المرض، وقد وصفه ابن الجوزي بالعفاف ومتانة الدين وصحيح المذهب، وكثرة العلم[٢].

خلافة القائم بأمر الله (٤٢٢هـ/ ٤٦٧هـ-١٠٣١م/ ١٠٧٤م):

هو أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله، وكان ولي عهده في حياته، ولد في عام ٣٩١هـ وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه[٣]، وكان ذلك في عهد جلال الدولة البويهي.

ويتميز عهد القائم بأنه المرحلة الأخيرة من عهد البويهيين وبداية تسلط الأتراك السلاجقة على الخلافة العباسية، حيث كانت العراق يتولىأمرها جلال الدولة بن بويه، الذي كان لا يختلف عن باقي أمراء البويهيين وعلاقتهم بالخلافة.

وفي نقاط سريعة سنتحدث عن مظاهر الانحلال والفساد الذي دب في دولة جلال الدولة والقائم بأمر الله:

- كانت العراق تعاني من شغب الجند الأتراك الذي وصل لحد التسلط التركي على البويهيين والتأثير في تحركات الجيش، فقد كان هؤلاء يطالبون بمزيد من الأموال، ما أفرغ الخزينة.
- أدى ذلك إلى أزمات اقتصادية شديدة وموجات غلاء عنيفة، كانت نتيجة لعدة عوامل من ضمنها الاحتقان السياسي بين جلال الدولة وجنده وهذا في بغداد[٤].
- أما خارج بغداد فقد عانت العراق من الانقسام فقد سقطت واسط والبطيحة وجزء كبير من السواد في يد الأعراب وقطاع الطرق مما أثر على الحالة الاقتصادية العامة للبلاد فعلى سبيل المثال،تذكر المصادر هجومًا لبني خفاجة في عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥مللكوفة وسوادها، ما أدىإلى تدمير محصول التمر بعد منع الماء عنه جراء الهجوم[٥].

---

(١) كانت هجمات العياريين متكررة في تلك الأثناء، نذكر منها هجمات أوام ٤٢٣ و٤٢٤ و٤٢٥ و٤٢٨هـ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص ٢٢٢ و٢٣٣ و٢٣٩ و٢٤٥ و٢٥٦.

(٢) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٨٦ و١٨٧؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٧.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٩.

(٤) تعرضت العراق إلى أزمات غلاء طاحنة في أعوام ٤٢٠ و٤٢٣هـ؛ وكانت الأسباب تتراوح بين الأسباب الأمنية والطبيعية؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٥، ص١٧٠ و١٧٦ و١٨١؛ انظر أيضًا منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص١٥٥.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج١٥، ص ٢١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كانت العلاقة بين الخلافة وجلال الدولة سيئة، فقد كان القائم بالله لا يؤيد جلال الدولة وقد انتهز فرصة الانقلاب العسكري الذي قام به بعض القادة الأتراك على سلطة جلال الدولة حتى بعث القائم بوفد برئاسة أبي الحسن الماوردي إلى أبي كاليجار، وقد فشلت المفاوضات بين أبي كاليجار والوفد بسبب إصرار الديالمة على تسمية أبي كاليجار بملك الملوك وهو ما اعترض عليه الماوردي[١].

- النزاع الذي حدث بين جلال الدولة وأبي كاليجار الذي كان يراقب الأوضاع العراقية من فارس،إذ تدخل أبي كاليجار واستولىعلى واسط ودخل بجيشه حتى بغداد، عندما تحالف معه الأتراك فحاربوا جلال الدولة وأخرجوه من المدينة، ثم تحالف جلال الدولة مع أمراء الموصل قراوش بن المقلد وبني مزيد في الحلة على مهاجمة بغداد حتى استولوا على الأحياء الغربية وبدت بغداد منقسمة بين الطرفين حتى انسحب أبي كاليجار إلى فارس[٢].

- الفتن المتلاحقة بين السنة والشيعة، وزيادة أمر العياريين ونشاطهم داخل الأحياء البغدادية وهو ما أثر على الناحية الاقتصادية بالسلب.

بعد وفاة جلال الدولة، أسرع أبي كاليجار الذي كان يحكم فارس ويتابع الأخبار الواردة من العراق،إلى دخول بغداد قبل أن يصل إليها الملك العزيز بن جلال الدولة، والذي علىأي حال هرب بعد خذلان جنوده الأتراك الذين وعدهم أبي كاليجار بالأموال الكثيرة.

دخل أبو كاليجار بغداد في ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م، حيث دخل في قوة قليلة واستقبله الأتراك بالترحاب وأمر بدق الطبول عند بابه خمس مرات أسوة بالخليفة القائم[٣].

وفي عهد أبي كاليجار[٤] نجد أن الخطر السلجوقي قد اقترب كثيرًا من فارس وممتلكات البويهيين، ما شجع أبي كاليجار للتقرب منهم بدلا من الحرب، حيث قامت مصاهرة سياسية[٥] بين الطرفين ومعها معاهدة للصلح بينه وبين طغرل بك السلجوقي[٦]، وقد كانت أحوال العراق

---

(١) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٨٥.

(٢) منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص ١٥٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٦٧.

(٤) أبي كاليجار: المرزبان بن سلطان الدولة بن سلطان الدولة بن أبي شجاع بهاء الدولة ولد في البصرة عام ٣٩٩هـ، ولي العراق أربع سنين، توفي عام ٤٤٠هـ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣١٧.

(٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص٣٧٨.

(٦) طغرلبك: السلطان ركن الدين أبي طالب محمد بن ميكائيل، أصله من بخاري وهو أصل السلجوقية وزعيمهم، وهو الذي قاد الحرب ضد محمود بن سبكتكين وحاكم بخاري، كان حصيفا فصيحا متمكنا من سلطانه؛ انظر ترجمته في الفتح بن علي بن محمد البنداري، إنشاء عماد الدين محمد بن محمد الكاتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي الحافز لأبي كاليجار لعدم الصدام، فلم يلبث أبو كاليجار أندخل بغداد حتى عصفت بالبلاد الأوبئة والأمراض خاصة أمراض الحيوانات التي قتلت اثنا عشرة ألف حصان مما حد من الإمكانات العسكرية لجيش البويهيين(١).

استمرت الفتن والمحن تتوالى على العراق حتى عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م وهو تاريخ وفاة أبي كاليجار(٢)، ولم يخلُ هذا العهد الصغير من المصاعب والمحن الاقتصادية جراء الأوبئة، وتنازع وشغب الجند الأتراك علىأبي كاليجار ومطالبته بالمزيد من الأموال.

وقد تولى ابنه أبي نصر بن أبي كاليجار والذي تلقب بالملك الرحيم(٣)، وقد كان آخر البويهيين، حيث أسرع أبو نصر بعد وفاة أبيه إلى الخليفة الذي قلده البيعة وقد بايعه أيضًا جند أبيه، وذلك في الوقت الذي استولى أخوه أبو منصور على شيراز، لكن سرعان ما بعث أبو نصر جيشًا وهزمه في نفس سنة توليته.

عهد السلاجقة:

تبدأ دولة السلاجقة في العراق بدخول طغرلبك بغداد في عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وقد خطبت منابر بغداد لطغرلبك السلجوقي ومن بعده أبي نصر البويهي الذي لا حول له ولا قوة فقد كان يشهد آخر أيامه، حيث تخلص منه طغرلبك بعد قليل بعد ثورة العامة على الجند السلاجقة إذ واتته الفرصة باتهام أبي نصر بالتحريض على قيام هذه الثورةفقبض عليه وأودعه قلعة طبرك في الري حتى توفي بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ(٤).

أما البساسيري فقد هرب إلى الحلة عند حليفه نور الدولة(٥)، وسرعان ما راسل طغرلبك نور الدولة بطرد البساسيري ففعل، حيث سار البساسيري إلى الرحبة بالشام،أما أبو نصر فقد تم اعتقاله بعد شغب الجند الأتراك والعامة ضد السلاجقة، حيث ثار العامة على السلاجقة الذين كانوا يعاملون التجار البغاددة والعامة بمزيد من القسوة، ما أدىإلى نهب المدينة وخاصة المحال

الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، نشر شركة طبع الكتب العربية، مصر، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ص٥؛ وأيضا الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٠٧.

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٠٢ و٣٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص٣١٧.

(٣) الملك الرحيم: أبو نصر خسرو بن أبي كاليجار بن سلطان الدولة، خاتمة ملوك الديلم في العراق، توفي بعد حبسه ثلاث سنوات على يد طغرلبك السلجوقي، ومات في إحدى قلاع فارس عام ٤٥٠هـ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٢٠.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢٦.

(٥) هو نور الدولة دبيس بن صدقة أمير الحلة، وقد لجأ البساسيري عنده بعد دخول السلاجقة بغداد؛ انظر ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التجارية وأدىإلى مزيد من الأزمات الاقتصادية، فقد شهدت العراق أزمات اقتصادية طوال السنوات المنصرمة قبل دخول السلاجقة.

وقد كانت العراق تعاني من أزمة غلاء في نفس السنة التي دخل فيها السلاجقة بغداد، حيث بلغت الأسعار حدًّا كبيرًا حتى وصل سعر الحنطة إلى نيف وعشرين دينارًا، بينما بلغ سعر الكر من التبن والعلف للحيوانات عشرة قراريط، وقد تعرضت البلاد لعمليات نهب وسرقة وقطع للطرق[١]، ما أدىإلى تفاقم الأزمة، وقد هرب الكثير من سكان المدن الأخرىإلى بغداد كي يكونوا في مأمن من النهب والسرقة، وقد تفاقمت الأزمة بمزيد من الأمراض والأبئة جراء الزيادة السكانية من هرب أهاليالمدن العراقية إلى بغداد.

كانت هذه الأزمة السابقة في عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، وقد زادت بفعل نهب العياريين ونهب الجند السلاجقة في تلك السنة وقد استمرت هذه الأزمة إلى العام التالي[٢].

أما عن علاقة طغرلبك بالخلافة فقد كانت علاقة وثيقة، فقد راسل الخليفة القائم طغرلبك من أجل التخلص من البويهيين والبساسيري على السواء وإنقاذ العراق من الفاطميين،لذلك بجل طغرلبك الخلافة وكان يرى فيها الشرعية التي لابد أن توجد وتوقر.

لكن في الحقيقة لم يستمر هذا التوقير كثيرا، فقد سار طغرلبك على نهج البويهيين في الحجر على الخليفة القائم بأمر الله، وهذا في الأحداث التالية:

- لم يقبل طغرلبك شفاعة الخليفة في الملك البويهي الذي قبض عليه وأرسله إلى الري ما أغضب الخليفة الذي تشفع فيه[٣].
- قام طغرلبك بتقريب قادة جند البويهيين ووزع عليهم الإقطاعات ما جعل الخزينة تئن من هذه الإقطاعات الجديدة فاضطر طغرلبك بالمطالبة بأموال الخليفة في الوقت الذي كان القائم حزينًاعلى وفاة ولده محمد[٤].
- لم يلتق طغرلبك بالخليفة مدة ثلاثة عشر شهرًا منذ أن تزوج الخليفة القائم من أرسلان خاتون بنت طغرلبك وهي الزيجة التي حاول طغرلبك أن يحسن بها الوضع مع الخليفة[٥].

---

[١] ضرب العراق أزمتا غلاء في سنتين متتاليتين وهما سنة ٤٤٨هـ و٤٤٩هـ؛ انظر ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٥٧ و٢٥٨.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢٤.

[٤] نفس المصدر السابق، ص٣٢٥.

[٥] ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٥٦؛ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص١١ و١٢ و١٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- جاءت فتنة البساسيري الثانية عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، موحدة لكل من الطرفين الخلافة والسلاجقة، فقد قام أبو الحارث البساسيري في تلك السنة بمراقبة الأوضاع في العراق، حيث استغل خروج طغرلبك من بغداد والعراق وترك حامية قليلة من جنده، حيث ذهب بجيشه للقضاء على ثورة أخيه إبراهيم ينال مما جعل البساسيري يدخل ومعه ألوية المستنصر بالله الفاطمي ويقتحم بها بغداد ثم يقوم جنده بنهب المدينة وخاصة قصر الخليفة وسرقة محتوياته على مسمع ومرأى من القائم[١]، ثم قطع البساسيري الخطبة للعباسيين وخطب للمستنصر بالله في جامع المنصور وباقي جوامع بغداد وأصبحت العراق في مهب الريح جراء ذلك.

تم القبض على الخليفة ونفيه إلى مدينة حديثة عانة على الفرات[٢]، ومن هناك راسل الخليفة طغرلبك حتى ينقذ العراق ومعه الإسلام كله، وبالفعل قام طغرلبك بالرجوع سريعا إلى العراق،وتقلد سيف الخليفة وقام بمحاربة البساسيري الذي قتل في المعركة، ودخل طغرلبك والخليفة القائم بغداد دخول المنتصرين عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م[٣].

- أتبع طغرلبك والذي أصبح سيد العراق الأول الآن انتصاره بمجموعة من الإجراءات والتي كبلت يد الخليفة القائم ومن جاء من بعده، حيث أخضع خزينة الخليفة للسلطة السلجوقية وأعطى للخليفة راتبًا وإقطاعًا يعيش منه[٤]، وعين من قبله وزيرًا يتولى شئون العراق الداخلية[٥]،كما قسم العراق إلى إقطاعات توزع على رجاله، مقابل ضمان ماليؤدونه إلى الخزانة العامة للدولة،كما عين رئيسًا للشرطة في العاصمة بغداد بمسمى الشحنة، وهو المنصب الذي كان له شأن في العهد السلجوقي[٦].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص١٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٣٤٣ وما يليها؛ ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٥٩؛ المنتظم، ج١٦، ص ٣٢ و٣٣.

(٢) حديثة عانة: وتعرف أيضا بحديثة الفرات أو حديثة النورة، وهي قلعة حصينة في وسط الفرات في الشمال الغربي من العراق، ويقال إن الماء يحيطها من كل جانب؛ انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٠.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٦٠.

(٤) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص١٦.

(٥) وهو الوزير ابن دارست الذي تم تعيينه وزيرًا للخليفة القائم بعد عودته من بغداد عام ٤٥٣هـ؛ انظر المصدر السابق، ص٢١؛ ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٧.

(٦) عين طغرلبك الأمير برسق ليكون شحنة بغداد، والشحنة هي وظيفة مستحدثة من عهد السلاجقة ووظيفته الرئيسة حفظ الأمن في بغداد ومساعدة العميد أو حاكم بغداد في إدارة شئون المدينة، ويعينه السلطان نفسه، وكان لكل مدينة في العراق أو فارس شحنة خاص بها، لكن من أعظم المناصب كان شحنة بغداد؛ انظر محمد عبد العظيم أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات الحضارية والتاريخية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٣٠١ و٣٠٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- بذلك الأمر أصبح الآن الخليفة وهو السلطة الروحية كما أرادها طغرلبك ومن جاء من بعده من سلاطين السلاجقة منزو في قصره لا يأمر أحدًا ولا يأتمر علىأحد، مجرد سلطة روحية،أما السلطة التنفيذية والسياسية والمالية كلها في يد السلطة السلجوقية.

علىأي حال، حاول السلطان السلجوقي أن يسيطر على الخليفة أكثر من ذلك عن طريق زواجه من بنت الخليفة، وهي ظاهرة لم تظهر إلا في عهد طغرلبك، ولكنه لم يستمتع بعروسه الهاشمية حتى توفي في ٤٥٥هـ/ ١٠٦٢م، ليترك الدولة السلجوقية في بداية فتوتها وقوتها(١).

برزت مشكلة التنازع على حكم الدولة بعد وفاة طغرلبك، لكنها حسمت في النهاية لألب أرسلان (٢)ابن أخيه الذي استطاع أن يهزم قوات أخيه الأصغر سليمان، وكان ألب أرسلان من أشهر سلاطين الدولة السلجوقية، وذلك بسبب وزيره الأشهر والأقوىعلى الإطلاق نظام الملك الطوسي(٣)، الذي استطاع أن يشيد له ملكًا كبيرًا، وعظمة وشأوًا لم تشهده البلدان الإسلامية المشرقية في هذا الوقت.

حكم ألب أرسلان لمدة عشر سنوات من ٤٥٥هـ/ ١٠٦٢م حتى عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، وقد كان يتمتع بعلاقة طيبة مع الخليفة القائم بأمر الله، حيث آثر ألب أرسلان ووزيره أن يستكين الأمر بين السلطنة والخلافة، مع الحفاظ على السلطة السلجوقية ومكانتها في نفس الوقت التي تحتفظ فيه الخلافة بوقارها.

ومن مظاهر احترام ألب أرسلان للخلافة أنه أرجع زوجة طغرلبك عمه وبنت الخليفة إلى بغداد لأنه يعلم أن الزواج كان بدون رضا الخليفة عنه، كما أعطاها خمسة آلاف دينار أثناء رحيلها من الري إلى بغداد(٤).

وردها الخليفة بإعطاء الألقاب الملوكية وخطب له على منابر بغداد، وبذلك توثقت عرى الصداقة بين الطرفين.

---

(١) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٢.

(٢) الب أرسلان:أبي شجاع محمد بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق، ملك الدولة السلجوقية بعد عمه ملكشاه، بعد تنازع مع سليمان أخيه، لكنه حسم الصراع سريعا وتسلطن على المملكة السلجوقية، كان محبوبا من الرعية، وهو صاحب الوقعة المشهورة ضد الروم؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص٤١٤ و٤١٥.

(٣) نظام الملك الطوسي: هو الحسن نظام الملك، ولد في نوقان من قرى طوس في عام ٤٠٨هـ، قرأ وتعلم القرآن والفقه الشافعي، واستطاع أن يلتحق بخدمة السلاجقة ككاتب قدير وموظف في الإدارة، وصار في خدمة جفري بك، واستطاع أن يلفت نظره، ثم التحق بخدمة ابنه ألب أرسلان الذي رفعه لمكانة كبيرة بعد تسلطنه؛ انظر ترجمة نظام الملك في كتاب سياست نامة، ترجمة يوسف بكار، مكتبة الأسرة الأردنية، عمان، الأردن، ٢٠١٢ م، ص ١٩ وما يليها.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٨٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم نرأي أزمات اقتصادية مرت على العراق في تلك الفترة، ويبدو أن السياسة الجديدة كانت مستقرة سواء في السياسة أو الاقتصاد، حيث رخصت الأسعار ولم نسمع بموجات غلاء سوى موجات عارضة جراء كوارث طبيعية لا دخل للسياسة فيها كما سيجيء مفصلا في الفصل الرابع من الدراسة.

علىأي حال توفي الخليفة القادر بعد وفاة ألب أرسلان بعامين؛ أي في العام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م[١].

خلافة المقتدي بأمر الله (٤٦٧هـ-٤٨٧هـ/ ١٠٧٤م- ١٠٩٤م):

وهو أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة بن محمد بن القائم بأمر الله[٢]، فهو حفيد الخليفة القائم بأمر الله وولي عهده بعد وفاة محمد أبيه في حياة جده الخليفة، وتولى سلطات الخلافة وهو في سن التاسعة عشر، في نفس اليوم الذي توفي فيه جده.

تولى المقتدي بأمر الله في بدايات عهد جديد، حيث مات ألب أرسلان قبل توليته بسنتين، وتولى ابنه وولي عهده ملكشاه، والذي سار على سياسة أبيه في الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ولعل الفضل الكبير في ذلك كان للوزير نظام الملك الذي استمر في منصبه في عهد السلطان الجديد والذي كان يعتبره كأبيه وأستاذه.

ويعتبر عهد المقتدي في معظمه عصر استقرار وتوطيد للعلاقات مع السلطنة السلجوقية، فقد حرص ملكشاه ووزيره نظام الملك على توطيد وتوقير علاقتهم مع الخليفة المقتدي وفي كل مناسبة كانوا يحترمون ويبجلون الخلافة ويظهرون للناس أنهم حماة الخلافة وليسوا أعدائها، ولعل هذا منبع سياسة وفلسفة حكم ملكشاه المستمدة في جوهرها من الوزير نظام الملك.

أما عن مظاهر العلاقات فقد كانت في الآتي:

- حرص الخليفةعلى التقرب من ملكشاه حيث بعث إليه ليطلب ابنته للزواج[٣].

وتصف المصادر الزفاف بأنه كان أسطوريًّا، حيث جهز السلطان ابنته خاتون "بمئة وثلاثين جملًا محملًاعليها الديباج الرومي، وعلى أربعة وسبعين بغلًا محملة عليها ألوان الديباج الأخرى، وستة بغال محملًاعليها اثنا عشرصندوقًاللذهب والجوهر والمصاغ، وثلاث وثلاثين مركبًا من

---

(١) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٠.
(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٣٣.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليها مراكب الذهب، مرصعة بأنواع الجواهر والحلي وبين يدي الجهاز الأميران كوهارين وبرسق"، وكانت هذه الزيجة في ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م[١].

- تذكر المصادر أن المقتدي بأمر الله كان من الخلفاء العظام في هذا العصر المليء بالضعاف، حيث كان له أياد بيضاء على المجتمع العراقي، حيث كان "شهمًا، شجاعًا، ذا بصيرة وجد"[٢]، وقد اتخذ المقتدي من سياسته الداخلية فرصة لإظهار وجود الخليفة حيث قام ببعض الإصلاحات العمرانية المرتبطة بتوسيع بغداد، حيث بنى عدة أحياء جديدة في الشرق من بغداد فدخلت في نطاق الأحياء الشرقية، كما اهتم بتنظيف الشوارع وتوسيع المساجد ومد شبكات المياه في المدينة، كما كان له دور في الحسبة على الأخلاق العامة فمنع الاختلاط في المواصلات العامة مثل المعديات النهرية، كما منعه في الحمامات العامة، كما أمر بتطهير بغداد من المفاسد[٣].

ومن ضمن إصلاحاته الاقتصادية، إسقاط الضرائب والمكوس عن الفلاحين والتجار والصناع[٤]،مما أنعش الحالة الاقتصادية للعراق في تلك الفترة، وقلت موجات الغلاء بفضل ذلك الأمر، كما حافظ على السلم المجتمعي وأصلح بين المسلمين وبعضهم من أصحاب المذاهب كالشافعية والحنابلة والحنفية[٥]، كما تدخل في النزاعات بين السنة والشيعة وحاول أن يصلحها بتوسيط العلماء في هذه الخلافات، كما قام بالتدخل في النزاع الذي قام بين المسلمين واليهود في بغداد، كما ضرب المفسدين مستعينًا بقوة بني عقيل الأعراب الذين حاربوا المفسدين واللصوص وقطاع الطرق باسم الخلافة[٦]، كما أبعد المماليك الأتراك لاسيما مماليك زوجته من مدينة بغداد بسبب المناوشات بينهم وبين العامة في الأسواق والشوارع، كما قام بتوزيع الأدوية بالمجان على الفقراء وتسكينهم في مساكن للإيواء أثناء الأزمات الوبائية والطبيعية[٧].

وهكذا بنى الخليفة المقتدي لنفسه مجدًا بالرغم من ضعف الخلافة أمام طغيان السلطنة السلجوقية وحاول أن يهدئ الأحوال في العراق المهيض الجناح جراء الحالة السيئة التي عانى منها هذا البلد على مدار سنوات طوال من النزاعات، وهذا أثر على الحالة العامة للعراق،إذ لم

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٤٥١؛ ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٧٥ و٢٧٦.
(٢) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٦.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٢٦٧.
(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٣.
(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٦١.
(٧) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٥٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نسمع في المصادر المختلفة عنأيمجاعات أو موجات غلاء ضربت العراق في تلك الفترة وبقيت الأحوال الاقتصادية متعافية ومستقرة.

توفي الخليفة المقتدي بأمر الله عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، وذلك بعد وفاة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك بنحو عامين[١].

خلافة المستظهر بالله (٤٨٧هـ-٥١٢هـ/ ١٠٩٤م-١١١٨م):

هو أبو العباس أحمد ابن المقتدي بأمر الله، ولد في عام ٤٧٠هـ وتولى الخلافة في اليوم الثالث لوفاة أبيه المقتدي وبويع وهو ابن سبعة عشرة عامًا[٢].

بدأت خلافة المستظهر مع بدء سلطنة السلطان بركياروق[٣]، وفي ذلك قصة امتدت نحو العامين من هذا التاريخ،فبعد وفاة ملكشاه ظهرت بوادر الانقسام بين فريقين طمعًا في السلطة، الفريق الأول بقيادة تركان خاتون زوجة السلطان المتوفى ملكشاه وكانت متسلطة ولها دور سياسي كبير خاصة في الإنفاق على قسم كبير من الجيش، ويبدو أن هذا الإنفاق كان مدروسًا لتولية ابنها ذي الأربع سنوات سلطانًا، وكان يعضدها في ذلك الوزير الجديد بعد نظام الملك تاج الملك الشيرازي الذي كان يساعدها في خطتها هذه [٤].

أما الفريق الثاني فكان بقيادة ابن السلطان الآخر القابع في أصفهان بركياروق وكان يساعده النظامية وهم الجنود المؤيدين للوزير المتوفى نظام الملك إلى جانب عائلة نظام الملك وأولاده الذين أيدوا بركياروق منذ لحظة وفاة السلطان وبايعه على السلطنة[٥].

وبقي لنا أن نتحدث عن الخليفة المقتدي في آخر عامين قبل وفاته واشتراكه في هذا النزاع السياسي، فقد كان الخليفة غير راض عن تولية السلطان محمود، إلا أنه أرغم على قبول البيعة بسبب تهديد تركان خاتون له بولده أبي جعفر فقد كانت جدته، فلما رأت أن الخليفة سيستجيب إلى قرار تولية السلطان محمود أطلقت سراح أبي جعفر الذي غادر إلى الري متوجها إلى بغداد، فآثر الخليفة السلامة واستجاب لتركان خاتون لكن وفقًا لشروط خاصة منها توزيع السلطة بين

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٥؛ ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٢٠٦.

(٣) بركياروق: ركن الدين أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه، كان شابًا شجاعًا شهمًا، كان مدمنًا للخمر، وملك البلاد مدة ثلاث عشرة سنة كان معظمها حروب مع أخيه محمد، وتوفي عام ٤٩٨هـ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص١٩٥ و١٩٦.

(٤) محمد أبو النصر، تاريخ السلاجقة، ص١٠٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٨٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محمود الصغير وبين وزيره تاج الملك الذي سيتولى جباية الأموال والمراقبة على الخزينة، وبين القائد آنر الذي سيتولى الجيش، وقد وافقت تركان بعد عناءعلي هذه الشروط [١].

إذن الوضع السياسي الآن جديد، فقد ولَّت أيام المقتدي ونظام الملك وملكشاه، وظهر على الساحة المستظهر وبركياروق، وقد تميز عصر المستظهر بالآتي:

- كانت العلاقة بين المستظهر وبركياروق روتينية للغاية، فقد كانت على خطى من سبقوه سواء في الخلافة أو في سلاطين الدولة السلجوقية، فمن اللافت للنظر أن عهد المستظهر شهد الحملات الصليبية على سواحل الشام، وكانت الشام تعاني قبل وصول الحملة الصليبية الأولى من التفكك والتشرذم والصراع السني الشيعي بين السلاجقة بقيادة تُتُش وبمباركة من الخليفة، وبين الدولة الفاطمية في مصر والتي كانت تعاني هي الأخرى من التفكك والضعف، وعلىأي حال انتهى الصراع باحتلال الصليبيين للشام[٢].

وكان موقف الخليفة المستظهر ثانويًّا، وذلك على قدر أهميته في الساحة السياسية الإسلامية، فقد كانت مواقفه كلها روحية لا يوجد بها أي تأثير سياسي، فنجد أن المستظهر يرسل رسالة يحث فيها على الجهاد في سبيل الله، ويحث السلطان بركياروق على الخروج لملاقاة الصليبيين[٣]، لكن دون جدوى فقد كان منشغلًا بمحاربة محمد بن ملكشاه الذي نازعه على العرش، بل كان المستظهر نفسه خاملًا لاهيًا، ولولا الضغط الشعبي الذي كان يقوده العلماءلما كانت الرسالة هذه ظهرت إلى الوجود من الأساس.

- شهدت بغداد في عهد المستظهر حصارًا سياسيًّا وعسكريًّا أثَّر على النواحي الأمنية والاقتصادية، وذلك بسبب سلطة الأعراب من بني مزيد أمراء مدينة الحلة الذين تحالفوا مع محمد بن ملكشاه ضد بركياروقوفي إثر هذه المحالفة قامت قواتهم بمحاصرة بغداد ما أدىإلى

---

(١) انظر؛ عماد الدين إسماعيل (أبو الفدا)، المختصر في أخبار البشر، ج٢، نشر المطبعة الحسينية المصرية، مصر، ب ت، ص٢٠٣.

(٢) قام تُتش بتوحيد بلاد الشام تحت سيطرة السلاجقة وإصطدم بسلاجقة الشام، وهو ما أدي إلى تدهور الأحوال السياسية في الشام قبيل دخول الصليبيين، فقد كانت الشام ممزقة بين الولاء الفاطمي جنوبًا والسلجوقي شمالًا واستمر الوضع حتى بعد مقتل تُتش وتولي أبنائه؛ انظر محمد سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩ م، ص١٥٦ وما يليها.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٩، ص١٩ و٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انهيار الحالة الاقتصادية والأمنية فيها، وحاول الخليفة مخاطبة سيف الدولة صدقة بن مزيد بالكف عن هذا الحصار حتى وافقوا في النهاية بعد تدخل قاضي قضاة بغداد في الأمر[١].

– كان العياريون يعيثون فسادًا في ذلك العهد، فقد شهد عصر النزاع بين بركياروق ومحمد وبينهما المستظهر نشاطًا كبيرًا للعياريين واللصوص، ما أدىإلى تدهور الناحية الاقتصادية، فمن يتابع السرد الحولي الذي يتبعه كل من ابن الأثير وابن الجوزي وابن مسكويه يجد فيه الكثير من عمليات السلب والنهب واغتيالات لرجال الشرطة على أعلى المستويات، لدرجة أنهم اغتالوا الشحنة والذي كان يعد القائد الأمني الكبير في بغداد، ومن المعروف أن نشاط العياريين يتأثر بنسبة كبيرة بالناحية السياسية المضطربة فيزيدونها اضطرابًا[٢].

– علىأي حال انتهى الصراع بين محمد وبركياروق بموت الأخير عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م[٣]، وتقلد الأمر السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي والذي استمر حتى عام ٥١١هـ/ ١١١٧م[٤] ولم يكن عهد محمد بأحسن حالًا من أخيه، فقد شهدت العراق في عهده عددًا من الأزمات الاقتصادية والسياسية، فمن النواحي السياسية سيطر الأعراب من بني مزيد على الحلة والبطائح وواسط وتكريت وبني خفاجة على البصرة وما حولها إلى جانب الكوفة، وقد كانت قوة بني مزيد مقلقة للسلطان محمد الذي حاول أن يقضي على هذه الإمارة التي عاثت في نواحي العراق المختلفة حتى هددوا العاصمة بغداد أكثر من مرة،بل وكانت بعض بيوت بغداد الكبيرة ملكهم،حتى يقول ابن الأثير إن لهم بيتًا في بغداد ملجأ لكل ملهوف، وهذا يدل على سطوة هؤلاء ونفوذهم، الذي استطاع السلطان محمد كسره وضعفه باعتقال دبيس بن صدقة الذي ظل في سجنه حتى موت السلطان[٥].

– على الرغم من استقرار الأوضاع نوعًا ما في عهد السلطان محمد إلا أن الأوضاع الاقتصادية جراء الصراع السابق بين الأخوين أثرت على أحوال العراق بالسلب،فيقول السيوطي في هذا: "عمَّ الفساد وانتهبت الأموال وصارت الدماء مسفوكة والبلاد مخربة حتى تم الصلح

---

(١) عن هجمات الأعراب من بني مزيد والحالة الأمنية حينها؛ انظر المصدر السابق، ص١٠٠ و١٠١ و١١٠ و١١١.

(٢) سيناقش الباحث تلك النقطة تفصيليًا في الفصل الثالث من الدراسة.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٩٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص١١٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكتبت الأيمان والعهود والمواثيق"،ويبدو أن أحوال العراق أصبحت مستمرة من السيئإلى الأسوأ حتى نهاية عهد محمد[1].

توفي الخليفة المستظهر بعد وفاة السلطان محمد بعام واحد حيث توفي في عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م وتولى من بعده الخليفة المسترشد بالله[2].

خلافة المسترشد بالله (٥١٢هـ-٥٢٩هـ/ ١١١٨م-١١٣٥م)[3]:

هو أبو منصور الفضل ابن المستظهر بالله، والذي تلقب بعد تولي الخلافة بالمستظهر بالله، وكان فحلًا من فحول آل العباس، وكاتبهم وأشجعهم، وبويع بالخلافة بعد موت أبيه المسترشد بالله بثلاثة أيام بعد الانتهاء من مراسم العزاء.

كان عهد المسترشد قصيرًا بالنسبة للخلفاء السابقين من آل العباس خاصة في العهد السلجوقي، إلا أن عصره شهد بعض الأحداث الخاصة بالعراق وبالسلطنة السلجوقية.

والآتي يلخص الأحداث في عصره والعلاقة بينه وبين السلاجقة وأثرها في أحوال العراق:

- بعد موت محمد بن ملكشاه أطلت النزاعات بين أبناء البيت السلجوقي مرة أخرى، فقد كان الطفل محمود هو ولي عهد أبيه على حكم العراق، بينما كان عمه سنجر[4] في خراسان واليًا عليها من قبل السلطان محمد قبل موته، وهو ما أدىإلى النزاع بين الطرفين، حيث نجح سنجر في الانتصار علىمحمود وأصبح سلطانًا على البلاد بعد فترة قصيرة من تولية محمود، وولي سنجر محمود في ولاية العهد بدلًا من السلطنة، ولقد كان السلطان سنجر عاقلًا إلى أبعد الحدود فقد كان ينتمي إلى تلك الفلسفة السلجوقية في الحفاظ على هيبة الدولة ووحدتها، وقد عمل ما يمكن عمله في هذا الوقت حيث رحب بمحمود ابن أخيه في ولاية العهد وعامله معاملة حسنة بل وولاه العراق كنائب عنه، في الوقت الذي أصبح سنجر سلطانًا على الدولة ومقره في الري[5].
- كانت الخريطة السياسية في عهد الخليفة المستظهر شديدة التعقيد وهو ما أثر على الحالة الاقتصادية والاجتماعية في مدن العراق، فالموصل التي أصبحت في قبضة مسعود أخي السلطان محمود، أصبحت شبه مستقلة، فقد كان مسعود يطمع فيما هو أبعد ألا وهو السلطنة

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٨.

(٣) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢١٠.

(٤) سنجر: هو سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جفربيك بن ميكائيل بن سلجوق، ولد بسنجار من بلاد الجزيرة عام ٤٧٩هـ ملك خراسان ثم العراق وتسلطن على الدولة السلجوقية وملك البلاد وقهر العباد؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٣٦٣ وما يليها.

(٥) الأصفهاني، تاريخ آل سلجوق، ص ٢٢٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشجعه في ذلك أتابكه بك ومن وراءه دبيس بن صدقة أمير الحلة، وقد حاول مسعود محاربة السلطان محمود وبالفعل تقابلا في معركة أسد آباد دون نتيجة واضحة سوى التصالح الذي تم بين الطرفين وهو ما أدىإلى إنهاء الخلافات بينهما[١].

أما عن الوسط العراقي فقد كانت تكريت والحلة وباقي مناطق السواد في يد الإمارة المزيدية من أبناء بني مزيد وعلى رأسهم دبيس بن صدقة أمير الحلة، وقد كان دبيس يلعب دورًا محوريًّا في السياسة العراقية، فشكلت إمارته خطرًا علىالسلطنة السلجوقية وعلى الخلافة على حد سواء،فمع الخلافة كانت له صولات وجولات ضد الخليفة، فقد كان دبيس يهدف إلى التوسع وهو يرى أن السلطنة السلجوقية ضعيفة بسبب النزاعات بين الأمراء السلاجقة، فأراد أن يلعب سياسيًّا على هذا الوتر ليكسب مزيدًا من النفوذ والقوة، وهو ما جعل الخليفة يقف منه موقفًا سياسيًّا سلبيًّا، حيث كانت الخلافة تهدف في ذات الوقت إلى الاستفاقة من السبات الطويل، حيث كان المستظهر بالرغم من ضعفه ككل الخلفاء الذين سبقوه إلا أنه رأى أن يستغل النزاعات السلجوقية لصالحه هو الآخر، لذلك أصبحت العراق ملعبًا مفتوحًا للجميع[٢].

بدأت الخلافات بين دبيس والخليفة عندما منع الأول الخطبة للثاني لدرجة أنه أمر بتكسير المنابر وعدم الخطبة لأحد، وهو ما أثار غضب الخليفة، خاصة بعد نهب قوات دبيس في الحلة والسواد لممتلكات الخليفة الزراعية ومن الثروة الحيوانية، فكان بمثابة إعلانًا للحرب، وكان السبب الحقيقي لهذا هو الخلافات الداخلية بين الخليفة وأخيه الأمير أبي الحسن، والذي لجأ إليه، فقد كان هذا السبب الحقيقي والمباشر في هذه الحرب، والتي انتهت لصالح دبيس، الذي اقتحم بغداد ونهبها ووصل إلى دار الخلافة، وذلك في عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، ولكنه رجع عنها قافلًا إلى الحلة، في الوقت الذي تحركت فيه جيوش السلطان محمود للاستيلاء على الحلة عاصمة ملك دبيس بتحريض من الخليفة[٣].

وقد فشلت محاولة السلطان محمود بسبب المنازعات بينه وبين أخيه الثاني طغرل، حيث كانت النزاعات مستعرة بين الأخوة محمود ومسعود وطغرل،فيرجع دبيس أقوى وأشد نكاية للخلافة، فلم يسكت هذه المرة الخليفة المسترشد فجهز جيشًا وبعث إلدآق سنقر البرسقي وقائده عماد الدين

(١) محمد شعبان أيوب، آخر أيام العباسيين، مؤسسة اقرأ للنشر، القاهرة، ٢٠١٣ م، ص١٥٤.
(٢) محمد شعبان أيوب، آخر أيام العباسيين، ص١٣٨.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٤ و٢٠٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زنكي، وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها آل زنكي المشهورين وهم حكام الموصل وحلب بعد ذلك[1].

استجاب البرسقي وزنكي لنداء الخليفة وضيقوا الخناق ومعهم جيش الخليفة على الحلة حتى استطاع دبيس الهروب إلى طغرل الذي كان يستعين به في التدخل في الشئون العراقية، وقد حرض دبيس طغرل على الدخول إلى بغداد وتنصيبه سلطانًا على العراق بدلًا من محمود.

أما عن موقف سنجر فقد كان مهمًا في هذه القضية، فقد أمر بالتخلص من دبيس ووضعه في السجن إرضاء للخليفة، حيث كان سنجر من سلاطين آل سلجوق الكبار الذين يريدون الحفاظ على هيبة الخلافة من أجل الحفاظ على دولتهم، فقد أرسل للخليفة يبشره باعتقال دبيس وإرسال إقطاع خاص للخليفة بمقدار خمسين ألف دينار[2].

كل هذه الأزمات السياسية أثرت بالسلب في الاقتصادالعراقي،إذ عانى العراق الكثير من وطأة الأزمات السياسية وفي الآتي سرد لأهم الأزمات الاقتصادية في هذه المرحلة:

- تعرضت بغداد لأزمة غلاء جراء الحصار الاقتصادي الذي عانت منه المدينة أثناء الأزمة السياسية بين الخليفة وزنكي ودبيس، فقد اتخذ المسترشد إجراءات اقتصادية صعبة وكان منها تخزين الغلال والشعير في صوامع خاصة بالحكومة ومنعها من الأسواق وذلك تحسبًا للحصار وطوله، كما أمر الخليفة وزيره بمراقبة شديدة للعملة وعملية الضرب والقضاء على الفساد في العملة وعمل إصلاحاتاقتصادية للخروج من هذه الأزمة وذلكفي أواخر عام ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م[3].
- لم تكن بغداد بأحسن حالًا من البصرة، التي تعرضت للتخريب على يد قوات دبيس بن صدقة والذي دخلها انتقامًا من سنجر والخليفة واستولىعلى خزينة المدينة، ولابد أن نهب المدينة كان مستباحًا في هذه الحالات وهو ما أثر في الحالة الاقتصادية بها[4].
- مدينة الحلة وواسط وهي من ممتلكات دبيس بن صدقة، فقد تعرضت هذه المناطق لنهب الجيوش المحاربة ما أثر على النشاط الاقتصادي بها لا سيما الزراعة، فلابد وقد تعرضت المزارع للتخريب والتدمير، فقد اقتحمت جيوش السلطنة والخلافة الحلة أثناء مطاردتهم لدبيس،

---

(١) أيوب، المرجع السابق، ص١٣٨.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥٨.
(٣) المصدر السابق، ص٢٦٩.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد تخربت بعض الممتلكات العامة في المدينة، وفي بداية الصراع السياسي قام دبيس نفسه بالاستيلاء على ممتلكات الخليفة وتخريب أجزاء من إقطاعاته بها[١].

علىأي حال تعرض الخليفة المسترشد بالله في عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م[٢]للاغتيال، وذلك كان من نتائج الصراع السياسي الذي شهده الخليفة طوال فترة خلافته، فقد كان الخليفة المسترشد من ضحايا هذا الصراع، لكن كان له دور كبير فيه، فقد حاول الخليفة ونجحفي بعض الفترات في إرجاع رونق الخلافة وهيبتها مستغلًا الصراع السلجوقي الداخلي والصراع بين أمراء العراق في الوسط حيث دبيس بن صدقة وآل زنكي في الشمال .

أما عن محاولة الاغتيال، فقد تعرض الخليفة للقتل بعد النزاع العسكري بين مسعود وأخيه طغرل على أحقية كل منهما بمنصب السلطنة، وقد تولى بالفعل السلطان مسعود الذي رأى أن الخليفة يعمل ضده في العلن قبل الخفاء، من أجل السيطرة على العراق، وهكذا تحول الصراع إلى ندية بين الخلافة والسلطنة، وهذا لأول مرة منذ تولى السلاجقة مقاليد الأمور ولن تكون الأخيرة.

علىأي حال،انتصر مسعود على الخليفة المسترشد في داي مرك وتم القبض على الخليفة، وبقي في المعتقل، بالرغم من طلب السلطان الكبير سنجر لابن أخيه سلطان العراق مسعود أن يترك الخليفة ويوقره، فاحتال مسعود بأنه دبر مؤامرة لاغتيال الخليفة في مكان اعتقاله، وبالفعل اغتيل على يد رجال من الباطنية في عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م، وتولى من بعده ولده الراشد بالله الذي لم يكن أكثر حظًا من أبيه[٣].

خلافة الراشد بالله (٥٢٩هـ - ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م - ١١٣٦م):

هو أبو جعفر المنصور ابن المسترشد، وتلقب باسم الراشد بالله، وقد تولى الخلافة بعد عزاء والده، وذلك في ظروف سياسية صعبة، فلم تطل مدته بسبب طغيان السلطان مسعود الذي كانت علاقاته بالخلافة مغايرة لكل السلاطين الذين سبقوه[٤].

استمر الصراع بين الخلافة والسلطنة، ففي عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م أمر السلطان مسعود رجاله أن يقتحموا دار الخليفة ويطالبوا بالفدية التي أقرها السلطان مسعود على الخليفة المسترشد ومن بعده ابنه الراشد، فما كان من الخليفة إلا أن رفض[٥]، بل وأمعن في الخلاف بالتحالف مع داوود

---

(١) المصدر السابق، ص٢٦٥.
(٢) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٩٦.
(٣) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٩٤ و٢٩٥ و٢٩٦.
(٤) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٢.
(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٨٨ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بن محمود السلجوقي وهو ابن السلطان السابق محمود أخي مسعود وند للسلطان وأيضًا تحالف مع عماد الدين زنكي أمير الموصل والذي كان ينتهز أي فرصة لكسب أرضية سياسية في العراق، واستمر دوره سابقًا وفي أيام الراشد وما بعده، فما كان من مسعود إلا أنه أمعن في إذلال الخليفة وتم اقتحام دار الخلافة ونهبها ومصادرتها.

لم يكن هناك طريق إلا الحرب بين جميع الأطراف فالتقى جيش الخليفة وزنكي ضد جيش مسعود الذي انتصر في النهاية ودخل بغداد منتصرًا بعد هروب عماد الدين زنكي والراشد إلى الموصل، فجمع مسعود الفقهاء والعلماء وتم خلع الخليفة الراشد في نفس السنة، بعد أن أتم عامًا فقط في هذا المنصب[١].

بعد خلع الراشد تفرغ السلطان مسعود لمطاردته،وذلك بالاتفاق مع زنكي الذي أيد قرار الخلع، وتولى المقتفي لأمر الله الخلافة، ما أدىإلى خروج الراشد من الموصل وحاول استجداء التحالف مع سلاجقة الروم أو أمراء جرجان وآذربيجان دون نتيجة حتى قتله الباطنية في عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م[٢].

أما عن الأحوال الاقتصادية في العراق في عهده:

فنجد أن بغداد تعرضت للسلب والنهب ما أدىإلى ارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية وذلك بسبب قيام جنود السلطان مسعود بنهب الأسواق والأحياء البغدادية بسبب عدمرضاهم عن قطع الخطبة لسلطانهم وجعل داوود بن محمود سلطانًا، فقاموا بالانتقام من الخليفة الراشد بالنهب والسلب ما أدىإلى غلاء سعر المواد الأساسية طوال عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م[٣].

خلافة المقتفي لأمر الله (٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٦م - ١١٦٠م):

هو أبو عبد الله محمد ابن المستظهر بالله، وقد تولى الخلافة بعد خلع الراشد، حيث تلقى البيعة عنه السلطان مسعود نفسه،إلى جانب أبي القاسم علي بن طراد الزينبي نقيب النقباء[٤].

ويعتبر عهد المقتفي مختلفًا كليًا عن من سبقوه، فيعتبر هذا العصر بداية عصر الاستقلال والاستفاقة الأخيرة للخلافة قبل انهيارها، حيث أكمل المقتفي مسيرة المسترشد والراشد في محاولات الاستقلال وإعادة هيبة الخلافة بل كان يفوقهما ذكاء،فقد استفاد من النكبات التي مر

---

(١) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٢.

(٢) المصدر السابق، ٢٢٤.

(٣) انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٦ وما يليها.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٣ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بها المسترشد ومن بعده الراشد، وحاول أن يتحسس خطاه نحو الاستقلالية مستغلًا ضعف السلطنة السلجوقية وبداية أفول نجمها.

وبحلول عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م،توطدت العلاقة بين الخليفة المقتفي وبين السلطان الكبير سنجر ونائبه السلطان مسعود في العراق، وذلك في حادثة وزير الخليفة الذي أراد التوسط عند سنجر ومسعود حتى يرضى عنه الخليفة، فظهر المقتفي بمظهر القوي ذي البأس مع امتلاكه ذكاء تدريجي في التعامل مع السلطة السلجوقية[١].

ولقد كان عهد السلطان مسعود يتميز بالضعف والفوضى السياسية، وكان السبب الرئيس في هذه الفوضى هو استقلال العراق الحقيقي عن الدولة السلجوقية فيما يعرف بسلاجقة العراق، فالصلة بين الري وبغداد ماهي إلامظاهر دبلوماسية وسياسية عادية حتى في أوقات الحرب، كان السلطان سنجر في الري يترك الساحة العراقية لمصيرها المحتوم، وهذا ما نراه في عهد السلطان مسعود.

بعد هذا الصراع استقرت الأمور حتى وفاة السلطان مسعود في عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م[٢]، وقد شعر الخليفة المقتفي لأمر الله ووزيره ابن هبيرة بهذه الوفاة، حيث كان مسعود من السلاطين الأشداء على الخلافة العباسية.

تولى السلطنة بعد وفاة مسعود السلطان محمد بن محمود السلجوقي، وقد كان أخيه ملكشاه هو الأحق بالسلطنة وفقًا لوصية مسعود، لكن قائد مسعود العسكري ابن خاصبك أخل بالاتفاق وقبض على ملكشاه وخلعه من ولاية العهد، كما أرسل إلى أخيه محمد بغية القبض عليه هو الآخر، لكن محمد فطن إلى المؤامرة وقام بالقبض على ابن خاصبك ومن معه بعد تسلمه مقاليد الأمور بيوم واحد[٣].

أما على مستوى الخلافة، فقد كان الخليفة المقتفي -كما مر بنا- يعمل علىاستقلال الخلافة العباسية، لذلك كانت من ضمن سياسته ضرب السلاجقة ببعضهم البعض وشغلهم عنه، وعلى التوازي مع هذه السياسة بنى جيشا ليدافع به عن بغداد، وينفذ له طموحاته في الاستيلاء على

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٤.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٨؛ يقول عنه ابن الأثير أنه ولد في عام ٥٠٢ هـ وعندما مات ماتت معه سعادة البيت السلجوقي لأنه آخر السلاجقة الأقوياء، كان كثير المزاح، حسن الأخلاق، كثير الانبساط مع الناس؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص٣٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العراق،وبالفعل نجد أن هذا الجيش والذي كان خاليا من الجند الأتراك وكان كثيرا من جنوده من المتطوعين من عامة بغداد ومن الفتيان والعياريين[١].

أما عن الخليفة المقتفي، فتحدثت عن سياسته تجاه السلاجقة في هذه المرحلة، والحقيقة لم يكن لينفذ سياسته دون وزيره القوي ابن هبيرة، فقد تعامل ابن هبيرة مع الموقف برمته بذكاء ودهاء،فأعان الخليفة على هذه المعارك وقد قادها بنفسه خاصة في معركة تحرير كل من تكريت والحلة وغيرها من مدن وسط العراق، كما قام ابن هبيرة بالوقيعة بين السلطان السلجوقي وحلفائه من أمراء الحلة وتكريت والذين شاركوا السلاجقة في حلف حصار بغداد[٢].

ومن الشخصيات التي تخلص منها المقتفي مسعود بلال وهو شحنة بغداد، الذي كان يمثل الحاكم العسكري للعراق نيابة عن السلطان مسعود، فقد تخلص منه المقتفي وحاربه واستولى منه على تكريت وواسط والحلة والغرّاف وغيرها من المدن[٣]، كما أقام المقتفي علاقات جيدة مع إمارة الموصل بقيادة عماد الدين زنكي الذي اكتفى بالعلاقات الجيدة مع استقلاله عن السلاجقة والخلافة أيضًا، وكان عراب هذه العلاقات القاضي الشهرورزي الذي كان مهندس العلاقات بين زنكي والخلافة[٤].

بعد وفاة السلطان مسعود وتولي السلطان محمد السلطنة، أصبح الوضع خطيرًا تجاه المقتفي، فقد رأى السلاجقة ضرورة كسر شوكة الخليفة المستقل عن دولتهم، وبالفعل كانت الأوضاع تتكتل نحو تحالف مسعود بلال شحنة بغداد المنهزم ومعه ملكشاه بن محمود السلجوقي.

وقد حاول الأمير ملكشاه دخول واسط لكن جيش الخلافة هزمه هزيمة منكرة في عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[٥]، وقد أدت هذه الهزيمة لتحالف مسعود بلال مع السلطان محمد الذي كان يريد التخلص من المقتفي، لذلك نجد أن جيش السلاجقة يتجه نحو بغداد.

لكن ابن هبيرة [٦]وزير الخليفة المقتفي اقترح خوض لعبة سياسية لضرب هذا التحالف وهي دعوة سليمان بن محمد بن ملكشاه، ليمنيه بالسلطنة، وبالفعل اتجه سليمان إلى بغداد ومكث فيها،

---

[١]انظر في تجنيد المقتفي للعوام خوفًا من حصار بغداد؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٦٥.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٧٤.

[٣] المصدر السابق، ص٣٧٤.

[٤] أيوب، آخر أيام العباسيين، ص٢٣٩.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٩٠ و٩١.

[٦]ابن هبيرة هو الوزير الكامل عون الدين يمين الخلافة أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ولد في إحدى قرى منطقة الدور في العراق عام ٤٩٩هـ، وتعلم الفقه والكتابة على العلماء في بغداد منذ صغره، وتدرج في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واتفق مع الخليفة أن يكون سلطانًا ويحارب ابن اخيه سلطان العراق محمد، وقد نجحت دبلوماسية ابن هبيرة والخليفة في جذب أخي السلطان ملكشاه والذي كان عدوًا للخلافة، لكنه انضم إلى عمه سليمان بشرط أن يكون وليًا للعهد في دولته(١).

علم السلطان محمد بهذه التحركات، فاستغل ذلك بإعلان الحرب على الطرف الآخر وقد انتهت المعارك بهزيمة سليمان والخليفة،وذلك في عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، وكان من نتائج الهزيمة تحرك السلطان محمد بجيشه لحصار بغداد،وقد ضم الجيش حلفاء من الحلة وواسط وتكريت وانضم إلى قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي أيضًا، وقد تولى الموصل بعد مقتل والده(٢).

حاصر الجيش السلجوقي بغداد وأحكم الحصار حولها، وقد عانت المدينة كثيرًا أثناء هذا الحصار، وفيما يلي سرد الآثار الاقتصادية جراء هذا الحصار:

- تخزين الغلال والشعير والمواد الغذائية الضرورية قبل الحصار بفترة، وقد كانت سلطات الخلافة تهدف بذلك إلى عدم معاناة المدينة أثناء الحصار.
- قام الوزير ابن هبيرة بشهادة ابن الأثير بتوزيع أجرة القتال غلالًا وليس دنانيرًا، وذلك لضمان توفر هذه الغلال لكل المقاتلين وأسرهم(٣).
- ساهمت هذه السياسة الاقتصادية برخص الأسعار أثناء الحصار ولم يشعر العامة بوطأة الأزمة الاقتصادية(٤).
- إزالة الضرائب والمكوس قبل هذا الحصار، ولقد كانت هذه سياسة عامة للخلافة في فترة تولي المقتفي، فقد حرص على إزالة الضرائب والمكوس عن كاهل العامة(٥).
- كان طول الحصار قد أدىإلى انتشار الأمراض بين أهل بغداد وهلاك عدد منهم، وذلك على حد قول ابن الأثير (٦).

وهكذا رأينا كيف كانت بغداد تئن تحت وطأة الأزمات الاقتصادية جراء هذه الفتن والمحن السياسية الداخلية، وإن كانت نجت بغداد من هذا الحصار.

مناصب الحكومة حتى أصبح وزيرا للخليفة المقتفي عام ٥٤٤هـ، وكان يمتلك موهبة فذة في الإدارة؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٤٢٦.

(١) أيوب، آخر أيام العباسيين، ص٢٣٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤٠٩.

(٣) المصدر السابق، ص٤١٠.

(٤)ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤١٠.

(٥) نفس المصدر السابق، ص٤١٠.

(٦) نفسه، ص٤١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فشل حصار بغداد بسبب بسالة العياريين والفتيان والعامة من أهل بغداد الذين قاوموا الجند الأتراك بالعرادات والحراقات، وغيرها من الأسلحة الخفيفة، وقد لجأوا لكثرة عدد المحاصرين بهجمات خاطفة فدائية ضد المحاصرين، وقد نجحوا في إيقاع عدد كبير من القتلى، ما أدى لفشل الحصار في النهاية.

ومع شجاعة جيش المدافعين عن بغداد والذي كان سببًا في إنهاء الحصار لا شك، إلا أن سببًا آخر كان كفيلًا بإنهاء الحصار، وهو أخبار وردت للسلطان محمد أن أخيه ملكشاه الهارب من الهزيمة التي لحقت بالخليفة وسليمان شاه، قد اتجه بجيشه إلى همذان واستولىعليها، ما أدىإلى إنهاء الحصار والذهاب إلى فارس لتتبع الوضع فيها[١].

تغيرت الأحوال السياسية في العراق، وفي خراسان أيضًا، فقد توفي السلطان سنجر السلجوقي في ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م[٢]، وبعد السلطان محمد سلطان العراق في ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[٣].

وقد توفي الخليفة المقتفي هو الآخر في عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م[٤]، بعد خلافة دامت ٢٥ عامًا، كان معظمها محاولات لاستقلال العراق من السلاجقة، وقد نجحت هذه المحاولات إلى حد بعيد.

وكانت علاقات الخلافة العباسية بطغرل وأتابكه عادية، فلم تشهد الدولة السلجوقية والخلافة العباسية صدامات أدت إلى أزمة اقتصادية طاحنة كالسابق، بل نجد أن ضعف الدولة السلجوقية، وانتعاش الخلافة واستقلالها في هذا الوقت،أدىإلى رخص الأسعار، فوصلت الأسعار إلى مستوى متدني من الانخفاض بشهادة المصادر المعاصرة، ففي عام ٥٥٦هـ/ ١١٦١م، رخصت أسعار الفواكه والخضروات والغلال، كما رخص سعر السكر واللحوم والبيض والعسل، وغيرها من المواد الضرورية[٥]، وقد تكررت ظاهرة الرخص في المواد الغذائية، في أعوام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م، خاصة في السكر، بسبب وفرة محصول قصب السكر،ما يدل على استقرار الأوضاع السياسية التي أدت بدورها إلى استقرار الزراعة وازدهارها وبالتاليانعكس ذلك على الصناعة والتجارة وحركة الأسواق[٦].

---

(١) نفسه، ص٤١١.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٢١.

(٣)نفس المصدر السابق، ص١٣٧.

(٤)ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٥.

(٥) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص١٤٨.

(٦) نفسه، ص١٦٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما تكررت ظاهرة الرخص فنجد أن الأسماك رخص ثمنها في عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م، بسبب زيادة نهر الفرات وكثرة الأسماك وعمليات الصيد فيه[١]، كما شهدت السنة التي تليها، أي عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، رخصًا في أسعار الورد، وذلك لكثرته، حتى بيع الرطل منه بقيراط وحبة[٢].

وقد شهدت الدولة العباسية ازدهارًا كبيرًا في عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي[٣]، منذ عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، والذي عمل على استقلال الدولة العباسية ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا، ولم تشهد الدولة العباسية استقرارًااقتصاديًا كما شهدته في عهد هذا الخليفة، وهو ما تؤكده المصادر المختلفة.

وهناك عامل أساسي في استقرار الدولة العباسية ألا وهو ضعف الدولة السلجوقية في العراق ودخولها في مرحلة الانهيار الكلي، حيث انهارت فعليًا بعد وفاة أتابك طغرل محمد البهلوان عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م[٤]، ومن بعدها تنازع أولاد الأتابك الأربعة على ما تبقى من ملك السلاجقة،حتى اصطدموا بقوة الناصر لدين الله الفتية التي أصرت على القضاء على ما تبقى من السلاجقة.

المبحث الثاني: أثر شغب الجند على حركة الاقتصاد العراقي في العهدين البويهي والسلجوقي:

يتناول المبحث الثاني تقاتل جند الجيوش البويهية والسلجوقية مع بعضهم البعض وأثر ذلك على الاقتصاد العراقي، فيعتبر هذا المبحث مكملًا لما سبقه، حيث يسلط الضوء على سياسة الجند وأثرها على الدولتين البويهية والسلجوقية، بما فيها حركة الاقتصاد.

أولا: شغب الجند البويهي وأثره في الاقتصاد العراقي:

كان الجند الديلم والأتراك على السواء جزءًا من الصراع السياسي الدائر على أرض العراق، فعلى الرغم من حسم البويهيين الأمور السياسية في العراق لصالحهم،فإن الجيش البويهي كان يتدخل في الأمور السياسية للدولة ويتدخل لحسم الصراع بين الأمراء والخلفاء، أو بين الأمراء البويهيين المتنازعين على الحكم.

---

(١) نفسه، ص١٧٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٧٦.

(٣)الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بنور الله، ولد عام ٥٥٣هـ،بويع بالخلافة بعد وفاة المستضيء بنور الله، عام ٥٧٥ ويعتبر من عظماء خلفاء بني العباس المتأخرين؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٢.

(٤)ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٤٠ و١٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولقد أثرت تلك التدخلات وما أسفر عنها من حروب داخلية إلى تردي الأحوال العامة للعراق، لا سيما الوضع الاقتصادي، فقد كان لشغب الجند وتدخلهم المستمر أثر مباشر على حركة البيع والشراء وهو ما سيتم تناوله في النقطة البحثية القادمة، أما هذه النقطة فستركز على مظاهر التدخلات العسكرية في الحياة السياسية وأثرها على مجمل الأوضاع السياسية والاقتصادية على السواء.

ونربأنه منذ دخول البويهيين بغداد، وكان للجند الديلم والأتراك شأن في تصدر المشهد العام، ففي عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م، نجد أن القوات البويهية التي احتلت بغداد قامت بأفعال شنيعة تجاه السكان، فقد أمر معز الدولة البويهي أصحابه من قادة الجند بالنزول إلى الأحياء والدور والبيوت ويسكنونها ويحتلونها كمظهر من مظاهر القوة البويهية في بداية الأمر[١]، وتجمع المصادر المختلفة على إلحاق الأذى والشدة جراء ذلك الفعل وهو ما أثر في الحالة الاقتصادية للبلاد، وأدىإلى حدوث مجاعة كبيرة مات على أثرها الكثيرون.

وتعتبر السياسة الإقطاعية التي اتخذها معز الدولة البويهي من أهم السياسات التي جعلت للجند تدخلًا مباشرًا في الحياة الاقتصادية العراقية وهو ما أدى بالضرورة إلى التدهور الاقتصادي، حيث ارتبط الاقتصاد بشغب العسكر وتمردهم وبالتاليبتخريب الإقطاعيات الزراعية وتدهور القرى تبعًا لذلك، وهو ما سيناقشه الباحث في الفصل الثاني تفصيليًا[٢].

ونجد في عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٧م، حادثة يخبرنا بها ابن مسكويه، مفادها أن الجند الديلم قاموا بالشغب على معز الدولة البويهي من أجل الأرزاق خلال حربه ضد روزبهان بن خرشيد الديلمي،وهو ما أزعج معز الدولة ومنعهم من القتال خوفًا من انضمامهم إلى روزبهان، بل منعهم من المرور عبر قنطرة أربق وأمر كل من سبكتكين ومسافر قواده على الجند الأتراك أن يقوموا بإعطاءهم الأرزاق ومنعهم من المرور حيث ميدان القتال[٣].

وفي رواية هذه الحادثة ما يدل علىانقسام الجيش البويهي على نفسه بين فئتين، فئة الديلم والأتراك، وهو ما أثر مستقبلًا على دور الجيش والجند في السياسة البويهية، حيث اعتمد معز

---

[١]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٤٣.

[٢]سيتناول الفصل الثاني نقطة الإقطاعية العسكرية وأثرها العميق على الاقتصاد العراقي في هذه الفترة.

[٣]مسكويه، تجارب الأمم،ج٥، ص٣١٦ و٣١٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدولة في هذه الحرب من تلك السنة على غلمانه الترك دون الديلم وهذا ما نراه في خلفائه،حتى نرى أن الديلم تضاءل دورهم تمامًا أمام الأتراك[١].

كان الجيش البويهي في العراق منقسمًاعلى نفسه كما سبق، وذلك بسبب الطائفتين الذين يعتبران المكون الأساسي لهذا الجيش، فقد تكون من الديلم وهم العصبية لهذه الدولة وأصحاب النفوذ والسلطة فيها، فالأمراء من الديلم، ومن ناصر علي بن بويه من البداية كانت شيعته الديلم، أما الجند الأتراك فهم لاحقين للديلم وكانوا أيضًا ذوي حيثية في هذا الجيش وتكوينه،علىأي حال كان هذا الوضع حافزًا للتناوش بينهم وكان هذا له آثاره القريبة والبعيدة على المجتمع العراقي اقتصاديًا.

إلا أن الديلم والأتراك اشتركا في صفة واحدة وهي نهب المال خاصة من العمال والتنّاء (الفلاحين) من الإقطاعات الزراعية دون توريده للخزانة البويهية، فعلى سبيل المثال يخبرنا ابن مسكويه في حوادث عام ٣٤٧هـ/ ٩٥٩م أن الأتراك والديلم في منطقة واسط وأعمالها من القرى[٢]، استولوا على الإقطاعات علىسبيل التلاجىءومنعوا المال الخارج من هذه الإقطاعات أن يدخل إلى الخزانة السلطانية، فأصبحت عادة أن يأخذوا ما خرج من الإقطاعات الزراعية في جيوبهم ولا يصل منه إلا القليل وهنا يقول ابن مسكويه: "إلا أن هذا الفساد كان في أيام معز الدولة كالطفل الناشئ لهيبته،وبقية حشمته ثم ظهر الإفراط بعد على أولاده ولما أتىعليه الزمان بعد وفاته"[٣].

وفي عهد عز الدولة بختيار بن معز الدولة البويهي، تدهورت الأحوال السياسية في العراق، وذلك بسبب انقسام الجيش البويهي بين الجند الأتراك والجند الديلم، فقد برز من بين الجند الأتراك حاجب بختيار سبكتكين، الذي انضم الجند الأتراك إليه في تمرد ضد بختيار[٤].

نتيجة للذي سبق تدخل عضد الدولة البويهي في شئون العراق طامعًا أن يكون لهم قدم في السياسة العراقية، ومن أجل ذلك استغل التمرد العسكري ضد عز الدولة بختيار واستنجد الأخير بأبيه ركن الدولة في فارس وتحرك بقواته كما ذكرت في المبحث الأول، إلا أن ما يهمنا في تلك الأثناء هو تحريضه للجند على الشغب خاصة الجند الديالمة ومطالبة هؤلاء بأموال ورواتب

---

[١]بعد هذه الحادثة نجد أن دور الديلم تضاءل إذ ذكر مسكويه في نفس متن هذه الرواية أن معز الدولة كان خائفًا من جنده ولا يثق بهم كثيرا؛ انظر مسكويه، المصدر السابق، ص٣١٧.

[٢] مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٣٢٣.

[٣] نفسه، ص٣٢٤.

[٤]ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إضافية يعجز عنها بختيار، وفي هذا قال ابن الأثير موضحًا الوضع المزري لبختيار الذي وصمه بالإسراف وسوء التدبير: "لا يملك قليلًا ولا كثيرًا، وقد نهب البعض، وأخرج الباقي والبلاد خراب ولا يصل يده إلى أخذ شيء"[1].

ومن النص الواضح يتبين أن الوضع الاقتصادي كان صعبًا وحرجًا في تلك الفترة بسبب شغب الجند أولًا، والنزاع العسكري بين سبكتكين وعز الدولة والذي حسم في النهاية لصالح طرف ثالث وهو عضد الدولة البويهي.

لم نسمع من خلال المصادر التي بين أيدينا عن أي خلافات بين الجيش البويهي سواء الديالمة أو الأتراك وكانت سياسة عضد الدولة القوية وهو أقوى رجالات البيت البويهي في العراق وفارس هي السبب في الاستقرار السياسي ومن ثم الاقتصادي الذي شمل المملكة البويهية.

توفي عضد الدولة في عام ٣٧٢هـ/٩٨٣م[2]، وتولى ابنه صمصام الدولة، واضطربت الدولة البويهية مرة أخرى بسبب النزاع على العرش، والذي كان يجلب النقمة الاقتصادية وكانت أحد مظاهر تلك النقمة شغب الجند.

ففي عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٦م، تدهورت الأوضاع الاقتصادية في بغداد بسبب تمرد عسكري على صمصام الدولة، فقد واجه صمصام الدولة تمردًا بقيادة أحد قواد الديلم يدعى أسفار بن كرداويه[3]، حيث نجح في استمالة الكثير من الجند لصالحه،حيث كان يهدف التمرد للدعوة لشرف الدولة وتعيين بهاء الدولة على العراق وخلع صمصام الدولة، وقد نجح التمرد في أول الأمر لكنه فشل في النهاية حيث قبض صمصام على أخيه الأصغر بهاء الدولة واستطاع استمالة قواد من الجيش ضد ابن كردويه واستعانته بالجيل أقارب أمه في الجيش[4].

نرى أن هذا التمرد العسكري وشغب الجند أدى إلى تدهور اقتصادي، حيث اضطر صمصام الدولة لوضع خطة من الإجراءات الاقتصادية من أجل تحصيل مليون في تلك السنة وتكون رسم جاري كل سنة وذلك بفرض رسوم وضرائب على الصناعات القطنية في العراق وفي بغداد خاصة[5]، وهو ما جعل العامة تثور عليه واجتمعوا في جامع المنصور وقرروا منع خطبة الجمعة، وكادت الفتنة تمور في أرجاء المدينة ما جعل السلطة البويهية تبطل هذا الرسم.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧ ، ص٣٥١.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٩١ وما يليها.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٢١.

(٤) نفس المصدر السابق، ص٤٢١.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣١١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويرجح الباحث أن صمصام الدولة كان يعاني بسبب هذه الاضطرابات الأمنية والتمردات العسكرية والنزاع على العرش،ما جعل خزينته فارغة من المال وهو ما جعله يضع هذه الإجراءات الاقتصادية ومنها تحصيل الضرائب على الصناعات القطنية.

يعضد القول السابق ما تلا من الأحداث، ففي نفس السنة استطاع شرف الدولة أن يغزو العراق ويطلق سراح بهاء الدولة ويستميل الجند نحوه،إذ رأى الجند أن من مصلحتهم التحالف والانضواء تحت لواء شرف الدولة وهذا ما حدث وأدى ذلك إلى عزلة كبيرة لصمصام الدولة في بغداد بعد سقوط كل المدن العراقية في يد شرف الدولة وانتهى حكم صمصام الدولة فعليًا بعد شغب الجند عليه وحصارهم لبيته ثم اعتقاله من قبل قوات شرف الدولة الذي أودعه قلعة من قلاع فارس وذلك في عام ٣٧٦هـ/ ٩٨٧م(١).

لم يستقر الحال بين الجند،فنجد أنه في عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م، شغب كل من الأتراك والديلم في شوارع بغداد واستمر القتال حوالي١٢ يومًا متتالية خربت فيها جهات من المدينة، وكانوا لا يستجيبون للصلح وتدخل بهاء الدولة بن بويه في الأمر، فقبض على عدد من قواد الديلم المتسببين في تلك الفتنة فضعف أمرهم وقويت شوكة الأتراك كما يحدثنا ابن الأثير(٢).

ومن الواضح أن سبب هذه الفتنة كان طلب الأرزاق والأموال الإضافية، وكان الجند دائمًايشغبون من أجل المال وهو ما أثر بالضرورة على النواحي الاقتصادية، ولم تحدثنا المصادر التي بين أيدينا عن أي مظهر من مظاهر الاضطراب الاقتصادي المباشر بسبب هذا الشغب.

وفي عام ٣٨١هـ/ ٩٩١م،تم القبض على الخليفة الطائع لله العباسي(٣)، ولم تكن هذه أول مرة يتم فيها القبض على خليفة عباسي في أيام الدولة البويهية، إلا أن هذه المرة كانت مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بشغب الجند، فيحدثنا ابن الاثير أن في هذه السنة قبض بهاء الدولة على الطائع بسبب مطالبته بأموال من الخليفة ولم يؤدها له، فهذه المصادرة والقبض كان السبب فيها شغب الجند على بهاء الدولة ما أدىإلى فراغ خزينته(٤)، فحاول بهاء الدولة إنقاذ الموقف بمصادرة أموال سابور وزيره والقبض عليه ثم أتبعه بالخليفة الطائع لله وذلك اتباعًا لنصيحة ابن المعلم وزيره

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣١٧ و٣١٨.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٣٧ و٤٣٨.
(٣)ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٨٢؛ انظر أيضا سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص٢٤٢.
(٤) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٤٨؛ انظر أيضا الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأول، وهكذا نرى أن شغب الجند ومطالبتهم بالأموال جعلت بهاء الدولة وسلطته في موقف اقتصادي حرج أدى لوضع سياسي أصعب[١].

واستمرارًا للحالة الأمنية الصعبة، شغب الجند في الفترة التي تلت اعتقال الخليفة الطائع، وتولية الخليفة القادر بالله، حيث طالبوا برسم البيعة بعد التولية كرسم جار بعد تولية كل خليفة[٢].

ويبدو أن الحالة لم تنته، فقد تكرر شغب الجند على بهاء الدولة بن بويه في عام ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، وكان السبب الرئيس في الشغب تلك المرة سياسي، وهو مطالبتهم إياه بالتخلص من الوزير أبي الحسن بن المعلم، والذي كان له دور كبيرفي القبض على الخليفة الطائع ومصادرة أمواله[٣]، ويبدو أن هذا الوزير كان ضد مصالح الجند فثاروا ضد بهاء الدولة للتخلص منه، وكانت ثورة كبيرة واعتصموا في منطقة باب الشماسية ولم يرضوا بإنهاء الثورة حتى تم القبض على ابن المعلم وقتله بالسم ترضية للجند.

وفي نفس السنة سنجد أن غلاءً كبيرًا في الأسعار شهدته بغداد ويبدو أن الأحوال الأمنية والسياسية المضطربة كانت السبب الرئيس للغلاء[٤].

استمر الشغب في السنة التالية لتلك الثورة،إذ نجد نصًا عند ابن الجوزي أن الديلم قاموا بالشغب من أجل غلاء السعر وفساد النقد وتأخر العطاء[٥]، وهو ما جعلهم يمنعون الصلاة في جامع الرصافة،بل قاموا في اليوم التالي بالهجوم على بيت أبي نصر سابور الوزير ونهبوا ما فيه وهو ما شجع العامة إلى الدخول في تلك الثورة.

ومن أجل إخماد تلك الثورة، قام بهاء الدولة بوعدهم باتخاذ إجراءات لتغيير النقد، ونجد أن من آثار تلك الثورة والشغب غلاء كبير حتى وصل كر الحنطة ستة آلاف وستمائة درهم غياثية، والكارة الدقيق مائتين وستين درهمًا[٦].

ولا ريب أن الجند البويهي كان له شأن في أمور السياسة، فقد تدخل الجند في أكثر من مناسبة لتغيير دفة الأمور السياسية داخل العراق وفارس، وهو ما أثر بالضرورة على الحالة الاقتصادية في المملكة البويهية، ولعل أشهر الأمثلة على ذلك الأمر ما حدث عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م[٧]،

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٣٤٨ وما يليها.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٤٩.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٥٩.
(٤) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٦٣.
(٥) نفسه، ص٣٦٦.
(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦٦.
(٧) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما انقلب الجند في الجيش علىجلال الدولة أبي طاهر وعقد الولاية لأبي كاليجار ،وكان هناك سببًا رئيسًا في هذا الانقلاب وهو عدم امتلاك المال عند جلال الدولة بسبب نهب الخزينة الملكية بعد موت شرف الدولة بن بويه، لذلك قام الجنود بمبايعة أبي كاليجار بدلًا من جلال الدولة.

وقد أثرت تلك الأحداث على الحالة الاقتصادية كأي حدث سياسي، حيث غلت الأسعار وخرج خلق من الناس من أوطانهم بحسب ابن الجوزي، وهو ما يدل على تردي الحالة الاقتصادية في تلك الأثناء، هذا غير هجمات العياريين التي أدت إلى مزيد من التردي[١].

لم ينته الأمر عند ذلك الحد فقد فشل الانقلاب وتولى جلال الدولة بن بويه الأمر وهو ما أدىإلى شغب الجند داخل بغداد، ونهبهم للكرخ واشترك العياريون في هذه الأحداث ما أدىإلى انهيار الحالة الاقتصادية في سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م،فتأثر الكرخ وهو الحي التجاري الرئيس في بغداد بتلك الأحداث وتم إحراق جميع الأسواق، بل وتقرر دفع إتاوة قدرها مائة ألف دينار على الحي مقابل وقف هذا الشغب[٢].

وهكذا نجد أن تدخل الجند في السياسة والأمور الجارية أدى بالضرورة إلى تأزم الحالة الاقتصادية. ويبدو أن هذه الأمور انتهت باعتذار الجند إلى الخليفة في السنة التالية عما بدر منهم أثناء تولية جلال الدولة الذي استتب له الأمر في العراق بعد ذلك.

ويبدو أن الأمر انقلب على عقبه مرة أخرى، ففي المحرم من عام ٤١٩هـ/فبراير ١٠٢٨م، نجد أن جند جلال الدولة قاموا بانتفاضة من أجل العطاء والزيادة فيه، وراسلوا الخليفة وجلال الدولة نفسه على تلك الزيادة وعدم إغفالهم مرة أخرى، وكانت هذه الانتفاضة في الغلمان والجند ذوي الرتب الصغيرة ثم انتقلت إلى كبار الجند والقادة[٣]، وقد أجمعوا الكلمة على زيادة العطاء، ولمزيد من الضغط قاموا باقتحام بيت الوزير أبيعلي بن ماكولا وبعض دور الأغنياء والحاشية، وهو ما جعل الأمور تتطور إلى نهب دور العامة أيضًا، وقام البعض منهمبحصار دار المملكة والتضييق على من فيها وكانت تعتبر دار الحكم الإداري في بغداد.

قام جلال الدولة بمراسلة الجند وتهدئتهم على أن يقوم بإعطائهم ما طلبوه، خاصة بعدما أقدموا على قتل الوزير، لكنهم هدأوا عندما أخذوا ما أرادوا.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٧١.
(٢) المصدر السابق، ص١٧٥.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٩٠ و١٩١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل هذه الأحداث بلا شك كانت تؤثر تأثيرًا كبيرًا على الخزانة، بل وعلى حياة وأموال الناس، فكانت الأسواق ودور العامة بل والأغنياء والوزراء وأصحاب المناصب عرضة للسرقة من الجند. وفي عام ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م تعرضت الأهواز لنهب العسكر بسبب دخول جلال الدولة البويهي إليها أثناء حربه ضد أخيه أبي كاليجار، "فدخل العسكر فنهبوا ما يتجاوز عن الحصر"[١]، وقد استمرت عمليات النهب والسلب مدة ستة عشر يومًا،ويضرب ابن الجوزي مثالًا على الممتلكات المنهوبة عند فرد يدعى ميمون البائع،أنه تم سرقة ونهب ٧٠٠ ألف دينار منه ومن منطقة خان أنبارة، كما تم حصر السرقة تقريبيًا من البلد كله بحواليخمسة ملايين دينار وألفي جارية وحرائر،هذا غير الحرق الذي طال الأسواق[٢].

ولم تكن الدولة البويهية فقط من ضعفت أمام مطالب الجند وجشعهم وانتهابهم، بل نجد أن الخلفاء العباسيين كانوا لا حول لهم ولا قوة أمام الجند الديلم والأتراك على السواء، ومن مظاهر هذا الضعف ما حدث عند بيعة القائم بأمر الله عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م[٣]، عندما همّ الجند الأتراك على الشغب بسبب مطالبتهم بأموال رسم البيعة، وهو ما أدىإلى خلاف بينهم وبين أسرة الخليفة تطور من التشابك بالأيدي وقتل أحد الجنود وهو ما أدى إلى ثورة الأتراك التي قام القائم بإخمادها عندما تقرر دفع ثلاثة ملايين دينار وهو رسم البيعة للجند، وقد تقرر دفعها بعد بيع الخليفةلخان وبستان في منطقة القطيعة حتى يدفع لهم هذا الرسم، وهو مبلغ ضخم يدل على قوة هؤلاء الجند، وعلى ضعف الخلافة والدولة البويهية أمام العسكر[٤].

لم يكن المشهد السابق هو الوحيد الذي يدل على مدى الضعف الذي اعترى السلطات، لكن هذه المرة مع جلال الدولة البويهي الذي تعرض للإهانة والرمي بالحجارة من جنده المشاغبين المطالبين بالأرزاق والعطاء، ففي سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م، ثار الجند ببغداد، وأمهلوا جلال الدولة لتدبير العطاء والمرتبات مدة ثلاثة أيام، فلم يتمكن من تدبيرها ما أدىإلى اقتحام هؤلاء الجند لبيته وقلعوا أبواب البيت ورموه بالحجارة وأصابوه قبل الهرب منهم خارج بغداد[٥]، ففي هذا المثال الكفاية على مدى قوة الجند وبأسهم وضعف السلطة البويهية أمامهم.

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩١.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٠٥.

[٣] نفس المصدر السابق، ص٢١٥.

[٤] نفسه، ص٢١٦.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٥٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن أكثر المشاهد قتامة في شغب الجند الأتراك ماحدث في بغداد ومناطق السواد الأخرى في عام ٤٣١هـ/ ١٠٤٠ م، حيث اعتصم الجند في بداية الأمر عند شاطئ دجلة وراسلوا جلال الدولة أن عليهم أقساطًا بسبب تردي أحوالهم المالية والاستيلاء على إقطاعاتهم، وهو ما جعلهم يخرجون ضده،فأمر جلال الدولة دبيس بن علي ومعه الفتح بن ورام وأبا الفوارس بن سعدي للقضاء عليهم[١].

نتج عن ذلك مقتل بعض الجنود، لكنهم أجمعوا على حصار دار المملكة والقيام بنهب النواحي، ويخبرنا ابن الجوزي أثناء الحديث عن تلك الانتفاضة أنه تم تخريب عدد من القرى في السواد وتخريب الدواليب الزراعية وغلا السعر، وخاف الناس علىأنفسهم حيث لم يخرج العامة من دورهم خوفًا من السرقة والقتل[٢]، حيث انتشر الجند في الشوارع، لدرجة عدم إقامة صلاة الجمعة في مسجد براثا في تلك الأثناء إلا بثلاثة أنفس فقط، وهو ما يبين لنا تدهور الأحوال الاقتصادية والأمنية في تلك الأثناء سواء في بغداد أو في قرى السواد.

تكرر هذا المشهد في جمادى الآخرة من سنة ٤٣٣هـ/ فبراير ١٠٤٢م، عندما شغب الأتراك وقاموا بنهب الأسواق ونهب ثياب الناس، بل قاموا بقتل امرأتين أثناء تلك المشاغبة،حتى هدأت ثورتهم بإعطائهم أرزاقهم[٣].

وفي عام ٤٤٦هـ/ ١٠٥٥م، وبينما كانت الدولة البويهية تلفظ أنفاسها الأخيرة حيث سقطت فارس في أيدي السلاجقة ولم يبق إلا العراق، نجد أن صراعًا داخليًا بين الملك الرحيم أبي نصر البويهي وقائده أبي الحارث أرسلان البساسيري من جهة ومن جهة أخرى الخليفة القائم بأمر الله ورئيس الرؤساء ابن مسلمة الذي اتهمه أبو الحارث البساسيري بأنه يراسل السلاجقة في تملك العراق، بينما كان البساسيري نفسه يقوم على مراسلة الفاطميين في مصر[٤].

هذا الأمر السياسي المتشابك الذي يوضح لنا مدى انهيار الدولة البويهية وضعف الخلافة العباسية، لم يستثنى منه الجند الأتراك الذين ينتهزون الفرص من أجل العطاء حتى لو عن طريق النهب والسلب، ففي نفس السنة قام الأتراك بالشغب في بغداد من أجل العطاء ويبدو أن البساسيري كان المحرض الأول على هذا الشغب والمقصود به الخليفة نفسه، حيث راسل الخليفة

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٢) نفسه، ص٢٧٤.

(٣) نفسه، ص٢٧٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغلمان والجند بإبطال هذه المشاغبة دون طائل بل ترددت أنباء عن محاولة هؤلاء الجند لمحاصرة القصر الخلافي نفسه حتىيزيدوا الضغط على الخليفة، ما أدىإلى انزعاج الناس وهروبهم من أماكن التوتر ونقل أموالهم إلى باب النوبة وباب المراتب في بغداد(١).

وفي أثناء تلك المشاغبة قاتل العوام الأتراك في الشوارع خاصة في منطقة الكرخ والقلائين وباب البصرة ونهر طابق والحربية وباب الغربة، خاصة بعدما قام الجند بنهب دور العوام وقتلهم(٢)، ولم يهدأ الشغب إلا بقيام الخليفة بتعيين أبا الحسين بن عبد الرحيم وزيرًا كما كانت مطالب الجند الأتراك، ويبدو جليًا أنها كانت بتدبير البساسيري.

وهكذا نرى أن الجند الأتراك أو الديلم لم يكونوا إلا ضغطًا زائدًا على العراق من الحالة الاقتصادية والسياسية وكانت لها تأثيراتها المباشرة على تردي الأحوال الاقتصادية في العراق وزيادة المحن التي عانى منها العراقيون في هذا العصر الذي انتهى بدخول السلاجقة بغداد عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م.

ثانيا: شغب جند السلاجقة وأثره في الاقتصاد العراقي:

كان دخول طغرلبك السلجوقي إلى بغداد في عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م،فاتحة عهد جديد على الخلافة العباسية، كان جديدًا من الظاهر أما من حيث المحن والأزمات فقد استمرت هذه المحن.

وقد ارتبط دخول طغرلبك واستيلاؤه على الحكم وتخلصه من أبي نصر الملك الرحيم البويهي بعد قليل من دخوله، وتمرد أبي الحارث أرسلان البساسيري عليه لما كان بينه وبين ابن مسلمة والخليفة القائم من خلاف، حيث كان يراسل الفاطميون في القاهرة وكان الخليفة وابن مسلمة على معرفة تامة بذلك وهو السبب الرئيسلاستدعاء السلاجقة إلى العراق.

على أن ما يهمنا في هذا الموضع هو الحالة الاقتصادية عند دخول السلاجقة وفي أثناء الصراعات بين أصحاب النظام السياسي الجديد وفلول النظام القديم من البويهيين خاصة البساسيري الذي كان خطرًا على الخلافة والسلاجقة على السواء، فلا ريب تأثرت العراق اقتصاديًا جراء تلك الصراعات السياسية.

وقد ظهرت هذه الأزمات الاقتصادية عند دخول السلاجقة بغداد، فقد صحب طغرلبك جنده إلى بغداد وأسكنهم الدور البغدادية سواء دور الأتراك البغدادية الذين هربوا مع البساسيري أو

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٣١٥ وما يليها.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غيرهم[١]، وكان هذا الوضع في غاية السوء، لأنه أظهر تنازعًا كبيرًا بين العوام وبين الجند الأتراك خاصة في الكرخ إذ قامت مشادات وقتال في الشوارع بين الطرفين فيحدثنا ابن الجوزي عن هذا الوضع بقوله: "وكثر فساد الغز ونهبهم فثار العوام وقتلوا عددًا من الغز، وكثر النهب حتى بلغ الثور خمسة قراريط إلى عشرة والحمار قيراطين إلى خمسة"[٢]، وهو ما يدل على ارتفاع السعر جراء هذا النهب.

وقد تدخل طغرلبك في هذه الأثناء لتهدئة الوضع، حيث قام بإرسال وزيره عميد الملك إلى أهل الكرخ لترضيتهم لكنهم لم يرضوا وفشلت المفاوضات وتجدد القتال بين العامة والغز، "حتى لو أتبعهم جند الملك الرحيم لبلغوا ما أرادوا"، دلالة على قوة هذا القتال وتغلب العامة في أول الأمر، لكن الغز قاموا بنهب مناطق درب يحيى ودرب سليم والرصافة وترب الخلفاء ونهب أموال لا تحصى من هذه المناطق، وقام الناس بالهرب بأموالهم إلى باب النوبي وباب العامة وجامع القصر خوفًا من النهب والسلب[٣].

وقد اتهم طغرلبك الملك الرحيم أنه من وراء تلك الأحداث حتى يخرج قوة السلاجقة من بغداد، وتلك كانت الحجة للقضاء على آخر سلاطين الدولة البويهية، ونهب ممتلكاته، بل أمر بأخذ أموال الجند الأتراك البغداديين الذين لحقوا بالبساسيري، وأحكم قبضته على بغداد وعلى أحيائها[٤].

استمرت الحالة الاقتصادية جراء نهب العسكر ثلاثة عشر شهرًا متواصلًا منذ دخول طغرلبك، وكان قد خرج ومعه وزيره إلى الموصل تاركًا عسكره في بغداد، وهو ما أدىإلى مطالبة الناس للخليفة بالتصرف في هذا الأمر وخروج العسكر من دور العامة، وقد طالب الخليفة وابن مسلمة وزيره عميد الملك الكندري بأن يخرج العسكر من دور العامة ولم يوافق طغرلبك في أول الأمر ثم وافق على خروج العسكر وقام بالسمع والطاعة للخليفة واعتذر عن النهب والسرقة التي جرت وقام بترضية البغاددة عن هذا الأمر[٥].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢٣.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٥٠.
(٣)ابن الأثير، المصدر السابق، ص٣٢٤.
(٤) نفسه، ص٣٢٤.
(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣ و٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويخبرنا ابن الأثير برؤية رآها طغرلبك هي السبب في خروج العسكر، حيث رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يعاتبه ويوبخه على ما فعل في الناس من النهب والسلب والظلم والجور، وهو ما جعله يوافق على طلب الخليفة(١).

ويذكر ابن الأثير أيضًا في حوادث عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م،أن الحالة الاقتصادية تأثرت حتىبالشائعات التي سبقت مرور العسكر على المدن العراقية،فانقطعت الطرق التجارية خوفًا من النهب والسلب، فغلت الأسعار وتعذرت الأقوات وغيرها وكل شيء وأكل الناس الميتة ولحق بهم وباء كبير وبيع رطل اللحم بقيراط وأربع دجاجات بدينار ورطلان شرابًا بدينار وسفرجلة بدينار ورمانة بدينار، وهي أسعار مرتفعة جراء هذا الوباء(٢).

وكانت الأحداث السياسية قد تعقدت بخروج السلاجقة وهروب الخليفة من بغداد ودخول البساسيري إليها وعقد اللواء والبيعة للمستنصر الفاطمي ما أدىإلى تعقد الأوضاع السياسية وبالتاليالاقتصادية، ففي العامين اللذين سبقا عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م، كانت الأوضاع الاقتصادية بالغة السوء خاصة بعد الوباء الذي ضرب مناطق كبيرة من العراق، وزاد من التدهور دخول البساسيري وجنده، ومما يدل على ذلك الرسالة التي أرسلتها والدة الخليفة من مكان مستتر إلى البساسيري تطلب منه المعونة بسبب الضرر والفقر والحاجة التي لحقت بها، فهذه أم الخليفة فما بالنا بالعامة والفقراء(٣).

ولعلنا لا نجد شغبًا للجند أو أحداثًا متوالية منهم بفضل قوة الدولة السلجوقية في هذه الفترة فقد تولى ملكشاه الحكم وأصبح نظام الملك وزيرًا وهو من هو مدبر للدولة، وواضع لمنهجية الإقطاع التي حلت مشاكل الجند ومرتباتهم وعطاءهم المتزايد ولو مؤقتًا، فنجد في تلك الفترة توزيع الإقطاعات الزراعية بدلًا من العطاء النقدي حتى صار منهجًا للدولة السلجوقية(٤)، صحيح أن هذا النظام أصبح وبالًا عليها في الفترات المتعاقبة، إلا أنه في بداية الأمر كان حلًا لمشاكل كبيرة خاصة ما نناقشه في هذا المبحث من شغب الجند وتأثيراته الاقتصادية على العراق.

إلا أننا نجد أن الجند طالبوابزيادة مرتباتهم وأرزاقهم بعد انتصار ملكشاه على قاروت، وهو ما أزعج السلطان ونظام الملك على السواء بسبب شائعات خرجت من الجيش نفسه أن الجند

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٣٥.

(٣) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٤٤.

(٤)سيناقش الباحث تفصيليا هذا الأمر في الفصل الثاني وأثره على الاقتصاد العراقي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سينضمون إلى قاروت في حالة عدم زيادة الأرزاق والإقطاعيات، وكان السلطان ملكشاه يرى معاقبتهم غير أن نظام الملك تدخل بحنكته السياسية في عدم المعاقبة لأنه رأى أن ملكشاه سيخسر كثيرًا لو فعل هذا، وهو ما يدل على تأثير العسكر في سياسة الدولة السلجوقية منذ وقت مبكر، إلا أن نظام الملك حكيم السياسة السلجوقية أوقف خطرهم إلى حين[١].

ونجد أن فترة الاستقرار السياسي والاقتصادي امتدت حتى قيام النزاع على العرش السلجوقي بين بركياروق وأخيه محمد، ونجد ذكرًا للعسكر عام ٤٩٨هـ/١١٠٥م،إذ شهد هذا العام بداية الصلح بين معسكر بركياروق الذي توفي في نفس العام، وبين معسكر محمد، فقد تولى الصلح مع محمد وزير بركياروق حيث كان يقصد مبايعة الجند لابن بركياروق الصغير المدعو ملكشاه، وبالفعل استعد هو وجنده وخيم في الزاهر ببغداد، وتم الصلح،على أن ما يهمنا هو خوف أهل بغداد من الفساد عند نزول العسكر ببغداد وخوفهم من فشل هذه المفاوضات وهو ما يدل على الفساد الذي كان هؤلاء يفعلونه في مثل هذه الأوقات[٢].

وفي عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، نجد خبرًا عن عسكر السلطان محمد السلجوقي، حيث اضطر السلطان أن يمكث في بغداد في تلك السنة بناء على نصيحة مستشاريه، وهو ما جعل السلطة السلجوقية تزيد من عطاء العسكر في بغداد من قوت الناس وأرزاقها حيث فرضت السلطة الضرائب على المساكن والدكاكين في جميع الأسواق، والزيادة كانت أجرة شهر كامل زيادة على الأجرة الأساسية وهو ما زاد من شكايات الناس وضجرها من السلطان وعسكره حيث جبوا أموالًا عظيمة في مدة ثلاثة أيام[٣]،وهو ما جعل الناس يبدأون في الثورة،ما أرجع السلطان محمود في قراره، والتفت إلى الاقتراض من أصحاب الأموال بدلًا عن ذلك.

وفيما يبدو أن الصراعات الداخلية خاصة النزاعات على العرش كان يطل من خلالها شغب العسكر جليًا في شوارع عاصمة الخلافة، فنجد في عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م، وصل النزاع بين مسعود وداوود إلى أوجه، فقد قُطعت الخطبة لمسعود لصالح داوود فقام الجند المواليلمسعود بتخريب أجزاء من سور بغداد، وتبعًا لذلك خاف التجار والناس من هلاك أموالهم فغلا السعر وأشرف البلد على نهب العسكر[٤]، وهكذا نرى مجددًا أن محاولة تفكير واحدة من العسكر في

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٩٦ و٣٩٧.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٩٠ و٩١.

(٣) نفس المصدر السابق، ص١٩٢.

(٤) نفسه، ص٣٠٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النهب والسلب في مثل هذه الظروف السياسية المضطربة تجعل من الأسعار مرتفعة وتتأثر السوق البغدادية من هذه الأحداث لمجرد حتى الشائعات أو الأخبار الكاذبة.

وفي عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٩م تعرضت بغداد ومناطق أخرى من العراق إلى النهب والسلب والخطف والقتل جراء خلاف نشب بين السلطان محمود وأمرائه،وكانت العراق وخاصة بغداد ساحة القتال والخلاف بين الطرفين، حيث وصلت قوات الأمراء إلى الجانب الشرقي من بغداد، بينما عسكر جند علي بن دبيس في الجانب الغربي، وقام الخليفة المقتفي بتجنيد العامة من أجل حماية المدينة من النهب والسرقة، ونشب القتال بين عسكر الأمراء من ناحية والعامة، وقتل عدد كبير من جند العامة وتم نهب الأحياء البغدادية والشرقية وانتشرت ظاهرة خطف النساء، ونهبوا الكثير من الأموال في المحال الغربية خاصة بعد هروب شحنة بغداد إلى تكريت حماية لنفسه، وانكشفت المدينة أمام النهب والسلب، وتبعًا لذلك تأثرت الأحوال الاقتصادية وغلا السعر وانتشرت المجاعة وعجز الناس عن دفن القتلى، وقد انتهى النهب والسلب عندما تفرق الأمراء[١].

وهكذا نرى أن شغب الجند سواء البويهي أو السلجوقي كان مؤثرًا في الحالة الاقتصادية للعراق خلال تلك الفترة،إذ كان تأثيره مباشرًا على حالة البيع والشراء وبالتاليظهور الغلاء والمجاعات والتي سيتناولها الباحث في مبحث خاص بها من فصول هذه الدراسة.

المبحث الثالث: المصادرات المالية وأثرها في ظهور الأزمات الاقتصادية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

أولًا في العهد البويهي:

شكلت المصادرات المالية ضغطًا آخر على الحياة الاقتصادية في العراق خلال العهدين البويهي والسلجوقي، فالمصادرات المالية كانت عقوبة في أغلب الأحيان ضد الخاصة وخاصة الخاصة سواء من الخلفاء أو الأمراء أو الوزراء المغضوب عليهم من سلاطين الدولتين، إلا أننا نجد في نطاق البحث أن المصادرات شملت العامة أيضًا كنوع من العسف والجور كما سنرى في هذا المبحث الذي يتناول فقط مظاهر المصادرة المالية على المجتمع.

صحيح أن المصادرة المالية كانت في كثير من الأحيان "فردية"، إلا أن مناخ المصادرة نفسها كان يؤثر على الحياة الاقتصادية،ولأنها كانت سياسية في الأساس فتعتبر المصادرات المالية

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مظهرًا من مظاهر الحياة السياسية المضطربة التي أثرت بشكل مباشر على الاقتصاد العراقي وهو ما يتناوله بشكل عام هذا الفصل.

إذًا سيتناول الباحث مظاهر هذه المصادرات المالية على الخاصة والعامة كسرد حولي والتعليقعليه كنتيجة من ضمن نتائج هذه المصادرات على الحياة الاقتصادية عند كل مصادرة على حدة.

- **الخلفاء:**

كان عام ٣٣٤هـ/٩٤٦م، بداية الدولة البويهية في العراق، وفي سياق دخول معز الدولة بن بويه بغداد، فكان المناخ السياسي العام غير مبشر، فكانت علاقة معز الدولة بالخليفة المستكفي على غير ما يرام كما ناقش الباحث تلك النقطة مفصلة في المبحث الأول من هذا الفصل، وهذه العلاقة نتج عنها اضطراب سياسي كبير أدىبدوره إلى تدهور للأوضاع الاقتصادية وظهور المجاعة التي شهدتها مدن العراق في تلك السنة.

في سياق ذلك نجد أن معز الدولة البويهي ينقلب على الخليفة المستكفي ويتهمه بأنه يدبر مؤامرة مع القهرمانة ضده، وهو ما جعله يصدر أوامره بمصادرة الخليفة المالية، بل وأمر له براتب خاص يصرف عليه، وكانت هذه أول صدمة من صدمات الأسرة البويهية للخلافة العباسية، بل وأول مظهر للتسلط البويهي على الخلافة[١].

ونجد في المصادر المختلفة التي تحدثت عن تلك الحادثة، أن الخليفة المستكفي تعرض للنهب المنظم، حيث تعرضت دار الخلافة للنهب والمصادرة، هذه من طبيعة الأمور في تلك الحالة، ويعتبر هذا النهب من المصادرات التي قام بها معز الدولة بشكل متعمد لإرسال رسالة للجميع أن السلطة الجديدة ستقوم بهذا حتى مع الخلفاء في حالة الانقلاب عليهم، وهو ذات الاتهام الذي اتهمه معز الدولة للمستكفي وقهرمانته[٢].

ولم يكتف معز الدولة بهذا الإذلال للخلافة، بل قام وأجرى ثلاثة آلاف دينار على الخليفة المطيع بعد مبايعته كراتب شهري لنفقاته، وهو بالطبع مبلغ ضعيف بالنسبة لهيبة الخلافة[٣].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٠٦ و٢٠٧؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٤٤ و٤٥؛ شذور العقود، ص٢١٨؛ ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٧٦.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٧٦.

(٣) نفس المصدر السابق، ص٢٧٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكرر أمر المصادرة مع الخليفة الطائع لله، فقد أمر بهاء الدولة البويهي بالمصادرة والقبض على الخليفة في عام ٣٨١هـ/ ٩٩١م، وكان سبب القبض احتياج بهاء الدولة للمال الكثير حتى يغطي تكاليف حروبه الداخلية وأيضًا لسد حاجة وأرزاق الجند البويهي الذي ثار عليه قبل ذلك التاريخ بسنتين من أجل العطاء والأرزاق[١].

ولقد كان الطائع لا حول له ولا قوة في ذلك الأمر، فقد كان تحت تصرف وسيطرة الأمراء البويهيين،حتى أمر بهاء الدولة بالقبض عليه ومصادرة أمواله كي يفوز بها ويسد بها فراغ خزينته.

- **الوزراء:**

لم يكن الخلفاء فقط بطبيعة الحال من طالتهم المصادرات، فنجد أن وزراء الدولة البويهية كانت من ضمن وظائفهم المصادرات المالية ضد كل من يهدد الدولة أو ضد من يقوم بالسرقة، أو في بعض الأحيان القيام بذلك من أجل إرضاء الأمراء البويهيين.

كانت أولى المصادرات لوزراء بني بويه، عندما أمر معز الدولة بمصادرة أموال ابن شيرازاد وزيره[٢].

ويبدو أن الأزمة المالية التي كان يعاني منها معز الدولة كانت السبب في هذه المصادرات، فقد تعرض في تلك الفترة لشغب الجند عليه من أجل زيادة المرتبات والأرزاق.

وفي عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، تمكن أبو طاهر بن بقية من الوزارة في عهد بختيار[٣]، فكانت أولى أعماله مصادرة أموال سلفه في الوزارة أبي الفرج بن العباس وحبسه، وكان ابن بقية مسرفا في أموال المصادرة،ما جعله يمد يده إلى أموال الرعية والجور والظلم عليهم، وتميزت الأربع سنوات وهي مدة وزارته بالسرقة وانتشار العياريين اللصوص وتدهور النواحي المالية للدولة بسبب إسرافه[٤].

وقد تعرض ابن بقية في عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م للمصادرة والسمل والقتل والصلب على يد بختيار أثناء صراعه مع عضد الدولة[٥]، أما في عهد عضد الدولة فقد أمر أيضًا بمصادرة أموال أبي

(١) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٢٤؛ ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٨٢.
(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٧٧.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢١٦.
(٤)نذكر من المصادرات المشهورة ما قام به ابن بقية من مصادرات كثيرة جنى منها أموالا جمة أثناء الصراع بين عز الدولة بختيار وعضد الدولة في عام ٣٦٦هـ؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤٢٧.
(٥) نفس المصدر السابق، ص٤٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفتح ابن العميد بعد تعذيبه، وقد كان السبب الرئيس في هذه المصادرة هو الحصول علىالأموال والكنوز المدفونة، حيث اشتهر بتكنيز الأموال والكنوز ما أدى لطمع عضد الدولة فيها، وتلك كانت حجة لأن ابن العميد خالف عضد الدولة في بعض القرارات المهمة، وعلىأي حال لم يحصل عضد الدولة على الأموال بسبب إخفاء ابن العميد لها وموته قبل البوح بمكانها[1].

تكرر الأمر مع أجل وزراء بني بويه وهو الصاحب بن عباد الذي تعرض للمصادرة بعد وفاته[2]، حيث أمر فخر الدولة بن بويه بتفتيش بيته ومصادرة جميع ممتلكاته وتشويه صورته بأنه كان لصًا أهمل الحقوق وأضاع الأموال.

ويبدو أن الوزير ابن الضبي مع شريكه الوزير الآخر أبي علي حمولة هم من قاما بتشويه الصورة واستصفاء أموال الصاحب ابن عباد بعد وفاته،بل وقاما بتحريض فخر الدولة للاستيلاء على أموال قدرها مائة وخمسين ألف دينار كانت عبارة عن رقاع في بيت ابن عباد مودعة عنده، فجلبت السلطات أصحاب هذه الأموال وصادرتها بحجة أنها أموال ابن عباد المستحقة للخزينة[3].

وفي عهد سلطان الدولة تمت مصادرة الوزير فخر الملك، حيث أخذ منه ستمئة ألف دينار، وتكرر الأمر في عهده أيضا حيث صادر وزيره الآخر ابن سهلان عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣ م على مبلغ كبير[4].

- **الموظفين:**

كانت أولىالمصادرات التي تمت لموظفي الدولة البويهية لصاحب الشرطة كما يذكر ابن مسكويه حيث تمت مصادرة ثلاثمئة ألف درهم، وكانت هذه المصادرة في عام ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م[5].

وفي عام ٣٤٩هـ / ٩٦٠م قام القاضي الحسن بن محمد الهاشمي بدفع مائة ألف درهم مقابل أن يتولي القضاء فأُخذ منه المال دون ان يلي المنصب [6].

وفي نفس السنة صودر قاضي القضاة المدعو أبي السائب عتبة بن عبيد الله وكان قاضي القضاة فقامت السلطات البويهية بالقبض عليه هو وغلامه وأتهمته بالتعرض لحرمات الناس [7].

---

(1) وفاء محمد علي، تاريخ الدولة العباسية، ص١٠٠.
(2) نفس المرجع السابق، ص١٠١.
(3) نفسه، ص١٠١.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٠.
(5) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٣١٤.
(6) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص١١٨.
(7) مسكويه، المصدر السابق، ص٣٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، أمر الوزير المهلبي بمصادرة أموال حاجب قاضي القضاة في بغداد، لأنه تعرض واعتدىعلى أموال وحرمات الناس بالباطل، فأمر بحبسه وضربه حتى استصفى أمواله كلها عقابًا له على هذه الجريمة[١].

وفي نفس السنة، قام الوزير أبو محمد المهلبي بناء على قرار معز الدولة بن بويه بالقبض على كل من أبيعلي بن الخازن، وأبي الفرج محمد بن العباس صاحب الديوان وعلى أبي سهل ديزويه صاحب ديوان الجيش وغيرهم من الموظفين من أجل مصادرة أموالهم، ولا نعرف سبب القيام بذلك سوى ما أخبرنا به ابن مسكويه أن معز الدولة كان يعاني من السقم والمرض فأشار عليه الأطباء أن يذهب إلى أعلى بغداد ويبتني له قصرًا منيفًا بعيدًا عن المدينة لعله يطيب نفسه من الهواء النقي والهدوء والراحة، فاحتاج الرجل لأموال كثيرة من أجل تشييد هذا القصر، فطلب من أبي محمد المهلبي أن يدبر المال من هؤلاء[٢].

وبالفعل فقد تمالقبض على هؤلاء، وقد جعل جُل همه بالذات في استصفاء أموال أبي علي الخازن وكان يظهر الفقر والعوز،حتى قال لمعز الدولة أنا آتيك بالمال الذي تريده من أبي علي الخازن دون غيره، وبالفعل استخرج المال بالمكر والحيلة وحصل هذه الأموال إلى الخزينة من أجل بناء القصر[٣].

ويبدو أن هذه كانت حجة فقط وأن هؤلاء قاموا بعصيان ضد معز الدولة فأراد التخلص منهم، فقد كانت تلك طريقة الدولة البويهية فعلى سبيل المثال تعرض عز الدولة بختيار بن معز الدولة البويهي إلى عصيان حبشي بن معز الدولة أخيه في مدينة البصرة، وهو ما جعل بختيار يأمر وزيره أبي الفرج بن محمد بن العباس بالقضاء على هذا العصيان، وبالفعل نجح الوزير في القضاء عليه وصادر أمواله تبعًا لذلك[٤]، فقد كانت تلك طريقة العقاب في أثناء التمرد والعصيان.

والغريب في الأمر أن أبا محمد بن المهلبي بعد هذا التاريخ العريض من مصادرة أموال العامة والخاصة قد تعرض هو الآخر للمصادرة والضرب والهوان على يد معز الدولة البويهي، بل لم يترك خدمه وحشمه وأهله فحبسهم وصادر كل أموالهم[٥].

---

[١] نفسه، ص٣٢٩.

[٢] مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص ٣٢٨ و٣٢٩.

[٣] نفس المصدر السابق، ص٣٢٩.

[٤]وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص٩٠.

[٥] نفسه، ص٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كذلك قام بهاء الدولة بمصادرة القاضي عبد الجبار، وأخذ منه أموالًا كثيرة[١]

- **العامة:**

فنجد في عام ٣٥٠هـ / ٩٥١م ، قيام الوزير أبو محمد الحسين بن محمد المهلبي بمصادرة أموال الناس من أجل بناء دار لمعز الدولة البويهي أثناء مرضه ، فتم إعتقال عدد من الناس من أجل دفع أموال مساهمة لبناء هذه الدار وأصبحت هذه الحادثة معبرة عن السياسة العامة في عهده وعهد الدولة البويهية[٢].

وفي عام ٣٥٧هـ / ٩٦٧م ، زادت مصادرات الناس والعامة حتي تقوم الحكومة بالصرف علي نفقاتها [٣].

وكانت سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م صعبة على العامة بسبب الوزير أبي الفضل العباس بن الحسين الذي حاول تخفيف الأزمة المالية وسد حاجة الجند المتزايدة بمصادرة التجار والرعية، وقد صادر خلال تلك السنة أموالًا كثيرة ذهبت جميعها إلى أرزاق الجند والعطايا التي يقدمها الأمير البويهي[٤].

ويبدو أنه لم يكن الوزراء فقط من يقوموا بالمصادرات، فنجد أن من دون ذلك قام بها، فقد استغل الجند الأتراك الفوضى الأمنية التي ظهرت بعد وفاة مشرف الدولة فقاموا بمصادرة من تطوله أيديهم من أموال الناس ومتاجرهم[٥].

وقام الوزير المهلبي بالإستيلاء علي غلات مدينة البصرة وسوادها ، فصادرها وصادر أموال التجار وغيرهم من فئات المجتمع البصري ، ويذكر التنوخي أن أعمال المصادرات تلك أمتدت إلي واسط وكانت تلك الاموال والغلاء مرجعها إلي الخزانة الحكومية ، فهذه المصادرات كانت لا شك مضرة لجميع فئات المجتمع في البصرة وواسط علي السواء [٦].

ولم تكن المصادرة للأحياء فقط،بل كانت للموتى أيضًا فقد تعرض إليها بعض الموتى ممن ذكرت أسماؤهم في المصادر التي بين أيدينا، فكان في العصر البويهي وما قبله ضريبة تسمى

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٦٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٣٢

(٣) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٣٥٦.

(٤) نفس المصدر السابق، ص٣٩٢.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٧١.

(٦)أبي علي المحسن بن علي التنوخي، نشواز المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، ج٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م، ص١٣١ و١٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بضريبة الإرث،وكانت تؤخذ ممن كان لا عقب له بالرغم من اعتراض الفقهاء عليها، ويبدو أن أموال هذه التركات كانت تصادرها الدولة لصالحها لا لصالح بيت المال.

ونضرب مثالين على هذا الأمر، ففي المثال الأول في عام ٣٥١هـ/ ٩٦٢م،قام معز الدولة بأخذ أموال تركة شخص يدعى دعلج، فقد كانت هذه التركة الكبيرة لها أوقاف، فلم يتركها معز الدولة لحالها وأدخلها الخزانة[١].

أما المثال الثاني،في عام ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، عندما توفي محمد بن عمر العلوي وكان نقيبًا للطالبيين، فقد استولى الوزير أبو نصر سابور بمعرفة بهاء الدولة البويهي على خمسين ألف دينار من تركته لصالح الخزانة السلطانية وترك الباقي للورثة[٢].

وقد يكون هناك من الأمثلة الأخرى مالم نجده في المصادر التي بين أيدينا، لكن الباحث يظن أن أموال التركات كانت تشكل موردًا من موارد الخزانة البويهية وهو ما يشكل ضغطًا على العامة بلا شك.

ويبدو أن الدولة البويهية تبنت منهج المصادرة ليكون موردًا خاصًا للخزانة ففي الأمثلة السابقة ما يدل على ذلك، ليس فقط من الخلفاء والوزراء أو حتى من أموال التركات بل من جميع الرعية تقريبًا، وهو ما نجده في نص ابن الجوزي، حيث ذكر في حوادث عام ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م[٣]، عندما أصبح شرف الدولة سلطانًا على الدولة البويهية، رد علىأصحاب المصادرات أملاكهم ومنهم الشريف أبي أحمد الموسوي، بل إنه "رفع أمر المصادرات وسد طرق السعايات"، وهو ما يدل أن أمر المصادرات كان قانونًا متبعًا عند البويهيين تجاه العامة أيضًا وهو ما أثر في حياة الناس الاقتصادية.

ليس هذا فحسب، فقد كان البويهيون يتعمدون اللجوء إلى المصادرة من أجل سد حاجيات الدولة خاصة أرزاق وعطاء الجند البويهي، فقد لجأوا لمصادرة العامة والخاصة كما ذكر الباحث في الأمثلة السابقة والتي غطت جميع الفئات، وقد استخدم البويهيون شتى صنوف التعذيب في المعتقلات من أجل استخلاص الأموال ومن أشهر من عُذب من أجل البحث عن أمواله كان الوزير ابن العميد كما تبين آنفًا.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٤٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٧.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٣٢٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على أن النتيجة المباشرة والخطرة في نفس الوقت كانت في نظام الإلجاء الزراعي وهو ما سنذكره بالتفصيل في الفصل الثاني من هذه الدراسة، حيث أثرت تلك المصادرات خاصة على العامة بخراب العمران ونهب الأوقاف والتركات والمقاسمة في المواريث وغيرها من الأمور التي أدت بالتأكيد إلى تدهور الحالة الاقتصادية في ذلك العهد.

في العهد السلجوقي:

لم يختلف العهد السلجوقي كثيرًا من حيث المصادرات المالية عن العهد البويهي، حيث نجد أن الدولة السلجوقية عمدت للمصادرات المالية في الأزمات المالية والاقتصادية التي واجهتها خاصة متطلبات الجند المتزايدة، ما أدىإلى ضغط زائدعلى العامة.

ويتبين من خلال العرض الذي سيقوم به الباحث أن تقريبًا أسباب المصادرات في العهدين كانت واحدة وأن نسبة كبيرة من هذه الأسباب كانت متطلبات الجند وشغبهم المستمر ضد سلاطين السلاجقة ومطالبهم الدائمة، والنزاعات الداخلية على العرش السلجوقي ما أدى لفراغ الخزينة وكان يجبعلى المصادرات أن تسد هذا الفراغ حتى لو كان على حساب العامة البسطاء في أغلب الأحيان.

- **الخلفاء ورجال الدولة:**

على الرغم من أن الخلفاء العباسيين كانوا يرون في البداية أن هيبتهم أُستردت مع السلاجقة حتى ولو كان شكليا،فإن هذا الاعتقاد تبدد نهائيًا عندما نرى أن مظاهر التسلط السلجوقي كانت لا تختلف كثيرًا عن مظاهر التسلط البويهي، بل زادتها في بعض الأحيان.

ومن مظاهر هذا الاستبداد كانت المصادرات المالية،ففي عام ٥٣٠هـ/١١٣٦م، قام السلطان مسعود بنهب ومصادرة دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وجواهر وستور وسرادق وجميع ما فيها حتى لم يترك الإصطبل بما فيه من دواب سوى أربع رؤوس من الخيل وثلاث من البغال وكانت جميع المصادرات مقدرة بمئة ألف دينار[١]، وفي تلك السنة نجد أن السلطان مسعود خلع الخليفة الراشد بالله وعين الخليفة المقتفي لأمر الله، فنجد أن المصادرة تمت في أول عهد المقتفي وبعد مبايعته، وكأنها رسالة له بعد خلع الراشد[٢].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٩ وما يليها.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي السنة التالية لهذه المصادرة بعث السلطان مسعود بوزيره إلى الخليفة المقتفي يطالبه بمبلغ مئة ألف دينار[1]، فرد الخليفة بأنه لا يمتلك هذا المبلغ خاصة بعد المصادرة السابقة، وقال الخليفة للوزير: "أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي لنا إلا أن نخرج من الدار ونسلمها، فإني عاهدت الله ألا آخذ من المسلمين حبة ظلمًا"، ويبدو أن الخليفة كان صادقًا فإنه لا يملك هذا المبلغ، ويرفض في نفس الوقت جباية أموال المسلمين من أجل سداد هذا المبلغ المطالب به، وهو ما جعل السلطان مسعود يترك الخليفة ويتجه لمصادرة التجار والعامة.

كذلك قام سلاطين الدولة السلجوقية أيضًا بمصادرة بعض وزرائهم، وكان السبب الرئيس لهذه المصادرات هو سد العجز في الخزينة السلطانية، وتوفير أرزاق وعطاء الجند المتزايد من جيوب هؤلاء الوزراء، وقد تتوافرأسباب أخرى كغضب السلطان على الوزير أو خطأ الوزير في قرار ما صدر عنه،أو شك السلطان في ولاء هذا الوزير.

فمن أشهر الأمثلة مصادرة أموال الوزير عميد الملك الكندري[2] في عهد السلطان ألب أرسلان، فقد قام بمصادرة أمواله من أجل دفع مرتبات الجند السلجوقي، ولم يكن الكندري فقط من تعرض لهذه المصادرة بل امتدت المصادرات إلى العديد من رجال دولة ألب أرسلان وذلك بهدف تغطية عجز الخزانة السلطانية، وإن كانت لاتخلو الأسباب من الأسباب السياسية بالضرورة[3].

- **العامة:**

كان السلاجقة يقومون في بعض الأحيان بمصادرة العامة خاصة التجار وأصحاب الحوانيت والدور، فنجد أنه منذ دخول السلاجقة بغداد انتهجوا هذا النهج خاصة في الأزمات الداخلية التي تعرضوا لها والتي كانت تحتاج إلى الأموال.

ففي عهد السلطان طغرلبك، نجد أنه أراد تجديد الدار العضدية في بغداد لتكون مقرًا لحكم السلاجقة في العراق، وقد ترتب على هذا التجديد بناء أبراج على الدار، وقد أدى هذا التجديد لمصادرة الدور والمحال التجارية وتخريبها من أجل توسيع الدار، وكانت كل هذه الدور والمحال في الجانب الشرقي ببغداد، فيقول ابن الجوزي: "فخربت الدور والمحال والأسواق في الجانب الشرقي مما يلي الدار وأُخذت آلاتها"، بل امتدت المصادرات من أجل هذه الدور لبيوت الجند

---

(1) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٢٠.

(2) عميد الملك الكندري: الوزير الكبير أبو نصر محمد بن منصور بن محمد الكندري، كانت كاتبا لطغرلبك ثم ولاه خوارزم ثم وزره في مرحلة تالية وكان أديبا له نظم ونثر ومعتزلي المذهب؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١١٣ و١١٤.

(3) انظر القبض على عميد الملك الكندري؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٦٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأتراك في المدينة والذين التحقوا بالبساسيري كما أشرنا سابقًا، وكانت هذه البيوت في الجانب الغربي فخربت واقتلعت الأخشاب منها لصالح بناء الدار العضدية، كانت تلك الحادثة في عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م[١].

ويبدو أن هذه السياسة استمرت في العهد السلجوقي بأكمله ماعدا في فترات الاستقرار في عهد ملكشاه وابنه ألب أرسلان فلا نجد المصادرات المتعسفة والظالمة تقريبًا في هذا العهد.
إلا أننا نجد في عهد السلطان مسعود على سبيل المثال، مصادرات كبيرة سواء للخليفة المقتفي كما تقدم أو للعامة، فقد فرضت ضرائب كبيرة على الدور والمحال التجارية والتجارة بشكل عام، وفرضت ضريبة عقارية كبيرة للغاية أتبعها مصادرات للمحال التجارية ولبيوت الناس، وكان السلطان مسعود معروف بالطمع وأخذ أموال الناس بالباطل، فعلى سبيل المثال عندما فشلت محاولات السلطان مسعود لمصادرة المقتفي عام ٥٣١هـ/١١٣٦م وكان يطالبه بمئة ألف دينار، اتجه لمصادرة التجار وفرض عليهم إتاوات وضرائب وصلت لهذا المبلغ وأكثر من ذلك، وكان يحتاج هذا المال لحروبه ومنازعاته الداخلية على العرش[٢].
امتدت المصادرات في تلك السنة وما بعدها إلى أموال التركات، حيث صادرت السلطات السلجوقية تركات الأشخاص الذين لا ورثة لهم، فقد كانت تدخل في جيوب السلطان مباشرة وهذا ماحدث في عهد السلطان مسعود، فتمت مصادرة شخص له تركة كبيرة، بل امتد الأمر بأمر الحفارين والغسالين والعاملين في المقابر في عموم العراق ألا يدفنوا أي شخص إلا بموافقة خاصة من عميد العراق، وهذا القرار كان مخصصًا للبحث في أموال المواريث والتركات ومصادرتها[٣].
وقد استمر هذا القانون مطبقًا فترة من الزمن، فنجد في عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، عندما قامت السلطات بمصادرة تركة الفقيه بهروز الخطاط، وعندما اعترض الفقهاء على ذلك الأمر تم القبض على اثنين من الفقهاء وضربهم[٤].
امتدت المصادرات وتعددت أشكالها على العامة بفرض بعض الإتاوات المالية، فنجد أن ضريبة العقار والدور كانت جزءًا من المصادرات المالية للناس، فعلى سبيل المثال قامت العساكر

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٤.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٢٠ و٣٢١.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٣٢٢.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السلجوقية بالنزول في دور الناس خاصة في حي الكرخ البغدادي وذلك في عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٦م، وفرضوا على أهل الكرخ إتاوة مالية قدرها خمسمئة دينار، وبرروا بقولهم: "هذه عادتنا في بلادنا"؛ أي أن هذه الضريبة متعارف عليها عند السلاجقة وطبقوها في بغداد، وقد تدخل الخليفة القائم بأمر الله عندما اشتكى الناس هذه الضريبة وقام عميد الملك الكندري الوزير برفع هذا القرار وإلغائه.[١]

أما وضع القرى في السواد العراقي فلم يكن بأحسن حال، حيث قامت العساكر السلجوقية في نفس سنة غزوهم للعراق بنهب ومصادرة المحاصيل الزراعية خاصة الحبوب مما أدىإلى ارتفاع ثمنها إلى ثلاثين دينار لكر الحنطة وكذلك في محاصيل التمور[٢]، كما تمتمصادرة الثروة الحيوانية من القرى ما أدىإلى ارتفاع ثمنها فأصبح سعر لحم الثور بعشرة قراريط وكان قبل دخول السلاجقة بخمسة فقط أي أنه زاد للضعف بسبب المصادرات والنهب والسلب الذي قام به السلاجقة عند دخولهم[٣].

ونجد أن هذا تكرر أكثر من مرة، ففي عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م شهد صراعًا سياسيًا بين بركياروق ومحمد بن ملكشاه،وقد أدى هذا الصراع إلى نهب ومصادرة الأموال من أجل توفيرها للحروب بينهما وهو ما أدىإلى زيادة كبيرة في أسعار الحبوب ما أدىإلى مجاعة قتلت العديد من الناس في القرى والمدن المختلفة[٤].

كذلك في عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢ م، تعرضت قرى منطقة نهر الدجيل للنهب والمصادرات خاصة لمحاصيل الحبوب والشعير ما أدى لزيادة سعر الخبز وبيع ثلاثة أرطال الخبز بقيراط بعدما كان قبل النهب والمصادرة العشرة أرطال بقيراط[٥].

وهكذا نرى أن النهب والمصادرات المالية لم تكن للتجار فقط في المدن أو لبيوت الناس بل كان الأخطر منها لقرى السواد وهو ما زاد من المحنة والأزمة الاقتصادية في عموم العراق، وأدى للمجاعات وزيادة الفقر والجوع بطبيعة الحال.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٥١.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٥٠.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٤٨.
(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

الحالة الإقتصادية العامة للعراق في العصرين البويهي والسلجوقي

- المبحث الأول : نظام الإقطاع الزراعي وأثره في ظهور الأزمات الإقتصادية .
- المبحث الثاني : حالة الأسواق ونقص قيمة العملة .
- المبحث الثالث : أثر الضرائب على الحالة الإقتصادية للعراق .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتضمن هذا الفصل من الدراسة؛ الحالة الاقتصادية العامة للعراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي، فمن الواجب ونحن نتعرض للأزمات الاقتصادية في العراق خلال تلك الفترة، أن نبين ونتحدث عن الحالة الاقتصادية، مظاهرها وكيف تعاملت السلطة تجاه تلك الحالة، وكيف أن هذه الحالة تعرضت للأزمة والمحنة الاقتصادية بسبب تعامل السلطة، وبسبب أمور شتى أثرت على تلك الحالة بالسلب، وهو ما سنتعرض إليه تفصيليًا في هذا الفصل.

نعرض تلك الحالة الاقتصادية والأزمات التي مرت بها في ثلاث مباحث تفصيلية وهي:

المبحث الأول، ويتحدث عن نظام الإقطاع الزراعي العسكري خلال العصرين البويهي والسلجوقي، وكيف أثر هذا الإقطاع في الناحية الزراعية العراقية، وعلى الحالة الاقتصادية عمومًا، فسنبحث في هذا المبحث المهم عن أسباب هذا الإقطاع، ومظاهره، والآثار السلبية الناجمة عنه.

المبحث الثاني، ويتحدث عن حالة الأسواق العراقية وما طالها من تدهور بسبب الحالة الاقتصادية السيئة، وماهي أسباب ذلك التدهور، ونتحدث عن قيمة العملة في العراق خلال عصر البويهيين والسلاجقة، ونبحث في أسباب ذلك النقص، وجهود الدولة في تدارك ذلك، وآثاره على حياة العامة من حيث موجات الغلاء وغيرها من الآثار.

المبحث الثالث، ويبحث في الضرائب نظامها وفرضها على الناس، وكيف كانت هذه الضرائب من الوطأة بحيث أثَّرت على الاقتصاد بصفة عامة.

المبحث الأول: الإقطاع الزراعي العسكري في العراق خلال العهدين البويهي والسلجوقي وأثره على الحالة الاقتصادية:

قبل الحديث عن مظاهر هذا الإقطاع وآثاره السلبية على النواحي الاقتصادية في العراق، حري بالباحث أن يعرض مفهوم الإقطاع وآثاره على البلدان الإسلامية، وهل هذه الآثار بالفعل امتدت إلى العراق أم كانت بمنأى عن الحالة الإسلامية العامة، لذلك سنقسم المبحث إلى عناصر عدة، سنبحثها باستفاضة في إطار المبحث، ومما يفيد الدراسة لاريب، وهذا التقسيم كالتالي:

تعريف الإقطاع.

نشأة وأثر الإقطاع على البلدان الإسلامية (نظرة عامة).

أسباب الإقطاع في العراق.

تاريخ الإقطاع في العهدين البويهي والسلجوقي (سرد عام).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآثار الاقتصادية السلبية الناجمة عن نظام الإقطاع.

ونبدأ في النقطة الأولى في هذا المبحث وهي تعريف الإقطاع:

يعرف الإقطاع في اللغة بأنه قطع الشيء أو فصل البعض من الكل، أو يقال له الجزء أو القطعة من الأرض أو الطائفة من الأرض أيضًا[١].

أما مصطلح الإقطاع،فهو الأرض التي يقطعها الحاكم أو السلطان أو الخليفة لجنوده وموظفيه، أو من يرغب الحاكم في إقطاعه أي أرض في زمام ملكه[٢].

والمصطلح الأخير يبين أن الإقطاع المدني - وهو من أنواع الإقطاع -هو إعطاء قطعة من الأرض للموظف بديلًا عن راتبه في بعض الأحيان أو مكافأة له على عمل ما[٣]، أما النوع الثاني وهو المنتشر خاصة في العهدين البويهي والسلجوقي كما سيتبين، هو الإقطاع العسكري، وهو توزيع الأراضي الزراعية وتقسيمها إلى قطع يعطيها السلطان لجنوده من أجل الالتزامات العسكرية التي تكون على عاتقهم تجاهه وتجاه الدولة، كأنها تعمل عمل الراتب في بعض الأوقات[٤].

وقد نشأ الإقطاع على منهجية التمليك والاستغلال، فأما التمليك؛ وهو تمليك بعض الأراضي للناس، كما في الأرض الموات أو الأرض التي ليس لها صاحب، فالنظام الإسلامي أتاح للبعض أن يزرعوا تلك الأراضي ويحيوها لصالح الدولة والمجتمع الإسلامي، وقد يعطون صك تمليك خاصًا لتملكهم هذه الأراضي، ففي هذه الحالة يسمى الإقطاع بإقطاع التملك، وهو يختلف في منهجيته وأهدافه عن إقطاع الاستغلال، وهو المنتشر، وهو ما ينبثق منه النوعين السابقين آنفًا.

فأما إقطاع الاستغلال فهو الإقطاع العسكري، والذي انتشر انتشار النار في الهشيم في البلدان الإسلامية، خاصة مع دخول الجند الترك إلى الأراضي الإسلامية، وتملكهم زمام الأمور - كما سيتبين بعد قليل، فالإقطاع العسكري بالأساس كوَّن طبقة عسكرية من نوع خاص، فيعتمد هذا الإقطاع علىاستغلال الأراضي بمدد معينة يحددها الحاكم للشخص الذي منح الإقطاع،علىأن

---

[١] الرازي، مختار الصحاح، ص٢٢٧.

[٢] مصعب حمادي الزيدي، نظام الإقطاع العسكري نشأته وتطوره من العصر السلجوقي حتى العصر المملوكي، مجلة كلية التربية، مجلد ١١، العدد ٣، الموصل، ٢٠١١م ، ص٣٣٩.

[٣] إبراهيم القادر بوتشيش، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي في منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط، ب ت، ص ٤٨.

[٤] مازن صباح الأعرجي، الإقطاع العسكري وأثره على الأوضاع الاقتصادية في العراق بالعصر السلجوقي،كلية التربية، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، ص٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يؤدي خراج تلك الأراضي إلى الدولة،علىأن يؤدي الإلتزامات العسكرية الواجبة عليه في أوقات الحرب، وفي السلم أيضًا إذا احتاج الحاكم[١].

وقد حدد البعض مدة دنيا في هذا الإقطاع بسنة كاملة، لا يجوز للحاكم استرجاع الإقطاع،أو عند موت الشخص الذي منح هذا الإقطاع، أو ما يحدده الحاكم في ذلك[٢].

أما عن تعريف الفقهاء للإقطاع، فقد كان مختلفًا فيه، حيث تعددت التعاريف والمفاهيم الفقهية حسب آراء الفقهاء أنفسهم، حيث حصرت بعض كتب الفقه بجواز الإقطاع على الفقير من المسلمين، أو من يتوافر به العلم أو الشجاعة، ومنهم من زاد على هذه الخصال شرط القربة من الرسول – صلى الله عليه وسلم، ومنهم من تحدث بجواز إقطاع الإمام أو الحاكم جزءًا من الأرض دون إبداء السبب أو وجوب الإقطاع من الأرض الموات[٣].

لكن هناك من يشير إلى أن الإقطاع العسكري أصبح له فقهاء منظّرين له كابن جماعة، الذي أعطى مفهومًا سياسيًّا بوجود إقطاع الأراضي الزراعية للعسكر والجند بديلًا عن الرواتب[٤].

كما نجد أن الفقيه أبي يعلى يضيف إلى مفاهيم الإقطاع، إقطاع التمليك وإقطاع الاستغلال[٥]، أما قدامة بن جعفر فهو يشترط بتحديد الحاكم الأراضي المقطعة للجند أو غير ذلك، وهذه الأراضي لن تكون مشاعًا في تلك الحالة، فيجب من توافر بعض الشروط في الأراضي التي يجوز الإقطاع فيها[٦].

وهكذا نجد أن المفاهيم الفقهية اختلفت طبقًا للظروف والأزمنة التي حدثت فيها، لكنها تتفق على وجوب الإقطاع وليس تحريمه، وهذا يدل على تأصل الإقطاع في البلدان الإسلامية، إما

---

(١)الأعرجي، الإقطاع العسكري، ص٥.

(٢) الزيادي، الإقطاع من العصر السلجوقي، ص٣٤٢.

(١) نفس المرجع السابق، ص٣٤٣.

(٢)يقول ابن جماعة الشافعي: يجوز للسلطان أن يقطعه لمن يحييه ويعمره من الأجناد وغيرهم فيملكه المقطع فذلك ملك غيره فإذا أحياه فيملكه ملكًا مستقرًّا كسائر الأملاك؛ ابن جماعة الشافعي الحموي، نصوص في الإقطاع، المكتبة الشاملة، ب ت، ص٣١٣ و٣١٤.

(٥)أبي يعلى محمد بن الحسين الفرّاء الحنبلي، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠ م، ص٢٢٧ وما يليها.

(٦)حيث كانت تلك الشروط مثل الاستغلال وعدم التملك وعدم التوريث فيها وكان ذلك بخلاف الإقطاع في الغرب الأوربي؛ انظر إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨، ص٢٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمصلحة فقهية من ضرورة العمران في هذه البلدان، كاستصلاح الأرض الموات وغيرها،أو لمصلحة سياسية كمقدمة للإقطاع العسكري أو المدني كما سنرى

ثانيا: نشأة وأثر الإقطاع في البلدان الإسلامية:

بالرغم من احتدام الجدل بين الدارسين والباحثين العرب والمستشرقين حول وضعية وجود الإقطاع في البلدان الإسلامية، إلا أن مظاهر وجود هذا الإقطاع كانت جلية، بينما كان النقاش والجدال – والذي لا ريب لن نعرضه هنا – يتعرض لمقارنة بين الإقطاع الإسلامي والأوربي في العصور الوسطى، ومدى التشابه في الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وخلصت النتائج إلى وجود الإقطاع وتأثرت الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية – بلا شك – بهذه النتائج، وهو ما يهم الباحث في نقطتين هنا، هو وجود الإقطاع بالفعل، وهو ما عني به الباحث، والثانية هي تأثيراته العميقة على النواحي المدنية في الحضارة الإسلامية، وهو ما سنعرضه في اختصار يليق بالمبحث.

وبالتالي سنعرض تاريخ النشأة في البلدان الإسلامية وتطوره وأثره على الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالتوازي، وهذا بشكل عام، ثم سنسلط الضوء على العراق في النقطة التالية.

ففي عموم البلدان الإسلامية، ظهر الإقطاع في البلدان التي كانت تفتقر إلى المعادن المهمة كالحديد والذهب والفضة وغيرها، مما قد يؤدي إلىازدهار الصناعة، وبالتالي التجارة، فلم يتبق إلا الزراعة التي ازدهرت بشكل مطَّرد على مدىالقرون التالية للفتوح الإسلامية[1]، وهذا ما نجده في العراق وإيران والشام ومصر انتهاءً بالأندلس في أقصى الغرب، فشهدت تلك البلدان إقطاعات الجند والأراضي السلطانية التي تتبع السلطان أو الحاكم مباشرة، هذا إلى جانب نظام البستنة ووجود البساتين التي كان يمتلكها كبار الأعيان والتجار وغيرهم[2].

ويرجع الدكتور محمود إسماعيل الإقطاع في البلدان الإسلامية إلى الأزمة المالية التي شهدتها القطاعات الاقتصادية الإسلامية، خاصة مع انهيار الخلافة العباسية سياسيًا، وتحكم الجند الأتراك في مقدَّرات الأمور، فالعالم الإسلامي شهدت انتكاسة "برجوازية" كما يسميها إسماعيل[3]، أو انتكاسة حضارية بسبب غزو الأتراك السلمي، ودخولهم إلى أروقة السياسية العراقية، وبالتالي

---

(1) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج٢، ص٢٦.

(2) نفس المرجع السابق، ص٢٧.

(3) محمود إسماعيل ،سيسولوجيا الفكر الاسلامي ، ج٢ ، ص ٢٧، ٢٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى مصر والشام وباقي البلدان الإسلامية في الشرق،أو الأزمة السياسية التي شهدها الغرب مع انهيار الخلافتين الفاطمية في المغرب،أو الأموية في الأندلس.

لكن سبق كل هذه االنهيارات السياسية والاقتصادية والسياسية وجود الإقطاع لفترة مبكرة في البلدان الإسلامية بعد الفتوح،أو بأدق الأحوال منذعهد عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث، فقد كان عمر بن الخطاب يحرم على المسلمين امتلاك الأراضي، لكن عهد عثمان شهد الملكيات الزراعية للعرب ومنافستهم لأصحاب الأرض الأصليين، مما شكَّل بذرة الإقطاع الإسلامي[١].

وقد كبرت تلك البذرة في عهد الأمويين الذين سيطروا على الأراضي الزراعية لصالحهم، فعبد الملك بن مروان كان من كبار الخلفاء الذين أقطعوا الأراضي، وقد تكونت طبقة من كبار الملاك والإقطاعيين أمثال مسلمة بن عبد الملك وآل المهالبة، وقد استمرت الإقطاعات تكبر وتنمو حتى نهاية الدولة الأموية[٢]، ولم تفلح جهود الخليفة عمر بن عبد العزيز - الذي كان يتبنى الإصلاح - في القضاء على الإقطاع، حيث ترسَّخت جذوره مما يصعب اقتلاعه، بل هو نفسه اضطر إلى إقطاع الأراضي الثغرية بالأندلس كأراضي استغلال فقط، وذلك عندما أرسل للوالي الأندلسي السمح بن مالك الخولاني رسالة بهذا المعنى.

مع بداية الدولة العباسية آلت الأوضاع الإقطاعية من الدولة الأموية للدولة الجديدة، واستمرت الإقطاعات تزداد وتنمو، حيث استولى الخلفاء على الأراضي، وظهر نظام الإلجاء[٣]، وذلك بسبب خوف صغار الملاك من المصادرات، فدمجوا أراضيهم في أراضي كبار الملاك، ومن هنا ظهرت وضعية جديدة، وهي حيازات الإقطاعات الكبيرة، والتي ترسخت أكثر في العصر العباسي الثاني.

وكان نظام الإلجاء قد تطور بشكل سريع مع دخول الترك أروقة الإقطاع، فالطبقة العسكرية الجديدة أصبحت طبقة إقطاعية، ولذلك انتقل نظام الإلجاء من الصفة المدنية إلى الصفة العسكرية، وكانت هذه بداية سيطرة الإقطاع العسكري على المجتمع الإسلامي.

وانتقلت العدوى للغرب الإسلامي، فالدولة الأغلبية ظهر فيها الإقطاع بشكل جلي، فالإقطاعات العسكرية انتشرت في أرجاء الدولة الأغلبية، حيث شكَّل الجيش والطبقة العسكرية التي كان لها

---

(١) بوتشيش، أثر الإقطاع في الأندلس، ص٤٥.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٤٦.

(٣) نظام الإلجاء: هو نظام متعارف عليه بين صغار ملاك الأراضي الزراعية، حيث تنازلوا طواعية عن أراضيهم لتكون في حماية الأمراء والسلاطين وأصحاب النفوذ، وذلك مقابل دفع جزء من الحاصل إلى الحامي؛ انظر الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٥٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دور كبير في تسيير أمور الدولة، وكان الأمير الأغلبي يعتمد عليهم بشكل كبير، ولذلك كانت الإقطاعات العسكرية الكبيرة في يدهم[1].

وهذه نتيجة نخرج منها بأن الإقطاع العسكري كان مرتبطًا طرديًا مع دور الطبقة العسكرية في الدولة، والسيطرة العسكرية يكون من مظاهرها الإقطاعات العسكرية بلا شك.

لم تكن الدولة الأغلبية بدعًا عن الدول المستقلة عن الخلافة العباسية، فهي تدور في فلكها في النهاية وما يسري في دار الخلافة كان يسري في الدولة الأغلبية، لكن الغريب هو انتقال العدوى للدول المغربية الأخرى، والتي استقلت نهائيًا عن الخلافة، بل وكوَّنت عداوات كبيرة معها، كالدولة الأدريسية في المغرب الأقصى،حيث استولى كبار الموظفين والخدم الذين كانوا يخدمون الأسرة الأدريسية على الأراضي الزراعية وكونوا طبقة إقطاعية لا يستهان بها، ومن هنا انتقلت إلى الأندلس أيضًا[2].

ففي الأندلس بدأ الإقطاع بشكل واسع في عهد الدولة الأموية، حيث شكلت الإقطاعات ركيزة أساسية في عصر الولاة، ولم يفلح عبد الرحمن الداخل في الحد منها، لكنه قننها بشكل جيد فيما يعرف بأراضي المستخلصات، وهي أراضٍ تؤجر إلى المزارعين كي يزرعوها مقابل أموال يؤدونها إلى الحكومة، ومع انتشار هذه الظاهرة أثناء حكم الأمويين أصبح هناك منصب مستحدث يسمى بصاحب الضياع[3].

ومع مرور الوقت تحولت الإقطاعات للجند الشامي والبربري والأندلسي وأصبح إقطاعًا عسكريًا مثله مثل الإقطاع العسكري في كل البلدان الإسلامية.

هذا عن الإقطاع ونشأته بصفة عامة والمتمثل في الملكيات الزراعية، لكن الإقطاع العسكري بدأ في اللحظة التي سيطر فيها العسكر على مقدرات الخلافة العباسية، فسامراء نفسها وهي مدينة الجند الترك في عهد المعتصم والمتوكل كانت إقطاعًا خاصًا بهم، وأصبحت مصر والشام منذ عهد الدولة الطولونية والإخشيدية دول إقطاعية، حيث تحكم الإقطاع فيها بشكل كبير سياسيًا واقتصاديًا، فتعمد حكام تلك الدول وهو من العسكر الترك إلى إعطاء إقطاعات عسكرية من

---

(١) إسماعيل، سيسولوجيا، ج٢، ص٣٠.
(٢) بوتشيش، الاقطاع في الاندلس، ص٤٧.
(٣) المرجع السابق، ص٨٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأراضي الزراعية للجند الترك الذين يعملون في خدمتهم، ومن هنا نشأت أملاك إقطاعية تعطى للجند نظير خدمتهم وبديلًا عن الرواتب أيضًا[١].

أما عن الإقطاع المدني فنشأ بالتوزاي مع العسكري، فإقطاع الفقهاء والعلماء ظهر في الغرب الإسلامي، وظهر إقطاع الوزراء والكتاب في مصر والشام وكانت من أشهر الأسر التي تولت إقطاعًا نظير خدمتهم الأسرة الماذرائية في مصر والشام(٢)، وأيضًا إقطاع التجار الكبار، فالديون التي كبلها التجار على السلاطين والخلفاء وأجهزة الدولة المختلفة كانت السبب في إقطاع التجار، فعندما عجزت الدولة عن دفع المرتبات للجيوش وللموظفين اقترضت من كبار الأعيان والتجار، وعندما عجزت عن السداد أعطت الأراضي الزراعية إقطاعًا لهم.

هذه الوضعية لحيازة الأراضي الزراعية جعلت من العسكر والتجار ومن يسير في ركابهم لهم الكلمة العليا في الناحية الاقتصادية وفي الناحية الاجتماعية أيضًا، فنظام التضمين وجباية الخراج على الأرض الزراعية آل إلى العسكر والجند وغيرهم من كبار الموظفين، فطغت الأملاك الزراعية الإقطاعية الكبيرة على الحيازات الصغيرة[٣].

لذلك ظهر من يساعد العسكر على هذا الإقطاع، فديوان القطع الذي نشأت في الأندلس والذي تحدث عنه ابن حيان، كان موجودًا في تلك الفترة كي ينظم الإقطاعات العسكرية والمدنية فأصبحت من الكثرة حتى أصبح لهم ديوان وموظفون وجيش جرار يحافظ على تلك المصالح وينظمها[٤]، بل أصبحت الإقطاعات متوارثة في كثير من البلدان، وهو ما يسمى إقطاع الرقبة، وبذلك كانت له آثاره الاحتماعية بلا شك على المجتمع الإسلامي.

ولم يكن الإقطاع المدني مقتصر على الموظفين أو التجار أو الأعيان فقط، فقد كان الفقهاء والعلماء خاصة في دول الغرب الإسلامي نصيب من الإقطاعات الزراعية، وهو ما يسمى بإقطاع أهل الدراريع[٥]، ولقد كان إقطاعًا كبيرًا مما يمثل مكانة الفقهاء والعلماء في المجتمع لدرجة مزاحمة باقي الطبقات على الإقطاع.

---

(١) محمود إسماعيل، سيسولوجيا ، ج٢، ص٢٩.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٣٤.

(٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٤٧.

(٤) ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، نشر وتحقيق م أنطونيا، باريس، ١٩٣٧م، ص١٦٠.

(٥) إسماعيل، سيسولوجيا ، ج٢، ص٢٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه كانت نبذة مختصرة عن الإقطاع نشأته في الشرق والغرب الإسلامي، ويتبقى للباحث أن يعرض الآثار السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلدان الإسلامية كنظرة عامة قبل الدخول إلى النظرة التفصيلية للإقطاع في العراق.

كانت الآثار السياسية عميقة بسبب الإقطاع، فالسياسة والإقطاع متوازيين، فالطبقة العسكرية المتحكمة في الإقطاع، والتي يطلق عليها الدكتور إسماعيل "عسكرتاريا"، كانت طبقة متحكمة سياسيًا في الدولة العباسية، وهو ما عرضناه في التمهيد لهذه الدراسة[1]، وما سوف نتعرض له في النقطة البحثية التالية، وكانت هذه الطبقة قد تحكمت بشكل مباشر في الولايات الإسلامية مثل مصر والشام وولايات المشرق الإسلامي والمغرب الأدنى، وشكلت هذه الطبقة كحكام وإقطاعيين في نفس الوقت فأحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ذهب لمصر كإقطاع له، صحيح أن المنصب كان يسمى إقطاعًا، إلا أنه تعامل مع مصر كإقطاع، حتى أن المدينة العاصمة التي بناها كانت تسمى القطائع حيث أقطع جنده وقواده قطعًا متجاورة من الأرض كإقطاع رقبة وليس استغلالًا فقط[2].

انتشر الإقطاع على يد هؤلاء القواد ليس في مصر فقط بل في الشام أيضًا، وليس فقط في الدولة الطولونية بل في الإخشيدية، وليس في الشرق فقط بل في الغرب، فدور الخدم والحشم كان كبيرًا في دويلات المغرب الإسلامي، ودور الجند في الدولة الأموية سواء في طور الإمارة والخلافة كان أكبر، وما نهايات الخلافة في قرطبة بأقل مثال على ذلك حيث تحولت الأندلس إلى دويلات لطوائف من القادة والأعيان وكبار الأسر والجند الذين كانوا إقطاعيين بشكل أو بآخر[3].

إن الإقطاع كان من أسباب انهيار البلدان الإسلامية من الداخل، فالإمبراطورية أصابها الضعف بسبب العسكر التركي، أما الغرب حيث المغرب والأندلس فلقد شهد تناقص من أطرافه وضعفت

---

(1)ذكر الباحث في التمهيد الخاص بالدراسة بشرح هذا المصطلح.

(2)يذكر البلوي عن مدينة القطائع: قام ابن طولون باستكثار العبيد والرجال فبنى مدينة له ولرجاله وجعل كل قطيعة تسكنها قبيلة من القبائل مثل قطيعة الروم والفراشين والقواد، وقد بنى فيها المساجد والطواحين والأسواق كسوق العيارين والبزازين؛ (البلوي)، أبي محمد عبد الله بن محمد المديني، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد علي كرد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٥٢و٥٣و٥٤؛ وأيضا انظر عبد الرحمن زكي، الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ص٨٦ و٨٧.

(3)كمثال على ذلك عائلات بني جهور وبني الأفطس، وبنو عباد الذين سيطروا على أهم مدن الأندلس وكانوا من عائلات كبيرة إقطاعية متنفذة أيام الأمويين، انظر محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (دويلات الطوائف)، مطبعة الخانجي، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧م، القاهرة، ص ٣٢، ٨٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كياناته السياسية أمام الخطر الصليبي، فانهيار الدول السياسية الإسلامية في العصور الوسطي بشكل رئيس في وجهة نظر بعض المؤرخين، وهو ما يتبناه الباحث أيضًا، يرجع إلى عاملين أساسيين؛أحدهما خارجي في التكتل الأوربي الصليبي الذي انقض على الدولة الإسلامية الكبيرة، وضربها في أطرافها أولًا، ثم طعنها في قلبها أيام الحروب الصليبية، أما الثاني فكان الإقطاع العسكري وطبقة العسكرتاريا التي تحكمت في مقدرات الأمور كان العامل الحاسم في تغير وجه الحضارة الإسلامية برمتها، وكان السبب الداخلي الرئيس في انحدار الفكر الإسلامي، ومن ثم ركود الحضارة، وكان الإقطاع حجر زاوية في هذا العامل الحاسم.

أما عن الآثار الاقتصادية فكانت كبيرة وعميقة في سلبيتها علىاقتصادات البلدان الإسلامية شرقًا وغربًا، فالزراعة شهدت انهيارًا كاملًا، فالعسكر الذين سيطروا على الإقطاعات العسكرية لم يكن عملهم الزراعة بطبيعة الحال، وبشهادة مسكويه خير من تحدث عن الإقطاع في الشرق الإسلامي؛ حيث قال: "فسدت المشارب وبطلت المصالح،لأن المقطعين بقوا من غير تفتيش،ومن غير إشراف على احتراس من الخراب"[١]، وهذا دليل دامغ على ترك العسكر فرصة للخراب ينهش في القطاع الزراعي.

أما حال المزارعين فقد كان سيئًا، فقد كانوا يعيشون تحت رحمة من يتحكم في إقطاعاتهم، فهربوا تاركين الأراضي للخراب، فقد كان الوكلاء الذين يتحكموا في الإقطاعات الكبيرة يعاملون الفلاحين معاملة سيئة، فكان كل همهم هو الاستيلاء على الجباية والخراج وهو ما أثر في الزراعة وأحوال المزارعين بشكل عام[٢].

ولم يكن الشرق الإسلامي بخير حال من الغرب، حيث نجد في تفاصيل بعض المصادر المغربية عن المجاعات التي اجتاحت البلدان المغربية جراء تدهور الزراعة وقلة المحاصيل الزراعية وخراب الأراضي الذي كان سببًا فيه بشكل رئيسي شغب العسكر والجند على الإمارات المغربية بسبب اختلال الإقطاعات[٣].

وبسبب تحول الإقطاع إلى فلسفة حكم أكثر منها شيء عارض، ومقتصر على الأراضي الزراعية، أضحت الصناعة هي الأخرى متدهورة بسبب سياسات الحكام الذين احتكروا المعادن اللازمة للصناعة لصالحهم، كما لم توجد سياسة واضحة لبناء مصانع كبيرة تتبنى صناعات

---

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٨٢.

(٢) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٦٤.

(٣) بوتشيش، الاقطاع في الاندلس، ص ٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثيرة، صحيح أن هناك استثناءات، وشهدت الصناعة الإسلاميةازدهارًا كبيرًا في ربوع الدول الإسلامية، إلا أن الصناعة لم تشهد ازدهارًا إلا في الصناعات التي تحتاجها الدولة، وهو ما يسمى بالصناعات الكمالية كصناعة الملابس والعطور والأسلحة وغيرها[١].

لكن الإقطاع حد من نشاط الأسواق وأثر بالسلب على بعض الصناعات، وهو ما نراه مما تعرضت إليه أسواق بغداد، والتي سيتناولها الباحث لاحقًا، وهجرة بعض الصناع الأندلسيين إلى دول الشرق الإسلامي بسبب الاضطرابات التي شهدتها الأندلس[٢].

نفس الشيء ينسحب على التجارة، فالحروب الداخلية بين الأمراء الإقطاعيين إذا جاز للباحث التعبير كانت السبب في إغلاق الأسواق والطرق التجارية الداخلية والخارجية، كما نجد أن الفوضى السياسية الناتجة عن سياسة الإقطاع كانت السبب في تفشي وانتشار اللصوصية وقطع الطرق.

وهناك أيضًا سياسة المصادرات والغرامات التي فرضت على كبار التجار من العسكر،وكانت سببًا في ركود التجارة وكسادها، فقد عانت أسواق بغداد وأصفهان والموصل وحلب ومصر من هذه الغلبة العسكرية عليها، وشكلت المصادرات سببًا في انهيار التجارة في بعض الأوقات، وأيضًا في الغرب مثل أسواق القيروان الذي تعرض للنهب والمصادرة وغلبة العسكر والفقهاء المالكية الذين تسلطوا على التجار الذميين أحيانًا[٣].

أثر ذلك علىانخفاض قيمة العملة شرقًا وغربًا بسبب كساد التجارة، وتدلل المصادر على ذلك من فقدان قيمة الذهب والفضة على السواء لقلة التجارة، ومن أشهر ما تعرضت منه العملة الدينار الأغلبي وهو ما أدي إلى ثورة محلية تسمى بثورة الدراهم[٤].

كما شهدت مصر الإخشيدية تناقصًا كبيرًا في قيمة عملتها بسبب التلاعب الحكومي فيها لسد النقص والعجز خاصة في أواخر عهد الدولة الإخشيدية، كما عانى أهل فاس من تزييف العملة أيضًا[٥].

---

[١] إسماعيل، سيسولوجيا، ج٢، ص٤٠.

[٢] هاجر أهل الربض بقرطبة بعدما فشلت ما يسمى بثورة الربض ضد الأمير الحكم بن هشام الأموي، وذلك في عام ٢٠٢هـ، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٢٤٥.

[٣] إسماعيل، سيسولوجيا ، ج٢ ، ص٤٥.

[٤] عن ثورة الدراهم ونقص قيمة النقود الأغلبية؛ محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، تعريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣١٤.

[٥] إسماعيل، المرجع السابق، ص٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثالثا: الإقطاع في العراق قبل العهدين البويهي والسلجوقي:

كانت العراق بلا ريب جزءًا من البلدان الإسلامية، بل كانت القلب من العالم الإسلامي الكبير، بحكم أنها دار الخلافة ووسط دار الإسلام الممتد بين حدود الصين شرقًا والأندلس غربًا، وقد تأثرت العراق كغيرها من البلدان بظهور الإقطاع وشيوعه بين أنظمة الحكم، بل لن أخطئ عندما أقول أن ما صار في العراق من بدء ظهور الإقطاع كفكرة سياسية واقتصادية ترتب عليه أمور أخربعلى باقي البلدان الإسلامية.

بدأ الإقطاع في العراق بدخول الجند الأتراك إلى الخلافة العباسية أيام عهد الخليفة المعتصم بالله، وقد وصل الأمر إلى التسلط العسكري التركي على خلفاء المعتصم، فرويدًا رويدًا أصبح الأتراك متحكمين في كل مقدرات الخلافة، بل وصل الأمر أن أصبحت سامراء المدينة المنافسة لبغداد دار الخلافة، وكانت سامراء مدينة عسكرية إقطاعية كبيرة، يعيش فيها القواد الترك والجنود، وكانت المصنع الذي تصنع فيه القرارات المصيرية للخلافة العباسية آنذاك.

لم تكن سامراء فقط مظهر من مظاهر الإقطاع سياسيًا واقتصاديًا، بل إن التسلط العسكري كان سببًا في الإقطاع الزراعي العسكري، ففراغ الخزينة الخلافية من الأموال نتيجة التدهور السياسي والاقتصادي كان السبب في توزيع الأراضي الزراعية على القواد الأتراك، ومن ثم أصبحت الأراضي وراثية بما يسمى إقطاع الرقبة، وأصبحت في هذه الحالة بديلًا عن الراتب أو العطاء المالي في العصور السابقة[١].

المظهر الآخر للإقطاع في العراق هو ما ترتب عليه في البلدان الإسلامية التابعة للخلافة آنذاك وهي ظاهرة الاستقلال، فنرى أن مصر والشام أصبحت تحت قيادة مستقلة وهي الدولة الطولونية أو الإخشيدية أو دول المشرق الإسلامي المستقلة أو الدول الأغلبية في المغرب الأدنى، كل هذه الدول المستقلة كانت دول نابعة من سياسة الإقطاع العسكري، حيث أقطع الخلفاء تلك البلاد التابعة للخلافة للقواد الترك أو القواد التابعين للخلافة شرقًا وغربًا، وكأن ضعف الخلفاء أفرغ الخزينة واستنزف الأموال فنشأت ظاهرة الإقطاع، وظاهرة الإقطاع نشأت معها الدول المستلقة عن الخلافة.

وبشكل أكثر دقة، فإن الأراضي السلطانية التي كانت تتبع الخليفة مباشرة تم إقطاعها للقواد الترك بديلًا عن الرواتب والعطاءات، فأصبحت إقطاع استغلال أول الأمر، وشيئًا فشيئًاأصبحت

---

(١)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٥٠، ٥١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إقطاع تمليك ووراثة، وبدأ الإقطاع بالأرض الزراعية، ثم شمل الإقطاع الولايات والمدن والكور التابعة للخليفة[1].

وبشيء من التفصيل؛ فقد كانت الأراضي السلطانية هي الأراضي التي صادرها العباسيون من ابتداء دولتهم في العراق ثم توسعت بالتدريج من المصادرات التي تمت للأراضي التابعة لموظفين في الدولة سواء ماتوا دون عقب أو وريث أو تم فصلهم لأسباب مختلفة أو عن طريق الشراء، وكانت تلك الأراضي في عموم السواد في بغداد والكوفة والبصرة والبطيحة والموصل والأهواز وغيرها من المناطق العراقية، ويقسمها الدكتور الدوري إلى عدة أسماء مثل الأراضي المستحدثة أو المرتجعة أو الضياع الخاصة بالخلفاء أو الفراتية التي تطل على نهر الفرات مباشرة[2].

وقد تكونت شيئًا فشيئًا هيئات إدارية لتلك الأراضي السلطانية مثل ديوان الضياع الذي أنشئ في عهد الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥هـ - ٣٢٠هـ / ٩٠٨م - ٩٣٢م)،وذلك لتظيم تلك الضياع السلطانية[3].

ولقد كان تاريخ الإقطاع مبكرًا عند بداية نفوذ الجند الأتراك في عهد الخليفة الواثق بالله، حيث أقطع الخليفة أراض إقطاعية لإيتاخ القائد التركي الشهير على نهير القاطول، كما أقطع بغا ووصيف إقطاعات في أصفهان والجبل.

كما نجد أن بعض القادة العسكريين في المشرق الإسلامي وكانوا مستقلين شبه استقلال عن الخلافة العباسية، لكن الخلافة رأت استراضاءهم نظير الخدمة التي يقدمونها، أمثال محمد بن عبد الله بن طاهر الذي مُنح إقطاعات في طبرستان عام ٢٥٠هـ /٨٦١م.

وفي عهد الخليفة المقتدر أيضًا شهدت الخلافة انهيارًا سريعًا بسبب شغب الجند الأتراك، حتى وصل الأمر إلىاغتيال الخليفة ذاته علىأيديهم، وقد كانت التدهور في تناقص سريع للضياع السلطانية لحساب توزيعها كإقطاعات وبيعها من أجل رواتبهم، ففي عام ٣١٧هـ / ٩٢٩م،اضطر الوزير ابن مقلة تحت ضغط شغب الجند وإفلاس الخزينة الخلافية إلى بيع بعض الضياع السلطانية،واستمرت الأزمة المالية تلك إلى عام ٣١٩هـ / ٩٣١م [4]، حيث باع الوزير

---

[1] الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٥١.

[2] المرجع السابق، ص٥٢.

[3] نفسه، ص٥٠.

[4] مسكويه، تجارب الأمم، ج٥ ،ص١٠٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحسين ابن القاسم بعض الضياع السلطانية بمبلغ خمسمائة ألف دينار لتسديد مرتبات الموظفين والجند.

وهكذا بدأ التناقص في تلك الضياع السلطانية لصالح الإقطاع العسكري أو المدني، فقد كانت تلك الأراضي مباعة لصالح الإقطاعيين نظير تسديد بعض الجبايات أو الخراج عليها بنظامي الإلجاء أو الضمان.

وقد استمرت بلا شك تلك الأزمة المالية، خاصة مع الاضطرابات السياسية التي تسببت في مقتل الخليفة المقتدر وتولي الخليفة القاهر عام ٣٢٠هـ /٩٣٢م، فقد بيعت بعض الأراضي التابعة للخلافة في عهده لنفس الأسباب، وهو شغب الجند للحصول على المرتبات أو إفلاس الخزينة.

وقد باع أبو العباس النوبختي مفوضًا من الخليفة القاهر بعض الأراضي، كما باع ابن مقلة أراضٍ سلطانية جزاء مليونين وأربعمائة ألف دينار تدخل إلى الخزينة، وقد استمرت هذه الأزمات ومعها بالتوازي بيع الضياع السلطانية، حتى بعد خلع القاهر عام ٣٢٢هـ / ٩٣٣م، وحتى دخول البويهيين بغداد[١].

أما عن الأراضي الإقطاعية والتي زادت في تلك السنوات على حساب الأراضي السلطانية، فقد قسمها الباحثون إلى عدة أقسام أشهرها الإقطاعات المدنية التي كانت تمنح للوزراء أو كبار الموظفين على قيامهم بخدمة الدولة، والإقطاعات العسكرية وهي التي كانت تعطي للجند وكبار القادة في الجيش وحرس الخلافة وذلك عوضًا عن مرتباتهم، هذا إلى جانب بعض الإقطاعات الخاصة التي كانت تمنح للشعراء والمغنيين وما شابه نظير ترفيههم عن الخليفة والقادة، وضياع وإقطاعات الخليفة وعائلته من آل العباس[٢].

وقد وجد في هذا العصر بعض الأنظمة الضرائبية والتي سنتحدث عنها تفصيلًا في المبحث الثاني، مثل نظام الضمان، وهو أن يتولى قائد أو موظف كبير أو تاجر أو غير ذلك الضمان على منطقة من مناطق السواد بمساعدة الحكومة، حيث يجبي الخراج والضرائب ويؤديه لخزانة الدولة، ولقد تولى الضمان بعض القادة العسكريين أمثال ابن رائق وبجكم والبريدي[٣].

لكن هناك من ملاحظة جديرة بالاهتمام، ألا وهي أن الإقطاع المدني كان الأكثر انتشارًا من الإقطاع العسكري في ذلك العصر، وهذا نقيض العصر التالي الذي سنتناوله بالتفصيل في

---

(١)نفسه، ص١١٤.

(٢)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٥١.

(٣)نفسه، ص٥١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السطور القليلة القادمة، وهو العصر البويهي الذي انتشر فيه الإقطاع العسكري بشكل كبير جدًا، مما كان له آثاره العميقة على الاقتصاد العراقي ومن ثم ظهور المحن والأزمات.

وقبل نهاية هذه النقطة البحثية يجب أن نقول إن السياسة الزراعية لهذا العصر لم تكن سيئة في معظمها فجهود بعض الخلفاء المعتضد العباسي أو بعض الوزراء أمثال على بن عيسي كانت ماثلة للعيان، حيث كانت إصلاحات زراعية جيدة شملت ازدهار الري ونظمه في عموم العراق، والاهتمام بتنظيم الزراعة وعمل تقويم زراعي جيد، والاهتمام ببناء السدود والجسور وتطهير الترع والاهتمام بأحوال القرى والفلاحين[1]، فلم تكن للإقطاع آثار سلبية قوية في هذا العصر بل كانت مقدمة سيئة لما بعد ذلك.

صحيح أن هذه الإصلاحات ذهبت إدراج الرياح في فترة إمرة الأمراء، حيث الحروب الداخلية والصراعات السياسية، والتي تسببت في شلل كامل للقطاعات الاقتصادية العراقية،والتي انتهت عند دخول البويهيين إلى العراق لتبدأ فترة جديدة سياسيًا واقتصاديًا قوامها التسلط العسكري على الخلافة العباسية.

رابعا: الإقطاع في العراق خلال العهدين البويهي والسلجوقي:

مع دخول البويهيين إلى بغداد في عام ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، بدأ الإقطاع مرحلة جديدة، حيث انتقلت الأراضي الزراعية من أيدي الخلفاء العباسيين إلى الأمراء البويهيين، فأصبح الشخص القاطع ليس الخليفة فقط، بل أيضًا الأمير البويهي[2]، بل سبق الأمير البويهي بحكم القوة العسكرية على الخليفة العباسي الذي لا يملك من أمره شيئًا.

وقد تميزت تلك الفترة بأنه لا جديد من حيث منهجية الإقطاع، فاستمر الإقطاع على حاله من حيث تقسيمه إلى إقطاع التمليك والذي يعطى للشخص ليكون وراثة لعقبه من بعده،على أن يدفع لخزينة الدولة العُشر من الخراج، وإقطاع الاستغلال وهو أن يعطى للعسكريين مقابل رواتبهم النقدية على ألا يورث لعقبه مقابل أن يدفع للحكومة مبلغًا من المال[3]، وفي الغالب لم يكن

---

(١) يذكر مسكويه في أكثر من موضع في الجزء الخامس من كتابه في حوادث سنة ٣١٥هـ عن إصلاحات علي بن عيسى وزير المقتدر، وقد كان من أنجح الوزراء في تلك الفترة وقام بإصلاحات مالية وزراعية كبيرة ساهمت في إنعاش مالية واقتصاديات الخزانة العباسية المتدهورة؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٨٥ وما يليها.

(٢) هناك خلاف بين عدد من المؤرخين حول إقطاع البويهيين للجند أو تبنيهم السياسة الإقطاعية، ومن أبرز الخلافات بين الدكتور الدوري والدكتور محمود إسماعيل فيرى الدوري أن البويهيين كانوا قد تسببوا في إدخال الإقطاع العسكري إلي العراق، بينما يرى إسماعيل أن البويهيين قاموا بالقضاء على الإقطاع في العصر السابق.

(٣)حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجنود يدفعون شيئًا من جيوبهم، بل كان المزارعون والفلاحون هم من يدفعون من قوتهم ومن عرقهم.

وقد ظلت التصنيفات الأربعة السابقة والتي صنفها الدكتور الدوري في العصر العباسي الثاني للإقطاع، مستمر إلى العصر البويهي، فقد قسم الدوري الإقطاع إلى مدني وعسكري وخاص،وإقطاعات للخليفة، وقد استمرت تلك التصنيفات على أية حال في هذا العصر البويهي. وسنتحدث في ثنايا السرد العام الذي سنقدمه في السطور القادمة:

في أول الأمر عند دخول معز الدولة البويهي إلى بغداد، أصبح الرجل القاطع الثاني بعد الخليفة، فله الحق أن يقطع من يشاء من الموظفين أو القادة العسكريين[1]، لكن بمرور الوقت وعند تثبيت قدم الدولة البويهية في على العراق،أصبح القاطع الأول، وهو من يتحكم بالأراضي الزراعية، بل وصل الأمر أن يقطع الخليفة ذاته، حيث أقطع معز الدولة أرضًا للخليفة ومن إيرادها يعيش[2]، بل نصب كاتب خاص لهذه الأرض كي يخدم الإقطاع، وكان هذا الإقطاع يدخل في تصنيف الإقطاع المدني، وكأن الخليفة أصبح موظفًا عند الأمير البويهي، وهذا علىأية حال من مظاهر التسلط العسكري البويهي الذي استمر حتى نهاية تلك الدولة.

كان البويهيون ينظرون إلى الأرض الزراعية نظرة قبلية[3]، أو نظرة المتغلب على الأرض، وهو خارج عن المفهوم الإسلامي السابق له، وهو المفهوم الذي جعل الإقطاع قانونيًا، حيث توزع الأراضي حسب الحاجة وحسب الخدمة، وترجع الأراضي بعضها بشكل أدق إلى الدولة، أما البويهيون فنظروا إلى الإقطاع نظرة مغايرة لتلك النظرة الإسلامية وبنوا فلسفتهم في الحكم على هذه النظرة المغايرة.

وقد عمل البويهيون على التوسع الإقطاعي كفلسفة في تعاملهم مع الجيش أو مع الإدارة المدنية، فقد شهد الإقطاع توسعًا كبيرًا في بداية عهد البويهيين، حيث أصبح البديل الطبيعي للعطاء والرواتب خاصة للجند في الجيش[4].

---

(1) الدوري، المرجع السابق، ص٥١.

(2) أقطع معز الدولة البويهي علي، الخليفة الطائع الذي جاء به إلى الخلافة بعد خلع المستكفي بالله، أراض بمقدار مائتي ألف دينار في السنة، وعين له كاتبًا للنظر في الأعمال تلك، وهو أبو الحسين علي بن محمد بن مقلة؛ مسكويه، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(3) منيمنة، الدولة البويهية، ص ٣٤٢.

(4) نفسه، ٣٤٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولقد كانت هناك أسباب اقتصادية جعلت من الإقطاع منهجًا للبويهيين، فقد استلم معز الدولة خزانة العراق وهي خاوية على عروشها، بل كانت تعاني من مجاعات وأزمات اقتصادية طاحنة جراء الفترة التي سبقت التدخل البويهي، وكان على معز الدولة أن يدبر الأمور سريعًا، فلم يجد ملجأ للعطاء سوى التوسع الإقطاعي، حيث أقطع قادته وجنده أراضٍ كثيرة، هذا إلى جانب سبب منهجي في نظرة البويهيين التي شرحها الباحث آنفًا، وهي أن الإقطاع ضرورة لتسلطهم على العراق ومظهر جدي له.

توسع الإقطاع أكثر فأكثر في عهد خلفاء معز الدولة البويهي، حيث توسع البويهيون في إقطاع الأرض زمن عز الدين بختيار ابن معز الدولة، وأيضًا في عهد عضد الدولة البويهي، رغم قوة إداراته إلا أنه لجأ إلى الإقطاع، واستمر الإقطاع حتى شمل كل أراضي قرى بغداد –على سبيل المثال – خاصة في عهد جلال الدولة البويهي، وقد توسَّعت الإقطاعات العسكرية على حساب الإقطاعات المدنية وضياع الخلافة والضياع الخاصة، مما يدل على تفوق الطبقة العسكرية على ما سواها، وتحكمها في الأحوال الاقتصادية في العراق خلال ذلك العهد[١].

أنشا البويهيون نظامًا إداريًا ملحقًا بالجيش، أو بمعنى أدق ديوانًا مختصًا بالإقطاعات العسكرية ملحقًا بديوان الجيش، وذلك بسبب أن هذه الإقطاعات كانت رواتب وعطاءات للقادة العسكريين ومادونهم من الرتب العسكرية،ولم تعترف الحكومة البويهية على أي حال بقانون خاص للإقطاع أو تنظيم العلاقة بين هؤلاء القادة والمزارعين[٢].

توسع أيضا نظام الإلجاء، لأن كبار الملاك والمزارعين كانوا يتجنبون التصادم مع القادة الديلم أو الأتراك في الجيش، فكانوا يلجأون لضم مزارعهم وأراضيهم لإقطاعات هؤلاء القادة حتى يرضوا عنهم، وهو ما يدل على سطوة هؤلاء على باقي الطبقات[٣].

أما الأراضي المتبقية، فتوزعت إقطاعات مدنية بما يسمى إقطاع الدراريع؛ أي إقطاعات الموظفين والكتاب، وكان شبيهًا بالإقطاع العسكري، فكان لنفس السبب،وهو فراغ الخزينة وتعويض الموظفين بدلًا من الراتب أرضًا إقطاعية.

---

[١] الدوري، تاريخالعراق الاقتصادي، ص٥١.

[٢] منينمة، المرجع السابق، ٣٤٣.

[٣] يقول مسكويه في هذا الصدد: رقت أحوال التنّاء أي الفلاحين، فمن بين هارب جال ومظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح إلي تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٨٢؛ انظر أيضا؛ إبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص٢٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يكن الحال بالجيد أو بالمختلف شمالًا حيث الحمدانيين، الذين سيطروا على مناطق الجزيرة، وكانت قاعدتها الموصل، فقد عمل الحمدانيون علىاحتكار الأراضي الزراعية لمصالحهم الخاصة، حيث كانوا يتشددون على الملاك لبيع أملاكهم وأراضيهم بأوكس الأثمان، لتكون الأرض تحت سيطرتهم، وهو ما عمل علىانهيار القطاع الزراعي في بعض فترات حكم الحمدانيين بشهادة ابن حوقل الذي عاب على الحمدانيين سياستهم تلك[١].

ولابد من ذكر نقطة أخيرة قبل الانتقال للحديث عن الإقطاع السلجوقي، وهي أن هناك اختلافًا في تفسير الإقطاع البويهي، بين اثنين من كبار المؤرخين لهذه الفترة، وهو الدكتور الدوري والدكتور محمود إسماعيل، فالدوري يرىأن الإقطاع البويهي كان مترسخًا بشكل كبير، وأن الإقطاع العسكري خطا خطوة كبيرة في عهدهم كمظهر من مظاهر التسلط العسكري على الخلافة العباسية، وهو ما أدىإلى تدهور الزراعة والصناعة والتجارة،بالرغم من أن هذه المجالات شهدت انتعاشة خاصة في عهد عضد الدولة البويهي أقوى حكام تلك الدولة[٢].

بينما يرى الدكتور إسماعيل في سيسولوجيا الفكر الإسلامي، أن العصر البويهي كان عصرًا برجوازيًّا منفتحًا بعيدًا عن سياسية الإقطاع، وقد استقى هذا الرأي من المستشرقين الذين تحدثوا عن هذه الفترة، معتمدين بدورهم على ابن مسكويه في تجارب الأمم، والذي وضح أن الإقطاع البويهي كان موجودًا في ثنايا نصوصه، لكنه كان هامشيًّا، حسب تفسير إسماعيل لهذا الأمر [٣].

كما يرى أن الإقطاع شمل ضياع الخليفة والأمراء السابقين فقط، وهو طبيعي بعد دخول البويهيين أن يستولوا على هذه الأرض ويتسلطوا عليها، ومن ثم يوزعونها على القادة والجند، وهو ما يؤكده ابن مسكويه على أية حال[٤].

وبالرغم من تناقض هذين الرأيين وتشابك آراء أخرى معهما، إلا أن الباحث رأى أن يعرض الرأيين،تاركًا للأحداث أن توضح صحة الرأيين أو خلق رأي وسط، وهو ما يميل له الباحث،

---

[١]يقول ابن حوقل النصيبي في هذا الصدد: لم تزل الجزيرة كثيرة الثمار، رخصية الأسعار حتى انكب عليها بنو حمدان بضروب الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم، وتجديد كُلف لم يعرفوها ورسم نوائب ببيع الضياع والعقار؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩١.

[٢]ذكر الباحث في أكثر من موضع أراء الدكتور الدوري حول الإقطاع البويهي وترسخه في العراق إبان حكمهم للخلافة العباسية حيث أقطع معز الدولة وخلفاؤه الكثير من الضياع لقادة الجيش والجند من الرتب المختلفة؛ الدوري، المرجع السابق، ص٥١.

[٣]يرى الدكتور محمود إسماعيل أن البويهيين كانوا من ضمن فترة يسميها الصحوة البرجوازية وأسهموا في تضعضع الإقطاع؛ محمود إسماعيل، سيسولوجيا الفكر الإسلامي،ج ٦، سينا للنشر، ٢٠٠٠م، ص٣٧ وما يليها.

[٤]مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص ٢٨٣. محمود إسماعيل، سيسولوجيا، ج٦، ص٣٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فسنترك هذا للنتائج في النقطة الأخيرة من هذا المبحث الذي يتحدث عن الآثار السلبية للإقطاع على الاقتصاد العراقي.

أما عن السلاجقة الذين بدأ حكمهم للعراق في عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م، فقد كان إقطاعهم لا يختلف أبدًا عن الإقطاع في الشرق الإسلامي، بل نرى أن السلاجقة خطوا خطوة كبيرة نحو ترسيخ الإقطاع العسكري وجعله مرتبطًا بأنظمة الحكم والإدارة والسياسة، ليس فقط في العراق بل في كل بلدان الشرق، وقد تأثرت به دول أخرى كالزنكية والأيوبية والمماليك بعد ذلك.

علىأية حال؛ سنسلط الضوء على الإقطاع في عهد السلاجقة وسنبدأ بعرض منهجية هذا الإقطاع من خلال بعض النقاط التالية:

تطور الإقطاع العسكري، بحيث أصبح إجباريًاعلى السلطان السلجوقي توزيع وضعية الأرض على العسكر مقابل الخدمات التي يقدمونها من مؤن وسلاح وجنود، أو الاشتراك في المعارك المختلفة، وربما نرجع هذا إلى طبيعة السلاجقة العسكرية البدوية، وتأثرهم بنمط الإنتاج الاقتصادي في آسيا الوسطى آنذاك[١].

أصبح القادة العسكريين الإقطاعيين في نفس الوقت سادة في مناطقهم، وبذلك أصبح هناك نظام حكم مركزي يعتمد على قادة عسكريين سادة في مواقعهم يقدمون الخدمات الجليلة للدولة والضرائب والأسلحة والجنود المرتزقة[٢].

كان النظام قويًا في بدايته، ونرى أن هذا النظام وضعه الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك في عهد السلطان ألب أرسلان،وكانت القوانين الحاكمة للإقطاع كانت في ذلك العهد[٣].

أصبحت الحكومة السلجوقية تشترط بعد ذلك الالتزام بالعهود المقطعة على القادة العسكريين الذين يسيطرون على الإقطاع بضمان الأموال والضرائب والمؤن التي يطلبها السلطان.

كان أمراء الإقطاع السلاجقة يعيشون في معظم الأحيان في عاصمة الملك؛ أي مدينة الري، ولعلنا نقصد كبار القادة أو الأمراء الإقطاعيين والذين وصلوا إلى أربعين أميرًا في عهد السلطان

---

[١] المرجع السابق، ج٢، ص١٩٠.

[٢]الأعرجي، الإقطاع العسكري السلجوقي، ص٥.

[٣]لقد كان نظام الملك الطوسي من أهم الشخصيات في هذا العصر في التنظير للإقطاع من الناحية السياسية، وقد وضع في كتابه سياست نامة قوانين للإقطاع وما يوجب على الإقطاعيين، وفصل ذلك في باب خاص بهذا الأمر؛ نظام الملك الطوسي، سياست نامة، ص٧٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملكشاه، وكان هؤلاء الأمراء رهن إشارة السلطان، فيكونون معه أينما حل ورحل، ولعل السلطة السلجوقية وجدت في هذا ضمانًا لولائهم[١].

كان هذا النظام قطعًا يختلف عن نظام الأقنان الأوربي، لكنه شبيه بكون السيد الإقطاعي كان له الطاعة من الفلاحين والمزارعين، وكان سيدًا في أرضه لكنه لا يتحكم في مصائرهم مادام الفلاحون يؤدون ما عليهم من ضرائب وأموال،والتي حددها نظام الملك في قوانينه، وفي التيسير من أخذ الأموال من الفلاحين، وكأن هذه الرابطة نفعية من الأساس فيما يعرف بنظام الإقطاع النفعي، سواء من الأدني حيث الفلاحين أو الأعلى حيث السلطان السلجوقي.

نرى أن نظام الإقطاع العسكري كان نتيجة الظروف الدولية التي أفرزت خطرًا صليبيًّا مبكرًا بعد موقعة ملاذكرت التي انتصر فيها السلاجقة على البيزنطيين، وهو ما فكر فيه نظام الملك بلا شك،جاهزية كاملة للجيش والأمراء والقادة، فعندما يطلبهم يجدهم في المعركة بكامل أسلحتهم ومؤنهم، وبهذا يبدو الإقطاع العسكري في فلسفة نظام الملك ضرورة سياسية وحربية[٢].

وبهذه النقاط تكتمل منهجية الإقطاع في عهد السلاجقة، ويتبقى لنا الأمثلة على هذا الإقطاع:

ومن هذه الأمثلة،والتي سنتخلص معها نتائج معينة في التالي:

أقطع السلطان السلجوقي طغرلبك مدينة البصرة إلى هزارسب، وذلك مقابل أن يؤدي هزارسب ثلاثمائة ألف دينار سنويًّاإلى الخزانة السلطانية، وذلك في عام ٤٥٠هـ / ١٠٦٠م، ثم انتقلت إقطاعية البصرة إلى الأمير أبي على بن أبي كاليجار[٣]، وذلك في عام ٤٥٦هـ، وذلك بسبب العلاقة السيئة بين السلطان وهزارسب، لكن سرعان ماعاد هزارسب إلى مقاطعته، وهنا يتبين أن العلائق السياسية والحربية كانت شرطًا أساسيًّا في استمرار الإقطاع من عدمه.

في عهد السلطان بركياروق أقطعت البصرة إلى الأمير قماج والذي أناب عنه إسماعيل بن سلانجق، كما تم إقطاعها إلى الأمير سيف الدولة بن صدقة في عام ٤٩٩هـ / ١١٠٦م[٤].

استولى الأمير صدقة أيضًا في عهد السلطان محمد بن ملكشاه على إقطاع واسط بجانب البطيحة، مقابل ضمان خمسين ألف دينار سنوية، وذلك في عام ٤٩٨هـ / ١١٠٥م، كما نجد

---

(١)الأعرجي، المرجع السابق، ص٦.
(٢)إبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص٢٤ و٢٥.
(٣)الأعرجي، نظام الإقطاع السلجوقي، ص٦.
(٤)الأعرجي، الاقطاع السلجوقي، ص٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنه في عهد السلطان محمود أعطى واسط والبصرة مجتمعين إلى دبيس بن صدقة كإقطاع خاص له مقابل مبلغ من المال[1].

لاحظ الباحث أن واسط والبصرة ومدنًا أخرى كان الإقطاع يتغير فيها نظرًا للتحالفات والاضطرابات السياسية، حيث نجد أن مدينة واسط أعطيت لعماد الدين زنكي ٥١٦هـ / ١١٢٢م، وكان سبب الإقطاع هو الوقوف في وجه دبيس بن صدقة،وقد تكررت هذه الظاهرة في مدن أخري كالكوفة والحلة والأنبار وهيت وتكريت وغيرها من المدن.

مدينة الكوفة والتي كانت تتعرض لهجمات الأعراب، تم إقطاعها للقادة العسكريين السلاجقة وغيرهم من أجل القيام بمهمة الدفاع عن المدينة، وهنا يبرز لنا نتيجة في غاية الأهمية أن الدولة السلجوقية التي كانت تتعرض حينها لضعف شديد ونزاعات داخلية خرجت بسياسة وفلسفة جديدة أن تعطي المدن التي تتعرض لأزمات لقادة عسكريين يقومون بحل المشاكل على طريقتهم الخاصة مقابل ضمان يؤديه هؤلاء القادة[2].

مدينة الحلة والتي كانت إقطاعًا خاصًا لبني مزيد، فأصبح متوارثًا بينهم، وعلى الرغم من النزاعات المستمرة بينهم وبين الدولة السلجوقية، إلا أنهم استمروا في هذا الإقطاع تحت رعاية السلاجقة[3].

في أثناء ضعف الدولة السلجوقية وانهيارها آلت الإقطاعات شيئًا فشيئًا للخلافة العباسية من جديد، والتي كانت تشهدة انتعاشًا سياسيًا واقتصاديًا خاصة في عهد الخليفة الناصر لدين الله، والذي على سبيل المثال آل إقطاع الكوفة يعين عليها من يشاء من مماليكه، وكذلك الحلّة والتي رجعت إلى الخلافة في عام ٥٧٠هـ / ١١٧٥م، وكذلك الأنبار وهيت[4].

وهذه الأمثلة السريعة ومعها النتائج المستخلصة توضح مدى تغلغل الإقطاع العسكري كفلسفة ونظام للحكم، وكيف أصبح الوضع السياسي كالفسيفساء - كما وضح الباحث خلال التمهيد لهذه الدراسةوأيضًا في الفصل الأول - وجاء هذا المبحث ليوضح الصورة الكاملة في تكامل هذه الفسيفساء والتنازع السياسي في العراق خلال تلك العهود.

---

(١)نفس المرجع السابق، ص٧.

(٢)ذكر ابن الجوزي في سنة ٤٧٩هـ أن الأعراب هاجموا قوافل الحج، وكان الجنوب العراقي يتعرض لمثل هذه الهجمات كثيرا، انظر ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١٦، ص ٢٦١، الأعرجي، المرجع السابق، ص ٨.

(٣)أحلام فاضل عبود، مدينة الحلّة منذ تأسيسها حتي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ، ص ٨ وما يليها، انظر أيضا الأعرجي، الاقطاع السلجوقي ، ص٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٨ و٩ و١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خامسًا: الآثار الاقتصادية السلبية الناجمة عن نظام الإقطاع:

وفي هذه النقطة البحثية الأخيرة في هذا المبحث سنوضح الآثار السلبية الاقتصادية الناتجة عن فلسفة وسياسة الإقطاع العسكري في العهدين البويهي والسلجوقي، وذلك من عدة مجالات كالزراعة والصناعة والتجارة، ولن نتطرق إلى الأحوال المعيشية للعامة إذ سنفرد لهذه النقطة فصلًا كاملًا في هذه الدراسة.

وسنبدأ مع النتائج السلبية على الزراعة خلال العهدين البويهي والسلجوقي:

من المعروف أن العراق بالأساس بلد زراعي، فالسواد الزراعي شكل الغلبية العظمي من الأراضي الزراعية العراقية، كما أن نهري دجلة والفرات وروافدهما كانا المنبع الأساسي للزراعة العراقية، وفي هذه النقطة سنبحث عن مدى التدهور الناجم عن الإقطاع في القطاع الزراعي وعن السياسة الزراعية في العصرين مناط البحث.

الزراعة في العصرين البويهي والسلجوقي :

على الرغم من التحسن الزراعي الطفيف في عهدي معز الدولة وعضد الدولة إلا أن الزراعة بشكل عام في العراق في العصر البويهي عانت من بعض السلبيات التي سنعرضها خلال النقاط التالية:

كانت الزراعة قبيل العهد البويهي تتعرض لضربات تحت عهد إمرة الأمراء والنزاعات السياسية التي شهدتها العراق، مما أدىإلى خراب العمران والضياع خاصة في مناطق وسط العراق والسواد، وقد جاء البويهيون بجيوشهم وإقطاعهم وتوزيع الأراضي على القادة، وهو ما أدىإلى زيادة الخراب وقلة العمران فيها[١].

ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية، وزيادة القحط والجفاف بسبب قلة مشاريع الري، وهذا راجع إلى القادة والمقطعين الذين استولوا على الإقطاع في بداية العهد البويهي،إذكانقلة الاهتمام بالأراضي أو بالزراعة هو السائد وكان جل همهم جمع الأموال والضرائب لإرسالها إلى الخزانة السلطانية[٢].

---

(١)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٦٢.

(٢)نفس المرجع السابق، ص٦٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت سياسية العجلة في تسليم الإقطاعات زاد من طمع هؤلاء القادة، فتمسك الرابحون بالإقطاعات الجليلة[١]، وعمل الخاسرون على تخريب الإقطاعات من أجل تعويضهم بإقطاعات أكبر، هذا زاد من الخراب وتدمير الأراضي الزراعية ومشاريع الري.

نجد في نص عند مسكويه عن المقطعين في غاية الأهمية، وهو: "اقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يظبطون ما يجري على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تثمير ومصلحة"[٢]، وهذا يدل بدليل دامغ علىاقتصار الإقطاع على المصلحة النفعية لهؤلاء المقطعين وجلب الأموال من هذه الإقطاعيات بأي شكل حتى لو سبب ضررًا كبيرًاعلى النواحي الزراعية.

كان الإقطاع له آثار سلبية بشكل مباشر على نظام ري الأراضي بسبب انقطاع العمال لإرضاء المقطعين وإهدار الأموال التي تصرف على هذا النظام الذي أراد معز الدولة أن يعممه على العراق[٣].

كان للإقطاع سبب مباشر أيضًافي هروب المزارعين والفلاحين من أراضيهم،بسبب تتابع الأزمات والنكبات عليهم، فأصبح الفلاحين بين هارب ومظلوم صابر لا ينصف،ومستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه[٤]، هو ما نجده في ممتلكات الحمدانيين أيضًا التي شهدت تخريبًا كبيرًا، مما أدىإلى هروب الفلاحين من الموصل والمدن الجزرية الأخرى[٥].

تزايد نظام الإلجاء، وهو نظام ناتج عن سياسية الإقطاع الزراعية، فخوف متوسطي وصغار الملاك من القادة المقطعين جعل من تسليم أراضيهم إلى المقطعين هؤلاء ضرورة زراعية لتفادي خراب ممتلكاتهم، وهو ما جعل الإقطاع الزراعي بخرابه وفلسفته الزراعية التخريبية سياسة أمر واقع لا محالة.

كان من ضمن فساد الإقطاع للزراعة العراقية في هذا العصر إغلاق الدواوين الزراعية، فالحكومة أو الخلافة ظلتا عاجزتين على تدبير شئون الزراعة ووقعت الأراضي الزراعية فريسة لسياسة المقطعين، وهو ما أدىإلىاستبدال دواوين الزراعة بدواوين تحافظ على الإقطاع وتنميه[٦].

---

[١]مسكويه، تجارب الأمم، ج٥ ، ص ٢٨٢.
[٢]نفس المصدر السابق، ٢٨٣.
[٣]الدوري، نفس المرجع السابق، ص٦٣.
[٤]مسكويه، المصدر السابق، ص٢٨٢.
[٥]ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩١.
[٦]الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خراب الدواوين تلك نزيد عليه عدم التفتيش أو المراقبة على الإقطاعيات، وذلك بسبب تحايل أصحاب الإقطاع على الحكومة، مما أدىإلى ظلم الرعية والفلاحين، وهكذا ترك الزراع من غير عناية أو رعاية من الحكومة وأصبحوا تحت رحمة الإقطاعيين[١].

لم تكن المناطق الجنوبية والوسطى في العراق تعاني وحدها من وطأة الإقطاع ونتائجه المدمرة على الزراعة،بل كانت الموصل وماجاورها من مدن الجزيرة تحت سيطرة الحمدانيين، والذين كانوا لا يقلونشراسة في تعاملهم مع المزارعين من الإقطاعيين البويهيين، فقد عانت المدن الجزرية من تدمير للزراعة بسبب الإقطاع والاحتكار الذي مارسه أمراء الحمدانيين، فقد سيطروا على الموصل مِلكًا ومُلكًا، وشددوا على الرعية، ما أدىإلى هروبهم من الجزيرة نحو الشام أو ناحية العراق، وذلك بسبب الضرائب التي كانت تفرض من الإقطاعيين الحمدانيين، والذين كانوا في تلك الحالة أمراء بني حمدان أنفسهم، وبسبب الجور والعسف اللذين كانا يحددان علاقة هؤلاء الأمراء بباقي الرعية.

وبالنظر في سياسة بني حمدان نجد أن تحديد المحاصيل الزراعية الربحية كان من سياسة الحمدانيين فقد توسعت الدولة الحمدانية في بعض المحاصيل التي تدر ربحًا كالقطن والسمسم والأرز وغيرها من الغلات على حساب باقي المحاصيل الأخرى خاصة المحاصيل البستانية[٢]، وهذا ليس من أجل صالح الرعية التي تحتاج بالفعل إلى هذه الغلات بل لبيعها لصالح الإمارة الحمدانية ولصالح جيوب الأمراء الذين تاجروا بهذه الغلات وصدروها محليًّاإلى لأسواق المحلية أو خارجيًا حيث أسواق الشام وغيرها.

هذه السياسية – لا ريب – كانت جائرة على المزارعين، حيث كانت أراضيهم الزراعية تحت رحمة تلك السياسة،ما أثر على الناتج الزراعي بشكل عام هذا غير الضرائب والخراج الزائد عن الحد الذين كانوا مطالبين به، فقد كان على المزارعين أن يؤدوا ثلاثة أخماس الحاصل الزراعي إلى مندوبي الأمراء الإقطاعيين.

ليس هذا فحسب، بل نجد أن سياسة الاحتكار والإقطاع الحمدانية أفرزت إهمالًا كبيرًا في بناء السدود وتطهير الترع بسبب انشغال الحكومة بسد حاجتها المالية، كما أن بعض الكوارث

---

[١]انفس المرجع السابق، ص٦٤.

[٢] ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩١، مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤٣٧، انظر أيضا؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٦٥ و٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطبيعية التي ضربت منطقة الجزيرة أدت إلى تخريب عدد ليس بالهين من الأراضي والمزارع والبساتين.

كل هذا التدهور الزراعي في العراق، لم يمنع من وجود بعض الفترات التي ازدهرت فيها الزراعة، سواء في وسائل الري التي تبنت الحكومة البويهية جزءًا كبيرًا منها،أو في قوانين الزراعة،أو عدم فرض الضرائب الباهظة، ومن أشهر الفترات التي شهدت ازدهارًا فترة عضد الدولة البويهي، الذي تولى منذ عام ٣٦٧هـ / ٩٧٧م[١]، حيث عمل عضد الدولة على تبني برنامج اقتصادي أنعش العراق اقتصاديًّا، ففي مجال الزراعة بدأ إصلاحاته بتحسين نظام الري وجباية الأراضي وسد البثوق، وبناء سدود جديدة ووسع مجاري الأنهار، كما أنشأ نظام حراسة في الليل والنهار لمنشآت الري[٢].

إلا أن فترة الهدوء والإصلاحات تلك انتهت بموت عضد الدولة في عام ٣٧٢هـ / ٩٨٢م، حيث عادت النزاعات الداخلية، التي خربت كل الإصلاحات، هذا إلى جانب سياسة الإقطاع التي ألقت بلا شك ظلالها على الاقتصاد بشكل عام.

أما في العصر السلجوقي:

فقد تدهورت الزراعة بسبب عدة عوامل كلها تنصب في السياسة الإقطاعية السلجوقية، ومن الممكن أن نلخصها في النقاط التالية:

أضحى الاقتصاد الزراعي كله في يد الطبقة العسكرية التي استولت على جميع أراضي السواد إقطاعيًّا، خاصة منذ تكريس الوزير السلجوقي نظام الملك لهذا النظام الإقطاعي، وقد أدى هذا النظام برمته إلى خضوع القطاع الزراعي لخدمة العسكر، كما اختفت الملكيات الزراعية، وبرز بدلًا منها الملكية الفردية، وأصبحت الملكيات العشرية والخراجية الكبيرة تحت سيطرتهم دون الطبقات الأخري، ما أدى بلا شكإلى تدهور الضياع تحت أناس ليس لهم خبرة برعاية الأرض الزراعية[٣].

---

(١)الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي، ٦٧، انظر أيضا؛ منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٤٧.

(٢)ذكر مسكويه العديد من إصلاحات عضد الدولة بنوع من التفصيل المستفيض؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤٤٩، ٤٥٠.

(٣)محمود إسماعيل، سيسولوجيا الفكر الإسلامي، ج٦، ص٥٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدى نظام التضمين وجباية الأرض الزراعية الخراجية قسرًاإلى نتائج في غاية القسوة على الناتج الزراعي، فنظام التضمين أدىإلى هروب عدد كبير من الفلاحين والمزارعين إلى مناطق أخرى هربًا من الضرائب الباهظة، ومن جور وعسف هؤلاء الإقطاعيين[١].

أفرز الإقطاع نظام السخرة، حيث سخر الإقطاعيون الفلاحين للعمل في المزارع والضياع، حتى عندما هرب الفلاحون من نير هذا النظام نجد السلطة السلجوقية تجد في طلبهم لعودتهم سريعًاإلى أراضيهم[٢].

أدت النزاعات والحروب الإقطاعية، أي الحروب بين الأمراء السلاجقة، والذين كانوا إقطاعيين في نفس الوقت ويتحكمون في المدن والمقاطعات،إلى تخريب عدد كبير من المزارع والأراضي الزراعية في السواد العراقي، وذلك بشهادة عدد من المعاصرين أمثال ابن الجوزي[٣] أو ابن جبير، الذي تحدث عن الأراضي التي مر بها في العراق والتي كان أكثرها خرابًا[٤]، وكان السبب الرئيسي في هذا هو الحروب الإقطاعية التي دمرت قسم من هذه الأراضي الزراعية كسياسة من سياسات الحرب بينهم.

كانت تقنيات الفلاحة نفسها تعاني هي الأخرى من عدم التطور، فوسائل الزراعة والري بقيت دون تطور فترة كبيرة، مما أدىإلى تدهور الإقطاع الزراعي تمامًا، وكان هذا الركود من نتائج عدم تشجيع القادة الإقطاعيين لذلك، حيث انصب جل اهتمامهم على جمع الأموال والضرائب الخراجية على هذه الإقطاعيات ودفعها للسلطة السلجوقية[٥].

أما عن أحوال الفلاحين فلقد كانت سيئة، وذلك بسبب نظام القنية والسخرة الذي فرضه بعض الإقطاعيين عليهم، كما لم يهتم الإقطاعيون بهم، وتدنت أحوال الفلاحين تدنيًا كبيرًا في عهد الإقطاع العسكري السلجوقي[٦].

كان هذا مسحًا شاملًا للزراعة في عهدي البويهيين والسلاجقة، وهو من أهم المظاهر الاقتصادية السلبية للإقطاع في ذلك العصر.

---

[١]الأعرجي، الإقطاع السلجوقي، ص١٣.

[٢]الزبادي، نظام الإقطاع العسكري، ص٣٤٢ وما يليها.

[٣]ذكر ابن الجوزي أمثلة كثيرة، فعلي سبيل المثال أثناء حصار طغرلبك لبغداد تم تدمير الكثير من الأراضي والمزارع حول بغداد؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١٦، ص٣ و٤.

[٤]ذكر ابن جبير أثناء رحلته إلي العراق أنه رأى أراض زراعية مدمرة خصوا في الجنوب العراقي ناحية الكوفة؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٧.

[٥]محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص٥٧.

[٦]الأعرجي، الاقطاع السلجوقي، ٣٤٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما عن الصناعة؛فسنلقي عليها نظرة سريعة حتى تكتمل الصورة، وفيما يلي مسحعام على أحوال الصناعة في العهدين البويهي والسلجوقي في نقاط مختصرة:

على الرغم من تدهور الزراعة إلا أن الصناعة شهدت بعض الازدهار في العصر البويهي، وربما كان هذا ناتجًاعناهتمام الأمراء البويهين، وهذا نخرج به بنتيجة مهمة،وهي أن الصناعة لم تتأثر كالزراعة بسياسة الإقطاع المباشر، خاصة في العهد البويهي الذي ازدهرت فيه الصناعة بشكل كبير[١].

كان لشعور الأمراء البويهيين بأن الصناعة مورد مهم لهم، فلم يطبقوا ما طبقوه على الزراعة، فربما كانت الأرض مظهرًا من مظاهر التسلط، لكن الصناعة لم تكن كذلك، بسبب الشعور الحر الذي تبنته الحركات الاجتماعية في العهد البويهي خاصة في الصناعة وتنظيمها[٢].

كانت الصناعة تتميز بأن وجد من يدافع عنها في المجتمع، فالعياريين وتنظيمات الصناعة كإخوان الصفا وغيرهم كانوا يدافعون عن الصناعة والحرفيين قولًا وعملًا، خاصة بعد إنشاء نقابات لتلك الحرف التي كانت تدافع حقًّا عن حقوق الصناع[٣].

ما يسميه الدكتور محمود إسماعيل بتمدد البرجوازية في العصر البويهي قد يكون صحيحًا في الصناعة والتجارة أكثر من الزراعة، وهو ما يراه الباحث، حيث خصت الصناعة بالطبقة الوسطى التي عنيت بها دون الزراعة، التي سيطر عليها الأمراء كنوع من السيطرة القبلية أو التسلط العسكري، فالمد البرجوازي أعطى حرية لرؤوس الأموال كي تعمل للصناعة مجدًا خاصًا بها، فانتشرت المصانع في مختلف المدن العراقية وازدهرت الصناعات المختلفة.

لذلك لم يكن للإقطاع وسياسته وفلسفته تأثير واضح على الصناعة خاصة في العصر البويهي[٤].

---

(١)محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص٦١.

(٢)محمود إسماعيل، سيسولوجيا الفكر الإسلامي، ج٢، ص٤٣.

(٣)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٩٩،١٠٠، ١٠٦،١٠٥، ١٠٧.

(٤)محمود إسماعيل، سيسولوجيا،ج٦ ، ص١٢٩ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما في العصر السلجوقي:

يختلف العصر السلجوقي تمامًا عن العصر البويهي في المجال الصناعي، فالناحية الإقطاعية تبرز في هذا العصر أكثر من البويهي، ربما لأن الإقطاع العسكري تكرس أكثر فأكثر خلال ذلك العصر حتى أصبح فلسفة حكم أكثر من كونه أسلوبًااقتصاديًا.

فنجد أن الصناعة تعرضت لهزات عنيفة في العهد السلجوقي، ومن خلال النقاط التالية سنبرز هذا التدهور:

أدت الحروب الإقطاعية بين سلاجقة إيران والعراق إلى تخريب المناجم ومصادر الثروات المختلفة، فعلى سبيل المثال أدت الحرب إلى توقف عمليات صيد اللؤلؤ في الخليج العربي، وتخريب الموارد الطبيعية وتوقف عمليات التعدين واستخراج المعادن، وبالتالي أدىإلى تدهور الصناعات المعدنية[١].

التسلط العسكري علىالصناعة كان من أهم مظاهره فرض الضرائب الباهظة على المصانع، مما أدىإلى تدهورها، وتدني أحوال العمال المطالبين بدفع ضرائب كبيرة على منتجاتهم، ولقد نبه الإمام الغزالي على نتائج هذا التسلط بقوله: "إذا خلا أهل البلد من الصناع تسارع إليها الهلاك"، وهو ما يدل على معاناة العمال وربما هروبهم من وجه السلطة السلجوقية[٢].

أدت الضرائب المتنوعة إلىانخفاض القوة الشرائية وانخفاض قيمة العملة، وهو ما أدى بضرورة الحال إلى تدهور الصناعة وارتفاع أثمانها، وهذا هدد الصناعة بشكل مباشر، فارتفاع قيمة الضرائب على الصناعة وغيرها أدىإلى إرتفاع أسعار المواد الخام، وهو ما ألقى بظلال ثقيلة على الصناعات المختلفة[٣].

أدت الضرائب أيضًا إلى تقليل أرباح الصناعة، فالهامش الربحي الذي نتج عن الصناعة كان يذهب جميعه إلى الخزانة السلطانية جراء الضرائب الباهظة التي فرضت عليهم، والتي لم تكن ثابتة، بل كانت مذبذبة نحو الارتفاع في كل مرة تفرض عليها[٤].

ما يسمى بضمان المدن الكاملة، والذي يذهب إلى خزانة السلطة السلجوقية، كان من نتائجه أيضًا تدهور المعامل والمصانع، حيث تفنن القادة الإقطاعيين في المدن المختلفة في العراق في

---

(١) محمود إسماعيل، سيسولوجيا الفكر الإسلامي، ج ٦، ص٦١.

(٢) أبو حامد الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق محمد أحمد دمج، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م، ص١٠٨.

(٣) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص٦١.

(٤) الأعرجي، الاقطاع السلجوقي، ص١٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استصفاء الأموال من الزراع والصناع والتجار من أجل دفع هذه الأموال المستحقة إلى الخزانة السلطانية، وبالطبع فقد كان القادة يدفعون جزءًا من هذه الأموال إلى الخزانة السلجوقية والباقي في جيوبهم الخاصة[1].

كل هذه العوامل أدت إلى تدهور الصناعة، وسنجد هذا التدهور في نوعية وجودة هذه الصناعات الإسلامية في ذلك العصر، فكل هذه الصناعات كانت تخدم القادة الإقطاعيين بحالة أو أخرى، فالصناعات الكمالية كالأنسجة أو العطور أو الصابون أو غيرها كانت تخدم قطاعًا كبيرًا من الطبقة العليا، أما الصناعات الحربية فقد كانت ضرورية ومطلوبة من هؤلاء القادة لاستمرار الحرب الإقطاعية، هذا إلى جانب منافسة الصناعات الأوربية والمستوردة الصناعات الإسلامية المحلية، وهو ما أدى لمزيد من التدهور.

أما عن التجارة والأسواق وحالتها والعملة في العصرين البويهي والسلجوقي، فقد خصص الباحث مبحثًا كاملًا لها، وهو المبحث التالي والمكمل بطبيعة الحال لهذه النقطة.

المبحث الثاني: أحوال الأسواق ونقص قيمة العملة في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

سنبدأ هذا المبحث المكمل للمبحث السابق، بمسح شامل وعام علىأسباب تدهور التجارة في العصرين البويهي والسلجوقي،ثم الحديث عن الأسواق خاصة المحلية والأنظمة المالية المرتبطة بها، كما سنختتم المبحث بالحديث عن قيمة العملة خلال العصرين، وأثره في تذبذب الأسعار وظهور المحن والأزمات الاقتصادية.

وبنظرة أكثر فحصًا، فسنبدأ منهجيًا بالعمل على الحديث بنظرة أوسع ثم تضيق أكثر فأكثر لمصلحة هذه النقطة البحثية، حيث سيقسم المبحث إلى عدة نقاط:

التجارة العراقية في العصرين البويهي والسلجوقي والعوامل المؤثرة فيها.

التجارة الداخلية والاسواق المحلية والأنظمة المالية التي ارتبطت بالأسواق أو التعامل المالي بها.

قيمة العملة خلال العصرين ونتائجه السلبية على الأسعار وظهور الأزمات الاقتصادية.

أولًا: التجارة في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

خلال نظرة واسعة متفحصة، سنجد أن التجارة الإسلامية عامة كانت مزدهرة في القرن الرابع الهجري، وهو القرن الذي شهد التسلط البويهي على العراق، لكن هذا القول بالطبع لا يشفي

---

[1] نفس المرجع السابق، ص١٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غليل الباحث عن الحقيقة، حيث شهدت التجارة في العصر البويهي اضطرابات كبيرة أثرت على التجارة بلا شك، خاصة التجارة الخارجية ومن ثم التجارة الداخلية أيضًا.

كان موقع العراق المتوسط بين الشرق والغرب عاملًا قويًا لدفع التجارة إلى الأمام منذ الفتوح العربية الإسلامية وحتى التسلط البويهي على الخلافة العباسية، وهذا جعل من تجارة النقل (الترانزيت) تجارة رائجة في العراق، واستخدمت الموانئ ومناطق العبور في هذه التجارة، ولسنا في صدد التأريخ للتجارة أو أنواعها أكثر من إبراز تعامل البويهيين مع هذه التجارة، وهل تأثرت التجارة بالاضطرابات في العراق أم لا؟

هذا السؤال يتضح عندما نعرف أن من جهود معز الدولة ثم خلفائه، القضاء على الاضطرابات التي أدت إلى إعاقة التجارة، حيث نجد أن التجارة تأثرت بالاضطرابات الاجتماعية وتعرضت القوافل للنهب والسلب، وهو ما أثر بطبيعة الحال على التجارة الدولية والداخلية.

ولقد عمل الأمراء البويهيون لتأمين التجارة،أمثال معز الدولة وعضد الدولة وغيرهم من الأمراء، لكن في عصر الضعف البويهي تأثرت خطوط المواصلات جراء هجمات البدو والجندعلى قوافل التجار[١]، وإذا بحثنا جيدًا في المصادر المعاصرة أمثال ابن الجوزي في المنتظم أو ابن الأثير في الكامل، سنجد أن قوافل التجار كانت تتعرض لاعتداءات كبيرة، ما أدىإلى توقف قوافل التجارة، بل وتوقف قوافل الحج، كما سنشير فيما بعد في ثنايا الفصول المتبقية من الدراسة..

وقد تأثرت العراق منذ العهد البويهي بعدة عوامل سلبية، كان لها الأثر في قلة التجارة الخارجية والداخلية على السواء، ونذكر منها:

شل حركة المواصلات وتعذر وصول البضائع والسلع الغذائية إلى كثير من المدن العراقية، بسبب تفشي ظاهرة اللصوصية والعياريين، والذي كانوا لا يتوانون عن مهاجمة القوافل التجارية، والاستيلاء عليها وفرض الإتاوات والمغارم، خاصة في الأوقات التي تعاني فيها الدولة من الضعف الشديد، ونذكر مثال على ذلك، ففي عام ٣٩٢/ ١٠٠١م، نجد أن الاضطرابات

---

[١]كانت هجمات الأعراب والقبائل العربية لا سيما في الجنوب العراقي في متناول الكتابات التاريخية المختلفة مثل ابن الجوزي الذي ذكر في حوادث عام ٤٧٩هـ هجوم الأعراب على قوافل التجار في الجنوب العراقي؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٦، ص٢٦١؛ وأيضا ابن الأثير الذي أفرد حديثا عن بني خفاجة الأعراب وتهديدهم بلاد الكوفة؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٨٠، ٨١؛ وأيضا ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٩ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاجتماعية التي قام بها العياريين في بغداد قد أثرت على التجارة، بسبب عمليات السلب والنهب التي قام بها العياريون والتي أدت إلى موجات غلاء في تلك السنة ونقص المواد الغذائية[١].

كما نجد مثالًا آخر في عام عام ٣٨٠هـ / ٩٩٠م، تعرضت أيضًا بغداد إلى توقف التجارة المارة بها بسبب هجمات العياريين الذين أشعلوا الفتن واشتركوا في الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة، وكان من نتائج هذه الاضطرابات حرق عدد لا بأس به من المحال التجارية في منطقتي باب البصرة والكرخ، ومن المعروف أنها مناطق تجارية[٢].

ولقد كان العياريون يشكلون بعض التجمعات في العراق مما يهدد التجارة الدولية والمحلية على السواء، فنذكر من ضمن الأمثلة عصابة عمران بن شاهين العيّاري[٣] الشهير، والذي قام بقطع الطريق أول الأمر، ثم فرض نفسه سياسيًا وأمنيًا على السلطات البويهية، ما أدىإلى تجريد عدد من الحملات في عهد معز الدولة ضده.

تصاعدت هجمات البدو على القوافل التجارية، وتشكيلهم مناطق نفوذ خاصة في مناطق البطيحة والحلّة والطريق الواصل بين الكوفة والبصرة، ومناطق هيت والأنبار وتكريت، وقد امتهن هؤلاء البدو اللصوصية، ومن أشهر القبائل التي قامت بالنهب والسلب ومهاجمة القوافل التجارية كانت قبائل الأكراد والبلوص والقفص والخرمية والجاشيكية،وكانت هذه القبائل خطرًا على التجارة الدولية خاصة التجارة الواصلة بين فارس وسجستان وكرمان من ناحية والعراق من ناحية أخرى، وقد أدت هذه الهجمات إلى تدهور التجارة إلى حد بعيد، حيث يقول الماوردي إن فقدان الأمن أتبعه قلة الصادرات والواردات، وهو ما أدىإلى ظهور المحن والأزمات الاقتصادية في العراق خلال ذلك العهد[٤].

ولقد عملت السلطة البويهية خاصة في عهد معز الدولة وعضد الدولة على القضاء على القبائل التي تهاجم هذه القوافل، فنذكر على سبيل المثال أن عضد الدولة شن هجمات عسكرية على هذه القبائل في أعوام ٣٥٩هـ و ٣٦١هـ / ٩٦٩و٩٧١م[٥]، وكان حينئذ حاكمًاعلى فارس، لكن هذه الهجمات كانت تهدف إلى تأمين التجارة الواصلة إلى العراق والآتية منها.

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٢.

(٢)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٢٥.

(٣)عمران بن شاهين هو أحد أكبر العياريين الذين هددوا الدولة البويهية في بدايتها، خاصة في عهد معز الدولة البويهي، وسيأتي ذكره تفصيليا في الفصل القادم؛ انظر مسكويه، تجارب الأمم، ج ٥، ص٢٩٢، وعن حصار البويهيين لعمران بن شاهين انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣٢٢.

(٤)منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٨٣.

(٥)انفس المرجع السابق، ٣٨٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يكتف عضد الدولة بذلك، فقد بنى المحارس والرباطات على طول الطريق، وقد أثبتت هذه النقاط الأمنية فعاليتها في السنوات التي حكم فيها عضد الدولة العراق، بل وشن هجمات على القبائل التي تقوم باستهداف التجارة الآتية من عمان باتجاه فارس والعراق على حد سواء[١].

وقد واصل خلفاء عضد الدولة جهودهم في القضاء على هذه الظاهرة، لكن الدولة البويهية سقطت فريسة للاضطرابات والانقسامات السياسية، التي أدت بدورها إلى تعطيل التجارة الدولة والمحلية في العراق وفارس.

كانت الحروب الداخلية بين الأمراء البويهيين تؤدي لا محالة لوقف التجارة بين المدن العراقية أو التجارة الدولية، فنجد أن تلك الحروب والاضطرابات كانت تؤدي إلى كساد التجارة، بل وتوقف قوافل الحج الذاهبة إلى مكة، فعلى سبيل المثال، في العام الذي بدأ فيه عضد الدولة يتدخل في الشأن العراقي، أي في عام ٣٦٤هـ / ٩٧٥م، تعرضت قوافل التجار إلى عدة هجمات من جند عضد الدولة، وكان ذلك مقصودًا، حيث كان يهدف إلىاضطراب الوضع في العراق لصالحه، وقد أدت هذه المشاغبات أيضًا إلى تعطل قوافل الحج لهذه السنة، وقد أدى هذا الوضع لتفاقم الأزمة المالية وأدىإلى غلاء في الأسعار ومجاعة ألمت بالناس[٢].

ونجد مثالًا آخر على توقف رحلات الحج والقوافل التجارية معًا بسبب الاضطراب الأمني والداخلي، وذلك في حوادث عام ٤٣٧هـ / ١٠٤٦م[٣]، والتي شهدت اضطرابات أمنية كثيرة وفتن اجتماعية بين السنة والشيعة، ما أدىإلى توقف رحلات الحج، وتوقف الرحلات التجارية،وكساد اقتصادي كبير، وتكرر الأمر على النحو السابق في عام ٤٣٩هـ / ١٠٤٨م[٤].

وقد بلغت الأزمة ذروتها عندما عزف الناس عن أداء فريضة الحج بسبب الاضطرابات الأمنية، حيث طالب الناس بفتح الطريق إلى الحج دون جدوى، وقد أثرت الكوارث الطبيعية أيضًا إلى إغلاق الطريق مثل الفيضانات والسيول أو الأمطار التي تعيق الحركة - كما سيأتي في حينه.

كان العامل الخارجي حاسمًا في كساد التجارة الدولية خاصة في مناطق الجزيرة الفراتية، حيث سيطر البيزنطيون على معظم الطرق الدولية وأغلقوها في وجه المسلمين[٥]، ولم يستطع حكام

---

(١)نفسه، ٣٨٤ و ٣٨٥.

(٢)مسكويه، تجارب الأمم ، ج٥، ص٤١٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣٥٢ وما يليها.

(٣)ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص١٠٤.

(٤)نفس المصدر السابق، ص١٠٧.

(٥)خاصة بعد الهزائم التي مني بها الحمدانيون من البيزنطيين، خاصة في الفترة في عامي ٣٥٣-٣٥٤هـ، حيث تضعضعت القوة الحمدانية وسيطر البيزنطيون على الثغور الإسلامية؛ انظر أحمد عدوان، الدولة الحمدانية، ص٢٧٤ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدولة البويهية من فتح هذه الطرق، ويبدو أن هذا العصر كان عصر الحصار الاقتصادي على الشرق جله، حيث كانت هذه السياسة متبعة في أوربا التي بدأت بالهجوم على أطراف العالم الإسلامي، ومنعت عنه الموارد اللازمة مثل الحديد والأخشاب وغيرها،ما أدى إلى تدهور سريع لبعض الدول مثل الدولة البويهية في فارس والعراق والفاطمية في مصر والشام[١].

أضحت الضرائب المفروضة على التجارة إبان العصر البويهي عاملًا كبيرًا في تدهور وكساد التجارة، وهو ما سنفصله في حينه أثناء الحديث عن الضرائب والاحتكار في المبحث الثالث.

أما في العصر السلجوقي:فقد تتشابه العوامل السابقة مع العوامل المؤثرة في كساد التجارة في هذا العصر والتي نلخصها في الآتي:

كانت سياسة التغريم والإتاوة والجباية، التي تميزت بها السلطة السلجوقية على الزراعة والصناعة انعكست أيضًا وامتدت للتجارة سواء المحلية أو الدولية، فيما نسميه فلسفة الإقطاع السلجوقي، وتحكم القادة العسكريين في شتى مناحي الحياة الاقتصادية، وهو ما أدى إلى تدهور التجارة، كما أن التعويض الذي هدف إليه السلاطين السلاجقة للخزانة السلطانية، وهو تعويض الخراج من الأرض الزراعية بسبب تحويلها إلى إقطاعات عسكرية،انصبَّعلى التجار والقوافل التجارية والتي خرجت منها أموال على هيئة ضرائب كانت كفيلة بسد النقص في الخزينة، ما أدى إلى ارتفاع أسعار السلع والبضائع المختلفة، ومن ثم كساد للتجارة[٢].

تعرضت التجارة الداخلية لهزة عنيفة لأسباب عدة، فقد كان أول هذه الأسباب الحروب بين السلاطين ومنازعيهم من القادة على حكم البلاد،ما أدىإلى غلق الطرق في وجه التجارة والحج على السواء[٣]، أما السبب الثاني هو شغب العسكر والجند في المدن المختلفة، لا سيما بغداد، فكثير من الأسواق البغدادية تعرضت للنهب والسلب والحرق على يد هؤلاء الجند، الذين كانوا يناصرون قائدًاضد قائد،أو يناصرون سلطانًاعلى من سواه من المنازعين، أو يطالبون برواتبهم وأعطياتهم[٤].

---

(١)محمود إسماعيل، سيسولوجيا ، ج٦، ص٦٢.

(٢)الأعرجي، الإقطاع السلجوقي، ص١٥و ١٦.

(٣)نفس المرجع السابق، ص١٩.

(٤)يذكر ابن الأثير علي سبيل المثال: أن الجند الأتراك كانوا كثيري الشغب بسبب الأعطيات والرواتب وهذا ما حدث في حوادث عام ٤٤٦هـ اي في أواخر العهد البويهي، ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص٣١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعرضت الأسواق الداخلية أيضًا إلى تقييد لحرية بعض التجار غير المسلمين من النصارى واليهود، بسبب تحريض الفقهاء السنة للسلاطين السلاجقة للحد من نفوذ هؤلاء التجار[1]، لم تكن هذه الظاهرة فقط، بل نجد أن التناحر المذهبي أثر على الأسواق بشكل كبير، وهو ما سنتحدث فيه لاحقًا.

اقتصرت التجارة الخارجية على الكماليات والسلع الترفيهية، والتي كانت تجلب خصيصًا للطبقات الحاكمة والعليا، وكان هذا مظهرًا من مظاهر التدهور.

أصبحت العراق محاصرة من الغرب، حيث الصليبيين الذين قطعوا طريق البحر المتوسط الدولي، والشرق حيث طريق الحرير غير الآمن بسبب الحروب السلجوقية الداخلية، والجنوب حيث الاضطرابات التي قام بها البدو الأعراب داخل العراق، وخاصة جنوبه أو في الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، ما أدىإلى مزيد من تدهور التجارة، وبالتالي غلاء الأسعار والمحن الاقتصادية.

كان هذا ملخصًا عامًّا لحالة التجارة البويهية والسلجوقية، وأهم العوامل السلبية التي أدت إلىتقلص النشاط التجاري وتدهوره، ومن ثم ظهور المحن والأزمات الاقتصادية، لذلك ستكون النقطة البحثية الثانية في هذا المبحث، للحديث عن الأسواق الداخلية، وماعانت منه هذه الأسواق ماليًا وماديًا.

ثانيا: أحوال الأسواق العراقية خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

سنتعرض للحديث عن الأسواق العراقية من حيث ما تعرضت له من مخاطر كان لها الأثر العميق في غلاء الأسعار وظهور الأزمات الاقتصادية، وما ارتبط بها من معاملات مالية أيضًا، وهذا سنلخصه في النقاط التالية:

الأسواق وتعرضها للنهب والسلب والحرق جراء هجمات اللصوص والعياريين.

الأسواق وتعرضها للتخريب بسبب الفتنة بين السنة والشيعة.

المعاملات المالية وأثرها في الأسواق.

الأسواق العراقية وتعرضها للنهب والسلب جراء هجمات اللصوص والعياريين:

لقد كان العياريون من أهم الحركات الاجتماعية خلال العصرين البويهي والسلجوقي، ولن يدخل الباحث في تفاصيل سرد تاريخ هذه الحركة؛ لأن مبحثًا كاملًا سيتحدث عنهم بالتفصيل، وأثرهم

---

[1] محمود إسماعيل، سيسولوجيا، ج٦، ص٦٤.

في المجتمع العراقي وظهور الأزمات الاقتصادية فيه، لكن سينصب جل الاهتمام في هذه النقطة البحثية على أثر هجمات العياريين على الأسواق العراقية.

فلقد تعرضت الأسواق العراقية لا سيما الأسواق البغدادية لعدة هجمات من العياريين، تفاوتت شدتها حسب الحدث الذي كان موجودًا، بل تفاوت المغرم والإتاوات التي كان يفرضها زعماء العياريين على التجار داخل الأسواق.

فلقد كان للعياريين دورًا في هياج العامة ضد السلطة من ناحية، وضد بعضهم البعض من ناحية أخرى، ولقد اتخذوا الأسواق ملجأ لهم، وهو ما عرض هذه الأسواق للحرق والنهب، وهو بدوره من أهم ظهور الغلاء والمجاعات وغيرها من الأزمات، وفيما يلي بعض النقاط السردية حول هذه النقطة:

في عام ٣٦١هـ / ٩٧١م، قام العياريون بانتفاضة ضد السلطات البويهية التي رأوها متقاعسة في صد هجوم البيزنطيين، وفي أثناء تلك الانتفاضة احتلوا الأسواق وقاموا بعمليات نهب وسرقة واسعة[(١)].

عام ٣٨٤هـ / ٩٩٤م،ازدياد أمر العياريين خاصة في منطقتي الكرخ وباب البصرة، وقادهم رجل يدعى عزيز البابصري، وقد قاموا بنهب محال تجارية في سوق الكرخ، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا الإتاوات والضرائب على التجار والباعة في الأسواق[(٢)].

وفي عام ٤١٦هـ / ١٠٢٥م، انبسط العياريون في بغداد بقيادة أبو علي البرجمي العيّار[(٣)]، والذي كان بمثابة حاكم مستقل يقود العامة إلى الفوضي، حيث أدت الفوضى تلك - والتي استمرت شهورًا متتابعة - إلى الغلاء وقلة الأقوات من الأسواق.

وفي عام ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م، قام العياريون بالكبسعلى عدة محال تجارية في جميع الأسواق البغدادية، وذلك بسبب نقصان نهر دجلة وروافده، مما أدىإلى قلة الأقوات والسلع الغذائية الضرورية، ما أدىإلى نهب المحال من اللصوص والعياريين الذين كانوا يبحثون عن الغذاء فيما يبدو[(٤)].

---

(١)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣٣٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص٣٢٣؛ ابن الجوزي، المنتظم،ج١٤، ص٣٦٩.

(٣)ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص١٥٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٥٠؛ ابن الجوزي،المنتظم، ج١٥، ص١٧٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص١٩٦ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١م[١]، تعرضت بعض المؤسسات الحكومية التي كانت تتبع الخلافة لعمليات نهب وسلب، وقد امتدت هذه السرقة إلى المحال التجارية في عدد من الأسواق، وكان العياريون من القوة بحيث يقومون بالسيطرة المتكررة على الأسواق وغيرها، وذلك بسبب ضعف السلطة البويهية في هذه الأثناء.

وفي عام ٤٤٤هـ /١٠٥٢م، قام الطقطقي العيّاري الزيبق بالكبس على الأسواق وأخذ الإتاوة من أصحاب الحوانيت والمحلات، ما أثر في الحالة الاقتصادية في الأسواق وعملية البيع والشراء[٢].

وقد استمرت هذه الهبات التي قام بها العياريون في العصر السلجوقي، ففي عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م، قام العياريون بنهب الأسواق في الجانب الغربي من بغداد، ما أدىإلى سوء الأحوال المعيشية للعامة في تلك السنة.

تكررت الظاهرة في عام ٤٩٧هـ / ١١٠٣م، حيث نهب العياريون الأسواق الغربية من محال تجارية وفرض للإتاوات، وذلك على إثر الاضطرابات الداخلية للدولة السلجوقية وانسحاب الشرطة من الأحياء الغربية البغدادية.

وفي ٥١٢هـ / ١١١٨م، قام العياريين بالنهب والسلب في الجانب الغربي من بغداد، ما أدىإلى تحرك فوري من السلطة السلجوقية متمثلة في نائب الشحنة، الذي حاربهم بخمسين جنديًا تركيًا، ولكنه انهزم، واستمرت الاشتباكات لمدة يومين، نهب فيها العياريون بعض الأحياءوالأسواق.

كل هذه الأمثلة توضح لنا كيف أن الأسواق تأثرت بالحالة الداخلية للبلد، كما تأثرت بالعياريين الذين كانوا نتيجة ضرورية لهذه الحالة، وقد شكلت النتائج كارثة على الناس من حيث ارتفاع أسعار المواد الغذائية، وانتشار المجاعات، وهجرة الناس من المدن العراقية المختلفة، ونقص قيمة العملة وغيرها من النتائج التي سيتحدث عنها الباحث كل في مكانه.

الأسواق وتعرضها للتخريب بسبب الفتنة بين السنة والشيعة:

كانت الخلافات المذهبية وانتشارها من نتائج التسلط العسكري البويهي على العراق، فبعد دخول البويهيون إلى بغداد ظهرت الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة.

صحيح أن الخلافات كانت موجودة قبل دخول البويهيين الشيعة إلى البلاد، لكنها لم تكن متكررة أو عنيفة، ولم تنتصر السلطة الحاكمة لطرف على حساب طرف مثلما حدث في عهد البويهيين

---

(١)نفسه، ص٢١٣.

(٢)نفسه، ص٣٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشيعة، والذين أظهروا المظاهر الشيعية بشكل استفز الجانب الآخر من السنة، وهو ماأدى بطبيعة الحال إلى النزاع والصراع، والذي كانت الأسواق ملعبًا من ملاعبه.

تعرضت الأسواق في هذه النزاعات - كما سنرى- للحرق والنهب والسلب، سواء على أيدي السنة والشيعة أو على يد السلطة التي تتدخل لإنهاء الاشتباكات، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلىانهيار للحالة الاقتصادية، وارتفاع الأسعار وغيرها من المظاهر.

وفيما يلي بعض الأمثلة على هذا الصراع، والذي سنتناوله بالتفصيل في الفصل القادم في مبحث مستقل خصيصًا للفتن بين الطرفين،أما هذه الأمثلة التالية فتكون لإبراز معاناة الأسواق في هذا الصراع، وهي فيما يلي:

كانت أول الإشارات لإدخال الأسواق في هذا الصراع، هو قرار معز الدولة البويهي - رأس السلطة آنذاك - بتعطيل كافة الأسواق في ذكرى عاشوراء في عام ٣٥٢هـ / ٩٦٣م[١]، من أجل الاحتفال بهذه الذكرى الشيعية، وهو ما يدل علىاستخدام الاسواق في هذا الصراع، فتعطيل الأسواق وحركة البيع والشراء وإغلاق الحوانيت ومنع الطباخين من الطبخ، ناهيك عن أنه سيؤثر مؤقتًاعلى الحالة الاقتصادية، لكنه سيبرز أيضًاحالة النزاع الشعبي بين الطرفين داخل الأسواق كجزء من المشهد العام للصراع.

وبداية الاشتباكات التي أثرت على البيع والشراء والمحال التجارية كان عام ٣٦٣هـ / ٩٧٣م،إذ أدت هذه الاشتباكات إلى حرق المحال التجارية، ما أدىإلى خسارة اقتصادية كبيرة[٢].

ومن المعروف أن حي الكرخ الشيعي كان حيًا تجاريًا كبيرًا، فهو معدن التجار ومركز الشيعة[٣]، لذلك كانت الاشتباكات التي تقام فيه من فترة إلى أخرى سببًا في خسارة التجار بضائعهم بسبب النهب أو الحرق، وكثير من الاشتباكات المذهبية بين السنة والشيعة كان الكرخ يشهد قسمًا كبيرًا منها، ومن هذه الاشتباكات التي أدت إلى خسارة اقتصادية كبيرة ما حدث عام ٣٩٠هـ / ٩٩٩م[٤]، حيث تدخل الجند الأتراك في تلك الاشتباكات واقتحموا حي الكرخ.

---

(١)ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٧٩؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٥٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٦.

(٢)ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٨٦؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ص١٥٥؛ ابن كثير، المصدر السابق ٢١٨.

(٣)اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٦.

(٤)خالد يونس الخالدي، الحرب الأهلية بين السنة والشيعة في العصر العباسي، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩، ص١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي عام ٤٠٨هـ / ١٠١٧م[١]، شهدت بغداد اشتباكات عنيفة بين السنة والشيعة في حي الكرخ وفي منطقة نهر القلائين،ما أسفر عن حرق المحال التجارية والدكاكين في الأسواق،بالرغم من إقامة الحواجز بين الطرفين والتي قامت بها الشرطة والأهالي على السواء، لكن شدة الاشتباكات أدت إلى حرق الأسواق في المنطقتين.

و في عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م[٢]،اقتتل الطرفان في حي الكرخ،ما أسفر عن بعض الخسائر المادية والاقتصادية، وتكررت بعدها بعام أي في ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م[٣]إذ أسفرت الاشتباكات عن خسارة اقتصادية في الأسواق البغدادية، بسب نهب أموال التجار الشيعة،إذ نودي في الأسواق أن نهب أموال الشيعة حلال.

وهكذا نري أن وسائل النهب والسلب كان يقوم بها أحد الطرفين لإيذاء الآخر اقتصاديًا، والحد من نفوذه، وهو الأمر الذي أدى في النهاية إلى خسارة اقتصادية فادحة للجميع.

وفي عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، أسفرت الاشتباكات عن حرق المحلات التجارية في الأسواق ونهب ما فيها من مواد غذائية ضرورية[٤].

ونجد أن السلطات السلجوقية قامت بجهود كبيرة لاقتلاع الفتنة بين السنة والشيعة من جذورها، ونجحت في الحد منها، وذلك يختلف كلية عن السلطات البويهية التي شجعت الفتنة بسياستها المنحازة إلى الشيعة، لكن هذا سيناقشه الباحث في الفصل القادم.

لكن هذا لا يمنع أن الفتن قامت في العهد السلجوقي الطويل، وأدت الاشتباكات كالعادة إلى خسارة اقتصادية كبيرة في القطاع التجاري بسبب حرق المحال التجارية والهجوم على الأسواق.

معظم المصادر المعاصرة التي تحدثت عن هذه الاشتباكات وسلطت الضوء عليها، لم تذكر إلا يسيرًا عن الاشتباكات بين السنة والشيعة في المدن العراقية الأخرى، فربما ركزوا على بغداد لأنها قلب الخلافة والعراق النابض، ومن الطبيعي عندما تبرز مشكلة ما في العاصمة ضروري أن يمتد إلى باقي المدن العراقية، فمن ضمن الإشارات ما ذكرته المصادر في حوادث عام ٤٠٧هـ / ١٠١٦م[٥]، في مدينة واسط والتي كانت تحكمها إمارة بني مزيد، حيث قام السكان

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٢٥.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ٢٤١.
(٣)نفس المصدر السابق، ٢٥٦.
(٤)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٤ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٦.
(٥)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السنة بانتفاضة ضد الشيعة أسفرت عن حرق المحال التجارية في الأسواق التي توجد في الأحياء الشيعية، ما أدىإلى خسائر اقتصادية كبيرة في هذه الأسواق.

ومن هذه النقاط يتبين كيف عانت الأسواق من هذه الفتن، سواء حرقًا أو نهبًا أو إغلاقًا، ما أدىإلى ركود الاقتصاد في العراق، وبالتالي كانت له تأثيراته العميقة على حياة الناس.

المعاملات المالية وأثرها في الأسواق العراقية:

هذه النقطة البحثية تصنف المعاملات المالية في الأسواق العراقية خلال العصرين البويهي والسلجوقي، لتكون مدخلًا للنقطة البحثية الأخيرة في هذا المبحث، وهي نقص قيمة العملة في العراق خلال هذه الفترة.

فالنظام المالي العراقي سواء في عهد البويهين أو السلاجقة، كان مرتبطًا بلا شك بالمجالات الاقتصادية المختلفة ومن ضمنها الأسواق، وبالتالي يمكن ربطها بشكل أو بآخر بالعملة وقيمتها الشرائية، وبالتالي لإبراز نتائجها على حياة الناس من ظهور الأزمات والمحن، وهو ما يهمنا في هذه الدراسة.

وسنعدد الأنظمة المالية المختلفة وارتباطها بالأسواق والعملة في التصنيفات التالية:

نظام الصيرفة:

يعتبر نظام الصيرفة قديمًا في العراق، واتخذ أشكالًا متعددة ليس لنا في هذا المقام ذكرها، سوى ما يرتبط بالتجارة العراقية في العهد البويهي والسلجوقي، وقد عمل بالصيرفة فئات من العراقيين سواء في القرن الرابع الهجري أو ما يليه،إذ عمل النصارى واليهود بالصيرفة، ثم زاحمهم المسلمون في هذا العمل[١].

ولقد اعتمد نظام الصيرفة على قبول الودائع من الأشخاص، وفي المقابل يأخذ المودعون صكًّا بقيمة هذه الأموال، ويصرفون النقود فيما بعد حين يريدون، وهو ما يشبه نظام البنوك الآن، بل امتد عملهم إلى تسليف وإقراض الناس أو الحكومات أيضًا في ظل الأزمات المالية، ويقومون بالواسطة بين دار الضرب والعامة، فهم بالأساس يتعاملون مع الناس أكثر من معاملتهم مع دور الضرب التي تعطيهم النقود ليس إلا حسب طلبهم[٢].

---

(١)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٨٥.
(٢)الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٨٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ارتبطت الصيرفة بالنشاط الاقتصادي الزراعي والصناعي والتجاري، فكان الصرافون يقبلون الودائع من الموسرين، سواء نقودًا او مجوهرات ثمينة وبذلك يتبين أن رأس مال الصيرفة كان كبيرًا بسبب هذه الودائع، وأن المبالغ الضخمة تلك استخدمت كموارد ضخمة للإقراض وغيرها.

ولقد كانت عملية الإيداع تلك تنشط الاستثمار في جميع المجالات خاصة في الدخول في المضاربات وتأسيس الشركات التي كان ينشئها التجار حفاظًاعلى مصالحهم التجارية، ولقد كانت تلك الأموال المقترضة من المصارف خير معين على إنشاء هذه الشركات[١].

ولقد أورد التنوخي على سبيل المثال أمثلة على الإقراض، حيث ذكر أن عملية الإقراض عن طريق رقاع وهي تشكل مستندات على عملية الإقراض وإقرار من المصارف بذلك[٢].

وتعتبر بيوتهم المالية تلك مرتبطة أيضًا بالأسواق المحلية، فكثيرًا ما نجد هذه البيوت المالية في وسط وداخل الأسواق التجارية، فهي جزء من العملية التجارية العامة، بل وتنشطها في بعض الأحيان، فعلى سبيل المثال توجد بعض المحال الصيرفية في الكرخ مثل منطقة درب عون التي يوجد بها أكثر من بيت مالي صيرفي[٣].

وهكذا نرى أن عملية الصيرفة كانت جزءًا من العملية التجارية، وارتبطت بشكل أساسي بالعملة والتعامل التجاري.

الجهبذة:

وهو نظام مالي أيضًا قريب الشبه بالصيرفة، فقد اختلف الباحثون على معنى اسم الجهبذ، فمنهم من صنفوه أنه كاتب مالي، أو صيرفي، أو ناقد؛ أي الرجل الذي يعطي المال في المصرف، أو كاتب للخراج الزراعي،أو صاحب المصرف أو البيت المالي،والذي يبدو أنه المسمى الأدق لوظيفة الجهبذ[٤].

وما يهمنا في هذه الوظيفة أن الجهبذة صارت قبيل العهد البويهي وما بعده ضرورية للحكومة، حيث كثيرًا ما لجأت الحكومة أثناء الأزمات المالية إلى الاقتراض من الجهابذة الذين كانوا تجارًا بالأساس، وما يهمنا بالفعل أن الجهبذة شكل من أشكال اقتصاد العملة، وارتباط طبقة التجار بها.

---

(١)النفس المرجع السابق، ص ١٩٠

(٢)التنوخي، نشوار المحاضرة، ج٨، ص٢٧١.

(٣)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٩٥.

(٤)نفس المرجع السابق، ص١٨٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السفتجة[١]:

والتي تعني حديثًا التحويل المالي من مدينة إلى مدينة ومن بلد إلى آخر، وقد نشأ نظام السفتجة للحفاظ على أموال التجار في أثناء سيرهم بالقوافل التجارية في الأساس، فقد كان التجار يخافون على أنفسهم من السرقة والنهب أثناء الطريق خاصة في الاضطرابات الأمنية التي شهدها العراق، لذلك كان التاجر يعطي المال في بلده لمصرف مالي،على أن يأخذ نفس المال بصك آخر في البلد الذي يذهب إليه، وهكذا نعرف أن بعض المصارف كانت ترتبط ببعضها البعض في المدن المختلفة، وهو ما يعرف حديثًا بشبكة المصارف والبنوك.

ولقد استخدمت السفتجة أيضًا كنظام مالي لتصفية وتسوية ديون التجار بينهم، واستخدمت أيضًا في التحويل المالي بين العامة، فقد كان نظامًا ماليًّا شعبويًّا أكثر من النظامين السابقين – الصيرفة والجهبذة[٢].

وهكذا نرى في هذا التلخيص الموجز لأهم الأنظمة المالية التي استخدمها التجار، والتي كانت ترتبط بشكل مباشر وغير مباشر بالأسواق المحلية العراقية، وقد ساعدت هذه الأنظمة المالية في تنشيط الحياة الاقتصادية، غير أنها عانت هي الأخرى أثناء المحن والأزمات الأمنية والسياسية والاجتماعية من سلبيات أثرت بالضرورة على الحياة الاقتصادية.

وبسبب ارتباط هذه الأنظمة المالية أيضا بالعملة بشكل أساسي ومباشر، كانت مدخلًامهمًا للنقطة البحثية المقبلة، وهي نقص قيمة العملة، والتي نبحثها في السطور القليلة القادمة.

ثالثًا:نقص قيمة العملة في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

لقد كانت الأسباب السياسية والاجتماعية والأمنية مجتمعة في زيادة تدهور الأحوال الاقتصادية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي، وقد كان نقص العملة مظهرًا من مظاهر هذه الأحوال الاقتصادية المتدهورة، وهو ما سنعنى به في هذه النقطة من البحث.

مظاهر نقص قيمة العملة في العصر البويهي:

كانت قيمة العملة تتحدد عن طريق النقاء المعدني لها في هذا العصر، وعليه تتحدد القيمة الشرائية لها،فقد كانت العملة البويهية تتكون من الذهب في حالة الدينار والفضة في حالة الدرهم كجميع النقود الإسلامية على مدار التاريخ.

---

[١]نفسه، ١٩٥،١٩٦.

[٢]الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٩٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما عن النقود البويهية، فقد كانت الدراهم والدنانير البويهية لها نسبة ثابتة من حيث الوزن، وعليه من حيث القيمة، فقد شكل الذهب في الدينار البويهي نسبة تتراوح بين ٩٦- ٩٨ % من قيمة الدينار الواحد، وهي نسبة عالية وجيدة(١)، أما الدرهم فكان يتراوح نسبة الفضة في الدرهم الواحد نحو ٩٠ - ٩٩%، وهي نسبة جيدة أيضًا من حيث القيمة الشرائية(٢)، وعليه نخرج بنتيجة أن العملة البويهية كانت عملة قوية من ناحية النقاء، وبالتالي الناحية الشرائية للدرهم والدينار على السواء.

وكانت قيمة العملة في العموم يتحدد فيها عوامل كثيرة من أجل الوصول إلى هذه النسب التي تؤثر في الاقتصاد، فقد شهد العهد البويهي تذبذب في قيمة العملة وصل إلى حد الانهيار في بعض الأوقات، وذلك بسبب الظروف السياسية الداخلية والخارجية، وأيضًا الكوارث الطبيعية، وزيادة متطلبات الجيش والجند البويهي، والتي أدت إلى فراغ الخزينة في بعض الأوقات،أو الاضطرابات الأمنية التي أدت إلى توقف حركة التجارة الداخلية والخارجية،ما أثر على المعاملات المالية، كل هذه العوامل السابقة أدت بلا شك إلى تلاعب الحكومة البويهية في العملة لتغطية العجز، وبالتالي قلة القيمة الشرائية مع الوقت(٣).

فالنسب السابقة لم تستمر على هذا المنوال طوال العهد البويهي، فاتجهت نحو الانخفاض،فقد تلاعبت الحكومة في العملة حتى جعلت نسبة الذهب في الدينار البويهي نحو ٧٠%، ثم أقل من ذلك، حتى عرف عن العهد البويهي أن العملة كانت بها الكثير من المعادن الرخيصة على حساب الذهب أو الفضة الخالصين، وهو ما أثر في قيمة النقد والشراء في الأسواق(٤).

وفيما يلي بعض مظاهر هذا التدهور:

وصل الدرهم التاجي في عهد عضد الدولة البويهي إلى أدنى مستوى له منذ قيام الدولة البويهية، بالرغم من تحسن الاقتصاد في عهد عضد الدولة، وكان من نتيجة تدهور هذا الدرهم عدم قبوله في أسواق الصرف المصرية، والتي كانت - فيما يبدو - يقاس علىأساسها قيمة العملة البويهية وغيرها من العملات(٥).

---

(١)منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٨٨.

(٢)نفسه، ص٣٨٨.

(٣)منيمنة، الدولة البويهية، ص٣٨٩.

(٤)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٤٧؛ انظر حواشي نفس الصفحة.

(٥)نفس المرجع السابق، ص٢٤٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت الدنانير والدراهم العراقية في أغلب الأحيان لم تكن مساوية للدينار الذهبي المصري، والذي كانت قيمته عالية للغاية، فعلى سبيل المثال وصلت قيمة الدينار العراقي البويهي بالنسبة للدينار المصري إلى ٨٠%، وذلك في عام ٣٦٢هـ / ٩٧٢م[١]، وهو ما يدل على قلة قيمة هذا الدينار، حتى وصل الأمر - كما أشرنا في النقطة الأولى- إلى عدم قبوله في التعامل المالي في الأسواق المصرية.

وصل الدينار البويهي لنحو ١٥٠ درهم، وهي أكثر النسب إنخفاضًا في هذا الوقت، وذلك بسبب التلاعب في قيمة الذهب في هذا الدينار، وهذا كان في زمن بهاء الدولة البويهي في عام ٣٨٩هـ / ٩٩٨م، وقد استمرت ظاهرة عدم نقاء العملة في عهد بهاء الدولة حتى وصلت أحيانًا درجة النقاء الذهبي والفضي نحو ٥٦% من قيمة العملة[٢]، وإلى النصف في بعض الأحيان، وهو ما أدىإلىانهيار قيمة العملة وكساد التجارة والتعامل المالي في السوق، والمصارف وغيرها.

وصول الدينار القاساني - وهي أحد العملات العباسية - إلى نسبة شديدة من السوء حتى وصل إلىانخفاض قيمته الذهبية لنحو ٤٠%، وهو ما أدىإلى مزيد من الأزمات وغلاء الأسعار[٣].

حاولت الحكومة البويهية في العراق بقيادة عميد الجيوش ضرب دراهم جديدة لإنقاذ الموقف، لكن دون جدوي، فقد كانت هذه الدراهم ليست خالصة في قيمة الفضة المضافة إليها، وهو ما أنعش السوق السوداء في ذلك الوقت بالتعامل بعملة مغشوشة مخلوط بها الكثير من النحاس[٤].

في عام ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م تعرض الدينار الركني - وهو أحد العملات البويهية المنتشرة - إلىانهيار شديد؛ بسبب جعل الذهب نصف قيمته فقط، وأصبح النصف الآخر من المخلوط نحاسًا، وهو ما أدىإلىانهيار القيمة الشرائية، وبالتالي انهيار الاقتصاد وحركة البيع والشراء في الأسواق[٥].

نجد في كثير من الأحيان أن التجار في العراق وغيرها من البلدان التي خضعت للدولة البويهية يضطرون للتعامل بالدنانير والدراهم الفاطمية المصرية، والتي كانت تشكل درجة أقوى من حيث النقاء المعدني وبالتالي القيمة الشرائية، مما جعل الدولة تحارب هذه الدنانير في الأسواق، وذلك لأسباب سياسية، مثل منع النفوذ الفاطمي في العراق، أو اقتصادية لتحافظ على هيبتها

---

[١]نفسه، ٢٤٧.

[٢]منيمنة، الدولة البويهية، ٣٨٩.

[٣]نفس المرجع السابق، ص٣٩٠.

[٤]نفسه، ص٣٩٠.

[٥]الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاقتصادية[1]، وكان البويهيون في هذه الحالة يحثون التجار على التعامل بالدنانير التي سكتها دار الضرب التابعة للخليفة مثل الدينار القادري والسابوري والقاساني وغيرها.

كان السبب الرئيسي لانهيار العملة هو سيطرة الدولة الفاطمية في مصر على مناجم الذهب السودانية من ناحية، والحرب الدائرة في الشرق حيث الدولة الغزنوية الفتية، والتي قامت بالاستيلاء على مناجم الفضة الفارسية[2]، وهو ما أدىإلى نقص المعادن الرئيسية في دور الضرب البويهية، وبالتالي اضطرار الدولة للتلاعب بالعملة، هذا إلى جانب المتطلبات التي كانت تلح على الدولة البويهية لإنقاذ الموقف خاصة لسد حاجة مرتبات وأعطيات الجند البويهي، الذي كان سريع الغضب من قواده في حالة نقص المرتبات.

أدى هذا التدهور في قيمة العملة إلى غلاء في الأسعار، حيث تعددت موجات الغلاء في العهد البويهي،مما سيأتي مفصلًا عند الحديث عن موجات الغلاء في الفصل الرابع.

مظاهر نقص قيمة العملة في العصر السلجوقي:

نفس القول ينطبق على العصر السلجوقي، حيث شهدت العملة وقيمتها تذبذبًا في الارتفاع والانخفاض وفقًا لعدة عوامل، من بينها السياسة والأحوال الأمنية، وأيضًا الفتن الاجتماعية التي كانت تؤثر على التجارة وبالتالي على العملة وقيمتها.

ويمكن أن نوجز مظاهر نقص قيمة العملة في العصر السلجوقي في هذه النقاط:

كان على السلاجقة أن يؤكدوا سيادتهم السياسية بعد دخول العراق، وذلك بإقامة الكثير من دور ضرب النقود، وإلغاء شخصية الخلافة النقدية تمامًا، حيث كانت تملك الخلافة العباسية الكثير من دور الضرب في العهد البويهي، وكانوا يصدرون بعض العملات التي يتعامل بها التجار، وقد اختلفت سياسة السلاجقة مع الخلافة العباسية من هذه الناحية عن البويهيين[3].

وقد هدف السلاجقة من البداية لمنع التجار والناس من التعامل بالنقود العباسية، وذلك لضمان صب كل المنافع النقدية والاقتصادية في الخزينة السلجوقية، وبالفعل كانت تدر عليهم مبالغ وفيرة[4].

---

(١)منيمنة، الدولة البويهية، ٣٨٩.

(٢)نفس المرجع السابق، ص٣٩٠، ٣٩١.

(٣)الأعرجي، الإقطاع العسكري، ص١٩.

(٤)نفس المرجع السابق، ص٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سياسة العسف والجور والشدة الاقتصادية التي كانت تعاني منها العراق في العهد السلجوقي، خاصة في أوقات الخلافات الداخلية، لا سيما بينها وبين الخلافة العباسية، أثرت في قيمة العملة، فنجد أن عام ٥٢١هـ /١١٢٧م صدر قرار من السلطان محمود بإنشاء دار جديدة لضرب العملات السلجوقية في بغداد[1]، وأصدر أوامره بقتل كل من يرفض التعامل بديناره، وهذا يدل على أمر مهم، وهو سياسة الشدة والغصب التي قامت بها السلطنة السلجوقية تجاه التجار والناس في التعامل مع دينار في أغلب الأوقات كان ناقصًا في قيمته المعدنية والشرائية، وكان جُل همها ينصب في تأكيد السيادة ومظاهرها فقط دون حل عميق للأزمة الاقتصادية التي كانت تمر بالناس جراء ذلك.

على الناحية الأخرى كانت الخلافة العباسية تحارب السلاجقة على جميع المستويات كنوع من إرجاع نفوذها على حساب السلطنة التي كانت تعاني من ضعف في بعض الأوقات، وهو ما نجده عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م[2]، حينما أمر الخليفة المقتفي لأمر الله بالقبض على صاحب دار الضرب التي أنشأها السلطان مسعود، وقد أدى ذلكإلى سوء العلاقات بين الخليفة والسلطان، وهكذا نرى أن العملة بلا شك تأثرت بسبب النزاعات على السيادة في ذلك الوقت بين الطرفين.

أدت سياسة الشدة والعسف إلىاتجاه الناس والعامة والتجار للتعامل ببعض العملات السلجوقية الرديئة، والتي كانت ناقصة المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة، وهو ما أثر على الحالة الشرائية وأدىإلىارتفاع الأسعار في الأسواق[3].

لقد كانت العملات السلجوقية - خاصة في القرن السادس الهجري، وهو القرن الذي شهد انهيار سلطان السلاجقة في العراق - ناقصة من حيث المعادن النفيسة خاصة الذهب، فقد قلت قيمة الدرهم السلجوقي إلى النصف أو مادون ذلك[4]، وقد أدت العوامل الأخرى عملها في تدهور النقد، وهو نتيجة وثيقة الصلة بسياسات السلاجقة الإقطاعية.

فقد العامة والتجار على السواء ثقتهم بالتعامل النقدي السلجوقي واتجهوا مع الوقت، إما اضطرارًا أو تمردًاعلى الأوضاع،إلى التعامل بنقود رديئة سموها القراضة[5]، وكان التعامل بها - بلا شك

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٤١.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٤٩.

(3) الأعرجي، الإقطاع العسكري، ص٢٠.

(4) نفسه، ص٢١.

(5) ذكر ابن الأثير في ذلك الموضع أن هناك من الفقهاء ومنهم أردشيرين بن منصور أبو الحسين الذي منع من الوعظ داخل بغداد بسبب هجومه السياسة الاقتصادية السلجوقية وانتشار القراضة، والإفتاء أن هذا نوع من الربا؛ انظر ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص٤٩١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سببًا في الانهيار الاقتصادي، لذلك اعتبرها الفقهاء حينئذ نوع من الربا، كما ذكر ابن الاثير، وفيما يبدو أن تلك النقود كانت بلا غطاء ذهبي حقيقي،ما جعلها بلا قيمة تقريبا، وهو ما نسميه حديثًا بزيادة معدل التضخم.

لم يكن القراضة فقط ما انتشر، بل نجد ما سماه الناس التعامل بالدرهم الرديء أو البهرج، وقد انتشر هذا البهرج، وكان يضرب خارج دور الضرب الرئيسية، وهذا ماجعله مغشوشًا، لكن الناس تعاملت به، وهو ما أدىإلى التضخم وارتفاع الاسعار، فالدراهم والدنانير كانت بلا غطاء معدني حقيقي، وبلا قيمة،ما جعلها غير شرعية.

حاولت الخلافة إنقاذ الموقف الاقتصادي، فحاربت العملات الرديئة خاصة القراضة والبهرج، وضربت بعض العملات التي استعادت قيمتها وعافيتها الاقتصادية، ومن هذه النقود دينار الخليفة المسترشد بالله، الذي ضربه عام ٥١٦هـ / ١١٢٣م[١]، وكانت قيمة هذا الدينار لا بأس بها، فقد وصلت قيمتها كل عشرة دراهم بدينار واحد، وهو ما يدل على زيادة الغطاء الذهبي بها، ويدل أيضا على تأكيد السيادة العباسية على حساب السلاجقة.

مثال آخر نجده في عهد الخليفة المقتدر، الذي أمر بضرب دينار أسماه الدينار الأميري؛ ليحارب الدنانير المغشوشة، وكانت قيمة هذا الدينار أعلى بلا شك من تلك المغشوشة[٢].

وهكذا نري أن نقص العملة مؤثر في النواحي الاقتصادية، والتي ظهرت في غلاء الأسعار وانتشار المجاعات في العراق خلال ذلك العهد، وهو ما سنتناوله في حينه، لكننا سننتقل إلى مظهر آخر من مظاهر السياسات الاقتصادية خلال العهدين البويهي والسلجوقي، وهو مظهر الضرائب والاحتكار والذي سنتناوله في السطور القليلة القادمة.

المبحث الثالث: الضرائب وأثرها الاقتصادي في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

لقد شكل النظام الضريبي في العصرين البويهي والسلجوقي موردًامهمًا في الخزائن الحكومية، لكنه كان له الأثر العميق في ظهور الأزمات والمحن الاقتصادية والتي كانت من نتائج كثرة الضرائب أو نظام وطريقة جباية هذه الضرائب.

وفي هذه المبحث سيتناول الباحث النظام الضريبي البويهي والسلجوقي من حيث تعدد أوجه كل منهما ونتائج هذا التعدد في ظهور الأزمات الاقتصادية، ومن الممكن تقسيم هذه النقطة البحثية إلى عدة عناصر وهي:

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٧.

(٢)الأعرجي، الاقطاع العسكري السلجوقي، ص٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنواع الضرائب في العهدين البويهي والسلجوقي.

طرق جباية هذه الضرائب وأثرها على الحياة الاقتصادية للعامة.

وسنبدأ بالعصر البويهي:

ورث البويهيون نظامًا ضرائبيًا عباسيًا كان فاسدًا في الأغلب،فتذكر بعض المصادر أن النظام الضريبي العباسي كان ظالمًا فاسدًا في أغلب الأوقات، ولم يرض عنه بعض الفقهاء بسبب شدة عسفه وجوره[1]، ولذلك وجد البويهيون عندما دخلوا بغداد،أن نظام الضرائب العباسي لا يتناسب مع الدولة والسلطة الجديدة، لذلك قاموا بتغيير في نظام الضرائب كي يتناسب مع ظروف الدولة الجديدة.

ولقد كانت هناك ضرائب شرعية وغير شرعية، سواء في العهد العباسي قبل التسلط البويهي أو بعده، والمقصود بالضرائب الشرعية هي التي لا يمنع الشرع من جبايتها أو فرضها من الأساس، فهي ذكرت في القرآن والسنة النبوية المطهرة، فلا مانع لدى الشرع والفقهاء من إجازاتها، مثل الركاز، وهي الضريبة على ما يوجد في باطن الأرض، أو الزكاة وهي فريضة التي يؤديها الأغنياء من المسلمين كل عام، ولها أوجه عديدة،أو الجزية وهي التي فرضت على غير المسلمين، وكانت لها شروط عديدة، منها ألا يدفعها ضعيف أو فقير أو امرأة أو طفل أو رجل دين نصراني أو يهودي، فيدفعها بذلك الرجال القادرون على العمل والكسب.

وهناك ضرائب زاد الفقهاء في تناولها كالخراج الذي جعله بعض الفقهاء ضريبة شرعية، وأيضًا ضريبة العشر على الزروع والثمار، كما زادوا من الضرائب على المواشي والبهائم والثروة الحيوانية.

ولن يتطرق الباحث إلى تلك الضرائب الشرعية، لأنها لا تشكل ضغطًااقتصاديًاعلى الناس، نظرًا لقلتها أو عدم تأثير جبايتها على الناس، أو عدم ظهور أزمات اقتصادية بسببها، لأنها في النهاية محددة ومقننة في كتب الفقهاء المسلمين سواء في العراق أو غيرها من البلدان، لكن الباحث سيذكر بعض من طرق جبايتها المتعسفة إن وجد أثناء سرد الأحداث.

[1] الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٥٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنواع الضرائب في العهد البويهي:

الخراج: وكان من أشهر الضرائب في العهد البويهي، نظرًا لأنه يشكل موردًا أساسيًا في الخزانة البويهية[١]، ولقد كان الخراج في الأساس ضريبة على الأرض الزراعية، ونظرًا أن معظم الاقتصاد العراقي كان زراعيًا، فكانت تلك الضريبة هي رأس النظام الضرائبي في العهد البويهي.وتذكر المصادر أن أثقل الضرائب على نفوس الناس كانت الضريبة على الأراضي الزراعي؛ أي الخراج[٢]، وكانت تلك الضريبة تتحدد على حسب عدة عوامل ومنها: مساحة الأرض الزراعية، جودة الأرض الزراعية، وقربها من مجاري الأنهار أو موارد المياه،والمحاصيل الزراعية وجودتها ونوعها سواء حبوب أو غيرها، فيما يسمى بالمقاسمة[٣]، أي دفع الضريبة عينية من هذه المحاصيل في بعض الأحيان، وأيضًا زاد الفقهاء الذين تحدثوا عن الخراج عن بعدها أو قربها من الأسواق، وطرق ري هذه الأرض سواء ري طبيعي من الأنهار والأمطار أو ري صناعي عن طريق الآلات الزراعية المستخدمة[٤].

هذا من حيث التعريف بهذه الضريبة، وهي ضريبة اعتبرها الفقهاء شرعية، لكنها في الحقيقة أيضًا تعتبر من الضرائب غير الشرعية؛ بسبب ما قامت به الحكومات العباسية المتعاقبة من تغيير وتبديل لهذه الضريبة من حيث جوهرها وأوجه جبايتها.

ولقد استمر في العهد البويهي وزادت عليه السلطة بعض الأوجه الأخرى، فقد شمل نظام الضمان على الأرض الزراعية الخراج على هذه الأرض، وكان الضمان وهو أن يطلق يد

---

(١)يعتبر الخراج من أهم الضرائب التي اعتمدت عليها الدولة العباسية في الموارد المالية الداخلة إلى خزينة الخلافة، فقد اعتمدت عليه الدولة شبه كليا، بل إن لم يكن أهمها وقد ورث البويهيون ذلك الأمر؛ انظر ضيف الله يحيى الزهراني، النفقات وإداراتها في الدولة العباسية، كتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦م، ص٣٩؛ انظر أيضا منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٩١؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢١٣.

(٢)يتحدث المقدسي عن أهل فارس أنهم كانوا يعانون من الخراج وأنه كان أثقل الضرائب عليهم، فقد قرأ المقدسي بشهادته دفاتر خزانة عضد الدولة البويهي حسبما تحدث، فإذا كانت فارس على هذا الوضع فلا بد من وجود حالة مشابهة للسواد العراقي؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٤٤٨.

(٣)ذكر ابن حوقل أثناء حديثه عن أراضي الجزيرة الفراتية تحت حكم الحمدانيين؛ أن السلطة الحمدانية حصلت أموالا ضخمة عن طريق ضريبة الخراج بالمقاسمة، ففي أراضي نواحي نصيبين والموصل كانت تفرض الخراج بالمقاسمة وتم تحصيل مبالغ كبيرة؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٥ و١٩٦ و١٩٧. انظر أيضا ؛ الدوري، المرجع السابق، ٢١٤.

(٤)يقول أبو يوسف في ذلك: أن الأرض الخراج قد تكون أرضا يزراعها ويزرعها ويؤجرها ويكتريها من الأنهار، وأيضا قال: إن أحيا الأرض ببئر حفرها أو عين استخرجها منها فتكون أرضا عشر تجوز عليها الخراج؛ أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج،، ص٦٥ و٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شخص ما علىأراض زراعية ليجبي أموالها مقابل أن يكون له الحق في إقطاع تلك الأرض[١]، فالضمان جزء لا يتجزأ من نظام الإقطاع البويهي.

وفي الحقيقة لم تهتم الحكومة البويهية بمراقبة الضامنين طالما يدخل في خزانتها ما يكفي من جباية تلك الأراضي، وهو ما أدي إلى العسف والجور الذي لاقاه الفلاحين على أيدي أصحاب الإقطاعيات والضامنين.

وكان الخراج يجبى في العهد البويهي على أساس المقاسمة على الحاصل الزراعي، الذي وصل في عهود بعض البويهين إلى النصف من هذا الحاصل، بالرغم من أنها العشر في الأصل، وكانت تدفع على أساس المساحة الكلية أو وزن الناتج من المحصول الزراعي، وعدد الأشجار المثمرة يعدها الجابي وعلى أساس العدد يدفع الخراج نقدًا في بعض الأحيان أو من ثمار هذه الأشجار[٢].

هذا كان في عموم العراق التي سيطر عليها البويهيون، أما في الشمال حيث الموصل والمدن الجزرية والتي سيطر عليها الحمدانيون، فقد قام الحمدانيون بوضع نظام خاص للخراج يعتمد على نضج الغلات في موعدها من كل عام، فقد اعتمدوا على السنة الشمسية في الخراج[٣]، فعند موسم الحصاد يأتي الجباة ويقدرون الضريبة ويأخذونها من أصحاب الأراضي، وكان العكس في الدولة البويهية، فقد كانوا لا يصبرون في جباية الخراج حتي تنضج الغلال أو المحاصيل الأخرى.

وقد وصلت الجباية في الدولة الحمدانية إلى نصف المحصول الزراعي، وهو ما مثل ضغطا اقتصاديًا كبيرًاعلى سكان الجزيرة الفراتية، وهو ما سيتناوله الباحث في طرق الجباية.

ضريبة الإرث:

وقد شكلت موردًا كبيرًا من خزانة البويهيين، فقد عرف العباسيون ضريبة الإرث، واستغلوا أن الفقهاء أجازوا أخذ أموال من لا عقب له من قبل السلطة وتؤول هذه الأموال إلى بيت المال، وبالرغم من جهود بعض الخلفاء في إلغاء تلك الضريبة، واعتراض بعض الفقهاء عليها، فقد استمر أخذ أموال من لا عقب له إلى العهد البويهي[٤].

---

(١)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ٢١٥.

(٢)التنوخي، نشواز المحاضرة، ج٨، ص١٢٠؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢١٥.

(٣)نفس المرجع السابق، ص٢١٦.

(٤) نفسه، ص٢٢٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فنجد أنه في عام ٣٥١هـ / ٩٦٢م [١]، قام معز الدولة بأخذ أموال تركة شخص يدعى دعلج، فقد كانت هذه التركة الكبيرة لها أوقاف، فلم يتركها معز الدولة لحالها وأدخلها الخزانة، لكنه ترك الوقف عليها كما هو.

ونجد مثالًا آخر في عام ٣٩٠هـ / ٩٩٩م[٢]، عندما توفي محمد بن عمر العلوي، وكان نقيبًا للطالبيين، فقد استولى الوزير أبو نصر سابور بمعرفة بهاء الدولة البويهي علىخمسين ألف دينار من تركته لصالح الخزانة السلطانية وترك الباقي للورثة، وهو ما يشكل عسفًا وجورًا لا شك فيه.

ضريبة المكوس:

ومن الضرائب التي كانت تؤثر على النشاط التجاري بشكل كبير ومباشر، ضريبة المكوس على البضائع والسلع الواردة إلى العراق من الخارج، فلقد كانت تلك المكوس سببًا في ارتفاع الأسعار وتأثرت التجارة بها، فعلي سبيل المثال، نجد أن المكوس كانت تفرض على السفن القادمة إلى مدينة البصرة في الجنوب العراقي، وكذلك السفن النهرية التي تصل إلى مدينة واسط[٣]، حيث تذكر المصادر أن سفينة كانت محملة بالآلات والحديد فرضت عليها المكوس بما يبلغ ثمانية آلاف درهم، وهو مبلغ كبير[٤].

ويبدو أن للمكوس أماكن محددة في جبايتها، حيث التجارة الواردة تدفع الرسوم والضرائب على بضاعتها في مدينة البصرة وواسط وبغداد والبطائح والكوفة[٥].

أما عن طريقة دفع هذه المكوس للحكومة البويهية فقد كان نقدًا وعينًا، فنقدًا كان تدفع بعض القوافل درهمًاعلى كل حمل فيها سواء كانت البضاعة نفيسة أو رخيصة[٦]، وفي بعض الفترات كانت تحدد المبالغ المقدرة من الحكومة البويهية فقط، وهي لها الحق في تقدير ذلك.

ويذكر الدكتور الدوري أثناء حديثه عن المكوس أن السفن الواردة كانت تدفع نسبة العشر من التجارة الواردة خاصة السفن الهندية والصينية، أما السفن الإسلامية فقد كانت تدفع نسبة أقل من تلك النسبة السابقة[٧].

---

(١) ذكر ابن الجوزي ترجمة دعلج في وفيات تلك السنة وأنه ترك أموال كثيرة؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٤٣وما يليها.

(٢) انظر ترجمة محمد بن عمر العلوي؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٢ و٢٣ و٢٤.

(٣) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج٨، ص٩٣.

(٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٢٣.

(٥) نفس المرجع السابق، ص٢٢٤.

(٦) نتاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٢٤.

(٧) نفس المرجع السابق، ص٢٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما عينًا، فقد كانت المكوس تؤخذ من البضائع الواردة سواء القوافل البرية أو في الموانئ البحرية عينًا من البضائع المختلفة مثل الأقمشة، أو الحبوب أو غيرها، فقد كانت جزءًا من هذه البضائع تذهب مباشرة إلى مخازن الحكومة[١].

وكانت ضريبة المكوس كبيرة ومهمة بالنسبة للخزانة البويهية، فقد وصلت على سبيل المثال في عام ٣٣٩هـ / ٩٥٠م إلى ٢٠٠ ألف دينار[٢].

ضريبة المستغلات:

وهي الضريبة التي فرضت على الحوانيت والأسواق والمحال التجارية والحمامات والطواحين والبيوت والدور[٣]، وهذه الضريبة كانت مهمة أيضًا للخزانة البويهية، وقد وجدت هذه الضريبة في العصر العباسي، فقد فرضت على الأسواق والحوانيت المختلفة، واستمرت إلى العهد البويهي.

وقد كانت تلك الضريبة تمس الحياة اليومية للعامة بشكل مباشر، فإذا كانت ضريبة المكوس تتسبب – في كثير من الأحيان – فيارتفاع أسعار البضائع والمواد المختلفة، فإن تلك الضريبة كانت تؤدي إلى تذمر الناس، وكانت تؤثر في الأسواق بل وفي الدور والبيوت بسبب الضريبة التي كان يفرضها البويهيون، والتي شكلت عبئًاعلى العامة.

وقد شكلت الأموال الضخمة التي كانت تجبى من جميع الدور والأسواق والمحلات في جميع المدن العراقية موردًا عظيمًا من موارد الخزانة السلطانية، في مقابل عبء كبيرًاعلى العامة الذين عانوا من وطأة تلك الضرائب.

وقد وجدت ضرائب أخرى استثنائية على الصناعات المختلفة مثل المنسوجات القطنية والكتانية، وعلى صناعة الزيت، وعلى الأغنام والدواب، والخيل والحمير والدواب والإبل في جميع أسواق العراق[٤]، كما فرضت ضرائب على الخمور، حتى وصلت مبلغًا كبيرًا فيالدولة الحمدانية خاصة في عهد ناصر الدولة[٥]، وكل هذه الضرائب شكلت عبئًا كما أشرت آنفًاعلى العامة وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

---

[١]منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٩٣..

[٢]مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٩٦.

[٣]الدوري، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

[٤]الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٢٧.

[٥]ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنواع الضرائب في العهد السلجوقي:

شكل العصر السلجوقي عصرًاآخر من عصور التسلط العسكري على الخلافة العباسية، وقد تميز هذا العصر كما سبقت الإشارة بالإقطاع العسكري الذي كان له نتائج وخيمة على الزراعة والصناعة والتجارة والعملة، وبالتالي الضرائب ومظاهر فرضها وجبايتها كما سيتضح.

أما عن أنواع الضرائب في ذلك العصر فمن الممكن أن نلخصه في الآتي:

ضريبة المكوس:

وكانت من أشهر الضرائب المفروضة في العهد السلجوقي، وأكثرها فرضًا، لأنها كانت المورد الرئيسي للخزانة السلطانية، وتعتبر من الضرائب التي تتبع مباشرة السلطنة السلجوقية نظرًا لأهميتها.

وقد كان يعين موظف مختص من لدن السلطة يتبع السلطان أو الوزير في بعض الأحيان يسمى بمختص الحضرة[1]، والحضرة تعني السلطنة السلجوقية، وهو الموظف المختص بجباية المكوس في جميع أراضي الإمبراطورية السلجوقية، يتبعه من هو أدنى من ذلك من الرتب الوظيفية، لكنها تدور في فلك واحد وهو جباية تلك الضريبة.

ونظرًا لفلسفة النظام الإقطاعي السلجوقي فلم تحدد النسبة الضريبية على التجارة الواردة، فكثيرًا من الضريبة المفروضة كانت تتذبذب وفقًا للحالة الاقتصادية العامة، أو على هوى الإقطاعيين في الإدارة السلجوقية.

فيذكر ابن الجوزي على سبيل المثال أن السلطان ألزم الباعة وغيرهم من التجار عام ٥١٥هـ / ١١٢١م[2]، أن يدفعوا نسبة ثلثي الأرباح على بعض البضائع مثل ثياب السقلاطون، وهذه كانت نسبة كبيرة أدت إلى ركود بلا شك في هذه الفترة [3].

كذلك اشتط السلاطين السلاجقة خاصة في عهود الانقسامات والنزاعات الداخلية والحروب الإقطاعية، في فرض ضريبة المكوس، وذلك لضمان امتلاء الخزانة في أحلك الأوقات والظروف خاصة مع استمرار الحروب والنزاعات [4].

---

(1) الأعرجي، الإقطاع العسكري، ص١٥

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٩٢.

(3) نرى أنه في عهد صمصام الدولة كانت الضريبة هذه سببًا في ثورة قام بها العامة عام ٣٧٥ هـ، وأيضا تكررت في عام ٣٨٩هـ؛ انظر فهمي سعد، العامة في بغداد خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، دار المنتخب للنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ص١٨٨ و١٨٩.

(4) الأعرجي، الاقطاع العسكري، ص١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويمكن القول إن ضريبة المكوس كانت ضريبة على الوارد، إلا أنها امتدت بأوجه أخرى لفرضها على الأسواق وعلى حق البيع بالنسبة للتجار المحليين في أسواق المدن والقربالعراقية، فعلى سبيل المثال نجد أن السلطة السلجوقية فرضت ضريبة أسمتها حق البيع، وهي امتداد للمكوس لكنها ضريبة على السوق المحلي وليس الوارد.

وضريبة حق البيع كانت تمس الحياة التجارية المحلية بشكل أساسي، وكانت من أشد الضرائب وطأة على التجار وعلى الباعة، فكانت تفرض على جميع البضائع تقريبًا، وهذا في حد ذاته سبب في زيادة الأسعار على العامة.

ضريبة العقار:

وكانت تلك الضريبة اضطرارية في بعض الأوقات، خاصة في الأوقات التي تحتاج فيها السلطنة السلجوقية لمضاعفة أموالها الواردة، فقد فرض السلاجقة ضريبة على الدور والعقارات والحوانيت والحمامات والأملاك الخاصة بأنواعها، وهذه الضريبة كانت سببًا في تذمر العامة والخاصة على السواء.

فقد فرضت السلطات تلك الضريبة على جميع الأملاك الخاصة في العراق، فقد كان يدفع الغني والفقير هذه الضريبة على أملاكهم الخاصة، وكانت السلطة تشتط في جباية تلك الضريبة، خاصة في أوقات الحروب الإقطاعية بين السلاطين والأمراء السلاجقة.

فعلى سبيل المثال نجد أنه في عهد السلطان مسعود، اشتطت السلطة السلجوقية في جباية تلك الضريبة، حتى وصل الأمر في عام ٥٣١هـ / ١١٣٩م،لأن يبعث السلطان وزيره أبي بركات بن مسلمة للخليفة العباسي المقتفي لأمر الله وطالبه بمائة ألف دينار ضريبة على أملاكه الخاصة[١]، فكان جواب الخليفة بالرفض لأنه لا يملك هذا المبلغ،فما كان من مسعود أن يأمر عماله لتعويض هذا المبلغ من العامة، فلقي الناس عامة والتجار خاصة في عهد هذا السلطان عسفًا وجورًا جراء فرض هذه الضريبة أدت إلى أزمة اقتصادية بطبيعة الحال.

وكانت هذه الضريبة فرضًاعلى الناس في أوقات الحروب كما أشرنا، ففي عهد السلطان مسعود أيضًا وتحديدًا في عام ٥٢٦هـ / ١١٣٢م[٢]، فرضت السلطة السلجوقية ضرائب مضاعفة على الناس وذلك لحاجة مسعود إلى تلك الأموال في حروبه المستمرة ضد السلطان سنجر، وكان مقره

---

[١]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٢٠.

[٢]نفس المصدر السابق، ص٢٧٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في عاصمة الإمبراطورية في مدينة الري الفارسية، وكانت سبب الضريبة هو سماع أنباء بعزم دخول سنجر وقواته إلى العراق.

ونسوق دليلًا آخر على أن هذه الضريبة كان يختص بها السلاجقة أثناء حروبهم، فعندما دخلت القوات السلجوقية إلى بغداد، في أول أمرهم، فرضوا على الدور والأحياء التي نزلوا فيها خمسمائة دينار،وتحججوا بأن هذه الضريبة - وتسمى ضريبة الدور - عادة في بلادهم، ويجب أن يطبقوها على أهل بغداد، وقد عانى الناس، خاصة في حي الكرخ[1]، من هذه الضريبة، واستغاثوا بالخليفة الذي بعث بدوره إلى وزير السلاجقة وحاكم العراق حينئذ العميد الكندري الذي أسقطها تخفيفًاعلى الناس.

ضريبة الإرث والتركات:

وهي شبيهة بالضريبة التي فرضها البويهيون على التركة والميراث الذي لا يوجد وارث له مستحقه، فقد فرض السلاجقة ضريبة تسمى بضريبة التركات، وكانت تتبع مباشرة ديوان مختص لذلك يسمى بديوان التركات،والذي كان يقوم بدور الاستيلاء على التركات التي لا وارث لها، وقد شكلت موردًامهمًا للخزانة السلطانية.

ففي عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م، قرر السلطان طغرلبك السلجوقي تنظيم المواريث بحيث جعل الميراث الذي لا وارث له يدخل في حيازة الخزانة السلطانية مباشرة، وقد تم تنظيم هذه العملية في عموم العراق حتى صار قانونًا يعتد به[2].

ففي عهد السلطان مسعود، وتحديدًا في عام ٥٣١هـ / ١١٣٩ م[3]،أمر وزيره وحاكم العراق العسكري بأن يصدرا قانونًا خاصًا يأمر الغسالين والكفانين والحفارين والعاملين في المقابر ألا يدفنوا أي رجل أو إمرأة إلا بموافقة خاصة من الوزير، وذلك لضمان النظر في المواريث والتركات وأخذها إذا لم يكن لها وارث، وهذا لعمري شدة اتصف بها السلطان مسعود والسلاطين الذين جاءوا من بعده من عهود الانحطاط السلجوقية، فكل جل همهم جباية الأموال لخدمة حروبهم الإقطاعية.

(1)انظر حوادث عام ٤٤٨هـ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣ و٤.

(2)السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣١.

(3)ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص٣٢٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضريبة الخفارة:

وهي ضريبة كان تفرضها السلطات السلجوقية على التجار والحجاج تسمى الخفارة، فقد كانوا يفرضون عليهم مبلغًا من المال على كل تجارة وقافلة حجاج تمر على الطرق المختلفة، وذلك لقاء حماية القوات السلجوقية لهم(١).

لكن من خلال النظر في الأحداث نجد أن العهد السلجوقي تميز باضطراب الأمن خاصة في عهود سلاطينهم الأخيرة، حيث تميزت بالحروب الإقطاعية واضطراب الأمن على الطرق، وقطع الطريق من العياريين، وهجوم البدو والقبائل العربية خاصة في وسط وجنوب العراق على قوافل التجارة والحج، وهو ما يجعل هذه الضريبة نوعًا من الجور والعسف على العامة جراء عدم حمايتهم في أغلب الأوقات وبذلك تنتقل من صفة الضريبة إلى صفة الإتاوة(٢).

علىأية حال؛فقد تقرر دفع سبعة دنانير علىكل حاج بموجب هذه الضريبة، وهو مبلغ لا بأس به(٣)، لكن الضريبة الأعنف كانت على التجار والقوافل التجارية، ولنا أن نتخيل أن التجار كانوا يدفعون المكوس ثم يتطلب عليهم دفع ضريبة أخربعلى الخفارة، ما كان سببًا مباشرًا في تذبذب الأسعار وكساد التجارة، فماذا يتبقى لهؤلاء التجار إذن؟

فعلى سبيل المثال دفع تاجر ضريبة الخفارة على قافلة تجارية كبيرة(٤)، حتى تقرر دفع أربعة عشر ألف دينار ومائتي رأس من الغنم، بموجب هذه الضريبة وهو مبلغ كبير قد تكون ثروة في أحوال كهذه.

ضريبة بيع الحيوانات:

وهي ضريبة تمس قطاع الثروة الحيوانية في الأساس، فقد فرضت على بيع الحيوانات مثل الخيل والإبل والأبقار والأغنام، وقد أضيف لها بيع الأسماك أيضًا، وكانت تفرض على بيع وشراء تلك الحيوانات(٥).

وقد كانت هذه الضريبة من ضمن الضرائب التي تفرض على الأسواق المحلية، وهي بلا شك تضيف معاناة أخري على عمليات البيع والشراء، ففرض هذه الضريبة كانت ترفع من أسعار تلك

---

(١)الأعرجي، الاقطاع العسكري، ص١٦.

(٢)كثرت في هذا العهد هجمات البدو الأعراب بني خفاجة على مدن وقرى وعموم السواد في العراق، مما هدد الطرق التجارية وقوافل الحج؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٨٠، ٨١؛ وأيضا ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٩ وما يليها.

(٣) محمد بن علي سليمان (الراوندي) ، راحة الصدوروآية السرور ، ص٢٠٥.

(٤)الأعرجي، الاقطاع العسكري، ص١٧.

(٥) نفسه، ص١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحيوانات التي يستخدمها الناس في ركوبهم وفي طعامهم أيضًا وهو ما زاد من محنة العامة بطبيعة الحال.

وهكذا نرى أن الضرائب في العهد السلجوقي كانت شديدة الوطأة والثقل على الناس وعلى التجار وعلى جميع الفئات، ما أدىإلى تقليل هامش الربح في الصناعة والتجارة،إضافة إلى الفلاحين الذين عانوا من الضمان وجباية الخراج من القادة الإقطاعيين المتسلطين عليهم.

طرق جباية الضرائب وأثرها على الحياة الاقتصادية للعامة في العهدين البويهي والسلجوقي:

شكلت طرق الجباية عبئًا على العامة، حيث قام المحصلون في كثير من الأحيان باستخدام الشدة والعسف ضد العامة أثناء تحصيل هذه الضرائب، وذلك في العصرين البويهي والسلجوقي على السواء.

ومن خلال المظاهر التي سنعرضها سيتضح أن كلا العهدين لا يختلفان من حيث طرق الجباية، وكيف شكلت هذه الطرق أزمة أخري تضاف إلى الأزمات التي عانى منها أهل العراق خلال تلك الفترة:

أولا العهد البويهي:

عانت الدولة البويهية منذ بدايتها من فوضى في الجبايات والرسوم، ففي عهد معز الدولة البويهي، أطلقت أيدي أصحاب الإقطاعيات والضمانات في الجباية، وتم التعامل مع الفلاحين بعسف وجور وظلم، حيث أدت هذه الفوضىإلى فرض ضرائب إضافية دون علم الدولة، حيث تذكر المصادر أن "جبايات تحدث على غير رسم،ومصادرات ترفع على محض الظلم، وإضافات إلىالارتفاع ليست بعبرة،وحسابات في النفقات لا حقيقة لشيء منها"[(١)]، وهذا النص الذي ذكر مسكويه في غاية الوضوح على تلك الفوضى التي عانى منها الناس منذ دخول البويهيين بغداد.

صحيح أن فترة عضد الدولة البويهي شهدت إصلاحات ضرائبية، من حذف ضرائب لا طائل منا وإبطال الرسوم، وعمل رسوم صحيحة غير جائرة في المجمل، إلا أن تلك الفترة كانت مؤقتة، فسرعان ما نشهد فوضى أخري في أواخر عهد عضد الدولة وما يليله من أمراء الدولة، حيث فرضت ضرائب جديدة على السواد العراقي، ورسوم ومعاملات لم يعهد بها، وجبايات لم تكن.

(١)مسكويه، تجارب الامم، ج٥، ص٢٨٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريقة جباية الضريبة كانت قاسية من العسكر البويهي، ما أدىإلى هروب الفلاحين والصناع والتجار في بعض الأحيان، ولم يكن البويهيون فقط من تميزوا بهذه الظاهرة، بل نجد أن الإمارة الحمدانية كانت مشهورة بهذا الظلم، فقامت السلطات الحمدانية بمصادرة الأراضي لصالح الأمراء الحمدانيين، وجبوا الضرائب بطريقة فيها من العسف والظلم الكثير حتى أدى ذلك إلى خراب المزارع والأراضي الزراعية، وذلك بنص بعض المصادر، خاصة الجغرافيين والرحالة الذين مروا بالإمارة الحمدانية كابن حوقل النصيبي الذي شهد للحمدانين بالعسف والجور في فرض الضرائب خاصة الخراج[١].

وقد كان الخراج كان يجبىعلى أساس التقويم الشمسي، فجعل الحمدانيون فرض هذه الضريبة وجبي الأموال في مارس من كل عام، وهو ما يعني أن الزروع والغلات لم تنضج بعد[٢]، وهو ما كان يشكل ضغطًا كبيرًاعلى الفلاحين الذين لم يجدوا طريقة أنجع من التهرب من الضريبة أو الهروب من القرى زرافات وأفرادًا، وهو ما أدىإلى قلة الناتج الزراعي، خاصة أثناء الفوضى السياسية التي شهدتها مدن وقرى الجزيرة قبل الغزو البويهي.

ولم يكن البويهيون والحمدانيون فقط، بل نجد أن البريديين في الجنوب كانوا لا يقلون قسوة وظلمًا مع الناس في جباية الضرائب[٣]، ومن هنا يتضح أن الفسيفساء والانقسام السياسي والعسكري في أرجاء العراق كان له أثره في فرض الضرائب وتشكيل خزائن عامرة بالأموال التي تعين أمراء العراق على حرب بعضهم بعضًاعلى حساب دماء وأرزاق الناس.

فمن مظاهر تعامل البريديون مع جباية الضرائب نجد ما عانى منه أهالي مدينة البصرة، من الجور والظلم في فرض وجباية الضرائب،بل ومن سياسة زراعية متعسفة، فمن ما ذكرته المصادر أن البريديين فرضوا على مزارعي قرى البصرة أن يبدأوا زراعة النخل بالحنطة والشعير[٤]،أو يخلطون الأرض الزراعية الواحدة بهما؛ أي زراعة الشعير والغلات الأخرى بجانب الأراضي التي نضج فيها النخل، وهو ما يشكل ضغطًاعلى الأرض وعلي الفلاح، وقد فرضوا ضريبة على هذه الغلات وكانت باهظة بطبيعة الحال.

---

[١] ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩١.

[٢] الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ٢١٤ و٢١٥.

[٣] مسكويه، تجارب الأمم،ج٥، ص٢٩٦.

[٤] مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٥ ص٢٩٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد أدت تلك السياسات إلى هرب المزارعين حتى مجيء الغزو البويهي للبصرة، حيث قام البويهيون بدخول البصرة وما حولها وطرد الحكم البريدي منها عام ٣٣٩هـ / ٩٥٠م، وقد استغل أهالي البصرة ذلك وشكوا الضرائب الكثيرة والباهظة للوزير المهلبي الذي قام بإصلاح الضرائب وإبطال الكثير منها على الفور[١].

ونجد أن البصرة لم تستمر على هذه الإصلاحات إلا حينًا من الزمن، فعانت مثلها مثل أي منطقة عراقية من الضرائب وطرق جبايتها، حيث شهدت البصرة ثورة عام ٣٨٦هـ / ٩٩٦م [٢]، بقيادة لشكرستان الذي أبطل الضرائب إلى حين وجعلها ضئيلة على أهل البصرة.

هذا عن الخراج، أما باقي الضرائب فقد عانى الناس من جبايتها بطريقة غير آدمية، حيث نسوق مثالًاعلى ضريبة المكوس وجبايتها على السفن الواردة إلى البصرة، فسنجد أن شكايات رُفعت إلى السلطات بخصوص التفتيش للقوافل التجارية وجباية الضرائب بالشدة والقوة، وهو ما أوضحه المقدسي أثناء مروره بالبصرة، بل تكررت هذه الظاهرة على القوافل التجارية البرية في البطائح[٣]والمناطق القريبة من بغداد ومدن الجزيرة والتي تولت أمرها السلطات الحمدانية.

وكانت هذه النقاط التفتيشية والتي تجبي الرسوم والأموال فيما يشبه الجمارك الآن، وكانت تسمى في العهد البويهي بالمراصد[٤]، وقد وجدت في الموانئ البحرية والنهرية مثل البصرة والأبلة، ونقاط برية في واسط والبطائح وبغداد والكوفة والموصل.

أما الصناع والتجار في الأسواق المحلية فقد عانوا من ظلم جباية هذه الضرائب، فعلى سبيل المثال فرضت الضرائب على الطواحين منذ بداية الدولة البويهية، وكانت هذه الضريبة ضمن ضرائب كثيرة فرضت علىالمحال التجارية والحوانيت في الأسواق والحمامات العامة وباقي مستغلات وممتلكات الناس، حتى "كثرت الظلامة في عهد عضد الدولة، وأدخل يده على جميع الأرحاء وجبارتفاعها"[٥].

وهذا النص السابق يدل على كثرة الضريبة المفروضة على الطواحين والأرحاء منذ عهد عضد الدولة، وقد قام صمصام الدولة مثلًا برفع هذه الضريبة تخفيفًاعلى الناس..

---

[١]نفسه، ص٢٩٦.
[٢]أبو شجاع الروازوردي، ذيل تجارب الأمم، ص١٦٣.
[٣]المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٣٣.
[٤]الدوري، المرجع السابق، ص٢٢٤.
[٥] الروذواردي، ذيل تجارب الأمم، ص٤٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من ضمن جبايات الضرائب أيضًا ما قامت به السلطات البويهية عمدًا من الاستيلاء على ضريبة محددة فرضت من أجل بناء سور بغداد وهو ما عرف بسور المخرم، خاصة في الأحياء الشرقية من بغداد، فقد فرضها عميد الدولة على الناس وشدد في جبايتها من أجل بناء هذا السور[١].

ومع ذلك تذكر لنا المصادر المختلفة تدخل الخلفاء العباسيون من أجل تخفيف الضرائب وطرق جبايتها على الناس، وهو ما نجده في حالة الخليفة المطيع، الذي راسل أبو تغلب الحمداني من أجل رفع الضرائب على الناس واستعمال اللطف والرأفة مع العباد[٢].

وأيضًا قام الأمراء البويهيون في كثير من الأحيان أثناء تولية عمال الضرائب لمناصبهم بنصيحتهم وتوجيههم من أجل عدم الشدة في طريقة جباية الضريبة[٣]، وهو ما خالفه العمال في كثير من الأحيان كما رأينا.

ثانيا: العهد السلجوقي:

لم يختلف العصر السلجوقي من حيث جباية الضرائب والتشدد فيها عن العصر البويهي، فقد تشدد العمال في جباية الضرائب حتى كلَّ الناس وملّوا من الضرائب المفروضة عليهم.

ونجد أن طريقة جباية الضريبة كانت تتماشى مع السياسة الإقطاعية التي فرضتها السلطات السلجوقية على العراق وغيرها من البلدان الخاضعة لهم، فقد قام الإقطاعيون بجباية الضرائب المستحقة، والتي كانت تمد الخزينة السلطانية بأموال وفيرة، وكان من جراء تلك السياسة خراب القرى الزراعية وهروب الفلاحين من الأراضي خوفًا من العسف والجور.

ومن مظاهر طرق الجباية ما سماه المؤرخين بالإلجاء، وهو خوف صغار ومتوسطي الممتلكات والأراضي من كبار الإقطاعيين وطرق جبايتهم ما أدىإلى تخلي هذه الطبقة عن ممتلكاتها وإدخالها في ممتلكات الإقطاعيين الكبار.

ومن الواضح أن جباية الضريبة لم يتميز بها كبار الإقطاعيين والضامنين وعمالهم الذين شدوا على الناس فقط، بل نجد أن السياسة الحكومية من عمال الحكومة كانت أكثر إيلامًا في بعض الأوقات، فعلى سبيل المثال نجد أن وزيرًا سلجوقيًا يدعى أبي طالب علي بن السميرمي، كان غشومًا جهولًا ظالمًا في جباية الضرائب، وقد كان أبو طالب يعترف على نفسه هذه الصفة كنوع

---

[١] ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص١٧.

[٢] الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٢٩.

[٣] نفس المرجع السابق، ص٢٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الكبرياء والفخار حيث تذكر المصادر على لسانه: "لقد سننت على أهل بغداد السنن الجائرة فكل ظالم يتبع أفعالي"[١].

ويبدو أن هذه السياسة كانت متبعة من العمال، حيث نجد أن مختص الحضرة وهو المسئول عن تفتيش القوافل التجارية في المراصد والجمارك وأخذ المكوس، يقول على نفسه أيضا فيما يذكرهابن الجوزي "لقد فرشت حصيرًا في جهنم"[٢]؛ أي إنه يعترف بشدته وظلمه في الجباية ومصادرة أموال الناس.

ويبدو أن ضجر الناس وغضبهم أدىإلى ثورتهم، وتدخل بعض الفقهاء من أجل التخفيف عنهم، مثل تدخل الواعظ ابن العبادي لدى السلطان مسعود، وكان معروفًا بالظلم والعسف والجور، من أجل رفع ضريبة حق البيع على الحوانيت والأسواق والمحال التجارية[٣]، وقد أمر الخليفة الناصر لدين الله بإلغاء تلك الضريبة فيما بعد.

وقد كان السلاطين السلاجقة أنفسهم خاصة في عهد الحروب والنزاعات الداخلية يرضون على طريقة عمالهم في جباية الضريبة، بل ويأمرونهم بالشدة خاصة على من لا يرضون عنهم، ففي مجمل النزاع بين السلطنة السلجوقية والخلافة نجد أمثلة للمصادرات والجبايات المتعسفة على الخلفاء، مثل ما نذكره من محاولة السلطان مسعود أخذ أموال الخليفة المقتفي[٤]، وهو ما أدىإلى أزمة اقتصادية.

وقد عمّت المصادرات على الجميع، مثل الفقهاء، الذين كانوا يقفون بجانب العامة ضد السلاطين، فقد استولت السلطة على أموال الفقيه بهروز الخياط المتوفى في عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م [٥]، حيث قامت السلطة بنهب أمواله وتركته وضرب اثنين من الفقهاء وسجنهم لأنهم اعترضوا على ذلك.

---

(١)ذكر الذهبي في ترجمته: أنه كان شديد الوطأة ذو عسف وظلم، يركب في موكب عظيم وفي يده السيوف والحراب والدبابيس كثير الظلم والتعدي على الناس؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٤٣٢.

(٢)يذكر ابن الجوزي في ترجمة مختص حضرة السلطان مسعود ابن البنكري: أنه كان يبالغ في أذي الناس وأخذ أموالهم ويقول لقد فرشت حصيرا في جهنم، ومرض ومات في ربيع الآخر من سنة ٥٤٥هـ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٧٨.

(٣)السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٤، ٣٤٥.

(٤)السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٤؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٢٠.

(٥)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨،ص ٨٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد امتدت المظاهر الظالمة تلك إلى العامة، خاصة أثناء الحروب والنزاعات، حيث فرضت السلطات على أهالي الكرخ ضريبة قدرها خمسمائة دينار، وهو ما أدىإلى غضبهم ورفعوا شكوىإلى الخليفة الذي ناشد الكندري الوزير برفع الضريبة فاستجاب(١).

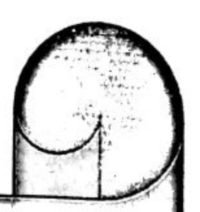
وقد قام الخلفاء العباسيون بدور المدافع أحيانا عن العامة من طغيان السلاجقة، فنجد من مظاهر النزاع بين الطرفين، هو ظهور الخلفاء بمظهر المدافع عن حقوق العامة، خاصة في الضرائب وجبايتها.

فقد ذكرنا في السطور السابقة موقف الخلافة مع أهالي الكرخ، من وساطتها لمنع فرض ضريبة الدور والبيوت عليهم، كما نجد أن للخليفة المقتدي بأمر الله دورًا كبيرًا في منع السلطة السلجوقية من فرض ضرائب جديدة أو الوقوف ضدها، حيث تذكر المصادر أن الخليفة أمر بمنع فرض ضرائب وأصدر أوامره على شكل منشورات توزع على أبواب الجوامع البغدادية وذلك في عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م(٢).

وهكذا نرى أن طرق الجباية كانت سببًا في ظهور الأزمات الاقتصادية، حيث هرب الفلاحين من أراضيهم وتأثر بذلك القطاع الزراعي والحيواني وأدى إلى تخريب القرى، هذا إلى جانب تقليل هامش الربح للصناع والتجار وتأثر حركة البيع والشراء بسبب الضرائب وطرق جبايتها التي أدت بشكل مباشر وغير مباشر إلى رفع أسعار المواد الغذائية، وهو ما أدى إلى الأزمة بطبيعة الحال.

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣ و٤.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٢٦٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



الفصل الثالث

الحركات الإجتماعية وأثرها علي تدهور الإقتصاد في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي

- المبحث الأول : الفتن بين السنة والشيعة وأثرها علي حركة الإقتصاد في العراق .
- المبحث الثاني : حركة العياريين والشطّار وأثرها علي الأحوال الإقتصادية في بلاد العراق .
- المبحث الثالث : دور العلماء في التصدي للمحن والأزمات في بلاد العراق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حظيت حركة الجماهير والمجتمع بلفت أنظار الباحثين في التاريخ العام، خاصة في العصر الحديث، وذلك لأن الحركات الاجتماعية مهمة لمزيد من تسليط الضوء على الأزمات الاقتصادية، بل كانت في بعض الأحيان معبرة عنها بوضوح، أو نتيجة حتمية لهذه الأزمات الاقتصادية.

ولنخرج بنتيجة من بحثنا هذا لابد من إبراز دور الحركات الاجتماعية، وما هي النتائج الاجتماعية، وتغيير البنية الاجتماعية في العراق خلال تلك المرحلة التاريخية، والتي شهدت الكثير من الأزمات الاقتصادية والمحن، والتي كانت للحركات تلك دور أساسي فيها، إذ يرتبط الاقتصاد وحركته بالضرورة بحركة المجتمع وتطوره، لذلك لا يمكن إغفال الدور الاجتماعي للمحنة والأزمة الاقتصادية سواء كان سببًا فيها أو نتيجة طبيعية لها، فالاقتصاد خادم للمجتمع في بعض الأحيان، والمجتمع محرك للاقتصاد في كل الأحيان.

لذلك كان لابد من هذا الفصل، الذي يتحدث عن المجتمع العراقي، والفتن التي ألمَّت به جراء الأزمة الاقتصادية، والتي أثرت بشكل مباشر في كثير من الأحيان في ازدياد المحنة، وتفاقمها دون الخروج إلى حل، بل كانت الأزمة الاقتصادية معبرة عن تلك الأزمات الاجتماعية وظهورها وإفراز حركات اجتماعية غاضبة ومستخدمة للعنف، وساخطة على الطبقات الأخرى لا سيما الأثرياء في المجتمع العراقي، ومن ثمَّ تدخلها في السياسة.

إذن نخرج بنتيجة مبدئية؛ هي أن الحركات الاجتماعية كانت جزءًا من الأزمة، وإفرازًا طبيعيًّا لها، بل ارتبطت بها، وعبرت بطريقتها الخاصة للخروج من تلك المحن والأزمات، ولم تنجح كثيرًا فيما نعتقد بل لقدزادت الطين بلة،ولكن الباحث لا يلوم بالضرورة هذه الحركات الاجتماعية على قدر لوم السلطات السياسية الحاكمة التي تصرفت بشيء من الغباء في بعض الأحيان سواء في احتواء الغضب أو زيادته في بعض الأحيان، وهو ما أدى في النهاية إلى زيادة الأزمة الاقتصادية وزيادة الفروق الطبقية، وهذا يؤدي إلى قولناإن الأزمة الاقتصادية أدت إلى صراع طبقي مرتبط بالمصالح السياسية كما سنرى في هذا الفصل.

بقي لنا في هذه المقدمة المختصرة لهذا الفصلمعرفة مدى ربط حركة المجتمع بالاقتصاد أو العكس وأيهما يؤثر في الآخر، وهذا أجده مهما لفهم المباحث الثلاث التي سيتناولها الفصل بالدراسة والبحث خلال السطور القادمة، ولنبدأ ببعض النقاط المهمة التالية:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تعتبر النظرة الحديثة لربط الاقتصاد بحركة المجتمع مختصرة في أن المجتمع دائمًا ما يشهد صراعًا طبقيًا حادًا بين طبقاته[١]، وذلك بسبب المصالح المادية والاقتصادية والسياسية التي تربط كل طبقة بالسلطة أو بالطبقات الأخرى على حد سواء، لذلك نشأت الحركات الاجتماعية الجماهيرية التي تهدف بالضرورة إلى تغيير جذري في المجتمع وحركته، وهذه النظرة نتفق أو نختلف معها، إلا أنها معبرة عن الفترة التاريخية مناط البحث، فالمجتمع العراقي مكون من عدة طبقات، ويعتبر المجتمع العراقي عبارة عن فسيفساء مركبة، سواء عرقيًا أو دينيًا، فكل طبقة كانت لها مصالحها ولها طموحاتها وآلامها وبالطبع آمالها، لذلك كانت بعض الطبقات تدافع عن نفسها في ظل الأزمات وتحارب من أجل مستوى أفضل وكان هذا ظاهرًا في الفتن المتلاحقة بين السنة والشيعة، بالرغم من أنه كان صراعًا طائفيًا إلا أنه كان مرتبطًا بالاقتصاد، والسنوات الصعبة التي مرت على العراق جراء الأزمات الاقتصادية المتلاحقة وهو ما يثبت النظرية السابقة أن الصراع الطبقي هو المحرك الأساسي لحركة المجتمع الناتجة عن ربطه بالاقتصاد سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة[٢].

- هذه النظرية السابقة هي نفسها التي تبنت وجهة النظر القائلة إن الحركات الاجتماعية ظهرت جراء الناحية الاقتصادية الفاشلة والقاسية، لذلك ظهرت بين ظهراني المجتمع بعض الطبقات التي لعبت دورًا في الصراع السياسي والاجتماعي وسببت العديد من المشاكل التي لا حصر لها في المجتمع، فالعيارون والشطار كانوا من أبرز الحركات الاجتماعية التي ظهرت بسبب الأزمة الاقتصادية، وعلى الرغم من نظرة المؤرخين الرسميين أن هؤلاء الشطّار هم اللصوص الذين انتشروا في المجتمع[٣]، فإن هؤلاء اللصوص لعبوا دورًا اجتماعيًا وحاولوا تغيير البنية الاجتماعية من خلال الهبّات التي قاموا بها، والذعر الذي انتشر بسببهم، وإذا نظرنا إليه بنظرة إيجابية أو سلبية، فهذا لا يهم بقدر ما يهمنا في هذا الصدد تتبع تاريخ هؤلاء، وكيفية استغلالهم للأوضاع الاقتصادية الصعبة، وقصصهم الشعبية التي لا تنتهي، وظهورهم في السنوات التي عانت فيها العراق من الجدب والقحط أو الفيضانات أو الأزمة السياسية بين

---

(١) الرازي، مختار الصحاح، ص٢٢٧.

(٢) يرى وليم لامبرت عالم النفس أن هناك سيكلوجية للصراع بين الجماعات الدينية (ومنهم بالطبع السنة والشيعة)، فالصراع بين هذه الجماعات بسبب إحساس الفرد بالافتخار بهذه الجماعات وإنجازاتها الكبرى، ومن ثم الذوبان بين الفرد في هذه الجماعات ويكون سلوكه معبرًا عنها في النهاية، وترتبط هذه الصراعات بصراع طبقي اقتصادي؛ وليم.و. لامبرت وولاس لامبرت، علم النفس الاجتماعي، ترجمة سلوى الملا ومراجعة محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٢٠٦.

(٣) عن مفهوم الشطارة؛ انظر الرازي، مختار الصحاح، ص١٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخليفة والسلطان البويهي أو السلجوقي، وكيف كان مجتمع الشطار مجتمع يسوده بعض المبادئ التي طبقوها ضد الأثرياء من الناس واصطدامهم بالسلطة.

- بمنظور نفسي؛ يرى الباحث أن المسألة النفسية السيكولوجية مهمة لمفهوم الصراع بين الطبقات والجماعات الدينية المختلفة في المجتمع، وإذا كنا نتحدث عن علم النفس الاجتماعي في هذه النقطة(١)، وهو علم قديم لكنه لم يطبق إلا حديثًا، إلا أننا بهذا المفهوم يهمنا معرفة الصراع بين السنة والشيعة على سبيل المثال بمفهوم نفسي، يتداخل معه أسباب أخرى في الاختلافات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وذلك لأن عادة الولاء بين الجماعات الدينية تكون أقوى من غيرها، وذلك من إذ الافتخار بالإنجازات الكبيرة(٢)، وإبراز المقارنات السلبية عن الجماعات الأخرى المغايرة وهذا يتضح في السنة والشيعة في العراق خلال تلك الفترة التاريخية المناط بها الدراسة.

- ارتبطت ظهور الفتن بين السنة والشيعة أو ظهور الشطار والعيارين بالمجتمع في السنوات التي شهدت صراعًا سياسيًّا وأزمة اقتصادية، فكثير من الأحيان وجد الباحث أن السنة التي تشهد أزمة اقتصادية طاحنة يتزامن معها حدوث صراعات بين السنة والشيعة، أو ظهور العيارين وانتشار اللصوصية، وهذا أمر طبيعي، ونتيجة حتمية للعوامل التي أشرت إليها آنفًا، وهذه ظاهرة جديرة بالاهتمام وستظهر خلال السرد الحولي في المباحث التالية(٣)، وكأن هذه الظاهرة تثبت الصراع الاجتماعي الذي تحركه حركة الاقتصاد.

- كان للعلماء دورهم أيضًا في المجتمع خلال تلك الفترة، فتصديهم لعمليات الفساد الاقتصادي التي قام بها الحكام وولاة الأمر، كما نجد في طيات مصنفات العلماء الذين عاشوا تلك الفترة، ما يدل على دورهم المجتمعي، كالأطباء الذين شرحوا الأمراض وطريقة العلاج، أو الفقهاء الذين تحدثوا عن بعض الأمور الاقتصادية والاجتماعية التي مست المجتمع العراقي بشكل مباشر، وسنخصص للعلماء ودورهم مبحثًا خاصًّا لتسليط الضوء عليهم، كجزء وفئة مهمة في حركة الجماهير العراقية وتأثرها بالمحن والأزمات.

---

(١)لامبرت، علم النفس الاجتماعي، ص٢٠٦ وما يليها.

(٢)نفسه، ص٢٠٧.

(٣)سيظهر من خلال السرد الحولي خاصة في ثنايا الأحداث التي تحدث عنها ابن الجوزي ومسكويه وابن الأثير وابن كثير والسيوطي وغيرهم أن كثيرًا من هذه الأحداث الطائفية حدثت في السنوات التي شهدت كوارث طبيعية وهذا سيتضح في المباحث التالية وسيشير لها الباحث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحتوي الفصل على ثلاثة مباحث؛ تتحدث بالترتيب عن الفتنة بين السنة والشيعة كمظهر من مظاهر الصراع الاجتماعي الناتج عن الأزمة الاقتصادية، ثم المبحث الثاني، وهو ظهور جماعة العيارين والشطار كإفراز طبيعي للأزمة الاقتصادية، ثم المبحث الخاص بدور العلماء في المجتمع خلال ظهور المحن والأزمات الاقتصادية.

المبحث الأول: الفتنة بين السنة والشيعة في المجتمع العراقي وأثرها في ظهور المحن والأزمات:

يرجع الصراع السني الشيعي إلى الخلفية التاريخية في الصراع بين عليبن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وما نتج عنه من أحداث جسام بين الطرفين، إلا أن دخول البويهيين الشيعة إلى بغداد كان هو الفيصل لزيادة حدة الصراع، وتواتره على مر السنوات التي حكم فيها البويهيون العراق، وربما كانت زيادة الفتنة والصراع بين الطرفين، ناجمًا عن وصول فئة شيعية إلى حكم البلاد، أو بمعنى أدق تسلطها على الخلافة العباسية المعبرة عن السنة ليس فقط في العراق بل تمتد سلطتها الروحية إلى أرجاء البلدان الإسلامية شرقًا وغربًا[(1)].

إلا أن القول بأن السبب الكبير في الصراع هو البويهيين وتسلطهم فهذا خطأ، لأن الصراع امتد لفترة سبقت دخول البويهيين العراق، فأولى الإشارات التاريخية التي تبين الفتنة والصراع بين الطرفين كانت في عام ١٧٤هـ/ ٧٩٠م وذلك في خلافة هارون الرشيد، إذ يوضح ابن تغرى بردي بقوله: "وفي هذه السنة وقعت العصبية بين السنة والرافضة"[(2)] والرافضة هم من يرفضون خلافة أبي بكر وعمر أي الشيعة في نظر أهل السنة، ولكن لم يبين السبب في هذه العصبية.

ومن الواضح أن أسباب الصراع بين الطرفين كانت في مجملها سياسية، فنظر أهل السنة الحاكمين في البلاد أن الشيعة فئة دينية ضالة خارجة عن الدين، وعن طاعة الحكام أيضًا، فكثيرًا ما رأينا في التاريخ العباسي الثورات التي قامت وكان يتزعمها البيت العلوي ويناصرها عامة الشيعة، وكانت أخطرها ثورة محمد النفس الذكية، وغيرها[(3)]، فامتد الصراع بين الأسباب الاجتماعية والسياسية وبالطبع الدينية.

---

(1) كان البويهيون شيعة زيدية فقد ارتبط أهل البلاد الديلم بالشيعة الزيدية أتباع الحسن بن زيد العلوي، انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٥٨ وما يليها.

(2) انظر حوادث عام ١٧٤هـ؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ص٧٧.

(3) ثورة محمد النفس الذكية كانت من أخطر الثورات العلوية ضد الخلافة العباسية، فقد قام بها محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الذكية ضد الخليفة أبي جعفر المنصور والذي واجهها بقوة وشدة وعزم لأنها كادت تنتصر على الخلافة في بدايتها؛ انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص١٥٦ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وربما مما زاد من الصراع السني الشيعي في فترة البويهيين، هو ضعف مؤسسات الدولة العباسية، وهذا أدى إلى زيادة وتيرة الصراع، وبزوغ فراغ اجتماعي واقتصادي ناجم عن الفراغ السياسي العباسي، فالخليفة العباسي تقريبًا ليس له وجود، وكان البويهيون هم من يتحكمون في كل شيء، وهذا أدى إلى محاولات بويهية للتخلص من الخليفة العباسي[1]، وهو ما أشعر أهل السنة بأن السلطة تعاديهم وتنصر الفئة الشيعية عليهم، خاصة بعد الإجراءات التي اتخذتها السلطات البويهية لإظهار مذهب أهل الشيعة، مما استفز السنة ومن هنا كانت حدة الصراع الاجتماعي الديني بين الطرفين.

نفهم من السياق السابق؛ أن الضعف السياسي، وما نتج عنه من ضعف اقتصادي واجتماعي، كان سببًا كبيرًا في ظهور الصراعات السنية الشيعية، مما زاد الأمر اشتعالًا وتأزمًا، واستمرت هذه الصراعات بين الطرفين طوال مدة البويهيين والسلاجقة من بعدهم، حتى سقوط العراق بين براثن الاحتلال المغولي لها.

على أي حال؛ ستتجلى الأسباب الحقيقية في نهاية البحث، بعد السرد الحولي للأحداث بين الطرفين، إذ سيستنتج الباحث من خلال الإحن بين الطرفين، في نقاط معدودة، نتائج هذا الصراع وهل العامل الاقتصادي كان هو العامل الأكبر في ظهور الصراع وحدته خلال تلك الفترة أم هناك عوامل أخرى، وهل تسبب الصراع نفسه فيتفاقم الأزمة الاقتصادية في العراق، كجزء من الحركة الجماهيرية الاجتماعية المؤثرة والمتأثرة في الاقتصاد أم هناك أسباب أخرى؟

أهم مراحل الصراع بين الطرفين وأسبابها:

كانت أولى الإشارات في التنازع والفتنة بين السنة والشيعة في العراق، عام ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م[2]، إذ وقعت فتنة في بغداد بين السنة والشيعة، ولم تذكر المصادر سواء ابن الجوزي أو ابن كثير أسباب هذه الفتنة، لكنهم ذكروا الحادثة نفسها في حوادث تلك السنة، وأن السنة قاموا بمهاجمة حي الكرخ، وهو من الأحياء البغدادية الكبيرة والذي كان يعد معقلًا للشيعة في بغداد.

ولعل السبب في رأي بعض الباحثين يرجع إلى شعور الأقلية الشيعية بمكانتها خاصة بعد دخول البويهيين الشيعة إلى بغداد قبل هذا التاريخ بأربع سنوات، مما استفز أهل السنة فقاموا بمهاجمة

(1) يذكر ابن الأثير أنه كانت هناك محاولات بويهية في بداية تسلطهم على الخلافة لإلغاء الخلافة العباسية وإبدالها بخلافة علوية شيعية، لكن هذه المحاولات والتي قام بها معز الدولة البويهي تراجع عنها لأسباب سياسية قام الباحث بعرضها في الفصل الأول من الدراسة؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٠٨.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٧٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢،ص١٨٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشيعة في حيهم الكرخ، ويعتقد الباحث أن هذا الرأي مقبول، ففي خضم الأحداث التي ذكرتها المصادر عن تلك الفترة هو الصراع السياسي بين البويهيين والخلافة العباسية السنية وإن كانت ضعيفة، وأيضا الصراع السياسي بين البويهيين من جهة، وبعض الحركات الانفصالية التي تنازعهم السلطة في العراق، فلم تكن السنوات الأربع مستقرة جيدا للبويهيين، مما سبب فراغًا سياسيًا وأمنيًا في العراق، ويعطي الإحساس أن هذه السلطة الشيعية مكروهة من الجميع، وهو ما أعطى الإحساس لأهل السنة أنهم لابد من مشاركتهم في الصراع وذلك بالقضاء على الشيعة أو على الأقل تحجيم دورهم.

ولو تحدثنا عن الفتن، سنجدها لا تخرج عن طور النزاع الشعبي بين الطرفين، إلا أن السبب السياسي والديني والاقتصادي كان عميقًا ومحركًا لهذه الفتنة وغيرها، كما شرح الباحث في الفتنة السابقة، أن السبب السياسي والديني كان محركًا لها بالضرورة، حتى ولو لم تذكر المصادر ذلك الأمر.

تجددت الفتنة في عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م[١]، بين الطرفين، وكان السبب هو استفزاز الشيعة للسنة، وذلك بإظهار سب الصحابة، ما أدى إلى النزاع بين الطرفين وأدى بدوره إلى قتل عدد من الأشخاص بين السنة والشيعة.

وفي العام التالي٣٤٩هـ/ ٩٦٠م[٢]، اشتعلت الاشتباكات بين الطرفين، بسبب ظاهرة سب الصحابة، ما استفز أهل السنة وقاموا بمهاجمة أماكن الشيعة، فالسبب كان واحدًا في كلتا السنتين، ونجد نصًا عند الذهبي أن معز الدولة قبض على بعض وجوه بني هاشم من العباسيين الذين كانوا يقودون السنة في هذه الآونة، حتى تسكت الفتنة بين الطرفين[٣]، وبالفعل سكتت الفتنة حينًا، وربما جاء هذا الإجراء بسببانشغال معز الدولة البويهي بقضية الموصل وناصر الدولة بن حمدان،وهي القضية الأهم سياسيًا في هذه الفترةإذ كانت السلطات البويهية تستعد لتثبيت أقدامها أكثر فأكثر في الأراضي العراقية، فجهزوا الجيوش من أجل طرد النفوذ الحمداني في الجزيرة الفراتية.

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٠٩.
(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٤، ص ١٢٦، الذهبي، تاريخ الإسلام، ص٢٣١.
(٣)نفس المصدر السابق، ص٢٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن اللافت للنظر؛ أن العامين المنصرمين واللذين قامتا فيهما الفتنة كانت بغداد وبعض المدن العراقية تعاني من كوارث أخرى مثل زلزلة عام ٣٤٧هـ[1]وأيضًا انتشار الأمراض مثل أورام الحلق وعدوى الناس، ونقص الأنهار في العراق، حتى ظهرت جزر لم تظهر من قبل[2]، وأدى كل هذا إلى ضائقة اقتصادية في البلاد، ويمكننا أن نعتبر النزاع بين الطرفين معبرًا قويًا عنهذه الأزمة والضائقة، فنفسية البشر تكون أكثر ضيقًا واضطرابًا في الضوائق العامة، ويسهل استفزازها بسهولة من الناحية الدينية أو السياسية، بل ويزيد الولاء العقدي والديني أثناء الأزمات، ما يفسر لنا لماذا ارتبطت النزاعات بين الطرفين في السنوات التي استمرت فيها الضائقة الاقتصادية.

وتجددت الفتنة بين الطرفين في عام ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م ، وذلك لثلاث خلون من شهر شعبان، إذ وقعت الفتنة، وتعطلت الصلوات في معظم المساجد عدا مسجد براثا الشيعي، والذي كان مسجدًا كبيرًا لهم، وتم القبض على جماعة من بني هاشم حتى تنتهي هذه الفتنة، وتم ترحيلهم إلى دار الوزير ثم أفرج عنهم بعد يوم من القبض كما أشرنا آنفًا.

ذكرت معظم المصادر هذه الحادثة على النحو السابق، وهنا لابد لنا من وقفة لتفسير هذه الفتنة، إذ تكرر القبض على جماعة من بني هاشم، وهم يقصد بهم العباسيون السنة، وهذا يفسر وقوف بني بويه لهذه الفتنة بموقف غير المحايد، أو بمعنى أدق، أنهم راضون نوعًا ما عن هذه الفتن بين الطرفين، أو يتم استغلال هذه الفتن في القبض على من تحوم حولهم شبهة الوقوف في وجه السلطات البويهية الحاكمة في بغداد.

تذكر المصادر أن البلاد قد تعرضت في السنة السابقة إلى جدب استمر عدة شهور، حتى أنابن الأثير يذكر أن الأراضي لم تروَ في هذه السنوات مما أدى إلى تزايد الضائقة الاقتصادية، وهو ما أثر بالتأكيد في الحالة العامة للعراق، وأدىإلى تزايد الفتن والاضطرابات الاجتماعية[3].

وفي عام ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م[4]، أمر معز الدولة بن بويه في العاشر من المحرم، بتعطيل الأسواق وإغلاق الدكاكين ومنع البيع والشراء،ومنع الطباخين من عمل الأطعمة، وذلك في ذكرباستشهاد

---

[1]نفسه، ص٢٣١؛ انظر أيضا ابن الجوزي، نفس المصدر السابق، ص١١٤.

[2]انظر حوادث عام ٣٤٦هـ؛ نفس المصدر السابق، ص١٠٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص٢٥٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٩٨.

[3]ذكر ابن الأثير في حوادث تلك السنوت انقطاع مطر وجدب كبير للأراضي الزراعية، مما أدى إلى اشتداد المحنة الاقتصادية؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٥٩ و ص٢٦٤.

[4]ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٤، ص١٥٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٢، ص٢١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحسين في كربلاء، وهي مناسبة شيعية عظيمة، إذ قام معز الدولة فيما يبدو بتشجيع الشيعة على إظهار هذه المظاهر مثل نياحة النساء وشق ثيابهن، ولطم الوجوه، وإظهار الحزن في البلد،وسب الصحابة، وقد أصبحت هذه المظاهر الاحتفالية أو البكائية بسبب ذكرى الحسين تقليدًا سنويًا، مما أدى إلى وقوع مصادمات بين السنة الذين كانوا يخالفون هذا المعتقد ورأوا في هذه المظاهر تعديًا صريحًا عليهم، وبين الشيعة الذين استقووا الآن بالسلطة البويهية التي راق لها القيام بهذه الاحتفالات السنوية.

وقد أدت هذهالمصادمات في تلك السنة وفي السنة التي تليها، خاصة في منطقة قطيعة أم جعفر البغدادية، وطريق مقابر قريش، إلى إزهاق الأرواح، ونهب الناس المحال التجارية ووقعت بينهم جراحات كما يوضح ابن الأثير وابن الجوزي[١].

ولم تكن ذكرى عاشوراء هي الذكرى الوحيدة في هذا الصدد، فنجد في نفس السنة، يأمر معز الدولة بن بويه، بإظهار الاحتفالات في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، والمعروف شيعيًا بيوم غدير خم، إذ كان يوم احتفال مشهود، يظهر فيه الشيعة بالزينة في أرجاء المدينة، وضربت البوقات احتفالًا بهذا اليوم كما يصفه ابن الأثير في حوادث تلك السنة[٢].

كما نرى في السنة السابقة لهذه الأحداث أي عام ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، أن الشيعة كتبوا على جدران وأبواب المساجد، عبارات سب الصحابة ومعاوية بن أبي سفيان، وقد أكد ابن الأثير أن معز الدولة بن بويه كان يعلم بمثل هذه الأفعال، بل وأمر بها، وعندما هاج أهل السنة عليه، أمر وزيره أبي محمد المهلبي أن يأمر بسب معاوية فقط دون الصحابة حتى يهدأ من الموقف[٣].

ومن الواضح أن كل هذه الإجراءات التي اتخذها معز الدولة بن بويه، والتي أصبحت تقليدًا سنويًّافي شهري ذي الحجة والمحرم من كل عام، ورضي عنها، كانت من ضمن سياساته العامة في تغيير وجه بغداد إلى الوجه الشيعي، والقضاء على الخلافة السنية بالقول والفعل أيضا، إذ بنى دوره وقصوره في بغداد[٤]، ووضحت رؤيته لحكم العراق، خاصة بعد الاستقرار السياسي وتثبيت حكم البويهيين في العراق، وهذا يجرنا إلى القول أن العامل السياسي وعدم التوازن بين البويهيين والخلافة، بل والاختلافات المذهبية وتحكمها في السياسة خلال تلك الفترة كانت عاملًا

---

(١)ابن الأثير، الكامل ، ج٧ ، ص٢٨٦؛ ابن الجوزي، المنتظم ، ص١٥٥.

(٢)ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٣)وقد ذكر ابن الأثير في مجمل كلامه أن الفتنة امتدت إلى مدن أخرى بالعراق، مثلما حدث في البصرة من فتنة بين العامة بسبب المذاهب ؛ نفس المصدر السابق، ص٢٧٥ و ص٢٧٦.

(٤)عن الدار الهائلة التي بناها معز الدولة في بغداد؛ انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كبيرًا في توجه الفتن الاجتماعية والدينية كالفتنة بين السنة والشيعة أو بالأحرى والأدق وصفًا تبني مثل هذه الفتن.

ودليلعلى هذا العامل السياسي المؤثر في هذه الفتن؛ فقد مات معز الدولة بن بويه عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م[1]، وخلفه عز الدولة بختيار والذي كان ضعيفًا منشغلًا بالصيد واللهو والنساء، وأصبح القائد التركي سبكتكين هو المتنفذ في حكم بغداد، وقد أظهر هذا القائد ميلًا إلى السنة، وقداستغل هذا الميل لجعل توازن قوي بينه وبين السلطان بختيار، إذ جعل هذا من شيعته السنة في مواجهة السلطان ومناصريه الشيعة، وقد استفاد السنة من هذا الوضع السياسي الجديد بل وانساقوا وراء هذا القائد التركي الذي أصبح ملاذًا لهم.

اتضح ذلك الأمر جليًا في عام ٣٦١هـ/ ٩٧١م[2]، عندما هاجم السكان السنة حي الكرخ ومناطق شيعية أخرى وانتهبوا المنازل والدور وذلك بعد استنفار القائد التركي سبكتكين لهم لحرب الروم، فاستغل السنة هذه النفرة بالانتقام من الشيعة، إذأطلقوا الشعارات التي تدل على أنهم أساس الشر ومنبعه، وكان السلطان عز الدين بختيار منشغلًا في هذه الساعة بالصيد واللهو[3].

وقد استمر التفوق السني على الشيعة بفضل سبكتكين، إذ نجد في حوادث عام ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م[4]، أن السنة استغلوا احتفالات الشيعة في عاشوراء، فقاموا بجمع غفير وأركبوا امرأة وسموها عائشة وتسمى بعضهم بطلحة والآخر بالزبير وقالوا سنقاتل أصحاب علي، فاقتتل الطرفان في شوارع بغداد وأدى ذلك إلى قتل العديد من الطرفين، واستغل العيارون ذلك فنهبوا المحال التجارية والمساكن والدور التي قامت بها الاشتباكات، فتدخلت السلطات وأوقفت هذه الاشتباكات بعد القبض على مشعليالفتنة وحكم عليهم بالقتل والصلب.

استمرت المصادمات بين الطرفين، وكان العامل الأساسي فيها هو الوضع السياسي للشيعة ومساندة السلطات البويهية الشيعية لها، إذ نجد في عام ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م، يقوم عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ببدء خطته لامتلاك العراق ومنازعة ابن أخيه عز الدولة بختيار، وقد كان العامل السياسي المضطرب عاملًا في اشتعال الموقف، فقد عملت السلطة البويهية على إرهاب جميع العلماء بوقف الموعظة والخطبة حتى تقل الفتن الطائفية، وهو ما أدى إلى تحدي بعض

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٩٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٨٢ومايليها.

(٢) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢١٠.

(٣)ابن الأثير، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٤)ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ص٣٤٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلماء السنة لذلك مثل العالم الفقيه ابن سمعون الذي تحدى السلطة واستمر في إلقاء الدروس في جامع المنصور، ولم يجد عضد الدولة وسيلة لإيقاف ابن سمعون، وكان فقيهًا سنيًا نجد ترجمته في مصنف الذهبي[١].

وهذا يدل على أن هناك عاملًا جديدًا وهو دور العلماء السنة أو الشيعة في هذه الفتن في استثارة العوام نحو هذه الفتن، فقد رأى العلماء السنة، أن مقاومة الشيعة واجب عليهم، تحتّمه العقيدة الصحيحة في نظرهم، كما رأوا أنها وسيلة لمقاومة السلطة أيضًا، لأن الشيعة كانوا رديفًا للسلطة دومًا في هذه الفترة، أما العلماء الشيعة فقد ردوا على السنة بالمثل، ورأوا أنهم الأحق في السيطرة، وأن عقيدتهم تحتّم عليهم القضاء على الخلافة السنية وإضعافها، والسيطرة على كل شيء في العراق خلال تلك الفترة.

وفي عام ٣٨١هـ/ ٩٩٠م[٢]، حدثت اشتباكات بين شيعة الكرخ وسنة باب البصرة،وذلك في يوم الغدير من ذي الحجة، وقد أدت الاشتباكات إلى انتصار مؤقت لسنة باب البصرة حتى تدخلت السلطات وقبضت على المشاغبين منهم وتم شنقهم على القنطرة، فسكتت الفتنة وتم القضاء عليها.

ولا جديد في هذه الفتنة السابقة، والتي جرت في يوم عيد الغدير الشيعي، وهذا يدل على أن إظهار الاحتفالات كان سببًا رئيسًا في الفتنة بين السنة والشيعة، بل نجد أن السلطات البويهية كثيرًا ما كانت تنحاز إلى الشيعة مثل ما حدث في تلك المرة من صلب بعض السنة[٣]، وهو ما يزيد الحقد في النفوس بطبيعة الحال.

لكننا نجد أن هناك بعض العقلاء والفضلاء والعلماء يقومون بدور إيجابي تجاه الفتنة، ويقومون بتهدئة بين الطرفين، كما حدث في عام ٣٩١هـ/١٠٠٠م، عندما قام الجند الأتراك ببعض المشاغبة في بغداد، إذ قاموا باقتحام حي الكرخ الشيعي واشتبكوا مع السكان الشيعة، فساعد السنة الأتراك على الشيعة، وزادت الفتنة إثر ذلك، فتدخل العقلاء من الأشراف وسعوا إلى المصالحة والتهدئة التي نجحت في القضاء على هذه الفتنة سريعًا[٤].

---

(١)ابن سمعون هو محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي، وكان أوحد دهره وفرد عصره في علم الكلام، دون الناس حكمة، وله تلاميذ كثر أمثال الحسن بن محمد بن الخلال وأبو طالب العشاري وغيرهم؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٥٠٦ وما يليها؛ انظر أيضا ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣.

(٢)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٢٧.

(٣)نفس المصدر السابق، ص٣٢٧.

(٤)ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي فتنة عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م[١]، يتضح جليًا أن الخلافات الدينية بين العلماء السنة والشيعة كانت سببًا مباشرًا كبيرًا لاستثارة العوام من الطرفين، وذلك عندما تعرض بعض السنة بالشتم والسباب تجاه أبي عبد الله محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم الشيعي، والذي كان يلقي دروسه في مسجد درب رماح، فثار الشيعة له وصاروا إلى بيت القاضي أبي محمد الأكفاني والفقيه أبي حامد الإسفراييني، وهم من كبار علماء السنة، إذ جرت مشادات بين الطرفين، وأظهر الشيعة خلالها مصحفًا ادعوا أنه لعبد الله بن مسعود لكن الفقيه أبي حامد أشار بتحريق هذا المصحف لأنه محرف، فثار الشيعة أكثر واقتحموا بيت أبي حامد، فعلم الخليفة القادر بالله، فبعث أعوانه لمناصرة أهل السنة، ما أدى إلى تفاقم الموقف واحترقت دور كثيرة للشيعة، ثم تدخل عميد الجيوش الوزير البويهي في الأمر، فأمر برجوع أبي حامد إلى بيته، ونفي ابن المعلم من بغداد، ثم ألغى قرار النفي بعد ذلك.

يتضح من هذه الفتنة تغير الوضع السياسي إلى مزيد من التوازن بين الطرفين، إذ نجد تدخلًا لأول مرة من الخليفة ضد فئة مجتمعية تناصر سلطة سياسية متسلطة عليه، فالشيعة يناصرون البويهيين، بينما السنة بطبيعة الحال يناصرون الخليفة، ويجدون ملاذًا أخيرًا لهم، بل ويناصرون الجند الأتراك ضد الشيعة، فأصبحت الأمور الآن متوازنة عن ذي قبل، فكفة مواجهة لكفة وتكاد توازيها في نفس القوة، وهذا نجده في تصرف عميد الجيوش الوزير عندما هدأ الموقف بحياد، وقام بالقضاء على هذه الفتنة دون مناصرة الشيعة كما كان يفعل البويهيون في بعض السنوات.

وفي عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م[٢]، وقعت اشتباكات معتادة بين السنة والشيعة، أدت إلى اشتداد البلاء، وقتل العديد من الطرفين، وفي عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م، وقعت فتنة واشتباكات بين الطرفين، وذلك بسبب استعداد الشيعة لاحتفالاتهم في عاشوراء، وقد تدخل الوزير البويهي فخر الملك، فسكنت الفتنة[٣].

وسنجد ظاهرة جديدة في العراق في تلك السنوات، وهي انتقال الفتنة من بغداد، والتي كانت هي المدينة التي تحتوي وتموج بالفتن بين الطرفين إلى منطقة جديدة وهي مدينة واسط والتي كانت تحكمها إمارة بني مزيد، إذاستنصر الشيعة ببني مزيد في الفتنة التي حدثت بينهم وبين السنة في

---

[١] نفس المصدر، ص٤٩.

[٢] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص١٣٤.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٣؛ ويضيف ابن الجوزي على هذا الحدث تدخل الشريف المرتضى نقيب الأشراف بتوجيه خاص من فخر الملك؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١١١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المدينة وذلك في عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م[١]، إذ قام السكان السنة بحرق محال الشيعة ونهب ممتلكاتهم، فهرب كبار الشيعة ووجوههم إلى بني مزيد الذي تدخل لتهدئة هذه الفتنة.

وهنا نجد أن الفتنة لم تكن في بغداد فقط، وربما كانت هناك بعض الحوادث العارضة في عموم العراق، لكن معظم المصادر التي بين أيدينا تحدثت عن بغداد لأنها الحاضرة الكبيرة، ولأهميتها الاقتصادية والاجتماعية، فيعتقد الباحث أن بغداد كانت هي المعبرة دائمًا عن المحن والأزمات سواء الاقتصادية أو الاجتماعية، ليس فقط لأنها العاصمة والقرار السياسي بيديها، لكنها أيضًا معبرة عن وجدان المجتمع العراقي، وكانت ولازالت في تلك الفترة التاريخية التي نتحدث عنها كعبة العلماء ومقصد الوجهاء، وحاضرة النبلاء، وبالتاليكان كل فرد يحمل توجهاته يحضر إلى بغداد يكون جزءًا من الجماعة والجماهير، وبالتاليتنطبق هذه النظرية بضرورة الحال على السنة والشيعة.

وكان من الطبيعي خلال الاشتباكات بين الطرفين، احتراق العديد من الممتلكات ونهبها، وهو ما أثر في زيادة الأزمة الاقتصادية وتعطل التجارة، وهو من أكثر القطاعات الاقتصادية التي تأثرت بشكل مباشر من الفتنة بين السنة والشيعة، وذلك بسبب تركز القطاع التجاري، والتي تعبر عنها الأسواق في المدن دون غيرها من المناطق العراقية الأخرى، فلم تذكر المصادر أن الزراعة تأثرت بهذه الفتن، لأن جُل هذه الاشتباكات بين الطرفين كانت في المدن، وكثير من الأحداث كانت تتم في الأسواق والمحال التجارية ما يؤدي إلى تلفها وتضررها تضررًا شديدًا.

ونسوق دليلًا على ذلك، فقد ذكر ابن الجوزي في حوادث عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م[٢]، فتنة قامت بين الطرفين،إذ تركزت الاشتباكات في منطقة نهر القلائين، والكرخ، وقد عمل أهاليالمنطقتين حواجز كالأبواب وذلك لحماية مناطقهم، وقد حاولت شرطة بغداد احتواء الموقف وذلك عندما أقدم أبو مقاتل رئيس الشرطة على دخول الكرخ، فمنعه أهاليالحي وساعدهم في ذلك العيارون ما أدى إلى اشتعال المحال التجارية والدكاكين في منطقة نهر الدجاج على أثر تلك الاشتباكات، ولم تفلح الشرطة في الدخول للقضاء على تلك الفتن[٣].

---

[١]ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٥، ص١٢٠.

[٢]ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٥، ص١٢٥.

[٣]خالد الخالدي، الحرب الأهلية بين السنة والشيعة، ص١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن خلال تتبع الأحداث في الفتن بين السنة والشيعة، نجدأن الطوائف الأخرى تدخلت في الصراع بينهما وطالهم ما طالهم من التنكيل، ويبدو أن كثرة المصادمات بين هذه الطوائف جعلت المجتمع يعاني من الاحتقان بين جميع طوائفه.

يتجلى القول السابق؛ في عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م، حدثت فتنة بين السنة والشيعة بعد أيام من موت الخليفة القادر بالله، وتولى ابنه القائم بالله، وقد أدت الاشتباكات إلى قتل العديد من الأشخاص، إذ امتدت الاشتباكات إلى حي الكرخ، وتم نهب بعض المحال التجارية والدور والمساكن[١]، مثل منزل الشريف المرتضى، ثم قام عوام السنة باتهام اليهود أنهم يساعدون الشيعة ضد السنة، فقاموا باقتحام بعض بيوت اليهود وسرقتها، وانتشرت الفوضى في أرجاء الأحياء البغدادية، ثم يحدثنا ابن كثير أن السبب في نهب بيوت اليهود هو مساعدتهم الشيعة في المصادمات مع السنة[٢]، لكن الفتنة تم احتواؤها وانتهت إلى ما انتهت إليه من الفوضى السابقة.

وفي محاولة لتفسير الفتن بين الطرفين وهل لها بعد نفسي فقط أم تشتبك التفسيرات النفسية مع الاقتصادية، سنجد نصًّا عند الذهبي، الذي كثيرًا ما جلب لنا أمثلة عن الفتن بين الطرفين، وقد أرجع هذه الفتن إلى الهوى الذي سيطر على البغاددة "فالهوى قائم بين الرافضة والسنة وكل وقت تستعر فيه الفتنة ويقتل جماعة"[٣] وهذا التفسير في ظن الباحث مقبول، فالهوىشيء نفسي قد يجعل من جماعة معينة تتصرف بجنون، لكن الهوى ذاته يدخل فيه تأثيرات عقدية وسياسية واقتصادية، فالتأثيرات العقدية بين الطرفين جاهزة لتقبل الفتنة بينهما، فكل طائفة تظن أنها على الحق ويعملون وفقًا لذلك، أما السياسية فهي الضعف الذي اعترى السلطة العباسية، بل والتسلط الأجنبي عليها سواء الديلمي في الحالة البويهية، والتركي في الحالة السلجوقية، ونرى أيضًا أن استغلال المتسلط للفتن بين الطرفين لكسب أرضية منها كان جاهزًا أيضًا والأمثلة في الصفحات السابقة دليل دامغعلى ذلك.

أما الاقتصادية، فلم تكن الحالة الاقتصادية جيدة أو منتعشة حتى تجبر الطرفين على السكون، فالمصادمات والاشتباكات بين الطرفين في ظن الباحث كان لها دافع اقتصادي قوي وإن كان غير ظاهر في المصادر التي بين أيدينا، لكن نستطيع أن نستشفه من بين السطور.

---

(١)ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص١٩٩ و٢٠٠.
(٢)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٦٨.
(٣)الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٢، ص٢٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فحي الكرخ الذي كان يعيش فيه أغلب الشيعة في بغداد، لم يكن حيًا عاديًا، فهو الحي التجاري الأول في بغداد[1]، وكان حيًا نشيطًا من الناحيةالاقتصادية، فهو قلب المدينة الاقتصادي ودونه تتوقف التجارة البغدادية وتخسر القطاعات الاقتصادية المختلفة، فكانت معظم المصادمات بين الطرفين تتم على أعتاب هذا الحي أو داخله، ما يؤدي إلى نهب المحال أو تدمير بيوت التجار، فكان الدافع الاقتصادي للفتن يقصد القضاء على النفوذ التجاري الشيعي في بعض الأحيان، أو ضربهم في مقتل، وهو عامل اقتصادي سياسي في الدرجة الأولى.

وهناك عامل مباشر أيضًا مما سبق ومما لحق من الأحداث كما سنتحدث وهو قلة الهيبة كما يسميها الذهبي، إذ أرجع الفتن إلى قلة هيبة الخلافة والسلطة السياسية[2]، إذ نجد في عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م[3]، وقعت فتنة معتادة بين الطرفين أدت إلى نهب الكرخ وباب البصرة، ولم تستطع السلطة الحاكمة احتواء الفتنة أو القضاء على العوام المشاغبين في المنطقتين، ما أدى إلى وصف ابن الجوزي بأن الفتنة سببها انخراق الهيبة وقلة الأعوان[4].

وفي عام ٤٣٧هـ/ ١٠٤٦م، وقعت فتنة معتادة بين السنة والشيعة في بغداد، لكن أثناء الاشتباكات، أظهر اليهود والنصارى الفرح لهذه الاشتباكات، ما أدى إلى اتفاق السنة والشيعة على الهدنة والانتقام من اليهود والنصارى، وبالفعل وقعت اشتباكات بينهم وتم نهب بيوت اليهود وقتل العديد منهم، وامتدت الفتنة إلى مدن أخرى، إذ نجد أن بعض العوام في مدينة واسط قرروا الانتقام من النصارى في المدينة، فانتهزوا جنازة رجل من أكابر النصارى، فهاجموا الجنازة، وهاجموا الجند الأتراك الذين كانوا يحمون الجنازة وهزموهم وسرقوا جثة النصراني وحرقوها ورموا رمادها في نهر دجلة، ما أدى إلى اشتعال الموقف وانتشرت الفوضى في أرجاء المدينة[5].

وقد أدت تلك الأحداث السابقة إلى توقف موسم الحج في أكثر من سنة، ولم تكن الحالة الاجتماعية المضطربة في العراق هي السبب الوحيد لتوقف قوافل الحج، بل كانت الحالة الاقتصادية السيئة وانتشار الأمراض والأوبئة، والحالة السياسية سببًا في التوقف، وهذه نتيجة للمحن المتلاحقة على العراق، ويستشف الباحث أن الأسباب التي أدت إلى توقف قوافل الحج

---

(1) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص١٣.

(2) ذكر الذهبي في حوادث عام ٤٢٢هـ: أن الوزير وجنوده تعرضوا للاعتداء المباشر بسبب ضعفهم وعجزهم عن القضاء علي هذه الفتنة وتبسط العامة فيها؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ص٢٤٦.

(3) نفس المصدر السابق ،ص٢٦٦.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٧٧.

(5) نفس المصدر السابق، ص٣٠٢ ؛ انظر أيضا، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتي كانت السلطات تحرص على حمايتها هي ذات الأسباب التي قد تؤدي إلى توقف القوافل التجارية بين العراق والبلدان الأخرى، وبالتاليكساد قطاع اقتصادي مهم.

وقد تكرر توقف الحج في بعض السنوات بسبب الفتن الاجتماعية بين السنة والشيعة، إذ توقفت القوافل في عام ٤٣٩هـ/ ١٠٤٨م، بسبب فتنة قامت بين السنة والشيعة في تلك السنة، فلم يغادر الحجاج السنة والشيعة على السواء في هذه السنة، خوفًا على أنفسهم وأموالهم في هذه الحالة الأمنية المضطربة(١).

كذلك نجد الأمر يتكرر في السنة التالية أي عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٩م، إذ اقتتل السنة والشيعة وكانت النتيجة المباشرة توقف الركب العراقي إلى الحج(٢).

أدت هذه الحالة السيئة التي تمر بها العراق، إلى إجبار الطرفين على المصالحة والهدنة بينهما، فقد شعر الجميع أنهم يعانون من المحنة والأزمة بسبب حرق الأسواق في بغداد وتأثيراته السلبية على تفاقم الأزمة الاقتصادية،وزيادة على ذلك تعيين النسوي لشحنة بغداد، والذي قام بإجراءات ضد الطرفين اللذين أسرفا في القتل بينهما، ونبش القبور، والقيام ببعض الاغتيالات، إذ اغتال الشيعة السرخسي فقيه الحنفية، وقد عجزت الدولة عناحتواء الموقف(٣).

وتحدثنا المصادر أنه بعد يوم عاشوراء من عام ٤٤١هـ/ ١٠٥٠م، والذي اعتاد العراقيون أن يكون يومًا دمويًا بينهم، تمت مصالحة بين الطرفين(٤)، وكان السبب في هذه المصالحة أبو محمد بن النسوي والذي تولىشرطة بغداد، واتفق السنة والشيعة على التهدئة لو تم عزل النسوي عن الشرطة، ما أدى إلى انتعاش مؤقت في الحالة الاقتصادية لدرجة نزول أسعار الكر لسبعة دنانير(٥).

وصلت المصالحة لحد ترحم أهل الكرخ الشيعة على الصحابة(٦)، وهو أمر نادر بين الشيعة، بل وأذن في باب البصرة وأكثر أهله من السنة بأذان الشيعة، وكان السبب في ذلك شحنة بغداد التي حرصت على إظهار التعايش بين الطرفين.

---

(١)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٠٧.

(٢)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣١٤؛ انظر أيضا ابن كثير، المصدر السابق، ص١١٠.

(٣)خالد الخالدي، الحرب الأهلية بين السنة والشيعة، ص١٩.

(٤)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣١٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١١٢.

(٥)ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٢٦.

(٦)ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٩٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبدو أن النسوي كان شديدًا[1] مشهورًا عنه القمع مع العوام، إذ هدد أهالي بغداد من السنة والشيعة على السواء، بأنهم سيغلقون الأسواق ويتركون البلد، ويخرجون منه في حالة تولية النسوي للشحنكية، لذلك أقدموا على المصالحة السريعة بينهم.

ومن الأحداث السابقة؛ نؤكد أن السلطة الضعيفة كانت من ضمن أسباب هذه الفتنة، ففي وجود شخص قوي يتولى شرطة المدينة، اتفق الطرفان على الهدنة وعدم الاقتتال، وهذا ما نراه في العهود السابقة لعصر بني بويه، إذ كانت السلطة العباسية تعيش بقدر قليل من القوة، تجبر المخالفين في بعض الأحيان لعمل حساب لها قبل عمل أي فتنة.

وفي عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م، تجدد القتال بين الطرفين[2]، وصاحب القتال اقتحام عوام السنة لمشهد وضريح موسى بن جعفر وأحرقوا الضريح بعد اقتحامه، وعاثوا فسادًا ببقية القبور الشيعية، فرد الشيعة بالمثل، وقاموا بنبش القبور للفقهاء والعلماء السنة، وهموا بحرق ضريح الإمام أحمد بن حنبل، وكان للعيارين دور في هذه الفتنة،خاصة من العيارين السنة الذين قاموا بحركة اغتيالات لرؤوس وقادة الشيعة[3]، وكان من أشهر العيارينالذين نظموا هذه الاغتيالات القطيعي العياري.

ولقد أثرت هذه الفتنة بشكل كبير على السياسة الداخلية، فدبيس بن مزيد أمير واسط وكان شيعيًا، فقد رد سياسيًا على هذه الفتنة بقطع الخطبة والتمرد على الخليفة العباسي، وذلك رفضًا للتعامل السني تجاه الشيعة، ولكن سرعان ما أرجع الخطبة[4].

ولقد عجزت الدولة العباسية، والسلطة البويهية على السواء في إيقاف تلك الفتنة، لأن السلطة البويهية والتي كانت متصدرة للمشهد السياسي، كانت في طور الاحتضار، وتعاني من مشاكل

---

[1] جمع أبو محمد بن النسوي القضاة والشهود على المصالحة ومنهم القاضي التنوخي، لكن بالرغم من شدته تلك فقد تجددت الفتنة بعد قليل خاصة في الأسواق ما أدى إلى تبطيلها، انظر ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٢١.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١١٧؛ ويذكر ابن الجوزي أن تجدد القتال هذا جاء بعد المصالحة بين الطرفين إذ قال: كان الاتفاق الذي حكيناه بين الطرفين غير مأمون الانتقاض لما في الصدور فمضت عليه مديدة؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٢٩؛ وأيضا ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠١، أما من الناحية الاقتصادية فخربت الأسواق.

[3] ابن كثير، المصدر السابق، ص١١٧.

[4] ابن الأثير، المصدر السابق، ص٣٠٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كبيرة على المستوى الداخلي والخارجي، لذلك عجزت عن الوقوف ضد هذه الفتن والمحن المتلاحقة.

وقد استمرت هذه الفتنة في السنة التالية أي في عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٣م، إذ قام أهل السنة بالهجوم على الكرخ وقد أسفر الهجوم عنقتل أربعين شخصًا معظمهم من النساء[١]، وقد اشترك القطيعي العيّاري والكثير من العيارين في الأحداث، وقد قام الشيعة بهجوم مضاد على السنة[٢]، ما أدى إلى تفاقم الحرب بين الطرفين التي استمرت إلى السنة التالية أي في عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٤م،إذ تم تعيين ابن النسوي مرة أخرى لشرطة بغداد، وقام بمهاجمة السنة والشيعة وقبض على كثير من الطرفين وأعدمهم وتمكن من دخول الكرخ وإحراق بعض المناطق المشتعلة بالفتنة[٣].

وقد تجدد القتال في عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٦م، إذاقتتل الطرفان كالعادة، وعجزت الدولة عنإيقاف تلك الفتنة، إذ سقطت السلطة البويهية في نفس السنة، وتسلم السلاجقة الحكم في رمضان من نفس السنة، عندما دخل العراق محمد بن ميكائيل بن سلجوق (طغرلبك)، وذلك بمباركة الخليفة العباسي القائم بأمر الله[٤].

والحكم السلجوقي لا يختلف كثيرًا عن الحكم البويهي من الناحية السياسية خاصة في التسلط على مقدرات الحكومة العباسية والخليفة، فقد كانت نفس السياسة، إلا أنهم مختلفون في كونهم سنة، بينما كان البويهيون شيعة، لذلك وهو ما يهمنا في هذه النقطة البحثية، كان التعامل بين السنة والشيعة مختلفًا، بينما كان البويهيون يناصرون الشيعة، ويقدرون احتفالاتهم والتظاهر بها، كان السلاجقة على النقيض، فقد كان عصر السنة الذهبي، ليس فقط في العراق بل كان في العالم الإسلامي كله، فقد انقضى القرن الرابع الهجري، والذي كان بحق عهد تسلط الشيعة على البلدان الإسلامية.

لقد كان تغير السياسة هذا واضحًا في العلاقة بين السنة والشيعة في العراق، فقد قلت الفتنة بشكل ملحوظ، ولم تذكر المصادر المختلفة أية فتنة خلال دخول السلاجقة وما بعدها لمدة ثلاثين عامًا متتالية، إذ نجد أول مظاهر الفتنة كانت في عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م[٥]، إذاقتتل

---

(١)ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٣٥.
(٢)ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٣، ص١١٨.
(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٠.
(٤)نفس المصدر السابق، ص٣٤٧.
(٥)ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطرفان في حي الكرخ، ما أسفر عن بعض الخسائر المادية والاقتصادية، وتكررت بعدها بعام أي في ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م[١]، وأسفرت الاشتباكات عنخسارة اقتصادية في الأسواق البغدادية، بسبب نهب أموال التجار الشيعة، إذ نودي في الأسواق أن نهب أموال الشيعة حلال.

وهكذا نرى أن الفتنة بين الطرفين كان يستحل فيها النهب والحرق، طالما هذا في مصلحة الفئة الأقوى سواء السنة أو الشيعة، وهذا في حد ذاته أضعف الاقتصاد البغدادي القائم على الأسواق التجارية والصيرفة، وقد سكتت المصادر عن الاشتباكات عن السنة والشيعة في مناطق أخرى من العراق، ولكن كما أشرت آنفًا، كانت بغداد هي القلب النابض للعراق، وهي الواجهة لأي شيء يحدث سواء الخير أو الشر.

وقد تكررت الاشتباكات في أعوام ٤٨١هـ/١٠٨٨م[٢] و٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م[٣] و٤٨٣هـ/١٠٩٠م[٤]على التوالي، إذ نجد أن الاشتباكات كانت أسبابها دينية وعقدية، بسبب سب الشيعة للصحابة الكرام في المساجد وعلى جدرانها، خاصة في حي الكرخ، إذ قامت الاشتباكات بين السنة والشيعة والتي أسفرت مثلا في السنة الأولى من تلك الأعوام عنمئتي قتيل، أما في السنة التالية، فقد جرت الاشتباكات وعظمت الفتنة بين الطرفين، وقد نتج عنها نهب الشوارع والمحلات التجارية والأسواق، وانتشار العيارين والشطّار في الطرقات، وقد تعرض شارع ابن أبي عوف للنهب الكامل بسبب هذه الفوضى[٥]، وتم نهب دار الفقيه المحدث أبي الفضل بن خيرون من جملة ما نهبوا، كما قامت العوام بقتل رجل هاشمي، ثم رد السنة بخطف رجل من الشيعة وقتلوه وحرقوا جثته، وعندئذ تدخل الخليفة لوقف هذه الفتنة، فطلب من صدقة بن مزيد عسكرًا لوقف هذه الفتنة[٦].

ويبدو أن السلطات السلجوقية متمثلة في شحنة بغداد والتي يرأسها خمارتاش، قد حاولت إيقاف تلك الفتنة دون جدوى،قبلاستدعاءالخليفةلعسكرابنمزيدلوقفهذهالفتنة،إذ قام أهاليحي الكرخ بمهاجمته، وكذلك فعل أهل باب البصرة السنة[٧].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٤٤٩.
(٢)ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص٢٢٧ .
(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٨٢.
(٤)الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٢، ص٣٤٥.
(٥)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٨٢.
(٦)الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٤٥.
(٧)ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٦٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا يدل على أن الفتنة كانت من القوة فلم تقدر الشحنكية على وقفها، كما تدل هذه الأحداث وغيرها أن الفتنة كانت بين حيين من أحياء بغداد، فمن خلال تتبع الأحداث نجد أن الاشتباكات المحصورة بين باب البصرة والكرخ تكررت لعدة مرات سواء في العصر البويهي أو السلجوقي، وهي ملاحظة جديرة بالاهتمام والتوثيق.

وقد تكررت الفتنة مرات أخرى في عام ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م، إذ قامت بين السنة والشيعة شرور كثيرة وفتن[١]، وتكررت في العام التاليأي في عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وكان مردودها الاقتصادي بالخسارة بسبب ظاهرة حرق المحلات التجارية والأسواق ونهبها[٢].

وفي العام التاليأي في عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، اصطلح الشيعة من أهل الكرخ مع السنة في أرجاء بغداد وتزاوروا وتواصلوا، وهذه من العجائب كما توضح لنا المصادر[٣]، وذلك لأنها تقريبا المرة الثانية في العهدين التي يقومون بالصلح، وهذا يجرنا للقول بأن الصلح بين الطرفين كان يتم في الأمور التي يجب أن يتم فيها هذا الصلح فيما تقتضيه مصلحة الطرفين، فالمرة الأولى اتفق السنة والشيعة على عدم تعيين ابن النسوي لشحنة بغداد عام ٤٤١هـ/ ١٠٥٠م، وكان شديدًا عليهم، لذلك اصطلح الطرفان، أما في هذه المرة فسكتت المصادر عن السبب الحقيقي لهذا الصلح.

إلا أن الباحث يرجح أن السلطات كان لها دخل في هذه المصالحة، وذلك من خلال تتبع الأحداث في المصادر المختلفة نجد أن المصالحة بين الطرفين تجددت في عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م[٤]، إذ يذكر ابن الأثير في حوادث تلك السنة أن الخلفاء والسلاطين اجتهدوا في إصلاح الحال فتعذر عليهم ذلك، إلى أن أذن الله تعالىذلك بغير واسطة.

وحديث ابن الأثير يوضح أنه كان يوجد جهود للسلطات في المصالحة، لكنها كانت فاشلة، ولكن مجرد المحاولة، قد تكون فعلت أثرًا في وقف الفتنة فعليًا، فمن الواضح أن الفتن في العصر السلجوقي كانت أقل ومتباعدة في السنوات، وأقل خطرًا وتأثيرًا، لكنها موجودة على أي حال، وكان السبب فيها هو بعض السياسات الخاطئة من السلطات لمحاباة طرف على حساب آخر، إلى جانب الأسباب الكثيرة التي أوردناها آنفًا.

---

(١)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٢.

(٢)نفس المصدر السابق، ص٢٤٧.

(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص١٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ٢٤٩.

(٤)ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣١ و١٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبدو أن ضعف السلطات السلجوقية كان سببًا في قيام فتنة في أواخر العهد السلجوقي وتحديدًا في عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م، إذ وقعت فتنة بين السنة والشيعة، بسبب إظهار الشيعة لاحتفالاتهم في يوم عاشوراء[١]، ويبدو أن السلطات السلجوقية كانت قد منعت مثل هذه الاحتفالات، لذلك قام الشيعة في هذه السنة بإظهار الاحتفالات، ويبدو أن ضعف السلطات السلجوقية كان حافزًا على خروج الشيعة بالنياح والصياح وعمل مظاهرة شيعية كان شعارها "ما في كتمان" كما أورد ذلك الذهبي، وهذا دليل واضح على أن احتفالات الشيعة كانت في الكتمان طوال هذه الفترة الماضية[٢].

وقد أدت تلك الفتنة إلى مقتل عدد من السنة والشيعة على السواء،وجرت الاشتباكات في حي الكرخ كالعادة وأسفرت عن خسائر في الأرواح والممتلكات.

كانت هذه نهاية الفتن التي تمت بين السنة والشيعة في العهد السلجوقي، وبعد انتهاء العهد السلجوقي لم تتوقف مثل هذه الفتن ولا أسبابها حتى سقوط بغداد في أيدي المغول وسقوط الخلافة العباسية.

وهكذا نرى أن الأسباب كانت كثيرة لهذه الفتن، ومعظمها ينصب في الأسباب السياسية والاقتصادية وبالطبع الدينية والعقدية وبسبب الخلاف الشديد بين السنة والشيعة منذ صدر الإسلام حتى تلك الفترة التي تتحدث عنها الدراسة، إلا أن الفتن بين الشيعة والسنة أثرت في المجتمع سياسيًا واجتماعيًا وبالطبع اقتصاديًا، وفيما يلي النتائج العامة المستخلصة من السرد التاريخي للعلاقات بين الطرفين بشيء أكثر شمولًا وتفصيلًا:

- **أولًا:** كانت هذه الفترة تمثل انحطاطًا حضاريًا كبيرًا، خاصة في منظومة المدينة الإسلامية، إذ حل التعصب والتشدد مكان الحرية الفكرية التي سادت من قبل هذه الفترة السابقة[٣].

فمثلًا نجد أن التشدد والتعصب لم يكن بين الشيعة والسنة فحسب، بل نجد أن التناحر المذهبي كان على أشده وكان يمثل محنة من ضمن المحن الاجتماعية التي مرت على العراق، فالتناحر

---

(١) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٣ ،٨٤.
(٢) الذهبي ، العبر ،ج ٣ ، ص٨٤.
(٣) محمود إسماعيل، سيسولوجيا الفكر الإسلامي،ج ٢ ، ص٢١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين الحنابلة والشافعية على مسألة فقهية بسيطة كان من الممكن أن يؤدي إلى تقاتل بين الطرفين يخلف قتلى وجرحى[١].

بل نجد أن فسيفساء اجتماعية كانت موجودة داخل بغداد، فنجد في خريطة بغداد أنها قسمت على أساس طائفي ومذهبي، وكان هذا واضحًا في التقاتل والتناحر بين أحياء كاملة يعيش فيها طائفة أو أصحاب مذهب واحد مع أحياء أخرى مخالفة[٢].

وهذا يوضح لنا أن القرن الرابع الهجري وما بعده كانت فترة مليئة بالقلاقل الاجتماعية بفضل عوامل كثيرة، فهذه الفترة تعرضت الأمة الإسلامية لخطر الصليبيين الذين احتلوا الشام، وعانى من الغزو كل الأمة بكل طوائفها ومذاهبها.

- **ثانيًا:** كان الدور السياسي في هذه الفتن والصراعات واضحًا، فإذا افترضنا أن الصراعات المذهبية قبل هذه الفترة التاريخية كانت موجودة داخل المجتمع العراقي إلا أنها برزت بشكل كبير بعد التسلط البويهي على العراق، حتى أصبحت مستمرة لسنوات متتابعة ولنفس الأسباب.

فقد كان البويهيون على المذهب الشيعي الزيدي، وهو يختلف اختلافًا جوهريًا عن باقي الفروع من المذهب الشيعي، إلا أن البويهيين تعاملوا مع الشيعة في بغداد والعراق عمومًا بمزيد من العطف والميل لهم، وقد بين الباحث من خلال السرد الحولي السابق، كيف كان البويهيون يستغلون هذا الميل لصالحهم، فيعتقد الباحث أن السياسة كان لها مرمى كبيرًا في هذا الصراع الدموي بين السنة والشيعة، إذ قبلت الدولة البويهية الشيعة كعصبية لها مثلها مثل الديلم والتي كانت تمثل العصبية العرقية والعسكرية، أما الشيعة فكانوا يمثلون العصبية الروحية لهذه الدولةإذ وصل عدد منهم لمناصب كبرى في ظل دولة بني بويه، وقام بعض علماء الشيعة بحركة تأليف كبيرة لترسيخ مذهبهم والرد على المخالفين في حركة تثقيفية لم تحدث من قبل الدولة البويهية، كل هذا كان في مقابل السنة والذين كانوا يناصرون الخلافة العباسية بالرغم من ضعفها الشديد، إلا أن الخلافة بالنسبة لهم كانت هي الحامية والملجأ الوحيد لهم في مقابل بني بويه.

---

[١]ومن أشهر ما حدث ما ذكره ابن الاثير في حوادث عام ٤٦٩هـ من الصراع بين الشافعية والأشاعرة من جهة والحنابلة من جهة أخرى بعد هجوم فقيه شافعي يدعى أبو نصر بن أبي القاسم القشيري على المذهب الحنبلي فقامت اشتباكات لأنصار المذهبين خلفت قتلى وجرحى؛ انظر ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١٣.

[٢]من خلال السرد الحولي السابق ذكر الباحث من خلال المصادر التقاتل والاشتباكات بين أحياء بعينها كانت بين السنة والشيعة مثل حي باب البصرة وحي نهر القلائين وهي ذات أغلبية سنية وبين حي الكرخ وهو مركز تكتل الشيعة؛ راجع السرد الحولي في الصفحات السابقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان الشيعة على خلاف سياسي قديم مع العباسيين، إذ كان الشيعة كثيرًا ما يتحدثون عن الخديعة التي قام بها العباسيون ضدهم في مرحلة بناء دولتهم، والمذابح التي أقاموها للشيعة سواء في العراق أو غيرها، لذلك رأوا في دخول البويهيين إلى العراق نقطة تحول كبيرة في تاريخهم.

ولذلك نجد أن علاقاتهم مع السلاجقة كانت مختلفة، لتعصب السلاجقة الكبير ضد السنة، وكانت قوة الدولة السلجوقية عاملًا كبيرًا لإخماد الفتن ولكن ليس إنهاءها، إذ بيَّن الباحث أن الصراعات لم تنته في عهد السلاجقة، لكنها ضعفت واستكانت في كثير من السنوات لأسباب بعينها وهو ما سنوضحه بعد قليل.

لقد كانت الاحتفالات الشيعية هي الشرارة الكبيرة التي أدت للصراع بينهما ونهر الدماء الجاري بينهما، والذي كانت للعامة دور كبير فيه.

- **ثالثًا:** دور العامة في هذه الصراعات كان كبيرًا، فهم من أذكوا نار الصراعات بسبب ماعانوه من قلاقل أمنية وسياسية واجتماعية واقتصادية متردية، إذ تميز العامة بالتقاتل الأعمى النابع عن العصبية والجهل، "فترى العامي يلاعن ويقاتل في أمر لا يعرف حقيقته"، "وترى كثيرًا منهم يخاصم في هذا وهو يلبس الحرير ويشرب الخمر ويقتل النفس"، وهذه الكلمات التي وردت في كتاب ابن الجوزي "تلبيس إبليس" لهي واضحة على جهل العامة وتقاتلهم من أجل قضايا قد لا يعرفون مداها أو خطرها[1].

وكان العامة يقومون بفن التمثيل والمحاكاة أثناء الصراعات بينهما، فمنهم من يقوم بدور عائشة وطلحة والزبير أثناء قتالهم ضد علي، ومنهم من يجلب كلابًا ويسميها باسم معاوية وأبي سفيان، وكثيرًا من هذه التُرهات التي كانت تؤجج الصراع وتؤدي للقتال بين الطرفين وسقوط العديد من القتلى[2].

وقد لجأ العامة أيضًا إلى إطلاق الشائعات، ورواية المنامات التي تدل على لعن الطرف الآخر مستعينين بالصحابة الكرام الذين يحكون عنهم الكرامات في المنامات المختلفة وأمرهم للعن الطرف الآخر[3].

---

(1) ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، تلبيس إبليس، نشر دار القلم، بيروت، لبنان، ب ت، ص٣٧٥، ٣٧٦.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٦٥.

(3) مجدي سمير إبراهيم، الدور الاجتماعي للشيعة في العراق في عصر سلاطين السلاجقة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م، ص١٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونجد أن العامة لجأوا أيضًا لتزوير التاريخ لصالح الخلافات المذهبية كجزء من الشائعات التي انتشرت أثناء الفتن، إذ نسوق مثالًا على ذلك، وهو لجوء البعض من السنة إلى الادعاء بأن يوم الغدير كان اليوم السادس عشر من ذي الحجة كما جعلوا بعد يوم عاشوراء بثمانية أيام يوم مقتل مصعب بن الزبير نكاية في الشيعة، كما زاروا قبره كما يفعل الشيعة في زيارة قبر الحسين[١].

إلا أننا في حديثنا عن العامة لابد لنا من معرفة ما وراء هذه المصادمات والتقاتل، فهناك فئة من العامة وجزء أصيل معبر عنها كانت مستفيدة من هذه الفوضى الاجتماعية للمزيد من الكسب الاقتصادي والسياسي أيضًا، وهم فئة العيارين والشطّار واللذين سيأتي ذكرهما مفصلًا في المبحث التالي، إلا أننا سنوضح أنهم كانوا من أكثر الفئات المجتمعية نشاطًا أثناء الفتن بين الطرفين، فكثيرًا ما قام العيارون بنهب المحال التجارية خاصة في حي الكرخ والمعروف عنه أنه من الأحياءالتجاريةالبرجوازية فهو معدن الشيعة والتجار .

وإذا اعتبرنا أن هذه الفئة كان منها السني والشيعي لتخيلنا الوضع المأساوي، إذ كانت كل فئة تستعين بها لإضرار الطرف الآخر سواء بالنهب أو الحرق، فقد كانت هذه الفئة تمثل النجدة والفتوة والقوة المسلحة لكل فئة على حدة، فسنعرف بعد قليل في خلال الحديث عنهم تفصيليًا أنها كانت فئة خطيرة ولها مطامح سياسية وأهدافًا تتعلق بالمساواة بين الناس ونهب التجار الميسورين الذين لا يؤدون الزكاة، أي أن الدين أو الأخلاق بحد أدنى عامل مهم في أهدافهم وهو ما كان يحركهم في بعض الأوقات والصراع العقائدي المذهبي بين الطرفين كان داخلًا ضمن هذا المفهوم السابق.

وعلى أي حال سيأتي ذكرهم مفصلًا في المبحث التالي.

– **رابعًا:** كان للدولة السلجوقية والخلافة العباسية معًا؛ دور في القضاء على هذه الفتن والمحن الاجتماعية، ومن الممكن تسمية هذه السياسة السلجوقية بسياسة "تجفيف المنابع" وهي السياسة المتبعة للخلاص من خطر ما وذلك بالقضاء على جذوره الفكرية والتنظيمية، وهذا ما فعله السلاجقة ولكن بدرجات متفاوتة، إذ كان هدف السلاجقة التخلص من صداع الفتنة المذهبية والخطر الشيعي عليهم لأن سنيتهم الشديدة كانت من تحرك عواطفهم ومن وراءها سياستهم في العراق.

(١) نفس المرجع السابق، ص١٤٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما عن الخطوات الخاصة التي اتخذتهاالسلطات، فكانت أولها القبض والتنكيل ببعض علماء وفقهاء الشيعة الذين لا يلتزمون بالمنهج المعتدل، والتخلص من المتشددين منهم وإبعادهم عن العامة بإقاماتهم الجبرية في بيوتهم كما فعلت مع فقيه شيعي يدعى البديع عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، أو الفقيه أبو السعادات بن قرايا الذي عوقب بقطع يده ولسانه بسبب تهمة سب الصحابة[١]، أو استدعاء نقيب الطالبيين وتوبيخه بسبب إقامة احتفالات شيعية كما حدث في عام ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م[٢].

أما ثاني الخطوات، هو الدور الأمني في هذه الصراعات، وهو ما يسمى بدور جهاز الشحنة أو الشرطة، إذ كثيرًا ما كان يتعامل الشحنة السلجوقي بالعنف والشدة ضد الطرفين المتقاتلين، وقد ذكر الباحث دور ابن النسوي في الفتنة بين الطرفين، وكيف كان شديدًا على الخصمين المتحاربين حتى اتفقا فيما بينهما على التخلص منه عن طريق الاغتيال والصلح بينهما بعد ذلك، إذ شاع عن ابن النسوي أنه يقتل أقوامًا ويأخذ أموالهم، ويصفه الذهبي "أنه كان ظالمًا فاتكًا مهيبًا ظلومًا"[٣].

وقد كان دور جهاز الشحنة كبيرًا في هذه الفترة، وكان دوره ينحصر في المحافظة على الأمن، لكن بعض ولاة هذا الجهاز استغلوا هذه الفوضى لمصالح شخصية إذ قاموا بالنهب والسلب وفرض الإتاوات على الناس مثلما حدث في عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م[٤].

وكانت السياسات الأمنية في العموم واضحة في جعل المناطق التي تمثل بؤرة الصراع ثكنات عسكرية ومنع الطرفين من الاقتتال في الشوارع، وقد نجحت بعض الإجراءات الأمنية في وقف بعض الفتن، إذ كانت تبقي القوات أيامًا متتالية، سواء في حي الكرخ أو باب البصرة أو منطقة نهر القلائين وغيرها من الأحياء التي شهدت صراعًا دمويًا في السابق[٥].

ومن الواضح أن الدولة السلجوقية فشلت في بعض السنوات في ضبط الأمور وذلك بسبب جهاز الشحنة الذي كان يعتبر من أهم محركات الفتنة في بعض الأحيان، مثلما حدث مع الشحنة

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٣.

[٢] ذكر ابن كثير أن نقيب الطالبيين أبا الغنائم طولب من الخليفة بالقضاء على المظاهر الشيعية، وتم التوقيع منه على عدم سب الصحابة وعدم إظهار البدع؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٦٤.

[٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٣٠، ص٣٣٥.

[٤] في هذا الصدد يحدثنا ابن الجوزي عن مصادرات لأموال تمت في حوادث عام ٤٧٩هـ بسبب الفتن المتصلة بين السنة والشيعة، كما تم اعتقال بعض القادة مثل نقيب الطالبيين وبذل أموال منه؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٥٦.

[٥] مجدي سمير، الدور الاجتماعي للشيعة، ص٢١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خمارتيكن الذي تساهل مع الشيعة في إقامة احتفالاتهم مقابل الرشوة، إذ يخبرنا ابن الأثير أن هذا الشحنة كان يأخذ الإتاوات والجرايات من الشيعة مقابل ذلك، بل يتقاعس عن حماية العامة في الفتن ويترك الاقتتال يزيد من أجل الرشاوى والمنفعة العامة له مثلما حدث عام ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م[١].

أما عن ثالث الخطوات، قيام الخلافة العباسية بتقدير نقيب الطالبيين، ليكون من أهم وظائف الدولة وذلك ليحل مشاكل العلويين، بل ويتدخل في الفتن التي كانت تجري، وأحيانًا كانت تستعين الخلافة العباسية به من أجل التدخل لوقف الاقتتال مثلما حدث في عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م عندما استعان الخليفة المقتدي بالله بالنقيب الطاهر لحل النزاع بين أهل الكرخ الشيعة وأهل باب البصرة السنة[٢].

ومن المعروف عن نقابة الأشراف أنها ترعى شئون الطالبيين في دولة بني العباس قبل العصرين البويهي والسلجوقي، إذ أسسها خلفاء بني العباس حتى يتسنى لهم السيطرة على جموع بني طالب والهاشميين ومن تبعهم من الشيعة، وتكون لهم مؤسسة تحت سيطرة الخلافة، وتراقبها السلطات ومن خلالها يمكن التحكم في خطر الشيعة ومن سواهم من المعارضين.

وبعد ضعف الخلافة العباسية والتسلط العسكري البويهي والسلجوقي، أصبح دور نقابة الأشراف أكثر خطرًا، إذ رأينا أنها تقوم بالوساطة بين السنة والشيعة، وتحاول إصلاح ذات البين بأمر من الخلافة والسلطات المتسلطة عليها، لذلك كانت هذه النقابة ذات أهمية ودور سياسي خادم للسلطة طوال العصرين مناط الدراسة[٣].

وكان من الواضح أن الدولة السلجوقية انتهجت نهجًا وهو اعتلاء بعض الشيعة المعتدلين لبعض المناصب في الجهاز الإداري للدولة بالرغم من توجه الدولة السني، وكان من أهم الشروط هو اعتدال هؤلاء وعدم تشددهم في مذهبهم أو تربصهم بالسنة سواء في العراق أو فارس إذ تولوا الوزارة وجباية الضرائب والحسابات بل وانضموا إلى جيش السلطان، وكان من أشهر من تولى الوزارة من الشيعة أنوشروان بن خالد بن محمد القاشاني الذي كان وزيرًا للسلطان محمد بن ملكشاه ووزيرا للخليفة العباسي المسترشد بالله[٤].

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص٤٦٠ ،٤٦١.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٥٦.

(٣) مجدي سمير، الدور الاجتماعي للشيعة، ص٢١٥.

(٤) هو الوزير الكبير أبو نصر القاشاني؛ وكان عاقلًا رزينًا، وافر الجلالة، حسن السيرة، محبًا للعلماء؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص١٥ و١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-**خامسًا:** كان من ضمن الظواهر التي ميزت هذه المرحلة، علاقة الشيعة بالخارج وكانت من الأسباب التي جعلت السلطات العباسية تنظر إليهم بنظرة الشك والريبة، فداخليًا كانت إمارة الحلّة تحت إمرة الشيعة من أسرة بني مزيد، وكانت هذه الإمارة تتحلى في بعض الأوقات بالكياسة في علاقتها مع الخلافة العباسية، لكن الأدهى من ذلك كانت العلاقات الخارجية بين الشيعة عمومًا والخلافة الفاطمية في القاهرة، مما جعل الصراع في بعض السنوات يتخذ شكلًا سياسيًا بحتًا، إذ نجد في حوادث عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م، عندما حدثت فتنة بين الشيعة والسنة في بغداد خرجت مجموعة من الشيعة في الشوارع وهم يصيحون "ياحاكم يا منصور"[(١)] يقصدون الخليفة الشيعي بالقاهرة مما أدى إلى غضب الخليفة وتدخل لنصرة السنة وكانت النتيجة احتراق عدد كبير من بيوت الشيعة ونهبها والقبض على عالم من علماء الشيعة وهو الشيخ المفيد وإبعاده من بغداد.

حادثة أخرى في نفس السياق السابق؛ هي القصيدة التي ألفها الشريف الرضي وكان نقيبًا للشيعة في بغداد، وكانت هذه القصيدة تحمل مشاعره الخاصة تجاهالفاطميين في مصر وأنه لو تمنى العيش في كنفهم[(٢)]، ما أغضب السلطات عليه، وتم القبض عليه من جنود الخليفة القائم بأمر الله، وعندها أنكر هذه القصيدة له بالرغم من صحة نسبتها إليه إنما أنكرها خفية وتقية من القائم، لكنه ظل مشكوك في ولاءه لفترة طويلة وكان بعض أبيات هذه القصيدة:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حمي

أليس الذل في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي

من أبوه أبي ومولاه مولاي ... إذا ضامني البعيد القصي

ولقد كانت فتنة أبي الحارث أرسلان البساسيري مثالًا واضحًا على مساعدة الشيعة له للخلاص من الخلافة العباسية[(٣)]، بل والدولة البويهية الضعيفة آنذاك، وحب الشيعة البغاددة على وجه الخصوص للمصريين الفاطميين، إذاستقبل حي الكرخ الشيعي البساسيري وجنوده بالترحاب وتلقفوا الرايات البيض الفاطمية في الشوارع وذلك في عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م[(٤)]، وقد امتدت هذه

---

(١) يقصدون الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي آنذاك؛ انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ٣٧٦، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٧.

(٢) انظر ترجمة الشريف الرضي النقيب في وفيات عام ٤٠٦هـ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١١٨ و١١٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٤٠.

(٤) يذكر ابن كثير المشهد بقوله: وكان الروافض في تلك الأيام في غاية السرور؛ ابن كثير، نفس المصدر السابق، ص١٤٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المساعدة لشيعة البصرة الذين قاموا بنهب دور أهل السنة في المدينة واقتتلوا في الشوارع على إثر ذلك، وقد انتصر الشيعة في هذه الحرب الأهلية وأقاموا آذانهم وشعائرهم.

وعلى الرغم من فشل هذا الانقلاب بمقتل البساسيري ودخول السلاجقة للعراق وحكمهم إياها، إلا أن الشيعة قاموا بعمل تنظيمات سرية للدعوة إلى التخلص من السلاجقة والدخول في كنف الدولة الفاطمية بمصر، إذ نجد أن عام ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م قامت السلطات بالقبض على تنظيم شيعي يقوده الفتيان العياروناالشيعة في مسجد براثا الشيعي والذي كانوا يعقدون اجتماعهم فيه وقد اتهمت السلطات هذه المجموعة بمحاولة الاتصال بالفاطميين وإثارة الفتنة في بغداد(١).

كما تكرر هذا الأمر في عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م عندما تم القبض على مجموعة أخرى بتهمة التخطيط لاغتيال بعض الشخصيات في الدولة لصالح الإسماعيلية الباطنية(٢).

كل هذه الأمور السابقة كانت تصب في ازدياد الفتنة الاجتماعية في المجتمع، وشذوذ بعض الفئات عن المجتمع العراقي، وهو ما زاد بالضرورة المحن والأزمات التي نحن بصددها.

- **سادسًا:** أما عن النقطة السادسة في هذه النتائج العامة في المبحث؛ هي تأثر الحالة الاقتصادية العامة في العراق بهذه الفتن، إذ تعرضت الأسواق في كل الفتن بين السنة والشيعة إلى الحرق الكلي أو الجزئي، خاصة أسواق باب البصرة وحي الكرخ ومنطقة نهر القلائين وغيرها، وكانت هذه الأسواق تضم الكثير من المحال التجارية التي تعرضت بالضرورة إلى الحريق.

هذا إلى جانب -كما أشار الباحث منذ قليل في الأعلى- أن العيارين والشطار كانوا يقومون في بعض الأحيان بدور تخريبي من نهب المحال التجارية والأسواق وسرقتها، وقطع الطرق، وسرقة أموال التجار الميسورين، كل هذا كان أثره كبير على حركة البيع والشراء ووصول المواد الغذائية الضرورية للأسواق، إذ كانت هذه الكوارث الاقتصادية على الجميع سنة وشيعة.

وقد تعرض حي الكرخ وهو من أكبر الأحياء التي شهدت قتالًا ضاريًا بين الطرفين، إلى الحريق والنهب أكثر من مرة، وتم نهب الكثير من المحال التجارية، مما أدى إلى توقف التجارة في هذا الحي المهم، ومن المعروف أن هذا الحي بمثابة قلب بغداد النابض من الناحية الاقتصادية كما

---

(١) كان هؤلاء الفتيان قد اتهموا بالميل إلى الفاطميين بمصر بل ومراسلتهم، فقد تم القبض على رئيسهم المدعو ابن رسول الذي كان يراسل شخصًا يدعى عبد القادر الهاشمي، وقد اتخذوا من مسجد براثا الشيعي مقرًّا لهذا النشاط؛ نفس المصدر السابق، ص٢٠٧.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين ابن الأثير في مقولته عن هذا الحي أنه معدن الشيعة والتجار، إذ كان سكن الكثير من التجار كما وضح الأصطرخي[1]، وكان عملهم في هذا الحي أيضًا، وكان يسمى بالسوق العظيم لبغداد، وبالتاليتعرض هذا الحي للخراب والحريق وغلق الأسواق كان هذا بمثابة خسارة اقتصادية كبيرة للجميع.

ولعلنا نسوق مثالًاعلى حريق شديد نشب بسبب أمر الوزير أبي الفضل الشيرازي –وكان وزيرًا للخليفة العباسي–ويشتهر بسنيته الشديدة–بحرق الكرخ وتأديب الشيعة بنهب محالهم التجارية في سوق الكرخ، وكان هذا الحريق عام ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م[2]، وهو ما يدل على أن أسواق الكرخ كانت تعاني بالفعل من حالة اقتصادية سيئة بفعل هذه الفتن.

ولم يكن حي الكرخ البغدادي فقط من تعرض للخراب، فنجد أن سوق باب البصرة تعرض للنهب وسرقة الكثير من الأموال وحرق المحال التجارية فيه، وذلك في عام ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م[3]، وهذا يدل على أن الأسواق البغداية كانت ترزح تحت وطأة اقتصادية سيئة بفعل هذه الفتن.

ولم تكن السوق العظيم بالكرخ هي المتضررة فقط، بل نجد أن أسواق الرياحين وعبدون، وباب دار الضرب، وسوق الصيارفة وخان الرقيق، تعرضت للحرق والنهب والسلب في كثير من الأحيان سواء بسبب الفتن الاجتماعية أو الكوارث الطبيعية.

بل امتدت هذه الظاهرة وهي حرق الأسواق ونهب المحال التجارية للطرفين إلى مدينة واسط، ففي حوادث عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م، نجد أن الطرفين لجأوا أثناء الاقتتال بينهما إلى الدخول إلى الأسواق وحرق المحال ونهبها، مما أدى إلى تدهور الحالة الاقتصادية في المدينة[4].

بل نجد أن تعطيل الأسواق وحركة البيع والشراء كانت سمة مميزة في احتفالات الشيعة، إذ تخرج النساء بالنواح، والرجال بشق الثياب ولطم الخدود، ويصاحب هذه الأفعال تعطيل للبيع والشراء وغلق الحوانيت، وذلك بأمر من السلطات أحيانًا كما فعل معز الدولة بن بويه في عام ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م[5].

وهكذا نرى أن الصراع السني الشيعي كان من مظاهر المحن والأزمات التي ألمت بالعراقيين من الناحية الاجتماعية وبالتاليمن الناحية الاقتصادية وهو المبتغى النهائي من تلك الدراسة.

---

(١) الإصطرخي، المسالك والممالك، ص٨٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٦٦.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص٥.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٢٠.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثاني: حركة العيارين والشطّار وأثرها على الاقتصاد في العصرين البويهي والسلجوقي:

كانت حركة العيارين والشطّار من أهم الحركات الاجتماعية المميزة في تلك الفترة التاريخية التي نتحدث عنها، فهي الفئة التي تدخلت بشكل مباشر في الفتن والمحن الاجتماعية فكانت في بعض الأحيان سببًا في الأزمات الاقتصادية التي حدثت في العراق، وفي أحياناًخرى كانت هذه الحركة معبرة عن الضمير الشعبي المناضل ضد السلطة السياسية التي كانت سببًا في الأزمات التي مرت على الرعية، إذ كانت هذه الفئة تتعامل ضد السلطة بمنطق "سرقتها والنضال ضدها وضد من شاكلها هو غاية النصرة للعامة والمطحونين"[١]وهذا يجرنا إلى القول أن هذه الحركة ماهي إلا حركة تدعو إلى المساواة والعدل حتى لو كانت أفعالها لا تمت بصلة إلى المساواة والعدل.

لفهم الفقرة السابقة لابد لنا من تتبع تاريخ هذه الحركة المتمردة ضد السلطة العباسية وأيضًا البويهية والسلجوقية، وقبل تتبع تاريخها ينبغي على الباحث إيضاح بعض النقاط المهمة:

- النقطة الأولى: تعريف الحركة في معناها اللغوي والاصطلاحي كمدخل مهم عن معنى وهدف هذه الحركة.
- النقطة الثانية: الحديث عن فلسفة هذه الحركة في عملها التنظيمي ضد السلطة ولنصرة العامة أو حتى في السلب والنهب.
- النقطة الثالثة: تتبع تاريخ الحركة قبل الفترة التاريخية مناط البحث.
- النقطة الرابعة: السرد الحولي في المصادر عن عمل هذه الحركة وتأثيره في الاقتصاد.
- النقطة الخامسة: إيضاح إشكالية الدراسة عن العيارين والشطّار بإجابة سؤال مهم وهو هل حركة العيارين كانت ضحية للأزمة الاقتصادية أم هي من العوامل التي أدت إلى الأزمة؟ وللإجابة عن هذا السؤال أو الإشكالية سنلخص في نهاية المبحث النتائج العامة للبحث وعليه ستكون الإجابة المستخلصة عن هذا السؤال.

---

(١) محمد رجب النجار، الشطّار والعيارين (حكايات في التراث العربي)، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م، ص٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولًا: التعريف اللغوي والاصطلاحي للعيارين والشطّار:

العيارون جمع عيّارومادتها في المعاجم "عيّر" بمعنى وزن وكيّل[١]،وتعني أيضًا في اللغة بالرجل كثير الحركة، الكثير المجيء والذهاب، الذكي الطوّاف، والعرب تمدح هذه الكلمة في بعض الأحيان وتذمها في أحياناأخرى[٢]، إذ تقول فتى عيّار في معصية الله، أي نشيط الحركة في طريق المعصية، أو العكس فتى عيّار في طاعة الله[٣].

وقد سمى العرب الأسد بالعيّار، فمن ضمن أسماء الأسد الكثيرة هذه الكلمة والتي تعني لنشاطه وكثرة ذهابه ومجيئه في البرية بحثًا عن الفريسة المناسبة، فجاءت هذه الكلمة التي تدل على القوة والنشاط والذكاء في نفس الوقت[٤].

والدليل على هذا المفهوم السابق نورد بيتًا من قصيدة أوس بن حجر عن العيّار عندما قال:

ليث عليه في البردي هرية كالمزبراني عيّار بأوصال[٥]

أي أن الأسد من القوة عندما يفترس الرجل يقطع أوصاله، وهكذا الرجل العيّار، الماهر المجتهد الذي يشطر ملابس الرجال ويجرحهم من فرط قوته، ونفس المعنى كلمة الشاطر والتي ترادف العيّار في جميع معانيها تقريبًا.

وقيل أيضًا عن العيّار أنه الرجل الذي يتردد بلا عمل يخلوإلى نفسه وهواها لا يروعها ولا يزجرها، وأيضًا الرجل الذي يهيم على وجهه لا يثنيه شيء، وهو المتردد الجوّال الذي كالفرس المنفلت الذي يخرج عن الطريق براكبه[٦].

وتجمع المجامع اللغوية الحديثة على مصطلح واحد للعيارين وهو "رجال ذوو بأس وشهامة وشجاعة، ولهم ما لأهل الفتوة من صفات، وإن كان منهم من يسلك طريق اللصوصية وقطع

---

(١) الرازي، مختار الصحاح، ص١٩٤؛ الزبيدي (أبو الفيض محمد بن مرتضى الحسيني الواسطي)، تاج العروس في جواهر القاموس، ج٣، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٨٨٨م، مادة عير وعار.

(٢) حسين محمد حسين الفقيه، الشطّار والعيارين في الدولة العباسية، دورية كان التاريخية، العدد ١٥، ٢٠١٢م، ص١١٦؛ انظر أيضًا، المعجم الوسيط، ص٦٩٣.

(٣)محمد أحمد عبد المولي، العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠ م، ص٣١.

(٤) الزبيدي، المصدر السابق، ص٣٤٣.

(٥) الزبيدي، تاج العروس، ص٣٤٣.

(٦) طه حسين عوض هُديل، العياويون وأثرهم في مدينة زبيد من القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع الهجريين، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد ٧، العدد ١، ٢٠١٣م، ص٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطريق على الناس"[١]، وهذا المعنى شامل وأعم لكل المصطلحات السابقة، وهو الذي يصف في ظن الباحث الحقيقة عن هؤلاء العيارين الذين كانوا بحق رجال ذوي شهامة وقوة وبأس، ينصرون الضعيف، ويرهبون بقوتهم القوي ويأخذون منه الأموال لإطعام الفقير في بعض الأحيان، لكن هذا لا يعني أن هذه الحركة لم تحد عن الصواب في بعض الأوقات خاصة في أوقات الأزمات الشديدة التي مرت على العراق عبر تاريخها في العصور الوسطى.

وترتبط كلمة العيّار بكلمة أخرى ترادفها في أحيان كثيرة وهي كلمة الشطّار، وجمعها شاطر، ومادتها في المعاجم "شطر" وتعني الشخص الذي أعيا أهلهخبثًا، وقيل هو الرجل الذي شطر أهله وانفصل عنهم وتركهم مخالفًا أو مراغمًا وأعياهم خبثًا ومكرًا[٢].

وهذا التعريف السابق يعني أن جزءًا من هؤلاء الفئة قد يكونوا تركوا أهلهم وساروا في طريق هذه الفئة من قطع الطرق أو السرقة في سن صغيرة ونشأوا في طريق هذه المهنة.

وقيل أيضًا في اللغة أن الشاطر هو الرجل الذي يشطر ثياب من يهاجمه نصفين ليأخذ المال، وتعني أيضًا في معنى آخر أن الشاطر هو البعيد عن الاستواء مثل قول الناس "فلان شاطر أنه أخذ في غير الاستواء"[٣]أي أنه خرج عن المألوف والعادة القويمة والفضيلة التي يتمتع بها المجتمع.

وتعني أيضًا "أنه من عصا أباه أو ولي أمره ودعا في العصيان والخلاعة"[٤]، وأيضًا وردت بمعنى أنه اللص الذكي الذي يستخدم الحيلة والخداع والقوة في المواضع التي تجبره على استخدام ذلك.

وهناك بعض الكلمات التي تدل على نفس المعنى السابق للعيّار والشطّار، وهي كلمات الزعّار، الفتيان، الدعّار، والتي وردت عند أكثرية المصادر المعاصرة والتي تحدثت عن هذه الفئة الاجتماعية[٥]، وهي نفس الكلمات للمدلولات السابقة، والسبب في هذا التضارب بالنسبة للمصطلحات يرجع في ظن الباحث إلى أن أصحاب المصادر التي تحدثت عن هذه الفئة اختلفت ميولهم وعواطفهم تجاههم، وذلك لأن هذه الفئة كانت في أحيان كثيرة تقوم بدور تخريبي

---

(١) عبد المولى، العياريون والشطار، ص٢٨.

(٢) الرازي، مختار الصحاح، ص١٩٤؛ المعجم الوسيط، ص٤٨٢.

(٣) الفقيه، الشطار والعيارين، ص١٦.

(٤) المعجم الوسيط، ص٤٨٢.

(٥) نجد أن ابن الأثير وابن الجوزي كانا من أكثر المؤرخين الذين استخدموا هذه المصطلحات، هذا إلى جانب كلمتي العيار والشطار، وهذا سيتضح لاحقًا من خلال السرد الحولي للأحداث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يعجب المثقفين والكتاب، لذلك أدى ذلك إلى تسميتهم بالتسميات السابقة وضم هذه الفئة في كتاباتهم إلى اللصوص والسرّاق وقطاع الطرق.

إلا أن كلمة الفتى تختلف اختلافًا جوهريًّا "فالفتى لا يزني ولا يسرق" ويتصف بالشهامة والذكاء، ورد الحق إلى أصحابه، ويرجع الفتوة عمله إلى سيد الفتيان في نظرهم وهو الإمام عليين أبي طالب كرّم الله وجهه، فهو أول الفتيان في نظرهم وهم على الطريق من بعده سائرون[١].

وقد فسر أحمد أمين في كتابه الفتوة والصعلكة في الإسلام "أن الفتى من ضرب بالسيف والسكين، وأطعم الفقير والمسكين، وليس الفتى من أقام الشنائع،وشهر على الأمة السلاح، فالفتى من جمع الكلمة ودعا إلى الإصلاح"[٢]، وهذا تفسير واضح وشامل عن كلمة الفتى، إلا أن المصطلح بالكامل سنتناوله في النقطة التالية.

ثانيًا: هدف الحركة التنظيمي وفلسفتها سواء ضد السلطة أو نصرة العامة:

لا يكتمل المعنى اللغوي والاصطلاحي للعيّار والشطّار والفتيان وغيرها من الكلمات الدالة على هذه الفئة أو الحركة، إلا بتناول هدف هذه الفئة وفلسفتها الخاصة في عملها ضد السلطات أو من إذ نصرة العامة والضعفاء والمهمشين، ولتناول هذا الموضوع، لابد لنا من تقسيمه إلى عدة نقاط حتى يتسنى لنا رؤية الصورة الكاملة لهذه الفلسفة الخاصة لفئة العيارين.

---

(١) السُلمي (أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين)، الفُتُوة، تحقيق إحسان ذنون الثامري ومحمد عبد الله القدحات، دار الرازي، عمان، الأردن، ٢٠٠٢ م، ص٣٨.

(٢) أحمد أمين، الصعلكة والفتوة في الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢ م، ص٣٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويمكن تقسيم هذه النقطة إلى نقطتين وهما:

- الجانب المعرفي والخلفية الثقافية لهذه الفلسفة.
- تحليل خاص عن هذه الفئة وكيفية تنفيذ أهدافها على أرض الواقع.

ونبدأ في النقطة الأولى وهي **الجانب المعرفي**، إذ شكلت بعض كتابات الأدباء العرب جانبًا معرفيًّا عن هذه الحركة كان كبيرًا من الناحية الأدبية والشعبية، وقد اعتمدت المصادر المعاصرة عن هذه الفترة التي بين أيدينا على هذه المصادر الأدبية والكتابات التي أوحت القصص الشعبية عن هذه الحركة وهدفها وفلسفتها وطريقة عملها، ونحن إذن في هذه النقطة لابد من معرفة نبذة مختصرة عن الكتابات التي تحدثت عن هذه الحركة وما شكلته هذه الكتابات في وجدان أفرادها.

وقد ذكر الدكتور محمد رجب النجار في كتابه الأهم "العيارين والشطار في التراث العربي" قسمًا من هذا الجانب المعرفي، فقد ذكر أن هذه الفئة اعتمدت في عملها على بعض الكتابات المعبرة، وكان من أهم الكتاب الذين يعتبرون آباء روحيين لهذه الحركة كان أبو عمرو بن بحر الجاحظ وكتابه الذي ألفه عن هذه الفئة وهو كتاب اللصوص[١].

وقد وجدنا أن المصادر المعاصرة لهذه الفترة التي نتحدث عنها خاصة التنوخي ومؤلفه الفرج بعد الشدة كان ناقلًا عن هذا الكتاب فيما يخص هذه الحركة، إذ تعلمت أجيال العيارين هذا الكتاب وتشربته، وأصبح دستورًا لهم، فقد علمهم "وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة"[٢]، وقد كان هذا الكتاب يحوي الكثير من قصص هؤلاء اللصوص، وما يفعلونه حين يقطعون الطريق، وطرائفهم، وحيلهم، وهدفهم من هذه السرقة، والغاية النبيلة أحيانًا حينما يسطون على أحد الأغنياء الذين لايؤدون الزكاة، والعطف على الفقير، وغيرها من مئات القصص الملهمة بالفعل عن تلك الفئة وأفرادها.

وقد حكى القاضي التنوخي في مؤلفه الفرج بعد الشدة هذه القصص ناقلًا إياها من كتاب حيل اللصوص للجاحظ كما أشرت آنفًا، وقد أفرد التنوخي لهذه القصص مجالًا واسعًا، نستشف منه الناحية السياسية في عمل أفراد تلك الحركة، والناحية الإنسانية في بعض الأحيان من الطرائف والعجائب التي ارتبطت بهؤلاء اللصوص.

---

(١) النجار، الشطار والعيارين في التراث العربي، ص٤٣.

(٢) هناك باب كامل من كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي يتحدث فيه عن حكايا اللصوص وطرائفهم مثل حكاية ابن حمدي اللص والكرخي ولص البصرة وواسط وغيرهم؛ انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٤، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٨م، الباب الحادي عشر من ص ٢٢٧ إلى ٢٥٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونجد أن حكايات العيارين التي تناقلوها قد تسربت إلى أشهر كتاب ومفكري هذا العصر والذين كانوا يكتبون هذه القصص على سبيل الحكايات لكنها كانت ملهمة للعيارين والشطّار في مجال تنظيمهم وعملهم، فنجد أن أبا حيان التوحيدي في كتابه الرسالة البغدادية كان يتناول في مصنفه هذا حكايات العيارين كأبي القاسم البغدادي أو أحمد بن على التميمي، وهو أحد أشهر العيارين في بغداد[1]، وبحسب بعض الباحثين هو من وضع الشروط الواجب توافرها في العيّاري ومؤسس الشطارة، وذلك في القرن الرابع الهجري، فلابد كانت هذه الحكايات يستمد منها العيارون في العراق وغيرها عملهم وفلسفتهم الخاصة في الحياة[2].

ولم يكن أبو حيان التوحيدي، وهو الكاتب والمفكر الكبير من الكتاب الذين هاجموا العيارين، بل كتب نوادرهم وصفاتهم وقصصهم وأعجب بهم في بعض الأحيان وسخر منهم في أحيان أخرى، بل كان ينصح السلطة بشأنهم في وقت ما، وتحدث عن قصصهم المشهورة والتي تناولها العيارون وقلدوها كقصة أسود الزبد العبد العيّاري، وقصة ابن كبرويه وغيرهم من قادة العيارين الذين تحدث عنهم أبو حيان في كتابه المشار إليه آنفًا[3].

ومن الواضح أن أبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني نجد في طيات كتابه ذكرًا للفتيان العيارين وشهامتهم وفلسفتهم الخاصة في الحياة، فقد ذكر العيارين وقادتهم وفرسانهم منذ العهد الأموي كقصة العياري "حنين" وكان مغنيًا من الحيرة ونصرانيًا، لكنه اختلط بالفتيان وأصبح مغنيهم وشاعرهم الخاص في تلك الفترة[4]، كما ذكر صاحب الأغاني أن إبراهيم الموصلي الشاعر والمغني المعروف والذي كان أستاذًا للمغني العربي الأشهر زرياب كان من الفتيان واختلط بهم في مدينة حمص الشامية وعرفه الخليفة المهدي العباسي عن طريق هؤلاء الفتيان[5].

ونجد أن المسعودي في مروج الذهب، كان من الكتاب الذين تعاطفوا مع العيارين وحكى عنهم خاصة في عصر المعتضد العباسي والذي يصفه المسعودي بالحزم والشدة على الشطّار

---

(1) أبي حيان علي بن محمد التوحيدي، الرسالة البغدادية، تحقيق عبود الشالجي، منشورات الجمل، بغداد، ١٩٩٧م، ص٣٧٥ وما يليها.

(2) انظر؛ النجار، الشطار والعيارين، ص ٦١ و٦٢ و٦٣.

(3) أبي حيان التوحيدي، الرسالة البغدادية، ص٣٧٥.

(4) يذكر أبي الفرج أغنية كاملة ألفها حنين الجيري ومطلع الأغنية يفتخر حنين بأن ندماءه من الفتيان؛ أبي الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج٢، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٢٢٣.

(5) انظر ترجمة إبراهيم الموصلي؛ أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ٥، ص١٠٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعيارين، فقد استخدم صنوف العذاب لهؤلاء العيارين وقضعلى بعضهم من شدة التعذيب[١]، كما حكى عن حركة التوابين وهم الذين تابوا عن السرقة وأصبحوا شيوخًا كبراء في السن، وكانت الشرطة في بغداد تستعين بهم للقبض على العيارين في حالة سرقتهم للمدينة[٢]، بل ذكر المسعودي أن المعتضد العباسي عرض على أحد العيارين المقبوض عليهم أن يكون من هذه الحركة مقابل مرتب شهري قدره عشرة دنانير[٣] مقابل التبليغ عن زملائه الآخرين، وهذا يدل على أمرين؛ تعامل السلطة القوي للقضاء على هذه الفئة، والثاني هو أن العيارين كانوا من القوة حتى أقلقوا المعتضد والذي يعتبر من أقوى خلفاء بني العباس في القرن الثالث الهجري.

وهذا يجرنا للحديث عن فلسفة العيارين مع الخلافة العباسية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، إذ كان تعاملًا طرديًّا بين قوة الخلافة وضعفها مع هذه الفئة، إذ نجد أن العيارين كانوا ينشطون عندما تضعف سياسة الخلافة العباسية، فعلى سبيل المثال نجد حادثة اغتيال القائد التركي بجكم وكان أحد المتنافسين الأقوياء على منصب إمرة الأمراء في بغداد والمتجبرين على البيت العباسي على يد العيارين دليلًا قويًّا على تنفذ وقوة هذه الفئة في المجتمع[٤]، بل نجد في قصة حمدون أو ابن حمدي العياري المشهور دليلًا أقوى، إذ كان ابن حمدي يرعب السلطة ويخوفها في بعض الأحيان وهو ما جلب للعيارين وله إعجاب العامة، وهو ما أعيا ابن شيرزاد أمير الأمراء الذي تحالف مع ابن حمدي مقابل رشوة يؤديها إليه ابن حمدي نظير سكوت السلطة على العيارين الذين كانوا يسطون على الأغنياء لإعطاء الفقراء وهو ما يدل على ضعف الخلافة في السنوات القليلة التي سبقت دخول بني بويه بغداد[٥].

وقد ارتبطت فلسفة الفتيان العيارين بالصوفية خاصة في العصر العباسي، إذ نجد أن الفتوة عند الصوفيين هي الشهامة والنجدة والقوة في الحق، وهذا نجده في الرسالة القشيرية، إذ ذكر القشيري

---

(١) ذكر المسعودي ثورة قامت في عهد المعتضد العباسي واشترك فيها العيارون، فقام بقمعها وشدد على العامة؛ انظر أبي الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، مراجعة كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ٢٠٠٥م، ص٢٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٨.

(٣) نفسه، ص١٩٩.

(٤) قتل بجكم عام ٣٢٩هـ على يد جماعة من الأكراد وهم لا يعرفون منصبه أثناء تريضه وتصيده؛ انظر مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٣٧.

(٥) الفقيه، العيارين والشطار في العصر العباسي، ص١١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"أصل الفتوة أن يكون العبد ساعيًا أبدًا في أمر غيره"[1]، وقد ذكر القشيري في رسالته بعض الحكايات عن الفتيان العيارين وشهامتهم وطرائفهم، مما يدل على مدى إعجاب الصوفية بهم[2]. وذكر الحارث المحاسبي وهو أحد كبار الصوفية في القرن الثالث الهجري عن الفتوة "أنها أن تنصف ولا تُنصف"[3] وهذه الجملة تلخص مدى تشابك مبادئ الصوفية البسيطة بالفتوة ومبادئها الأصيلة، بل امتدت شهرة العيارين وفلسفتهم إلى الإمام أحمد بن حنبل الذي قال عن الفتوة: "هي ترك ما ترجو لما تخشى"[4].

وامتد الجانب المعرفي لتشكيل فلسفة العيارين، في القصص الشعبية المروية لا سيما الشفهية منها والتي تستخدم في سهرات السمر وغيرها، إذ نجد القبائل العربية في الجزيرة العربية وما امتد منها إلى العراق، تستخدم هذه القصص لتدل على شجاعتها فيما يسميه بعض الباحثين والكتاب بالصعلكة في العصر الجاهلي[5]والتي تعتبر امتدادًا أو جذورًا في التوصيف الأدق لهذه الظاهرة، إذ نجد في أسمار هذه القبائل قصص عنترة بن شداد،وعروة بن الورد وجماعته، وغيرها من أدب الفروسية والثورة الاجتماعية على الظلم[6].

ونجد أن الشعر الخاص بالصعاليك كان يمزج السرقة واللصوصية، إذ كان شعراء الصعاليك من الأعراب يفتخرون بكونهم من هذه الفئة، كما يفتخرون أنهم ينتقمون من الأغنياء الذين يكتنزون الذهب والفضة والأموال ولا ينفقونها على الفقراء، إذ حاربوا ما أسموه البخل والشح، وهذا يظهر في بعض أبيات الشعر مثل:

وعيابة للجود لم تدر أنني ... بإنهاب مال الباخلين موكل

غدوت على ما احتازه فحويته ... وغادرته ذا حيرة يتململ[7]

ويعزو الدكتور النجار مضمون حكايات وطرائف الصعلكة في الجاهلية إلى أن القبائل العربية بعد الإسلام والتي سكنت أرجاء بلاد الفتح حملت معها هذا التراث الكبير وامتدت الظاهرة بنفس

---

(1) أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، ج ٢، تحقيق الإمام عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ب ت، ص٣٨٠.

(2) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج٢، ص٣٨٣ و٣٨٤ و٣٨٥ و٣٨٦.

(3) أبي الحارث المحاسبي، الوصايا، تحقيق عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦، ص ٢٢٧.

(4) ذكر القشيري قول أحمد بن حنبل هذا؛ القشيري، المصدر السابق، ص٣٨٠.

(5) أحمد أمين، الصعلكة والفتوة، ص١٦.

(6) نفس المرجع السابق، ص١٧.

(7) النجار، الشطار والعيارين، ص٨٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المضامين والأهداف والفلسفة الخاصة بها في العصور الإسلامية المختلفة، وانتشرت هذه القصص بين أفراد تلك القبائل وأصبحت بمثابة المرويات الشعبية والفلكلور الشعبي الخاص[1].

ولقد عبر العيارين من خلال تلك القصص عن أحلام العامة والبسطاء، إذ نجد في بعض أشعارهم من يتقرب إلى الله بسرقة الأغنياء وإعطاء الفقراء مثل هذا البيت الذي يعبر عن هذه الفكرة بوضوح:

وإني أستحي من الله أن أرى   أجرجر حبلًا ليس به بعيرًا

وأن أسأل الخب اللئيم بعيره   وبعران ربي في البلاد كثيرًا[2]

هكذا شكلت الجوانب المعرفية لهذه الفئة من خلال الأشعار وأدب الكتاب في العصر العباسي معبرًا عن فلسفة هذه الفئة في التحرك سواء ضد السلطة أو معها في بعض الأحيان، وكيف كانت أفكارهم الخاصة تخدم الفقراء والمهمشين في المجتمع، وتكون سيفًا جبارًا على الأغنياء ذوي اليسار الذين لا ينفقون ذهبًا أو فضة من أجل كفالة المجتمع الذين يعيشون فيه، وبهذا نستنتج أن هذه الحركة كانت حركة اجتماعية ذات توجه اشتراكي بالمعنى الحديث أو توجه اجتماعي يهدف إلى نصرة الضعيف من القوي الذي يجور عليه في كثير من الأحيان[3]، وهو ما كان معبرًا قويًّا عن الأزمة الاقتصادية التي عاشتها العراق في العصرين البويهي والسلجوقي كما سنرى في السطور القادمة.

أما النقطة الثالثة والتي تتحدث عن **تحليل خاص عن هذه الفئة** وكيفية تنفيذ أهدافها على أرض الواقع، فيتبادر إلينا الاستنتاج السابق عن فلسفة هذه الحركة ويمكن تلخيصه في النقاط التالية:

- كان ظهور العيارين نتاجًا طبيعيًّا للأزمات الاقتصادية والسياسية التي شهدتها البلدان الإسلامية في القرون الرابع والخامس والسادس من الهجرة، وهذا لا يعني أنه لا وجود لهذه الفئة من قبل هذه القرون وهو ما سيتناوله الباحث في النقطة الثالثة من هذا المبحث، إذ كانت جذور العيارين ممتدة وقديمة، لكننا في مناط هذه الدراسة والتحليل الخاص، ستكون هذه النتيجة صوب أبصارنا أن العيارين كانت فئة تنشط في الفوضى السياسية وبالتاليالاقتصادية وكانت فئة مؤثرة في تحرك الأحداث عمومًا سواء على المستوى الشعبي أو السياسي الرسمي، إذ علاقتها بالسلطة العباسية كانت تحت منطق المد والجزر وكانت علاقة طردية بين ضعف هذه السلطات وقوتها.

---

(1) نفس المرجع السابق، ص٨٥.

(2) نفسه، ص٨٦.

(3) نفسه، ص٨٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كانت حركة العيارين حركة "وطنية" إذا جاز للباحث هذا التعبير، وبالرغم من عدم ظهور فكرة الوطن في العصور الوسطى كفكرة قومية متقبلة عن الناس، إلا أن دلائل هذه "الوطنية" كانت متعمقة ومتجذرة في هؤلاء العيارين، إذ وقفوا ضد التسلط العسكري الأجنبي الذي جثم على العراق بمنتهى القوة، إذ سنجد مظاهر هذه المقاومة ضد بني بويه في النقاط القادمة من هذا المبحث، إذ سببوا المتاعب لبني بويه منذ دخولهم بغداد واستغلوا كل حادثة في الثورة ضدهم.

- كان ظهورهم مرتبطًا بضعف الدولة، ففي عهد الخلفاء الأقوياء كان ظهور العيارين والشطّار في أوقات الأزمات وكانت جهودهم تتجه نحو التخريب في بعض الأحيان، إلا أن ظهور حركة مضادة من المتطوعة للقضاء عليهم كان دليلًا على قوة الدولة والمجتمع والوقوف ضد اللصوص العيارين، وضد قطاع الطرق الذين اعتدوا على أموال الناس، لذلك نجد أن هناك فترة لم يظهر للعيارين ذكر اللهم إلا في فترات ضعف الخلافة العباسية خاصة في مرحلة ما قبل دخول بني بويه إلى بغداد فيما يعرف بتنازع السلطة بين قادة الجيش الأتراك وظهور منصب أمير الأمراء.

- استعانت الخلافة العباسية بهؤلاء العيارين خاصة في السياسة الداخلية، وأيضًا في مواجهة الأخطار الخارجية، إذ شكلوا فئة المتطوعة والمقاومة للخلافة العباسية وكانت تحتاجهم في الأزمات كما سنرى خاصة في العصر السلجوقي، إذاستعان بهم الخليفة المقتفي لأمر الله في تشكيل جيش من أجل القضاء على السيطرة السلجوقية على العراق والتي كانت ضعيفة في أيام هذا الخليفة.

- كانت السلطة لا سيما السلجوقية تستغل هؤلاء العيارين لنشر الرعب والفوضى، فعملت السلطة السلجوقية على اختراق هذه الفئة أمنيًّا وتوظيفها في بعض الأحيان لصالحها كما حدث في عهد السلطان مسعود وأخي زوجته الذين كانوا يقاسمون العيارين بعد كل فوضى تتم، وكأنهم يستفيدون من هذه الفوضى الأمنية وجعل العامة في رعب دائم، بل جعلوهم عيونًا على الناس لمراقبتهم ومراقبة أموالهم كما سيتبين في حينه.

- الزج بفئة العيارين في الصراعات المذهبية لا سيما بين السنة والشيعة، إذ نجد في جميع الحوادث بينهما العيارين يقومون بدور التحريض والتخريب والسرقة وبث الرعب في قلوب الناس، وهذا ربما منعطف نتيجة على السبب السابق أن السلطات كثيرًا ما كانت تخترق هذه الفئات وتحرضهم على الفوضى لتحقيق مكاسب سياسية ومنها بطبيعة الحال كسر شوكة العيارين أنفسهم الذين شكلوا خطرًا على السلطة في جميع الأحوال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يرتبط عمل العيارين بالصوفية أيضًا، فهناك مبدأ مشترك بين الصوفية والحركة العيارية، وكما أوضح الباحث في السابق، نجد أن الصوفيين كانوا معجبين ببعض قادة هذه الحركة بسبب شهامتهم ونصرة الضعيف والوقوف ضد الجور والعسف وغيرها من المبادئ المتأصلة في الفرد العيّاري وهذا نجده في أقوال أقطاب الصوفية كما أوضحنا آنفًا.

- إعجاب العامة بهؤلاء العيارين كان دليلًا على أن هذه الفئة جزء من العامة والفقراء والضعفاء والمهمشين لكنهم الأكثر تنظيمًا وترتيبًا والأكثر معرفة بالوضع في بعض الأحيان، مما شكل جبهة قوية للعامة وصوتًا مسموعًا في كثير من الأحيانلدىالسلطات التي حكمت العراق، وكان هذا دليلًا على كثرة الفقراء وتنوع آلامهم فقد شكلوا عضدا وخلفية شعبية لهذه الفئة.

- ارتباط العيارين بالفتوة وصفاتها وتمثيلهم لأحلام البسطاء والمهمشين ظهرت بتجلٍّ في كل الحوادث التي شارك فيها هؤلاء، فنجد أن ربط العيارية بالفتوة كان كبيرًا في جميع فترات التاريخ العباسي كما أوضح الباحث، كما عبر عنها الكتاب والمثقفين في الناحية الثقافية، كما كان ذلك متوازيًا بشكل كبير على أرض الواقع واعتدائهم على التجار الذين لا يساعدون الفقراء، فقد اعتدوا على التجار ولم يعتدوا على سبيل المثال على أصحاب الحرف الدنيا والذين كانوا يقتاتون عيشهم يومًا بيوم، وهذا يقودنا إلى القول الذي تبناه الدكتور عبد العزيز الدوري ويوافقه الباحث في أن هذه الفئة ارتبطت بالعامة لأنها جزء منها على الرغم من انخراط جزء من الطبقة المتوسطة الأفضل حالًا في هذه الفئة وأصبحت جزءًا مهمًا منها في أواخر القرن الرابع الهجري[1].

- كان تنظيم العيارين والفتيان له من المبادئ ما يجعله تنظيمًا هيكليًا يضم كلًّا من رئيس لهم في كل مدينة وشروط صارمة للفتى الذي يريد أن يلتحق لابد من أن تتوافر فيه من الكرم والتعاون والحلم والأمانة والشهامة ومساعدة الضعيف والعطف على المسكين، وأيضًا كان لهم ملابس كسراويل تميز بها الفتيان وشرب كأس الماء أو النبيذ حتى يلتحق بهم ودرجات هذا التنظيم التي تراوحت بين التلاميذ كفئة دنيا ثم النقباء كفئة وسطى ثم الشيوخ وهم فئة القادة[2].

- كان معظم من انضم إلى تنظيمات العيارين من المساجين والخارجين عن القانون وهذا ما جعل هذا التنظيم يرغب في السرقة وعمليات النهب المسلح في كثير من الأحيان وحادت عن

(١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١١٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص١١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مبادئ الفتوة التي أشرت إليها سابقًا، بل وطمع أكثرهم في السلطة كما سنرى، كما نجد أن العيارين من مدينة البصرة لم يكونوا من العرب فقط بل كانوا من العجم والهنود والزط والسودان والصقالبة والنبط والفرس والترك وغيرهم من العناصر السكانية التي سكنت البصرة، وكأننا نقول إن العيارين كانوا يشملون جميع الفقراء من جميع العناصر في المجتمع العراقي[١].

كانت هذه نقاط بسيطة ستظهر بوضوح في النقطة التالية في المبحث، فكأن هدف العرض السابق إظهار الفلسفة التي قام بها العيارون والشطّار في عملهم داخل المجتمع والتعبير عن آمالهم وآلامهم تجاه السلطة وتجاه الفئات الأعلى في الهرم الاجتماعي للمجتمع العراقي خلال الفترة البويهية والسلجوقية.

ثالثًا: العيارون الشطار قبل العصريين البويهي والسلجوقي:

كانت البدايات الأولى لتنظيمات العيارين والشطار والصعاليك في أيام الخليفة المهدي العباسي، وخليفته هارون الرشيد، لكن ومن الواضح أن عهد الرشيد كان عهدًا قويًا للخلافة لذلك ضعفت فيه رابطة العيارين، ولم يسمح الرشيد أن تظهر مثل هذه الفئات في عهده سواء في بغداد أو غيرها من المدن، إلا أن الوضع السياسي تغير بعد موته، إذ ظهر العيارين في خضم الفوضى السياسية والحرب الأهلية بين الأخوين الأمين والمأمون، وكأن هذا الوضع السياسي المضطرب كان إيذانًا بالظهور الحقيقي الأول للعيارينعلى مسرح السياسة والمجتمع.

إذًا كان الظهور الأول الحقيقي لتنظيمات العيارين والشطار، في أحداث عام ١٩٧هـ/٨١٢م[٢]، وهي الأحداث التي تعرف في التاريخ بالصراع بين الخليفة محمد الأمين وأخيه عبد الله المأمون، إذ كانت مراحل الصراع النهائية حصار جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين لبغداد، وكان حصارًا محكمًا خاصة بعد هزيمة جيش الأمين ولم يتبق -كما يصف الطبري- إلا "أهل السوق والطرارين والعامة والغواة من العيارين وباعة الطرق"[٣]في المقاومة، إذ قاوم هؤلاء جيش المأمون ودافعوا عن المدينة دفاعًا مجيدًا، خاصة في معركة قصر صالح[٤].

---

(١) نفسه، ص١١١.
(٢)الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص٤٤٦ وما يليها.
(٣) نفس المصدر السابق ، ص٤٤٨.
(٤) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٢٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد خلد الأدب والشعر العربي -لا سيما الشعبي منه- هذه المعركة والتي اعتبرها الكتاب أنها المعركة الأولى التي تضر بغداد بهذا الشكل وكان السبب في طول المقاومة هم العيارون الذين حاربوا طاهر بن الحسين وجنوده طوال النهار، حتى تعجب طاهر من شدة هذه المقاومة.

ونجد في مقدمة قصيدة أوردها الطبري ما يدل على طول المقاومة وعنفها، ودور العيارين فيها ودفاعهم عن المدينة من جنود طاهر بن الحسين فقد جاء فيها:

بكيت دمًا على بغداد لما — فقدت غضارة العيش الأنيق

تبدلنا همومًا من سرور — ومن سعة تبدلنا بضيق

أصابتنا من الحساد عينًا — فأفنت أهلها بالمنجنيق

فقوم أحرقوا بالنار قسرًا — ونائحة تنوح على غريق[١]

ويبدو أن المقاومة كانت السبب في غضب طاهر بن الحسين الذي دمر أجزاء من المدينة عقابًا فيما يبدو على هذه المقاومة التي قام بها أهل السوق والعيارين والعامة، إذ نجد في قصيدة أوردها الطبري أيضًا وبها بيت يوضح دور العيارين في هذه المقاومة:

يحرقها ذا وذاك يهدمها — ويشتفي بالنهاب شاطرها

والكرخ أسواقها معطلة — يستن عيارها وعائرها[٢]

وهكذا نرى أن الدور المقاوم الذي قام به العيارون، كانفاتحة هذا التنظيم وبوادره الأولى، إذ كانت مهمتهم نبيلة في نصرة المدينة التي يعيشون فيها وفي أسواقها، وذلك عندما رأوا بأعينهم كسرة جيش الأمين، لم يفوتوا الفرصة وتولوا المقاومة في معركة قصر صالح ضد طاهر بن الحسين وجيشه.

وبينما كان جنود الأمين والمأمون على السواء ينهبون أسواق المدينة، كان العيارون يقومون بتنظيم صفوفهم مرة أخرى ليقاوموا الجيش الداخل إلى المدينة عند منطقة الشماسية وقد أسفرت عن مقتل عدد كبير من المقاومين وذلك لعنف الضربات التي كالها طاهر بن الحسين في هذه المنطقة[٣]، وفي الوقت الذي كان فيه تجار الكرخ وغيرهم من تجار المدينة يزورون طاهر ويتنصلون من هذه المقاومة ويؤكدون أنهم سيبايعون المأمون، كان هؤلاء العيارون مازالوا يلتفون حول الأمين في محاولة أخيرة لإنقاذ المدينة.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص٤٥٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٤٥١.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم تنته المقاومة عند ذاك الحد، فحاربوا جيش طاهر في جزيرة العباس وانتصروا في أول الأمر ولكن حسمت الأمور نهائيًا إلى طاهر الذي أسرف في القتل فيهم انتقامًا من هذه المقاومة الصلبة ضده طوال المعارك السابقة.

والذي يهمنا في هذه الأحداث هو الظهور الأول للعيارين وعلى خلاف المنطق يظهر بطولاتهم وقوتهم في المقاومة الشعبية ضد من رأوه مغتصبًا للخلافة، أي أن هذه الفئة الاجتماعية ليست بالسهلة في أهدافها وفلسفتها، بل هي تعرف هدفها الواضح في المجتمع وهو ما سنراه في حقيقة الأمر خلال عهد البويهيين والسلاجقة.

إلا أننا نجد أن طوال عهد المأمون لم تظهر سيرة الشطّار أو العيارين سوى في أحداث عام ٢١٠هـ/ ٨٢٥م[١]، عندما تم القبض على رجلين من الشطّار وهما عمّار وأبو مسمار، وكانا من أنصار ابن عائشة الذي دبر مؤامرة ضد الخليفة المأمون بهدف خلعه عن الخلافة لصالح إبراهيم بن المهدي عمه.

ويوضح النص السابق أن الشطّار والعيارين اشتركوا في المؤامرة التي كشفت وهو ما يتبادر إلى أذهاننا أن الشطّار لم ينسوا ماحدث لبغداد على يد جنود المأمون، ولم ينس العيارونالصراع الدموي الذي حدث بين الأخ وأخيه وقد اشتركوا فيه في سابق الأيام، وها هم يشتركون فيه مرة أخرى لصالح طرف مغلوب ضد طرف غالب.

مرة أخرى نجد في أحداث عام ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م[٢]، عندما قام الجند الأتراك والذين تسلطوا على الخلافة العباسية وتحكموا في مقدراتها السياسية والاقتصادية، بقتل الخليفة المستعين بالله الذي حاول أن يتخلص من بعضهم، وأيضًا التخلص من المعتز بالله بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات لذات السبب، نجد العيارين وقتئذ يقومون بالثورة والشغب في الأسواق وفي أرجاء الأحياء البغدادية ويقاومون هذه الانقلابات السياسية التي يقوم بها الترك.

وهو ما يدل علىأن العيارين ظلوا يقاومون من يسلب مقدرات الخلافة التي رأوا فيها أنها ممثل شرعي عن هذه البلاد، فعملهم كان ينبع عن أمرين وهما الدفاع عن طرف سياسي دون طرف في بعض الأحيان والمقاومة والمدافعة ضد هؤلاء الحكام وما يقومون به من سلب ونهب في كل الأحيان.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٦٠٣.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص٣٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بل نجدهم مقاومين مرة أخرى للاستبداد التركي خاصة في فترة إمرة الأمراء وذلك بسبب الاضطراب السياسي الذي كان السبب فيه هذا المنصب فنجدهم في عام ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م يقومون باغتيال القائد التركي بجكم[١]، وبعدها تقوى شوكتهم متمثلة في ابن حمدي البغدادي الذي كان قويًا لدرجة أن أمير الأمراء شيرازاد قام بمفاوضته وانتهت المفاوضات بدفع ١٥ ألف دينار من ابن حمدي للسلطة نظير تأمين السلطة له في وضع سياسي ساخر قبيل دخول البويهيين لبغداد[٢].

ومن نافلة القول؛ يأتي دور العيارين في السنوات السابقة للعهد البويهي، إذ قام ابن حمدي أو حمدون العيّاري بدور في قيادة العيارين ضد القوات البويهية وذلك بالتحالف مع أمير الأمراء ابن شيرازاد الذي استعان بالعيارين ضد البويهيين وتحالف كل من الأتراك والأعراب مع العيارين لصد البويهيين لكن دون طائل إذ سيطر البويهيون في نهاية الأمر على العراق، وبذلك أصبح للعيارين دور في مقاومة هذا النفوذ وهو ما سيترتب عليه نتائج سيأتي ذكرها لاحقًا في النقطة التالية.

رابعًا: السرد الحولي لحركة العيارين والشطّار في العصرين البويهي والسلجوقي:

في هذه النقطة سنوضح عمل الحركة في المجتمع في العصرين البويهي والسلجوقي وسيتبعه تحليل خاص عن ما تم استخلاصه وربطه بالنقاط السابق ذكرها في محاولة لفهم هذه الحركة عن قرب وكيف كان تأثيرها على مجمل الأوضاع في العراق خلال تلك الفترة لا سيما الاقتصادية.

أولى الإشارات لظهور العيارين في المصادر المعاصرة، كانت عن عمران بن شاهين، وكان أميرًا للأعراب واللصوص وبائعي السمك في منطقة البطائح[٣]، وكان يقوم بقطع الطريق في الجامدة والبطائح واستغل حالة الفوضى السياسية في هذا الوقت، ما أدىإلى تحالفه مع البريديين أصحاب البطائح الذين سمحوا له بالعمل نكاية في البويهيين فيما يبدو، إذ قلده أبو القاسم البريدي أمير الجامدة ونواحي البطائح واستفحل أمره ما أدى إلى انتباه معز الدولة لهذا الخطر وسيَّر له جيشًا بقيادة وزيره أبي جعفر الصميري، الذي حاربه مرة بعد مرة، حتى اختفى عمران

---

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٣٧.
(٢) الفقيه، العيارون والشطار، ص١١٨.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٣٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بن شاهين، وظهر بعد رجوع الصميري إلى شيراز لإصلاح الأمور بها بأمر من معز الدولة بن بويه.

ويبدو أن أمر عمران بن شاهين لم ينته عند هذا الحد، فقوي ابن شاهين بالجند أكثر والتف حوله الكثير من اللصوص وقاطعي الطريق كما يصور حاله ابن الأثير، وحارب الجيوش التي كانت تسير إليه من معز الدولة[١]، حتى سير بن بويه وزيره المهلبي الذي ضيق على مضايق البطائح وحاصرها وانتهى الأمر بالقبض على عمران وقتل جنوده وبعثه المهلبي إلى بغداد، فلم يجد معز الدولة بدًا من الصلح مع عمران بن شاهين شريطة أن يكون تحت طاعته ويصبح بذلك أميرًا على البطائح عام ٣٣٩هـ/٩٥٠م[٢].

هذه الحالة السابقة توضح كيف استفحل حال العيارين وتحالفهم مع البريديين والأعراب الذين شكلوا وقودًا للمقاومة التي يراها ابن الأثير لصوصية وقطع طريق، وقد يظهر للعيان أن هذه الثورة بالفعل ماهي إلى لصوصية وقطع طريق إلا أن دور العيارين كان سياسيًا كما أوضح الباحث سابقًا، فتحالف العيارين مع الأتراك والأعراب في جيش واحد أيام أمير الأمراء ابن شيرازاد ما هو إلا سابقة لعمران بن شاهين الذي قد يكون أراد المسير في هذا الخط في بداية الأمر إلا أن قبوله بالإمارة بعد ذلك يوضح أن عمران طمع في السلطة وهو ما فهمه معز الدولة فناجزه في هذا الأمر، وهو ما يوضحه جملة في نص ابن الاثير: "فتضاعفت قوته –أي عمران– وطمع أصحابه في السلطان،فصاروا إذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرقة والخفارة (أي أجر الحراسة والخفارة مقابل أجر)"[٣] وهو ما يدل أن هؤلاء اللصوص العيارين طمعوا كأي طرف سياسي بجزء من كعكة السياسة في هذا الوقت وهو ما لعب على أوتاره البويهيون أيضًا.

أما في عام ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م، فكانت أولى الإشارات الواردة عن أحوال بغداد والعيارين بها إذنشبت فتنة بين السنة والشيعة وأدىاشتراك العيارين فيها إلى المزيد من القتلى، وهذا ما ذكره ابن كثير[٤] أما ابن الأثير فذكر أنها كانت فتنة بين العامة واشترك فيها العيارونما أدىإلى المزيد من القتلى من ناحية العدد[٥].

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧، ص٢٣٠.
(٢) نفسه، ص٢٣٦.
(٣) نفسه، ص٢٣٦.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٠٢.
(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٦٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكانت للظروف الخارجية وتمييع السلطات البويهية للوقوف في وجه اعتداءات البيزنطيين المتكررة على إقليم الجزيرة، سببًا في انتفاضة العامة في بغداد الذين رأوا أن السلطة ضعيفة في وجه هذه الحرب الخارجية، وقد استغل هذا الوضع الثائر العيارون الذين اشتركوا في هذه الانتفاضة وذلك في عام ٣٦١هـ/ ٩٧١م[١]، وقد اشتد خطرهم حتى أواخر العام التالي٣٦٢هـ/ ٩٧٢م[٢]، وزاد عددهم في الأحياء والشوارع حتى ظن الناس أنهم سيملكون في هذه الأيام.

ولم يكن العيارون فقط من قام بهذه الانتفاضة، فيذكر ابن الأثير في حوادث تلك السنة أن العصبية الزائدة كانت ظاهرة في بغداد وظهرت عدة طوائف وكلها من العامة، ومن السنة والشيعة[٣]، وطائفة النبوية والفتيان وكان العيارون جزءًا من هذه الحركة الشعبية، وأثناء الانتفاضة انتهبت الأموال خاصة المحال التجارية في الكرخ التي هي معدن التجار والشيعة، ففي كل الانتفاضات الشعبية سنجد هذه الظاهرة واضحة وهي نهب المحال التجارية وهو ما يؤثر على الحالة الاقتصادية.

وكانت هذه الحركة الشعبية بسبب ما أظهرته السلطة البويهية من ضعف في مواجهة البيزنطيين وبسبب بوادر الأزمة السياسية التي ظهرت في الأفق في السنوات التالية وكانت أزمة داخلية بين بختيار بن معز الدولة والجند الأتراك وما تبعه من طمع عضد الدولة البويهي الذي دخل بغداد وحسم الكفة لصالحه في النهاية.

وتعتبر الأزمة السياسية التي طالت العراق في تلك السنوات حافزًا كبيرًا للعيارين ونشاطهم ليظهر جليًا، فكما وضح الباحث سابقًا أن العلاقة عكسية بين قوة الدولة والعيارين، إذ أظهرت الدولة البويهية بسبب الأزمة السياسية بين القائد التركي أفتكين وبختيار بن معز الدولة الذي كان يحكم العراق باسم البويهيين، وقد استعان بختيار بعضد الدولة الذي سانده ضد الترك.

وقد اشترك العيارون في هذه الصراعاتإلى جانب الترك والذين كانوا بمثابة الثائرين على السلطة الحاكمة[٤]، إذقاموا بحشد أنفسهم وتحالفوا مع الأتراك ضد الديلم، وذلك لإزالة نفوذ البويهيين من بغداد والعراق كلها، ففيما يبدو ظل الثأر القديم بينهم وبين البويهيين قائمًا حتى هذه اللحظة.

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، ص٢٥٩.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢١٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٣٠.

(٤) يذكر ابن الاثير أن الكرخ تعرضت للحريق، وقد كان متعمدًا بسبب ثورة العامة خاصة السنة منهم ضد البويهيين وساعدوا الترك ضدهم أثناء الصراع بين بختيار وحاجبه سبكتكين التركي وذلك في عام ٣٦٢هـ أما في سنة ٣٦٣هـ فقد ثار العيارون في الجانب الغربي ضد الوزير ابن بقية مبعوث بختيار في حربه ضد سبكتكين؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج٧،، ص٣٣٦ و ص٣٤٠ و ٣٤٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استمرت هذه الحوادث في عام ٣٦٣هـ/ ٩٧٣هـ والعام الذي يليه ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م[١]، إذ عانت بغداد في تلك السنتين من الحصار الاقتصادي الذي فرضهأبو تغلب الحمداني الذي كان ضد بختيار بن معز الدولة والذي استدعى عضد الدولة عمه من فارس لإنقاذه، وهنا أصبح المشهد السياسي منقسم بين الحمدانيين والأتراك جند الخليفة والعيارين من جهة والسلطة البويهية من جهة أخرى.

وهذا يجرنا للحديث عن عمليات السلب والنهب التي تتناقض تمامًا مع دور سياسي يقوم به العياورنأحيانًا، فهم ينحازون مع فئة ضد فئة وفي نفس الوقت يقومون باللصوصية وعمليات النهب والسلب، وتفسير الباحث لهذه الظاهرة هو الآتي:

"هو أن هذه الفئة تتعامل كفئة شعبية في المقام الأول وتعمل وفق أهواء العامة ومزاجهم، فهم في النهاية من العامة فليس لهم حسابات سياسية بعيدة المدى ليخشوا شيئًا، فهم يتحالفون مع الفئة الأضعف في غالب الأحيان، وكأنهم يشعرون أنه من الواجب التحالف مع أي فئة ضد السلطة وهذا جزء من فلسفتهم في كل الأحوال".

وامتدادًا لحركة اللصوصية، قام العيارون بعمل شنيع من الناحية الاقتصادية إذ هاجموا بعض الأحياء والمناطق كمنطقة باب الخشابين وباب الصغير، واحترقت الأسواق في هذه المناطق، وغلبوا على جميع المناطق "وهاجموا الكرخ التي هي معدن الشيعة والتجار[٢]، وهذا يدل على أن العيارين كانوا يعرفون مواطن الغنى في المدينة كجزء من فلسفتهم الخاصة وقد "ركبوا الجند وظنوا أنهم أقواد"، وأخذوا الخفارة في الدروب والأسواق، وكان يرأسهم شخص من السود يدعى الزُبد وكان يحرس قنطرة الزبد في بغداد، "وكان يشحذ وهو عريان، ولما كثر الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ بالسيف، فطلب هو الآخر بالسيف نهبًا"[٣].

ولم يكن الزُبد هو القائد الأوحد للعيارين في تلك الحوادث فقد برز بعض الكبار منهم مثل ابن كبرويه، وأبي الذياب وأبي الدور وأبي الأرضة وأبي النوائح وغيرهم.

وفيما يبدو أن أسود الزُبد هذا كان محبوبًا من الناس وتعجبوا فيه سماحة أخلاقه وعفوه، إذ نجد نصًا عند ابن الجوزي يوضح ذلك من خلال شراء هذا الرجل جارية بألف دينار في السنة التي

---

[١] يذكر ابن الجوزي في حوادث تلك العامين حريق الكرخ لكنه لا يشير إلى السبب الحقيقي إلا في عام ٣٦٣هـ إذ قال إن الحريق كان بسبب نصرة أهل السنة لسبكتكين، أي أن الكرخ عانت اقتصاديًا بسبب الحريق المتتالي لمدة عامين؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢١٥ و٢٢٧.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٠.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٣٤ و٢٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تغلب فيها العيارونعلى بغداد، وقد تمنعت هذه الجاريه عليه عندما أرادها وأظهرت له كراهيتها إياه[1]، فسألها ماذا تريدين فطلبت منه أن يبيعها، ففعل خيرًا من ذلك، إذ ذهب إلى القاضي وأعتقها، وأعطاها زيادة على ذلك ألف دينار، فأحبه الناس ورأوا منه حسن الخلق والعفو والرحمة، وهو ما كان من صفات قادة العيارين، وقد مات أسود الزبد في الشام بعد خروجه من العراق.

وكان من نتائج شدة العيارين في بغداد، أن تعرضت المدينة لغلاء كبير في الأسعار ونقص في المواد الغذائية لا سيما السكر وعلف الحيوانات، لكننا لا نحمل هذا الأمر للعيارين فقط، فالمشهد العام كان سيئًا، وما أمر العيارين فيه إلا نتيجة، أما السبب الرئيسكان تلك الأزمة السياسية في العراق خاصة بين بختيار بن معز الدولة وخصومه والحمدانيين الذين اتبعوا سياسة الحصار الاقتصادي على بغداد مما أضر اقتصادها ضررًا كبيرًا[2].

هدأت الأمور السياسية بعد حسم عضد الدولة بن بويه للأمر وملك العراق عن البويهيين، وغلب على أمرالخليفة العباسي الطائع لله، واستقرت العراق من الناحية السياسية والاقتصادية نوعا ما، وبدأ في تطهير العراق من خصومه الألداء وأيضًا من العيارين، ولم نسمع عن العيارين إلا قليلًا في عهده، ومن هذا القليل ما جاء في حوادث عام ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م[3]، إذ جاءت الأخبار الواردة من منطقة عين التمر عنانتشار العيارين والذعار فيها بقيادة ضبة بن محمد الأسدي الذي قتل النفوس ونهب الأموال وكان قد تحصن في عين التمر لمدة ثلاثين سنة لم يغلبه شيء، فبعث له عضد الدولة جيشًا كبيرًا فملك عين التمر وهرب الأسدي تاركًا أمواله وأهله[4].

والنص السابق يوضح أن عضد الدولة اتخذ سياسة جديدة قوامها ملك العراق بشيء من الشدة وتثبيت أقدام الدولة وضرب خصومها وكان من خصومها العيارين الذين وقفوا بجانب الترك جند الخليفة ضد السلطة البويهية وكانوا ضدها ردحًا من الزمن وهو ما تغير في عهد عضد الدولة الرجل الحديدي في هذه الدولة.

استقر الوضع في بغداد والعراق، حتى عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م[5]، إذ نجد في حوادث تلك السنة أن العيارين قاموا بالشغب في أحياء بغداد خاصة منطقتي الكرخ وباب البصرة المعروفتين بالفتنة

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٤، ص٢٣٥.
(٢) نفسه، ص٢٣٦؛ انظر أيضًا؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٧٤.
(٣) ابن الجوزي، نفس المصدر السابق، ص٢٧١.
(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٧، ص٣٩١.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٢٥؛ ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٤، ص٣٤٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين الشيعة والسنة، وهنا نتحدث عن دور للعيارين في الفتنة المذهبية بين السنة والشيعة وهو ما نجده منطقيًا لهذه الفئة التي تنتصر للضعيف من وجهة نظرها وفلسفتها فهي ترى الحق مع الضعيف وبطبيعة الحال نجد أن العيارين ينتمون إلى الفئتين وهو ما يزيد الفتنة اشتعالًا وتستحكم المحنة استحكامًا، إذ نجد على سبيل المثال في تلك السنة اشتعلت المحلات التجارية في كلتا المنطقتين ونهبت الأموال وأصبح في كل حرب أمير وكل محلة متقدم وقتل الناس وأخذت الأموال،وتواترت العملات واتصلت الكبسات، وأحرق بعضهم محال بعض"[١].

ويوضح النص السابق أن الحالة الاقتصادية تأثرت لدرجة أن هذا أثر في قيمة العملة الشرائية بسبب توقف التجارة لا سيما في الكرخ، وهو ما يؤكد أن العيارينأصبحوا جزءًا من الأزمة التي طالت بغداد والعراق عمومًا في هذه الفترة، فهم تارة سبب للأزمة وتارة نتاج لها.

وفي السنة التالية ٣٨١هـ/ ٩٩١م[٢]، تعرض العيارون لمطاردة السلطات البويهية لهم والقبض على أكثرهم ومنهم أحد قادتهم "ابن الجومرد"، وفيما يبدو أن الأزمة السياسية التي كانت في هذه السنة كانت السبب الرئيس لحملة الاعتقالات، فقد رأينا في السنة السابقة ما كان من فوضى عارمة اشترك فيها العيارون، أما في تلك السنة احتاطت السلطة لنفسها وشنت حملة اعتقالات واسعة وذلك بسبب خلع الخليفة الطائع لله بأمر من بهاء الدولة بن بويه الذي عين بدلًا منه القادر بالله خليفة على بني العباس، فكان هذا القرار السياسي محفز للعيارين بطبيعة الحال على التحرك سواء ضد السلطة أو تحرك عشوائي يهز المجتمع البغدادي بفعل هذه القرارات السياسية لذلك اتخذت السلطات تدابيرها ومن ضمنها اعتقال العيارين[٣].

ولم تمر على هذه الأحداث أكثر من ثلاث سنوات، ونجد العيارينقد احتشدوا مرة أخرى، ففي حوادث عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م[٤]، ازداد أمر العيارين خاصة في منطقتي الكرخ وباب البصرة، إذ قامت الفتنة بين السنة والشيعة وهو ما زاد الأمر اشتعالًا، وأصبح بين ظهرانيهم قائد يدعى "عزيز البابصري" نسبة إلى باب البصرة، إذ اجتمع حوله العيارون والذعار وأهل الطريق وقاموا بحرق المحال التجارية وتعطلت التجارة فيإثر ذلك[٥].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٣٤٤.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٥٢.
(٣) الفقيه، الشطار والعيارين، ص١١٩.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣٢.
(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفيما يبدو من نص ابن الجوزي عن هذه الانتفاضة أنها تحولت بعد قليل ضد السلطة البويهية، إذاستغل العيارون هذه الأزمة وزادوا من نشاطهم ضد السلطة إذاستولوا على سوق التمارين وفرضوا الضرائب عليه لصالحهم في هذا السوق وغيره من الأسواق، كما قاموا بمصالحة أهل الكرخ، وهذا ما يدل علىأن الأمر زادهم قوة سياسية ولو مؤقتة، إذ تحركت السلطة البويهية ضدهم وطاردتهم وتفرق العيارون هربًا من الشرطة حتى انتهت هذه الحركة.

وفي عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م، انتشر العيارون في بغداد، وزادت عمليات النهب والسلب في جميع الأحياء، وتأثرت الحالة الاقتصادية لا سيما قيمة العملة، وكان السبب في هذه الفوضى فتنة مذهبية، إذ تحرك العيارون العباسي منهم والعلوي وهذا بنص ابن الجوزي نحو الفوضى(١)، بينما سكت ابن الأثير الذي جعل هذه الفتنة في نفس السنة ٣٩٣هـ بينما جعلها ابن الجوزي قبلها بسنة.

على أن النصوص المعاصرة وما تناثر فيها من أخبار تدل على أن السلطان البويهي بهاء الدولة كان الزمام منفلت من بين يديه في هاتين السنتين، وهو ما أضعف الحكومة البويهية ومن هنا جاء دور العيارين في التحرك بعد سكون دام من ثمان إلى تسع سنوات، وهو ما نؤكد عليه أنهم يعملون في وقت ضعف الدولة.

ولم يتحرك العيارون فقط، فبغداد كلها كانت الفتنة تموج بها، فنجد أن العوام ثاروا بالنصارى وقامت بينهما مشادات، كما تشاجر السنة والشيعة، وتدخل العيارون أكثر من مرة في تلك السنتين، وهو ما جعل بهاء الدولة يبحث عن خطة لإنقاذ الموقف فبعث عميد الجيوش أبيعلي أستاذ هرمز إلى العراق ليدبر الأمر، "فتزينت بغداد خوفًا منه"(٢)، فقد كان شديدًا وقويًا على الناس وبالفعل اتخذ هرمز إجراءات كثيرة من ضمنها القبض على المشاغبين لا سيما الأتراك منهم ومنع السنة والشيعة من إظهار المذهب ونفى ابن المعلم الفقيه الشيعي خارج المدينة.

ولم يأت ذكر العيارين بعد ذلك بفترة وهو ما يدل على القضاء على فسادهم في تلك السنة.

تكررت الفتنة المذهبية ومعها زاد العيارون من نشاطهم وذلك في عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م، إذ هاجم مجموعة من العيارين مسجد براثا الشيعي وسرقوا القناديل والستور والحصر، وكبس العيارون على عدة مناطق في بغداد، ما جعل الشرطة تجدُّ في طلبهم(٣).

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٢؛ انظر أيضًا ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٦٢.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٣.
(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٤، ص٥٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويذكر ابن الأثير في حوادث عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، أن العيارين زادوا من عملياتهم في السلب والنهب وأخذ الأموال ومقاومة الجند الديلم والمعروف أنهم جنود السلطة البويهية، وفيما يبدو أن انتفاضة عياري بغداد كانت مواكبة لانتفاضة العامة ضد الديلم الذين "ضعف أمرهم وانحدروا إلى واسط فثار عليهم عامتهم وأتراكها فدفع الديلم عن أنفسهم"[١]، وهذا النص الذي يذكره ابن الأثير يدل علىأن الدولة البويهية كانت تعاني من ضعف في هذه السنة ما جعل العامة والترك ينتفضون ضد جندها وواكب بطبيعة الحال هذا الأمر العيارون في بغداد واستغلوه لصالحهم، ولم تنصلح الأمور إلا بدخول سلطان الدولة البويهي إلى بغداد إذ عمل على الاستقرار والهدوء.

وقد اتخذ سلطان الدولة بن بويه عدة إجراءات حتى تعود سلطة الدولة إلى قوتها، إذ عين ابن سهلان واليًا على العراق من قبله في عام ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨م وعهد إليه بمحاربة العيارين والقضاء عليهم وقد عاملهم بقسوة شديدة ونجح في تشتيتهم ونفيهم خارج بغداد، كما عهد إليه محاربة الترك في بغداد وواسط والموصل والأنبار والبطيحة والبصرة وضبط الأمور بهذه المدن، وقد عمل ابن سهلان على ذلك ونجح في مهمته التي أوكل إليها[٢].

استقرت الأحوال الداخلية نوعًا ما حتى جاء عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م[٣]، إذ انبسط العيارون فيها وأسرفوا في النهب وإراقة الدماء، وخرقوا هيبة السلطان، وكانت هذه الأحداث مقترنة في العادة مع ضعف الدولة أو تعرضها لهزات داخلية وعدم استقرار داخلي، إذ نجد أن مشرف الدولة البويهي قد توفي في تلك السنة ونهبت خزائنه وذلك بعد منافسة بينه وبين جلال الدولة أبي طاهر الذي كان في البصرة ثم تولى العراق بعد دخوله إلى العراق وحسم الأمر لصالحه في النهاية.

ولكن لم يكن هذا الاستقرار السياسي انعكاسًا للحالة الداخلية لبغداد، إذ زاد العيارون من نشاطهم وترأسهم أبو علىالبرجمي الذي كان يتميز بالفتوة والمروءة والشهامة، وقد قام العيارون بنهب ديار الناس وأموالهم نهارًا، ويمشون في الطرقات ليلًا بالمشاعل والموكبيات، وكانوا يدخلون على الرجل في بيته فيصادرونه كما كانت تفعل السلطة، فيضربونه ويسلبون أمواله غصبًا[٤]، وفيما يبدو أن سلطة الشرطة انهارتإذ يخبرنا ابن الجوزي أن أصحاب الشرطة خرجوا من البلد، بعد

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢١.

[٢] نفس المصدر السابق، ص١٢٢.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٧٠.

[٤] ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٥، ص١٧١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقتل العديد من رجال الشرطة في هذه الفوضى، وأغلق الناس عليهم الدروب والأبواب، وتعرضت بعض الشخصيات العامة للأذى، مثل الشريف المرتضى الذي تعرض بيته للحرق في منطقة الصراة وقد انتقل إلى درب جميل لينجو بنفسه، وقد دخل الأتراك في هذه الفوضى وذلك باشتباكات متفرقة مع العيارين في أرجاء بغداد، ما زاد الفوضى انتشارًا[١]، وقد دخل العامة في هذه الاشتباكات، وقد استمرت هذه الاشتباكات عدة شهور، وقد نتج عنها حالة اقتصادية متردية إذ غلت الأسعار وبيع الكر بثمانين دينارًا وقلت الأقوات في جميع الأسواق، وقد هاجر الكثير من البغاددة من المدينة جراء هذه الحالة المتدهورة[٢].

وقد استمرت هذه الفوضى الداخلية في العام التالي أي في عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، إذ لم تفلح مراسلات الجند الأصفهلارية للعيارينفي إيقاف الفوضى، فقد كان العيارون منبسطين في مدينة بغداد محتلين جميع الأبواب والدروب والأحياء[٣]، بل قاموا بالتطاول على الأصفهلارية بالشتم والصياح، مما جعل الجند في حنق شديد، وقاموا بالاستعداد للحرب وخرجوا من مناطقهم إلى الشوارع للقضاء على هذا التمرد الذي قام به العيارون، إذ دخلوا حي الكرخ وبعض الدروب مثل درب المساكين وحي النحاسين ودرب رياح والدقاقين وغيرها من الأحياء والمناطق، وقد تعرضت هذه المناطق إلى الحرق والنهب والسلب، واقتحم الجند دار أبي يعلى ابن الموصلي وكان رئيس العيارين في درب رياح، ونهبوه واستولوا على جميع ما فيه، كما اقتحموا دار ابن زيرك ودرب عون وغيرها من المناطق[٤].

ويحكي ابن الجوزي أن العوام قد انتهبوا في هذه الفوضى العارمة أكثر ما انتهب على يد الأتراك، ما جعل السلطة تقوم بغرامة كبيرة على حي الكرخ قدرها مئة ألف دينار[٥]، وهو ما يجعلنا نبادر بالقول أن هذه الأحداث السابقة لم تكن لتتم إلا بضعف السلطة البويهية المتسلطة على الخلافة، فكثرة النزاعات والسياسة الداخلية أودت بالدولة إلى هذه النتيجة من تسلط فئة اجتماعية على المجتمع ككل بقوة السلاح أحيانًا وبعنصر الفوضىأحيانًا أخرى وهو ما رأيناه أكثر من مرة في هذا السرد.

---

(١) نفس المصدر السابق، ص١٧١.
(٢) نفسه ، ص١٧١.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٥٠؛ انظر أيضًا ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٦.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٥، ص١٧٥.
(٥) نفس المصدر السابق، ص١٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد كانت هذه الأحداث من الشدة حتى غضب جلال الدولة بن بويه لها وقرر الحضور إلى بغداد للإطلاع على هذه الفتنة وهو ما حدث إذ وصل جلال الدولة في العام التاليلهذه الأحداث لضبط الامور في مدينة بغداد[١].

ملاحظة أخرى لابد من ذكرها وهم الجند الإصفهلارية في حديث ابن الجوزي أو الجند الأتراك في لفظ ابن الأثير هم من بدأوا هذه الأحداث بجشعهم وطمعهم في حي الكرخ والذي كان حيًّا تجاريًّا كبيرًا، كما كانوا يغالون في الضرائب والمصادرات، وهو ما جعل العيارين ينتفضون ضدهم ويقومون بالنهب والسلب ردًّا على هذه الأفعال، وهو ما أدى إلى اشتعال الموقف كما سبق.

وثمة تفسير آخر نقدمه وهوأن الجند الأتراك كانت أسباب نهبهم هذه عندما رأوا السلطة نفسها تتطاول على الخليفة العباسي، وهو ما رأيناه من خلع الطائع لله وانتهاب أمواله وخزائنه[٢] وهو ما شكل حافزًا لهؤلاء الجند ليكون هذا طريقهم وعملهم.

كل هذه العوامل السابقة جاءت نتيجة ضعف الدولة البويهية في هذه المرحلة وانشغالها بالتنازع على العرش، والحروب الداخلية بين الأسرة الحاكمة، وهو ما أشرنا إليه في أكثر من مناسبة.

وفي عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، يذكر ابن الجوزي أن العيارين قاموا بالكبس والهجوم على عدة محال تجارية[٣]، ويفسر الباحث هذا الحدث في تلك السنة بالرغم من سكوت ابن الجوزي وغيره من المصادر عن السبب الرئيس، هو أن هذه السنة شهدت ظاهرة طبيعية تتكرر كثيرًا وهي نقص الماء في دجلة وروافده، وهو ما أدى إلى نقص الغلات وتوقف المطاحنوغلاء الأسعار، كان هذا الحدث الذي يذكره ابن الجوزي في نفس الشهر "شهر شعبان" الذي حدث فيه أن العيارين قاموا بالنهب وهو ما يرجح هذا التفسير أن غلاء الأسعار كان السبب الرئيس في تلك الهبة التي قام بها العيارون[٤]، وهو ما يفسر أن الظواهر والكوارث الطبيعية كانت سببًا في بعض الأحيان للانتفاضات الاجتماعية في المجتمع العراقي.

لم تنته هجمات العيارين في هذه السنة، إذ نجد أن بعد هذه الأحداث بثلاثة شهور أي في ذي الحجة ظهر أبو يعلى الموصلي رئيس العيارين وبعض من العيارين في حي الكرخ بسيوفهم

---

(١) نفس المصدر السابق، ص١٨٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ١٦١.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٤؛ انظر أيضا ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٢٦.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٩٧.

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٥ ص١٩٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقتلوا خمسة من الرجال وأصحاب المسالح، وصاحوا في الناس أنهم من قبل السلطان وأنه فوضهم لحماية الأحياء[1]، ولكن ثار عليهم أهل الكرخ وقتلوهم وصلبوهم وذلكبعد ثلاث سنوات دوّخ فيهم الموصلي الشرطة البويهية.

هذه الهجمات امتدت إلى العام التالي٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، إذ نجد أن مستهل هذه السنة ثار العامة في وجه الجند الأتراك الذين نهبوا أحياءهم ومحالهم التجارية، وهو ما جعل بغداد تموج في الفتنة، وهو ما استغله العيارون لصالحهم، خاصة مقدمهم وقائدهم "البرجمي" إذ قاد العيارين بالهجوم على الجانب الشرقي من بغداد فكبسوا على ديار الناس ومخازن الغلات، وهو ما أثر على الحالة الاقتصادية في هذه الأحياء[2].

ويذكر ابن الأثير أن أمر اللصوص والعيارين قوي في بغداد، إذاشتركوا في الفتنة التي قامت في تلك السنة بين السنة والشيعة، وكانوا السبب في إغلاق عدة مساجد مثل مسجد براثا الشيعي إذ قطعت الخطبة فيهبسبب خطبة شيعية، فقام خطيب من السنة ليخطب بدلًا منه فقام العامة من الشيعة بمهاجمته، وقد اشترك العيارون من الطرفين في هذا الحدث[3].

وفي العام التالي٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، نجد أن العيارين ازدادوا في القوة وذلك بسبب ضعف السلطة البويهية فلم تواجههم كما ينبغي، فنجد أن في مستهل هذا العام، ازدادت عمليات النهب والسلب، إذقام العيارون والشطّار بعملية سرقة هي الأولى من نوعها وهي سرقة دار المملكة وهي مؤسسة من ضمن مؤسسات الدولة إذ سرقوا منها بعض الثياب في دار المملكة[4]، وكانت السرقة عبارة عن اقتحام الدار بعد نقب جزء من المبنى وتسللوا إليه ليلًا، وهو ما يدل على قوة العيارين وانفلات أمرهم وقوتهم على السلطة.

وزاد الأمر سوءًابمنع الخطبة في جامع الرصافة ورجم القاضي أبا الحسين العريف الخطيب، إذ قال له العيارون ألا يخطب لخليفة أو سلطان بل يخطب للقائد أبي عليالبرجمي بدلًا منهما[5]، وهذا دليل على قوة هذه الفئة التي استغلت ضعف الدولة وطمعت في السلطة والسيطرة السياسية، إذ أصبحت السيطرة العيارية نفسها على عمال الدول البويهية نفسها داخل بغداد.

---

[1] نفسه، ص٢٠٠؛ انظر أيضا ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٨٥.
[2] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٠٤؛ انظر أيضا ابن كثير البداية والنهاية، ج١٣، ص٦٥.
[3] ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٨٥.
[4] لم يذكر ابن الجوزي لفظ العيارين على من سرقوا دار المملكة في حوادث تلك العام، لكن يعتقد الباحث أن للعيارين دور في هذه السرقة لأنهم انبسطوا في جميع الأحياء البغدادية وانتشرت الفتنة في تلك السنة والتي سبقتها؛ ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٥، ص٢١٣.
[5] فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٤٦٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت هذه الأحداث نذر خطر شديد يحدق بالمجتمع كله، فنجد أنه في خضم الأحداث السابقة يثور الشيعة ضد العيارين والبرجمي، إذ هاجم العيارون مسجد براثا الشيعي وسرقوا منه السجاد والحُصر والشبابيك الحديد[1]، وهذا ما دفع أهل الكرخ للثورة ضد العيارين وسرقة سلاحهم ودورهم، وكان السبب الرئيس في هذه الثورة هو سرقة أحد التجار من الكرخ ففاض الكيل بالشيعة وأهل الكرخ وراسلوا السلطان بالنصرة والمعونة ضد العيارين.

ووصل نفوذ البرجمي أن الشرطة لم تقدر على اللحاق به، وكان أناس منهم يغضون الطرف عنه إما خيفة أو طمعًا في رضاه[2]، وهو ما يدل على نفوذ هذا الرجل، ونفوذ العيارين الذي أخذ في التزايد في هذه السنوات التي كانت تشكل بداية انهيار السلطة البويهية وضعفها وانحلالها.

وفي عام ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م، نجد نصًا يوضح أن البرجمي زاد في قوته مع انحلال الدولة البويهية وضعف الخلافة، ففي تلك السنة استطاعت الشرطة من القبض على بعض رجال العيارين[3]، وأثناء محاكمة هؤلاء النفر من العيارينااستطاع البرجمي من خطف أربعة من رجال الشرطة ليساوم عليهم بإطلاق سراح العيارين بدلًا من قتل هؤلاء الأربعة المختطفين، وانتهت المفاوضات بتبادل الرجال المخطوفين بالعيارين.

ولم يكن البرجمي إلا صاحب مرؤة وشهامة ككل العاريين الفتيان[4]الذين يحاربون السلطة في كثير من الأحيانحتى لو شاب هذه الحرب من سرقات وغيرها من الخطايا التي ارتكبوها في حق المجتمع، وبالرغم من ذلك كان العامة يخافون العيارين ولم يستطيعوا في هذا الوقت إلا أن يطلقوا لفظ القائد على البرجمي، بل ثاروا بخطيب لم يرض أن يخطب للبرجمي من على المنبر، وهذا دليلعلى حب العامة للبرجمي، وليس صحيحًا أنهم كانوا كارهين للعيارين وكانوا يرون فيهم أنهم الثائرين ضد السلطة.

وقد حاولت السلطة الحد من نشاطهم، وذلك بتعيين ابن النسوي قائدًا للشرطة وكانت مهمته الأساسية القضاء على العيارين، وقد اتخذ النسوي خطة للقضاء على البرجمي وذلك باستمالة بعض العيارين إليه ضد قائدهم واستخدام الخداع للتخلص من البرجمي ثم العيارين من بعده،

---

(١) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢١٤.

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٥، ص٢٣٧؛ انظر أيضا، النجار، الشطار والعيارين، ص٩٥.

(٣) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢١٤.

(٤) يذكر ابن الجوزي في ترجمة القائد العياري أبي علي البرجمي أنه كان لا يتعرض مطلقًا للنساء أثناء العمليات التي كانوا يقومون بها؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٣٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن الأحداث كانت ضد النسوي الذي هرب من بغداد بعد مقتل أحد رجاله، وتركها تحت سيطرة البرجمي والعيارين[١].

ومن الواضح في نص ابن الأثير أن العيارينااستمروا في هذه الفوضى حينًا حتى بعد هروب ابن النسوي، إذ يقول: "أن العيارينثاروا وأخذوا أموال الناس ظاهرًا وعظم الأمر على أهل البلد وطمع المفسدون"[٢]، وهذا إن دل على شيء يدل على استمرار العيارين وانبساطهم في البلد.

استمرت الفوضى في السنة التالية عام ٤٢٥هـ/١٠٣٤م، إذانتشر العيارون في الجانب الشرقي والغربي على السواء بقيادة البرجمي، الذي عمل على خطوة جديدة نحو تقوية النفوذ إذاستطاع أن يستميل بعض عمال الدولة البويهية ويدفع لهم عشرة دنانير شهرية مقابل حرية العمل في بعض المناطق مثل خان القوارير وباب الطاق ودرب الزعفراني في الجانب الغربي من بغداد[٣]، وهو ما جعل السلطة والخليفة يقرران الوقوف في وجه العيارين، وتزامنت كل هذه الأحداث مع اشتراك فئة العيارين في فتنة قامت بين أحياء سنية وحي الكرخ الشيعي، ويحدثنا ابن الأثير عن بعض الإجراءات التي اتخذها جلال الدولة البويهي إذاستوزر أبا سعد بن عبد الرحيم بدلًا من ابن ماكولا، وعهدت الوزارة في بغداد لأبي الحارث البساسيري أن يحمي الجانب الغربي من بغداد بسبب قوة ونفوذ العيارين فيه، فعهد إليه بالقضاء على حركتهم[٤].

وفيما يبدو أن السلطة البويهيةاتخذت قرارًا بالقضاء على البرجمي والقضاء على العيارين في تلك السنة فعملت على القضاء على البرجمي والتخلص منه أولًا ثم القضاء على العيارين تباعًا، وقد جاءت الفرصة سانحة عندما ذهب البرجمي لقراوش أمير بني عقل، وذلك ليرجوه بإطلاق سراح ابن القلعي وإلى مدينة عكبر شرقي دجلة من الشمال إلى بغداد، وكان ابن القلعي صديق للبرجمي.

أما تفاصيل القبض على البرجمي فهي كانت عندما ذهب البرجمي إلى قراوش ليرجوه إطلاق سراح صاحبه، وقد رفض قراوش هذا الطلب وقبض على البرجمي وأودعه السجن ورفض الفدية التي عرضها البرجمي لنفسه بل إنه قتل البرجمي غرقًا[٥]، وهكذا انتهت أسطورة البرجمي العيّار

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥ ص٢٣٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٠٩.

(٣)ابن الجوزي ، المصدر السابق، ص٢٣٥.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢١٢.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢١٣؛ انظر أيضا ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٣، ص٧٥؛ يذكر ابن الجوزي أن معتمد الدولة هو من قتل البرجمي بتغريقه في فم الدجيل، ثم قبض على أخيه وقتله أيضا؛ ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٥، ص٢٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي دوّخ سلطة البويهيين على مدار خمس سنوات، وفيما يبدو أن هذه الحادثة كانت مدبرة بين جلال الدولة البويهي وأمير بني عقل قراوش وذلك بتدبير اعتقال ابن القلعي ثم عمل شرك للبرجمي، ويساعد القدر جلال الدولة وقراوش على القضاء على البرجمي بسهولة كما رأينا.

وقد اتخذت السلطة البويهية منهج تصفية العيارين بعد مقتل قائدهم، إذ قام المرتضى نقيب الطالبيين بأمر من جلال الدولة أن يأتي بالعيارين من أنحاء بغداد وأن يخيرهم بين ثلاثة أمور: إما التوبة "من أراد منكم التوبة قبلت توبته وأقر في معيشته"، وإما خدمة السلطان والدخول في طاعته "من أراد خدمة السلطان استخدم مع صاحب البلد" وإما الخروج من بغداد مع إعطائهم فرصة ثلاثة أيام للرد على هذه الشروط[1].

وقد اختار العيارون الخروج من بغداد، وهنا نتساءل لماذا اختار العيارون هذا الخيار ولم يختاروا خدمة السلطان أو أخذ المرتب من الدولة نظير سكونهم؟

يرى الباحث أن السبب في اختيار الخروج من بغداد هو صعوبة منطقية الخيارين الأولين لفلسفة العيّاري، إذ لا يخضع العيّاري لسلطة ولا سلطان، فهذا يتناقض مع الثورة الكامنة في نفوسهم ضد الأقوياء سواء السلطان أو مجرد تاجر يكتنز الأموال ولا يدفع الزكاة، أما الخيار الثاني وهو أخذ مرتب من السلطة مقابل السكون هذا يعني أنهم تحت رحمة السلطة دومًا، وأن السلطة قد تمنع المرتب في أي وقت بل وتشريد وتقتيل هذه الفئة في أي وقت، لذلك اختاروا الخروج عن هذه الخيارات الصعبة بالنسبة لهم.

وفي العام التاليلهذه الأحداث أي في عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م[2]، نجد أن العيارين يعودوا إلى نشاطهم وهو ما يدل أنهم لم يخرجوا جميعًا من بغداد بل استمر فسادهم ضد السلطة قائمًا، وكبسوا على دور الأتراك انتقامًا منهم، كما كتبوا رقاعًا فيها تهديد للسلطة أنهم سيقومون ببث الفوضى في شوارع بغداد إذا لم يتم وقف تعسف السلطة ضدهم، وهو ما يدل على أن الأمور لم تكن مستقرة في هذه الأيام خاصة أن السلطة البويهية كانت تعاني هي والخلافة علىالسواء من الضعف[3].

---

(١) انظرنفس المصدر السابق، ص٢٤١ و٢٤٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٧٧؛ انظر أيضا ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٤٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص٢٤٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واستمرت الفوضى في العام التاليففي حوادث عام ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م[١]، قام بعض العيارين بنهب دار بلوريك التركي الكائن في باب خراسان، كما دبروا خطة للقضاء على ابن النسوي صاحب الشرطة، وكانت الخطة المدبرة في دخول حواليمئة رجل مسلح من العيارين الأكراد والعرب والسود إلى بغداد واتجهوا إلى دار ابن النسوي إذ أحرقوه عن آخره وامتدت عملياتهم إلى بعض الدور فسرقوا ما فيها.

ووفقًا لابن الجوزي فقد استمرت هذه الفوضى حينًا حتى العام التالي٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م، إذ كبس العيارون على بعض المناطق البغدادية خاصة في الجانب الشرقي وكانت هذه الكبسات موجهة نحو السلطة ورجالها، إذ قتلوا عددًا من رجال المعونة[٢].

وهدأت الأمور حينًا من الزمن ولم نسمع في المصادر المعاصرة ما يدل على انتشار فساد العيارين، سوى في عام ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م، إذاستغل العيارون الفتنة القائمة بين السنة والشيعة واشتركوا في هذه الفتنة، خاصة في الجانب الغربي من بغداد[٣].

ونجد في سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م، ظهر بين العيارين قائد جديد كان في نفس خطورة البرجمي، وكان هذا العيّاري يدعى بالطقطقي، وقد ظهر هذا الرجل بين العيارين وقادهم في تلك السنة إذاشتركوا في الفتنة بين السنة والشيعة وقاموا بعدة أعمال منها قتل رجال من أهل الكرخ وقطع رؤوسهم ورميها إلى أهاليالكرخ ما زاد الفتنة اشتعالًا[٤]، كما قام الطقطقي ورجاله بالسطو على حي الزعفراني وطلب من الأهاليدفع إتاوة مئة ألف دينار، فلاطفوه حتى انصرف، فلما كان الغد رجع إليهم في قوة من العيارين فنشب قتال بين الأهاليوالعيارين فقتل رجل هاشمي من الأهاليجراء تلك الأحداث[٥].

وفي العام التالي٤٤٤هـ/١٠٥٢م[٦]، قام الطقطقي العيّاري والزيبق[٧]بالكبس على الأسواق وأخذوا الإتاوة من أصحاب الحوانيت والمحلات ما أثر في الحالة الاقتصادية في الأسواق وعملية البيع والشراء خاصة أن نفس هذه الأيام شهدت فتنة معتادة بين السنة والشيعة داخل أحياء بغداد.

---

[١] نفسه، ص٢٥٣.

[٢]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥،ص٢٥٦ و٢٥٧.

[٣] نفس المصدر السابق، ص٣٢١.

[٤] نفس المصدر السابق، ص٣٣٠.

[٥] نفسه، ص٣٣٠.

[٦] نفسه، ص٣٣٦.

[٧] يقول الدكتور رجب النجار أن الزيبق هو نفسه علي الزيبق اللص المشهور في التراث العربي لكن معظم المصادر سكتت عنه؛ النجار، الشطار والعيارين، ص٩٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت هذه الأحداث الأخيرة تزامن بداية فتنة أبي الحارث البساسيري والتي كانت تسطر الفصل الأخير في حياة الدولة البويهية، وبداية أول فصل في دولة جديدة تسلطت على الخلافة العباسية التي انحلت بالكلية[١]على حد تعبير ابن الاثير وهي الدولة السلجوقية.

كانت الدولة السلجوقية في بدايتها قوية، أرجعت هيبة السلطة في نفوس العامة والخاصة، وطبيعي أن لا نجد أخبارًا عن العيارين، إذ لم تذكر المصادر التي بين أيدينا نشاطًا للعيارين في فترة قوة الدولة السلجوقية وعنفوانها، وهذا يؤكد ما وصل الباحث إليه وهو أن سلطة العيارين كانت عكسية في بعض الأحيان مع السلطة.

فنجد ذكرًا للعيارين عند ابن الجوزي في عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م، أنهم كانوا يتقامرون ويقترضون على مرض الخليفة القائم بأمر الله الذي كان مريضًا في تلك السنة، وانتشرت الشائعات بذلك[٢]، وهو ما أخاف الناس وبدأو في إخفاء أموالهم خوفا من نهب العيارين، وهذا الخبر يدل على الذكريات السيئة التي ارتبطت بالعيارين من العهد السابق.

إلا أننا نجد أخبارًا متناثرة عن العيارين بالرغم من ذلك لكنها أخبار قليلة تدل على قوة السلطة وعنفها ضد العيارين وفسادهم، ونجد الخبر الأول في عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م[٣]، إذ زاد نشاط العيارين في الأحياء الغربية من بغداد، وأقلق هذا النشاط الشرطة برئاسة كمال الدولة الذي أمر بتأديبهم وقبض على قادة العيارين المشاغبين، وقد نتج عن عمليات السلب والنهب ارتفاع الأسعار وتدهور الحالة الاقتصادية العامة في تلك السنة.

وفي عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، وقعت اشتباكات بين العامة وشرطة بغداد، إذ عمل الجند السلاجقة على ظلم الناس في تلك الفترة، وخاصة جند صاحب الشرطة أيلغازي وولده، إذ نشبت بعض الاشتباكات بين العامة والجند أسفرت عن مقتل عدد من الجانبين، وقد تدخل العيارون لنصرة العامة على جند الشرطة، فقتلوا عددًا منهم ونهبوا ما قدرت أيديهم عليه وكانت هذه الفوضى في الجانب الغربي وقد انتهت هذه الفوضى بتدخل من الخليفة الذي أرسل قاضي القضاة لمنع الجند من نهب الأحياء الغربية[٤].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦١ و١٦٢.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٤٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٥١ و٥٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكذا نرى أن هذه كانت انتفاضة اشترك فيها العيارون بسبب ظلم السلطات السلجوقية التي كانت تعاني في تلك الفترة من فوضى داخلية كبيرة بسبب النزاع على العرش بين السلطان بركيارق وأخيه محمد، وهو ما أدى إلى ضعف عام في السلطة السلجوقية ولا سيما في العراق الذي شهد جزءًا من هذه الحرب الأسرية.

ويبدو أن الفوضى الداخلية في بغداد زادت عن الحد في عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، إذ انسحبت قوات الشرطة من الجانب الغربي لبغداد، بسبب استيلاء العيارين عليه، وعجزت الشرطة عن إيقاف نشاطهم، وقد أثر هذا النشاط على الحالة الاقتصادية للعامة الذين عانوا من النهب ومن فرض الإتاوات[١]، فقد كانوا بين سندان السلطة التي تفرض عليهم الضرائب وبين العيارين الذين تسلطوا عليهم.

ويبدو أن التغيرات السياسية كان لها أكبر الأثر في تحركات العيارين والشطّار في العهد السلجوقي، فنرى أن وفاة السلطان بركيارق في عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م وكان عهده مليئًا بالاضطرابات ويعتبر آخر السلاطين الذين حافظوا على وحدة الدولة السلجوقية، إذ نجد أن السلاطين خلفاءه لم يكونوا على قدر المسئولية، وهذا على أي حال أثر في الناحية السياسية، وبالتاليالناحية الاجتماعية خاصة العيارين، فيعزو البعض أن مؤرخي السلطة لم يذكروا العيارين في حولياتهم وذلك بسبب نشاطهم الزائد نحو السلطة، فليس من المنطقي أن يختفي العيارون بين يوم وليلة، فكان العيارونقبل عهد محمد بن ملكشاه الذي تولى بعد بركيارق، ومن بعده، إذ لو تتبعنا الأخبار بعد عهد محمد الذي انتهى في عام ٥١١هـ/ ١١١٧م، نجد أن العيارين وصلوا للذروة في نشاطهم، بل وارتبطت العيارية بالفتوة وصفاتها الجيدة كالشهامة والمروءة والوقوف دائمًا في حق الضعيف والمظلوم، فلابد أن يكون ذلك له إرهاصات كثيرة من قبل ومن بعد هذا العهد.

وعلى الرغم من ذلك، نجد أن في العام التاليأي في ٥١٢هـ/ ١١١٨م، قام العيارون بالنهب والسلب في الجانب الغربي من بغداد، ما أدى إلى تحرك فوري من السلطة السلجوقية متمثلة في نائب الشحنة، الذي حاربهم بخمسين جنديًا تركيًا، ولكنه انهزم واستمرت الاشتباكات لمدة يومين نهب فيها العيارون بعض الأحياء[٢].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٨٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٧٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي حوادث عام ٥١٤هـ/ ١١٢٠م[١]، تمرد العيارون في مدينة الموصل ومنطقة مصعدة وفتكوا بأهل السواد ونهبوا المحال، وكانت عمليات العيارين قوية لدرجة أن الخليفة جرد حملات من العسكر الترك إلى المناطق المتمردة، ما أدى إلى انقسامهم حول التوبة والرجوع إلى السكينة فمنهم من هاجم دار الوزير ابن صدقة بباب العامة ومنهم من قطع الطريق في عموم السواد فهاجم العامة كثيرًا منهم وقطعوا رؤوسهم وأرسلوها إلى بغداد، والأحداث السابقة تدل على ضعف السلطنة السلجوقية في تلك الآونة في عموم العراق.

وفي سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م استعانت الخلافة بالعيارين ضد السلطنة السلجوقية التي كانت تعاني من ضعف وانقسام أدى بطبيعة الحال إلى حروب ومنازعات داخلية كانت الخلافة في بعض الأحيان جزءًا منها، ففي حوادث تلك السنة نجد أن السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه حاصر بغداد بعد خلاف مع الخليفة المقتفي لأمر الله، إذ كان جند السلطان في بغداد يعتدون على الخليفة ويريدون أن يصطفوا أمواله وينهبوها، لذلك استعانت الخلافة بالعيارين ليكونوا جنودها في مواجهة جند السلطان السلجوقي، وهو ما يبين أهمية هذه الفئة سياسيًّا في بعض الأوقات[٢].

وتحكي لنا المصادر أن الجند السلاجقة نجحوا في احتلال الجانب الغربي من بغداد تحت مقاومة شديدة من العيارين الذين استخدموا النفط الطيّار في القتال، وكان العيارون جيشًا تحت رعاية الخلافة التي جندت لهم قائدًا وهو وزير الخليفة عون الدين يحيى بن هبيرة الذي وعد بجائزة لكل عيّاري في هذه الحرب فمن يجرح له خمسة دنانير، وهو ما حمّس العيارين في القتال ونجد قصصًا طريفة أثناء القتال بسبب هذه الجائزة [٣].

هذا الموقف السابق يظهر جليًّاأهمية العيارين في السياسة الداخلية للعراق، وكيف كانوا ضد السلطة العسكرية السلجوقية في هذا الوقت، وكيف كانوا مع الخلافة الضعيفة في تلك الأثناء حتى لو اعتبر العيارون هذه الحرب عملًا يرتزقون منه.

وتجددت الفتنة بين السلطنة والخلافة في عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م وكانت في هذه المرة في عهد السلطان مسعود السلجوقي، الذي حاصر بغداد خاصة الأحياء الغربية التي استقر فيها العيارون

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١٨٥.

[٢] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٦٥؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٤١.

[٣] النجار، الشطار والعيارين، ص ٩٧؛ ويذكر الدكتور النجار أن المؤرخين لم يسموهم العيارة بسبب أنهم يحاربون تلك المرة مع الخليفة ضد السلطنة؛ انظر أيضا ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص٢٣٨ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أثناء هذه الثورة على النفوذ السلجوقي[١]، وقد وصلت الاشتباكات بين الطرفين من القوة لدرجة كبيرة، إذ قامت السلطات متمثلة في الأتابك والذي يمثل الحاكم العسكري لبغداد إذ نهب بجنده الحريم الطاهري ردًا على نهب العيارين، وهو ما يدل أن الطرفين تبادلا النهب داخل الأحياء الغربية، ولكن الأمر لا يستوي بين سلطة تنهب وعامة تقوم بالرد فقط.

ولكن على أي حال تواصل الحصار على الأحياء الغربية لمدة تزيد عن خمسين يومًا دون نتيجة فقد كانت الأحياء الغربية تضطرم بالثورة والغضب وكان في القلب من هذا الغضب العيارون.

وقد استمرت الثورة ومعها عقاب السلطة لها، إذ قام الشحنة السلجوقي والذي كان يمثل الحاكم العسكري لبغداد بحرق شارع دار الرقيق ما أدى إلى خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، وأدىإلى نقل أموال الناس إلى الحريم الطاهري الذي قامت السلطة بنهبه ومعه نهب أموال الناس كما تقدم[٢].

استمرت هذه الفتنة فيما يبدو بتبعاتها وقتًا طويلًا بين شد وجذب من السلطة ضدهم، ففي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م، قامت السلطات السلجوقية في أثناء حصار محمد بن ملكشاه لبغداد، بنهب المحال الغربية وفيها أموال الناس وبيوتهم، فزادت المظالم وكان الشحنة المدعو البقش، هو المسئول الأول عن هذه المظالم بنص حديث ابن الأثير[٣]، لكن يعزو بعض الباحثين أن السلطات استغلت القيام بهذه المظالم وإلصاقها عمدًا بالعيارين للتخلص منهم إذ تم القبض على عدد منهم وتم إعدامهم ومع ذلك استمر نهب الشرطة للأحياء الغربية وزادت الأسعار تباعًا لذلك وهجرة الناس من هذه الأحياء بل ومن بغداد كلها إلى المدن المجاورة بسبب عدم الاستقرار الأمني والاقتصادي[٤].

هذه الأحداث السابقة كانت في بغداد كعادة الأمر، لكن الأمور هذه المرة امتدت إلى بعض مناطق العراق خاصة في السواد، إذظهر العيارون فيها وقاموا بالثورة ضد السلطات السلجوقية برئاسة ابن بكران العيّار ورفيقه ابن البزاز[٥]، إذ قامت سلطة محدودة على السواد لهؤلاء العيارين لدرجة أنهم سكوا العملة باسمهم في الأنبار "وصار يركب ظاهرًا في جمع من أتباعه"[٦] وقد

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣١٠ و٣١١.
(٢)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣١٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ٢٩١.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٣٠٥.
(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٠٥.
(٥) نفس المصدر السابق، ص٣٠٦.
(٦) نفسه، ص٣٠٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتهت هذه السلطة بمؤامرة اشترك فيها الشحنة "البقش السلاحي" ووالياالأنبار أبو الكرم ضد ابن بكران ورفيقه ابن البزاز وقد نتج عنها مقتلهما وجماعة أخرى من الحرامية في لفظ ابن الأثير[١].

ويبدو أن تلك السنوات العصيبة على السلطنة السلجوقية، والتي كانت تعاني فيها من الفساد الإداري والسياسي، شجعت العيارينعلى العمل سواء لصالحهم أو ضد السلطة، فنجد في عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، إذ وجد السلطان مسعود وهو يقوم بعملية إحلال وتجديد للجهاز الإداري للدولة ومن ضمن هذا التجديد تعيين بهروز لشحنكية بغداد، أن العيارين زاد نشاطهم تحت سمع وبصر بعض عمال الدولة، وبعد البحث والتحري في الأمر وذلك بمساعدة نائب الشحنة المملوك ايلدكز الذي كشف له عن شيء خطير وهو اشتراك ابن الوزير وابن قاروت أخي زوجة السلطان في عمل العيارين ومقاسمتهم في نهب الأحياء البغدادية[٢]وهو ما يبين أن السلطة السلجوقية خاصة جهاز الشحنة كان يخترق العيارينأمنيًا من أجل تطويعهم وإبعادهم عن مهمتهم الأصلية، ويبدو أن مجموعة من النهابة كانوا يتبعون هذه الشخصيات السلجوقية من أجل العمل على النهب والسلب لصالحهم.

وقد قام جهاز الشحنة في عهد مسعود بالقبض على ابن قاروت والأمر بالقبض على ابن الوزير الذي هرب، وقد حوكم ابن قاروت وقتل وصلب أمام أعين الناس والعيارين الذين هرب أكثرهم من القبض والقتل وذلك في عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م[٣].

ويبدو أن بعد هذا التاريخ قلت هجمات العيارين في بغداد وغيرها فلم نجد ذكرًا لهم، سوىما ذكر بعد وفاة السلطان مسعود السلجوقي في عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، أن الخليفة المقتفي لأمر الله كان يهدف للاستقلال من نفوذ السلاجقة الذين كانوا يعانوا من ضعف وانحلال في مفاصل الدولة سواء في خراسان أو العراق، فرأى الخليفة أن يستغل هذا الضعف ويكون قوة عسكرية تابعة له تحمي الخلافة في وقت الخطر، ولم يجد المقتفي أكثر شجاعة وحماسة من العيارين، إذ

---

(١) نفسه، ص٣٠٦.
(٢) نفسه، ص٣٢٤؛ انظر أيضا؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٧ و ١٨.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جند منهم الكثير وأدخلهم ورتبهم من ضمن الجند العباسي المدافعين عن بغداد[١].

لم ينته دور العيارين عند هذا الحد، لكن جميع الحوادث كانت عادية وليس فيها ما يثير، إذ نجد أن العيارين نشاطهم قليل وأصبح أكثر عقلانية من ذي قبل، خاصة بعد تنظيمات الفتيان وترسيخ المبادئ التي عاش بها هؤلاء العيارين، ولعل تبني السلطة العباسية لهؤلاء قد طوعهم حينًا من الزمن وأصبح الفتيان العيارين هم أصحاب الشهامة والمروءة في المجتمع ويتخذ منهم العامة قدوة في بعض الأحيان وقد عاشوا عصرهم الذهبي بحق في عهد الخليفة الناصر لدين الله، ولكن لهذا حديث آخر لأن هذا الخليفة عاش في أواخر عهد السلاجقة وانتهت فترة تاريخية كانت مليئة بالأحداث والصعاب والمحن والأزمات، ليبدأعصر انتعاشة للخلافة ولكنها كانت مؤقتة لأن الخلافة نفسها لفظت أنفاسها الأخيرة تحت سنابك وسيوف المغول في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

كان هذا أهم ما جاء في السرد الحولي لفئة العيارين وما نتج عن حركتهم، وسنتحدث في النقطة التالية عن النتيجة المستخلصة من هذا السرد.

---

(١) لم تذكر المصادر التي بين أيدينا صراحة أنهم فئة العيارين، فهم يذكرون العامة وأهل بغداد من العوام، فلم تكن أول مرة في استخدام هذا اللفظ عندما يشترك العيارون في جيش الخليفة، وهذا ما لا يتفق معه بعض المراجع، لذلك قام الباحث بعرض ما قالته بعض المراجع وأيضا عرض المصادر المختلفة، فالعامة اشتركوا بالفعل في جيش الخليفة الذاهب إلى واسط والحلة دون استخدام لفظ العيارين؛ انظر الفقيه، العيارين والشطار في الدولة العباسية، ص١٢٠و١٢١؛ جاء في لفظ ابن الأثير، أن الخليفة أكثر من التجنيد للعامة؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ص٣٧٤؛ ابن الجوزي، المنتظم، ح١٨، ص ٨٤؛ وقد ذكر ابن الجوزي أن الخليفة هدد من يتخلف بكتابة اسمه من الجند سيكون عقابه الموت، وفي موضع آخر كان الجند هم العامة؛ انظر أيضا؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٣٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خامسًا: هل كان العيارون سببًا أم نتيجة للأزمة الاقتصادية؟

تعتبر هذه النقطة الأخيرة المختصرة، خلاصة هذا المبحث، إذ يجاوب الباحث من نظرة متفحصة لما سبق عن هذا السؤال المهم، وتأتي الإجابة من عدة نقاط وهي:

- كان العيارون والذين يشكلون جميع الفقراء والمهمشين من جميع العناصر السكانية التي سكنت العراق في ذلك العصر، فهي نتاج للمجتمع ولفئة العامة التي تعاني من شظف العيش وقلة الدخل والأمراض القاتلة، والكوارث المتتالية، فكان العيارون ماهم إلا فئة غاضبة على وضع المجتمع الاقتصادي فحاربوا ذلك بأيديهم وحاولوا أن يغيروا هذا الوضع.

- كان هؤلاء العيارون يمثلون المبادئ الثورية على المجتمع وعلى السلطة، إذ شكلوا مبادئ الشهامة والفتوة ونصرة الضعيف وأخذ الحق من القوي، وكان هذا القوي هو السلطة المتجبرة في كثير من الأحيان فحاربوا الجند الأتراك في العهد السلجوقي ومن قبلهم الديلم في العهد البويهي، وكان هجومهم عشوائيًا قويًا على الجنود وعلى المحال السكانية في نفس الوقت.

- يرى الباحث أن اندساس فئات أخرى من النهابّة بينهم كان له الأثر في سوء سمعة العيارين، هذا بالإضافة إلى التأثير النفسي للفقر في بعض الأحيان وقلة الوازع عند بعضهم كان سببًا في نهب وسرقة المحال التجارية والأسواق ودور التجار، واتخذوا ذلك وسيلة للدفاع عن حقوق الفقراء والعامة.

- كانت مبادئ العيارين قد وصلت إلى القمة في عهد الخليفة الناصر لدين الله وأواخر عصر السلاجقة، ولعل التحاقهم بالسلطة التي طوعتهم لأغراض سياسية جعل منهم يركزونعلى المبادئ أكثر فأكثر، ويمكننا تقسيم فئة العيارينإلى الفتيان اللهاة وهم الذين ارتكبوا أشياء تتناقض مع مبادئ الفتوة، والفتوة الصوفية التي كانت تركز على المبادئ أكثر من أي شيء آخر.

- كان العيارون في كثير من الأحيان بين سلطتين متناحرتين وأعني بهما في الأخص السلاجقة والدولة العباسية فهذه الحالة ظهرت أكثر في العهد السلجوقي أكثر منها في العهد البويهي، إذ سئمت الخلافة العباسية من التسلط العسكري السلجوقي ورأت أن فرصة ذهبية جاءت إليها من السماء في استغلال النزاع الأسري الطاحن بين البيت السلجوقي في محاولة الفكاك من السلطة العسكرية للسلاجقة خاصة في إقليم العراق التي كانت تنظر إليه الخلافة على أنه نفوذها الأخير، لذلك كان العيارون جزءًا من هذا الصراع السياسي الكبير وبرزوا في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الناحية العسكرية والسياسية ودخلوا حلبة الصراع بقوة بل وحققوا لهم مصالح ومكاسب محدودة لكنها كانت مؤثرة في الأغلب.

- التأييد الشعبي الكبير للعيارين في كثير من الثورات التي قاموا بها ضد السلطة البويهية والسلجوقية، بل كان من العيارين من يدخل آتون الصراع المذهبي وهذا أعطاهم ظهيرًا شعبيًا وإن كان مقيتًا وعصبيًا وقبائليًا في نفس الوقت، فالعيارون الشيعة كانوا ينصرون أحياء الشيعة بكل قوة وعلى الناحية الأخرى تعصب العيارون السنة لمذهبهم وماتوا في سبيله وكثيرًا ما تخلل هذا الأمر الفوضى والسرقة والنهب، وكأننا نقول إن ظهيرًا وحاضنة شعبية كانت وراء ظهور العيارين المتكرر سواء ضد السلطة أو الدخول في صراع شعبي مع فئات أخرى في المجتمع.

- كانت الناحية الاقتصادية ضحية كبيرة لكل هذا الصراع السياسي والاجتماعي، فعمليات النهب والسلب التي قام بها العيارون، كانت السبب في الحالة الاقتصادية المتردية التي عانت منها مدن العراق خاصة بغداد والبصرة والموصل ومناطق الأنبار في السواد وغيرها من المدن التي ظهر فيها العيارون، وكثيرًا ما ذكرت المصادر ما حدث في بغداد من نهب الأحياء الغربية ومناطق الكرخ وباب البصرة وغيرها من المناطق والدروب، وتعرضت التجارة إلى كساد عظيم بسبب غلق المحال التجارية خوفًا من النهب، أو الخوف من الحرائق التي كانت كثيرًا ما تصاحب عمليات النهب هذه، وقد كثرت المجاعات وغلاء الأسعار ونقص المواد الغذائية بسبب العيارين ونهبهم، وتعرض التجار من الطبقة الوسطى أو البرجوازية للنهب والسرقة والسطو وقطع الطرق، بل كانت تستغل السلطة لتحقيق مكاسب مادية من وراء العيارين وذلك بمقاسمتهم إياها كما حدث في عهد السلطان مسعود السلجوقي.

كل هذه النتائج المستخلصة من السرد الحولي لنشاط العيارين، تختتم هذا المبحث بالإجابة ونؤكد أن العيارين كانوا جزءًا من الأزمات والمحن الاجتماعية والاقتصادية التي مرت على العراق، وكانوا يستغلون الأزمات لصالحهم، فهم نتيجة في بعض الأحيان وسبب في أحيان أخرى، إذ شكلت عمليات السلب والنهب سببًا في أزمة كبيرة، وكانت الأزمة الاقتصادية التي تلقي بظلالها كل حين على العراق سببًا في ظهور العيارين وانتشارهم وعملهم، فهم في هذه الحالة نتيجة للأزمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثالث: دور العلماء في التصدي للمحن والأزمات الاقتصادية والاجتماعية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

بقي لنا في هذا المقام من الفصل الثالث الخاص بالحركات الاجتماعية ودورها في المحن والأزمات الاقتصادية التي مرت على العراق؛ أن نتحدث عن دور العلماء في مواجهة تلك الأزمات والمحن وكيف كان دور إيجابي أو سلبي في بعض الأحيان، وكيف كانت فئة العلماء ودورها المهم مؤثرًا في حياة المجتمع العراقي ورقيه أو انحطاطه.

ففي هذا المبحث الثالث، سنتحدث عن هذا الدور بقدر من الاستفاضة، مع اتباع المنهج الذي اتبعه الباحث منذ بدء هذا الموضوع، في تقسيم المبحث إلى نقاط عدة كل حسب الأهمية، مع تحليل خاص لهذه الظاهرة كنتيجة لهذا المبحث.

ويمكننا تقسيم هذا المبحث إلى عدة نقاط كما يلي:

- تقسيم نوعية العلماء في المجتمع بين فقهاء ورجال دين وعلماء دنيويين في مجالات شتى.
- دور الفقهاء ورجال الدين في مواجهة الفساد السياسي والاجتماعي.
- دور الفقهاء والوعاظ والعلماء في مواجهة الكوارث الطبيعية والوبائية.
- دور الفقهاء ورجال الدين في الفتن الاجتماعية.
- دور الفقهاء والعلماء في الحد من الفقر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولًا: العلماءفي المجتمع العراقي وتقسيمهم إلى علماء وفقهاء دين وعلماء دنيا في مجالات شتى:

لو تتبعنا كتب التراجم والسير عن هذه الفترة التاريخية، سنخلص بنتيجة حتمية على كثرة العلماء والفقهاء والعلماء الدنيويين في العصريين البويهي والسلجوقي، فعلى سبيل المثال نجد أن التراجم التي كتبها ابن الجوزي على شكل وفيات للسنوات التي جاءت في تاريخه سنجدها كثيرة وثرية[١]عن نوعية العلماء في المجتمع العراقي أو القاضي التنوخي وكتابه المعبر بحق عن المظاهر العلمية في تلك الفترة، ولم لا وهذا العصر كان يمثل ترسيخ مفاهيم الحضارة الإسلامية وعصرها الذهبي في القرن الرابع الهجري على سبيل المثال وإرهاصاتها في العصر الذي يليه كما يستنتج آدم متز في كتابه الأشهر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري[٢].

وبالرغم من الانحطاط السياسي والاجتماعي الذي عانت منه العراق وباقي البلدان في هذا القرن وما يليه، كانت العلوم وفئة العلماء قد وصلت للذروة، وعظمت الحضارة أكثر وترسخت المبادئ العلمية في نفوس العلماء وزادت المكتبات وأصبح هناك نظام المدارس والمعاهد التعليمية من ابتداء العصر السلجوقي[٣]وكأننا أمام نتيجة مفادها كما يقول طه حسين:"أن هناك علاقة عكسية في كثير من الأحيان،فيرقى الأدب على حساب السياسة المنحطة"[٤].

هذه المقدمة القصيرة إذن توضح أن فئة العلماء كانت لها من الأهمية بمكان في المجتمع العراقي لتكون مؤثرة في مصائره ومستقبله القريب والبعيد، وبالتاليالحاضر الذي يتمثل في الفتن والمحن والبلايا والأزمات التي مرت على هذا البلد في خلال العصرين مناط البحث.

على أي حال؛ انقسمت فئة العلماء في العراق مثلها مثل جميع البلدان الإسلامية في العصور الوسطى إلى علماء وفقهاء من ناحية وأدباء وكتاب وعلماء في مجالات كالطب والهندسة والفلك

---

(١) اعتمد ابن الجوزي في تاريخه المنتظم على النظام الحولي وتراجم لوفيات كل سنة وقد ترجم للعديد من العلماء في المجتمع العراقي؛ انظر الدراسة التحليلية للمصادر والمراجع في تمهيد هذه الدراسة.

(٢) هناك فصل كامل لكتاب آدم متز عن العلماء ونشاطهم في القرن الرابع الهجري؛ انظر آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو زيد، ج١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ب ت، ص٣١٩ وما يليها (الفصل الخاص بالعلماء).

(٣) كان قبل العصر السلجوقي التعليم مستقلًا بعيدًا عن الدولة، لكن قامت الدولة السلجوقية بفضل جهود نظام الملك الطوسي في بناء المدارس النظامية في بغداد وغيرها من مدن الإمبراطورية السلجوقية وذلك لبث تعاليم المذهب السني الأشعري التي كانت تعتبر عقيدة خاصة للسلاجقة ومن سار على دربهم؛ انظر آدم متز، المصدر السابق، ص٣٤٢؛ عن نشأة المدارس النظامية انظر أيضا؛ عمر فلاح عبد الجبار، الوزير السلجوقي نظام الملك إصلاحاته الإدارية وإسهاماته الفكرية، مجلة الجامعة العراقية، كلية الآداب، العدد ٢٨ ،العراق، ب ت، ص٣٥٢ و٣٥٣ و٣٥٤.

(٤) طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق، القاهرة، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، ص٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وغيرها من المجالات، ونجد مزية أخرى ارتبطت بها الحضارة الإسلامية دون غيرها إذ جمع بعض العلماء علم الدين والدنيا معًا فكانوا بذلك علماء موسوعيين(١).

ولعل العلم وحركته وتقسيم العلماء جاء في الإسلام منذ بداية الوحي، إذ خاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم في كثير من السور الكريمة بلفظة العلم، سواء العلم الذي أعطاه الله للأنبياء أو العلم الدنيوي الذي ظهر مع حركة البشرية في طريقة كسب المال، أو تعلم العلم، أو العلوم التي من وراءها حكمة دنيوية وغيرها من الآيات(٢).

ويرجع تقسيم العلم والعلماء في المجتمع إلى العصر الأموي سواء كانوا علماء يشتغلون بالفقه والحديث وغيرها من العلوم النقلية، وحركة علم وعلماء آخرون يعملون بالطب والهندسة والكيمياء والفلك والفلسفة وغيرها من العلوم الطبيعية والنظرية التي تخدم الدنيا قبل أي شيء(٣).

وبطبيعة التطور المدني والحضاري الذي شهدته بلدان الإسلام ينتقل مثل هذه التقسيمات بتعقيدات أكبر في كل المجتمعات بشكل واحد ومكرر، إذ كانت الحضارة الإسلامية وحدة جغرافية وطبيعية واحدة من حدود الصين إلى الأندلس بعيدًا عن الانقسامات السياسية التي فصلت المسلمين.

وما يهمنا في الأمر؛ هو أن العراق كانت جزءًا من كل هذا وانقسم العلماء في المجتمع العراقي إلى علماء دين ودنيا وكل فئة كان لها تأثيرها الخاص في مواجهة المحن والأزمات التي مرت على العراق.

وفي النقاط التالية سيتضح هذا التقسيم بجلاء، مع ذكر لبعض العلماء الذين لمعوا في هذا، مع إظهار دورهم المؤثر في المجتمع العراقي خلال هذه الفترة.

ثانيًا: دور العلماء والفقهاء في مواجهة الفساد السياسي خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

كان للعلماء فضل كبير في مواجهة الفساد السياسي عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء على المستوى السياسي الأعلى أو حتى على المستوى الشعبوي الذي مثل المستوى الأدنى، إذ خلط العلماء والفقهاء حول المستوى السياسي الذي كان يعاني من فساد للذمم

---

(١) أحمد أمين، ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م، ص١٨١ ومايليها.
(٢) محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ب ت، ص٤٤٧؛ انظر أيضا، أحمد أمين، فجر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م، ص١٦٤ و١٦٥.
(٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص١٦٥ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واستباحة للأعراض والأموال، أو المستوى الشعبي الذي عانى من انحلال للأخلاق متأثرين بالأزمة الاقتصادية والاجتماعية في هذا العصر[١].

ومن خلال الشذرات البسيطة في كتب المصادر، يحاول الباحث جمع ما يمكن جمعه عن دور العلماء في مواجهة الأزمة السياسية من خلال ذكر بعض العلماء وما قاموا به بعيدًا عن السردية الحولية التي راعاها الباحث في المبحثين السابقين.

وعن أولى الإشارات حول دور الفقهاء في السياسة، هو دور العلماء والفقهاء في عام ٤٠٢هـ/ ١٠١١م، في إصدار وثيقة لطعن الخلفاء الفاطميين في نسبهم وأصل أسرتهم، ونفي الأسرة الفاطمية عن نسبهم لآل عليوفاطمة، وقد كانت هذه الوثيقة سياسية بامتياز، إذ عمل الخليفة القادر بالله العباسي على بذل الجهود من أجل القضاء على النفوذ الفاطمي، ولقد كانت هذه الوثيقة على هوى الفقهاء والقضاة وغيرهم من أهل السنة، وذلك لمحاربة النفوذ الفاطمي وتحجيم الخطر الشيعي الذي انتشر وهدد العباسيين في عقر دارهم[٢].

ولقد كانت الخلافات الشعبية السنية الشيعية، هي المؤثرة في خلفية الوثيقة، فربما تأثر الفقهاء والعلماء بهذا المناخ السياسي والاجتماعي الصعب فوافقوا على الوثيقة، التي رأى فيها ابن خلدون كذبًا وزورا على الفاطميين[٣].

لكن على الرغم من ذلك وجدنا من الشيعة من وقع على هذه الوثيقة، مثل الفقيه أبي عبد الله بن النعمان، ومن الفقهاء السنة، أبي حامد الإسفرائيني،وأبي محمد الكشفلي، وأبي عبد الله الصميري، والنسوي وغيرهم[٤].

أما عن القضاة فقد ساند هذه الوثيقة وأيدها، أبو القاسم الخرزي، وأبو محمد بن الأكفاني[٥].

لم تكن هذه الوثيقة الوحيدة التي عملت على حماية الدولة من الأخطار، بل أصدر القادر بالله وثيقة أخرى بمشاورة العلماء والفقهاء، لإصدار وثيقة تعبر عن الاعتقاد الرسمي للدولة، وقد صدرت هذه الوثيقة في عام ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م، ولقد تشجع العلماء والفقهاء بتأييد من الدولة

---

(١) نادية عبد الصمد عبد الكريم مقلية، دور العلماء في الحياة العامة في العراق خلال العصر السلجوقي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القري، مكة المكرمة، السعودية، ٢٠١٤م، ص١٨٧ و١٨٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٣.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٧ و٢٨.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٧٣؛ انظر أيضا؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٨٣.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٨٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على إخراج هذه الوثيقة التي كانت فيما يبدو معبرة عن روح العلماء والفقهاء في الوقوف ضد مفاسد المجتمع العراقي وما انتشر فيه من اختلال العقيدة لا سيما العقيدة الشيعية[١].

ولم يقف الفقهاء والعلماء فقط في مواجهة الفساد العقائدي، وإنما قاموا بالثورة الداخلية في عهد الخليفة المستظهر والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، وكان سبب الثورة احتلال الصليبيين لسواحل الشام بما يعرف بالحملة الصليبية الأولى، وهو ما دفع العلماء والفقهاء إلى الثورة لما رأوه من تخاذل السلطات، خاصة أن السلاجقة كانوا يتحملون جزءًا من هذه الهزيمة والخسارة الفادحة، وقد قام العلماء والفقهاء والوعاظ ومعهم عامة بغداد بكسر المنابر، وإعلان الجهاد، والخروج إليه، وقد أسهم طائفة من الناس الذين أتوا من الشام في سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م[٢]، في هذه الثورة وإبلاغ الناس ماحدث في القدس الشريف "أعاده الله للمسلمين" من فظائع ارتكبها الاحتلال الصليبي.

وقد انتهت هذه الانتفاضة إلى تهدئة السلطات بإعلان النفير العام، لكن دون نتيجة، وذلك لانشغال السلطان محمد بتزويج ابنته.

ولم يكن لعلماء الفقه والدين والوعاظ المكانة فقط في عهد المستظهر بالله، بل نجد في بعض الروايات، أن المستظهر كان مولعا بالفلك والتنجيم، وهذا أثر في قرارات سياسية واقتصادية، فعلى سبيل المثال، تنبأ المنجمون للمستظهر أن بغداد ستتعرض إلى الغرق، وذلك عندما تصل الأفلاك لتكون قريبة من بعضها البعض، ومن الواضح أن المستظهر صدّق هذه النبوءة، وقام بإبلاغ السلطات كي يستعدوا للغرق القادم ويسدوا البثوق ويقوموا بترميم السدود[٣].

ونجد أيضا بعض الفقهاء الذين كتبوا بعض الكتب التي تمجد وتكتب عن فضائل الخليفة العباسي، وهذا لعمري ظاهرة غير جديدة على العصور العباسية، لكنها لها مغزى كبيرًا من انعكاس السياسة على هذه الكتابات، فأبو حامد الغزاليالمقرب من السلطة السلجوقية كتب كتاب "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية" إذ يتناول الكتاب فضائل الخليفة المستظهر بالله[٤]، ورذائل الفئة الباطنية وأتباع الحسن بن الصباح المرعبين الذين قاموا بالاغتيالات ومحاربة القوة

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٢٨.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٤١.

[٣] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٥؛ انظر أيضا ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣١.

[٤] كتاب فضائح الباطنية من أشهر كتب الغزالي التي تفضح معتقد الباطنية والشيعة، ويعتبر هذا الكتاب الذي أسماه الغزالي نفسه المستظهري تيمنًا على اسم المستظهر بالله من أهم الكتب التنظيرية للسنة عقيدة الدولة السلجوقية ومدافعًا عن الخلافة العباسية؛ أبي حامد الغزالي، فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، ب ت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السنية في الشرق وهي السلاجقة، فالغزالي مجّد السنة وحط من الباطنية، كجزء من السياسة العامة للدولة السلجوقية في ذلك الوقت من محاربة البدع وخاصة الباطنية، وفي نفس الوقت تمجيد كل ما هو سني، والحفاظ على هيبة الخلافة، ولعل الغزاليكان معبرًا حقيقيًا عن تلك السياسة.

لم يكن الغزاليوحده من كتب عن فضائل المستظهر بالله، بل نجد أن الفقيه الشافعي أبي بكر الشاشي يكتب عن فضائل الخلافة العباسية وفضائل المستظهر بالله، وتمجيد السنة، وسمى الكتاب حلية العلماء[١].

ومن مظاهر وقوف العلماء وفقهاء الدين أمام المفاسد الاجتماعية، هو ما قام به أبو الوفاء بن عقيل وجمهرة من الفقهاء من اعتراضهم على مفاسد قام بها عامة بغداد أثناء الاحتفال ببناء أقامته السلطات على قسم الحريم بالقرب من قصر الخلافة عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وقد كان يعد بمثابة حي مستقل داخل المدينة، وقد كان هذا الاحتفال الكبير مدعاة لتدخل الفقهاء واعتراضهم على ما قام به العامة من موبقات تستوجب مخالفة الشرع[٢].

ويبدو أن الخليفة نفسه كان يتبع سياسة تقريب العلماء ضد كل ما يقوم بالطغيان على سلطة الخلافة، فنجد في موضع آخر أن المسترشد نفسه أراق الخمور وقام ببعض الإصلاحات وحارب العيارين واللصوص وأوقف الفوضى[٣].

ومن ضمن العلماء الذين قربهم المسترشد كان ابن عقيل، الذي خصه ببيعة خاصة بعد توليته الخلافة، كما أمر أحمد بن محمد الرطبي بجمع الأموال كي يقوم بالإشراف الخاص على عمارة سور بغداد وذلك عام ٥١٧هـ/١١٢٣م [٤]، ولقد كان الرطبي شخصية أمينة وصادقة مع الخليفة، فقد لاحظ الرطبي أن العامة قد تذمروا من كثرة الأموال التي دفعوها من أجل عمارة السور مما أثقل كاهلهم، فنصح الرطبي بإرجاع الأموالإلى العامة، وقيام الدولة بالتكفل بهذه العمارة، والتخفيف من كاهل الناس، مما كان له الأثر الطيب في نفوس العامة تجاه الخليفة وتجاه العلماء وفقهاء الدين على السواء.

---

(١) كتاب حلية العلماء من تأليف الفقيه الشافعي أبي بكر الشاشي وقد أهدى هذا المصنف إلى المستظهر بالله العباسي كنصائح له وتبيان لمذهب السنة وفضح ما سواه من العقائد المخالفة، وقد قال ذلك صراحة في مقدمة مصنفه هذا؛ أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي، حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، تحقيق سعيد عبد الفتاح، مكتبة الباز، الرياض، السعودية، ١٩٩٨ م، انظر مقدمة المؤلف ص٣٨ ومايليها.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٦.

(٣) شعبان أيوب، آخر أيام العباسيين، ص١٤٢.

(٤) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢١٧ و٢١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م، نجد أن للعلماء دور كبير في الحفاظ على حقوق الناس إذ وقفوا ضد فرض القائد التركي إينال أنوشكين الضرائب الباهظة على العامة، ما جعل الخليفة المستظهر بالله يرسل العالم الفقيه أبي الحسن الدامغاني ينهاه عن ذلك ويبين له أن ما يرتكبه ظلم وعدوان وفساد، وهذا يدل على مكانة الدامغاني وحسن سيرته بين الناس(١).

ويبدو أن الدامغاني كان مشهورًا عنه مواجهة الظلم في المجتمع والوقوف بجانب العامة، ما جعل المستظهر بالله يستعين به لمواجهة ما فعله أحد عمال الدولة من ظلم وفرض للغرامات والضرائب.

وفي عهد الخليفة المقتفي، نجد أن زمرة من العلماء والوعاظ والفقهاء، يعمدون إلى الوعظ والتأنيب الشديد سواء للخلافة أو السلطنة السلجوقية من أجل إسقاط الضرائب والمكوس عنالناس، وفي أغلب الأحيان كانوا ينجحون(٢).

ومن أبرز الأمثلة، الحسن بن أبي بكر النيسابوري، وكان من وعاظ السلطان مسعود السلجوقي، وقد قام بإلقاء موعظة شديدة على مسامع السلطان فكان من نتيجتها إسقاط المكوس والضرائب الباهظة عن العامة(٣).

وأيضا الإمام الجواليقي موهوب بن أحمد وكان إمامًا كبيرًا وقد أثر في سلوك الخليفة المقتفي، وجعله يتقرب من العامة والعلماء في آن واحد(٤).

ونجد مثالًا حيًّا أيضًا على يقظة العلماء تجاه الأزمات السياسية، فبعد موت آقسنقر حاكم الموصل، تصدى العلماء لتلك التحديات الصعبة حتى لا تسقط الموصل فريسة للفوضى السياسية والاقتصادية وأسندوا مهام حاكم الموصل لمملوك آقسنقر عماد الدين زنكي(٥)، ولقد أثبت زنكي كفاءته وشجاعته في تاريخ العراق وفي تاريخ الشام خاصة بعد تبنيه حركة المقاومة والجهاد ضد المحتل الصليبي، وقد أكمل المسيرة من بعده ابنه نور الدين محمود بن زنكي أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ولقد قامت عائلة الشهرورزي المعروفة بالعلم والتقوى بدورها تجاه الموصل، إذ كان أبرزهم القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرورزي يساند عماد الدين زنكي وكان يعتبر مستشاره السياسي

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٨٠ و٨١.
(٢) شعبان أيوب، آخر أيام العباسيين، ص٢٢٥.
(٣) نفس المرجع السابق، ص٢٢٧.
(٤) نفسه، ص٢٢٧.
(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاص[1]، ولقد تجلت عبقرية الشهرورزي في قضية خلع الخليفة الراشد وتعيين المقتفي، كما كان له دور في السفارة التي قام بها إلى بغداد بعد تولية المقتفي.

وكان سابقًا هذا القاضي وشخصية أخرى هو صلاح الدين الياغسياني قد قاموا بدور الوساطة عند السلطان السلجوقي سنجر لتولية عماد الدين زنكي للموصل وقد نجحوا فيها[2].

وعلى ذكر خلع الخليفة الراشد، فهذه القضية السياسية تم إقحام الفقهاء فيها لصالح السلاجقة، والذين استخدموا الفقهاء في نشاطهم السياسي ضد الخلافة العباسية، فسلطان سلاجقة العراق مسعود كان قويًّا على الفقهاء والعلماء وقد جمعهم على خلع الخليفة الراشد وتعيين المقتفي، فكأن العلماء والفقهاء أصبحوا أداة طائعة للسلطنة السلجوقية في أهدافها[3].

ثالثًا: دور الوعاظ والفقهاء والعلماء في مواجهة الكوارث الطبيعية والوبائية خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

كان من المسلمات دور العلماء والفقهاء والوعاظ أثناء الكوارث الطبيعية والوبائية التي كانت تقوم بتدمير العراق اقتصاديًّا واجتماعيًّا، إذ كان الوعاظ يقومون بدورهم بتذكير الناس بالآخرة، وربط ما يحدث من الكارثة الطبيعية بغضب الله على عبيده العصاة، فذنوبهم تلك هي التي جلبت عليهم سخط الله فابتلاهم بالكارثة.

وبسبب هذا المفهوم السابق، لعب الوعاظ دورهم بامتياز، وظهروا في ساعات المحن والأزمات كجزء من حل الأزمة أو بمعنى أدق تخفيف الأزمة معنويًّا في نفسية العامة.

ولعل القول السابق يعضده بعض ما جاء في المصادر المختلفة عن الوعظ أثناء الكارثة الاقتصادية، فقد تعرضت العراق إلى عدة كوارث بيئية وطبيعية أثرت في اقتصادها بشكل كبير، فالزلازل والفيضانات والجفاف والأحوال المناخية المتقلبة، وهجوم الجراد على الأراضي الزراعية، كانت كل هذه الكوارث وغيرها بلا شك سببًا من أسباب التدهور الاقتصادي خلال العصرين البويهي والسلجوقي.

وعن الكوارث الطبيعية فسنجدها بعد قليل في فصل منفصل يتحدث عنها تفصيليًّا، أما في هذه النقطة البحثية سنكتفي فقط بدور الوعاظ في الأزمات الاقتصادية الناتجة عن الكوارث الطبيعية.

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٢٤٣.

(٢) نفسه، ص٢٤٢.

(٣) شعبان أيوب، آخر أيام العباسيين، ص١٧٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ففي عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م[١]، إذ شهدت بغداد ومدن أخرى في العراق فيضانًا عنيفًا أدى إلى غرق الدور وهلاك الزروع ومقتل الكثير من الناس، إذ بدأ الفيضان بزيادة معتادة من نهر دجلة مع مطر شديد أدى إلى غرق الدور، وكان العدد المقدر حواليثلاثين دارًا، وهدمت الأسوار والمحال، وهُدم سور سنجار، وقد وصل الفيضان إلى مداه بسبب وجود ريح شديدة قامت بجرف المياهإلى مناطق كثيرة من الأحياء حتى وصل إلى البرية من الصحراء.

كانت هذه الكارثة هي الأعنف في مجمل الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها العراق، ما جعل الخليفة القائم بأمر الله، يتضرع إلى الله لكي يكشف الغمة عن المسلمين، وتنجلي الأزمة التي كانت لها آثار سلبية على عامة الناس[٢]، ودعا الناس إلى الرجوع إلى الله، وكانت هذه من مهام الوعاظ، إذ ظهروا في هذه الآونة ودعوا الناس إلى ترك المعاصي والذنوب، والدعاء إلى الله حتى تنكشف هذه الأزمة التي اشتدت على الناس.

وهذه الرواية تكتمل عندما نعرف أن هؤلاء الوعاظ أنفسهم طالبوا الخليفة والسلطة السلجوقية بإراقة الخمور وتدمير الأماكن اللاهية والتي انتشرت في أرجاء المدن العراقية، مما كان له أثر سيئعلى الناس، لذلك طالبوا باتخاذ تدابير عاجلة للقضاء على تلك الظواهر حتى لا يغضب الله على أمة المسلمين، وبالفعل نجد في السنة التالية تعرضت بغداد للغرق، وكانت كرامة لهؤلاء الوعاظ في نظر الناس، لكن ما يهمنا في هذا المقام هو دور الوعاظ في الأزمات[٣].

كان من أشهر الوعاظ في هذا الصدد الشريف أبي جعفر بن موسى، وكان قد طالب الخليفة بإبلاغ السلطان السلجوقي بهدم المواخير وإراقة الخمور والبعد عن الموبقات، ولكن هذا لم يحدث، مما أدى إلى الغرق في تصوره[٤].

تعرضت العراق لعدد من الكوارث البيئية الأخرى كالقحط والجفاف، فقد أدى ذلك إلى خروج الوعاظ لصلاة الاستسقاء، والدعاء من أجل جلب المطر والخير، وهذا حدث في كل حوادث القحط تقريبًا، كما حدث أن هبت على العراق ريح سوداء وظلام دام لعدة أيام أكثر من مرة في روايات ابن الجوزي وابن الأثير كما حدث في عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م[٥]، إذ تعرضت المدن

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٥٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص١٥٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٠٣ و٤٠٤.

(٤) نفس المصدر السابق، ص٤٠٤.

(٥) نفس المصدر السابق، ص٤٤١؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص ٢٣٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العراقية إلى رياح شديدة أثرت على المحاصيل الزراعية وشجر النخيل، حتى ظن الناس أنها القيامة، ما جعل الوعاظ يدفعون الناس إلى الدعاء ووعظ الناس في المساجد.

وكما حدث في عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، إذ تعرضت العراق إلى أزمة اقتصادية جراء الجدب والقحط والجفاف، بسبب نقصان المياه في نهر دجلة ما أدى -كما يخبرنا ابن الجوزي-إلى ارتفاع كراسي الوعاظ في المساجد الجامعة، من أجل الدعاء والتضرع إلى الله لكشف الغمة، وهو ما يدل أن الخلافة استعانت بالوعاظ من أجل التخفيف عن آلام الناس ولو معنويًا [١].

ولم يكن القحط والجفاف وعدم سقوط المطر الظاهرة الوحيدة التي جعلت الوعاظ يتحركون بين الناس، بل ظاهرة أخرى وهي هبوب العواصف الرعدية، ففي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[٢]، وكانت أصوات الرياح مع الرعد مزلزل، حتى سمع الناس له "قعقعة لم يسمع بمثلها قط فخر الناس على وجوههم"، ما جعل الوعاظ يدعون الناس إلى التضرع وترك الذنوب والمعاصي والرجوع إلى الله.

وفي رمضان من عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، تعرضت مدينة بغداد إلى فيضان مدمر، ما جعل الوعاظ يقودون العامة حتى موضع القورج، ويدعون الله بانحسار الماء عن المدينة، بل نجدهم لم يكتفوا بالدعاء والوعظ فقط، بل سادوا الناس في بناء السدود حتى تمنع الماء من الوصول أكثر إلى المدينة[٣].

ونجد الوعاظ أيضًا يقومون بالتضرع والاستغفار وقيادة الناس إلى ذلك وذلك في حوادث عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م، إذ تعرضت أكثر المدن العراقية إلى ريح سوداءأثرت في حياة الناس الاقتصادية[٤].

وهكذا نرى في بعض الأمثلة القليلة السابقة دور الوعظ والوعاظ في حياة الناس أثناء الأزمات الاقتصادية والإحن التي مرت على العراق.

أما عن العلماء الدنيويين إذا جاز لنا التسمية، فنجد أنه كان لهم دور كبير أثناء الأزمات الاقتصادية الناجمة عن الكارثة الطبيعية مثل الأطباء والمهندسين.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص١٩٤.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٠٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعرضت العراق لكثير من الأمراض المعدية والأوبئة، والتي سنراها في مبحث كامل في الفصل التالي، وقد شكلت هذه الأمراض سببًا كبيرًا وعميقًا في الأزمة الاقتصادية التي عانى منها العراق، فترى ماهو دور الأطباء المعنيين بهذه القضية، هل كان لهم دور حقًا؟

شهدت العراق كغيرها من البلدان الإسلامية طفرة تقنية كبيرة في هذا العصر وأعني به القرن الرابع الهجري، فقد كان عصرًا ذهبيًّا بحق، وقد شهدت فيه جميع المجالات تطورًا كبيرًا، ومن هذا التطور الطب، والذي شهد عصره الذهبي في القرن الرابع والخامس الهجريين على يد كبار الأطباء.

ولم يكن الأطباء ليظهروا بمظهر الحامي للناس من الأمراض إلا إذا اعتنت الدولة ببناء بيمارستانات معدة للطوارئ، وهذا ما نجده خلال العصرين البويهي والسلجوقي.

فنجد بيمارستانات كالمارستان المعزي[١]، نسبة إلى معز الدولة البويهي والذي بناه في عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م، وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة، كما نجد أن المارستان العضدي والذي كان من أشهر مارستانات الإسلام في ذلك الوقت كان من مفاخر ذلك العصر والذي بناه عضد الدولة بن بويه في عام ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م، في الجانب الغربي من بغداد[٢].

ونجد أيضًا مارستان محمد بن خلف الوزير والملقب بفخر الملك، قلما نجد مثله في عمله، كما يصفه الذهبي، ومارستان مدينة واسط الذي بناه مؤيد الملك أبيعليالحسن بن الرخجي، وقد بناه في عام ٤١٣هـ/١٠٢٢م[٣]، ومارستان ميارفارقين، ومارستان الموصل الذي بناه الأمير مجاهد الدين قايماز صاحب قلعة الموصل، وذلك في عام ٥٧٢هـ/ ١١٦٧م[٤]، هذا إلى جانب مارستان الرقة وحرّان ونصيبين، وكلها من جملة المارستانات المشهورة في ذلك العصر.

والحق أن هذه المارستانات لم تتخذ شهرة كبيرة إلا بوجود الأطباء الأكفاء بها، إذ عمل جملة من الأطباء المشهورين أمثال، جبريل بن عبيد الله بن بختشيوع، أبي الحسن عليبن إبراهيم بن بكس، أبي يعقوب الأهوازي، نظيف النفس الرومي، أبي الحسن بن سنان بن ثابت، أمين الدولة بن التلميذ، أبيعليين أبي الخير[٥].

---

[١] أحمد عيسي، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٨٦.

[٢] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٠٩.

[٣] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٤٣.

[٤] أحمد عيسي، تاريخ البيمارستنات، ص٢٠٠.

[٥] نفسه، ص١٩٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكل هذه المارستانات السابقة كان العاملون عليها يعملون على نظافتها، وتجهيزها بالأدوية، والأشربة الخاصة بعلاج الأمراض، وألحق بها مبانٍ لطبخ هذه الأدوية، وتخصص عدد من الأطباء في الجراحة وتشخيص الحالات العامة، ولا نجد وصفًا أروع مما جاء في حديث المستشرقة الألمانية زينجد هنكه في كتابها شمس العرب تسطع على أوروبا من وصف كامل للبيمارستان العضدي[1].

ولم يكتف الأطباء بعملهم في البيمارستانات، بل نزلوا إلى الناس، وعالجوهم من الأمراض المختلفة، فكان بعض الأطباء يتفقدون المرضى في الأسواق البغدادية يومًافي الأسبوع وذلك لعلاج الناس من الأمراض ومقاومة الأوبئة في بدايتها[2].

ومن أشهر الأطباء الذين عالجوا المرضى وكان لهم دور كبير في الحد من الوباء الطبيب موفق الدين أبي طاهر البرخشي، الذي قام بدور كبير في الحد من انتشار الوباء في مدينة واسط في العهد السلجوقي وعالج المرضى وصنع الأدوية المضادة للمرض[3]، وأيضًا الطبيب أبي المعالىأحمد بن منصور الذي كان يعمل في صناعة الأدوية داخل المارستان العضدي، والذي صنع بعض الأدوية التي تعالج الأوبئة والحماية منها[4].

بل نجد أن هناك مؤلفات طبية استعان بها الأطباء في معالجة المرضى والقضاء على الأوبئة المختلفة، مثل مؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا[5]، والذي كان معاصرًا للدولة البويهية وكان من أشهر الأطباء فيها.

فمصنف من مصنفاته يدعى القانون في الطب، كان نبراسًا وهاديًا إلى الأطباء في العمل به، فمما تحدث به الشيخ الرئيس أحوال الحمامات ونظافتها، وكيفية دخول المريض والسليم إليها، وكيفية الدلك بها وفوائد المياه الساخنة والباردة على السواء[6].

---

(١) زيغرد هينكه، شمس العرب تسطع علي الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٢٧ ومايليها.

(٢) أحمد عيسي، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٣)انظر ترجمة أبو طاهر بن البرخشي؛ ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم الخزرجي)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشره أوجست ميللر، ج١، القاهرة، ١٢٩٩هـ، ص ٢٥٦.

(٤) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج١، ص٢١٦.

(٥) هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق، مولده عام ٣٧٠هـ، وقد كان رأس الفلسفة الإسلامية وله عدة تصانيف من أهمها كتاب الشفاء والقانون في الطب وكانت وفاته عام ٤٢٨هـ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٥٣٢.

(٦) أبو علي الحسين بن الحسن ابن سينا، القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص٢٢٥و ما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وترجع أهمية مصنف القانون للأطباء المسلمين سواء في عصرنا الذي نؤرخ له أو العصور التي تليه، أنه كان مرجعًا كبيرًا لمعرفة الأوبئة التي انتشرت في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي، إذ تحدث ابن سينا عن الحمى،فقسم الحديث عنها حول ماهيتها وتعريفها، والأبدان التي تصيبها الحمى وأسبابها وتوقيتها وعن الأورام المسببة لها، وعن كيفية العدوى، والغذاء الذي يجب أن يتناوله المريض كي يتجاوز العدوى، كما تحدث عن العلاج الواجب تدبيره في حالة الأوبئة(١).

كما تحدث ابن سينا عن الجدري والحصبة وما يسبب الوباء والطواعين المختلفة، وحالات التسمم في الجهاز الهضمي وكيفية علاج كل هذه الأمراض والأوبئة، وقد استفاد الأطباء من تلك الكتابات أيما فائدة(٢).

ولقد أثرت نصائح وكتابات ابن سينا وغيرها في نفوس الأطباء وعقلهم، وطريقتهم العلاجية، وهذا من الممكن أنهأثر في تخفيف الوباء، لكنني مع البحث لم أجد دلائل على ذلك، فالأرقام التي أبدتها المصادر في عدد الضحايا كانت كبيرة، ما يجبر الباحث علىالمزيد من البحث عن الحقيقة، هل بالفعل كان الطب الإسلامي على يد ابن سينا وتلاميذه ومن استفاد منهم وقائيًا، أم أنه لم يقم بدوره على أكمل وجه؟

والإجابة عنهذا السؤال تحتاج إلى بحث سنخرج منه عن السياق الذي حدده الباحث لهذه الدراسة، لكن على أي حال لابد لنا من الوصول لنتيجة أن ضعف الدولة في كثير من الأحيان كان يفاقم ويزيد من الكارثة الوبائية، أما إذا كانت الدولة قوية كان هذا يؤثر بطبيعة الحال على التعامل مع الكارثة بشكل يخفف من غلوائها، ومما يدل على ذلك الأمر ما حدثنا به ابن الجوزي في عام ٥٧٢هـ/ ١١٦٧م(٣)، من إجراءات وقائية قام بها فيما يبدو أطباء بغداد لمنع مرض الجذام من الانتشار في المدينة، إذ نفوا أعدادًا من مرضى الجذام إلى خارج البلد، فهذا الإجراء الوقائي يدل على عمل الأطباء في الأزمات، لكن هذا العمل فيما يبدو لم يكن كافيًا لمجابهة الأزمات الطاحنة التي واجهها العراق في تلك الفترة.

ولكي تكتمل هذه النقطة البحثية لابد للباحث من الحديث عن الهندسة الإسلامية والعلماء الذين تخصصوا في الهندسة ودورهم في الكوارث البيئية، فطبيعة العراق قاسية، خاصة فيما يتعلق

---

(١) ابن سينا، القانون في الطب، ج٣، ص٥ و٦ و٧.

(٢) ابن سينا، القانون في الطب، ج٣، ص٩٠ و٩١ و٩٢.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٢٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بنهري دجلة والفرات، والفيضانات التي دمرت العراق في تلك الفترة التاريخية كانت مدمرة، وهو ما جعل الباحث يتساءل عن دور المهندسين المسلمين في هذا الصدد.

ولقد بخلت علينا المصادر المختلفة عن هذا الدور والحديث عن المهندسين المسلمين أثناء فترة البويهيين والسلاجقة، ما شكل صعوبة من صعوبات البحث المختلفة، إلا أن بعض الإشارات كانت كفيلة لإيضاح ولو نبذة عن هذا الدور.

فهذا الحسن بن الهيثم الفيزيائي العظيم[١]، والذي نبغ في عهد البويهيين ثم انتقل إلى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله الفاطمي لكي يقيم في القاهرة ويعكف على مشروع بناء سد على نهر النيل عند أسوان، لكن المشروع فشل، ثم اتهم الحسن بن الهيثم نفسه بالجنون حتى لا يبطش به الحاكم، وقد استقر في القاهرة عاكفًا على أبحاثه المختلفة في الفيزياء والطبيعة حتى توفي[٢].

هذه قصة مختصرة لهذا العالم المسلم، لكن نستشف من ورائها أن علم الهندسة وبناء السدود كان معروفًا لا ريب في العراق خلال تلك الفترة وما سبقها وما تبعها، إذ وجدت السدود في العراق وكانت وظيفتها حماية البلاد من الفيضانات.

ففي حوادث السنوات المختلفة التي سردها كل من ابن الجوزي وابن الأثير نجد بين ثناياها بناء السدود لا سيما سد القورج الذي يحمي بغداد من الغرق أثناء الفيضان، وسنجد أثناء السرد الخاص بالفيضانات كيف أن العلماء والمهندسين كانوا يسارعون بالإصلاحات وسد الخرقات التي تنتج عن الفيضانات المختلفة.

وبناء السدود في التاريخ الإسلامي مرتبط بالقرآن ذاته، ففي أدبيات المسلمين ودينهم وكتابهم أخبر الله سبحانه وتعالى عن السدود، مثل سد مأرب في اليمن[٣]، ومثل السد الذي بناه الملك ذو القرنين كي يحمي البشرية من أقوام يأجوج ومأجوج، إذن فالسدود وحكاياتها ليست غريبة عن المسلمين[٤].

---

(١) هو الحسن بن الحسن بن الهيثم، نزيل مصر صاحب التصانيف والتآليف المشهورة في الهندسة، وكان عالمًا بهذا الشأن متقنًا له ومتفننًا فيه بغوامضه ومعانيه؛ جمال الدين بن الحسن القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م، ص١٢٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص١٢٨.

(٣) انظر القرآن الكريم، سورة سبأ، آية ١٥ ومايليها من الآيات.

(٤)القرآن الكريم، سورة الكهف، آية ٨٣ ومايليها من الآيات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشيء أكثر منطقية، فلا يعقل أن الحضارة الإسلامية التي وصلت أوجها في القرن الرابع الهجري، كانت لا تعرف السدود، بل عرفتها، ونظمت مياه الري بأروع ما يكون، وحمت البلاد من الغرق، وقامت على تخزين المياه، لا سيما مياه الأمطار، وهذا ما حدث في العراق، غير أن المصادر التي بين أيدينا كما ذكرت آنفًا بخلت علينا بالكثير.

إلا أننا عرفنا من المصادر أن العباسيين منذ بداية دولتهم اهتموا بالسدود وبنائها، مثل السدود التي بنيتعلى نهر النهروان والقلائين والبزازين، بل أبدع المسلمين في توصيل المياهإلى الدروب والشوارع، كما قاموا برفع المياهإلى الأراضي الزراعية المرتفعة، وذلك عن طريق السدود[١].

أما في العصر البويهي، فقد اهتم البويهيون بالسدود وبنائها خاصة في فترة معز الدولة وعضد الدولة، إذ اهتما بالسدود وبناءها وطالبوا الرعية بالمساهمة في بناء السدود حول بغداد وفي مدن وقرى السواد الأخرى، وسد البثوق، والحرص على الحفاظ عليها[٢].

وقد حرص البويهيون على إصلاح ما خربته فترة الاضطرابات والحروب الأهلية في فترة إمارة الأمراء، إذ عملوا على سد البثوق على السدود، وتعتبر سد البثوق سياسة اقتصادية من الدرجة الأولى، إذ قام البويهيون بفضل العلماء وتشجيعهم على سد بثوق كثيرة في كل السدود العراقية من أجل تنظيم الري، والحفاظ على الأراضي من الغرق، وهذه البثوق، وكما يقول ابن مسكويه في هذا الصدد "قلما سددت البثوق عمرت بغداد، وبيع الخبز النقي العشرين رطلًا بدرهم "وهذا يدل على الرخاء الاقتصادي في هذا الوقت"[٣].

ومن الواضح أن العهد البويهي في فترته الأولى كان يمتاز بتجييش العلماء والمهندسين ومن وراءهم العمال والبناعين في بناء السدود وحفر القنوات وتطهيرها وإدخال الآلات الزراعية كالجدول والناعور والطنبور، وكان للعلماء المهندسين فضلًا كبيرًا في تطورها وإدخالها على الزراعة[٤].

---

(١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٦٥
(٢) نفسه، ص٦٧.
(٣)مسكويه، تجارب الأمم،ج٥، ص٤٤٨.
(٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٧٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكأي شيء كانت السدود تتأثر كغيرها من عوامل الزراعة بالنواحي السياسية، فكم من فيضان في العهدين البويهي والسلجوقي دمروا المدن العراقية لا سيما بغداد التي انهارت الخدمات وعانت البلد من الجوع والفقر بسبب انهيار السدود أمام فيضان دجلة والفرات المدمرين.

على أي حال، كان لابد من دور كبير للعلماء في كل هذه الإنشاءات التي حمت الرعية إلى حد ما من أخطار الفيضان والجفاف.

رابعًا: دور الفقهاء ورجال الدين في الفتن الاجتماعية:

وقد أفرد الباحث هذه النقطة البحثية، وهي تبدو بعيدة عن الدراسة، لكن جوهريًا فهي في صميم الهدف الذي تبتغيه الدراسة من أن الفتن الاجتماعية كان لها دور كما أوضحنا في النواحي الاقتصادية وأثرت بالسلب في هذه الناحية، لذلك، نجد أن دور العلماء فيها سواء سلبًا أو إيجابًا، كما سنرى، مهمًا ولابد من إيضاحه حتى تكتمل أجزاء الصورة.

الدور السلبي: كان لبعض العلماء في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي دورسلبي في الفتن الاجتماعية، فلقد كان التعصب المذهبي عنوانًا لهذه الفترة، فقد أدى استعمال البويهيين للشيعة والمذهب الشيعي إلى انقسام العراق بالفعل، ولم يكن العصر السلجوقي أفضل حالًا في هذه الناحية، إلا أن السلاجقة استطاعوا كسر حدة الاحتقان المذهبي والطائفي كما رأينا في المبحث الأول.

على أي حال؛ كان لبعض العلماء دور سلبي في إذكاء روح العصبية بين السنة والشيعة فنجد أن عالمًا كأبي حفص عمر بن محمد بن رجاء العكبري (ت ٣٣٩/ ٩٤٩م) لا يتعامل مع الشيعة ويشدد على العامة من السنة من التعامل معهم حتى حرم بيع الأكفان لموتاهم[١]، ونجد على الجهة المقابلة ابن المعلم الفقيه الشيعي الذي له تلاميذ كثر في الشيعة، كان يحرض في بعض الأحيان على السنة، وكان سببًا في فتنة كبيرة بين الطرفين راح ضحيتها العديد من القتلى، وذلك في عام ٣٨١هـ/ ٩٩٠م[٢].

---

(١) أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ج٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٠هـ، ص٥٦.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ٣٥٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهناك أيضًا الشيخ أبو حامد الإسفراييني الذي أحرق مصحفًا يدعي الشيعة أنه مصحف صحيح، فكان هذا الحرق سببًا في هياج الشيعة، وصياحهم واستغاثتهم بالخلافة الفاطمية مما شكل تهديدًا للخلافة العباسية التي تدخلت لوأد تلك الفتنة(١).

وقد شكل مسجد براثا الشيعي خطرًا على المجتمع في بعض الأحيان، إذانبرالخطباء في الهجوم على السنة، وتمجيد عليين أبي طالب وتسفيه الصحابة، مثلما حدث في عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، ما أدى إلى تدخل الخلافة بتحريض من العلماء السنة بتعيين خطيب سني للمسجد وهو ما أغضب الشيعة وأوسعوه ضربًا عندما انبرى للخطبة(٢).

ونجد أيضًا أن الوعاظ من المتصوفة كان لهم دور سلبي في هذه الأحداث إذاشتركوا بالهجوم على الشيعة، مثلما حدث من المتصوف الذي يدعى الخزلجي الذي استأذن الخليفة القادر بمحاربة الشيعة، وجمع عددًا من المسلحين وصاحوا بذكر أبي بكر وعمر وقد أدت هذه المظاهرة المسلحة إلى الاقتتال بين السنة والشيعة لا سيما في حي الكرخ، ما أدى إلى اشتعال الموقف خاصة بعد دخول العيارين ميدان الاشتباكات وكانت هذه الفتنة في عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م(٣).

ولم تقتصر هذه الظاهرة السلبية على السنة والشيعة، بل بين المذاهب السنية، فقد تسبب أبو نصر القشيري الواعظ المشهور في العصر السلجوقي في فتنة حدثت بين الحنابلة والشافعية لصالح المذهب الأشعري، وقد كان القشيري مدرسًا في المدرسة النظامية وهي المدرسة التي تبنَّت المذهب الأشعري وهو المذهب الرسمي للدولة السلجوقية، وقد كانت فتنة كبيرة بين هذه المذاهب، وقد تدخل الوزير نظام الملك في تهدئة الموقف، ووأد الفتنة(٤).

الدور الإيجابي: كان لبعض العلماء دور إيجابي في إخماد الفتنة ووعظ الناس بالبعد عن الفتن وإصلاح ذات البين ومن هؤلاء العلماء الوزير أبو محمد بن المهلبي (ت ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م)(٥)، والفقيه أبو بكر بن عبدويه الشافعي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) الذي اتخذ التعليم والوعي طريقة ناجعة لكي تجتث الفتن من جذورها،فقد كان يهدف من حلقات المسجد الذي يعلّم فيه تلاميذه

---

(١) انظر حوادث عام ٣٩٨هـ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٦٢.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢١٣ و٢١٤.

(٤) عن فتنة الحنابلة والأشاعرة؛ انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٩٦، ١٩٧.

(٥)يقول الذهبي عنه؛ إنه الوزير الكبير أبو محمد الحسنبن محمد بن عبد الله من ولد المهلب بن أبي صفرة، كان وزيرًا لمعز الدولة، وكان يتميز بالعلم والأدب وتقريب العلماء، ويعتبر من عداد العلماء؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص١٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى نشر الوعي ومنع الفتنة بالتعليم وذكر فضائل الصحابة الكرام بعيدًا عن الصدامات بين السنة والشيعة، وكان يدعو ويحث تلاميذه لنشر تلك الفضائل بين الناس[١]، إلى جانب أبي بكر الرازي الجصاص[٢]، وأبي بكر الباقلاني[٣]، وغيرهم الكثير.

ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا الصدد، دور أبيأحمد الموسوي وأبنائه في الفتن بين السنة والشيعة وإخمادها، بل تعدى دورهم لمحاولة تهدئة العيارين في بغداد حينما أصروا على فرض الضرائب على بعض التجار، ما أدى إلى اشتعال الفتنة وتم حرق بعض الأسواق البغدادية، فتدخل الموسوي في هذه الفتنة حتى قام بالتهدئة[٤].

ونجد أن للعلماء دور أيضًا في تهدئة الجند الذين يثورون في كثير من الأوقات من أجل مرتباتهم أو تدخلهم في النزاعات الداخلية بين الوزراء أو بين الأمراء، وقد قام بعض العلماء كالموسوي وأبنائه في هذه الخلافات وأصلحوا ذات البين في عهد بهاء الدولة بن بويه[٥].

أما في العهد السلجوقي نجد أن العلماء يلتفون حول نظام الملك الطوسي وملكشاه ويكون لهم مكانة كبيرة في إصلاح الأمور الداخلية، فالمتأمل لسيرة نظام الملك نجده مستمعًا جيدًا للعلماء خاصة أثناء الأزمات السياسية والاقتصادية، ومقربًا لهم في جميع الأمور، وهو ما أثر حتى في كتابه سياست نامة الذي قدمه إلى سيده السلطان السلجوقي ملكشاه[٦].

كما نجد أن التعليم لم يقتصر على التعليم النظري فقط، بل نجد من الفقهاء والعلماء من قاموا بالتغيير بأيديهم كأبي حيان التوحيدي الشهير صاحب كتاب الإمتاع والمؤانسة، فنجد بين طيات كتابه الحث على عدم الفوضى وأدانها لا سيما الفوضى السياسية والاجتماعية والتي تؤثر بشكل كبير على النواحي الاقتصادية، وهو ما عرضه لنقمة العيارين الذين وجدوا كتاباته ضد عملهم، فاقتحموا بيته وسرقوا محتوياته وقتلوا جاريته[٧].

---

(١) محمد بن عبد الله بن إبراهيم الملقب بأبي بكر بن عبدويه الشافعي؛ وكان من فضلاء علم الحديث وهو الذي واجه السلطة البويهية عندما منعت الناس بذكر فضائل الصحابة على الملأ، وذلك في مجلسه العلمي بمسجد باب الشام؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٧٢ و١٧٣.

(٢) هو أبو بكر أحمد بن علي الرازي الملقب بالجصاص؛ وله عدة تصانيف وتواليف في الفقه،وكان مشهورًا بالورع والتقوي والعلم؛ المصدر السابق، ص٢٧٧ومايليها.

(٣) هو القاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني؛ وكان إمامًا بارعًا في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية وكان له بجامع البصرة حلقة علم كبيرة؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص١٩٠.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٥٩.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٥٩.

(٦) عمر فلاح، نظام الملك إصلاحاته الإدارية وإسهاماته الفكرية، ص٣٤٨ و٣٤٩.

(٧) النجار، الشطار والعيارين، ص٦٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان الفقيه أبي الحسن الماوردي رائد كتب السياسة الشرعية في تلك الآونة يتدخل بنفسه للإصلاح بين الأمراء البويهيين، مطبقًا سياسته عمليًا، وليس نظريًا فقط بين الصحف، فكتابه الأحكام السلطانية التي كان يهدف به إلى تحديد السياسة الشرعية الإسلامية، كان بين طياته إجلال لمنصب الخلافة، وتحديد وظيفتها وكبح جماح الفوضى السياسية التي ضربت أطناب البلدان الإسلامية وهو ما أثر بلا شك على الناحية الاقتصادية[١].

ومما لا شك فيه أن من أشهر العلماء طُرًّا في العهد السلجوقي كان الغزالي، ذلك الرجل الذي كان منظّرًا للسياسة السلجوقية، عن طريق تدريسه في المدرسة النظامية وهي الواجهة الرئيسة للحكم، وصاحبة نشر المذهب الأشعري الذي حارب الشيعة والمذاهب الأخرى بشراسة، وهو ما نجده في مصنفات أبي حامد الغزالي، والذي نشر إحياء علوم الدين، وفضائح الباطنية، والتبر المسبوك في نصائح الملوك وغيرها من الكتب التي أثرت تأثيرًا عميقًا في السياسة السلجوقية وهو ما يدل على خروج العلم من التنظير إلى التطبيق وهو ما أثر في السياسة والمجتمع والاقتصاد أيضًا. فنجد أن قضية إسقاط الضرائب والمكوس، تحدث عنها الإمام الغزالي، إذ نصح الغزاليالسلطة بإسقاط الضرائب الكثيرة التي أذلت رقاب الرعية[٢].

خامسًا: دور العلماء والفقهاء في الحد من الفقر:

يتمثل دور العلماء في الحد من الفقر داخل المجتمع، في الأوقاف التي قام العلماء وغيرهم بلا شك بإقامتها والتي كانت تخدم الفقراء من العامة، فمن المعروف أن المجتمع الإسلامي كان يقومعلى التكافل الاجتماعي وكان من أشهر صور التكافل هو الوقف.

وفي هذه النقطة البحثية لن يناقش الباحث الوقف، ولكنه سيقوم بعرض بسيط ومختصر لبعض الصور والأمثلة التي قام بها العلماء والفقهاء والوعاظ في وقف بعض الأعمال التي خدمت الفقراء في المجتمع العراقي.

تظهر هذه الأعمال الخيرية الجليلة التي قام بها المتصوفة والوعاظ والفقهاء من أجل سد حاجات الفقراء في المدن العراقية المختلفة، فأبو الحسن البصري المتوفى عام ٣٧١هـ/ ٩٨١م، بنى

---

(١) يعتبر كتابه الأحكام السلطانية من أشهر الكتب السياسية بما يعرف بالسياسة الشرعية، وكانت فكرة الكتاب في تمجيد فكرة الخلافة وإيضاح الأنظمة الإدارية الواجب توافرها في الدولة الإسلامية، إذ كان يحتوي الكتاب على عشرين بابًا من أهمها عقد الإمامة وتقليد الوزارة والقضاء والصلاة وغيرها؛ انظر الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، ١٩٨٩م.

(٢) الغزالي، التبر المسبوك، ص٨٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رباطًا للمتصوفة وأوقف عليه أوقافًا لسد حاجة الفقراء والمارين به، وكان موقع الرباط مقابل جامع المنصور المشهور في بغداد[1].

ونجد أيضًا أبا الحسن بن محمود المتوفى عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م بنى رباطًا في بغداد وأوقف أوقافًا كثيرة عليه، وكان من ضمن نظار هذا الوقف الشيخ أبي القاسم الصوفي، وكان وقف الرباط بالأساس مرتبط بإطعام الفقير وذي الحاجة من العامة[2]. ونجد أيضًا من أشهر الأربطة التي بنيت في هذا العهد رباط شيخ الشيوخ أبي سعد الصوفي والذي بنى هذا الرباط في محلة المعلى على النهر المقابل لهذه المحلة وقد توفي عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م، وكان هذا الرباط بني لسد حاجة المتصوفة والفقراء من الناس[3].

ولم تقتصر أعمال البر والخير على الأربطة، فكانت الأوقاف العامة كثيرة، وكان الهدف منها هو الحد من الفقر وقد قام بعض العلماء بجهود وفيرة في ذلك، ونذكر بعض الأمثلة:

- أبو سعد بن الموصلايا والذي توفي عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، والذي يحكي ابن الأثير عنه[4]، أنه ترك أموالًا كثيرة وجعل أملاكه خدمة للفقراء من المسلمين، فقد كان غير مسلم في أول حياته ثم دخل في الإسلام والتحق بديوان الخلافة لمدة تزيد عن الخمسة وستين عامًا كاتبًا في دواوين الخلافة المختلفة، وجنى من ذلك أموالًا كثيرة.
- أبو النجيب السهروردي، والذي عمل مدرسًا في المدرسة النظامية، فقد أوقف أموالًا طائلة في عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م، وأوقف أمواله جميعها على أمور الخير المختلفة[5].

وكان الوقف نابعًا أيضًا من بعض العلماء الذين نظروا لفكرة الوقف وحثوا عليه، فجميع الفقهاء والعلماء والوعاظ كان لهم كتابات تحث المسلمين على الحد من الفقر عن طريق الوقف، لكننا سنسوق مثالًا واحدا في هذا الصدد وهو ما قاله أبو يعلى الفرّاء الذي كتب عن الوقف فقال: "النظر بالأوقاف بحفظ أموالها، وتنمية فروعها، والقبض عليها وصرفها في سبيلها"[6].

---

(١) محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد في العصر العباسي الثاني، عين للدراسات الاجتماعية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٢٣.

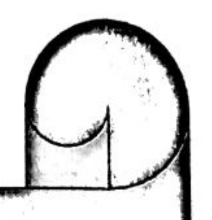
(٣) نفسه ، ص٢٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧٥.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٤٧٦.

(٦) أبو النصر، الأوقاف في بغداد ، ص٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



الفصل الرابع

الكوارث البيئية والطبيعية في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية

- تمهيد : معني الكارثة لغوياً وإصطلاحاً .
- المبحث الأول : الفيضانات والسيول والبرد والزلازل وأثرها في ظهور الأزمات الإقتصادية.
- المبحث الثاني : إنتشار الامراض والأوبئة وأثرها علي الحالة الإقتصادية .
- المبحث الثالث : إنتشار المجاعات وغلاء الأسعار وأثره في تدهور الحالة المعيشية للعامة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد كانت الكوارث الطبيعية والوبائية سببًا مباشرًا في ظهور المحن والأزمات الاقتصادية خلال العصرين مناط الدراسة،فمن المعروف أن الكارثة الطبيعية لها دور فعال ورئيس في تدهور الاقتصاد، خاصة عندما نجد أن الدولة العباسية ومؤساساتها طالما كانت تواجه هذه الأزمات،وكانت في أحايين كثيرة تفشل كمؤسسات وحكومات متسلطة على هذه المؤسسات في مواجهة هذه الكوارث، ومن الممكن أن تكون هذه سمة العصور الوسطى في كل الدول الإسلامية تقريبًا (كمثال قريب من هذه المرحلة التاريخية وهي الشدة المستنصرية[1]في مصر والتي كانت سببًا في تغير سياسي هائل قام بتغيير جوهر السياسة الفاطمية الداخلية والخارجية).

طالما كانت هذه الدول تفشل في مواجهة الكوارث الطبيعية وهذا يتعلق في ظني بالناحية التقنية في مواجهة هذه الكوارث،إذ لا توجد قوات من الإنقاذ السريع، ولا تطور في العلم الطبي الذي يواجه الأمراض الوبائية السريعة في الانتشار، لذلك هناك نقاط لا بد من إبرازها في هذه المقدمة الخاصة بهذا الفصل كإطار عام سيجري خلال البحث:

- أولًا: جغرافية العراق التي أثرت في تكون الكوارث الطبيعية،إذ نجد أن نهر دجلة كان السبب الرئيس في معظم الفيضانات التي شهدها العراق في الفترة مناط البحث لذلك ستحاول الدراسة في تفاصيل طبيعة هذا النهر، وماهو الفرق بينه وبين نهر الفرات رديف هذا النهر في طبيعة العراق الجغرافية، ولماذ نهر دجلة بالأخص هو السبب في الفيضانات؟

- ثانيا:السؤال الأهم الذي سنخرج به هو هل الكارثة الطبيعية كانت عند المسلمين لها تأثير عقدي، وماهي مظاهر ذلك في الفكر والثقافة الإسلامية في هذه المرحلة مناط الدراسة وماهو التأثير المباشر لهذا الاعتقاد في مواجهة مثل هذه الكوارث سواء من مؤسسات الدولة أو من الطبقات الاجتماعية المختلفة، وهو ما ستحاول الدراسة إبرازه قدر الإمكان من خلال المباحث الثلاثة التي يحتويها الفصل.

- أما ثالثًا الهدف الذي ستخرج به الدراسة والنتيجة المباشرة لهذه الكوارث على الاقتصاد في العراق خلال عصر دولتي بني بويه والسلاجقة،ومقدار المعاناة التي لقيها العامة من الناس جراء

---

[1]عن الشدة المستنصرية ووصفها وصفًا دقيقًا انظر تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٨٠ وما يليها؛ انظر أيضًا وصفًا مفصلًا عند المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٧ م، ص٩٨ و٩٩ و١٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه الكوارث، وماهي التدابير الاقتصادية الخاصة التي اتخذتها مؤسسات الدولتين سواء الخروج من هذه المحن والأزمات الاقتصادية، أو إنقاذ الأرواح والممتلكات جراء تلك الحوادث.

- رابعًا: سيكون المنهج المتبع في هذا الفصل هو تتبع الأحداث الخاصة بالكوارث في المدن العراقية المختلفة، وماهي الكوارث المختلفة التي ألمت بالعراق وكانت سببًا في ظهور المحن والأزمات، ومن خلال هذا التتبع سنخضع لمنهج آخر وهو عرض النتائج بمنطق جدلي خالص قدر الإمكان لتفسير سبب الكارثة، وتفسير الأطر والأهداف أعلاه.

وبعد الحديث عن الأهداف الخاصة لهذا الفصل الخاص بالكوارث الطبيعية جدير بنا نبحث في معنى الكارثة لغويًا واصطلاحًا، ومفهوم الكارثة عند المسلمين وأهم مظاهرها التاريخية وتتبعها بشكل سريع وذلك في تمهيد خاص للمباحث الثلاثة:

معنى الكارثة اللغوي والاصطلاحي:

الكارثة من فعل كرث[١]، أي اهتم بالأمر، وعدم الاكتراث، هو عدم الاهتمام به، ويأتي معناها في المعجم الوسيط بالحزن والهم للأمر، يقال اكترث الأمر أي حزن له، ويقال كرثته الكوارث أي أقلقته، أو كرثه الأمر بمعناشتد عليه الأمر[٢]، وهنا يأتي المعنى اللغوي لكلمة الكارثة وهو النازلة العظيمة والشدة في الأمر، وهو المعنى المتعارف عليه للكارثة والنازلة الطبيعية مثل الزلازل والفيضانات والسيول، والأمطار الغزيرة والأمراض والأوبئة، وغيرها من الكوارث.

أما عن المعنى الاصطلاحي للكلمة، فهو واسع ومتعدد ولا يوجد في كتب التراث الإسلامي ما يسمى اصطلاحًاب"الكارثة"، غير أنه يوجد مصطلحات مرادفة للكلمة بشكل إسلامي قح مثل كلمة المحنة بمفهومها الواسع، أو الشدة[٣]، أما الكارثة فهي مصطلح حديث، عبر عنه علماء الجغرافيا الطبيعية المحدثين، وعرفوه.

ومن هؤلاء المحدثين العالم "Tunner" الذي تحدث عن مفهوم الكارثة أنه حدث سريع وفجائي للبيئة الطبيعية وله تأثيرات على النظم الاقتصادية والاجتماعية الخاضعة لتلك الكارثة، وذلك في

---

(١)مجد الدين محمد بن يعقوب (الفيروزآبادي)، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م، مادة (كرث)، ص١٤٠٤؛ انظر أيضا الرازي، مختار الصحاح، ص٢٣٦.

(٢)المعجم الوسيط، ص٧٨٢.

(٣)جاءت ألفاظ المحنة والشدة علي وجه الخصوص في الكتابات الإسلامية ومن أشهر الأمثلة المقريزي في مقدمة كتابه الذي خصصه للغلاء والمجاعات في مصر؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص٧٩ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إطار زماني ومكاني يهدد المجتمع أو منطقة ما، مع ظهور نتائج غير مرغوبة، نتيجة لانهيار الحذر أو الحيطة التي ألفها السكان منذ القدم[١].

وربما يوجد تعريف آخر للكارثة، تبناه Burtun وهو حالة فريدة في منطقة ما تتسبب في خسائر مادية متعددة أنهكت الاقتصاد العام لهذه المنطقة[٢]، وعلى الرغم من الجدل الناتج عن هذا التعريف المطاطي الواسع الذي تبناه بيرتون،فإنه يتناسب تمامًا مع الحقائق التاريخية،على الرغم أن المناطق تختلف، والاقتصاد النوعي والكمي يختلفان من مكان إلى آخر ومن زمان إلى زمان. هذا نذر يسير لتعريفات الكارثة مما يخدم الدراسة المرجوة، إلا أن الباحث لن يخرج عن السياق العام لإطار الدراسة،إذ سيلتزم بالخط التاريخي للقرون الوسطى الإسلامية، فهناك مفردات عميقة تنبع من الحضارة الإسلامية عالجت مفهوم الكارثة الطبيعية بل غلفتها بفلسفتها الخاصة ومصطلحاتها المتنوعة المرادفة لمعنى الكارثة الطبيعية أو الوبائية، وهو ما تحدث عنه في التمهيد الخاص لهذه الدراسة.

الخلاصة: أن الكارثة الطبيعية التي تحدث فجأة ودون مقدمات في أحايين كثيرة في مكان ما وهو العراق، خلال زمان معين وهو إطار الدراسة أي العصرين البويهي والسلجوقي، ينتج عنه ظهور المحن الاقتصادية والأزمات الاجتماعية وهو الهدف المرجو من الدراسة، كما سيوضحه هذا الفصل الخاص بالكوارث الطبيعية ودورها في ظهور الأزمة وتعميقها وهو ما سيتبين من خلال المباحث الثلاثة التالية.

المبحث الأول: مظاهر الكوارث الطبيعية وأثرها في ظهور الأزمات الاقتصادية:

أولا: الفيضانات والأمطار والسيول والرياح والبرد وتأثيرها في ظهور الأزمات الاقتصادية:

لعل الفيضانات والأمطار الغزيرة المسببة لبعض الكوارث الاقتصادية، والسيول المدمرة، والبرد الكثيف الذي يؤثر تأثيرًا مباشرًاعلى المحاصيل الزراعية، من أهم المظاهر الطبيعية التي لها علاقة في ظهور بعض المحن والأزمات الاقتصادية، خاصة في العراق، الذي شهد الكثير من تلك الكوارث على مدار تاريخه العام، في العصور الوسطى الإسلامية، خصوصًا الفترة المناط بها البحث.

---

[١]محمد صبري محسوب ومحمد إبراهيم ارباب، الأخطار والكوارث الطبيعية (الحدث والمواجهة)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٣٧.

[٢]محسوب ، الأخطار والكوارث الطبيعية ، ص٣٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد كانت الكوارث الطبيعية، سببًا مباشرًا في تدمير بيوت العامة، والأغنياء على السواء، كما خربت الكثير من مظاهر بغداد العمرانية،فضلًا عن المدن العراقية الأخرى، فدمرت الجسور والسدود والبيمارستنات، بل نجد أن بعض الفيضانات والسيول المدمرة، أدت إلى انهيار بعض الأضرحة، والمشاهد والمقابر، ولعل مقبرة وضريح الإمام أحمد بن حنبل كانت من أكثر المقابر تعرضًا للتدمير وذلك لعدة مرات، بل نجد أن بعض الأبواب البغدادية والأسوار تعرضت إلى تخريب بسبب هذه الظواهر الطبيعية، فضلًا عن تأثير ذلك على الحالة الاقتصادية للسكان، والتي كانت متردية أصلًا قبل حدوث هذه الظواهر في بعض الأحيان لأسباب أخرى عرضتها الدراسة، وما زالت تعرض وصولًا لهذا الفصل.

وإذا تحدثنا عن الحالة الاقتصادية نجد أن الظواهر الطبيعية وخاصة الفيضانات والسيول والبرد والأمطار الغزيرة كانت تؤدي إلى أزمات اقتصادية لا سيما في مجال الزراعة،إذ تعرضت الأراضي الزراعية إلى الغرق التام، وأدى ذلك إلى تلف المحاصيل الزراعية، مثل الغلات الأساسية المؤثرة في الطعام اليومي للعراقيين كالشعير والقمح، فضلًا عن تدمير أشجار النخيل والفاكهة، واقتلاعها في بعض الأحيان،هذا إلى جانب تدمير بعض الآبار التي تزود الناس بمياه الشراب.

كما تعرضت الثروة الحيوانية إلى الهلاك، فمن خلال تتبع الأحدث، سنجد أن الثروة الحيوانية تعرضت إلى ضرر كبير، خلال فترات الجدب ونقص الأمطار،أو موتها بسبب الرياح والبرد الكثيف وتساقط الثلوج، وفي بعض الأحداث نجد أن الناس تضطر إلى أكل الميتة والدواب النافقة، وهو ما يدل على تكاثر موت الحيوانات ونقص الثروة الحيوانية وهو ما أدى بطبيعة الحال إلىغلاء الأسعار، وظهور المجاعات.

وهناك مظهر آخر مهم قام بدور جوهري في الأزمة الاقتصادية، وهو الجدب والقحط والجفاف ونقص الأمطار، فقد أدت تلك الظواهر إلى عطش الأراضي الزراعية، ما أدىإلى تلف المحاصيل الزراعية، وظهور المجاعات وغلاء أسعار المواد الغذائية، والتي قد تستمر شهور طويلة في بعض الظواهر، وقد تمتد إلى سنين في ظواهر أخرى.

وقبل البدء في السرد الحولي للظواهر الطبيعية التي شهدها العراق، حري بالباحث أن يقدم بعض التعريفات اللغوية والاصطلاحية عن تلك الظواهر:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **الفيضان:** وهو من فعل "فاض"[1]، إذ يقال فاض الماء أي كثر حتى زاد عن الحد،فهو فائض، ويقال فاض الماء فيوضًا وفيضًا وفيضانًا، وله معانٍ متعددة مثل فاض الإناء أي امتلأ حتى طفح، أو فاض النهر حتى سال[2]، ويشتق من هذا الفعل بعض الكلمات مثل الفيض بمعنى الكثير والغزير، والفيضان وهي الكلمة المعبرة الحقيقية عن زيادة النهر بمعنى، طغيان النهر واندفاعه، حين ترفده الأمطار والأنهار[3].

وهناك الكثير من الأنواع للفيضان، ولكن أخطرها، الفيضان العشري؛ أي الذي يأتي كل عشر سنوات[4]، فضلًا عن المئوي،الصفائحي وهو الذي ينتشر بشكل دقيق[5]، ويبتعد عن الدخول في المجاري المائية الصغيرة، وعادة لا يستغرق ساعات معدودة أو يمتد إلى يوم أو يومين على أكثر التقديرات.

وقد تعرضت المدن العراقية في المرحلة المنوط بها البحث،إلى نوعين من الفيضانات، وهي العشرية، والصفائحية، فمن خلال تتبع الأحداث، نجد أن العراق تعرض إلى الفيضانات التي كانت تأتي كل عشر سنوات[6]، وفي الأغلب كانت مدمرة ولها نتائج سلبية على القطاع الزراعي والحيواني، فضلًا عن الخسارة المادية والعمرانية للمدن، والقليل من خلال تتبع الأحداث، ما يوجد الفيضانات الخفيفة التي تستمر يومًاأو ساعات، لكن المدن والقرى العراقية تعرضت لها علىأي حال.

وعلى الرغم من أن الفيضان سببه زيادة الأنهار،فإن السبب غير المباشر هو زيادة الأمطار في منطقة منابع النهر خاصة في الأماكن الجافة والمدارية والتي من ضمنها منابع نهر دجلة والفرات،إذ تتعرض إلى أمطار انقلابية مصحوبة بعواصف، وتتساقط الأمطار بشكل عنيف خلال فترة زمنية محدودة، وهو ما يؤدي إلى ارتفاع منسوب المجرى النهري إلى فوق مستوىمياه النهر الأصلية ومن هنا يأتي الفيضان[7].

---

(1) الرازي، مختار الصحاح، ص٢١٦؛ انظر أيضا الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص١٢٧٧.
(2) المعجم الوسيط، ص٧٠٨.
(3) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص١٢٧٧؛ المعجم الوسيط، ص٧٠٨.
(4) محسوب وأرباب، الأخطار والكوارث الطبيعية، ص١٠٣
(5) نفس المرجع السابق، ص١٠٣.
(6) سيتبين من خلال السرد الحولي أن العراق تعرضت إلى فيضانات مدمرة وكانت تتم كل عشر سنوات في بعض الأحيان أو فيضان متوسط الشدة كل سنتين أو كل سنة حسب زيادة نهري دجلة والفرات أو نقصانهما.
(7) محسوب وأرباب، الأخطار والكوارث الطبيعية، ص١٠٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **السيل**:يأتي من الجذر اللغوي (س ي ل)[١]، بمعنى سال الماء وخرج من موضعه، يقال سال الماء، وهو الماء الكثير السائل، وهو بمعنى آخر أنه ماء المطر إذا جرى مسرعًاعلى سطح الأرض، ويكون مدمرًا لأي شيء يقابله،وهناك فرق بين السيل والفيضان، فالأول سببه ماء الأمطار، أما الثاني فزيادة الأنهار هي السبب الرئيس فيها[٢].

ونجد أن السيول كثيرة الحدوث في المناطق الجافة الصحراوية كالطبيعة الجغرافية العراقية،إذ يقل المطر وتزداد حالة التبخر خلال شهور الصيف الحارة، ومع قلة المطر التي تعاني منها مثل تلك المناطق، يأتي المطر فجأة ويصاحبه عواصف في بعض الأحيان وهو ما يزيد من سرعة جريانه نحو الأودية المجاورة[٣]، والتي قد تكون مدنًا كاملة تعيش في الأماكن المنخفضة أو الأودية التي في مواجهة تلك الأمطار النازلة من الأماكن المرتفعة والتي تسمى في تلك الحالة "سيول".

- **الأمطار**: والجذر اللغوي (م ط ر)، ولها معان ومشتقات كثيرة،وأشهرها الماء النازل من السحاب،أو بمعنى المطرة، أي الدفعة من الماء النازل من السماء[٤].

- **البَرَد**: وهو بمعنى الماء المتجمد النازل من السماء، قطعًا صغارًا،ويسمى أحيانا بحبّ الغمام أو حبّ المزن[٥]، ويقال "سحاب ذو برد"، أي ينزل منه الماء المتجمد، وله أضرار كبيرة إذا كان كثيفًاعلى الزروع.

وفيما يلي سردًا حوليًا لأهم الظواهر الطبيعية التي شهدتها المدن العراقية في الفترة المناط بها البحث:

كانت أولى إشارات حدوث الفيضانات في المرحلة التاريخية التي تتحدث عنها الدراسة أي دولة بني بويه ثم دولة السلاجقة، هو الفيضان الذي حدث في عام ٣٣٧هـ/ ٩٤٩م[٦]، وكان السبب فيه هو زيادة نهر دجلة،ويحدثنا ابن الجوزي عن زيادة نهر دجلة،إذ حدث الفيضان في يوم الاثنين الثاني من رمضان،فزاد نهر دجلة في الجانب الشرقي من بغداد، وهو ما أدىإلى هروب الناس بعد أن غرقت دورهم، وأدى ذلك إلى خراب ضياعهم وزروعهم جراء الفيضان.

---

(١) الرازي، مختار الصحاح، ص١٣٦؛ المعجم الوسيط، ص٤٦٩.

(٢)محسوب، المرجع السابق، ص١٠١.

(٣)نفس المرجع السابق، ص٩٤.

(٤)الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص١٥٤٠.

(٥)الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص١١١؛ انظر أيضا؛ الرازي، مختار الصحاح، ص١٩.

(٦)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٧٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعرضت مدينة الموصل في شمال العراق إلى فيضان قوي عام ٣٤٨هـ/ ٩٥٩مكان السبب فيه كالعادة زيادة نهر دجلة، وقد أدى هذا الفيضان إلى خسارة بشرية يقدرها ابن الجوزي بحوالي ٦٠٠ شخص[١]، ولا أجد مبالغة في هذا الرقم،إذ كانت الفيضانات القوية تؤدي إلى هدم الدور المجاورة للنهر.

وقد تعرضت بغداد وكثير من المدن العراقية في تلك السنة إلى نقصان في الأمطار وجفاف عظيم استمر عدة شهور، خلال موسم الشتاء وأوائل الربيع،فقام الناس بالاستسقاء كي ينزل المطر فما سقوا[٢]، وقد أدت موجة الجفاف تلك إلى غلاء الأسعار بدورها.

وفي عام ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م، عانت المدن العراقية من الجدب وقلة الأمطار، فيذكر ابن الأثير في حوادث تلك السنة أن الناس خرجوا لطلب الاستسقاء بسبب قلة المطر في تلك السنة[٣].

وفي عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م، حدثت زيادة في نهر دجلة، في رمضان الموافق شهر إبريل، ونتج عن هذا الفيضان انهيار سد في منطقتي الزاهر وفي باب التبن وذكر ابن الجوزي أنه نتج عن هذا الفيضان انفجار بثق بالزاهر وبباب التبن آخر[٤].

وفي السنة التالية أي عام ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م، غرقت بغداد جراء فيضان بسبب زيادة نهر دجلة، التي وصلت إلىإحدى وعشرين ذراعًا، ما أدىإلى غرق الزاهر وباب التبن خاصة منطقة المقابر، كما غرقت الشوارع والدور في قطيعة أم جعفر، وخرج سكان الدور المقامة على نهر دجلة،وأنقم الناس نفوسهم خوفًا من غرق البلد كله،كما غرقت أكثر المناطق في الجانب الشرقي من بغداد، وأشرف الناس على الموت والهلاك غرقًا، وقد ارتفعت أجرة نقل السفن من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي[٥].

وفي عام ٣٧٠هـ/ ٩٨١م، زاد نهر دجلة على عادته، زيادة سمحت بالفيضانات العنيفة إذ أسفر هذا الفيضان عن انهيار قناطر الصراة، وكانت قنطرتين انهارت الجديدة ثم القديمة بعدها حسب قول ابن الجوزي: "فوقعت الجديدة في نصف ذي القعدة، ووقعت العتيقة بعدها وكان يوم الأربعاء، فأنفق عليهما المال الكثير وبنيتا البناء الوثيق"[٦].

---

(١)نفس المصدر السابق، ص١١٨.

(٢)ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٤.

(٣)نفس المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٤)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٤٧.

(٥)نفسه، ص ٢٥٤؛ ابن الاثير، المصدر السابق، ص٣٨٠.

(٦)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٧٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينما يذكر ابن الأثير في حوادث تلك السنة أن الزيادة كانت في نهر الفرات زيادة عن المألوف، إلى جانب نهر دجلة الذي زاد هو الآخر، ما أدىإلى هلاك الكثير من المحاصيل الزراعية، وتخريب قناطر الصراة[1].

أما عام ٣٧٨هـ/ ٩٨٩م،فتعرض العراق إلى موجة من غلاء الأسعار ونفاد الأقوات، وظهور الموت بين الناس بسبب الجوع،وبيعت الكارة الدقيق بستين درهمًا، ويبدو أن تلك السنة كانت تعاني من القحط والجدب وعدم زيادة الأنهار ما أدىإلى جفاف الأراضي الزراعية[2]، ففي نفس السنة، تعرضت مدينة البصرة في الجنوب العراقي إلى موجة من الحر أدت إلى تساقط الناس قتلى في الشوارع، وهو ما يدل على تعرض هذه السنة لموجة من الحر والقحط والجفاف، ويحدثنا ابن الأثير عن الاستسقاء،إذ قام الناس بالصلاة مرتين من أجل السقيا ثم هطلت الأمطار بعدها[3].

ويذكر السيوطي أن ريحًا عاصفة هبت في نهر دجلة أدت إلى غرق العديد من السفن، ومنها سفن النقل، فغرقت سفينة كانت تنقل الدواب بسبب العاصفة، وبحثوا عنها أيامًاحتى رأوا حطامها[4].

وفي عام ٣٨٩هـ/ ١٠٠٠م، تعرضت المدن العراقية إلى برد شديد وريح متصلة أدت بدورها إلى هلاك الكثير من النخيل في سواد بغداد، ويقدر عدد النخل الهالك بالآلاف،إذ "لم يرجع إلى حاله وحمله إلا بعد سنين"[5].

ويبدو أن عام ٣٩٨هـ/١٠٠٨مكان كثير الأمطار والثلوج،فتعرضت المدن العراقية إلى سقوط الثلوج، إذ استمر في بغداد أسبوعًا كاملًا، وبقيت آثاره عشرين يومًا، كما وردت المكاتبات من واسط والبصرة والكوفة وعبادان والبطيحة وتكريت، بهذا الأمر وهو سقوط الثلج في المدن والقرى وعلى الزروع، وقد استمر في كل هذه المناطق نحو عشرين يومًا[6].

أما عن هطول الأمطار فنجد أن في شعبان من نفس السنة، تعرضت المناطق العراقية إلى مطر وبرد كثيف يقدره ابن الجوزي بطريقته في قياس المطر أنها تزن خمسة دراهم ونحوها، أما

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٩٥.
[2] نفسه، ص٤٣٥.
[3] ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٣٣.
[4] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٣.
[5] ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٣٨.
[6] ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في واسط والمناطق حولها كان البرد والمطر كثيف إذ وزن مئة وستة دراهم، وقد استمرت هذه الظاهرة في بغداد حتى حلول رمضان[١].

وفي عام ٣٩٩هـ/ ١٠١٠م، تعرضت بعض المدن إلى رياح ترابية،فألقت رملًا أحمر على الدور والطرق، وتضررت جراء ذلك تضررًا كبيرًا، وفي هذه السنة أثرت الرياح السوداء في ظلام السماء ما أثر على قافلة الحج العراقية التي كانت قد وصلت منطقة الثعلبية، وقد أصابهم أيضًا عطش شديد، بل وتعرضوا إلى بعض قطاع الطرق من الهلالية،ما أدىإلى رجوعهم بغداد مرة أخرى ولم يستكملوا المسير إلى الأراضي المقدسة[٢].

وعلى غير العادة، لم يزد نهر دجلة في عام ٤٠٠هـ/ ١٠١١م،إذ نقص الماء في النهر نقصانًا لم يعهد بمثله قبل هذه السنة،فظهرت جزائر لم تكن من قبل، وامتنعت السفن من السير فيها من أونا إلى الراشدية أعالي دجلة، واستعجب الناس من هذا النقصان الذي جرىعلى غير عادة دجلة[٣].

وفي الخامس من رجب من عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م، زاد نهر دجلة زيادة سمحت بالفيضانات حتى شهر رمضان،أي أن الفيضان استمر شهرين متتابعين وزاد حتى وصل إلى إحدى وعشرين ذراعًا فتضررت بعض المناطق مثل الدور المطلقة على شاطئ دجلة، وقطيعة الدقيق وباب التبن وباب الشعير، وباب الطاق،وغرق مسجد الكف الكائن بقطيعة الدقيق، وتفجرت الآبار وغرقت القرى والحصون، وقد تسبب هذا الفيضان في تعطيل موسم الحج لتلك السنة[٤].

أما عام ٤٠٦هـ/١٠١٦م،فقد تعرض العراق إلى أمطار شديدة، ويقدرها ابن الأثير بأنها هطلت في حزيران أي في موسم الصيف، ويبدو أنها لم تكن في العراق فقط بل كانت في ما جاورها من البلدان[٥].

وفي عام ٤١٠هـ/ ١٠٢٠م، هبت عاصفة ترابية أثرت على الحركة السكانية وجلبت معها رملًا أحمر ، "وكانت ريح شديدة كالزلزلة"[٦].

---

[١]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٥٨.
[٢]ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٧٩.
[٣]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٧٠
[٤] ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٥، ص٧٧.
[٥]ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص٩٣.
[٦]ابن الجوزي، المصدر السابق، ص١٣٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويذكر ابن الأثير في حوادث عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م[١]، أن البلاد العراقية تعرضت إلى برد كثيف أدىإلى تجمد الماء في الأنهار الكبيرة مثل دجلة،وأثر ذلك على الزراعة، وعلى تعطيل السواقي وعدم وصول المياهإلى الأراضي الزراعية، وصاحب هذا البرد موجة من الجفاف وعدم سقوط الأمطار، ما أدىإلى أنه "لم يزرع في السواد إلا القليل"، وقد أثر ذلك أيضًا على موسم الحج في تلك السنة،إذ لم يحج من العراق ولا خراسان أحد، فيبدو من نص ابن الأثير أن موجة الجفاف امتدت إلى خراسان[٢].

وفي العام التالي، أي عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، تعرضت المدن العراقية إلى برد كثيف يزن الواحدة منها حوالي الرطل أو الرطلين، وهو ما يدل على أنه كان كثيفًا، وقد أسفر هذا البرد الكثيف إلى هلاك الغلات الزراعية، تزامنًا مع وجود ريح باردة أدت إلى تجمد الماء في السواقي والدواليب المائية التي تسقي الزروع، وهو ما أدىإلى نقطان المحاصيل الزراعية في تلك السنة[٣]، ويحدثنا ابن الأثير أن تكرار انقطاع الحجيج العراقيين والخراسانيين تكرر في تلك السنة، ولعل سبب من أسباب انقطاع الحج هو الحالة الاقتصادية المتردية الناتجة عن هذه الكوارث البيئية[٤].

أما على مستوى الجفاف، فنجد أن نقصان الماء جرى في نهر الفرات،فنجد في أحداث عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، أن نقصانًا شديدًا حدث في هذا النهر، لدرجة ظهور بعض الجزر في فوهة نهير الرفيل، وانقطع الماء عنه، ما أدىإلى توقف الأرحاء والطحين، وبلغت أجرة الكراء في الطحين ثلاث دنانير بعد أن كان قيمتها دينارًا واحدًا، ما يدل على غلاء الأسعار في هذه السنة بسبب جفاف نهر الفرات[٥].

تزامنت هذه الكوارث بكارثة أخرى وهي سقوط برد عظيم في معظم القرى والمدن العراقية،صاحبه ريح عاصفة، وقد أدت إلى اقتلاع أشجار الزيتون والنخيل لا سيما في مدينة النهروان، كما أثرت على المباني الخاصة بالعامة وتدمير بعض المساجد الجامعة في بعض القرى[٦].

وفي العام التالي أي عام ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، عصفت ريح شديدة، أفزعت الناس وأخافتهم، تزامنًا

---

(١)ابن الأثير، المصدر السابق، ١٥٨.

(٢)نفسه، ص١٥٨.

(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٨١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٥٥.

(٤)ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٦٣.

(٥)نفس المصدر السابق، ص١٨٣؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ص١٩٤؛ انظر أيضا شذور العقود، ص٢٤٧؛ ابن كثير، المصدر السابق، ص٦١.

(٦)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٩٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع سقوط برد كثيف كهيئة التين في وزنه[١].

وفي عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م، تعرضت مدينة الموصل إلى نقص المطر،ما أدىإلى تلف الغلات، وبالتالي حدثت مجاعة وارتفاع في أسعار المواد الغذائية، وضجّ الناس بالغلاء والجوع، ولم تكن هذه المجاعة بسبب نقص الأمطار في الموصل فحسب بل امتد إلى البلاد العراقية الأخرى، بل نجده فيما يذكر ابن الأثير ممتدًّاإلى خراسان والشام أيضًا[٢].

وفي عام ٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م، تعرضت مدينة نصيبين إلى عاصفة قوية، أدت إلى خسائر في القطاع الزراعي،إذ تعرضت بعض البساتين والمحاصيل الزراعية إلى التلف والهلاك، ويذكر ابن الأثير أن قصرين من القصور المبنية بجوار البساتين تعرضت للتخريب الكبير بسبب تلك العاصفة[٣].

أما في عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م،فقد زاد الماء في نهر دجلة،حتى تأثرت منه مدينة البصرة في جنوب العراق، وأدى هذا الفيضان إلى خسارة في القطاع الزراعي،إذ علا الماء على الضياع الزراعية نحو ذراعيين، بل ونجد أن هناك خسائر مادية أخرى مثل انهيار حوالي ٢٠٠٠ من دور العامة في المدينة[٤].

وفي عام ٤٣١هـ/ ١٠٤٣م زاد الماء في نهر دجلة ما أسفر عن فيضان واندفاع للماء نجم عنه انهيار جسر من جسور بغداد حتى سقط دفعة واحدة ومات كل من كان على الجسر[٥].

وتعرضت مدينة الموصل إلى محن متتالية بسبب نقص الأمطار، فقد تعرضت المدينة والمناطق المجاورة لها في عام ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م[٦]،إلى انعدام الأمطار، ما أدىإلى قلة المواد الغذائية في الأسواق، بسبب تدمير القطاع الزراعي، وتدمير الغلات الزراعية.

ولم يتأثر القطاع الزراعي فقط بل أيضًا الثروة الحيوانية،فأكل الناس الميتة، وذلك بسبب موت الماشية والأغنام ما أدىإلى نقص شديد في الثروة الحيوانية وهو ما اضطر الناس إلى أكل الميتة، والذي أدى بدوره إلى ظهور الوباء في المدينة والقرى المجاورة وموت الكثير من أبناء المدينة.

---

[١]نفسه، ص٢٠٤.

[٢]ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٠٥.

[٣]ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٣٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٧٥.

[٤]المصدر السابق، ص٧٧.

[٥]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٧٣.

[٦]ابن الاثير، المصدر السابق ، ص٢٧٩؛ ابن كثير، المصدر السابق، ص١٠٦ و١٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ارتفعت أسعار المواد الغذائية والدواء الذي يحتاجه المرضى في تلك السنة مع نقصانها،إذ كان سعر الخيار بقيراط، واللوز خمسة عشر قيراطًا، والمنّ من الشراب بنصف دينار، والرمانة بقيراطين، وقد استمرت موجة الغلاء تلك إلى عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م[١].

ونجد في عام ٤٤٦هـ/ ١٠٥٨م، انحسار الماء ونقصانه في نهر عيسي وهو فرع صغير لنهر الفرات، وهو ما نفهم منه أن نهر الفرات في تلك السنة لم يفض الفيضان المتوقع له، وقد أدى نقصان الماء إلى تلف الزروع، وتأثر صناعة الخبز إذ "تعذرت الطحون، وأدرك الناس بذلك ضرر شديد"[٢].

وفي عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٦م، كانت زيادة نهر دجلة كالعادة هي السبب الرئيس في الفيضان،إذ زاد الماء نحو إحدى وعشرين ذراعًاما أدىإلىانهيار دور العامة في باب المراتب وباب الأزج والزاهر، وكان الفيضان من القوة أدى ذلك إلىاضطراب الخليفة،إذ خرج من باب البشرى ليلًا وغمس القضيب النبوي في النهر لكي ينقص، في إشارة إلى عجز الخلافة ومؤسسات الدولة على عمل شيء يذكر في القضاء على تلك الكارثة[٣].

وامتدادًا لتلك الكارثة التي لم تعم بغداد دار الخلافة فقط، بل إنها امتدت إلى مدن سامراء وجلولاء، فزادت المياه نحو إحدى وعشرين ذراعًا بعدما كانت ثمانية فقط، ما يدل على أن الكارثة كانت فوق الطاقة، فدمرت الآبار، وتم حصار منطقة الوحش، فلم يكن لها سبيلًا.

ونرى أنه تزامنًا مع زيادة دجلة وورود الفيضان السابق، وجود سيول في بعض المناطق العراقية الأخرى،إذ تعرضت بغداد والمناطق المجاورة لها إلى سيل دمر بعض البيوت والقرى، تزامنًا أيضًا مع وجود أمطار وبرد أدت إلى هلاك الثمار، ويبدو أن منطقة الجبال والثغور تأثرت بتلك الموجة،إذ يخبرنا ابن الجوزي بأن المسافرين كانوا يتحدثون عن هذا الأمر في مدن الجبال، ونجد أيضًا أن الأمطار الشديدة تساقطت على مدينة سنجار أدت بدورها إلى سيل عظيم أغرق حلة الأكراد، وأدت إلى هلاك أشجار النخيل، فوجدت غرقىعلى رأس الماء[٤].

وفي عام ٤٥٨هـ/ ١٠٧٠م، نقص نهر دجلة نقصانًا كبيرًاحتى أثّر على الأنهر الصغيرة مثل القاطول والدجيل، وكان النقصان كبيرًا لدرجة أن الناس كانوا يمرون من مخاضات الأنهار على

---

[١] ابن الأثير، الكامل ، ج٨، ٢٨٦.
[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٤.
[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٧٤.
[٤] نفس المصدر السابق، ص٧٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طين وقاع هذه الأنهر، ما أوقف حركة السفن فيها، وأدى ذلك إلى تأثر المحاصيل الزراعية في المزارع المجاورة التي تروى بهذه الأنهر وأدت إلى زيادة الأسعار بقية السنة،إضافة إلى غور الماء في الآبار في مدينة بغداد[١].

وفي العام التالي، ٤٥٩هـ/ ١٠٧١م، تعرضت مدينة واسط، لعاصفة من الرياح الحارة، ما أدى إلى مقتل بضعة عشر نفسًا، وقتلت الخيول الكثيرة، وقد تأثر القطاع الزراعي بهذه العاصفة لا سيما في بغداد،إذ هلكت أشجار الأترج والليمون[٢].

وفي عام ٤٦١هـ/ ١٠٧٣م، بلغت زيادة نهر دجلة، زيادة معتادة نحو إحدى وعشرين ذراعًا، لكن هذه الزيادة سمحت بفيضان فجّر بثقًا فوق دار الغربة ووصل إلى المقابر، فغرق مشهد المالكية والسبتي وغيرها، ولكنه انحسر بعد قليل[٣].

أما عن الفيضان الأعنف في تاريخ العراق في تلك المرحلة التاريخية مناط البحث فقد كان في عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م،إذ شهدت بغداد ومدن أخرى في العراق فيضانًا عنيفًاأدىإلى غرق الدور وهلاك الزروع ومقتل الكثير من الناس،إذ بدأ الفيضان بزيادة معتادة من نهر دجلة مع مطر شديد أدىإلى غرق الدور، وكان العدد المقدر حوالي ثلاثين دارًا، وهدمت الأسوار والمحال، وهُدم سور سنجار، وقد وصل الفيضان إلى مداه بسبب وجد ريح شديدة قامت بجرف المياهإلى مناطق كثيرة من الأحياء حتى وصل إلى البرية من الصحراء[٤].

وقد تأثرت البساتين بالفيضانات، وقد قدرت الخسائر بعشرات الألوف من الدنانير، وقد غرقت أيضًا منطقة المقابر، فقد غرقت عن آخرها وشوهد التوابيت تطفو على المياه.

أما في بغداد فقد كانت الكارثة أشد،إذ وصلت المياه إلى دار الخلافة،حتى وصلت إلى غرفة عرش الخليفة نفسه، وهربت الجواري والخدم خارج القصر الخلافي، ولم يطعم الخليفة في ليلته[٥].

---

(١)نفسه ، ص٩٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٦٥.
(٢)ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٣، ص١٦٧.
(٣)ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٦، ص١١٣ و١١٤.
(٤)ابن كثير، المصدر السابق، ص١٨٧ و١٨٨؛ ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص ٤٠٣؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ١٥٥ وما يليها.
(٥)ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٦، ص١٥٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يتأثر الخليفة فقط بالفيضان، بل إن الوزير فخر الدين، دخلت المياهة بيته، وقام بامتطاء فرسه للهروب من البيت فذهب إلى الخليفة، فوجد أن الكارثة عمّت الجميع سواء من الطبقات العليا أو العامة الذين عانوا معاناة كبيرة في إنقاذ أرواحهم من هذا الفيضان.

وقد كانت الخسارة المادية كبيرة للغاية في تلك الأثناء إذ ضاعت أموال الناس تحت هدم البيوت جراء الفيضان، كما ماتت الكثير من الحيوانات، ويصف ابن الجوزي المياه كأنها كالجبال، وأن الحيوانات كانت تطفو على المياه، وقد تأثر الجانب الغربي لبغداد بالفيضان أيضًا وكان التأثير كبيرًا،إذ غرقت مناطق المقابر خاصة مقبرة الخيزران، ومنطقة باب الأزج وخرابة ظفر، ودرب حلاوة والمسعودة والشمعية،حتى خرج الناس من هذه الأماكن لا يلتفتوا إلى أحد(١).

إلا أن أشد المناطق تضررًا في الجانب الغربي كانت منطقة المارستان العضدي،إذ دخلت المياه من الشبابيك، وتضررت مقبرة الإمام أحمد بن حنبل جراء دخول المياه إليها، ويقدر السيوطي عدد الدور المنهدمة بنحو مئة ألف دور(٢).

أما مواجهة الدولة لها، فقد كانت هزيلة للغاية إذ تعرضت مباني الدولة نفسها إلى الغرق، وقام الوزير فخر الدين، بعمل خيمة كبيرة له ولخدامه، وعمل أكواخ عاجلة لمن يريد الالتحاق والسكن فيها، كما قام الوزير بتهديد الملاحين الذين يعترضون الناس في العبور بين جانبي بغداد،إذ كانوا يمتنعون عن عبور بعض الناس لغلاء سعر النقل، وأمر شرف الدولة بصرف ألف دينار لعمارة مشهد باب التبن والمنطقة المجاورة له(٣).

أما الخليفة القائم بأمر الله، فقد تضرع إلى الله عدة مرات حتى تنكشف الغمة عن بغداد، وكان يرتدي بردة النبي وقضيبه،حتى يستجيب الله له، بل لم يكن هذا المظهر الديني الوحيد في هذه الأزمة، فقد اجتمعت العامة والوعاظ والصالحين من الناس عند الخليفة في السنة التي سبقت هذا الغرق العظيم، مطالبين بإراقة الخمور وهدم المواخير والحانات وهدمها وتبطيلها من مدينة بغداد(٤)، فوعدهم الخليفة بأن يكاتب السلطان في هذا الأمر، وهو ما يدل على نظرة العامة والمسلمين على العموم إلى هذه الأزمات علىأنها قد تكون عقابًا من الله بسبب ارتكاب الموبقات.

---

(١)نفس المصدر السابق، ص١٥٦.

(٢)السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٢.

(٣)ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٠٣ و٤٠٤؛ ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٧١.

(٤)ابن الاثير، المصدر السابق، ص٤٠٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونرى في حديث أحد الأشراف ويدعى الشريف أبو جعفر بن موسي لأحد حجاب الخليفة هذا المعنى حينما اتهم الحجاب والخليفة بالتباطؤ في مكاتبة السلطان في تحريم وهدم المواخير وإبطال الأمر سببًا في هذا الغرق، فبدلًامن أن يأتي جواب السلطان جاء الجواب من الله عن طريق غرق المدينة كلها(١).

أما عن التأثير الاقتصادي المباشر فقد تأثرت الزروع والبساتين الكثيرة للضرر، كما تأثرت الثروة السمكية في منطقة واسط وبغداد،ويذكر ابن الجوزي أن الأسماك انعدم وجودها في تلك الأيام جراء الفيضان(٢).

بعد الفيضان السابق بثلاث سنوات أي عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، شهدت بغداد فيضانًا آخر، وكان السبب فيه زيادة دجلة نحو إحدى وعشرين ذراعًا، وقد اتخذت الدولة ممثلة في الوزير فخر الدولة الذي قام بحماية دار الخلافة حتى لا تتأثر بالفيضان مثل الفيضان السابق، وقد أمر بنقل تابوت الخليفة القائم بأمر الله إلى الرصافة إذ المقابر الخاصة بآل عباس،أما على المستوى العام فقد فزع الناس وخافوا علىأموالهم وقاموا بنقل الأموال بعيدًا عن دورهم حتى ينحسر الفيضان وينتهي(٣).

يذكر ابن الاثير في حوادث عام ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، أن نهر الفرات زاد زيادة عظيمة سمحت بحدوث فيضان محدود قام بتخريب دواليب الزراعة والسواقي في مناطق هيت، وفوهة نهر عيسي التي تضررت هي الأخرى، كما زاد في تامرا نحو أكثر من ثلاثين زراعًا، وقد أثر هذا الفيضان على المحاصيل الزراعية في هذه المناطق(٤).

وفي عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، تعرضت بعض المدن مثل بغداد والموصل إلى رياح عاصفة قامت باقتلاع النخيل والأشجار، وصاحبها بعض الصواعق،حتىاحترقالنخيل وغرقت السفن جراء ذلك،وفزع الناس وخافوا وظنوا أنها القيامة(٥).

وفي تلك السنة أيضًا، هبت ريح سوداء أظلمت السماء وأدت إلى هبوب رياح ترابية، نتج عنها هلاك الماشية، ما أثر على الإنتاج الحيواني، ومقتل عدد من الناس بسبب هذه العاصفة، بل

---

(١)نفسه، ص٤٠٤.

(٢)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٥٧.

(٣)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٩٦.

(٤)ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص٤٢٢.

(٥)ابن كثير، المصدر السابق، ص٢١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نجد أنه تزامن مع هذه العاصفة، دخول اللصوص إلى الحمامات وسرقتهم لملابس الناس، بل امتدت عمليات السرقة إلى الأسواق، ما أدىإلى إضطرابات اقتصادية في تلك السنة[١].

ولم تكن سرقة الأسواق السبب في هذه الاضطرابات فحسب، بل نجد أن العاصفة أغرقت بعض السفن، وسقطت خلالها منارة باب الأزج.

وفي عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٧م، تعرضت بغداد إلى هطول أمطار ما أعاق حركة الناس في الطرقات وكثرت الوحول، ما جعل الخليفة المقتدي بالله، يأمر مئة من العمال بتنظيف الشوارع مزودين بالآلات والدواب لرفع الوحل وإبعاده[٢].

وفي ٤٩٣هـ/١١٠٢م، يذكر ابن الجوزي أن العراق تعرض إلى امتناع للأمطار صاحبه انتشار الوباء والأمراض مع انعدام للدواء والعقاقير، وهو ما يدل علىأن تلك السنة كانت تعاني من القحط والجدب والجفاف، وهو ما أدىإلىانتشار الأمراض والموت[٣].

وفي عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٦ م، تعرضت المدن العراقية إلى فيضان معتاد من زيادة نهر دجلة، مع تواصل لهطول الأمطار، ما أدىإلى هلاك جميع الغلال في تلك السنة، وخسائر مادية في الأرواح والممتلكات،إذ غرقت الدور المختلفة ومنها دار نقيب النقباء أبو القاسم الزينبي،الذي كاد يشرف على الغرق،كما يذكر ابن الجوزي أن سفينة غرقت بمن عليها من الناس الذين كانوا يزفّون عروسًا، غرقت هي الأخرى وأقاموا عليها المآتم بدلًا من الأفراح[٤].

وفي عام ٥١١هـ/ ١١١٧م[٥]، يذكر السيوطي أن منطقة سنجار تعرضت إلى سيل شديد، غرقت منه المدينة وأدىإلى تدمير سورها، وأدى أيضًا إلى مقتل العديد من أبناء المدينة، ودفنوا في التراب والطين بسبب الجرف الذي نتج عن السيل.

وفي حوادث عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م، نرى أن العراق تعرض إلى نقص في هطول الأمطار إذ "انقطع الغيث وانعدمت الغلات في كثير من البلاد وكان أشده في العراق"[٦]ما أدىإلى غلاء الأسعار وهروب معظم المزارعين في السواد إلى المناطق الاخري طلبًا للطعام، فقد اعتمد العامة على أكل النخالة، وعانى سكان بغداد معاناة قاسية بسبب ارتفاع أسعار المواد الأساسية.

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٤١.
(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٦، ص٢٥٨.
(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٤.
(٤)نفس المصدر السابق، ص٩٥ و٩٦.
(٥)السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٨.
(٦)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٧٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونجد في نفس السنة يقوم الخليفة المسترشد بالله بخطوة عاجلة ربما لتدارك الموقف أو تخفيف الأزمة،فقام ببعض الإصلاحات التي تتعلق بالإقطاع،فأسقط الإقطاع الخاص الذي كان يعاني منه المزارعون(١)، وربما كانت أزمة الجوع التي عانى منها العراق هي التي شجعت الخليفة على هذه الخطوة، كما تضمنت قراراته الاقتصادية بعض الإصلاحات الأخرى المتعلقة بقطاع التعدين،فأطلق ضمان غزل الذهب،إذ كان العمال يعانون من هذا الضمان المؤدى للحكومة معاناة كبيرة.

ونجد ظاهرة تكررت كثيرة مع حلول الأزمات الاقتصادية هو تأخر مسير الحجاج إلى الأراضي المقدسة، ويظن الباحث أن التأخر هذا كان لأسباب اقتصادية وما تبعها من حالة سياسية مضطربة، وأجواء أمنية متردية خاصة على طريق الحج العراقي، الذي قد يكون ملجأ للصوص والهاربين من الجوع وهو ما يعرض حياة الحجاج للخطر.

ففي نفس السنة تلك وهي ٥١٢هـ/ ١١١٨م، يذكر ابن الأثير في حوادث هذه السنة أنه كثر الإرجاف في العراق بسبب تأخر الحج، وهو ما دفع الخليفة إلى "ترتيب الأمير نظر خادم أمير الجيوش تولية أمر الحج ما كان يتولاه أمير الجيوش، وأعطاه من المال ما يحتاجه"، وقد نجحت مهمة "نظر" وأظهر كفايته، والدليل هو الوصول بالقافلة بسلام إلى مكة(٢).

وفي عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م،تعرضت بغداد إلى هطول أمطار شديدة ما أدىإلى فزع الناس وإرتجاج بغداد من الضجيج والاستغاثة، وذلك لأن الأمطار كانت قوية صاحبها ريح وظلام في السماء، فيبدو أن الشمس لم تظهر في سماء بغداد في تلك الأيام(٣).

وتتكرر ظاهرة تأخر الحجاج أيضًا، فقد خرجوا بالقافلة في ثاني عشر من ذي القعدة أي قبل موسم الحج بنحو شهر، وهو ما دفع الخليفة بسرعة إرسال طلب عاجل إلى الأمير دبيس بن صدقة حاكم الجنوب العراقي بمساعدة الأمير نظر في حماية الحجاج وخدمتهم(٤).

ويذكر ابن الأثير أن الأمطار توالت بشدة على القافلة حتى وصلوا إلى مدينة الكوفة، وهو ما يدل أن سبب التأخر كانت أمطار تلك السنة فخاف الحجاج علىأنفسهم وهو ما أخر مسير القافلة نحو الأراضي المقدسة(٥).

---

(١)نفس المصدر السابق، ص١٧٩.
(٢)نفسه ، ص١٧٩.
(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ١٧٢.
(٤)ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٨٩ و١٩٠.
(٥)نفس المصدر السابق، ص١٩٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م[١]، فقد كان عامًا دراميًا في تاريخ الكوارث الطبيعية في العراق،إذ تعرضت بغداد إلى موجة من هطول الثلوج عليها ما أدىإلى امتلاء الشوارع والدروب، وهو ما جعل الأحداث الصغار يقومون بتشكيل كرات الثلج على شكل السباع والحيوانات المختلفة مثل الفيلة، ولم تكن المرة الأولى التي تتعرض فيها بغداد لموجة الثلج فنجد أن في عام ٣٤٠هـ/ ١٠٤٢م، تعرضت لمثل هذه الموجات، بل يذكر ابن الجوزي أن بغداد تعرضت للثلج أيام الرشيد والمقتدر والمعتمد والطائع والمطيع والقادر والمقتدر من خلفاء بني العباس، وهو ما يدل أن هذا الامر معتاد في تاريخ مدينة دار السلام والمدن العراقية الأخرى[٢].

ويبدو أن موجة هطول الثلوج كانت في المناطق العراقية الأخرىيصاحبها الأمطار الشديدة التي أدت إلى هلاك النخيل وأشجار الفاكهة المختلفة،إذ نجد أن الأمطار تسبب في هلاكأشجار الأترج والليمون والنارنج، بينما نجت المحاصيل الأخرى مثل البقول والخضر، كما هلكت النخيل وما عليها من الرطبوالأعناب في الصحراء[٣].

أما عن المدن المتأثرة بهذه الموجة، فقد كانت بغداد التي تأثرت بالثلج، والمناطق بين البطحاء وتكريت تأثرت بالثلوج أيضًا، كما تعرضت مناطق جنوب العراق للأمطار مثل الكوفة والبصرة. وفي ذلك يقول الشاعر:

ياصدور الزمان ليس بوفر   ما رأيناه في نواحي العراق

إنما عمّ ظلمكم سائر الخلــق   فشابت دوائب الآفاق[٤]

وفي العام التالي ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، خاف الناس على بغداد من الغرق،إذ زاد نهر دجلة زيادة تبدو أن كبيرة كالفيضانات المدمرة في السابق، وهو ما جعل أبي العباب ابن الرطبي القاضي يخرج إلى منطقة القورج، ليرى ما يحتاج إليه، وفيما يبدو أن هذه المنطقة كانت منطقة إغاثة في حال الفيضان[٥]، إذأن رجالات الدولة يلجأون إليها فور قدوم الفيضان وهو ما فعله الوزير فخر الدولة في فيضان ٤٦٦هـ العنيف والذي أغرق بغداد والموصل وواسط وغيرها.

---

(١)ابن الجوزي، المصدر السابق ، ص١٩٦ و١٩٧.

(٢)ابن الجوزي , المنتظم , ج١٧، ص١٩٧

(٣)نفسه، ص١٩٧.

(٤) نفسه، ص١٩٧.

(٥)نفسه ، ص٢٠٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبدو أن الزيادة لم تكن في دجلة فقط بل كانت في الفرات إذ زاد النهر ما أدىإلى غرق بعض المساكن والدور في منطقة قلعة جعبر،ودخول المياهإلى الربض بأكمله، وهُدمت أكثر الدور والمساكن[1].

وفي عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م[2]، تعرضت مناطق الموصل والجزيرة وديار بكر إلى جدب وجفاف وقحط لأراضيها الزراعية بسبب نقصان الأمطار في موسم الشتاء، وقد استمر الجدب إلى العام التالي وهو ما أدىإلى غلاء الأسعار ونقصان المواد الغذائية من الأسواق المحلية في هذه البلاد، ويذكر ابن الأثير أن الغلاء استمر إلى العام التالي، وهو ما يدل على شدة الأزمة[3].

وفي عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، تواصل هطول الأمطار مع الرعد والبرق لمدة ثلاثة أيام، ونتج عن هذه الموجة السيئة للأحوال الجوية، انهيار بعض المنازل، وخسائر مادية ليست بالكبيرة مقارنة مع موجات مرت على المدن العراقية[4].

وفي عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م،هبت على بغداد وما جاورها من قرى، ريح عاصفة، مصاحبة بالغيوم والمطر الغزير، ويبدو أن الريح كانت عظيمة لأنها نقلت من الصحاري المجاورة ترابًا أحمر، وتضررت منه البراري وأسطح المنازل، وسرعان ما سكنت، بعدما فزع الناس وخافوا على منازلهم ومزارعهم[5].

وقد نرى أن في الأعوام التالية تتعرض العراق إلى موجات من الفيضانات والسيول المدمرة، كما أنها تتعرض للنقيض تمامًا، وهي موجات القحط والجدب وعدم سقوط الأمطار،ففي عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، تعرضت المدن العراقية إلى جدب وقحط بسبب نقصان نهر دجلة على غير العادة، ما أدىإلى تأثر الناس بموجات الغلاء، وهو ما جعل -كما يقول ابن الجوزي- ارتفاع كراسي الوعاظ إلى الأعلىفي جامع القصر،وهو ما يدل على تكليف الخليفة للوعاظ على نشر الوعظ في تلك الأزمة حتى تنفرج[6].

ونرى في عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، تتعرض العراق إلى عدم سقوط الأمطار في موسم الشتاء،فيذكر ابن الجوزي "أن الأمطار لم تسقط طوال التشرينان وكانون الأول"؛ أي طوال موسم

---

(1) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٢١٨.
(2) نفس المصدر السابق،ص٢٣٠.
(3) ابن الاثير،نفس المصدر السابق،ص٢٣٠.
(4) ابن الجوزي، المنتظم،ج١٧،٢٣٢.
(5) ابن الاثير، المصدر السابق،ص٢٤٨.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشتاء[1]، ما أدىإلى قتل الكثير من الماشية والأغنام التي تربعلى الأعشاب الطبيعية، وقد أدى ذلك بدوره إلى غلاء الأسعار لا سيما في الغلات والحبوب، ولم يكن قلة الأمطار السبب في ذلك الأمر بل كان انتشار الجراد سببًا في الغلاء في تلك السنة.

أما في عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م[2]، تعرض العراق إلى موجة من الغلاء والمجاعة وارتفاع الأسعار وذلك بسبب القحط وعدم زيادة الأنهار، وهو ما أثر على محاصيل تلك السنة، ما أدىإلىاختفاء الخبز، وارتفاع سعر الحنطة، وكذلك الشعير ليصل الكر منه أربعين دينارًا، وغلق الدكاكين والحوانيت في الأسواق، وقد استمرت هذه الموجة إلى السنة التالية ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م.

وتكرر الفيضان ببغدادعام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠ م إثر زيادة نهر دجلة، ويبدو أنه كان ضعيفًا،إذا تمت المقارنة بسابقيه من الفيضانات إذ قام فقط بتعطيل طريق الرباط ووصول الماء إلى باب المدرسة النظامية، وغرقت بعض الدور ودخلت المياهإلى الأزقة الضيقة[3].

وفي السنة التالية ٥٤٦هـ/ ١١٥١م، تعرضت منطقة سامراء إلى فيضان بسبب زيادة نهر دجلة،إذانفجر بثق النهر بسبب الزيادة.[4]

وفي عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، تعرضت مدينة واسط،إلى فيضان بسبب زيادة نهر دجلة، وكانت الزيادة أدت إلى إحمرار الماء ففزع الناس من ذلك[5].

وتعرضت بغداد إلى فيضان بسبب زيادة نهر دجلة ما أدى إلى تدمير القورج، وخرقه،وتسربالمياهإلى داخل البلد، فضلًا عن الصحارى المجاورة، وذلك في عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٨م[6]، وقد غرقت بعض المناطق مثل المأمونية وباب الأزج وخرابة ابن جردة والزيات ومنطقة ابن رزين ومنطقة المقابر ومنها مقبرة الإمام أحمد ودرب الشاكرية ودرب المطبخ وتدمير درب القيار عن آخره إذ هدمت جميع مساكن العامة فيه ما أدى هروب من تبقى من سكانه إلى الجانب الغربي وارتفاع ثمن النقل إليه حتى وصلت على عدة دنانير، ما جعل الناس يضجون لعدم مقدرتهم الدفع في مثل هذه الظروف العصيبة.

---

[1] نفس المصدر السابق، ص٥٠.

[2] نفسه، ص٥٧.

[3] نفسه، ص ٧٧.

[4] ابن الجوزي، شذور العقود، ص٣٠٢.

[5] ابن الجوزي، المنتظم ،ج١٨ ،ص٩٧.

[6] ابن الأثير، الكامل، ج٩،ص٤٣٢ و٤٣٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد غرقت هذه المناطق بعد ثقب سور بغداد وتدمير بعض الأماكن فيه بشكل جزئي، ومنها منطقة سور وسد القورج،إذ نقصت الماء بعد عشرين يومًا وهو ما جعل السلطات تقوم بإعادة ترميم ما تم هدمه[١].

تزامن هذا الفيضان المدمر مع هطول بعض البرد والأمطار،وقد تم وزن البرد بنحو خمسة أرطال، وهو ما يدل على كثافته، وقد أدى البرد والمطر إلى هلاك المحاصيل الزراعية في كثير من القرى الزراعية، لا سيما الغلات، وهو ما أدىإلى نقص العلف للحيوانات وتأثر الثروة الحيوانية في هذه السنة[٢].

وفي عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م، هبت عاصفة شديدة، نتج عنها برد كثيف، وهلاك للأشجار والنخيل، وكانت الريح العاصفة سببًا في تدمير حائط من بيت القهرمانة، وظهور ذهب تحت هذا الحائط[٣].

وفي تلك السنة، زاد الماء في نهر الفرات، زيادة سمحت بظهور الأسماك، وعودة الناس لصيده بعد اختفاء طويل،يقدره ابن الجوزي بنيف وثلاثين سنة[٤].

وتكرر هبوب العواصف الرعدية التي أخافت الناس وأزعجتهم، لدرجة أنهم خرّواعلى وجوههم في الشوارع، ففي عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م،هبت ريح عاصفة، وكانت باردة، يصاحبها رعد مخيف،إذ "رعدت السماء بقعقعة لم يسمع بمثلها قط فخر الناس على وجوههم"[٥].

وقد تكررت هذه الموجة من الرياح والمطر والعواصف في السنة التالية، ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وتركزت هذه الموجة في بغداد، ولكنها لم تكن بقوة العاصفة التي سبقتها[٦].

وفي حوادث عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، نجد أن بغداد تعرضت إلى فيضان نهر دجلة،ما أدىإلى بعض الأضرار، مثل تضرر المدرسة النظامية،لوصول المياه إليها، كما وصلت المياه إلى قبة ضريح الإمام أحمد بن حنبل، وهو ما جعل السلطات تتخذ قرارًا بالعمل في القورج لإنقاذ بغداد من الغرق، وقد نقص الماء بعد فيضانه بقليل[٧].

---

[١] ابن الجوزي، المصدر السابق ،ص١٣٥.
[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٣٥؛ انظر ايضا شذور العقود،ص٣٠٥.
[٣] ابن الجوزي ، المصدر السابق ،ص١٧٥.
[٤] نفسه ، ص١٧٥.
[٥] نفسه ، ص١٩٤.
[٦] نفسه، ص١٩٧.
[٧] ابن الأثير ، الكامل، ج١٠، ص٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد صاحب هذا الفيضان برد كثيف أثر على الموارد المائية،فتجمدت المياه في الآبار، ما أدىإلى تلف المحاصيل الزراعية، ونقص المواد الغذائية وغلاء الأسعار(١).

وقد تعرض العراق إلى فيضان كبير بسبب زيادة المياه في نهر دجلة،إذ ضرب الفيضان القرى ما أدى إلى هدم الدور وهلاك المحاصيل الزراعية مثل أشجار النارنج، وموت الحيوانات لا سيما الماشية،ما أدىإلى غلاء الأسعار.

وقد كان الفيضان هذا في رمضان من عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م(٢)، وقد استمر طوال الشهر،إذ خرج الناس من بغداد إلى موضع القورج، وضجوا بالدعاء والابتهال إلى الله يقودهم الوعاظ، الذين ساعدوا الناس في بناء السدود المانعة للماء.

وكان من نتائج هذا الفيضان، غلاء الأسعار،خاصة أسعار الخبز، إذ كان يباع الخمس أرطال بقيراطوهو ما أدىإلىاشتداد الأزمة في تلك الأيام، أما من ناحية الخسارة المادية امتدت الخسائر إلى المدرسة النظامية، ومدرسة أبي النجيب، كما تأثر رباط أبي سعد الصوفي فتهدمت منه مواضع،حتى وصل الهدم إلى منطقة درب السلسلة، بل إن القصر الخلافي تأثر بنزيز الماء،إذ وصل ماء الفيضان إليه وهو ما جعل الخليفة يخرج من باب الفردوس حتى يمضي إلى الجامع، وهو ما يدل على أن هذا الباب ظل آمنًا من مياه الفيضان المدمرة(٣).

ومن الخسائر المادية أيضًا، وصول الماء إلى البدرية وتأثر دار البساسيري، ومنطقة المأمونية، وتهدمت الكثير من الدور، وقد تأثر أيضًا المارستان في هذه المنطقة فدخلت المياه من أبوابه ومنافذه،حتى علت الماء في أرضية المارستان، وهو ما جعل السلطات تتخذ تدابير عاجلة لإنقاذ المرضى وذلك بنقلهم إلى سطح المارستان(٤).

ومن أحداث هذا الفيضان وصول الماء إلى المقابر وخروج العظام من القبور في الجرف العظيم للماء الناتج عن الفيضان،حتى من أشهر المقابر التي تأثرت بالفيضان مقبرة الإمام أحمد،وقد تأثرت للمرة الثانية،إذ تأثرت في فيضان سابق، ووصلت المياه أيضًاإلى مقبرة باب الشام حتى تهدّم الضريح المبنى بالقرب من المقبرة(٥).

---

(١)،ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٠٠.

(٢)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٢٨ و٢٢٩؛ ابن الجوزي، نفس المصدر السابق، ص٢٠٤ و٢٠٥.

(٣)نفس المصدر السابق، ص٢٠٥.

(٤)ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٦١.

(٥)ابن الجوزي، المنتظم،ج١٨، ص٢٠٥ و٢٠٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن الأحياء التي تضررت أيضًا حي الكرخ في بغداد،إذ لجأ له الكثير من الناس، ولكنه تأثر هو الآخر مثل باقي الأحياء البغدادية، كما وصل الماء إلى بعض الخنادق التي حفرت خلف سور بغداد، وهو ما عاق حركة الانتقال من القرى المجاورة لبغداد إلى المدينة نفسها، وهو ما جعل السلطات أن تبني جسرًا لسهولة الانتقال في هذه المناطق[١].

ومن الخسائر الاقتصادية المباشرة في القطاع الزراعي، هو تخريب المزارع والقرى،خاصة قرى منطقة الحظيرة،حتى هلكت معظم المحاصيل الزراعية، خاصة القريبة من نهير دجيل،وقد أدى هذا الفيضان إلىتدمير مزارع الفواكه خاصة الكمثرى والخوخ والتفاح[٢].

ومن الأضرار الاقتصادية التي نتجت عن هذا الفيضان غلاء الآجر الذي يبنى به المساكن في بغداد لأنه يخرج من الطين الزراعي الذي تدهور بطبيعة الحال،حتى وصل كل ألف قطعة بثلاثة دنانير ونصف، وهو ما وصفه ابن الجوزي بالغلاء[٣].

كما تأثرت الثروة الحيوانية بالضرر الكبير إذ ماتت قطعان الغنم بمرض الطاعون الناتج عن الفيضان فيما يبدو، وما تبقى من الأغنام كان يأكله الناس، وقد تأثروا من تناول لحومها حتى ظهرت بعض الأمراض على الناس أنفسهم وهو ما جعلهم يبتعدون عن تناولها في تلك الفترة[٤].

أما في مدينة الموصل، فقد تواصل هطول الأمطار على المدينة نحو أربعين يومًا، بالتزامن مع وقوع فيضان بسبب زيادة نهر الفرات، ما جعل المدينة تتأثر اقتصاديًا وماديًا، ومن الخسائر المادية، تهدمت الكثير من المساكن والدور في جميع أنحاء المدينة، وهو ما أدى بدوره إلى مقتل الكثير من أبناء المدينة،إذ كانت "الدار تقع على ساكنيها فيهلك الكل"[٥].

أما من الناحية الاقتصادية، فهلكت القرى والمحاصيل الزراعية القريبة من منطقة نهر عيسى، وهو ما نتج عنه غلاء الأسعار، وحدوث مجاعة على أثرها، وموت الكثير من أبناء المدينة جراء ذلك.

أما في عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، نقصت مياه نهر دجلة،ما تسبب في ظهور الجزر، وجنوع السفن في النهر، وأنذر بموجة جديدة من الجدب والقحط في المناطق المروية بجداول هذا النهر[٦]،

---

[١]ابن الجوزي، شذور العقود، ص٣٠٩.
[٢]ابن الجوزي، المنتظم، ص٢٠٧.
[٣]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨ ، ص٢٠٧.
[٤]نفس المصدر السابق، ص٢٠٧.
[٥]ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٦١.
[٦]ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٢٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبدو أن تلك السنة كانت مضطربة في الأحوال الجوية،إذيذكر ابن الجوزي أن ريحًا باردة هبت على بعض المدن وذلك في موسم الصيف، ثم جاء حر عظيم بعدها بأيام، ما يدل على تقلب الأحوال الجوية، وهذا أثر على الناس فمرضوا بالزكام وأمراض الإنفلونزا(١).

وفي ذي القعدة من نفس السنة، تعرضت المدن والقرى العراقية إلى ريح عاصفة جلبت التراب، وقد أزعجت وأخافت الناس، لكنها لم تستمر طويلة وسرعان ما انحسرت واختفت(٢).

وفي عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، تعرضت بغداد إلى أمطار غزيرة خاصة منطقة الرصافة ما جعل الشوارع كالأنهار، وقد صاحب هطول الأمطار رياح عاتية،حتى فزع الناس منها،وقد تعرضت بغداد إلى هطول أمطار شديد لمدة ثلاث أيام متتالية ما أدىإلى غرق الطرقات(٣)، ولقد كانت الأمطار شديدة لدرجة جعلت الخليفة يخرجمن أمواله لتنحية الوحل عن الطرقات وإصلاحها، وجمع كل أهل درب من الدروب حوالي ١٢ ديناراًلمن يقوم بتنحية زيادة الماء وصرفها في نهر دجلة، تزامنًا مع وجود فيضان بسبب زيادة تقليدية لنهر دجلة وذلك في نفس السنة(٤).

وفي نفس السنة زاد نهر دجلة، لكنها لم تكن بزيادة كبيرة، غير أن السلطات فيما يبدو كانت تعمل من أجل وقف الفيضان، "إذخاف الناس وأعملوا العمل في القورج"(٥).

وفي عام ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م (٦)، لم يزد نهر دجلة على غير العادة، بل تعرض العراق إلى جدب وجفاف،ما أثر على الزراعة، وتعرضت المزارع والمحاصيل الزراعية إلى الهلاك والتلف، فمن ضمن المناطق التي تأثرت بهذا الجدب، منطقة واسط، والتي كان أهلها يعملون بنقل الطعام إلى بغداد، فقد كانت عاصمة الخلافة تعتمد على واسط في غذائها،ما أدى إلى غلاء الأسعار في بغداد،فوصل سعر الخبز إلى كل ستة أرطال بقيراط، ووصل سعر الشعير كل أربعة أرطال بحبة، وهو ما جعل الناس يتذمرون من هذا الغلاء في تلك السنة(٧).

أما في مدينة الموصل فقد تأثرت هي الأخرى بموجة الغلاء تلك، وذلك بسبب عدم زيادة نهر دجلة، كما أن المطر انقطع هطوله،ما أدىإلى جدب المناطق الزراعية المحيطة بالمدينة والتي تمد الموصل بكل أنواع الغلات،وتسبب في موجة الغلاء التي استمرت طوال شهور الشتاء في

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٢٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٢٣١.

(٣)نفس المصدر السابق، ص٢٣٨.

(٤)نفسه، ص٢٣٩.

(٥)نفسه، ص٢٣٩.

(٦)ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص ٩٢.

(٧)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٥١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك السنة، بل إنها امتدت إلى دخول السنة الجديدة ٥٧٤هـ/ ١١٧٩م[١]، فنفدت الأقوات ومخزون الغلات وهو ما أدىإلى اشتداد الأزمة، وتأثرت الموصل وبلاد الجزيرة الفراتية من المجاعة، والتي كان ابن الأثير شاهدًا عليها،إذ ذكر أنه رأى رجلًا تركمانيًا يعاني من الجوع فساعده أن جلب له خبزًا ليأكله.

وقد تكررت ظاهرة الرياح "السوداء" أو العواصف العاتية التي تحجب الشمس ربما لأيام،إذ تكررت في عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م،حتى يقول ابن الأثير إن الناس صلت الصلوات النهارية أي الظهر والعصر والمغرب تخمينًا لعدم وجود الشمس،بل تسببت هذه الريح المظلمة في عدم رؤية هلال المحرم، فأرَّخ الناس ذي الحجة ثلاثين يومًا وأتموه، وظهر لهم بعد انجلاء العاصفة أنه كان خطأ[٢].

وقد كانت هذه العاصفة قوية لدرجة أن الناس ظنوا أنها القيامة وقاموا بالتضرع والصلاة والاستغفار، وقد هبت هذه العاصفة على بلاد الجزيرة الفراتية وأغلب مدن العراق.

ثانيًا: الزلازل والظواهر الطبيعية وأثرها في ظهور المحن والأزمات الاقتصادية:

قبل بدء السرد الحولي الخاص بكوارث طبيعية من نوعيات أخرى كسابقتها،لا بد لنا من مقدمة خاصة عن الزلازل، ماهيتها، ومدى تأثيرها على الناحية الاقتصادية في العراق، ومدى تأثيرها المباشر في ظهور الأزمات والمحن في تلك الفترة، ثم الحديث عن ظواهر فلكية طبيعية أخرى وهي الظواهر الفلكية من ظهور الكواكب، وسقوط الشهب، وما ارتبط به من فزع الناس وخوفهم من المصير المجهول أو من المستقبل،وسنتحدث تفصيليًا عن تلك الظاهرة من خلال كتابات المصادر المختلفة التي تتحدث عن هذه النقطة.

- **ماهي الزلازل؟**

تعددت معاني الزلزلة اللغوية،إذتعني الحركة الشديدة[٣]، أو الهزة العنيفة، وهي الهزة الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها وتنشأ في طبقات الأرض وتظهر بقوة على سطح الأرض ويشعر بها الإنسان ويضطرب، وهي من الجذر اللغوي ز ل ل[٤]، وهذا الجذر اللغوي يشتق منه كلمة

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٩٢.
[٢] نفس المصدر السابق، ص٩٢.
[٣] المعجم الوسيط، ص٣٩٧.
[٤] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة زلل، ص٧١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزلزال بمعناها السابق، كما يخرج منه معان أخرى من أهمها زلال، مثل يقال ماء زلال أي الماء العذب، الذي يخرج من العين على أثر بعض الهزات الأرضية العنيفة[١].

أما عن المصطلح العلمي للزلزال،أو الهزات الأرضية الطبيعية، فالمعروف أن الأرض ليست ثابتة الحركة، بل إنها في حركة دائمة منذ ملايين السنين، وما تكوين القارات ببعيد، فالقارات وانفصالها عن بعض بعدما كانت كتلة واحدة، دليل على ذلك، ودليل على تحرك عنيف لطبقات الأرض التكتونية ما أسفر عن ذلك الانفصال منذ أزمنة بعيدة[٢].

ويبقى التعريف العلمي الأشهر وهو ما سنعرضه في إيجاز مما يخدم القضية التي نحن بصددها، وهو أن الزلزلة عبارة عن تحرك الصخور على سطح صدع، بعيدًا عن الصخور التي تجاورها وهذا هو نشأة الهزة الأرضية وتوابعها[٣].

وفي عام ٥٠٨هـ/ ١١١٥م، تعرضت منطقة الجزيرة الفراتية إلى زلزال مدمرة امتدت آثاره إلى الشام والرها، وقد نتج عنه مقتل عدد كبير من سكان تلك المناطق، وهدم الكثير من الممتلكات العامة والخاصة[٤].

وفي عام ٥١١هـ/١١١٨م، شهدت مدينة بغداد زلزالًا ضخمًا،في شدة درجته، وما نتج عنه من خسائر مادية وبشرية،وكان الزلزال في يوم عرفة، في وقت الضحى، ومن شدته يقول ابن الجوزي: "وكانت الستور والحيطان تمر وتجيء" وذلك يدل على قوة هذا الزلزال[٥].

أما من ناحية الخسائر فقد وقعت بعض الدور والدكاكين خاصة في الجانب الغربي من بغداد، وينقل ابن الجوزي عن شيخه أبو الفضل بن ناصر "أن الزلزلة كانت متزامنة مع موت السلطان محمد بن ملكشاه، ومن بعده موت المستظهر بالله العباسي، وتولي المسترشد بالله وما حدث بعدها من حروب وفتن وغلاء في الأسعار،حتى وصل الكر إلى ثلاثمئة دينار، ومات الناس من الغلاء والوباء والجوع حتى أكلوا الكلاب والحيوانات الميتة"[٦].

هنا ينتهي حديث ابن الجوزي وشيخه، لكن تبقى الملاحظة في ربط موت ملكشاه السلطان السلجوقي بهذه الزلزلة الكبيرة، فهو يربط حدث طبيعي بحدث بشري،كعادته، فصحيح أن الوقت

---

(١)الرازي، مختار الصحاح، ص١١٥.

(٢)محسوب وأرباب، الأخطار والكوارث الطبيعية، ص ٥١.

(٣)نفس المرجع السابق، ص٥١.

(٤)ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٥٧.

(٥)ابن الجوزي، المنتظم، ص١٥٦.

(٦)نفس المصدر السابق، ص١٥٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متقارب بين الزلزلة والموت، إذ توفي السلطان السلجوقي في أصبهان في ذي الحجة من تلك السنة، وحدثت الزلزلة في نفس الشهر، وزيادة على هذه الملاحظة، ملاحظة أخرى في موت الخليفة العباسي، وقيام الفتن والحروب، وغلاء الأسعار، وهكذا نجد أن هناك من المصادر من يربط الأحداث الطبيعية ودورها في ظهور المحن والأزمات بالحوادث البشرية من موت الحكام وقيام الحروب والفتن وغيرها من الحوادث.

وفي عام ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، وتحديدًا في السادس عشر من ربيع الأول، تعرضت بغداد إلى زلزلة عنيفة،فيخبرنا ابن الجوزي عن شيخه أبو الفضل بن ناصربصفته شاهد عيان على تلك الزلزلة فيقول: "كنت في المسجد بين العشائين، فماجت الأرض كثيرًا من اليمين عن القبلة إلى اليسار"[١].

ولم تستمر هذه الزلزلة كثيرًا، ولو استمرت لكانت هناك كارثة محققة، ولتهدمت مساكن كثيرة في الجانب الشرقي والغربي من بغداد.

ونلاحظ أن ربط الزلازل بالمصائب البشرية ما زال مرتبطًا عند ابن الجوزي وذلك بقوله: "ثم حدث موت محمود وفتن وحروب"، وذلك تعليقًاعلى عدم استمرار تلك الزلزلة التي لو استمرت لكانت دخلت البلاد في الفتن والحروب جراء الأزمة التي قد تدخل فيها المدينة كنتيجة غير مباشرة عن حدوث الزلزال، وذلك لربط الكارثة الطبيعية بالمصيبة والمحنة البشرية.

وفي نفس السنة، تعرضت الموصل إلى موجة سيئة من الأحوال الجوية فيذكر السيوطي في حوادث تلك السنة أن السماء أمطرت نارًا، ولعله يقصد الصواعق والتي أدت إلى تدمير عدد كبير من المساكن والدور[٢].

وفي عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤ م، تعرضت بغداد إلى سلسلة من الزلازل فكان الزلزال الأول في جمادى الآخرة، وقد أدت إلى خسائر مادية في المساكن والدور،حتى يذكر ابن الجوزي أن منزله جدرانه تصدعت وتحركت عن موضعها[٣].

أما الزلزال الثاني فكان في شوال وكان أعنف مما سبق، وذلك لأن الأرض اهتزت من ثلاث إلى خمس مرات، فيبدو أنه كان زلزالًا عنيفًا لدرجة وجود توابع كثيرة له،أما الزلزال الثالث، فكان الأشد، وكان في نفس الشهر أي شوال، وحدث أن الزلزال أدىإلى تصدع المنازل وهدم بعضها،

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥٦.

(٢)السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٤٢.

(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويخبرنا ابن الجوزي أنه كان صبيًّا عند حدوث هذه الزلازل، وفي الزلزال الأخير كان ينام على سطح منزله، ومع الهزة العنيفة قام منفزعًا من مكانه، وقد استمر هذا الزلزال الأخير الليلة كلها حتى الفجر،حتى خرج الناس إلى الشوارع خائفين ومنزعجين ويستغثون خوفًا من هذه الهزات المتتالية[١].

وتكررت أزمة رؤية هلال عيد الفطر، مرة أخرى، ففي عام ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، يخبرنا السيوطي،أن الناس راقبوا هلال العيد فما رأوا، فأتموا صيامهم، ثم كرروا المحاولة، فلم يروه أيضًاعلى الرغم من صفاء السماء في تلك الأيام، وكانت هذه الحادثة الأولى التي يحدث فيها عدم رؤية الهلال على الرغم من إتمام الشهر القمري السابق[٢].

وفي عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م، تعرضت منطقة جنزة لزلزال مدمر، وتحول مكان البلد بركة ماء لونه أسود كما يذكر ابن الجوزي، فربما أسفر الزلزال عن خروج نفط أسود، وأسفر عن مقتل مائتي ألف وثلاثين ألف نسمة[٣]، ويشك الباحث في هذا الرقم المبالغ فيه، لأن عدد السكان في العراق لم يكن به هذه الأعداد في المدن الصغيرة خاصة.

وتكررت زلزلة في العراق، وذلك في عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م، ويخبرنا ابن الجوزي أنها كانت عجيبة، وقد شعر بها وهو مضطجع على الفراش حتى اضطرب منها، ولم يخبرنا عن الخسائر المادية لهذه الزلزلة[٤].

وفي عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، تعرض العراق إلى زلزال مدمر،لم تسلم منه مدينة ولا قرية في عموم العراق، ولقداهتزت الأرض نحو عشر مرات، وقد نتج عن هذه الهزة، تدمير عدد من الممتلكات العامة للدولة، وذلك لقوة هذه الهزة،إلى جانب تأثر الاقتصاد بهذه الهزات، خاصة الأسواق[٥].

ولم تكن الزلزلة في العراق فقط، بل كانت في فارس أيضًا، فقد تأثرت مدينة حلوان، ومنطقة الجبال، وهلك عدد من السكان التركمان في هذه الهزة،إلى جانب تأثر المساكن والدور في هذه المناطق.

---

(١)نفس المصدر السابق، ص٢٩٦.
(٢)السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٤.
(٣)ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٩٨.
(٤)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٣٣.
(٥)نفس المصدر السابق، ص٧٢؛ انظر ايضا؛ شذور العقود، ص ٣٠٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، حدث في أيام عيد الفطر حدوث برق وصواعق ،ما أخاف الناس وخروا على وجوههم من هذه الأصوات،حتى يصف ابن الجوزي الأمر لهوله، وتزلزلت الأرض لصوته، وهذه عبارة مجازية عن القوة وليست فيها إشارة لزلزلة الأرض الفعلية[١].

وتكررت الزلازل في العام التالي أي في عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م،ويذكر ابن الأثير في حوادث تلك السنة[٢]، وتحديدًا في ذي الحجة، شهدت المدن العراقية، زلزلة، وامتدت إلى ما يجاور العراق، دون الإخبار عن الخسارة المدية أو الاقتصادية.

وفي ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، يذكر ابن الاثير أن زلازل حدثت في هذه السنة في بلاد العجم وماجاوره من المدن العراقية،وأدت إلى هدم الكثير من المساكن والدور، وموت العديد من سكان هذه المناطق وبلغت الهزة الأرضية ذروتها في الري وقزوين[٣].

ويذكر السيوطي في حوادث ٥٧٤هـ/١١٧٩م، تعرضت بغداد إلى ظاهرة غريبة وهي ظهور نار في السماء، جراء عاصفة، ربما لم تكن نارًا بالمعنى المتعارف عليه، بل صواعق وبرق كثيف أدى بدوره إلى هذه الظاهرة، ونتج عن ذلك كما يقول السيوطي: "استغاث الناس استغاثة شديدة"،وهو ما يدل على قوة هذه الصواعق[٤].

وفي عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، تعرضت بلاد الجزيرة والعراق لزلزال قوي أسفر عن خسائر مادية وكان من ضمنها تدمير جبانة عند مشهد أمير المؤمنين على في مدينة الكوفة[٥].

المبحث الثاني: الأمراض والأوبئة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية على العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

كانت الأمراض والأوبئة، من ثاني الكوارث الطبيعية التي لها آثار بعيدة على الاقتصاد، ولها الدور الرئيس في ظهور المحن والنكبات في أي أمة من الأمم في عموم التاريخ،فمن المعروف أن الأمراض ركن أساسي في هدم المجتمعات وضعفها، خاصة في مجتمعات العصور الوسطى، التي لم تكن تعرف الطب الوقائي، أي الحماية من الأمراض وتوقعها قبل الحدوث.

---

(١)ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٩٥.

(٢)ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤٠٢.

(٣)ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٧٨.

(٤)السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٢.

(٥)ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٨٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى الرغم من تفوق المسلمين في الطب، وتشخيص الأمراض، والبيطرة، وبناء البيمارستانات، وإجراء العمليات الجراحية، إلا أن تقنيات الطب عند المسلمين لم تكن بقدرتها مواجهة الوباء والمرض المعدي، والذي يحدث غالبًا بعد ظهور بعض الكوارث الطبيعية، فسرعة انتشار الأمراض، وتوطينها، وفتكها كانت أكبر من قدرة الطب على وقف عجلات الموت التي تنشره هذه الأمراض.

وقد عانى المجتمع الإسلامي من الأمراض المعدية والوباء، والطواعين المختلفة على مدار تاريخهم، فيما لا يمكن المجال لذكره في هذا المقام،حتى لا يختل ميزان المبحث المتخصص في أمراض وأوبئة بلاد العراق في المرحلة التاريخية التي نبحث في طياتها، لكن حري بالباحث أن يتحدث عن الأمراض عند المسلمين في إطارها العام من خلال نتائج البحث، وكيف نظر المجتمع الإسلامي إلى هذه الأمراض وكيف واجهها، وهل نجح بالفعل في هذه المواجهة أم لا، كل هذه أسئلة مشروعة في إطار نتائج البحث في هذا الفصل من الدراسة، وهو ما سنتحدث عنه في النهاية.

قبل الحديث عن الأمراض والأوبئة التي انتشرت في العراق،لا بد لنا أن نتعرف على أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الأمراض في تلك الفترة التاريخية:

- كان السبب الرئيس في ظهور تلك الأمراض، هي حدوث الكوارث البيئية، مثل الزلازل، والفيضانات، والسيول، وغيرها من تلك الكوارث التي ذكرناها في المبحث الأول، فمن خلال تتبع المصادر المعاصرة التي تحدثت عن هذه الكوارث، كنا نجد أن المرض يحدث بعد الانتهاء من تلك الكوارث كإحدى النتائج المدمرة على السكان، فالموت بالجملة من خلال تهدم المساكن والدور خلال الزلازل أو الفيضانات أو السيول، كان يسبب ظهور الوباء، بل كانت تتكون الجراثيم المدمرة في المياه الراكدة الناتجة عن الفيضانات والسيول بعد انحسارها، والتي كانت سببًا في ظهور بعض الأمراض والذي ينتشر بطريقة سريعة ويحصد الأرواح ولا مجال لوقفه أثناء الكارثة حتى ينحسر، لذلك كانت هذه الكوارث سببًا كبيرًا في حدوث الأمراض.

- هناك بعض الأمراض المعدية، والتي ظهرت في العراق بسبب المناخ والتقلبات الجوية، فالمصادر التاريخية تذكر على سبيل المثال بعض التقلبات الجوية مثل الانتقال من الحرارة إلى البرودة، أو العكس، وبطريقة مفاجئة،ما يؤدي إلى ظهور الحميات، والتي كانت في الأغلب معدية، بل كان الأخطر في التقلبات الجوية هو تكوين بيئة مثالية لتكوين هذه الأمراض، فهناك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

علاقة قوية بين الحميات والمناخ، فهناك بعض المناطق العراقية عانت من تلك الحميات بسبب طبيعة جوها مثل المنطقة الواقعة بين البصرة وفارس، التي تعاني من حر شديد أو منطقة البطائح، الذي يعاني سكانها بظهور بثور كالإبر في نحورهم وتكون سببًا في الحمي المعدية، والتي قال عنها المقدسي "أما البطائح فنعوذ بالله منها، فمن شاهدها في الصيف، يري العجب"[١]ثم وصف مرض الحميات أنه يبدأ ببثور كالإبرة كما وصفنا آنفًا،أما بغداد وواسط، ومنطقة وسط العراق، مناخها متقلب عمومًا وكان سببًا في ظهور تلك الحميات أيضًا.

- كانت المناطق العراقية تعاني من بعض الأمراض الموسمية، أي التي تحدث في بعض الشهور من السنة، فتتحدث بعض المصادر عن وجود بعض الأمراض في شهر أكتوبر ونوفمبر وقد تمتد إلى يناير، أي في فصل الخريف وجزء من فصل الشتاء، وهذه الأمراض كانت تواجه عن طريق الفصد وإخراج الدم الفاسد، كما سنوضح في نقطة طرق مواجهة تلك الأمراض، وقد أخبرنا ابن الجوزي ومسكويه وابن كثير عن تلك الأمراض وسنعرضها لاحقًا في السرد التفصيلي لهذه الأمراض.

- انتقال بعض الأمراض من الحيوانات إلى الإنسان،إذ تعرضت المدن العراقية إلى بعض الكوارث وكان السبب فيها هو الحيوانات،إذ تعرضت بعض الحيوانات إلى الوباء والمرض، وكان الناس يرمون هذه الحيوانات النافقة في مياه الأنهار، بل هناك بعض المجاعات التي أكل فيها الناس الميتة والسنانير والكلاب في الطرقات،ما أدى بدوره إلىانتشار الوباء، والذي أطلقت عليه المصادر "الموتان" إذ انتشر الموت في الحيوانات والبشر على السواء[٢]،وتسبب بدوره في ظهور المجاعات، وذلك بسبب الخسائر الاقتصادية لا سيما في الثروة الحيوانية في القرى الزراعية، وهو ما سنورده بالتفصيل خلال السرد التاريخي لهذه الأمراض.

- كانت للجراثيم والبيكتيريا المدمرة والحشرات دور في ظهور بعض الأمراض، فمرض الجدري، والسل، والسرسام، والديفنتاريا المعروف في بعض المصادر بالخوانيق، وظهور بعض الحشرات كالذباب والبراغيث والتي كانت بغداد على سبيل المثال تعاني منها في بعض الفترات كما يوضح ابن الفقيه في مصنفه "مختصر البلدان" وغيرها يزيد من تفاقم الأزمة وكثرة انتشار

---

(١)المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٢٥.

(٢)سنجد من خلال السرد التفصيلي، تفاصيل مهمة عن هلاك الحيوانات والثروة الحيوانية في القرى لا سيما في مناطق السواد، وكانت الأوبئة فيما تسميه المصادر الموتان هي أشدها على الإطلاق ومن أشهر من تحدث عن تلك الأمراض ابن الجوزي في منتظمه كما سيتبين من خلال العرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمراض، وظهور الطواعين القاتلة، التي كانت حيوانية المنشأ[1]، أي أن الفئران كانت الناقل لها ومعها بالطبع البراغيث.

- التلوث الهوائي والمائي كانا سببًافي انتشار الأوبئة،إذ كان فساد الهواء والماء الذي يعقب الكوارث الطبيعية عاملًا كبيرًا في ظهور الوباء، بل الهواء الناتج أيضًا عن المذنبات والشهب التي كانت تتساقط على العراق والتي أفردنا لها نقطة بحثية كاملة في المبحث السابق، كان سببًا في تغير الهواء ومن ثم ظهور الوباء والمرض، أما بالنسبة لتلوث الماء، فكان سببًا في تكوين البيكتريا الخاصة بالحمي الصفراء "الكوليرا"، وكان شرب الماء الآسن سببًا أيضًا في ظهور المرض.

- وعلى ذكر التلوث، فيوجد أيضا تلوث التربة، والذي كان الجفاف والقحط والجدب الذي تعرضت إليه المدن والمناطق العراقية، سببًا فيه، فعدم سقوط الأمطار،كان يصيب الأراضي الزراعية بالتصحر، وكانت الرياح القوية تنقل الرمال من الصحاري المجاورة إلى الأراضي الزراعية، بل كانت تنقل المواد المسمومة في التربة الناتجة عن الزلازل على سبيل المثال إلى مناطق أخرى غير متضررة، فتكون سببًا في ظهور الوباء فيها.

- سوء تغذية الأطفال وقلة مناعتهم زادت من الأزمة خلال بعض الأوبئة، فقد كانت الضحية الأولى والتي كانت تموت بسهولة خلال انتشار المرض، كانوا الأطفال بسبب قلة التغذية عند بعض الطبقات، لا سيما العامة، لذلك كانت بعض الأمراض كالجدري على سبيل المثال يحصد أرواح الأطفال الفقراء في القرى والأحياء الفقيرة في المدن،والذي كان طعامهم رخيصًا لكنه لا يسد جوعًا ولا يقوي جسدًا، فقد كان الفقراء جُل طعامهم من البقوليات والخبز المنقوع في ماء الباذنجان، والدبس والخل، والخبز المصنوع من الحنطة والشعير[2]، أما لحوم الطيور والحيوانات،فلم تجد طريقًاإلى معدة الفقير،وبالطبع لم يكن سوء التغذية تأثيرًاعلى الأطفال فقط بل الكبار، لا سيما كبار السن، فقد أدى غلاء الأسعار في بعض السنوات،إلى أكل الناس ما يضر صحتهم، وأدى سوء التغذية هذا بدوره إلىانتشار الأمراض المعدية التي كانوا هم ضحيتها الأولى والأخيرة.

---

[1] ابو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق (ابن الفقيه)، مختصر البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢١٥.

[2] جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد من بداية القرن السادس حتى سقوط بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ٢٠٠٦م، ص٢٩٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كان للدور البشري عاملًا قويًا في ظهور الأمراض وانتشارها في عموم العراق خلال تلك الفترة،إذ كانت عدم المعرفة الطبية الوقائية، وعجز الحكومات في نشر الأدوية الوقائية سببًا في تفاقم الأزمة، بل كان على الأطباء المعالجين دورًا في ذلك من خلال استخدام الأدوات البدائية مثل الفصد وإخراج الدم من ذراع المريض، وهذا كان علاجًا بدائيًا زاد من تفاقم الأزمة،بل توجد إشارات على إهمال الحكومة في بعض الجوائح، لعدم اتخاذ تدابير ومنها الحجر الصحي، وكل هذه المظاهر في طرق المواجهة وهو ما سنناقشه تفصيليًا بعد قليل.

أهم الأمراض والأوبئة التي ضربت العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

- **الأمراض المعدية والأوبئة:**

قبل السرد التأريخي لانتشار الأمراض، حري بالباحث ذكر ماهي الأمراض التي شهدتها المدن العراقية في تلك الفترة،حتى يسهل علينا حصرها في تواريخ محددة، وماهي خطورتها على السكان، فتقسيم تلك الأمراض سيوضح الصورة كاملة في خطورة تلك الأزمة وما فعلته في المجتمع من كوارث تالية، سيأتي ذكرها كنتيجة لعملية الرصد والسرد.

أما عن الأمراض، فتنقسم إلىأمراض معدية تنتقل عن طريق العدوى المباشرة، عن طريق الجهاز التنفسي للإنسان،أو عن طريق انتشار الجراثيم الحاملة للمرض،أو القوارض مثل الجرذان، التي كانت سببًارئيسًا في ظهور الطواعين،إذ تصاب هذه القوارض، بالبراغيث الحاملة لبيكتريا عضوية تسمى "Pasteurella Pests"[(١)]، وتنقسم الطواعين بدورها إلى عدة أنواع مثل الطاعون الورمي الدملي، الذي يظهر عن طريق بعض البثور في الجلد حاملة بالبيكتريا العضوية المسببة للمرض،والطاعون الرئوي الذي ينتقل عن طريق الجهاز التنفسي للمريض، وتتكون الحاضنة الخاصة للمرض في الجسم بسرعة ويموت الإنسان بعدها في خلال أربعة أيام على الأكثر، وهناك الطاعون التسممي، والذي كان مضاعفات للنوع الأول والثاني[(٢)].

ويقسم بعض الباحثين الفرق بين الطاعون والوباء، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون، لأن الوباء أشمل وأعم، وقد يكون مجموعة من الأمراض متشابهة في الأعراض، ليست طواعين بالضرورة، لكنها سوف تكون في هذه الحالة خطرة على المجتمع[(٣)].

---

(١)انظر؛ طه حسين عبد العال، الكوارث الطبيعية في بلاد العراق وفارس إبان العصرين البويهي والسلجوقي، رسالة دكتوراه غير منشورة، عين شمس، القاهرة، ٢٠١٠ م، ص١٢٣.

(٢) larry.p.pedlgo,Entomology and pest management , prentice Hall.New Deihi,2002,pp129.

(٣)طه حسين عبد العال، الكوارث الطبيعية، ص١٢٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يكن الطاعون فقط ما أصاب العراق، بل كانت هناك بعض الأمراض المعدية منتشرة عن طريق العدوى كمرض الجدري، الذي عانت منه بعض المدن العراقية، في بعض الفترات، وكان الجدري عبارة عن مرض فيروسي، تتسبب فيه بعض الفيروسات التي تصيب الإنسان عن طريق العدوى، وكانت نسبة الوفيات كبيرة، لا سيما الأطفال وكبار السن(١).

وهناك بعض الأمراض الجلدية كالجرب، وغيرها، وكانت تنتقل عن طريق العدوى باستخدام الأردية والأغطية الخاصة، وكانت هذه الأمراض تؤدي إلى نسبة وفيات كبيرة في صفوف الأطفال خاصة(٢).

وكانت العدوى هي الطريق الوحيد للانتشار، وهنا يأتي دور الأفراد والمجتمع في وقف العدوى، لقد كانت العادات السيئة للإنسان العراقي سببًا في العدوى، فعلى الرغم من النظافة التي كانت تتباهي بها بغداد وغيرها من المدن العراقية في ذلك الوقت، إلا أن عادات أخرى مثل الشرب من كوب واحد،أو استخدام الأشياء الخاصة مثل المناشف أو الأغطية داخل الحمامات، كانت تحدث كثيرًا لذلك كانت سببًا في العدوى، وبالتالي لظهور الوباء والطاعون(٣).

كان هذا عرضًا لأهم الأمراض التي تنتقل عن طريق العدوى، والتي أصابت المجتمع العراقي وحققت خسائر كبيرة بشرية ومادية.

ومن خلال النتائج الأخيرة سنتوسع في تلك النقطة الخاصة بالجهود الفردية والمجتمعية في طرق المواجهة في نهاية العرض التاريخي لهذا الفصل.

- **الطواعين:**

كانت أولى الإشارات التي تحدثت في المصادر عن الوباء والمرض الذي انتشر في العراق، كانت عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وهي السنة التي دخل فيها بني بويه بغداد وابتدأت دولتهم،إذ تزامنت تلك الأزمة السياسية والحربية، مع ظهور وباء، كان السبب فيه المجاعة وغلاء السعر، ونقص الغلات،ما أدىإلى أكل الناس للكلاب والميتة والسنانير(٤)، ما أدىإلى ظهور أورام في بطونهم، وحصد الموت أرواحهم بالجملة،حتى عجز الناس عن دفن مواتاهم،وباع الناس منازلهم مقابل الرغيف من الخبز،واضطر بعض أهالي بغداد إلى مغادرة المدينة متجهين إلى البصرة، لكنهم

---

(١)نفس المرجع السابق، ص١٤٦.

(٢)نفسه، ص١٥٠.

(٣) نفسه، ص١٥٠.

(٤)ابن الجوزي، ج١٤، ص٤٧؛ شذور العقود، ص٢١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢١٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماتوا في الطريق، ولم تنته هذه الأزمة والوباء، إلا بعدانتهاء المجاعة بدخول غلات جديدة إلى بغداد وعموم العراق[1].

وفي عام ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م، شهدت مناطق الأهواز وبغداد وواسط والبصرة، وباءً كبيرًا،إذ تتحدث المصادر عن "علة مركبة من الدم والصفراء"[2] وبدأظهور المرض في فارس ثم انتقل إلى العراق، وكان حجم الخسائر البشرية فادحًا، فتتحدث الأرقام عن مقتل من سبعة آلاف نسمة إلى اثني عشر ألف نسمة في مدينة البصرة وحدها، أما في بغداد وواسط فقد كان يدفن كل يوم ما بين ألف وألف ومئتين نسمة، وإن صحت تلك الأرقام، فهو يدل على ضخامة حجم هذا الوباء الذي استمر إلى عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م[3].

وفي عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م، أصاب العراق وباء جديد، فيذكر ابن الجوزي، مثالين علىانتشار المرض في تلك السنة، أن لصًا أصابه الوباء فمات على الفور أثناء سرقته لمنزل كان أصابه المرض في السنة الماضية[4]، وهذا من الممكن تفسيره أن الوباء كان متواجدًا في أرجاء بغداد، وما يزال فاعلًا في قتل الناس،إذ نجد في ذات النص عند ابن الجوزي، أن إسماعيل القاضي مات فجأة جراء ذلك الوباء أثناء ذهابه إلى الجامع لأداء مهام عمله القضائي.

وفي عام ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م، أصاب الناس وباء آخر كسابقيه، وكان مقترنًا بالموت المفاجئ، ولكن المصادر سكتت عن الخسائر البشرية جراء تلك الجائحة[5].

ونجد في الأعوام ٣٧٧هـ- ٣٧٨هـ/ ٩٨٧م- ٩٨٨م، تكرار لظهور الوباء والطاعون،إذ ضرب العراق لا سيما البصرة والبطائح فهلك عدد كبير من السكان، وتتحدث المصادر عن عجز الحفارون عن حفر القبور لكثرة الموتى[6].

ظاهرة أخرىلا بد من ذكرها أن الطاعون والوباء لم يكن متوطنًا في العراق فحسب، بل كان يأتي من الخارج، خاصة المناطق الشرقية الآسيوية، فعلى سبيل المثال كان الطاعون الكبير في عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م، الذي اجتاح الهند ثم وصل إلى غزنة في أفغانستان الحالية، ثم انتقل إلى

---

(١)ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٤٧.
(٢)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٩٣.
(٣)ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٢٢؛ انظر أيضا، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٩٣.
(٤)ابن الجوزي، المصدر السابق، ص١٠٩ و١١٠.
(٥)ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٤.
(٦)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٢٣؛ شذور العقود، ٢٣٣؛ انظر أيضا ابن كثير، المصدر السابق، ص٣٢٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فارس حيث خراسان وجرجان والري وأصبهان، وقد وصل إلى العراق في نفس العام،إذ كانت بغداد آخر محطات رحلة الطاعون، وقد حصد من سكانها الكثير[١].

تكرر الأمر في عام ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م،إذ شهدت مدينة شيراز الفارسية طاعونًا كبيرًا لا يقل خطورة عن الطاعون الذي سبقه آنفًا، وقد زاد هذا الطاعون ، وخرج خارج حدود فارس غربًاإلى العراق،إذ تضررت منه الأهواز وواسط والبصرة ثم بغداد، وقد ذكر المؤرخون أعدادًا كبيرة من قتلى هذا الطاعون يقدرها ابن حجر على سبيل المثال بسبعين ألف نسمة[٢].

وتعرضت مدينة الموصل إلى طاعون جديد في عام ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م،وأدى بدوره إلى خسارة بشرية كبيرة، وقد انتقل الطاعون من الموصل إلى الجزيرة، وأيضًا بغداد،إذ تذكر بعض المصادر ، خسائر كبيرة في الارواح، قد تكون مبالغة كبيرة في عدد المتوفين بالمرض، إلا أنها تدل على حجم الكارثة بطبيعة الحال، وقد استمر هذا الطاعون إلى العام التالي ٤٤٠هـ/ ١٠٤٤م،إذأنتقل من العراق إلى الشام ومصر[٣].

ونصل إلى عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م،إذ ضرب العراق طاعون جديد وكالعادة كان وباء من خارج العراق ثم انتقل إليه،بدأ في أذربيجان ثم انتقل إلى الأهواز ومنها إلى البصرة وواسط، واستوطن الوباء في تلك الديار حتى هلك الكثير من الناس، وتزامن هذا الطاعون مع وجود مجاعة كبيرة في تلك السنة[٤].

ومن خلال تتبع المصادر نجد أن السنوات التالية لعام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م كانت الطواعين والأوبئة على أشدها،إذأتت هذه الطواعين على أكثر أهل المدن التي ضربتها، واستولى الخراب، وكان هذا الوباء يصاحبه أعراض كظهور الأورام في الجلد عبارة عن قروح سوداء، وانتشار الأورام تلك في الطحال والمعدة،وقد ساعدت العوامل المناخيةعلى زيادة الوباء بسبب الحر الشديد، وفساد الهواء، وقد استمر هذا الوباء إلى عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م[٥]، وشمل مناطق بغداد والموصل والديار الجزرية وديار بكر ومضر وربيعة،إلى جانب فارس والشام.وقد تبع هذا الوباء، طاعون آخر في عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م[٦].

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٣٠.
(٢)ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٥، ص٢٤٢.
(٣)ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٨٦.
(٤)ابن الجوزي،المصدر السابق، ص٢٣٠.
(٥)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٨٨.
(٦)نفس المصدر السابق، ص١٠٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م، انتشر في بعض المناطق وباء كبير هلك فيه آلاف الأشخاص، في منطقة الرحبة، والطريق الواصل لخراسان، وعكبرا، وواسط، والبصرة، وانتهى أمره في خوزستان[١].

ومن العجيب في الأمر أن هذا الوباء تزامن مع كارثتين وهما نقصان نهر دجلة ما أدىإلى القحط والجدب وبالتالي أزمةاقتصادية وغلاء للأسعار، والثانيةانتشار الجراد الذي أتىعلىالمحاصيل الزراعية في تلك السنة ما أدىإلىاشتداد المحنة[٢].

وفي عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، انتشرت الكثير من الأمراض الوبائية، في بغداد وواسط، وباقي قرى السواد، وكثر الموت في تلك البقاع، وقد صادف هذا الوباء موسم حصاد الغلال في السواد، وقد تأثر موسم الغلال وحصاده بذلك الوباء، لدرجة أنهم لم يجدوا من يجمع الغلال ويخزنه[٣].

وفي عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م اجتاح بغداد ونواحيها، طاعون قاتل، وقد شخص الأطباء المرض علىأنه الصفراء،والتي تصيب الشخص بالرعدة الشديدة، والصداع، ثم الموت بعد ذلك بخمسة أيامكمضاعفات لهذا المرض[٤].

ويبدو أن تلك الجائحة كانت كبيرة،إذ مات العديد من السكان وامتلأت القبور،إذ تقدر المصادر بمقتل حوالي عشرين ألف نسمة بسبب هذا الوباء، وقد أدى هذا الوباء إلى حدوث طوارئ في بغداد،إذ قام الخليفة المقتدي باللهبتوزيع الدواء على المرضى في محاولة لوقف هذا الوباء، وقام المارستان بتوزيع الأدوية مجانًا، وإعطاء تعويضات مالية للمتضررين.

وقد ترك هذا الطاعون المدمر وضعًا سيئًا من الناحية السكانية، فقد نقص عدد سكان بغداد والمدن المتضررة، وترك آثارًااجتماعية، ومنها كثرة الأيتام،إذ يذكر ابن الجوزي على سبيل المثال أن طفلة كانت توجد على باب بيتها وهي تقول "من يغتنم ويأخذني" في محاولة لأخذها لإحدى الأسر وتبنيها بسبب موت جميع أسرتها[٥].

من الآثار الاجتماعية الظاهرة أيضًا هو الموت بالجملة، فتذكر المصادر أن الموتى كانوا في الطرقات دون دفن لأيام، وهو ما يزيد من الأزمة، وموت أهل درب كامل بجميع سكانه،ما يحتم

---

(١)ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٩.

(٢)ابن الجوزي، المصدر السابق، ص١٦٧.

(٣) نفس المصدر السابق، ص١٨٣ و١٨٤.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٤٠ وما يليها؛ ويعدد ابن كثير الخسائر المادية خاصة في الثروة الحيوانية إذ عزّت الألبان واللحم في تلك السنة؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٦.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٥، ص٢٤٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قفل ذلك الدرب وسد بابه على الموتى فيه، وهو ما يدل على حصاد الأرواح في مثل هذه الأوبئة.

وفي حوادث سنوات ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م و٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م انتشار للأمراض المعدية، وذكرت المصادر أن الأمراض انتشرت في فصل الربيع وارتفعت درجة قوتها في فصل الصيف، وهو ما يبين أن للعوامل الجوية تأثيرها في انتشار الأمراض،إلى جانب عدم سقوط الأمطار، وموجات الجفاف التي تزامنت مع ظهور تلك الأمراض[١].

وقد تكررت ظهور الأمراض المعدية والطواعين إذ تخبرنا حوادث ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، بوجود طاعون منتشر في أرجاء فارس والعراق، ولم تخبرنا المصادر عن الخسائر البشرية،على الرغم من وجود إشارات لكثرة الموت الفجأة وظهور أمراض معدية أخرى منتشرة لدرجة منعت السلطان السلجوقي مسعود من مغادرة بغداد خوفًا على حياته[٢].

تكرر الوباء والطاعون أيضًا في عامين متتاليين في عام ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م، ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م[٣]، إذانتشر الطاعون في أرجاء العراق، وقد وصف ابن كثير هذا الوباء أنه فناء شديد، وجهد جهيد، فمات خلق كثير بهذا، وكانت بغداد المدينة الأكثر تضررًا، لأنها الأكثر سكانًا في كل المدن العراقية.

- **الحميات:**

وتعتبر ثاني الأمراض المعدية التي أدت إلى هلاك سكان العراق، وفي الأغلب كانت الحميات نتيجة للوباء والطاعون أو مكملة لها علىأي حال،إذ كانت تعتبر المرض الثاني الأكثر انتشارًا بعد الطاعون والوباء، ويعتبر بالمعنى الطبي ليس مرضًا واحدًابل عدة أمراض فيروسية معدية تنتقل عن طريق الجهاز التنفسي للإنسان، وتؤدي بدورها إلى ارتفاع درجة حرارة الجسم، وقد تؤدي إلى الوفاة حسب شدتها[٤].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٤.
(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٥، ص٣٢٣.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٨٦ و٢٩٦ و٢٩٧.
(٤) طه حسين عبد العال، الكوارث الطبيعية، ص١٥١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان السبب الرئيس لانتشار الحميات؛ المناخ وتقلباته،إذ كان المناخ من الأسباب إلى تؤثر على الجهاز التنفسي للإنسان بعدة فيروسات قد تتحور إلى فيروسات خطيرة، ومن ثم معدية، وتؤدي بدورها إلى الحمى القاتلة[١].

ونجد أن أول إشارات لوجود الحمى وانتشارها بين السكان كان في عام ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م[٢]، إذانتشرت أمراض الحلق واستمرت هذه الأمراض إلى حين وكانت تؤدي إلى الحمى، كذلك في عام ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م،انتشرت عدة أمراض معدية أدت بدورها إلى حمى شديدة انتشرت بين السكان ما أدىإلى كثرة الموت[٣].

وكان من ضمن الشخصيات التي تأثرت بالحمى، السلطان أبو كاليجار البويهي، والسلطان السلجوقي ملكشاه، الذي مات إثر حمىانتشرت في جسده وذلك في عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م[٤].

- **الخوانيق:**

وكانت الخوانيق من أمراض العصر آنذاك،إذ يصفها ابن سينا بأنه مرض فيروسي يصيب الحلق والبلعوم واللوزتين[٥]، ومن ضمنه مرض الديفيتيريا، وكانت أول الإشارات لإصابة السكان به في عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م،إذ ذكر مسكويه أن الناس أصابها خوانيق في الحلق، وقد أدىإلى كثرة الموت في هذه السنة[٦].

وفي عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م،انتشرت الخوانيق في العراق وفارس،إذ مات كثير من السكان بسببه بطريقة لا تقل عن الطاعون المعدي، وأطلق على هذا الداء، داء الماشري[٧]، وقد توفي السلطان مؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهي بسبب هذه الخوانيق عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م[٨].

يذكر ابن الجوزي في حوادث عام ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م، أن مدينة بغداد تعرضت إلى أمراض الخوانيق، وقد انتقل المرض إلى الموصل ونواحيها، وتقول المصادر إن الخسائر البشرية وصلت

---

(١) نفس المرجع السابق، ص١٥٢.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٩٢.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣١٧.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٠٠.
(٥) ابن سينا، القانون في الطب، ص٢٨٧.
(٦) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٣١٩.
(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٤٧.
(٨) نفس المصدر السابق، ص٣١٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى سبعين ألف نسمة[1]، ويشك الباحث في هذا العدد، ولكنه يدل على خطورة هذا المرض المعدي.

وتذكر المصادر أن المرض لم يفرق بين العامة والطبقات الأخرى،إذ تشير إلى أن الخليفة القائم بأمر الله مرض بالخوانيق، وتوفي إثر ذلك عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م[٢]، وكذلك وفاة الخليفة المستظهر بالله عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م بنفس المرض الذي انتشر في نفس العام في بغداد[٣]، وأيضًا وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م الذي مات بعلة الخوانيق[٤].

- **علة مركبة من الدم والصفراء:**

وتعتبر من الأمراض الفيروسية المعدية التي تؤدي بدورها إلى وباء يحصد الأرواح،إذ نجد أن هذا المرض انتشر في منطقة الأهواز ثم انتقل إلى البصرة وواسط وبغداد، وتذكر المصادر أن انتشاره أدىإلى موت أسر كثيرة ودفنوا في بيوتهم حتى لا ينتشر المرضففي عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م[٥]، انتشر هذا المرض،إذ ظهر في البصرة وواسط وبغداد ثم الأهواز وأصفهان من بلاد فارس، وكان المرض شديدًا في البصرة،إذ مات عدد كبير من السكان في ذلك الوباء.

- **الجدري:**

ويعتبر من أهم وأخطر الامراض الفيروسية، والتي انتشرت في العراق،إذاقترن ظهوره بظهور الطواعين، وكانت أعراضه مقترنة بالحممنارتفاع درجة حرارة الجسم والصداع وآلام الظهر وغيرها من الأعراض مثل الطفح الجلدي، وكانت معدلات الوفيات مرتفعة بهذا المرض،وكان المناخ سببًارئيسًا في ظهور الجدري وانتشاره بين المدن العراقية،إذ كان ينتشر في أغلب شهور الصيف، ومن أهم السنوات التي ظهر فيها الجدري كوباء مقترنًا بالطاعون، سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م،إذ ظهر في الموصل وبلاد الجبل وانتقل إلى بغداد، وقد أدى هذا الوباء إلى قتل الرجال والنساء والصبيان[٦]، إذ تم إحصاء أربعة آلاف صبي مصابين بهذا المرض، وهذا رقم منطقي، وذلك إذا عرفنا أن الوقاية كانت غير فعالة مع سوء التغذية كما أشرنا آنفًا بالنسبة للأطفال وهو ما يقلل المناعة ويزيد من فرص انتقال المرض إليهم.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٤٢.

(٢) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٧١.

(٣) نفس المصدر السابق، ص٢٨٧؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٥٩.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٣٨.

(٥)ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٢٢؛ انظر أيضا؛ المنتظم، ج١٤، ص٩٨.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٤، ص٢٣٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد تعرضت بغداد في بعض السنوات لوباء الجدري ما أثر في سكانها سواء بالمرض أو الموت، ونذكر أهم السنوات الذي انتشر فيها هذا المرض مثل، ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م[١]، وقد شاع الجدري في الأطفال والكبار على السواء، وكذلك في ٥٠٨هـ/١١١٤م[٢]، إذ أصيب عدد كبير من الأطفال جراء المرض، ومات عدد كبير منهم في بغداد، ومن ضمنهم إسحاق إبراهيم ابن الخليفة المستظهر بالله من زوجته عصمة خاتون بنت ملكشاه السلطان السلجوقي وكذلك في عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م[٣]، انتشر في بغداد ونواحيها هذا المرض، وقتل العديد من السكان سواء الصغار والكبار.

- **السرسام والبرسامية:**

وهذه التسمية كانت من بنات أفكار الأطباء والعلماء المسلمين الذين اكتشفوا هذا المرض القاتل، وهي تسميات فارسية للمرض،إذ يبين الخوارزمي في مصنفه مفاتيح العلوم أن السرسام هو الورم الذي يصيب أي منطقة في جسم الإنسان[٤]، ويسبب حمى تؤدي إلى الوفاة، أما البرسام والذي يعني المرض الذي يصيب الكبد والقلب ويؤدي إلى الموت، ولعل هذه الأمراض تتشابه مع أمراض حديثة كالسرطان والالتهاب الكبدي الفيروسي، ولكن الوقاية غير السليمة، والأخطاء السلوكية الطبية للإنسان العراقي في العصور الوسطى أدت إلى تفشي هذه الأمراض بطريقة وبائية كما تذكر المصادر التي تحدثت عن انتشار هذا المرض.

وقد ذكرت بعض المصادر انتشار السرسام والبرسامية في العراق عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، ولم تذكر حجم الضحايا، غير أن الناس عانوا من شدة المرض والوباء[٥].

وتجدد الأمر في عامي ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م، ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م إذ ظهر هذا المرض، ومات بسببه عدد كبير من سكان المدن العراقية[٦].

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٧.
(٢) تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب (ابن الساعي)، نساء الخلفاء والمسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، د ت، ص١٠٨.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٨.
(٤) محمد بن أحمد بن يوسف (الخوارزمي)، مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ص١٨٦.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٢٥؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٧٢.
(٦) ابن كثير، المصدر السابق، ص٢٨٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى جانب هذا المرض ظهرت أمراض أخرى كالجرب؛ إذ كان من الأمراض المعدية التي تأثر بها السكان،إذ كان ينتقل عن طريق الملامسة، أو استخدام الأردية والأغطية الملوثة، وقد مات به عدد كبير من الصبية الأطفال، بسبب قلة مناعتهم، وذلك في عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م(١).

- **أمراض أصابت الحيوانات والماشية:**

من ضمن قائمة الأمراض الوبائية التي تسببت في إنهاك الحياة الاقتصادية للعراق، هي أمراض وبائية أصابت الحيوانات لا سيما الماشية والخيول والتي كانت تعتبر جزء من الاقتصاد العراقي في العصرين البويهي والسلجوقي.

فتشير المصادر المختلفة إلى إصابة الثروة الحيوانية في العراق بالوباءات المختلفة والتي أدت إلى موت الحيوانات بالجملة،ففي عام ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م تعرضت البلاد العراقية إلى وباء طال الخيول، وامتلأت الطرقات بالجيف النافقة، وقدرت الخسائر بموت اثني عشر ألف فرس، ومن المعروف أن الخيول كانت عماد الجيوش في هذا العصر، وهو ما جعل الخسارة الاقتصادية فادحة(٢).

وفي عام ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م، تعرضت العراق لوباء آخر أطلق عليه الموتان، وقد أصاب الماشية والخيول على السواء، ومن الواضح أن الوباء هذا كان ممتدًا للوباء السابق، بل يعتبر هو نفس الوباء بعد تحور الفيروسات فيما يبدو لتصبح أشد فتكًا، فعملية رمي الخيول النافقة في الطرقات، وفي حواف نهر دجلة أدت إلىانتقال المرض إلى الحيوانات الأخرى وإلى السكان أيضًا، عن طريق مياه الشرب، والهواء الفاسد الناقل لهذه الفيروسات، لذلك أطلق ابن الجوزي عليه بالموتان لأنه أصاب الحيوانات والناس على السواء(٣).

علىأي حال؛ كان الضرر الاقتصادي كبيرًا للغاية لهذا الوباء،إذ مات كثير من الماشية، ولم تفلح أدوية الأطباء البيطريين للماشية،إذ كانوا يستخدمون ماء الشعير في العلاج، ووصلت الخسائر إلى موت مئة رأس من الماشية في اليوم الواحد، ما يدل على اشتداد الضائقة الاقتصادية في هذه السنوات.

---

(١) طه حسين عبد العال، الكوارث الطبيعية، ص١٥٠.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٠٢ و٣٠٣.

(٣) نفسه، ص٣٠٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم ينته هذا الوباء فيما يبدو،إذ يذكر ابن كثير،أن الوباء انتقل إلى السكان، وقتل عددًا كبيرًا من السكان،إذ أورد نصًا مفاده أن أربعمئة شخص فقط هم من شهدوا صلاة الجمعة في مدينة بغداد[١]، وأن عدد أهل الذمة وصل إلى مئة وعشرين، ولكن الباحث يشكك في مثل هذه الأرقام المبالغ فيها.

وقد تأثرت الحالة الاقتصادية تأثرًا كثيرًا بهذا الوباء، وخلت الأسواق من المواد الغذائية التي يحتاجها الناس جراء هذه الحالة[٢].

وقد استمرت الأمراض التي تصيب الحيوانات، وشكلت خطرًاعلى الحالة الاقتصادية العراقية،إذ نجد أن عام ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م[٣]شهد وباء اجتاح الخيل والبغال، وكان عبارة عن انتفاخ في عين الحيوان، وكانت النتائج المباشرة لهذا الوباء، نقص حاد في الثروة الحيوانية.

وقد تكرر هذا الوباء في عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م في العراق، وقد أثر في عمليات الصيد وعلى الثروة الحيوانية[٤]، أما وباء عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م، فكان قويًا لدرجة أن الثروة الحيوانية نقصت في تلك السنة نقصانًا حادًاأدىإلى غلاء الأسعار، وندرة وجود اللحم في الأسواق[٥].

وقد تعرضت العراق وفارس أيضًا إلى وباء صاحبه موت للحيوانات المفترسة،إلى جانب الماشية والدواب، وذلك في عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، وقد نتج عن هذا الوباء خسائر كبيرة في القطاع الحيواني[٦].

وفي عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، أصاب الجمال مرض،أدىإلى خسائر كبيرة في صفوفهم،إذ قدرت الخسائر بمئة ألف جمل[٧]، ما أثر على الثروة الحيوانية، وأدىإلى خسارة اقتصادية كبيرة سواء في قطاع الثروة الحيوانية أو في النقل التجاري،إذ كان يستخدم التجار الجمال في القوافل التجارية بين العراق والبلدان الأخرى.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٦و١٠٧.
(٢) نفس المصدر السابق، ص١٠٦.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٦٢.
(٤) نفس المصدر السابق، ص١٠٢.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ١٨١.
(٦) نفس المصدر السابق، ص٢١٦.
(٧) عماد الدين الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م ، ص٤٥٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثالث: المجاعات وغلاء الأسعار في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

قبل الدخول إلى هذا المبحث،لا بد من إيضاح بعض النقاط المهمة التي ستكون هديًا للباحث في هذا المبحث،إذ كانت المجاعات وغلاء الأسعار في العراق خلال المرحلة التاريخية مناط البحث، نتيجة حتمية لانتشار الأمراض والأوبئة، أو ظهور الكوارث الطبيعية، وما نتج عنها من كوارث اقتصادية أدت بدورها إلى ظهور غلاء الأسعار مقترنًا بهذه الكوارث الطبيعية،أو انتشار الجوع بين الفقراء، وما نتج عنه في تغيير التركيبة الاجتماعية للعراق خلال العصرين مناط البحث.

أما النقطة التالية التي سيبرزها الباحث هو مفهوم الجوع، وتأثيره الاجتماعي والاقتصادي، بل والسياسي، من خلال إبراز المفهوم، وتدعيمه من خلال السرد الحولي للمجاعات التي ظهرت في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على المجتمع، وإبراز دورها أنها كانت إحدى المحن والأزمات التي عانت منها العراق خلال هذه المرحلة التاريخية.

ويمكن تقسيم هذا المبحث إلى نقاط ثلاث وهم:

- **مفهوم الجوع.**
- **أسباب المجاعات التي ظهرت في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي.** - **سرد حولي لتاريخ المجاعات التي ظهرت خلال العصرين.**

- **مفهوم الجوع اللغوي والاصطلاحي:**

الجوع في المعاجم العربية مضاد للشبع[١]، والكلمة لها مشتقات كثيرة بنفس المعنى مثل جائعة، مجاعة، جياع[٢]، وهي كلمات تعبر عن النتيجة الحتمية لمفهوم الجوع، ومن ضمنها كلمة المجاعة، وهي الكلمة المستخدمة علىأي حال في هذا المبحث.

وتأتي كلمة الجوع في المعجم الوسيط ومختار الصحاح على السواء،بمعنى خلو المعدة من الطعام[٣]، وهذا على المستوى الفردي،أو عن مستوى المجتمعات، فتأتي كلمة المجاعة أشمل وأعم، عام الجدب والقحط ونقصان المحاصيل الزراعية مما يؤدي بدوره إلى الجوع.

---

(١) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة جوع، ص٣١١؛ المعجم الوسيط، ص١٤٧.
(٢) الفيروزآبادي، نفس المصدر السابق، ص٣١١؛ المعجم الوسيط، ص١٤٧.
(٣) الرازي، مختار الصحاح، ص٤٩؛ انظر أيضا، المعجم الوسيط، ص١٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعند المقريزي في كتابه الأهم إغاثة الأمة، يربط المجاعة والجوع بالغلوات أو الغلاء الذي مر على مصر في فترات مختلفة من التاريخ وذلك بقوله في مقدمة مصنفه: "إن الغلاء والرخاء مازالا يتعاقبان في عالم الكون والفساد"[١].

ويرتبط الجوع ببعض الظواهر الفريدة في التاريخ الإسلامي من ناحية المفهوم العقدي،إذ نظر المسلمين إلى الجوع نظرة إيجابية[٢]، ولكن قبل الخوض في هذا الحديث لا بد أن نبين أن فوائد الجوع كما يبينها على سبيل المثال كتاب الجوع لابن أبي الدنيا في القرن الثالث الهجري[٣]، وأفرد الرجل لها مساحة كبيرة من كتابه،إذ بين أن الرسول صلي الله عليه وسلم والصحابة كانوا يؤثرون الجوع على الشبع وبين ذلك في الأحاديث المروية في ذلك، لكن هذه الفوائد كان المقصود بها الزهد في الدنيا، وترك الملذات والشهوات ومنها شهوة البطن، والتحكم في النفس البشرية عن طريق الصيام عن الأكل والشرب، وهذا يتنافى عن مفهوم الجوع الجبري أو المجاعة التي تنزل بالأمة، وتضره عما تنفعه، وكأن المفهوم العقدي للمسلمين كان من وجهة نظر فردية من ناحية الجوع كان له فوائده على الشخص لا على المجتمع الذي يتعرض للمجاعة التي تؤثر فيه اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا.

أسباب المجاعات التي ظهرت في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

أما عن الأسباب التي جعلت من الجوع والمجاعات في العصرين البويهي والسلجوقي ظاهرة تستحق الإهتمام فقد كانت عديدة ومتنوعة، ومنها ما يتعلق بالجانب السياسي المؤثر في الناحية الاقتصادية، ومنها ما يتعلق بالسبب الطبيعي أو البيئي، فكثيرًا ما كان يرتبط الفيضان أو الزلزلة، أو الكارثة الطبيعية أيًا كانت هذه الكارثة بزيادة الأسعار ومن ثم الجوع وانتشاره، وظهور المجاعات، كما نجد أن الأمراض والأوبئة أسهمت بما لا يدعي مجالًا للشك سببًا مباشرًا لزيادة معاناة الفقراء والأغنياء على السواء ونقص المواد الغذائية بسبب موت الماشية على سبيل المثال، وهو ما يؤدي إلى المجاعة بطبيعة الحال.

(١) المقريزي، إغاثة الأمة، ص٨٣.
(٢) على سبيل المثال أفرد ابن خلدون في مقدمته فصل عن الجوع وفوائده للفرد وفي الرياضة وغيرها وذلك في حديثه عن المطاعم والمشارب وأثرها في الفرد والمجتمعات؛انظر ابن خلدون، المقدمة، ص١١٣ وما يليها.
(٣) ابي بكر عبد الله بن محمد (ابن ابي الدنيا)، الجوع، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ص٢٨ وما يليها من الصفحات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفيما يلي نقاط محددة مستخلصة من المصادر المختلفة عن أسباب المجاعات التي حدثت في العصرين البويهي والسلجوقي، تدعم السطور المشار إليها آنفًا:

- **الغلاء**:من الأسباب المباشرة لحدوث المجاعة كان غلاء أسعار المواد الغذائية في الأسواق، ولقد كان الغلاء في حد ذاته نتيجة عن حدوث الكوارث السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، ما يؤدي بدوره إلى غلاء ومن ثم يستفحل هذا الغلاء وينتشر فيؤدي إلى حدوث مجاعة تفتك بالسكان.

ولقد ذكر المقريزي الغلاء في مقدمة كتابة إغاثة الأمة، والذي يحكي فيه عن أهم الكوارث الاقتصادية التي حدثت في تاريخ المسلمين،"إن الغلاء والرخاء مازالا يتعاقبان في جميع البلدان والأقطار منذ بدء الخليقة"[1]، وكأن المقريزي يقرر قاعدة وقانون في حركة التاريخ الإنساني،أن ما جاء غلاء إلا أعقبه بعد حين رخاء، وما جاء رخاء إلا أعقبه غلاء وشدة،إذ الظاهرتين متعاقبتين كالليل والنهار في فلك الكون.

وهذه النظرة المقريزية حقيقية في تاريخ البلدان والشعوب، وحتى في العراق الذي بين أيدينا تاريخه الآن، نستشف من المصادر أن الغلاء بأسبابه الكثيرة كان متواجدًا بقوة في التاريخ العراقي خلال تلك الفترة، ولم يكن وحده المتواجد بل كان يعقبه فترة يسيرة من الرخاء قد تكون قصيرة في أغلب الأحوال، لكن الرخاء كان متواجدًا أيضًا.

- **الأخطار الطبيعية**:وهي الكوارث الطبيعية بأنواعها والتي ذكرناها في المبحثين الأول والثاني من هذا الفصل، فكثيرًا ما كان يصاحب الكوارث الطبيعية المجاعات كنتيجة مباشرة على هذه الكارثة الطبيعية.

فالفيضانات كانت تؤدي إلى تدمير الأراضي الزراعية، وموت الماشية،ما يؤدي إلى نقص الكثير من المواد الغذائية الأساسية، ويؤدي بدوره إلى الغلاء المسبب بالضرورة إلى المجاعة، فالنتيجة المباشرة للفيضان وزيادة مياه كل من دجلة والفرات وروافدهما تؤدي إلى تدمير الحقول ونقص الشعير والقمح وكان الغذاء الرئيس للإنسان، كما يؤدي إلى موت الماشية بسبب الغرق في المياهما يؤدي إلى نقص الألبان واللحوم ومن هنا تظهر المجاعة.

---

[1] المقريزي، إغاثة الأمة، ص٨٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما الزلازل، فقد كان يصاحبها تدمير واسع للدور والمساكن والأسواق والمباني المهمة، وتزيد من عدد الوفيات والقتلى في صفوف السكان سواء في المدن أو القرى، ما يؤدي إلى تأثر القطاع الزراعي والحيواني وحدوث المجاعة.

أما قلة الأمطار في بعض السنوات فكانت سببًا في تأثر الزراعة، وتؤدي إلى مجاعات فاتكة بالبشر،إذ أدت قلة الأمطار إلى قحط وجدب،أدىإلى عدم ري الأراضي الزراعية خاصة في الشمال العراقي، والتي تعتمد بعض أراضيه على ري الأمطار للأراضي الزراعية، لذلك نجد أن المطر يؤدي إلى المجاعات.

وكانت هناك ظاهرة لم يتحدث عنها الباحث من ضمن الكوارث الطبيعية التي ألمت بالعراق في المبحثين السابقين،وآثر أن يتركها إلى هذا المبحث الخاص بالمجاعة ألا وهي انتشار ظاهرة الحشرات والآفات الزراعية والجراد، والتي أدت في بعض السنوات إلى كارثة محققة على القطاع الزراعي، وأدت إلى نقص المواد الزراعية ومن ثم إلى المجاعة.

وكانت الأمراض والأوبئة سببًا كبيرًا في ظهور المجاعة، فكانت الأمراض الوبائية التي تحدث عنها الباحث سابقًا، ينتج عنها المجاعات، بسبب أن هذه الأمراض خاصة الأوبئة القاتلة تؤدي إلى قتل السكان، ويؤدي إلى تناقص القوى العاملة، خاصة في القرى الزراعية،ما يضعف الناتج الزراعي والحيواني، فمن الملاحظ أن سنوات الوباء كانت العراق تتعرض للعديد من المجاعات والتي تستمر لشهور وربما لسنوات متتالية.

- **الحالة السياسية للعراق**:كانت الحالة السيئة للسياسة في العراق حافزًاعلى وجود مثل هذه المجاعات وموجات الغلاء المتتالية، وذلك من خلال تتبع الأحداث، والتسلط العسكري البويهي والسلجوقي، نجد أن العراق تعرض للعديد من موجات الغلاء في الأسعار، وكان السبب الرئيس لهذه الموجات هي حالات الاحتقان السياسي والصراعات السياسية، فمن المعروف أن التسلط البويهي عند دخوله في عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، أعقبه مجاعة كبيرة ضربت مناطق من العراق أدت بدورها إلى وباء كبير بسبب موت الحيوانات وإقبال الناس على أكل الميتة والسنانير، وهو ما أدىإلى وباء وكان السبب فيه الحالة الاقتصادية التي أعقبت دخول البويهيين[1].

ولم تكن الحالة الاقتصادية للعراق في عهد بني بويه سيئة في المطلق، بل أعقب ذلك حالة من الرخاء، لكن سرعان ما تبدلت الأحوال، بسبب الصراعات الداخلية، فمن يرى خريطة العراق

---

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ٢١٧؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٤٦، ٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السياسية في القرن الرابع والخامس الهجريين، يرى أن العراق لم تكن فيها القوة البويهية المسيطرة على الخلافة العباسية فقط هي المتنفذة على باقي العراق، بل نجد أن الأعراب كان لهم دور في مناطق عراقية وكان لهم دور سيئ في الحالة السياسية العامة في هذه المرحلة، كما أن الشمال كان النفوذ الحمداني هو المسيطر لفترة كبيرة حتى تم القضاء عليهم في مرحلة لاحقة، وقد ذكرنا في تمهيد هذه الدراسة أن ابن حوقل ذكر أن بني حمدان كانوا أشداء في السياسة الاقتصادية وكان سكان الموصل ونواحي الجزيرة الفراتية يعانون من عسف وجور بني حمدان وهو ما يؤدي بطبيعة الحال إلى الغلاء والمجاعات.

ولم تكن السياسة السلجوقية تختلف عن السياسة البويهية في التسلط العسكري،فكثيرًا ما نشأت مصادمات وخلافات بين الخلافة وبين السلطة السلجوقية، وهو ما أثر بالسلب على الحالة العامة للبلاد، كما أثر بشكل مباشر على التجارة والزراعة والأسواق، فالجند الترك كانوا يقومون خلال المصادمات أو المشاحنات الداخلية تلك إلى نهب الأسواق والمحال التجارية والدور وهو ما يؤدي بطبيعة الحال إلى تاثر الاقتصاد ومن ثم ظهور المجاعات، كما نجد أن نظام الإقطاع الزراعي كان سببًا كبيرًا في تدهور الزراعة وعدم الاهتمام بها في مراحل ضعف الدولة السلجوقية والذي أدت بطبيعة الحال إلى نقص المحاصيل الزراعية الضرورية وارتفاع أثمانها وهو ما أدىإلى ظهور المجاعة في سنوات كثيرة.

- **السياسة الاقتصادية:**

كانت السياسة الاقتصادية للعراق خلال الفترة البويهية والسلجوقية مؤثرة في ظهور المجاعات والغلاء، وذلك بسبب سياسات الاحتكار وتخزين الغلال في أوقات كان الشعب يحتاج إلى هذه الغلال للقضاء على المجاعات، فسياسة الاحتكار خاصة في العهد السلجوقي أثرت سلبًا على الاقتصاد، كما أنها لها دخل مباشر بسياسات الإقطاع التي تبنتها الدولة السلجوقية من البداية.

فنجد أنه في بعض السنوات ظهرت شخصيات كبيرة في الدولة وكانت لها مصالح في احتكار الغلال وقد استولت على جميع المعاملات المالية والتجارية، ومنعت البيع في عز مرور الأزمة في العراق وأدى ذلك إلى تفاقم الموقف دون تدخل واضح من الدولة السلجوقية والتي كانت تمر في هذه السنوات بضعف أدى في النهاية إلى سقوطها.

كما أن تدهور العملة في العراق كان له أثره في تناقص مخزون الذهب، والتعامل بالفضة، بل وإعطاء المرتبات بها، وهو ما أدىإلى ما يشبه حديثًا بالتضخم الاقتصادي،إذأدت هذه السياسة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلىانتشار الغلاء، وتم بيع المواد الغذائية الأساسية بأسعار عالية،ما أدىإلى تفشي الجوع وظاهرة المجاعات.

ونجد أن إشارات تدهور العملة البويهية على سبيل المثال تأتي مع عصر عضد الدولة وما بعده،إذ تناقصت قيمة الدرهم والدينار التيجاني، وأصبح غير معترفًا به في مصر وجميع البلدان الأخرى[١]، إذأدت انهيار العملة العملة لدولة بني بويه،أي ظهور عملات أدنى من القيمة في كل من الموصل وواسط وبغداد،ما أدىإلى زيادة الأسعار واضطراب الحالة الاقتصادية العامة.

كانت هذه الأسباب الرئيسة بإيجاز،والتي سنتعرف عليها تفصيليًا من خلال السرد الحولي التاريخي لهذه المجاعات التي مرت بالعراق، ومن خلالها سنتعرف عن جوهر أسباب تلك الأزمة ونتائجها على العراق سواء على السلطة أو على الرعية كجزء من المحنة العامة التي مرت على العراق.

- **السرد الحولي لأهم موجات الغلاء والمجاعات في العصرين البويهي والسلجوقي:**

كانت أولي المجاعات وموجات الغلاء التي ضربت العراق في عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م وهي السنة التي دخل فيها بني بويه بغداد، فقد كانت سنة صعبة على بغداد وما جاورها من مدن، وذلك بسبب دخول بني بويه البلاد، والحالة السياسية الصعبة التي مرت على العراق[٢]، ويذكر ابن الجوزي أن الغلاء ضرب البلاد وبيع الكر من الحنطة خمسة وعشرين درهمًا، وهو مبلغ مرتفع عن العادة، ومن شدة المجاعة، ذكر أيضًا في مجمل حديثه عن تلك السنة أن امرأة هاشمية سرقت صبيًا فذبحته وأكلته، وأن امرأة أخرى قامت بقتل صبية، وأكل الناس الميتة من الحيوانات، وكانت الغلال ناقصة في العموم في أرجاء بغداد،ما أدىإلى خروج أكثر الناس إلى طريق البصرة هربًا من الجوع في بغداد[٣].

وقد مات أكثر الناس على هذا الطريق أثناء سيرهم إلى البصرة هربًا من الجوع،إذاشتدت الأزمة وباع الناس دورهم بالقليل من الخبز "فصار العقار والدور يباع بالرغفان،حتى أن كر الحنطة تم بيعه بعد ذلك بعشرة آلاف درهم".

---

(١) ذكر الباحث وأفرد لهذه النقطة وهي انخفاض القوة الشرائية وتذبذب سعر العملة في مبحث كامل لهذا الغرض في الفصل الثاني من الدراسة.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ٢١٧.

(٣) ابن الجوزي؛ المنتظم، ج١٤، ص٤٦ و٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعل هذه المجاعة والأزمة الاقتصادية كانت كبيرة، أما عن أسبابها الحقيقية، فقد كانت سياسية بسبب احتراب كل من معز الدولة بن بويه وناصر الدولة الحمداني داخل بغداد من أجل محاولة تثبيت أقدام بني بويه في المدينة وطرد النفوذ الحمداني منها[١]، إذانتقلت الحرب من الجانب الغربي لبغداد، لجانبها الشرقي، وأدت إلى نقص المواد الزراعية في الأسواق، بل إلى نقص المحاصل الزراعية وتخريبها في عموم السواد في تلك السنة.

ولم تكن الحالة السياسية فقط من تسببت في هذه المجاعة بل عامل انتشار الحشرات والقمل في الغلات أدىإلى تدمير المخزون منها،حتى يئس الناس من الحل لإنقاذ المتبقي، فلجأواإلى عرض المخزون وكشفه فتأكل نوع من الطير في حجم العصفور منه فكانوا يلتقطون القمل من الغلال فخفف ذلك من الأزمة[٢].

وفي عام ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م، تعرضت الأراضي الزراعية في الموصل للدمار بسبب ظهور أسراب الجراد، ما أدىإلى تلف جميع المحاصيل الزراعية، وأدي بدوره إلى غلاء في السعر خلال تلك السنة [٣].

وفي ٣٤٤هـ/٩٥٥م، تعرضت أيضًابعض المناطق العراقية لخطر الجراد،الذي قضىعلى الثمار والغلات والمحاصيل الصيفية،إذ ظهر في حيزران/ يونيو من هذه السنة[٤]، وبطبيعة الحال أدى ذلك إلى ارتفاع السعر وظهور الغلاء، وربما لم تصل إلى حد المجاعة لأن المصادر لم تذكر أي ذكر للمجاعة.

وقد تعرضت العراق في تلك السنة إلى أمراض وأوبئة كثيرة،إذانتشر الوباء في كل من بغداد وواسط والأهواز والبصرة، وربما هذا أدى إلى ظهور غلاء ومجاعات هذا إلى جانب ظهور الجراد كما أشرت آنفًا.

وفي عام ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م، تعرضت الموصل لغلاء شديد،إذ ارتفع سعر الحنطة إلى ألفي ومئتي درهم، والشعير وصل إلى ثمانمئة درهم، وقد أدت هذه الأسعار إلى ظهور مجاعة كبيرة في الموصل وأنحاء الجزيرة الفراتية[٥]، ما أدى إلى هجرة جماعية للسكان نحو الشام ومناطق عراقية أخرى، ما يدل على شدة هذه المجاعة.

---

[١] مسكويه، المصدر السابق، ص٢٧٩ و٢٨٠.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٤٨.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٤٧.

[٤]ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٩٨.

[٥] ابن الأثير، المصدر السابق، ص٢٦٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما عن الأسباب التي أدت إلى هذه المجاعة فهو فيضان العام السابق الذي تعرضت له الموصل ونواحيها وأدىإلى تدمير المحاصيل والغلات الزراعية وأدى بطبيعة الحال إلى ظهور هذه المجاعة ونقص المحاصيل الضرورية للحياة[١].

أما في عام ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م، نرىأن بغداد ألم بها غلاء شديد ونقصان في القوت والمواد الغذائية الضرورية والأساسية مثل الدقيق والسكر والتمر وعلف الحيوانات، ففي رجب من نفس السنة، "زادت الأسعار وعدمت الأقوات، وبيع كر الدقيق بمئة ونيف وسبعين دينار، والسكر بنيف وأربعين درهمًا،والتمر ثلاثة أرطال بدرهم،وضاقت العلوفة فبيع الحمل من التبن بعشرة دراهم،حتى أخرج السلطان كراعه إلى السواد"[٢].

وفي حين سكت ابن الجوزي مورد الخبر السابق عن السبب الحقيقي لهذا الغلاء، فيبدو أن سببه كان سياسيًا،ففي نفس العام كان قدوم عضد الدولة بن بويه إلى العراق،إذ أعجبه ملكها، وأطلق يد الجند الأتراك فيها ليشغبوا على عز الدولة بن بختيار البويهي الذي كان يحكم العراق عندئذ، ولا بد أن هذا الاضطراب السياسي والأمني قد أثر في طرق التجارة وفي المحاصيل الزراعية الواردة إلى بغداد، بل نجد أن بعد قليل من نفس السنة خاصة في شهر ذي الحجة، اضطربت قوافل الحج الذاهبة إلى مكة، وهو نفس السبب،إذ الاضطراب السياسي والأمني المؤثر في التجارة أو سير قوافل الحج[٣].

أما في عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م، فقد زادت الأسعار زيادة كبيرة للغاية في عموم العراق، ما أدىإلى مجاعة كبيرة لحقت بالناس، وأدت إلى موت الكثير من الناس جوعًا في الطرقات، وعدمت الأقوات بشكل كبير وبلغ كر الحنطة على سبيل المثال في شهر رمضان إلى ثلاثة آلاف درهم، وبلغ في ذي القعدة حوالي أربعة آلاف وثمانمئة درهم، ما يدل على تفاقم الأسعار والمجاعة من رمضان إلى ذي القعدة وستمرار هذه المجاعة[٤].

وقد أدت هذه المجاعة إلى انتفاضة للناس على السلطات الحاكمة فيما يبدو،إذ ضج الناس واقتحموا المساجد ومنعوا الصلاة بها، كما كسروا بعض منابر الجوامع،وتظاهروا في الطرقات حتى رخصت الأسعار في شهر ذي الحجة وانتهت هذه الأزمة[٥].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢١٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٢٣٦.

(٣) مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤١٤ وما يليها.

(٤) ابن الجوزي، شذور العقود، ٢٣٢؛ المنتظم، ج١٤، ص٣٠٢.

(٥) نفس المصدر السابق، ص٣٠٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى الرغم من عدم شدة هذه الانتفاضة وعدم تطورها إلى ثورة، إلا أن هذه كانت لافتة للانتباه، وكانت أول إشارة صريحة على انتفاض الناس ضد السلطات البويهية، ويكون السبب فيها غلاء الأسعار وحدوث مجاعة، وهذه إشارة في غاية الأهمية، خاصة إذا عرفنا أن هذه السنة التي تلت تولي صمصام الدولة ملك العراق بعد وفاة والده عضد الدولة بن بويه[١]والذي أحدث انتعاشة في الاقتصاد العراقي وإن كانت مؤقتة، لأن أسباب الأزمة كانت متجذرة في أصول الاقتصاد الذي كان قائمًا على الإقطاع في كثير من الأحيان، ناهيك عن الصراع العسكري الذي نشب في تلك السنة والسنوات التي تليها بين صمصام الدولة وأخيه شرف الدولة الذي كان يحكم فارس بعد موت والدهما عضد الدولة.

وفي عام ٣٧٦هـ/ ٩٨٧م، تعرضت العراق إلى أمراض كثيرة مثل الحمى المنتشرة وكانت معدية وأدت إلى وباء فتك بالناس، وقد كان هذا أثره الكبير في ظهور المجاعة وزيادة الأسعار في المواد الغذائية الضرورية، ففي رجب من نفس السنة زادت الأسعار حتى وصل سعر الدقيق إلى نيف وتسعين درهمًا، وهذه فيما يبدو كانت زيادة مفرطة في سعره[٢].

وقد استمرت زيادة الأسعار ونقص المواد الغذائية ولا سيما الدقيق في العام التالي ٣٧٧هـ/ ٩٨٨م،إذ وصل سعر الدقيق إلى مئة وخمسة وستين درهمًا،ثم إلى مئتيوأربعين درهمًا، وقد أدت هذه المجاعة إلى خروج الناس من بغداد وهروبهم منها، بسبب زيادة الأسعار وارتفاعها ارتفاعًا جنونيًا، وهذا يدل أن بغداد هي أكثر المدن عرضة للغلاء، وذلك لأنها واجهة البلاد، والكثير من الأحداث السياسية تمت فيها ما أدىإلى سرعة تأثرها بأي وضع، كما أن زيادة السكان تؤثر تأثرًا كبيرًا في زيادة الجوع والفقر[٣].

وفي حوادث السنة التالية أي في عام ٣٧٨هـ/ ٩٨٩م، نجد أن غلاء الأسعار استمر في العراق، وقد أدىإلى زيادة رقعة الجوع، واشتداد المجاعة وعدم الأقوات ونقص الغلال،حتى تم بيع الكارة الدقيق بستين درهمًا[٤].

وفيما يبدو أن تقلبات المناخ كان لها أثر في هذه السنة من انعدام الأقوات، فنجد أن الرياح كانت شديدة في عموم العراق، وظهور الحر وشدته في البصرة في الجنوب، وهو ما يدل على

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٠٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣١٧؛ انظر أيضا ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١٩.

(٣) المصدر السابق، ص٣٢٠؛ انظر أيضا ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٢٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٣٢.

(٤) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقلبات المناخ في مناطق واسعة من الأراضي العراقية، وهو يؤدي بطبيعة الحال إلى نقص المحاصيل الزراعية وتدميرها بفعل هذا التقلب المناخي(١).

وفي عام ٣٨٢/ ٩٩١م، نجد أن بغداد أصابها غلاء في سعر الخبز،إذ وصل الرطل من الخبز بأربعين درهم، والحوزة منه بدرهم، وهي أسعار مرتفعة،ولم يذكر ابن الجوزي مثلًا سبب هذا الغلاء(٢)، ولكن فيما يبدو أن الاشتباكات والفتنة بين السنة والشيعة في المدينة سواء في العام السابق أو تلك السنة قد أثرت على البيع والشراء أو وصول المواد الغذائية إلى الاسواق،إذ لم تسجل المصادر المختلفة أي اضطراب سياسي أو أمني سوى الفتنة بين أهل الكرخ الشيعة وأهل باب البصرة السنة،لكن لو عرفنا أن بهاء الدولة البويهي كان يحكم العراق في تلك الأثناء ووصلت العراق في عهده إلى أدنىمستوىاقتصادي لها منذ تولى البويهيون، وذلك بسبب الفتن الداخلية والحرب الأهلية بينه وبين صمصام الدولة في فارس، والقبض على الخليفة الطائع لله وخلعه وتولية القائم بأمر الله، وكل هذه أسباب كافية للغاية لأي تدهور اقتصادي(٣).

وفي عام ٣٩٢/ ١٠٠١ م، أدت الاضطرابات الاجتماعية في بغداد إلى غلاء في الأسعار،إذ قامت اشتباكات بين العوام والنصارى، أدت إلى حرق بعض المناطق مثل قطيعة الدقيق واستمرت هذه الفتنة شهورًا،إذ عمّت الفوضى أرجاء بغداد واستغل العيارون ذلك فزادت عمليات النهب والسرقة، وقد زاد الطين بلة الفتنة بين الشيعة والسنة،حتى تدخلت السلطات البويهية متمثلة في بهاء الدولة عميد الجيوش البويهي الذي بعث أبا علي بن أستاذ هرمز إلى بغداد، ليضبط أمورها فقام بالقبض على المشاغبين وانتهت الفتنة ومعها غلاء الأسعار(٤).

وهذا يبين لنا أن الاضطرابات الاجتماعية كان لها دور وعامل رئيس في غلاء الأسعار، فالاضطراب المجتمعي يؤدي بدوره إلى قلة التجارة والمعروض بسبب قلة الأمن وانتشار أمر العيارين وعمليات النهب والسرقة وهذا كله يؤدي إلى غلاء أسعار المواد الغذائية ونقصانها من الأساس.

وفي عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م،أدى نقص محصول الحنطة في العراق،إلى نقصانه في الأسواق، وازدياد سعره حتى وصل إلىمائة وعشرين دينارًا للكر منه(٥).

---

(١) ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٣٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٣٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦٣.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ص٤٥٩ وما يليها.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٥٨.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وزيادة عن الأسباب التي أشرت إليها آنفًا، يوجد سبب جوهري لا بد من ذكره، وهو أن الاقتصاد العراقي كان يعاني تحت وطأة نقص العملة البويهية، والمعروفة بالعملة التاجية،إذ نجد أن عصر عضد الدولة،على الرغم أنه كان عصرًا مستقرًا نوعًا عن باقي عصور سلاطين الدولة،إلاأن إشارات نقص العملة الذهبية بدأ من عصره،إذقلت نسبة الذهب والقيمة المتداولة في العملة حتى أصبح غير مقبول التداول في مصر على سبيل المثال[١].

وقد زاد انخفاض قيمة العملة البويهية أكثر بعد موت عضد الدولة وفي عهد خلفائه، فعلى سبيل المثال نجد أن عام ٣٨٢هـ/ ٩٩١م شهد انخفاضًا كبيرًا في سوق العملة ونقصانها وارتفاع الأسعار تبعًا[٢] لذلك وهو ما أدىإلى شغب الجند لنقص الرواتب، ونقص للسلع الضرورية بطبيعة الحال.

أما الدراهم الغياثية والتي كانت متداولة في واسط والموصل وبغداد، فقد شهدت تدهورًا هي الأخرى، وكانت تنسب هذه العملة إلى بهاء الدولة بن بويه والملقب بغياث الدين، وقد شهدت هذه العملة تدهورًا في قيمتها حتى عام ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م[٣].

كما نجد أن دراهم أخرى مثل القاساني، كان درهمًا سيئًا في قيمته،إذ سمي في الأوساط الشعبية بالدراهم السوداء، وذلك بسبب خلط النحاس مع الذهب،إذ قل معدن الذهب فيها وبالتالي قلت قيمتها[٤].

وكانت النتائج المباشرة لهذا الأمر ارتفاع الأسعار، وقلة الرواتب بالنسبة للجند، والمزيد من قلة المعروض من المنتجات الزراعية والحيوانية والتجارية مما يؤدي إلى زيادة الفقر والجوع في أوساط العامة.

ونجد أن ظاهرة الاضطرابات والحروب الداخلية كانت سببًا مباشرًا في ظهور المجاعة وذلك في عام ٤١١هـ/ ١٠٢٠م،إذ ظهرت المجاعة الشديدة في منطقة واسط وما حولها،إذ كانت الحرب بين مشرف الدولة بن بهاء الدولة بن بويه وأخيه سلطان الدولة المتحكم في العراق، فاستطاع مشرف الدولة أن ينتصر على أخيه الذي هرب من بغداد، لكنه جمع الجند الأتراك حوله لمعاودة محاربة أخيه، فهرب حينًا إلى الأهواز، ثم استوزر ابن سهلان الذي ناصره، فجمع مشرف الدولة

---

(١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٤٦.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦٣.
(٣) منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٨٩.
(٤) نفس المرجع السابق، ص٣٩٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيشه للقضاء على هذا التمرد فحاصر واسط مقر ابن سهلان وضيق عليه الأرزاق ودخول السلع الضرورية إلى المدينة،ما أدىإلى غلاء الأسعار،حتى وصلت بعض الأطعمة إلى ألف دينار، وأكل الناس الدواب النافقة والكلاب،حتى استسلم ابن سهلان لقوات مشرف الدولة ودخلوا المدينة(١).

كما أدت هذه المجاعة إلى بطلان الحج، وعدم خروج القوافل إلى الحجاز، وهذه ظاهرة متكررة في ظل الظروف الداخلية الصعبة واضطراب الأمن في بعض السنوات على هذا النحو كما رأينا.

ونجد أن ظاهرة الاضطرابات الأمنية زادت وتيرتها، ومعها غلت الأسعار وظهرت المجاعة وازداد الفقر،إذ نجد أن عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م، تتعرض بغداد لفساد عظيم ونهب للمحال التجارية والدور والمساكن، وذلك بسبب نشاط العيارين في هذه السنة، ومع هذه الظاهرة زادت الأسعار، وبيع الكر بثمانين دينار، وهجر الناس أوطانهم،وخرجوا هربًا من هذه الفوضى(٢).

ونجد أن السنوات السابقة لعام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، كانت سنوات صعبة من الناحية البيئية،إذ تعرضت العراق إلى بعض التقلبات المناخية والفيضانات، ونزول البرد،ما أدىإلى خسارة في القطاع الزراعي والحيواني، وهو ما أثر في السكان ومعيشتهم، فنجد أن إشارات بسيطة عند كل من ابن الجوزي وابن الأثير حول عدم عمل المطاحن، وزيادة أسعار الدقيق والخبز بسبب فيضان وزيادة في نهر دجلة أدت بطبيعة الحال إلى ظاهرة الجوع التي انتشرت بين الناس، وكأن الخلاصة من القول أن هذه السنوات كان العراقيون يعانون فيها من أزمة معيشية حقيقية(٣).

ولم تكن السنوات السابقة فقط من شهدت تأثير البيئة في ظهور الجوع، فنجد أن عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م، شهد قلة أمطار حتى وصل إلى جدب عام في السواد، وقلت المزورعات، ومعها زادت الأسعار كثيرًاحتى تم بيع ثلاثين رمانة بدينار، واشدت المجاعة في كل من فارس وحلوان وكرمان ووصلت إلى مدينة واسط العراقية، وزامن المجاعة نزلات برد مع الحمي والسعال في تلك السنة(٤).

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٤٣.
(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٥، ص١٧١.
(٣) مثل فيضان عام ٤١٦ والتقلبات الجوية التي أثرت على الثروة المائية في العراق وتجمد الميهة في عام ٤١٧هـ، والبرد الذي نزل على أجزاء كبيرة من العراق؛ نفس المصدر السابق، ص١٧٠ و١٧٦ و١٨١.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٧١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقدتعرضت مدينة الموصل لمجاعة كبيرة، وكان السبب الرئيس فيها قلة الأمطار، وتعرضت مناطق الجزيرة الفراتية إلى الجدب وقلة المزروعات، وزادت الأسعار بشكل كبير[١].

ويخبرنا ابن الجوزي،أن واسط والأهواز تلفت بها الغلال والمزروعات ما أدىإلى امتداد المجاعة إليها، ويبدو أن المجاعة امتدت أيضًا لشدتها إلى خارج العراق، خاصة منطقة الأحساء التي طالها الجدب وأثر ذلك إلى موت الماشية والدواب[٢].

وفي عام ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م، تعرضت الموصل لمجاعة كبيرة،إذ قلت المنتجات الغذائية في الأسواق حتى عدمت تمامًا، وقد ارتفعت أسعار الأدوية أيضًا،ما أدىإلى تفاقم الأمر، خاصة أن الوباء اجتاح الموصل ونواحيها بسبب أكل الناس للميتة والدواب من الطرقات من شدة الجوع وعدم وجود المواد الغذائية[٣].

وقد كان السبب الرئيس لهذه المجاعة، قلة الأمطار، وتعرضت الأراضي الزراعية للتلف، وتدمير المنزرع منها، وذلك في السنة التي سبقت تلك المجاعة، وقد استمرت هذه المجاعة طوال تلك السنة حتىعام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م[٤].

وفي عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م[٥]، نجد نصًا عند ابن الجوزي جديرًا بالاهتمام والملاحظة، وهو رخص السعر في العموم، وذلك بسبب المصالحة التي تمت بين الشيعة والسنة، وهذا يبين لنا، أن استقرار الوضع العام في العراق، خاصة الوضع الداخلي، كان له الأثر الكبير في عدم ظهور المجاعات أو موجات الغلاء، وكانت تلك السنة من النوادر في تاريخ تلك الفترة،إذ توافر المواد الغذائية ورخص السعر لكثير من السلع.

وتعتبر أزمة غلاء عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م[٦]، هي الأزمة الأولى التي تمر بها العراق بعد دخول السلاجقة إلى البلاد،إذ تعرضت العراق لموجة كبيرة من غلاء الأسعار بدرجة كبيرة أدت بدورها إلى مجاعة شديدة،إذ بلغت الأسعار في ابتداء هذه المجاعة حدًا كبيرًاحتى وصل سعر الحنطة إلى نيف وعشرين دينارًا، بينما بلغ سعر الكر من التبن والعلف للحيوانات عشرة قراريط، وقد

---

(١) ابن الجوزي، نفس المصدر السابق، ص٢٢٦.
(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٥، ص٢٢٧.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٧٩.
(٤) نفس المصدر السابق، ص١٧١.
(٥) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٣٢٦.
(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعرضت البلاد لعمليات نهب وسرقة وقطع للطرق، ما أدىإلى تفاقم الأزمة، وقد هرب الكثير من سكان المدن الأخرىإلى بغداد كي يكونوا في مأمن من النهب والسرقة.

ويبدو أن الزيادة السكانية الطارئة على بغداد في تلك السنة أدت إلى زيادة المجاعة حتى أكل الناس الميتة وذلك بسبب نقص اللحوم وموت الماشية،إذ وصل سعر اللحم الرطل بقيراط، وأيضًا الثروة الداجنة ارتفع سعرها بشكل كبير حتى وصل الدجاجة بربع دينار، كما زادت أسعار الخضروات والفاكهة مثل الكراث، والسفرجل، والرمان،والخيار، وغيرها من الخضروات[١].

وقد زاد من الوضع سوءًا، ازدياد الأمراض المعدية بسبب تغير المناخ وفساد الجو وكثرة الذباب، وقد أدى ذلك إلى الوباء والأمراض، وذلك أدىإلى شدة المجاعة أكثر.

ونجد أن السبب في ذلك سياسي من الأصل،إذتعرضتالعراق لمحاولة من السيطرة السلجوقية،إذ دخلت القوات السلجوقية بغداد بقيادة طغرلبك في عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وقد وصلت القوات السلجوقية بغداد التي كانت تعج بالأزمة، فالملك الرحيم البويهي كان في حالة ضعف وانهيار، وأيضا كانت العراق تموج بالفتن والصعاب ومنها فتنة البساسيري التي ظلت سنوات دون حل حتىتصدر السلاجقة المشهد، كل هذه الاضطرابات الأمنية تركت أثرها العميق في الاقتصاد العراقي، وفي عدم الأمن خاصة في الطرق بين المدن والقرى، وانتشارالعيارين وعمليات النهب والسرقة، هذا بجانب تكالب الكوارث الطبيعية على العراق، كل هذا كان مردوده تعرض العراق لهذه المجاعة الكبيرة[٢].

فعلى سبيل المثال، كان عسكر السلاجقة في هذه السنة وما سبقتها منذ دخولهم يقيمون في الأحياء البغدادية، ما أدىإلىاحتكاكهم بالعامة الذين ثاروا في وجههم بسبب شغبهم ونهبهم، ولم يكرمهم إلى أهل الكرخ، وذلك خوفًا من بطش السلطات السلجوقية بهم، لذلك أكرمهم طغرلبك بعد هذا الموقف[٣].

كل هذا الشغب والنهب كان أثره مباشرةًعلى حركة الأسواق والتجارة، وحركة البيع والشراء،ما أدىإلى تناقص المواد الغذائية، ومن ثم ظهور تلك المجاعة.

علىأي حال، استمرت هذه المجاعة إلى العام التالي لها ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م،إذ تذكر المصادر أن الأسعار مازالت مرتفعة خاصة الدقيق، ما أدىإلى زيادة المجاعة وموت وهلاك الناس، وأكل

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٤ و٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الناس الميتة والكلاب، وشوهد رجل قتل صبية بغرض أكلها، وامرأة أكلت طيرًا ميتًامن شدة جوعها، وهكذا نرى أن هذه المجاعة كانت قوية وعانى منها السكان كثيرًا[1].

وكانت تلك السنة يصاحب حالة الغلاء والمجاعة تلك وباء كبير انتشر في كل من الأهواز وحلوان وواسط، ويبدو أن المجاعة كانت نتيجة مباشرة لهذا الوباء، وصاحبها أيضا اضطرابات أمنية بسبب نشاط العيارين الذين عاثوا الفساد والسرقة في بغداد[2].

ونرى في حوادث عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م[3]، أن العراق على خلاف ما سبق، تبيع البضائع في الأسواق برخص غير مسبوق، ولعل الحالة السياسية المستقرة في ظل الدولة السلجوقية التي قضت على البويهيين، كما قضت على فتنة أبي الحارث أرسلان البساسيري، وكان ذلك السبب المباشر في استقرار الاقتصاد ولو مؤقتًا في تلك السنة،إذ يذكر ابن الجوزي أن التمر على سبيل المثال الألف رطل بثمانية قراريط وذلك في مدينة البصرة[4].

أما في عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م،فغلت الأسعار في الأسواق بسبب ورود معلومات بأن السلطان الجديد ألب أرسلان، سيأتي إلى بغداد ليملكها، وهذا أدىإلى غلاء الأسعار بشكل كبير، ولعل هذا يدل أن المعلومات أو الشائعات كان لها دور كبير في الاقتصاد سواء استقراره أو اهتزازه، فمعلومة واحدة أدت إلى الإرجاف أو الخوف من مصير سياسي مجهول، وهذا كان غالبًا يأتي مع عهد جديد أو موت سلطان أو حاكم أو خليفة، وهذا ما حدث في تلك السنة[5].

وبالفعل نجد أن الأزمة اشتدت مع وصول السلطان الجديد، الذي أمر بانقلاب سياسي واضح مع القبض على عميد الملك أبي نصر منصور بن محمد الكندري وزير أبيه طغرلبك ومصادرة أمواله، كما قلد نظام الملك الطوسي ليكون وزيره الجديد، وبذلك زال الخوف والإرجاف في الأسواق وعادت الأمور إلى نصابها[6].

وفي عام ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م، تعرضت العراق لموجة من الغلاء بسبب هلاك الثمار والمزروعات في هذه السنة، وذلك بسبب زيادة مفرطة في نهر دجلة، أدت إلى تدمير بعض الأراضي

---

(١) نفسه، ص١٦.
(٢) نفسه، ص١٧.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٥٦.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٦، ص٧٦.
(٥) نفس المصدر السابق، ص٨٦.
(٦) ابن كثير، المصدر السابق، ص١٥٩ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزراعية وبالتالي زادت الأسعار لنقص السلع الضرورية في الأسواق خاصة بغداد[1]، وقد تعرضت الثروة الحيوانية إلى الدمار والهلاك في سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م، وذلك بسبب وباء وقع في الحيوانات خاصة الأغنام والماشية، وانتشر في خراسان والعراق،حتىإن رجلًا يربي قطعان كثيرة من الغنم "قام إلى غنمه في الصباح فوجدها ميتة"، وقد أدى هذا الوباء إلى غلاء في سعر اللحوم والمنتجات الحيوانية[2].

وقد تكررت ظاهرة الجراد في العراق مرة أخرى في عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م،إذ تعرضت الأراضي العراقية إلى"جراد أكل ماوجد،حتى عدم البقل"، وهكذا نرىأن البقوليات كان فيها نقص شديد ما أدىإلى غلاء سعرها في الأسواق[3].

وتكرر خطر الجراد بعد الحادثة السابقة بثلاث سنوات،إذ نجد في حوادث عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م،إذ تعرضت الأراضي الزراعية للهلاك والدمار خاصة محاصيل الغلات الزراعية الضرورية للغذاء،إذ "جاء جراد في شعبان من هذه السنة كعدد الرمل والحصى"[4]، وقد أدى خطر الجراد إلى غلاء السعر والمجاعة هذا إلى جانب الوباء المصاحب لتلك الكارثة، فزادت ظاهرة الجوع،إذ طحن الناس في السواد نوع رخيص من الدقيق يسمى بدقيق الدخن عوضًا عن باقي الغلات، وقد استمرت هذه المجاعة حتى انتهى خطر الجراد، فانتهت الأزمة ورخص السعر بعد ذلك.

ومن خلال تتبع الأحداث في المصادر المختلفة، نجد أن نوعًا من الاستقرار الاقتصادي عمّ العراق،إذ لا نرى أيًا من موجات الغلاء السابقة،أو ظهور المجاعات، أو الكوارث الشديدة التي تؤدي إلى المجاعة، أو غيرها من الأسباب السابقة والتي تؤدي بدورها إلى ظهور المجاعات.
إلا أن موجات الغلاء والمجاعات لم تنتهي كليةً،إذ نرى حدوث مجاعة شديدة في عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، وذلك في الموصل وديار بكر من بلاد الجزيرة الفراتية، بل امتدت حتى بلاد الشام،إذ بدأت المجاعة بارتفاع كبير في الأسعار، بسبب نقص المحاصيل الزراعية وتلفها وتدمير الأراضي الزراعية بسبب قلة الأمطار في تلك السنة، "إذ احتبس المطر في الشتاء، وقلت

(١) في تلك السنة يذكر كل من ابن الجوزي ومن بعده ابن كثير أن بغداد شهدت رخص في الأسعار وذلك في شهر شعبان، لكن تعرضت العراق بعدها خاصة في شهر رمضان من سنة ٤٥٨هـ إلى زيادة مبالغة في دجلة ادت إلي غلاء السعر ونقص المواد الغذائية؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٩٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٦٥.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٦، ص١٣٩.
(٣) نفس المصدر السابق، ص١٤٧.
(٤) نفسه، ص١٧١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأقوات"[١] وكان موعد هذا القحط العام في فصول الشتاء،إذ لم تنزل الأمطار وأدى ذلك إلى تدمير المحاصيل الزراعية وتلفها.

ويذكر ابن الاثير أن المجاعة وغلاء الأسعار لم ينته في تلك السنة، بل استمر للعام التالي، ما يدل على قوة هذه المجاعة، والتي تسببت بها كارثة طبيعية وهي القحط والجدب وقلة المطر. وكانت الموصل وديار الجزيرة الفراتية تعاني في سنوات كثيرة قلة المطر، ما يؤثر على بعض المحاصيل المروية من ماء الأمطار مثل الحبوب الغذائية، والتي تشكل الغذاء الرئيس للسكان،إذ كانت محاصيل الحبوب تزرع في فصلي الشتاء والربيع، ويخزن كميات منه إلى الموسم الزراعي التالي، لكن فيما يبدو أن في سنوات الجدب، ينتهي المخزون بسرعة بسبب الزيادة السكانية، هذا إلى جانب تلف المحصول الجديد.

أما موجة الغلاء في عام ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م، فقد كان سببها هو احتكار السلطات لمخزون الغلات لهذه السنة،إذ أمر الخليفة المسترشد بالله بحراسة الغلات وأوجب ذلك الغلاء،فصار الشعير على سبيل المثال باثني عشر دينارًا[٢].

ومن خلال البحث لهذه الخطوة التي أقدمت عليها السلطات العباسية، سنجد أن أسبابها كانت سياسية وعسكرية،إذ نجد أن تلك السنة شهدت العراق نشاطًا عسكريًا وبالتالي اضطرابات أمنية بسبب الخلافات السلجوقية الداخلية،إذ تنافس كل من مسعود بن محمود السلجوقي وعمه السلطان سنجر السلجوقي على العرش، ودخل زنكي بن آق سنقر حاكم الموصل هذا الصراع هو وأمير واسط دبيس بن صدقة[٣].

وكان المسترشد بالله قد أكره على الدخول في هذا الصراع إلى جانب مسعود ضد سنجر، وقد خرج بقوات لهذه الحرب، لكنه عاد إلى بغداد مرة أخرى عندما ترامت إلى مسامعه أن قوات زنكي ودبيس بن صدقة تتجهإلى بغداد، فقام المسترشد بدخول بغداد وأمر سكانها بالدفاع عنها، لحين انتهاء الحرب بين مسعود وسنجر، وبالفعل قام الأهالي بالدفاع عنها، لذلك جاءت إجراءات تدبيرية اقتصادية صعبة على أهالي بغداد ومنها الإجراء السابق بتخزين الغلات وذلك لاستخدامها أثناء الحرب، وهذا تفسير الباحث عن السبب الحقيقي عن هذه الخطوة، ويدعمه بإجراء اقتصادي آخر سبق تلك الحرب وهو ضبط الحالة في دار ضرب العملات التي كانت

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٣٠.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٦٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٦٣ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعاني من فساد عامليها، فنقل عمل دار الضرب تحت مسئولية الوزير شرف الدين وزير المسترشد، وهكذا نرى أن هذه الإصلاحات العاجلة كانت سريعة وفي ظروف سياسية وعسكرية استثنائية تمر على بغداد.

ونجد أن الأزمة السياسية امتدت إلى عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م،إذ تولى الخلافة الراشد بالله، بعد مقتل المسترشد، وبدأت بوادر الأزمة بينه وبين السلطان مسعود الذي طالب بفدية يقدمها الراشد للسلطان،إذ كان يرى مسعود أن الراشد يميل أكثر إلى داوود بن محمود السلجوقي والذي تحالف مع عماد الدين زنكي أمير الموصل، وكأن جبهة قوية من الخليفة الراشد وزنكي وداوود في مواجهة السلطان مسعود، الذي صمم على ضرب هذا التحالف[١].

وفي أثناء تلك الأزمة، تعرضت بغداد لأزمة اقتصادية، وذلك بعد قطع الخطبة للسلطان مسعود وجعل الخطبة لداوود،إذ قامت الجنود التابعة لمسعود بتخريب مناطق من المدينة وأدىذلك إلى غلاء السعر في الأسواق[٢].

وفي عام ٥٤١هـ/١١٤٧م، تكررت ظاهرة الجراد،إذانتشر في العراق، ودمر الأراضي الزراعية وأتلف المحاصيل، وقد أدى ذلك إلىاتخاذ تدابير اقتصادية منها إسقاط المكوس والضرائب لهذه السنة للتخفيف على الناس، وهي خطوة إصلاحية قامت بها السلطات من أجل التخفيف من المجاعة، وقد أعلنت ذلك السلطات في الأسواق عن طريق الأبواق وإظهار الألواح بإسقاط المكوس[٣].

وفي رجب ٥٤٣هـ/ نوفمبر ١١٤٨م[٤]، تعرضت العراق إلى القحط، والذي أدىإلى الغلاء في الأسواق، ومن ثم ظهور المجاعة، التي يتحدث عنها ابن الجوزي "أنها طالت أهل القرى والرساتيق، وقد دخلوا إلى بغداد بعد نهبهم فهلكوا عريًا وجوعًا".

وقد استمرت هذه المجاعة شهورًاحتى انجلت في شهر المحرم من سنة ٥٤٤هـ/ مايو ١١٤٩م،إذ رخص السعر وكثرت الخيرات، وخرج أهل السواد إلى قراهم[٥].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٢٨٨.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٦.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٥٠.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٦.
(٥) نفس المصدر السابق، ص٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م،تعرضت بغداد لوباء الجدري، وقد أدىإلى مقتل العديد من السكان، وقد أعقب هذا الوباء، غلاء كبير في الأسعار خاصة في الثورة الداجنة وعلف الحيوانات،إذ وصل سعر الدجاج إلى نصف دانق،والتبن بخمسة أرطال بحبة، وقد تعذر وجود اللحم في الأسواق(١).

أما في عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، كان عامل الشائعات كبيرًا في الغلاء الذي طال لبضعة أيام من تلك السنة،إذ ظهرت شائعة تفيد بموت الخليفة العباسي المقتفي بالله، وقد أدى ذلك إلى انعدام الخبز بالأسواق، وغلاء باقي السلع الضرورية، في الأسواق،ما أجبر السلطات أن تعلن أن الخليفةكان مريضًا لكنه تعافى، فطابت قلوب الناس، وانتهت هذه الأزمة، ولكن في شهر ربيع الأول من تلك السنة توفي الخليفة المقتفي، وبايع الناس خليفته المستنجد بالله(٢).

وهكذا نرى أن شائعة واحدة كانت السبب في غلاء الأسعار، وهو ما يؤكده الباحث من أن العوامل السياسية أو الاجتماعية لها دور في الغلاء، ولها دورًا كبيرًا في تدهور الاقتصاد أو ازدهاره، وهو ما نؤكد عليه حديثًاأن الشائعات جزء من الحرب الاقتصادية أو الاستقرار الاقتصادي لأي دولة، وهذا يكمن في الشائعات أو التحكم فيها من خلال السلطات الحاكمة، فمنع الشائعات بأخبار صحيحة، له أثر السحر في أسعار السلع الضرورية من ثباتها أو ارتفاعها.

أما في السنة التالية ٥٥٦هـ/ ١١٦١م، فتذكر المصادر أن هذه السنة شهدت فائضًا في السلع ما أدىإلى الرخص خاصة في بعض الفواكه مثل الخوخ، أو منتجات حيوانية واجنة مثل اللحوم والبيض والعسل، ويرجع الباحث ذلك إلى أن هذه السنة لم تشهد اضطرابات أمنية أو سياسية كبيرة،إذ جلس المستنجد بالله العباسي على عرش الخلافة، كما شهدت الدولة السلجوقية ركودًا في الأحداث، هذا إلى جانب عامل اقتصادي مهم وهو إسقاط الضرائب في تلك السنة وهو ماكان له أثره في انتعاش الحركة التجارية خصوصًا والاقتصادية عمومًا(٣).

ويبدو أن ظاهرة الرخص في بعض المنتجات والسلع كانت متواجدة في تلك الفترة،إذ شهدت أسعار السكر في الأسواق انخفاضًا كبيرًا وملحوظًا، ففي عام ٥٦٠هـ/١١٦٤م، نجد أن سعر

(١) نفسه، ص١١٨.
(٢)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٣٨.
(٣) نفسه، ص١٤٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السكر وصل إلى قيراط، ويبدو أن السبب في هذا هو جودة النبات أو محصول قصب السكر في تلك السنة[١].

وأيضا امتدادًا لهذه الظاهرة نجد أن الأسماك رخص ثمنها في عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م، بسبب زيادة نهر الفرات وكثرة الأسماك وعمليات الصيد فيه، كما شهدت السنة التي تليها أي عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، رخصًا في أسعار الورد، وذلك لكثرته،حتى بيع الرطل منه بقيراط وحبة[٢].

ومن الواجب على الباحث حتى تكتمل الصورة،أن يبين أن الدولة العباسية في هذه السنوات كانت تعيش فترة استقلال مؤقت، بعيدًا عن القبضة والسيطرة السلجوقية، كما حكم الخلافة العباسية مجموعة من الخلفاء الذين قاموا بدور كبير في محاولة الاستقلال تلك، خاصة في فترة ضعف القبضة السلجوقية على العراق، لذلك نجد أن الأزمات الاقتصادية بالفعل قلت عن سابقتها في السنوات الأخرى، وإن كانت المجاعات وموجات الغلاء لم تنته كلية بسبب وجود الأسباب الطبيعية أو وقوع العراق تحت اضطرابات أمنية وبعض الأزمات السياسية بسبب التنازع بين الخلافة والسلطنة السلجوقية في هذه السنوات.

وهذا يتضح في عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، إذ ارتجت بغداد بشائعة أن جنود الدولة السلجوقية في طريقهم من همدان إلى بغداد، وهذا أدىإلى غلاء الأسعار، وقام الخليفة بجمع جميع الغلات وتخزينها، كإجراء اقتصادي وقت الحرب، كما أمر بعمارة السور وتجنيد من يحق له حمل السلاح، وهكذا نرى أن بغداد والعراق كانتا تحت غمرة ما يسمى باقتصاد الحرب، وكان جمع الغلال والسلع الضرورية من الضروريات أثناء الحصار العسكري[٣].

وفي سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م،تعرضت أكثر البلاد العراقية إلى غلاء شديد، خاصة الموصل،إذأدى الغلاء إلى ظهور مجاعة شديدة في الموصل، وكان ابن الأثير قد شهد هذه المجاعة، ويحكي لنا أنه أنقذ شخصًا تركمانيًا من الجوع، فبعث من يشتري له خبزًا كي يأكله، وهذا يدل أن الفقراء من المدينة عانوا من نقص السلع الغذائية وهذه المجاعة التي امتدت إلى السنة التالية ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م[٤].

---

(١)،ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨ ص١٦٤.
(٢) نفسه، ص١٧٤ و١٧٦.
(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٩٩.
(٤)ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٩٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن الواضح أن هذه المجاعة كانت بسبب القحط والجدب الذي كان يعاني منه الناس في السنتين السابقتين، وهو من أسباب المجاعة، ويحدثنا ابن الأثير في حوادث تلك السنة أن العامة ثارت على السلطات الحاكمة في الموصل والمتمثلة في سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي الذي كان يحكم الموصل وديار بكر، وذلك بسبب إباحة الخمر، فقد رأى العامة ولا سيما العلماء أن الخمر والمنكرات كانت سببًا في غضب الله على المدينة ومنع الأمطار والسقيا، ولابد من إراقة الخمور ومنع الخمارين من عملهم هذا، وقصدوا مساكن الخمارين وخربوها ونهبوا ما فيها، فتحولت تلك الانتفاضة إلى فوضى في المدينة، وقد شكا الخمّارون لسيف الدين غازي الذي نزل من قلعة المدينة لقمع هذه الفوضى وأنهى الخطر، ومرض بعدها، ومات في السنة التالية، فأرجع ذلك العامة إلىانتقام الله[1].

وهكذا نرى نتيجة أخرى للمجاعات أو سببًا رآه العامة لهذه المجاعات وهو غضب الله على المسلمين لأنهم أباحوا المنكرات والمسكرات، وهو مفهوم عقدي عميق، نراه في المحن والأزمات التي رأتها العراق خلال تلك الفترة، فكثيرًا ما كان يرجع العامة ذلك الأمر إلى الغضب الإلهي، ورأينا خلال الفصل هذا مظاهر لذلك من خلال التضرع إلى الله من أجل نزول الأمطار، والثورة ضد المنكرات.

هذا عن المجاعات وموجات الغلاء خلال تلك الفترة، من خلال السرد الحولي لهذا المبحث وبقي للباحث استخلاص النتائج العامة لهذا الفصل، كجزء من البحث والخروج من هذه التفصيلات بخطوط عريضة ومختصرة من خلال الأطر الأربعة التي أشار إليها الباحث في بداية هذا الفصل.

النتائج العامة:

١- من خلال ما تقدم نجد أن **جغرافية العراق** كان لها أثر كبير في تكوين المجتمع العراقي، والأهم من ذلك التأثير النفسي للعراق وسكانه كان من خلال الفيضانات التي تأتي شمالًا سواء من دجلة أو الفرات، فقديمًا كان نهر دجلة ورديفه الفرات وروافدهما، السبب في جعل العراق أراض سهلية رسوبية في وسط صحراوات شاسعة في الغرب والجنوب وجبال شاهقة في الشرق والشمال، وقد رسب النهران الطمي والغرين على قاع الصخور التي تمتد من بادية الشام، وحتى المرتفعات الشرقية،إذ نجد أن الأراضي الزراعية العراقية كانت الملاذ النهائي للإنسان القديم أن

---

(١) نفس المصدر السابق، ص١٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يستقر ويبني حضارة وحياة في واحة زراعية كبيرة في وسط الصحارى والجبال، ولا يقابل هذا الوضع الجغرافي والتاريخي في العراق سوى مصر في منطقة الشرق الأدنى كله.

لذلك جاءت أهمية نهري دجلة والفرات في عدة نقاط كان لها الأثر في تكوين العراق من الناحية الطبيعية والتي كان سببًا في بعض الأحيان في كوارث كبيرة كالتي رأينها مما سبق وهذا يتعلق بالضرورة بطبيعة النهرين وذلك من خلال الآتي:

- يصعب الملاحة في نهري دجلة والفرات، وهذا أدىإلىانفصال بعض المناطق والمدن العراقية عن بعضها البعض، خاصة المدن التي تقع على نفس النهر أو التي تقع وسط القرى والأراضي الزراعية، وكان هذا سببًا في تفاقم الأزمات لا سيما الفيضانات والسيول.

- كلا النهرين يتميزان بالانحدار من جهة الشمال وصعوبة التحرك فيه بسبب الصخور الرسوبية،ما يؤدي لنفس النتيجة من شدة قوة الفيضان وتأثيره على المدن وعزلها عن بعضها البعض.

- يختلف الوضع الجغرافي في الجنوب، فإذا كان الشمال يتميز بالصخرية والانحدار، فالجنوب يتميز بكثرة المستنقعات خاصة نواحي البصرة حتى الوصول إلى شاطئ الخليج في أقصى الجنوب، وهو يؤدي إلى نفس النتائج من عزلة المدن الواقعة على هذا الخط، وعند وقع الفيضان، تصبح الكارثة أقوى مما سبق.

- ظاهرة الفيضانات العنيفة والمتكررة، أثرت على العراقي بجعله متقلب المزاج، سريع الغضب، فهو يشعر بالاستقرار وعمله الزراعي يدل على ذلك، لكن الفيضانات المتكررة وصعوبة مراس النهرين جعلا منه إنسانًا معتادًاعلى الكارثة ومتوقعها علىأي حال، وهذه نقطة وجدناها في الحديث عن الفتن داخل المجتمع العراقي.

٢- كان **التأثير العقدي** واضحًا في تناول الكوارث الطبيعية في العراق خلال هذه الفترة التاريخية، فنجد أن المسلمين بشكل عام، ربطوا وقوع الكارثة بالموبقات والخطايا والذنوب التي يرتكبها العبد سواء كان فردًا أو جماعات، فوجدنا عدة أمثلة مما سبق في الهبات الاجتماعية التي قادها العلماء أو غيرهم في ضرورة التخلص من الخمر وإراقته، ووعظ الناس بترك الذنوب حتى يرفع الله غضبه ومقته عن العباد وتنتهي الكارثة[1]، بل إن صلاة الاستسقاء كانت شيئًا

---

[1] من أشهر الحوادث التي حدث أن الناس اعتقدت أن الكارثة غضب من الله في مجاعة عام ٤٤٩هـ، عندما تصدق الناس بأموالهم وكسروا آنيات الخمور وأراقوها في الشوارع، وكثر الدعاء في المساجد، والتوبة إلى الله؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٧ و٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضروريًا من أجل الاستمطار وطلب الرحمة من السماء وهذا رأيناه في كثير من الأمثلة، خاصة عندما كانت تتعرض المناطق العراقية إلى الجدب والقحط وحبس الأمطار.

بل نجد أن الدعاء والابتهال إلى الله كان شيئًا بديهيًا، فنجد أن الوعاظ يقومون بالابتهالات، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يساعدون الناس في هذه الكوارث من بناء السدود أو ترميمها، بل كان الخليفة نفسه يأمر الوعاظ بالدعوة إلى الله والدعاء أثناء المصائب والمحن، فعندما تعرضت بغداد لبعض التقلبات الجوية من غيوم وظلام دامس ابتهل الوعاظ في المساجد حتىانكشفت الغمة.

ملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام؛ وهي ربط بعض الكوارث أو الظواهر الطبيعية بالأحداث الدنيوية، كموت خليفة أو سلطان،إذ نجد في المصادر المعاصرة لهذه الفترة، ربط واضح لبعض الظواهر الطبيعية بموت سلطان من سلاطين بني بويه أو السلاجقة على السواء، وهذا في مخالفة واضحة لحديث شريف يتحدث عن عدم ربط الظواهر الطبيعية بذلك الأمر، ولكن على أي حال هذا يدل على التأثير العقدي العميق بهذه الكوارث.

وهذا يجرنا للحديث عن الخلفية الدينية والثقافية لهذا التفكير وهو ربط الكارثة بالآخرة أو ربطها بعقيدة المسلمين أو غضب الله على الأمة إذا ابتعدت عن الطريق الصحيح للإسلام.

فكثير من الآيات الواضحة والصريحة والأحاديث النبوية الشريفة كان حافزًا لظهور هذا المعتقد في نفسية المسلمين، وذلك كان الهدف منه، ربط ما يحدث في الدنيا سلبًا أو إيجابًا بالآخرة، وهو علىأي حال ما يميز الفكر الإسلامي،أو روح الحضارة الإسلامية التي تتميز به عن باقي الحضارات الأخرى.

٣- النقطة الرئيسة لهذا الفصل أو النتيجة المباشرة للكوارث الطبيعية التي مرت على العراق؛ كانت في **الناحية الاقتصادية**، فقد أثرت الكوارث بجميع أنواعها على الاقتصاد الذي كان يعاني من السياسة وأشياء أخرى، إلا أنه من الملاحظ وما استخلصه الباحث من هذا الفصل أن الكوارث الطبيعية كانت أشد وطئًا على الاقتصاد من العوامل البشرية الأخرى، فالعوامل الطبيعية كانت كارثية على الاقتصاد وكان أثرها بعيد المدي، وهذا يختلف تمامًاعلى الناحية البشرية من العوامل المؤثرة على الاقتصاد، فالعوامل البشرية كانت هناك في بعض الفترات حلولًا لها، وكانت لا تؤثر إلا وقتيًا في بعض الأحيان، وإذا توافر حاكم قوي تزول أسباب المشكلة الاقتصادية أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاجتماعية بتحسن العوامل السياسية، لكن الطبيعية كانت لها الأثر القوي على المدى الطويل في تدهور المجالات الاقتصادية.

نرى مثلا أن القطاع الزراعي في جميع السنوات التي تناولناها بالبحث في هذا الفصل، قد تأثر تأثيرًا مباشرًا، فجميع الأمثلة تقريبًا تؤدي إلى هذه النتيجة "أن القطاع الزراعي والحيواني كان الأكثر تضررًا من الكوارث الطبيعية جميعها"، فالفيضانات والسيول والأمطار الشديدة والبرد وعدم سقوط الامطار والجفاف والجدب، والزلازل والأمراض والأوبئة، أدت بطريقة مباشرة في أحايين كثيرة إلى تدهور المحاصيل الزراعية، وتدمير الأراضي المنتجة، وتدمير القرى الزراعية،وموت الماشية والأغنام، وبالتالي نقص المواد الغذائية ما يؤدي إلى المجاعات والغلاء.

وبالتالي تدهورت الصناعة بتدهور الزراعة أو الاقتصاد بشكل عام،ففي سياق الأحداث وجد الباحث أن الصناعة وإن كان الحديث عنها في المصادر المعاصرة ليس مباشرًافي تأثير الكوارث الطبيعية عليها كالزراعة؛ إلا أننا نستشف من خلال السطور أن الاضطرابات الاجتماعية المصاحبة للكوارث كان لها تأثير غير قليل على الصناعة،إذ تم نهب المصانع والورش الصغيرة والمحال التي تصرف هذه المنتجات،فأحيانًا ما كان يصاحب الكارثة الطبيعية كالزلازل أو الفيضانات انتشار العيارين واللصوص الذين يقومون بالنهب والسلب وهذا بالضرورة أثر على الصناعة وأدىإلى ركودها في بعض السنوات.

وبالتالي على الناحية التجارية، والتي تأثرت من قطع الطرق، وعدم وصول القوافل التجارية، ونهب وسلب المحال التجارية، وتدمير الأسواق خلال المجاعات أو الكوارث الطبيعية الأخرى أو حريقها جراء الكارثة الطبيعية المباشرة أو ما يصاحبها من عمليات سلب ونهب، وبالتالي تدهور قيمة العملة جراء الغلاء المصاحب للكارثة الطبيعية كان يؤثر في كساد التجارة ونقص المنتجات المباعة والمستهلكة، وأيضا تأثر النقل النهري أثناء الفيضانات، كل ذلك أدى بطبيعة الحال إلى كساد كبير في التجارة خلال بعض السنوات.

٤- النقطة أو النتيجة الأخيرة التي سنستخلصها من هذا الفصل؛ هي دور الحكومات المتعاقبة في الكوارث الطبيعية، فنجد أن بعض الخلفاء والسلاطين كانوا يتدخلون في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فمن خلال الأمثلة، يجد الباحث أن بعض الخلفاء كانوا يقومون بالتدخل في حدود سلطاتهم الضعيفة في بغداد مثلًا في محاولة إنقاذ المتضررين من الفيضانات او الأمطار الشديدة، أو سد البثوق، أو أمر الوعاظ بتهدئة الناس وتذكيرهم بالله، أو قيادة هؤلاء من أجل الدعاء والتضرع، أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلال انتشار الأمراض والأوبئة بتوزيع الطعام والأدوية اللازمة بالمجان، أو غلق المساجد أيام الجمع في حالة الوباء، أو محاولة بدائية من الحجر الصحي وإبعاد الناس عن أماكن الوباء، وكانت هذه المحاولات الحكومية وهذه الإجراءات في ظن الباحث غير كافية لتدارك حجم الكارثة أو احتوائها بنسبة كبيرة، فهذه الإجراءات كانت ضعيفة في أحيان كثيرة، ولكن علىأي حال موجودة وكانت كافية في بعض الأحيان.

كان هذا مسحًا عامًّا للنتائج، مستخلص من التفصيلات التاريخية من خلال السرد التاريخي للكوارث الطبيعية المشار إليه في الفصل آنفًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الخامس

الأزمة الإقتصادية وأثرها علي العامة في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي

- المبحث الأول : حركة الدخل والفارق بين طبقة الحكام والرعية .
- المبحث الثاني : مظاهر مستوي المعيشة عند العامة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يهتم المؤرخون المسلمون بالدراسات التي تتناول تاريخ العامة، وهذا على العموم في كتاباتهم، لكن ما بين السطور نجد أن للعامة دورًا مهمًا في حركة التاريخ الإسلامي، فهم الشعب الذي قامت من أجله الحكومات، وهم الرعية التي كانت تضج من أفعال الحكام في بعض الأوقات، وهم العوام الذين عانوا الأمرين من الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولعل في الفصول السابقة أشار الباحث إلى دور العامة في شذرات وتفصيلًا، ففي خلال هذه الدراسة تناولنا بالبحث والتفصيل دور العامة في الحركات الاجتماعية، خاصة في المبحث الذي يتحدث عن العياريين والشطار، ككجزء من فئة العامة التي عانت وشاركت في ظهور الأزمة أو عانت من جراء نتائجها.

ويتحدث هذا الفصل، وهو الفصل الأخير، عن العامة والآثار الاقتصادية السيئة التي عانى منها هؤلاء العامة، سواء في حركة الدخل والأسعار المرتفعة، وعلاقتهم بالطبقات الأخرى في المجتمع، كما نتناول بالبحث مظاهر مستوى المعيشة لهؤلاء العامة في طرائقهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن وكل ما يخص حياتهم اليومية، وكيف كانت الأزمات الاقتصادية تؤثر بشكل مباشر على هذه الطرائق والعادات.

يتناول الفصل مبحثين وهما:

- **الأول ويتناول حركة الدخل والفارق بين طبقة الحكام والرعية.**
- **أما الثاني فهو يتناول مظاهر مستوى المعيشة للعامة.**

المبحث الأول: حركة الدخل والفارق بين طبقة الحكام والرعية خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

سيناقش هذا المبحث نقطة الفارق بين الدخل النقدي والعيني لطبقات المجتمع المختلفة، بما فيها العامة وهو الجزء الأصيل في هذه النقطة البحثية، فالعصرين البويهي والسلجوقي شهدا فارقًا كبيرًا في الدخل بين طبقات المجتمع العراقي، ما أدىإلى تفاقم الأزمة الاقتصادية ومعاناة العامة جراء تلك الأزمة الاقتصادية.

ولعل تقسيم الطبقات سيكون ضروري عند نقاش تلك النقطة،وسنقسم حركة الدخل لكل فئة من فئات المجتمع حسب الهرم الاجتماعي الموجود في تلك الفترة، وذلك كل على حدة كالتالي:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في العهد البويهي:

- **طبقة الخلفاء:**

وهم خلفاء بني العباس الذين يحكمون الخلافة والتي مقرها بغداد منذ قرون، وترسخت في أذهان المسلمين أن زوالهم هو زوال الدنيا ذاتها، وقد شكلت طبقة الخلفاء رأس الهرم الاجتماعي رغم سيطرة الضعف عليها، وتسلط القوى العسكرية عليها منذ القرن الثالث الهجري، إلا أن مكانة الخلافة كانت كبيرة في النفوس ولها احترامها عند العامة على الخصوص، ولها مكانة وقدسية شكلية سياسية عند الأمراء والسلاطين المتسلطين، سواء القادة الأتراك، وما يليهم من البويهيين والسلاجقة.

وبالرغم من التسلط العسكري الواضح على الخلفاء العباسيين،حتى في الدخل والنفقات، فقد استمر الدخل مرتفعًا، وإن قل أو صودرت أملاك الخلفاء كما رأينا،أو تم تقليل الإقطاعيات التي حازها الخلفاء من الأمراء البويهيين، ولمزيد من فهم هذه النقطة، وهي الفارق بين دخل الخلفاء سابقًا ولاحقًا، أي قبل التسلط البويهي وما بعده، يجب أن نقارن هذا الدخل في نبذة تاريخية يسيرة، كي يتبين لنا كيف كان الدخل متأثرًا بالحالة الاقتصادية والسياسية.

ففي العصر العباسي الأول، وهو عصر قوة الخلافة، كانت نفقات الخلافة بها حرية،إذ ينفق الخليفة مبلغ كبير ،فكان دخل الخلفاء يساوي الملايين من الدراهم وآلاف الدنانير [١]، ويبدو أن قوة الدولة العباسية السياسية والاقتصادية كانت عاملًا كبيرًا في مقدار الدخل والنفقة التي يقوم بها الخلفاء العباسيين.

فعلى سبيل المثال وصلت نفقات هارون الرشيد نحو ٣ ملايين وستمئة ألف درهم سنويًا [٢]، بينما بلغت نفقة المأمون ٢مليون ومئة وستين ألف دينار، وهو مبلغ ضخم للغاية [٣]، بينما وصلت نفقات المتوكل على الله ٢ مليون دينار سنويًا [٤]، وفي عهد كل من المنتصر والمعتز والمستعين وصلت النفقات لنحو أكثر ٣ مليون درهم [٥].

---

[١] ضيف الله يحيى الزهراني، النفقات في الدولة العباسية، ص١٤٩.

[٢] نفس المرجع السابق، ص١٥٠.

[٣] نفسه، ص١٥٠.

[٤] الرشيد ابن الزبير، الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٥٩م، ص٢٣٠.

[٥] الزهراني، المرجع السابق، ص١٥١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونجد أن العصر العباسي الثاني،اختلف من حيث حركة الدخل والنفقات للخلفاء العباسيين،إذ قل المبلغ السنوي المخصص للخلافة، بسبب الظروف السياسية والاقتصادية، فمن حيث الظروف السياسية تسلط القادة الأتراك على الخلفاء العباسيين، وتعرض الخلفاء للتنكيل في بعض الأوقات، بل للاغتيال، وهو ما شكل خطرًا على حيوية الدولة العباسية التي قلت مواردها بسبب انفصال الولايات عنها، واستقلال بعض الولايات الأخرى مثل الدولة الطولونية في مصر والشام ومن بعدها الإخشيدية، كما استقلت ولايات الشرق ما بين الدولة الطاهرية وغيرها من الدول، ما أدىإلى قلة الوارد على خزانة الخليفة.

هجمات القرامطة، وثورة الزنج أيضًا شكلتا خطرًا كبيرًا على الموارد الاقتصادية، لا سيما التجارية منها،إذ تهددت طرق التجارة المحلية والخارجية، وهو ما أدىإلى ظهور الأزمات الاقتصادية،وبالتالي قلة الوارد والدخل على جميع فئات المجتمع وعلى رأسها الخلافة [١].

إلا أن قلة الوارد والأزمة الاقتصادية لم تعرف طريقها إلا للعامة بوطأتها الشديدة وهو ما سنجده أيضًا في العصر البويهي، فعلى كل حال، عاش الخلفاء في رغد من العيش، وبحبوحة من أمرهم، ولم يعانوا بالطبع مثل العامة الذين كانوا يعانون من الجوع والحرمان.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، وصلت النفقات السنوية للخليفة المهتدي، حوالي ٣٦ألف درهم[٢]، وهو مبلغ قليل إذا قورن بالمبالغ السابقة، ولعل عصر المهتدي بالله كان عصرًا إصلاحيًّا من الناحية الاقتصادية، فحاول الرجل تخفيف الأزمة، لذلك خصص هذا المبلغ لنفقاته السنوية، وهذا يدل على أن وطأة الأزمة طالت الجميع خلال تلك المرحلة.

الحديث عن نفقات الخلفاء يجرنا نحو الحديث عن موارد الدولة العباسية، والتي كانت موارد ضخمة في بداية تأسيسها، واستمرت هذه الضخامة حتى نهاية العصر العباسي الأول، لكن، كما أشرنا آنفًا،تضاءلت الإيرادات شيئًا فشيئًا وفقًا للظروف السياسية.

أما عن الموارد فيمكن اختصارها في الخراج، والذي شكل موردًا كبيرًا للخزانة[٣]، كما نجد أن الجزية والصدقات والأخماس وضريبة العشور التجارية، والضرائب المفروضة على الإرث

---

[١] الزهراني، نفقات الدولة العباسية، ص١٥٢.

[٢] يقول المسعودي إن نفقة المهتدي يوميًّا كانت ١٠٠ درهم فقط، وبحساب بسيط نجد أن نفقاته السنوية بلغت ٣٦ الف درهم، وهو مبلغ قليل بالطبع عن سابقيه ولاحقيه؛ المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص١٥٣؛ انظر أيضًا الزهراني، المرجع السابق، ص١٥١.

[٣] يشكل الخراج نسبة كبيرة من موارد أو حمولة بيت المال كما يذكر قدامة بن جعفر؛ انظر قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م، ص٣٦ ؛ أبي يوسف، كتاب الخراج، ص٣ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحوانيت والأسواق، والمستغلات والمصادرات، والمخالفات التي تفرضها الشرطة، شكلت كل هذه موارد كبيرة للدولة العباسية التي شملت العراق والبلدان المجاورة حتى حدود إفريقية[1].

أما في العصر العباسي الثاني والعصر البويهي على السواء لم تختلف هذه الموارد كثيرًا عن سابقتها، وأضيف إليها بعض الضرائب المستجدة التي كان في بعض الأحيان يفرضها الأمراء البويهيين من فترة إلى أخرى وفقًا للظروف، وعلىأي حال شكّل الفصل الثاني من هذه الدراسة، حديثًا مفصلًا ومطولًا عن الضرائب والموارد التي كانت تدر دخلًا كبيرًا للدولة.

أما عن دخل الخلفاء في العصر البويهي، فنجد أن التسلط العسكري ترك آثاره العميقة على دخل الخلفاء الذي قل بدرجة كبيرة، وهذا كان مظهرًا فيما يبدو من مظاهر هذا التسلط، فمعز الدولة البويهي خصص للخليفة المطيع لله راتبًا يكفيه،وقدَّرته بعض المصادر بألفي درهم يوميًّا، أي وصل إلى ٦ آلاف درهم شهريًّا وهو مبلغ ضئيل بالنسبة للدخول السابقة[2].

وبهذا نجد أن البويهيين وجدوا أن مصاريف البلاط المترفة لا بد من تقليلها لصالح ترفهم هم شخصيًّا، فالدكتور الدوري يوضح أن الفترة التي سبقت الحقبة البويهية وخاصة ما بين عامي ٢٩٦هـ/ ٣٢٠هـ - ٩٠٩م/ ٩٣٢م، وصلت مصاريف الخلافة نحو ٢مليون دينار وثمانمئة وثمانين ألف دينار، وهو مبلغ كبير في ظل الأزمة التي طالت جميع فئات المجتمع، لذلك عمل البويهيون على الحد من تلك النفقات لصالحهم بلا شك[3].

ونجد أن السلطة البويهية كانت تعطي الراتب للخليفة بعد تخصيصه على هيئة إقطاع أراضٍ يتملكه الخليفة ويعيش منه في أغلب فترات الدولة البويهية، فعلى سبيل المثال، نجد أن الخليفة المطيع حاز إقطاعًا من السلطات البويهية بنحو ٢٠٠ ألف دينار سنويًّا[4]، لكن هذا الإقطاع الثابت بالنسبة للخلفاء تأثر بالانخفاض في عهود الأمراء البويهيين المتعاقبين،إذانخفض حسب ما يشير الدوري بنحو ٧% من قيمته الأصلية، أي أن مبلغ المئتي ألف دينار انخفض إلى ١٨٥ألف دينار سنويًّا فقط[5].

---

[1] فاروق عمر فوزي، تاريخ النظم الإسلامية (دراسة لتطور المؤسسات المركزية في الدولة في القرون الإسلامية الأولى)،دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠م، ص٣٨٧ وما يليها.

[2] مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٧٧.

[3] الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٤٧.

[4] نفس المرجع السابق، ص٢٧٥.

[5] نفسه، ص٢٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى أي حال، فقد تعرض الخلفاء للمصادرات المالية، والتعسف المالي في ذلك العصر، لكنه - كما أشرنا في موضع سابق - لم يمس كرامة الخليفة بالحد الأدنى من العيش الكريم في ظروفه السياسية، لكنه مس بالتأكيد العامة وهو ما سنشير إليه لاحقا.

- **طبقة الأمراء البويهيين:**

عاش الأمراء البويهيون في بحبوحة من العيش، فالمدخلات المالية التي كانت ترد على العراق كان لهم نصيب كبير منها بحكم النفوذ والسيطرة، ويكفي أن نسوق الأمثلة على ذلك، فعند دخول البويهيين بغداد، نجد معز الدولة البويهي يختار الجانب الشرقي من بغداد للإقامة والسكنى ولتكون مقرًا له في عاصمة الخلافة، وبالفعل بنى معز الدولة قصرًا منيفًا في منطقة باب الشماسية،كما اشترى الدور المجاورة وقام بتوسعة القصر[1]،إضافة إلى الاستيلاء على حديقة الصميري،والتي كانت لابن شيرازاد آخر أمير للأمراء قبل الفترة البويهية.

وكان هذا القصر بتوسعته الكبيرة في باب الشماسية وبالأبنية الملحقة المشرفة على نهر دجلة، والميدان والشارع الجديد الواصل بين دجلة والقصر، مظهرًا من مظاهر النفوذ والقوة البويهية، فقد تكلف بناء كل هذا نحو ثلاثة عشر مليون من الدراهم، وهو ما يوضح لنا مدى الترف الذي عاش فيه البويهيون منذ ابتداء دولتهم[2].

وتشير المصادر إلى أن معز الدولة البويهي بنى بيتًا بعد مشورة رجاله، وسماه الدار المعزية، وذلك بعدما مرض بسبب هواء بغداد، فبدلًا من أن يذهب إلى الأهواز كما كان يقرر، أشار عليه رجاله ببناء دار كبيرة يستشفي فيها، لكنه لم يعش فيها بسبب موته، وقد تكلفت هذه الدار حوالي ٢ مليون دينار[3].

وتوضح المصادر أيضًاأن معز الدولة أقدم على بناء مدينة ملوكية جديدة لتكون مقرًا له ولخلفائه في العراق، بعيدًا عن صخب بغداد[4]، لكن تعذر بناء هذه المدينة، وذلك بسبب قلة الأموال في الخزانة في تلك الفترة، فقد كانت العراق مرهقة من فترة إمارة الأمراء والنزاع والحروب الداخلية التي حدثت بين أطراف عديدة، وقد اكتفى معز الدولة ببناء هذا القصر.

---

(١)مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٣٢٨.
(٢)نفس المصدر السابق، ص٣٢٩ ؛ قدر ابن الجوزي هذا البناء بمئة ألف ألف درهم؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص١٣٢.
(٣)نفس المصدر السابق، ص١٣٢.
(٤)ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجدير بالذكر أن بغداد كانت تعاني من المجاعة خلال بداية الحكم البويهي، فدخول البويهيين بغداد والحروب السياسية أدىإلى مجاعة وغلاء كبير في الأسعار،حتى أن الناس أكلت الدواب والكلاب، وماتواعلى قارعات الطريق لا حول لهم ولا قوة[١]، في نفس التوقيت الذي كان البويهيون يقومون بتشييد مركزهم في باب الشماسية.

أما ولده عز الدولة بختيار، فهناك أدلة على عيشه في ثراء فاحش، وهذا ليس ضربًا من خيال، فالواقع يحتم على المتسلط على الأمور السياسية والاقتصادية أن يعيش في ترف، هكذا علمتنا الأحداث، فعز الدولة بختيار بنص ابن الأثير كان يعيش على اللهو واللعب وعشرة النساء والمساخر والمغنين، كما استولىعلى إقطاعات الكثير من قادة الجيش وتحكم في أموالها وريعها، ما أدىإلىازدياد دخله وبالتالي نفقاته[٢]، وهو ما أدخله في صراع كبير مع حاجبه القائد العسكري سبكتكين، وقادته من الأتراك.

ونجد أيضا أن أمراء بويهيين آخرين عاشوا في ترف واستخدموا أموالهم الطائلة في الصراعات السياسية، فها هو حبشي بن معز الدولة وأخو بختيار، أعطى مائتي ألف درهم للوزير أبو الفضل العباس بن الحسين كرشوة حتى تبتعد قوات أخيه عنه، عندما أراد الاستقلال بالبصرة[٣].

أما عن عضد الدولة أقوى رجال البيت البويهي، فقد استخدم ماله ومال أبيه حاكم فارس ركن الدولة البويهي في تثبيت أقدامه في العراق،إذ أنفق الكثير من الأموال على حربه مع عز الدولة بختيار حتى تم له الأمر بالاستيلاء على حكم العراق وتثبيت ملكه فيها[٤].

ويبدو أن عضد الدولة الذي كانت العراق في عهده مستقرة اقتصاديًا، أقام وشيَّد هو الآخر دارًا للسلطنة والمملكة وألحقه ببعض البنايات التي يستخدها الجنود الديلم، بل وبنى دارًا للوزراء ودارًا للعامة؛ أي يتصل الدار بشكاوى العامة، وقد تكلف هذا البناء عشرة ملايين درهم، ما يدل على قوة ونفوذ عضد الدولة أيضًا[٥].

---

[١]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٤٧ ؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٧٩.
[٢]ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٢٩٩.
[٣]مسكويه، المصدر السابق، ص٣٥٨.

[٤]مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤٢٨.
[٥]المصدر السابق، ص٤٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان عضد الدولة البويهي محبًّا للعلم والعلماء، ومبدعًا في الشعر، ويتكالب عليه الشعراء من كل حدب وصوب، طمعًا في الصلات والأموال التي ينفقها عضد الدولة حتى يذكرنا بالخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول، فيقول الشاعر محمد بن عمران الأنباري مادحًا إياه[1]:

علو في الحياة وفي الممات	**لحق أنت إحدى المعجزات**
كان الناس حولك حين قاموا	**وفود نداك أيام الصلات**
كان قائم فيهم خطيبًا	**وكلهم قيام للصلاة**

ولم يقم عضد الدولة فقط بالنفقة على الشعراء المادحين، والأدباء الندماء الجالسين في بلاطه، بل كان يخلع علىبعض الكتاب المتميزين، فها هو الصاحب بن عباد منحه عضد الدولة فرسًا بمركب ذهب ونصب له دستًا كاملًا يتصل بمضاربه وأجلسه فيه[2].

ونجد أن نفقات الأمير البويهي كانت تتناسب عمومًا مع نفوذه ومكانته،فعضد الدولة،كان يحتفل بعيد ميلاده في أبهة وعظمة لم يتسنَّ لخلفائه أن يقلدوه فيها، فيصف التنوخي هذا الحفل بأن عضد الدولة يستعد قبلها بساعات بأن يتبخر ويتطيب ثم يخرج إلى مجلس عظيم جُهز فيه آلات الذهب والفضة وأنواع عديدة من الفواكة والرياحين، في وجود المطربين والشعراء والندماء والأشراف والوزراء والقواد، في مشهد مهيب ووسط مراسم فارهة[3].

وهنا نتساءل، من أين جاء كل هذا الترف والثراء العريض؟

فالإقطاعات التي حازها كل الأمراء البويهيين بعد غزو العراق وفارس، كانت كبيرة، فكلها كانت بأيدي العباسيين وآلت إليهم، وبنظرة أكثر منطقية سنجد أن الإقطاعات التي كان يوزعها الأمير البويهي على رجاله وقاداته وأتباعه كانت كبيرة،إذ كانت بديلًا عن الرواتب، فلنا أن نتخيل أميرًا بهذا النفوذ المطلق يحوز معظم أراضي البلد الزراعية، كيف سيكون نصيبه من النفقة والترف؟

وهكذا نرى أن ضياع الأمير البويهي، كانت هي ضياع الخليفة العباسي، وزادت عليها الضياع المستولى عليها من الموتى الذين لا عقب لهم، وعلى الضياع المصادرة لأسباب سياسية، أو عن طريق الشراء في بعض الأحيان، ما أدىإلى توسع هذه الضياع، وبالتالي زيادة الدخل والنفقة[4].

---

(1)ابن الجوزي، شذور العقود، ص٢٣٠ ؛ وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص١٢٩.

(2)وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص١٣٢.

(3)محمد بن عنيزان بن قميش العازمي، مظاهر الحياة السياسية والعلمية والاقتصادية في القرن الرابع الهجري من خلال أدب القاضي المحسن التنوخي، بحث منشور في جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠٠٣م، ص٥٠.

(4)حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٤١ و٣٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإلى جانب المصادرات والشراء، فكان التعسف يشق طريقه رويدًا رويدًا من أجل توفير الأموال الطائلة لهذا الترف، فنجد أن قائدًا عسكريًا يدعى كردكقام بقتل تاجر من البصرة والاستيلاء علىأملاكه الطائلة، وقد أهداها إلى معز الدولة، وقام معز الدولة ببيعها وشهد التنوخي القاضي على ذلك[1].

ويبدو أن جميع الأمراء البويهيين كانوا أثرياء بما يكفي لتجهيز جيوش كثيرة، ليس للدفاع عن الدولة، بل لخدمة الصراعات السياسية بينهم، فعلى سبيل المثال،قام بهاء الدولة بالاستيلاءعلى مدينة أرجان أثناء مسيره إلى صمصام الدولة ومحاربته،واستولىعلى مبلغ ضخم من المدينة،يقدره ابن خلدونبنحو مليون دينار، وثمانية ملايين درهم[2]، هذا بالإضافة إلى الثياب الفاخرة والجواهر والكنوز الذهبية والفضية، وهذا يدل على أن دخل الأمراء كان ضخمًا للغاية جراء المصادرات والتسلط على الدولة بكل مواردها.

ولو وجهت هذه الأموال في مصارفها الشرعية على الشعب والعامة لنجت العراق من الأزمات الاقتصادية المدمرة التي لحقت بها، لكن هكذا التسلط العسكري ترك آثاره العميقة على حركة الاقتصاد ولا سيما الدخل، فعاشت الطبقة الحاكمة في بحبوحة من العيش بينما عانى الشعب الفقر والجوع والمرض.

ولم يكن الخلفاء والأمراء البويهيون في خانة الحكام وحدهم، فقد شاركهم الوزراء، وهو ما سنتطرق إليه الآن.

- **طبقة الوزراء:**

كانت الفئة الثالثة التي تقاسمت اللهو والترف والدخل المرتفع في طبقة الحكام بعد الخلفاء والأمراء البويهيين، الوزراء،الذين كانوا ركنًا أساسيًا في منظومة الحكم البويهي، ولكن بدرجة أقل. وتعتبر الوزارة في العهد البويهي فاقدة للمكانة العريضة قبل هذا العهد خاصة في العصر العباسي الأول، ثم العصر العباسي الثاني حين كان للوزير رونق وبهاء، لكن ابتداء من عصر البويهيين، بدأ الوزراء يفقدون بريقهم وقوتهم وتأثيرهم السياسي،إذاجتمعت كل السلطات في يد الأمير البويهي.

وعلى الرغم مما سبق، فإن للوزير في العهدالبويهي مكانة أدبية، من حيث النفوذ وحصوله على دخل مرتفع بين أقرانه من أصحاب الوظائف سواء المدنية أو العسكرية.

---

(1)التنوخي، نشوار المحاضرة، ج١، ص٣٤٨.

(2)ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٦١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما عن دخل هؤلاء الوزراء فقد كان مرتفع، ويظهر لك من خلال بعض النقاط التالية:

- كان الوزراء يتقاضون رواتبهم بنسبة مرتفعة، كما كانوا يأخذون نسبة من هذا الراتب على هيئة إقطاعات زراعية، مثلهم مثل القادة العسكريين، فهذا كان إقطاعًا مدنيًا يدر دخلًا مرتفعًا لهؤلاء الوزراء، وهو بالتالي ينعكس على ثروة هذا الوزير، وبالتالي نفقته الشخصية(١).

وكثير من الوزراء كانوا يقومون بالمصادرات التي تدر على خزانة الدولة البويهية الأموال الكثيرة، فكانت تلك الأموال تذهب إلى الخزانة وجيوب الأمراء البويهيين(٢)، ويظن الباحث أيضًا أن جزءًا من هذه الأموال كان يذهب إلى الموظفين الإداريين، لا سيما الوزراء، وهم من يشرفون على عملية المصادرات السياسية وغيرها.

فعلى سبيل المثال، نجد الوزير أبو محمد الحسين المهلبي، وكان من أكفأ وزراء الدولة البويهية، إلا أنه بالرغم من كفاءته وقوته وخصاله السياسية التي لا بأس بها، كان لا يتورع عن أخذ بعض المصادرات إلى بيته(٣).

وقد ذكر مسكويه نصًا يوحي بذلك الأمر السابق، وهو تفتيش بيت أبي علي الخازن، الذي صدر أمر بمصادرة أمواله، وكان يشرف على هذه المصادرة الوزير نفسه،إذ "حصل الأموال إلى خزانة الدولة" واستولىعلى آلة شبيهة بالميزان عليها رسوم وكتابات غير مفهومة كالتشفير وذهب بها إلى منزله(٤).

صحيح أن تلك الآلة قادته إلى بعض الناس الذين صدر بحقهم مصادرات، إلا أن الآلة ذهبت إلى منزله في النهاية.

ونجد أن هناك بعض الوزراء كانوا مسرفين بحق الأموال، فهذا ابن بقية الوزير الذي استولىعلىأموال أبي الفضل الكاتب وآخرين، وقد أفنى ذلك المال كله حتى لم يبق شيئًا(٥).

ويبدو أنه كان غشومًا ظلومًا مع الرعية،إذ فرض إتاوات وغرامات لصالح جيبه الشخصي، ما أدى إلى اضطراب أحوال البلاد في عهده.

---

(١)حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٣٤٣.
(٢)حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٢٢٣.
(٣)مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص ٣٢٦.
(٤)نفس المصدر السابق، ص٣٢٦
(٥)وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص٩٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- امتاز وزراء الدولة البويهية ببعض الصفات المهمة، منها الغنى والثراء العريض، فمنهم من كان يشتري المنصب بماله، وهذا يدل على أن هؤلاء الوزراء كانوا أصحاب دخل مرتفع يتناسب مع المكانة والنفوذ الذين يعيشون فيه[١].

فعلى سبيل المثال،قام فخر الدولة البويهي بتعيين وزيرين عن طريق الرشوة وشراء المنصب، فبذل أبو العباس الضبي ستة ملايين درهم، وأبو علي بن حمولة مبلغ ثمانية ملايين درهم مقدمة منهما إلى فخر الدولة، فأعطاهما منصب الوزارة مقتسمة بينهما ووقع التراضي بينهما بذلك، وهذا ما يدل على ثراء تلك الفئة، والتي كانت تنتمي بأموالها إلى الطبقة الحاكمة[٢].

- كان هناك بعض الوزراء ينفقون أموالهم في الترف والمتعة والملذات وإمالة أصحاب النفوذ إليهم، فالوزير أبو الفتح بن أبو الفضل ابن العميد كان يقوم باستمالة القادة الديلم بالخلع والهدايا، كما كان يدعوهم إلى اللعب واللهو والصيد في الصحراء، وهو ما يدل على الترف الذي كان يعيش فيه هذا الوزير[٣].

وكان الوزير المهلبي يقوم بإغداق أموال كثيرة على الشعراء والمغنيين والعلماء والأدباء في مجلس يعقده في بلاطه في حفلات صاخبة بشتى صنوف الطعام والشراب[٤].

المصادرات التي قام بها الأمراء البويهيون بحق الوزراء كانت دليلًا يجب أن نسوقه علىارتفاع دخل ونفقة هذه الطبقة، فقد تعرض بعض الوزراء إلى مصادرات سواء في حياتهم أو بعد مماتهم.

فنجد أن الوزير المهلبي وكان المسؤول الأول عن المصادرات في عهد معز الدولة البويهي، ذاق من نفس الكأس، فقد تعرضت عائلته للمصادرات، والاستيلاء على أموال جمة وتحويلها إلى خزانة الدولة[٥].

وكذلك أبو الفتح بن أبو الفضل ابن العميد، تعرض للسجن والتعذيب في عهد عضد الدولة البويهي، وذلك في عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م، من أجل مصادرة أمواله والاستيلاء عليها[٦].

---

[١] حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ص٢٢٣.
[٢] وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص٩٨.
[٣] نفس المرجع السابق، ص٩٣.
[٤] التنوخي، نشواز المحاضرة، ج٢، ص٧٩ وما يليها.
[٥] وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص٩٩.
[٦] مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤٣٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يسلم الصاحب بن عباد الوزير الأشهر لبني بويه من المصادرة،إذاستولي أبو العباس الضبي وابن حمولة الوزيرين الذين آتوا بعد موت الصاحب،على داره وأخذا الكثير من الأموال[١].
كل هذه الأمثلة تدل على ثراء وارتفاع دخل الوزراء كفئة من ضمن الطبقة الحاكمة للدولة البويهية سواء في العراق أو فارس.

- **دخول الفئات الأخرى:**

وهو ما يسمىاصطلاحا بالطبقة الوسطى، وهم الكتاب والولاة وأفراد الجيش، فنجد أن رواتب القضاة والكتاب أثناء العهد البويهي لم تزد كثيرًا عن العهود السابقة، فعلى سبيل المثال كان القضاة يتلقون ٦٠ دينارًا في الشهر[٢]، وهذا كان راتب القاضي التنوخي المتوفى عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م،وكان هناك بعض القضاة لا يتلقون راتبًا نظير القضاء، مثلما حدث مع حادثة القاضي أبو بشر بن عمر بن أكثم، الذي أراد أن يتولى قضاء مدينة دار السلام بلا رزق[٣].
وجدير بالذكر أن فئة الولاة، كان راتبها ضعيفًا بالنسبة للرواتب الأخرى وبالنسبة للعصور الأخرى، وهو ما فتح باب الفساد والرشاوى، فعلى سبيل المثال، تركت المقاطعات العراقية وغيرها في أرجاء الدولة البويهية للديالمة وأصحاب الضمان وكان همهم جمع الأموال والثراء السريع على حساب الخزانة السلطانية[٤].

وعلى العموم، فقد انخفضت رواتب الموظفين المدنيين كثيرًا في العهد البويهي، بإستثناء نقيب الطالبيين الذي كان راتبه عبارة عن إقطاعات جليلة تدر عليه سنويًا مبلغ ٢٠ مليون درهم[٥]، وقد لا نندهش من مبلغ هذا النقيب، لأن الغرض من زيادة إقطاعاته وراتبه سياسي، وذلك لمساندة البويهيين في التغلغل الشيعي الذي تبنوه في العراق.
أما رواتب الجند فلم تكن بدعًا من السابق، فلم يكن راتب الجندي في الجيش البويهي كبيرًا[٦]، رغم أن هذه الرواتب زادت عن عصور سابقة وهذا في العموم.

---

(١)وفاء محمد علي، المرجع السابق، ص١٠١.
(٢)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٨٠.
(٣)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٨٠.
(٤)نفس المرجع السابق، ص٢٨٠.
(٥)نفسه، ص٢٨٠ وما يليها.
(٦)نفسه، ص٢٨٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دليل الباحث علىأن هذا الدخل كان لا يرضي الجندي البسيط، هو كم الثورات والشغب الذي قام به الجنود في الفترة البويهية، فلا غرو إذا قلنا إن كل عام كان يتجدد هذا الشغب، وهو ما استغله البعض سياسيًا.

فهناك اختلاف بين رواتب الجند البسيطة التي كادت أن تكفيهم وزادت في عهود أمراء بويهيين، وبين راتب القائد العسكري الذي كان يتكون من إقطاع زراعي، وهو ما يسميه بعض المؤرخين بالإقطاع العسكري[١].

وهذا لا يعني أن الأمر استمر على هذا المنوال، فهناك إقطاعيات خصصت لرواتب الجنود فقط من كل العناصر التي تكونت منها الجيوش البويهية، وهو ما يجعلنا أن نقول إن السلطة البويهية كانت حريصة على رواتب الجند الذين يشكلون طوع يمينها في القضاء على أعدائها وللحفاظ على الاستقرار في أرجاء الدولة.

أما عن الأمثلة التي تتحدث عن هذا الإقطاع، فنورد منها الآتي:

- في عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م، وزعت السلطة البويهية إقطاعات بمقدار مائة ألف دينار سنويًا لتكون جريًا وراتبًا وعطاء للجند الديلم والأكراد، الذين بلغ عددهم حوالي ٨٠٠ جندي، وبذلك أصبح لكل جندي ١٠ دنانير راتبًا شهريًا له، وهو راتب متوسط[٢].
- تخصيص راتب خاص لأصحاب الرتب الوسطى بالجيش من الإقطاعات وبذلك يصل رتبة النقيب الديلمي في الجيش لراتب ٤٠ دينارًا شهريًا[٣].
- تخصيص راتب للغلام الديلمي من الإقطاعات ليصل راتبه ٢٠ دينارًا شهريًا[٤].

أما عن المكآفات الخاصة، فقد كان الأمراء البويهيون يعطونها في مناسبات خاصة أو استثناء لتشجيع وتحفيز بعض الفئات المشتركة في الجيش أو زيادة في راتبهم من أجل العمل أكثر في الجيش، فعلى سبيل المثال، قام عضد الدولة بتوزيع راتبًا يتراوح بين ٢٠ إلى ٤٠ دينارًا شهريًا،على أن يوزع هذا الراتب على المتطوعة من العرب[٥].

---

[١]انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة وقد فصّل الباحث هذه النقطة.

[٢]الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٨٢.

[٣]نفس المرجع السابق، ص٢٨٢.

[٤]نفسه، ص٢٨٢.

[٥]الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٨٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **دخل العامة:**

عانى العامة في العهد البويهي وقبله من صنوف من الفقر والعوز، وذلك بسبب أمرين مرتبطين ببعضهما، الأول قلة الدخل العام للعامة، والثاني بسبب غلاء الأسعار الناتج من الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما عن الدخل العام لفئات العامة، فقد عانى العامة من قلة دخلهم بما لا يتناسب مع الغلاء الذي ضرب أطناب العراق في تلك الفترة،ففي العقد الرابع، تراوحت الرواتب اليومية بين نصف درهم ودرهم كامل يوميًا، أي ما يتراوح شهريًا بين ٢٥ و٣٠ درهم وهو مبلغ لا يتناسب مع الغلاء[١].

إلا أن هذا لم يكن الأساس، فالرواتب كانت تختلف من صنعة إلى صنعة، ومن مكان إلى آخر، ومن سنة إلى سنة تبعًا لظروف الغنى واليسار لصاحب الحانوت أو المصنع أو الأرض الزراعية، أو حسب سني الاستقرار الاقتصادي أو الاضطرابات التي كانت تعاني منها الدولة البويهية من فترة إلىأخرى.

فعلى سبيل المثال كان الملاحون، وهي مهنة كان يعمل بها عدد لا بأس به من القوى العاملة لا سيما في مدينة بغداد، كانت تتراوح أجرة النقل بين دينار أو دينارين وذلك حسب المسافة أو المكان الذي سيتجه إليه الملاح،أو يأخذ الملاح طعامًا من الفقير بدلًا من الأجرة[٢]، ولكن هذا في ظروف استثنائية،أو أخذ درهم واحد فقط من الفقير لقاء نقله، وهذا يدل على أن أجرة الملاحين كانت متذبذبة ومفتوحة حسب العرض والطلب.

أما الحياكون وأصحاب ورش الغزل من النساء والرجال على السواء، فقد عانوا في العهد البويهي من قلة الرواتب، ولا أجد مثالًا أوضح مما حدث في عام ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م، عندما فرض أبو نصر سابور الوزير ضريبة على الحياكين وأصحاب ورش الغزل، ما أدىإلى ثورتهم، وقصدوا المسجد الجامع في يوم الجمعة، وقطعوا الخطبة وثاروا في الشوارع وأحرقوا دور الموظفين، وتم القبض على عدد منهم وسجنوا علىأثر ذلك[٣].

---

(١)فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٢٩٥.
(٢)نفس المرجع السابق ، ص٢١٢ و٢١٣.
(٣)فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٢١٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن المعروف، وكما أشار الباحث في الفصل الثاني أن العهد البويهي كان مليئًا بالضرائب المفروضة على أصحاب الحرف، وكانت هذه الضرائب تؤدي إلى قلة هامش الربح لهؤلاء الصناع، ما يؤدي في النهاية إلى قلة دخلهم، وضيق أرزاقهم.

لكن لم تكن جميع الحرف تعاني من شظف العيش وقلة الدخل، فالتمَّارين أو الذين يبيعون التمر كان دخلهم معقولًا ومتوسطًا ليكيفيهم، فعلى سبيل المثال كان هناك تمّارًا ينفق على أعمى بخمسة عشر دينارًا شهريًا[1]، ما يعني أنه ميسور بسبب تجارة التمور، إلا أن الباحث يظن أن هذه الفئة كانت تنتمي إلى تجار التمر الكبار،أما التمارين الصغار وهم كالباعة المتجولة يكاد دخلهم اليومي يكفيهم عن السؤال.

ولا نجد دليلًا أقوى من حادثة التمّارين في عام ٣٧٢هـ/٩٨٢م، عندما اضطرت نقابة التمَّارين إلى الاستدانة لتسديد الضرائب على تجار وبائعي التمر[2]، وهذا يدل على أمرين؛ أن تجار وبائعي التمر كانوا متكتلين في نقابة واحدة للحفاظ على حقوقهم ومصالحهم، والشيء الثاني فرض الضرائب الكثيرة من السلطة البويهية عليهم، ما يدل على فقد هامش معتبر من ربحهم لصالح الضرائب، ناهيك عن الكوارث التي كانت تحل بمحصول التمر في العديد من السنوات كتلك السنة جراء تعرض المحصول لكارثة طبيعية كالبرد أو شدة المطر أو الفيضان والسيول.

أما دخل من يعمل بالبقالة فقد كان قليلًا للغاية، فقد كان منهم من يبيع بضاعته في الشوارع بين الناس عن طريق التجوال، أي أنه بائع جوال،أو أن حانوته صغير يوجد في الشارع بالقرب من منازل ودور الناس،أما عن دخل البقالين فقد كان قليلًا فيما يبدو طوال العهد العباسي، وينسحب أيضًا في العهد البويهي، والدليل على ذلك قول أحد البقالين لغني: "أنت تملك مئة ألف دينار، وأنا لا أملك مئة فلس، إنما أعيش بكدي"[3]، ويبدو أن هذه المقولة الموجزة تنطبق على جميع الحوانيت في الأسواق داخل المدن والبائعين وأصحاب الحرب فقد كان دخلهم يكاد يكفيهم لقوت يومهم.

وينطبق أيضًا على بائعي السويق أو الحبوب كالحمص، فقد باع أحد الباعة السويق عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م،أنه أحصى ما يباع سنويًا في سوق السويق فوجده مئة وأربعين كرا تباع

---

[1]نفسه، ص٢٢٤.

[2]نفسه، ص٢٢٥.

[3]فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٢٢٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميعها، وقد كان السويق هذا طعام الفقراء، وبالتالي لا بدأن يكون بسعر زهيد، وهو ما يؤدي إلى قلة دخل بائع هذا السويق[1].

أما الثلاجون، فقد كانت دخولهم مرتفعة نوعًا ما، وذلك لعدة أسباب، منها أن الأغنياء يطلبون الثلج من أجل تبريد الماء أو الفواكه أو غيرها، وقد تراوح الرطل من الثلج مثلًا قبيل الغزو البويهي لبغداد من عشرين إلى خمسين ألف درهم[2]، وهو ما يدل على أن هذه المهنة كانت تدر على عمالها وصانعيها وتجارها دخلًا لا بأس بها.

وقد خصص الوزير ابن بقية وزير معز الدولة البويهي ألف رطل من الثلج له ولإدارته، وذلك لاستخدامها، وذلك في عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وهذا يدل علىاهتمام الوزراء ورجال الإدارة بشراء الثلج[3].

ويبدو أن هناك من الفئات التي تنتمي إلى العامة، يحالفها الحظ في دخل ميسور ومرتفع، مثل النائحات على سبيل المثال، فلو قامت النائحة بعملها في منزل ثري فإنه ينالها من ذلك دخل لا بأس به، بل دخل مرتفع في بعض الأحيان، مثل النائحة التي أخذت من عزاء أبي القاسم البغدادي مبلغ ثلاثين ألف درهم كأجر لها[4]، ولم توجد نصوص واضحة في العهد البويهي على ذلك، إلا أن ظن الباحث أن هذه المهن والحرف من حيث الدخول لم تختلف كثيرًا عن العهود السابقة، بل قلّت بسبب الظروف الاقتصادية الطاحنة في بعض السنوات.

أما أعمال الحراسة والغفارة، فلم تزد أجورها على خبز ودانق فضة، أو أجر زهيد آخر، فهناك مثال على ذلك نجده في حراسة الزاهد عبد الصمد عند أحد اليهود وطالب دانق فضة وثلاثة أرطال من الخبز كأجرة على هذه الحراسة وقد وافق اليهودي على ذلك، وكان هذا في عام ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م[5].

وعلى أيحال،فقد عاش العمال والبناءون والبائعون فيما نرى من أمثلة سابقة على الكفاف، وقلة ذات اليد، وهذا سيظهر أكثر خلال الحديث عن مستوى المعيشة والإنفاق العام لهذه الفئات.

ولا نغفل في هذا المقام، الحديث عن الفلاحين في مناطق السواد، إذأدت سياسة الإقطاع إلى قلة دخول الفلاحين عمومًا، فقد كانت دخولهم أقل من الصناع وأرباب الحرف في المدن، ولا نجد

---

(١)نفسه، ص٢٢٤.

(٢)انظر حوادث عام ٣٣٢هـ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٤.

(٣)فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٢٢٩.

(٤)الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٨٤.

(٥)فهمي سعد، المرجع السابق، ص٢٩٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثالًا أقوى من حديث نص مسكويه عن الفلاحين: "فسدت المشارب، وبطلت المصالح، وأتت الجوائح على التنّاءورقت أحوالهم، فمن بين هارب جال، وبين مظلوم صابر لا ينصف"[١].

وهكذا أدت سياسة الإقطاع إلى هروب الفلاحين من قراها، وتسليم ما تبقى من أراضيهم إلى المقطعين المجاورين، بما يسمىبنظام الإلجاء حتى يأمنوا شرهم، كما أدت الضرائب الباهظة التي فرضها البويهيون إلى تردي أحوال الفلاحين والقرى في العموم.

وقد كان الفلاحون يتلقون أجورهم في فلاحة الأرض بطريقة عينية لا نقدية في أغلب الأوقات، فقد كانوا يتقاضونها من عمال السلطة بالحبوب أو الغلال أو الخضروات أو كأرغفة خبز أو غيرها، وهي بالكاد تسد رمق المزارع في يومه، وتجعله يعيش على الكفاف[٢].

وهناك بعض الفئات التي تنتمي إلى العامة، لكن من الممكن تصنيفها حديثًا بالطبقة الوسطى، ويبدو أنها كانت تعاني أيضًا من دخول مضطربة، بل من معاناة نفسية أيضًا من قلة الاهتمام، خاصة في ظل الأزمات والمحن الاقتصادية.

فالمحدِّثون ومعلمو الحلقات في المساجد كانوا يعانون من دخل منخفض، رغم أن هناك كثير من الطلبة في هذه الحلقات، لكن بسعر زهيد ومنخفض، وهذا ينسحب على جميع معلمي الحلقات المشتغلين في الحديث ماعدا الكبار منهم،إذ كانوا يدخلون القصور في بعض الأحيان وبالتالي يصبح دخلهم مرتفعًا[٣].

وكان كثير من المحدثين يعملون في مهن أخرى مع مهنة التعليم،مثل صيد اللؤلؤ،أو تغسيل الموتى،أو الرقص في الأعراس أو الحدادة، وهي بالتالي مهن متدنية عن مهنة التعليم، لكن أجورها تساعدهم في الكفاف والعيش الكريم[٤].

فعلى سبيل المثال، عمل أبو بكر الصبغي المتوفى عام ٣٤٤هـ،ببيع الصبغ، وقد كان محدثًا ومعلمًا، لكن اسمه اقترن ببيع الأصباغ[٥].

أما الوراقين والخطاطين، فقد كانوا أيضًا يعانون من دخل متذبذب،فتراوحت أجور الوراق والخطاط بالدراهم القليلة، فكان أحد القضاة في أواخر القرن الرابع الهجري في بغداد، يكتب

---

[١]مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٢٨٢.

[٢]الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٨٥

[٣]فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٢٣٧.

[٤]نفس المرجع السبق، ص٢٣٥.

[٥]نفسه، ص٢٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عشر ورقات يوميًا كناسخ، ويتقاضىعلى هذا العمل عشرة دراهم، وينطبق هذا على الخطاطين أيضًا[١].

وكان السبب في قلة أجور الخطاطين والوراقين، غلاء أسعار الورق والحبر في تلك الفترة، جراء الأزمات الاقتصادية المتلاحقة على العراق، وهو ما أدىإلى التقليل من أجور الكتابة والتخطيط، وكذلك التجليد وما يتعلق بمهنة الكتابة عمومًا[٢].

أما موظفو الهيئات القضائية، فقد كانت رواتبهم متوسطة في بعض الأحيان،فقد حصل كاتب الجلسة القضائية على راتب ٣٠٠ درهم شهريًا[٣]، بينما تقاضىالحاجب نصف هذا الراتب شهريًا أي ١٥٠ درهمًا[٤]، بينما حصل موظف عرض الأحكام على مئة درهم فقط شهريًا، وخازن ديوان الأحكام وأعوانه على مبلغ ٦٠٠ درهم موزعة عليهم كل حسب وظيفته[٥]، وكانت هذه المرتبات ترجع إلىأوائل الفترة البويهية.

أما الأطباء،فقد كانت رواتبهم مرتفعة عن باقي المهن، لكن لا يوجود معيار يحدد به راتب الطبيب، فهناك من الأطباء من يحصلون على راتب مرتفع من الخلفاء أو الأمراء أو الوزراء نظير معالجة خاصة لهم أو لأحد حواشيهم في القصر، مثلما حدث مع الطبيب جبرائيل الذي يعمل في البيمارستان، وكان يتلقى راتبًا شهريًا ٣٠٠ درهم[٦]، وكان يتقاضى أيضًا مكافأة خاصة في بعض الأوقات بمبلغ ٣٠٠ درهم أخرى[٧]، وقد كان من حسن حظ جبرائيل أنه اتصل بالوزير الصاحب بن عباد، وذلك من أجل أن يعالج جارية له، وقد تقاضى أجرًا بمبلغ ألف دينار، وهو ثروة بالنسبة له.

وهكذا نرى أن الصلات والهبات من الأمراء والوزراء للأطباء تشكل راتبًا كبيرًا، لكنه ليس دائمًا كالراتب المتوسط الذي يتقضاه الطبيب في البيمارستان.

ونرى أن هناك من الأطباء من كان راتبه قليلًا، لكنه يكفيه عن السؤال في كل الأحوال،وهناك مثال على ذلك، فابن بارونا الطبيب والذي وصل لمنصب طبيب الوزير المهلبي وزير معز الدولة البويهي، كان يعمل قبل أن يستعمله الوزير طبيبًا جوالًا في الشوارع يدور من باب إلى

---

[١]نفسه، ص٢٤٠.

[٢]نفسه، ص٢٤٠.

[٣]الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٨٠.

[٤]فهمي سعد، المرجع السابق، ص٢٩٧.

[٥]فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٢٩٧.

[٦]نفسه، ص٢٩٨.

[٧]نفسه، ص٢٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آخر ليعالج المرضى، وكان يتلقمن المريض ربع درهم أجرة للعلاج أو الفصد، بينما يتلقى في الجراحة ثمانين درهمًا[1].

وهذا يدل على أن هناك من الأطباء من يعاني، ربما لأنه في أول طريق حياته المهنية،أو لأنه كان طبيبًا للفقراء، وبالتالي لا يتلقى راتبًا مناسبًا.

على أي حال، عاشت الطبقة الوسطىفي العصر البويهي،والتي نعدها من العامة لأنها لم تصل إلى الحكم، في ظروف مشابهة إلى حد بعيد مع العمال والفلاحين، من حيث التأثر بالأزمات والمحن الاقتصادية، لكن الفارق الجوهري أن وظيفتهم وأعمالهم وموارد رزقهم كانت أكثر أهمية أو حيوية في المجتمع وتدر عليهم راتبًا ودخلًا مناسبًا يغنيهم عن سؤال الناس.

في العهد السلجوقي:

- **طبقة الخلفاء:**

عانىالخلفاء في العهد السلجوقي مثلما عانى أسلافهم في العهد البويهي، فالظروف واحدة، والتسلط العسكري متشابه إلى حد بعيد، بل نرى أن السلاجقة أحسن حالًا من الناحية الشكلانية،إذ بجل السلاطين السلاجقة الخلفاء، وأظهروهم بمظهر السلطة الروحية للإسلام التي لا غنى عنها في العالم الإسلامي بأسره.

وبالرغم من التسلط العسكري السلجوقي،إلا أن رسوم الخلافة ونفقاتهم ودخلهم من الإقطاعات استمر على حاله، بل زيد فيه، وذلك بسبب ظاهرة الزواج السياسي التي تمت بين الخلفاء وبنات السلاطين السلاجقة، والتجهيز للزواج احتاج لمبالغ ضخمة تنم على الثروة والرفاهية والترف الذي كان يعيش فيه الخلفاء بطبيعة الحال.

وهذه الزيجات مثل زواج الخليفة القائم بأرسلان خاتون بنت السلطان طغرلبك،وزيجة المقتدي بأمر الله ببنت السلطان ملكشاه، والذي طالبت زوجة السلطان أثناء الاتفاق على الزيجة بمطالب مالية ضخمة كتجهيزات لهذا الزواج، وقد وافق الخليفة على الرحب والسعة، وهذا يدل أن دخله كان كبيرًا للغاية لدرجة أنه يوافق على هذه المطالب، فتصفالمصادر هذا الزفاف بأنه كان أسطوريًا،إذ جهز السلطان ابنته خاتون "بمائة وثلاثين جملًا محمل عليها الديباج الرومي، وعلىأربعة وسبعين بغلًا محملة عليها ألوان الديباج الأخرى، وستة بغال محمل عليها اثنا عشر صندوقًا للذهب والجوهر والمصاغ، وثلاث وثلاثين مركبًا من عليها مراكب الذهب، مرصعة

---

[1] نفسه، ص٢٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأنواع الجواهر والحلي وبين يدي الجهاز الأميران كوهارين وبرسق"، وكانت هذه الزيجة في ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م[١].

ويبدو أن الخلفاء كانوا يعيشون في رفه زائد، ونعمة مرفلة، فها هو المستظهر بالله العباسي الذي تولىفي عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٥م، كان يعيش "مشغولًا بنفسه، محبًّا للترفه، آخذًا في لذات الدنيا بأوفر نصيب"، ويشير ابن العمراني صاحب هذا النص إلى أن المستظهر بالله لم يكن طماعًا في أموال الرعية ولا يقبل على نفسه أخذ هذه الأموال، ما يدل على أن دخله والإقطاعات التي أجريت عليه كانت كافية لأن تجعله في هذا النعيم[٢].

هذا الرفه الزائد يعبر عنه امتلاك الخلفاء العباسيين في هذا العصر الجواري والقهرمانات، وللحق فإن الخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي لم يكونوا بدعًا عن سنة أسلافهم في هذا، بل إن المصادر مليئة بالأمثلة التي تحدثت عن امتلاك الخلفاء العباسيين سواء في عصر القوة أو الضعف أو في العهد البويهي عن هذا الامتلاك.

لكن الشيء بالشيء يذكر، فإن الخليفة المستضيءبأمر اللهعلى سبيل المثال امتلك الجواري بمبالغ كبيرة بالرغم من ضعف موارده المالية[٣].

ورغم هذا الترفه الذي عاش فيه الخلفاء العباسيين في ذلك العصر، لكن الأمانة العلمية تحتم على الباحث أن يذكر أن بعض الخلفاء كانوا ذوي همة ونشاط وتصميم على إرجاع رسوم الخلافة وقوتها، وبذل الغالي والنفيس من أجل استعادتها مرة أخرى من نفوذ السلاجقة.

فقد استغل الخلفاء العباسيون – لا سيما المقتفي لأمر الله وخلفاؤه المستنجد والمستضيء – أموالهم وما ادخروه من جواهر وأموال لمحاربة السلاجقة، ودس المؤامرات عليهم حتى ينجلي هذا التسلط العسكري، وهذا يدل على أن دخلهم كان مناسبًا لخوض تلك الحرب.

بل امتاز هؤلاء الخلفاء – الذين يجوز لنا من خلال الأحداث أن نسميهم خلفاء الصحوة – بالتدين وحب الخير والعطف على الفقراء، وقد بذلوا أموالهم في الإنفاق على العامة سواء من خزينة الدولة أو من أموالهم الخاصة[٤].

---

(١)ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٥١.

(٢)ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٦.

(٣)سولاف فيض الله حسن، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية، مكتبة عدنان، بغداد، العراق، ٢٠١٣ م، ص ١٥٧ وما يليها.

(٤)ذكر الباحث نذر من هذه الأحداث في الفصل الأول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على أي حال، لم توجد قوائم للنفقات في البلاط العباسي سوى الإشارات التي ذكرتها المصادر، والتي تدل على العموم علىاستمرار رفاهية الخلفاء وعيشهم في بحبوحة من الحياة التي ترفل في النعيم،حتى أكثر من خلفاء العهد البويهي، ربما بسبب تبجيل السلاجقة السنة للخلفاء إخوانهم في المذهب على عكس البويهيين الشيعية الزيدية.

- **طبقة السلاطين:**

كان السلاطين السلاجقة يمتازون بالخشونة والسذاجة البدوية في المأكل والمشرب والمسكن، وربما هذا راجع إلى الحياة البدوية الاستبسية في آسيا الوسطى، إلا أن هذا لا يمنع من أن طرائق العادات الملوكية، وعادات أهل الحضارة تسربت إليهم خاصة بعد الاستيلاء على فارس ثم العراق، ومن المعروف أن هذين البلدين لهما ضروب في عادات الملك وطرائقه[١].

إلا أن هذه الحال السابقة لا تعني أنهم لبسوا الخشن وأكلوا الوضيع من الطعام، بل عاشوا في قصور مشيدة بالزخارف واللوحات والنقوش، ولبسوا الفاخر من الثياب، وأكلوا الفاخر من الطعام.

فمن حيث القصور، قام السلاجقة بعيد دخولهم بغداد ببناء قصور فخمة لهم، ولعل ما ساعدهم في ذلك السياسة الإقطاعية التي تبنوها، وامتلاك كل أراضي السواد يوزعونها كيفما شاءوا، بل وفرضهم ضرائب باهظة في بعض الأحيان أثرت على دخل دولتهم وبالتالي معيشتهم الخاصة.

أما عن القصور التي بنوها، فعلى سبيل المثال نجد طغرلبك بنى قصورًا شتى سواء في العراق أو فارس، ففي العراق بنى مدينة ملوكية جديدة في الجانب الشرقي من بغداد[٢]، وبنى فيها دار السلطنة لتكون له مقر، وقد أثر بناء تلك المدينة على الأحياء الشرقية من بغداد؛إذ تعين تخريب عدد كبير من دور العامة، ولم تحدثنا المصادر عن المبالغ التي كلفتها هذه المدينة أو القصور إلا أنها كانت ضخمة.

ولم يكتف السلاطين السلاجقة بهذه القصور بل بنوا لوصيفات وجواري وغلمان القصر مقرًا خاص بهم، وكانت تتميز القصور بالأبهة والفخامة الدقيقة، مثل الملابس، والمطابخ التي تكفي لإطعام المئات يوميًا، كل ذلك كان بلا شك ينبغي له دخل مرتفع[٣].

---

[١]علي محمد سعد الحاسي، مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر السلجوقي (عصر السلاطين العظام)، مجلة العلوم والدراسات الإنسانية (مجلة علمية محكمة)، العدد الأول، المجلد الثاني، جامعة بنغازي، ليبيا، ٢٠١٤، ص٢.

[٢]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٤.

[٣]الحاسي، مظاهر الحياة الاجتماعية، ص٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان من مظاهر الأبهة والترف اللذين عاش فيهما السلطان السلجوقي خاصة بعد اختلاط العنصر السلجوقي التركي بالفرس وأهل العراق، ملابسهم التي تم إبدالها من الجبة الصوف الخشنة التي كانت تميزهم من قبل كمظهر من مظاهر القوة والتقشف والخشونة،إلى ملابس الترف والنعمة[١].

فقد لبس السلطان السلجوقي صديريًا رفيعًا من الحرير غير المنقوش، ولبس القباء المرصع بالجواهر، والثياب العتابية المتقنة الصنع والغالية الثمن، كما غلب على ملابسهم - سواء السلاطين أو القادة –البياض، وذلك في مخالفة للسواد الذي لبسه الخلفاء العباسيين[٢].

كما لبسوا القلنسوة المرصعة بالجواهر، والتيجان المرصعة كذلك بالذهب، والعصائب المنقوش عليها بالجوهر والذهب، في مغالاة كبيرة تدل على مدى الترف الذي عاش فيه البلاط السلجوقي، ويدل علىارتفاع الدخول التي دخلت خزانة السلطان.

والحديث عن القصور واللباس ينسحب أيضًا على الولائم والأطعمة التي يقيمها السلاطين السلاجقة، ففي أول الأمر كان الطعام السلجوقي ساذجًا بدويًا،وبمرور الوقت تطورت الأطعمة، ومع ازدياد قوة ونفوذ ودخول السلاطين السلاجقة زادت بلا ريب أبهة وترف هذه الأطعمة.

فعلى سبيل المثال، كانت موائد الطعام السلجوقية مليئة بأنواع الطيور واللحم المشوي، والحلوى بجميع أنواعها الهاشمي والصابوني واللوزينج، هذا إلى جانب الحساء خاصة نقاع الجزر[٣].

وجدير بالملاحظة،أن السلاطين السلاجقة كانوا يحرصون على إقامة الولائم والأسمطة في القصور ومشاركة العامة وجميع فئات المجتمع فيها، خاصة في المناسبات العامة، فعند زفاف السلطان طغرلبك على ابنة الخليفة القائم بأمر الله، أقيم السماط العام لمدة أسبوع، وبلا شك كانت مثل هذه الولائم تتكلف مبالغ كبيرة[٤].

وقد خصص السلطان ألب أرسلان السلجوقي، راتبًا مخصصًا للسماط الذي يقام للعسكر والأمراء، وقد أطلق عليه السماط الخاص، كما كان هناك السماط العام الذي كان يحضر فيه العامة وكان ينفق على هذا السماط بمقدار خمسين من الغنم يوميًا[٥].

---

(١)نفس المرجع السابق، ص٣.

(٢)نفسه، ص٣.

(٣)الحاسي، مظاهر الحياة الاجتماعية، ص٥.

(٤)نفسه، ص٥ و٦.

(٥)نفسه، ص٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن مظاهر ترف السلاطين أيضًا، إقامة حفلات الصيد، فقد كان كل السلاطين السلاجقة مولعين بالصيد، وينفقون مبالغ كبيرة من أجل الصيد وإشباع هذه الرغبة عندهم، فمثلًا أنفق السلطان ملكشاه عشرة آلاف دينار على الفقراء والدراويش عن كل صيد اصطاده[1]، كما كان بعض السلاطين مولعين بالصقور والطيور التي تساعدهم في الصيد، وأنفقوا مبالغ لا بأس بها من أجل اقتنائها إلى جانب أدوات الصيد وغيرها.

كل المظاهر السابقة، تدل على الإنفاق الكبير والترف، ولا شك الدخول التي حازها السلاطين السلاجقة، فالمظاهر دليل على الدخل المرتفع حتى ولم يتم ذكر قوائم لمخصصات السلاطين السلاجقة، في عصر ساده التسلط على السياسة وأيضًا على الأموال العامة والخاصة كما تم تفصيله في بعض فصول تلك الدراسة.

- **طبقة الوزراء وكبار رجال الدولة:**

شكلت طبقة الوزراء والأمراء أهمية كبيرة في العهد السلجوقي، نظرًا لطبيعة هذا العصر، فقد كان للوزراء أهمية في العصر السلجوقي، خاصة على يد الوزير الشهير - ليس فقط في العصر السلجوقي بل من أشهر وزراء التاريخ الإسلامي - نظام الملك الطوسي، فقد كان الوزير بمثابة مدبرًا للدولة، مديرًا لأموالها وسياستها الداخلية والخارجية، مساعدًا للسلطان السلجوقي، بل لا مبالغة إذا قلنا إنه كان أستاذًا للسلطان ومربيًا له إذا كان هذا السلطان صغيرًا في السن، كما كان في حالة نظام الملك.

أما الأمراء، فقد كان هناك الأمراء المستقلون ذاتيًا ببعض الأقاليم، لا سيما في العراق، ونذكر من الأمثلة الأشهر، مثال بني مزيد الذين فاقت شهرتهم ونفوذهم وقوتهم الآفاق، وهو ما يدل على تفوقهم المادي في بعض الأحيان على الخليفة العباسي ذاته.

أما عن الدخول لهاتين الفئتين، فلا شك أن مقدار النفوذ والقوة السياسية كان ينعكس على الناحية المالية الخاصة لهؤلاء، وبالتالي زادت مقادير الإنفاق ومظاهره الخاصة.

فنرى أن هذه الطبقة التي كانت تضم الأمراء السلاجقة والوزراء غرقت في الملذات والمتع الحسية وهو مما لاشك فيه يعرفنا على مقدار الدخل الذي امتلكه هؤلاء،فعلى سبيل المثال يذكر

---

[1] البنداري، دولة آل سلجوق، ص٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدكتور محمود إسماعيل أن كثيرًا من القادة السلاجقة والوزراء أصيبوا بالعقم وعدم الإنجاب جراء الإغراق في متعهم الجنسية والجسدية، كما مات معظمهم في سن الفتوة والشباب[1].

ويبدو أن مرتبات الوزراء والموظفين وكبار رجال الدولة كانت كبيرة، وهذا ما تبينه الشذرات التي تحدثت عن ذلك الأمر، فعلى سبيل المثال كانت ثروة الوزير أبو الحسن الدهستاني كبيرة، ولم تكن تلك الثروة الكبيرة ناتجة عن المرتب فقط بل المصادرات والجور والظلم والعسف الذي كان يشتهر بهم أبو الحسن الدهستاني حتى قيل فيه شعرًاعلى غرار:

لله در عصابة نادمتهم   *كانوا عصارة هذه الأعصار*

فبليت بعدهم بكل مؤاجر   *ما بين قصار إلى عصار* [2]

ولم يكن وحده من اشتهر في هذا العصر بجمع الأموال، بل اشترك معه عمروك الذي كان رئيس الدواوين الحكومية، فكان يشتهر بالسرقة وكون ثروة كبيرة جراء هذه السرقات[3].

على أننا كما سبق وأفردنا مبحثًا كاملًا عن المصادرات المالية، فسنفرد في النقاط التالية اختصارًا لمصادرة الوزراء بسبب جمعهم للأموال مما شكل دخلًا إضافيًا وجمعًا لثروة مالية غير مشروعة ومن أشهر الأمثلة:

- الوزير أبو جعفر أحمد بن محمد البلدي، وزير الخليفة المستنجد والذي كان يشتهر بجمع الأموال ومصادرة الإقطاعات الزراعية وممتلكات الناس لصالحه، ما دفع الخليفة المستضيء يعزله ويصادر أمواله الطائلة وذلك في عام ٥٦٣هـ/١١٦٨[4].

- ومن أشهر الوزراء أيضًا في عهد السلطان ملكشاه عميد الملك الكندري، وكان وزيرًا مهابًا عظيمًا، وكانت له ثروة كبيرة وأموال جمة، وهذا واضح من مصادرة أمواله من أجل سد عجز الموازنة[5].

ومن مظاهر الترف، تكوين ثروات وعصبة حاكمة، وهذا حدث مع الوزير الأشهر في الدولة السلجوقية نظام الملك، فطبيعي مع تحكمه وسطوته على كل مقدرات الأمور في الدولة طوال

---

(١) محمود إسماعيل، سيسولوجيا الفكر الإسلامي، ج٦، ص١٢٧.
(٢) أبو النصر، تاريخ السلاجقة السياسي والعسكري، ص ١٩٦.
(٣) نفس المرجع السابق، ص١٩٦.
(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٩١.
(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٦٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثلاثين عامًا في حكمي ألب أرسلان وملكشاه،أن يكوّن ثروة كبيرة، بل عين أولاده في وظائف كبيرة، وأصبحت عائلة نظام الملك عائلة ملوكية تذكرنا بالبرامكة أيام الرشيد[١].

بل استمر نفوذ هذه الأسرة في الصراع الداخلي بين السلطان محمد وبركياروق، والذي انتهى لمصلحة الأخير، وقد أعطى الوزارة لأحد أفراد تلك الأسرة، وهو عز الملك الحسن بن نظام الملك نظير وقوفه بجانبه أثناء الصراع[٢].

أما عن المرتبات الشهرية أو السنوية للوزير، نجد أن مرتب الوزير نظام الملك كان عُشر مال السلطان،ويبدو أنه كان مرتب الوزير السلجوقي طوال ذلك العهد، وهي بالتالي ثروة طائلة[٣]، كما نرى أن بعض السلاطين كانوا يقومون بمنح أعطيات وإقطاعات إضافية بخلاف المرتب كما حدث مع السلطان ملكشاه الذي منح نظام الملك عشرين ألف دينار، وإقطاع مدينة طوس، وهو ما يدل على عظم دخل نظام الملك[٤].

وعلى أي حال، فقد منح سلاطين الدولة السلجوقية الكثير من المنح والإقطاعيات الزراعية عند توليهم الوزارة، بل منحوهم رواتب منتظمة، فنجد أن الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراوري تقاضى نظير وزارته ستمئة ألف دينار، وذلك في عام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م[٥]، وقام السلطان سنجر بإقطاع جلال الدين بن صدقة إقطاعًا بمقدار عشرة آلاف دينار وذلك عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م[٦].

أما عن راتب وزراء الخلافة، فقد كان يتم منحهم مرتبات سنوية تصل في كثير من الأحيان إلى مئة ألف دينار، ونجد أن منصب نائب الوزير كان يقل كثيرًا عن هذا المبلغ، فتشير المصادر إلى أنه كان في حدود عشرة آلاف دينار، هذا بخلاف الإقطاعات التي كان يمنحها بعض الخلفاء للوزراء، مثل إقطاع الخليفة المقتفي لأمر الله لوزيره عون الدين يحيى بن هبيرة إقطاعات جليلة، كما منح الخليفة المستضيء بأمر الله وزيره عضد الدولة أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء مدينة الحلة وأعمالها إقطاعًا خاصًا له[٧].

---

[١]أبو النصر، تاريخ السلاجقة، ص١٠٧.
[٢]الزهراني، نظام الوزارة، ص١٢٣.
[٣]نفس المرجع السابق، ص ١٢٩.
[٤]ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٩٧.
[٥]ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٦، ص٢٢٨ ؛ الزهراني، نظام الوزارة، ص١٣٠.
[٦]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٧٢؛ الزهراني، المرجع السابق، ص١٣٠.
[٧]المرجع السابق، ص١٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يكن في بعض الأحيان هناك مرتبات بسبب تولي المنصب سواء وزارة الخلافة أو للسلاجقة أثرياء من التجار أو غيرهم من الطبقات، فعلى سبيل المثال تولى الوزير أبو الفتح منصور أحمد بن دارست وزارة الخليفة القائم بأمر الله دون أي راتب لأنه كان من كبار تجار مدينة شيراز[١].

مظهر آخر من مظاهر الترف والثروة التي كان يعيش في ظلها الوزراء، فمن ضمن تقليد رسوم منصب الوزراء أن يبعث الوزير المعين بهدايا نفيسة إلى السلطان السلجوقي من تحف وثياب وخيام جهمرية وآلات مختلفة تقدر بألوف الدنانير، ما يدل على أن طبقة الوزراء من قبل حتى تعيينهم، فيتم اختيارها من طبقة ميسورة وغنية قد تصل إلى الغنى الفاحش في بعض الأحيان[٢].

ونذكر مثالًا على ذلك في حالة الوزير فخر الملك أبو على عمار بن محمد بن نظام الملك الذي قدم هدايا للسلطان بعد توليته الوزارة،إذ قدم هدايا عبارة عن ذهب وخيول وسيوف وخيم غالية الثمن، ما يدل علىامتلاكه ثروة كبيرة مكنته بطبيعة الحال من نيل المنصب، هذا غير أنه من أسرة نظام الملك[٣].

ومن خلال ما سبق يتبين أن فخر الملك طلب الوزارة مقابل المال، فدفع مبالغ طائلة لبركياروق حتى وافق على التعيين وعزل الوزير مؤيد الملك أخي فخر الملك، بسبب وشاية أم السلطان زبيدة خاتون وكاتبها أبو الفضل مجد الملك البلاساني[٤].

على أي حال؛ كان الوزراء وكبار رجال الدولة يتمتعون بدخول مرتفعة وثروات طائلة، شكلت جزء بلا شك على الحالة الاقتصادية للعراق خلال ذلك العصر، فتكوين الثروات بطريقة غير مشروعة أو حتى بطريقة مشروعة من خزينة الدولة، كان على حساب الفئات الأخرى ولا سيما طبقة العامة والتي سنتحدث عن مستوى معيشتها بعد قليل.

- **الطبقة الوسطى:**

كانت الطبقة الوسطى، والتي تتشكل من القادة العسكريين في الجيش السلجوقي والقضاة والموظفين، أفضل حالًا من العامة والكادحين بلا شك، وهو ما سيتبين في تلك النقطة البحثية.

وقد شكل الإقطاع العسكري أساسًا للمرتبات بالنسبة لهذه الطبقة، خاصة الجند السلجوقي وقاداتهم في الجيش،إذ جعل نظام الملك الطوسي من الإقطاع العسكري منهجًا وقانونًا تسير

---

(١)ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٧.
(٢)أبو النصر، تاريخ السلاجقة، ص٢٢٢.
(٣)ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٠٧.
(٤)نفس المصدر السابق، ص٥٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه الدولة السلجوقية في دفع مرتبات الجند والتخلص من مشاكلهم وشغبهم، فجعلوا الأراضي الزراعية إقطاعًا خاصًا للقادة وللجندحتى لا تشكل ضغطًا على الخزينة السلطانية.

وعلى هذا الأساس نجد:

- أن مرتبات القادة العسكريين الكبار في الجيش والرتب الأدنى كانت توزع على هيئة إقطاعات زراعية بنظام محدد سنجده في فلسفة نظام الملك للإقطاع في كتابه سياست نامة[١].
- في بعض الأحيان كان مرتب الجندي نقديًا، وهو ما يعني أن المرتبات المالية شكلت جزءًا من الإقطاع[٢].
- كان السلاطين السلاجقة يقومون بمنح أعطيات وأرزاق زيادة على الإقطاع أو المرتب الأساسي في حال النزاعات الداخلية أو الأخطار الخارجية[٣].
- كان القادة العسكريون ملزمين بالطاعة نظير الإقطاع الزراعي الذي أخذوه وكانت الطاعة عبارة عن تقديم الخدمات وتقديم الجند في أسرع وقت في حال طلب السلطان[٤].
- شكلت بعض المكافآت، مثل نفقة البيعة،زيادة كبيرة في أرزاق الرتب السلجوقية والجند، وهي عبارة عن أموال يدفعها السلطات على شكل مكافآت ومنح للجند والقادة عندما يتولى السلطان المنصب[٥].

كل هذا شكل دخل لا بأس به لطبقة العسكريين، وبالرغم من ذلك فقد استغل الجند السلاجقة النزاعات الداخلية والصراعات على العرش لزيادة أرزاقهم سواء بطريقة الضغط على السلاطين وشغبهم واعتصاماتهم من أجل الأرزاق والمرتبات، أو من حيث النهب والسلب للمدن والأسواق وسرقة الأراضي ونهب القرى المنظم لزيادة أموالهم في حالات الاضطرابات الأمنية أو الحروب وهو ما ناقشه الباحث في الفصل الأول من هذه الدراسة.

---

(١)وضع نظام الملك في كتابه سياست نامة فصلًا عن المرتبات وسماه بتعيين أطماع الجيش، شرح فيه فلسفته في توزيع الإقطاعات والمرتبات العينية والنقدية للرتب المختلفة داخل الجيش؛ انظر نظام الملك الطوسي، سياست نامة، ص١٣٧.

(٢)نفس المصدر السابق، ص١٣٧.

(٣)نفسه، ص١٣٧.

(٤)أبو النصر، تاريخ السلاجقة، ص٣٨٣.

(٥)كانت موافقة الجند السلجوقي على تنصيب ولي العهد أو السلطان مهمة للغاية، لما لهم من دور في البلاد، لذلك حرص الأمراء قبل تنصيبهم على إرضائهم بالمال، وأسموه مال البيعة؛ انظر الأمثلة على ذلك؛ نفس المصدر السابق، ص١٨٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما عن منصب الشحنة أو رئيس الشرطة، وهو من طبقة العسكريين السلاجقة، فقد كان شحنة بغداد من أشهر هذه المناصب، فقد كانت بغداد إقطاعًا له نظير مرتبه، وفي كثير من الأحيان كان شحنة بغداد من أخطر المناصب وتدخل في حياة الخلفاء بإيعاز من سلاطين الدولة السلجوقية، وهو ما زاد من سوء العلاقات بين الخلافة والسلطنة.

أما عن دخله، فقد كان مرتفعًا، فقد كانت بغداد عاصمة الخلافة إقطاعًا له[١]، هذا بخلاف الثروة غير المشروعة من عمليات النهب والسلب،أو الضغط علىالخلافة من أجل زيادة المرتب، فعلى سبيل المثال كان الشحنة كوهارئين يتمتع بالإقطاع حتى أمر الخليفة عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م بإبدال الإقطاع براتب شهري مقداره ألف دينار، وهو ما رفضه الشحنة وامتنع عن العمل بحجة أنه يريد ألف وثمانمئة دينار،حتى تدخَّل نظام الملك وعوضه عن ذلك[٢].

أما عن منصب والي الإقليم، فعادة يكون أميرًا سلجوقيًّا من أمراء الأسرة، أو قائدًا عسكريًّا كبيرًا، وكانت أعطياتهم ومرتباتهم عبارة عن إقطاع عسكري مقابل الولاء والخدمة[٣]، وكثير من الولاة عاش في رغد من العيش، واتخذ من النواب والمساعدين والكتاب والحجاب الكثير.

هذا عن نظام الإقطاع العسكري، والذي در مرتبات ودخول مرتفعة ونفوذ قوي في الحياة العراقية خلال العهد السلجوقي، وقد ناقش الباحث ذلك في مبحث كامل من الفصل الثاني من الدراسة كما تقدم.

أما عن القضاة؛ نجد أن سياسة الدولة السلجوقية هي كفاية القضاة المالية حتى لا يضطرونإلى الظلم والتدليس وخيانة الأمانة، فقد وضح نظام الملك ذلك الأمر خلال عرض منهجه في الحكم في كتابه سياست نامة، فقد حرص على كفاية القاضي في أحواله المعيشية سواء الشهرية أو السنوية، وهو ما يدل علىارتفاع دخولهم أو على الأقل كفاية أحوالهم المعيشية[٤].

فعلى سبيل المثال؛ سنجد أن منصب قاضي القضاة كان أعلى الرتب القضائية، ويبدو أن مرتبه كان مرتفعًا، هذا بجانب الإقطاعات الجليلة التي كان يقطعها، فهناك من كان يرفض وهناك من يقبل، فنجد مثلًا أن قاضي القضاة عبد الله الدماغاني كانت تُحمل إليه أموال جمة من جميع الأمصار[٥].

---

(١) نفسه، ص٣٠٣.
(٢)أبو النصر، تاريخ السلاجقة، ص٣٠٣ و٣٠٤.
(٣)نفس المرجع السابق، ص٢٥٥.
(٤)نظام الملك، سياست نامة، ص٧٩.
(٥)أبو النصر، تاريخ السلاجقة، ص٣٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونجد أيضًا من خلال العرض السابق أن جزءًا من الإقطاع الزراعي كان يذهب للقضاة، فتكون هذه رواتبهم كلعلى حسب مكانته، وقد شكلت ثروة لا بأس بها وكفاية لأحوالهم المعيشية.

وكان هناك من القضاة من كان يتورع ويترفع عن الأموال والمنح السلطانية والهدايا الملوكية، بل وعن المرتبات،إذ كانوا يرون أن منصبهم الرفيع والجليل يحتم عليهم الزهد في الدنيا وإقامة العدل وناموس الشريعة، فعلى سبيل المثال،لم يتقاضى قاضي القضاة محمد بن المظفر الشامي راتبًا نظير منصبه، ولم يغير ملبسه أو سائر أحواله سواء قبل هذا المنصب أو بعده[١].

أما ديوان القضاء من وكلاء أو موظفين أو كتبة فقد كانت مرتباتهم كافية للعيش شهريًا أو سنويًّا، خاصة من يقومون بالإشراف على أموال التركات والوصايا أو أموال اليتامى[٢].

ولقد اتخذ السلاجقة كتابًا وحجابًا باختيار دقيق، لأن هذين المنصبين كانا من الخطورة، لذلك نجد أن مرتبات هذه المناصب كانت مرتفعة بطبيعة الحال.

أما فئة المعلمين والفقهاء فقد كانت تتقاضى مرتبات لا بأس بها، فعلى سبيل المثال عندما توفي الفقيه بهروز الخطاط عام ٥٤٧هـ/١٠٥٦م، وجد ثروته كبيرة وممتلكات طائلة[٣]، ومن الممكن أن تكون هذه الثروة من عمله في التجارة أو غيرها، وقد تم مصادرة هذه الثروة طمعًا فيها من قبل السلطة السلجوقية.

وكان كثير من الفقهاء يعيشون بدخول مرتفعة بسبب الجرايات والمرتبات، فالمدارس النظامية شكلت موردًا كبيرًا للفقهاء والمعلمين[٤]، حتى نجد أن هناك من بدل مذهبه بمذهب آخر طمعًا في التدريس، وبالتالي الجراية والعطاء الوفير، فعلى سبيل المثال نجد أن الفقيه أبو الفتح أحمد بن علي الحمامي بدَّل مذهبه الحنبلي بمذهب الشافعية حتى يتسنى له التدريسطمعًا في المرتب[٥].

ونجد أن فقهاء الشافعية والأشعرية على وجه الخصوص كانت دخولهم مرتفعة ونفوذهم كبيرًا، وقد توثقوا بهذين المذهبين الذين تبنتهما الدولة السلجوقية في المدارس النظامية طمعًا في الجراية

---

(١)نفس المرجع السابق، ص٣٤١.

(٢)نفسه، ص٣٤٢ وما يليها.

(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٨، ص ٨٣

(٤)مريزن سعيد مريزن عسيري، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ١٤٠٥هـ، ص٢٦١.

(٥)الفقيه أبو الفتح أحمد بن علي بن الحمامي الفقيه الشافعي، كان حنفيًا ثم تحول شافعيًّا ثم قام بالتدريس في المدارس النظامية لأنها كانت تشترط الشافعية في مذاهب المعيديين والمدرسين؛ انظر ترجمة ابن الحمامي المعروف أيضا بابن برهان؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٤٦٧ وما يليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعز والمناصب أيضًا، فقد كان التدريس في المدارس النظامية مقدمة لشغل مناصب القضاء[1].

وكان العلماء والفقهاء والقرّاء يتلقون المنح والأعطيات في المناسبات الدينية المختلفة سواء من الخلفاء أو السلاطين أو الأمراء،وهذه المنح والهبات المالية جعلت منهم من المياسير الأغنياء الأثرياء[2].

ومن مظاهر ارتفاع دخول هذه الفئة حبس الأوقاف على الأربطة والسقايات والمساجد، ما يعني أن هذه الفئة وجدت من الكفاية لتنفق أموالها في وجوه الخير لا سيما الوقف، فعلى سبيل المثال كان أبو البركات إسماعيل من عائلة عريقة في حبس الأوقاف، وقد قام بالحفاظ على وقف رباط أبي سعد الصوفي أبيه، وقد تولى نظارة هذا الوقف بنفسه[3].

إلا أن هناك أمثلة من العلماء والفقهاء كانوا يعانون من العيش الصعب، لذلك لجأوا إلىامتهان مهن أخرىأو تلقي المعونات من الخلفاء والسلاطين والأمراء، فعلى سبيل المثال، الفقيه أبي النرسي الكوفي المتوفى عام ٥١٠هـ/١١١٦م، كان يتميز بحسن الصوت في قراءة القرآن، لكنه يعاني من قلة المال، فاضطر للعمل في نسخ الكتب لينفق على عائلته[4].

وهناك من العلماء من كان إمامًا بارزًا ومع ذلك فقيرًا معدمًا مثل العلامة أبي الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي إمام الحنابلة في بغداد، فقد كان إمامًا للحنابلة ومع ذلك عانى من دخل منخفض لعدم تلقيه الهبات المالية وعدم مزاحمته لحلقات التدريس ونزاهة نفسه عن تلقي أي منحة ملوكية، لذلك اضطر الرجل للعمل بالأجرة في نسخ الكتب وهو من هو في زمانه ومصنفه الفنون يشهد بعلمه الغزير[5].

وكذلك أبو النجيب السهروردي المتوفى عام ٥٦٣هـ/١١٦٧م، عانى من الفقر والعوز، وعمل بالأجرة قبل أن يلتحق بالتدريس في المدرسة النظامية[6].

---

(١)صدام جاسم البياتي، الوزير نظام الملك وأثره في تقدم الحركة العلمية في المشرق الإسلامي، مجلة ديالي، العدد ٥٣، العراق، ٢٠١١م، ص١٢.

(٢)انظر مظاهر اهتمام الخلفاء والسلاطين السلاجقة بالعلماء وإعطائهم جرايات وعطاءات؛ عسيري، المرجع السابق، ص١٥٩ و١٦٠ و١٦٣ و١٦٤.

(٣) أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص٢٤.

(٤)انظر ترجمة أبي النرسي الكوفي؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٥١.

(٥)انظر ترجمة أبي الوفاء بن علي بن عقيل؛ المصدر السابق، ص١٤٨ و١٤٩.

(٦)انظر ترجمة أبي النجيب السهروردي؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٤٧٧ و٤٧٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما فئة الأطباء، فقد حصلت على دخول مناسبة لا بأس بها، فلا يوجد إشارة على مرتبات معينة، إلا أن المنح والهبات التي كان يدرها السلاطين السلاجقة على البيمارستانات والأطباء فيها ما يدل على تميز مكانتهم في المجتمع، وبالتالي ارتفاع دخولهم، فعلى سبيل المثال قام السلطان محمد أثناء زيارته لبغداد عام ٥٠١هـ/١١٠٧م، بالإنفاق على البيمارستان العضدي بمبلغ مئة دينار تقديرًا لهم على معالجة غلمانه، وهذه المساعدة المالية كان لأطباء البيمارستان نصيب كبير منها[١].

كما قام الخلفاء العباسيون في تلك الفترة برعاية بيمارستانات بغداد والعراق والإنفاق عليها، وهو ما جعل بلا شك مرتبات وجرايات للأطباء والعاملين فيها أوصلتهم لحد الكفاف والعيش الكريم[٢].

أما التجار فقد كانوا فئة ميسورة الحال، فهناك من الأمثلة ما يدل علىارتفاع دخلها ومعيشتها،فعلى سبيل المثال نجد من التجار من كوَّن ثروة طائلة جراء تجارته،فمن الأمثلة تاجر يدعى محمد بن عبد الواحد بن أبي العز المتوفى عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، فقد كان يمتلك ثروة كبيرة من تجارته مع سواحل الهند[٣].

ومثال آخر وهو أبو علي الحسن بن علي الشهرياني المتوفى عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م كان من تجار بغداد المشهورين بالثراء والغنى[٤]، ويبدو أن فئة التجار خاصة كبار التجار استغلوا الطرق التجارية لصالحهم ولزيادة دخلهم الذي كان مرتفعًا، وكلما ازداد التاجر رتبة كلما ازداد دخلًا بطبيعة الحال.

- **طبقة العامة:**

لم تختلف طبقة العامة في العهد السلجوقي عن نظيرتها في العهد البويهي، فقد عانت من ظروف حياتية صعبة في بعض الأحيان جراء سياسة الإقطاع العسكري وزيادة الضرائب، وبسبب الحروب والنزاعات الداخلية بين الأمراء، ما أدى بطبيعة الحال إلى تذبذب الدخل بين الكفاية في أحيان والعوز في أحيان أخرى.

---

(١)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٠٧.

(٢)مثل إنفاق الخليفة القائم بأمر الله على المارستان العضدي ببغداد وجلب الأدوية للفقراء بالمجان والصرف على الأطباء فيه وكذلك مارستان ميافارقين، وأيضًا بناء الأمير مجاهد الدين قايماز مارستان بالموصل؛ انظر أحمد عيسي، تاريخ البيمارستنات، ص١٨٩ و١٩٠ و١٩٨ و٢٠٠ و٢٠١.

(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٧.

(٤)جيهان الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص ٨٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسنبدأ حديثنا عن العمال والأجراء وعاملي الحوانيت والخياطين والأساكفة والحدادين والعطارين وغيرهم، فقد كانت هذه المهن تعاني من قلة الدخل[١]، فكثير منهم كانوا يعملون بالأجرة عند الأغنياء نظير مرتب معين قد يكفي أحيانًا وقد لا يكفي، خاصة مع غلاء الأسعار المستمر في سنوات كثيرة من العهد السلجوقي.

وكان العمال من الصنائع السابقة وصنائع أخرى كالوراقين وصانعي السلاح والطباخين والطحانين والنحاسين والسقاة وغيرهم، يعملون في حوانيت في أسواق بغداد، وقد فصَّل ابن الجوزي في مصنفه "مناقب بغداد" هذه الأسواق، وقد كان هؤلاء العمال في مراتب معينة من الصناعة، فهناك الأستاذ في الصناعة، يليه رتبة أقل حتى نصل إلى من يتعلم الصناعة، وكل له أجر معين يختلف بحسب الرتبة[٢].

ونجد أن هناك مهنًااختصت بها المرأةلتساعد زوجها على تكاليف المعيشة، وهو ما يدل بطبيعة الحال على أن هذه الأسر كانت تعيش على الكفاف بحيث يتوافر قوت يومها ولا يسمح الدخل اليومي أو الشهري بالادخار أو التوسعة إلا في أحيان قليلة، ومن المهن التي عملت بها المرأة،الخبز أو الخدمة في بيوت الأثرياء،وتغسيل الموتى من النساء، ومهنة الغزل التي كانت تدر دخلًا لا بأس به على العاملات فيها خاصة في مصانع الغزل[٣].

ومن الطريف أن ورش الغزل في بغداد كانت منتشرة واختصت بها النساء، وكان هناك من الحيل لجعل وزن الغزل أو القماش ثقيلًا حتى تدر أكبر دخل ممكن على العاملة في هذه المهنة[٤].

وهناك من المهن التي ارتبطت بحياة الأثرياء، فهذه بطبيعة الحال كانت تدر دخلًا مناسبًا على العمال فيها، مثل الصياغة أو النقش على الأواني الفضية أو العمل في مصانع النسيج العتابية والطراز الخاص بالخلفاء والسلاطين والأمراء وغيرها، فهذه المهن كانت مهنًا مرتفعة عن سابقتها، وهو ما أثر بالتالي على مقدار الدخل.

ولاحظ الباحث أنه على الرغم من الكفاف في بعض المهن، فقد تعرضت أسواق بغداد والمهن المختلفة للعسف والجور والظلم من السلطة السلجوقية بسبب الضرائب المرتفعة، خاصة على

---

(١) جيهان الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٩٧ و٩٨.
(٢) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص٢٦.
(٣) جيهان الراجحي، المرجع السابق، ص١٠١.
(٤) جيهان الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص١٠١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثياب السقلاطون والعتابية، وزيادة المكوس على بعض البضائع، ما يؤدي إلى ارتفاع ثمنها، وبالتالي تقليل هامش الربح للتجار والعمال والبائعين، وهو ما أثر على دخولهم بالطبع[1].

فعلى سبيل المثال، اشتهر السلطان مسعود السلجوقي بالظلم وفرض الضرائب الشديدة على الناس، ففرض على التجار ضرائب على جميع التجارة الواردة على العراق، كما فرض ضرائب على مصانع النسيج ما أدى لتقليل دخل العمال فيها، بل صادر المخالف وفرض عليه الغرامات، وكانت ضريبة حق البيع من أشد الضرائب على الصناعات المختلفة[2].

ولقد عانى بائعو الأغنام والإبل والبقر والجاموس من ضريبة بيع الحيوانات، ما أدىإلى غلاء الأسعار وكساد البيع وقلة دخل البائعين في جميع الاسواق، وامتدت المعاناة على الصيادين وبائعي السمك، فقد فرضت عليهم ذات الضريبة ما أدىإلى قلة دخلهم وتدمير ربحهم تمامًا، وهو ما جعلهم يضجون من الوضع حتى قام الخليفة المستنجد بالله عام ٥٥٥هـ/ ١١٥٨م بإلغاء هذه الضريبة[3].

أما الفلاحون في عموم السواد العراقي وفي القرى وأعمال المدن فكانت حياتهم صعبة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فلم يكونوا يعيشونعلى الكفاف كإخوانهم أهل المدن من العمال والباعة،فقد اجتمعت عليهم المصائب التي دمرت دخولهم وجعلت حياتهم نكدة، وفيما يلي بعض المظاهر التي أثرت على دخلهم:

- نظام الضمان أو التضمين، وهذا النظام كان جزءًا أصيلًا من الإقطاع العسكري،إذ كان يعطي السلاطين السلاجقة حق الضمان للأمراء أو القادة العسكريين أو بعض رجال الدولة والتجارلأي قرية أو مدينة كاملة نظير مبلغ معين يدخل الخزينة السلطانية، ولقد كان الضمان موردًا مهمًا من موارد الخزينة السلطانية[4]،فعلى سبيل المثال ضمن التاجر أبي إسحاق إبراهيم بن علان جميع الضياع بين صرصر وواسط مقابل مبلغ قدره ستة وثمانين ألف دينار[5]، وقام صدقة بن دبيس أمير واسط والذي كان سيدًا إقطاعيًا عليها بإعطاء ضمان البطيحة لمهذب الدولة بن أبي الخير لقاء مبلغ خمسين ألف دينار للعام الواحد[6].

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٩٢.

(2) نفس المصدر السابق، ص١٩٢.

(3) الأعرجي، الإقطاع العسكري في عهد السلاجقة، ص١٣.

(4) نفس المرجع السابق، ص١٣.

(5) نفسه، ص١٣.

(6) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٣٦٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل هذه الأموال المدفوعة من الضامنين جعلت حياة الفلاحين جحيمًا، فكان على الضامن أن يخرج هذه الأموال وزيادة من الفلاحين ومن القرى،إذ فرض الضرائب على وسائل الري وعلى المحاصيل الزراعية والأراضي، والعمل بالسخرة، وكل هذا بطبيعة الحال يعدم دخل الفلاحين تمامًا.

فعلى سبيل المثال قام أبو سعيد القايني بفرض الضرائب على قرى بغداد ونهب المزارعين والمحاصيل الزراعية حتى يضمن أمواله المدفوعة للحكومة كضمان لهذه القرى، وذلك في عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م[١].

- أما عن نتائج تلك السياسة فقد كانت سيئة بسبب هروب الفلاحين من القرى ومن الضرائب المفروضة عليهم،إذ أفرز الإقطاع نظام السخرة،فسخَّر الإقطاعيون الفلاحين للعمل في المزارع والضياع،حتى عندما هرب الفلاحون من نير هذا النظام نجد السلطة السلجوقية تجد في طلبهم لعودتهم سريعًاإلى أراضيهم[٢].

- أدت النزاعات والحروب الإقطاعية، أي الحروب بين الأمراء السلاجقة والذين كانوا إقطاعيين في نفس الوقت ويتحكمون في المدن والمقاطعات إلى تخريب عدد كبير من المزارع والأراضي الزراعية في السواد العراقي، وذلك بشهادة ابن جبير الذي عاصر تلك الأحداث، هذا إلى جانب الفيضانات والكوارث الطبيعية التي زادت من المعاناة[٣].

كل هذه النتائج كانت بلاشك مؤثرة في دخل الفلاحين وحياتهم المعيشية والتي معبرة عن المحنة والأزمة الاقتصادية العامة في العراق خلال العصر السلجوقي

المبحث الثاني: مظاهر مستوى المعيشة للعامة في العراق خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

يتناول هذا المبحث لنقطة بحثية كنتيجة لكل ما سبق، فاختلاف حركة الدخل في ظل الأزمات الاقتصادية المتلاحقة على العراق جعلت من مظاهر الحياة للعامة وهي أكثر الفئات التي عانت من الأزمة أكثر أهمية في عرضها التاريخي، فسيعرض الباحث "مظاهر الأزمة في مستوى المعيشة"، وليس عرض مستوى المعيشة بشكل عام، فمظاهر الأزمة والغلاء والموت بالجملة

---

(١)الأعرجي، الإقطاع العسكري، ص١٣.

(٢)نفسه، ص١٩.

(٣)على سبيل المثال، تخريب الكفة وأعمالها من القرى بسبب استيلاء العرب الخفاجيين على هذه المناطق ونهبهم لها؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جراء الكوارث الطبيعية أو المجاعات وما تخلله من مظاهر للطعام أو الشراب أو المسكن أو غيرها من مظاهر مستوى المعيشة، يعتقد الباحث أنها الأولى بالعرض وتسليط الضوء عليها.

وفيما يلي عرض موجز لأهم مظاهر الأزمة في مستوى المعيشة خلال العصرين البويهي والسلجوقي:

- **التحدث عن العادات الغذائية للعامة.**
- **التحدث عن العادات الصحية للعامة.**
- **التحدث عن ظاهرة الفقر والجوع والشحاذة.**
- **التحدث عن مظاهر أحياء الفقراء وبيوتهم وعاداتهم اليومي**
- **العادات الغذائية للعامة:**

من أشهر الأطعمة التي تناولها العامة من الفقراء أثناء الأزمات الاقتصادية كان الخبز، والذي يصنع من الحنطة والشعير، فنجد أن هذا كان من أهم الأطعمة عندهم،إلا أن خبز الأرز كان من أشهر أنواع الخبز عند الفقراء بالذات[١]، فقد تعفف الأغنياء عن تناوله، بينما كان طعامًا رئيسيًا للفقير أثناء الأزمة، وكان يصنع من الأرز المطحون والملح، وكان يتم تناوله مع قدح من اللبن كوجبة رئيسة[٢].

ولقد تعرض الفقراء حتى في هذه الوجبة لأمرين؛ الأول قلة جودة الخبز إبان الأزمات والمحن الاقتصادية التي عانت منها العراق خلال هذه المرحلة،فقد كان يخلط بالعدس والفول أو البقوليات الأخرى بدلًا من الدقيق أو الشعير، وهذا ما يجعله عديم الجودة[٣]، أما الثاني فهو غلاء الخبز وكر الدقيق والشعير في سنوات كثيرة[٤]، وقد ذكر الباحث سابقًا سنوات الغلاء والمجاعات التي تعرضت لها العراق خلال تلك الفترة في مبحث مفصل بهذا الأمر [٥].

---

[١]خبز الأرز كان ينتشر في خوزستان وطبرستان وجنوب العراق، ويصنع من الدقيق المطحون من الأرز لأن هذه المنطقة شهيرة بزراعة الأرز، وهو رخيص الثمن بالنسبة للفقراء؛ انظر إحسان صدقي العمة، الخبز في الحضارة العربية الإسلامية،حوليات كلية الآداب، حولية ١٢،جامعة الكويت، الكويت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٧٠ و٧١.

[٢]فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٣٩٦.

[٣]الخبز المخلوط بالحبوب مثل خبز الآس، وكان ينتشر أيام الجدب والقحط والأزمات الاقتصادية؛ انظر العمة، المرجع السابق، ص٧٦.

[٤]انظر ملحق ٤.

[٥]انظر؛ المبحث الثالث من الفصل الرابع من الدراسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي أغلب الأحيان كان الفقراء يستخدمون الخبز في الوجبات الرئيسة مع أشياء بسيطة، مثل نقع الخبز في ماء الباقلاء أو الباذنجان أو الخل والدبس، ولقد كان هذا الغذاء رئيسًا في الأحياء الفقيرة والأربطة،إذ كان المتصوفة يأكلون الخبز منقوعًا[١].

كما كانوا يعتمدون على النخالة أو الخبز الخشكار[٢]، وأيضًا دقيق الشعير المعروف بالفريك، كان طعامًا مفضلًا لديهم، واعتمدوا أيضًا علىخبز الفطير،وكان ثقيلًا في الهضم ويعتبر أسوأ أنواع الخبز، وكذلك خبز الملة وخبز البرازديق وخبز الفرن والتنوروالرقاق[٣].

أما الوجبات الرئيسة؛ مثل الهريسة، وكانت طعامًا للفقراء والأغنياء على السواء، كما نجد أن طعام مثل السكباج، وهو عبارة عن لحم بقري سمين مغمور بالماء يضاف إليه القرفة وعدة أعشاب أخرى مخلوطة بالبصل الأبيض والكراث والجزر أو الباذنجان، تعتبر من أشهر الأطعمة، وكان الفقراء يأكلونها[٤]، خاصة الفئات التي تعيش على الكفاف أو ما دونه قليلًا، أما المعدمين فلا يتيسر لهم مثل هذه الأطعمة في الغالب.

وكذلك نجد أن وجبة الشواء كانت رئيسة ومتوفرة عند العامة، خاصة أن محلات وحوانيت الشواء كانت منتشرة في الأسواق كنوع من التيسير للعامة، وقد تعفف الأغنياء في أغلب الأحيان عن أكل الشواء، في حين أن العامة كانوا يستهلكون عدة أطعمة مشوية كالأكارع ولحم الرؤوس ولحم بطون البقر والأغنام والجمال؛أي الأعضاء الداخلية للحيوانات المخصصة للأكل[٥]، هذا إلى جانب السمك الصغير الحجم فكانوا يأكلونه مشويًا ومقليًا[٦].

كما كان الكباب، وهو شرائح اللحم المشوية والمتبلة بالأعشاب، من الأكلات المشهورة، لكن الكباب كما يرجح الباحث أنه لم يتسنَّ لجميع فئات العامة تناوله، ومن الممكن أنه كان طعامًا خاصًا بالفئات متوسطة الحال،إذ كان الفقراء والمعدمون لا يقدرون على ثمنه.

---

(١)جيهان الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٢٩٢.

(٢)خبز الخشكار وهو فارسي الأصل، ويصنع من الحنطة الخشنة غير مخلوط بأي من الحبوب، ويصفه الأطباء لأصحاب مرضى القولنج؛ العمة، الخبز في الحضارة الإسلامية، ص٦٨.

(٣)فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٣٩٧.

(٤)انظر محمد بن أحمد بن المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، نشر مكتبة هيدلبرج، ألمانيا، ١٩٠٢، ص٩٢ ؛ انظر أيضًا؛ جيهان الراجحي، المرجع السابق، ص ٢٩٢.

(٥)فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٣٩٩.

(٦)انظر محمد بن الحسن بن الكاتب البغدادي، كتاب الطبيخ، نشر دار الكتاب الجديد، دمشق، ١٩٦٤م، ص٦٠ و٦١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكذلك أكلة كالدوباغ، وهو عبارة عن طعام مطبوخ من اللبن الحامض المنزوع الدسم،وكان من الأطعمة الشعبية المعروفة، وكذلك الخضار المطبوخ، وكان الباذنجان من أهم الخضروات المنتشرة لأنها رخيصة الثمن، وكان يُحشى لحمًا أحيانًا، وكذلك الكمأة المطبوخة، وهو عبارة عن فطر يجنى من الأرض، وبعد جنيه ينظف ويطبخ، كذلك انتشر الكراث والخس والكرفس والخيار والكرنب على موائد الفقراء[1].

وفي وقت الأزمات كان الفقراء يأكلون الجراد الذي كان منتشرًا في قرى السواد، كما أكلوا السنانير[2]، وبالطبع كان طعامًا اضطراريًّا في وقت المجاعات، وقد ذكرت المصادر هذا الطعام في المجاعة الأولى التي تعرضت لها العراق أثناء الحكم البويهي.

كذلك انتشر طعام السويق، وهو عبارة عن طعام يتخذ من دقيق الحنطة، وكان وجبة رئيسة للمعدمين والفقراء[3]، أما الفاكهة فقد كان العنب الأسود والرمان والبطيخ والشمام والتفاح والعنب من الفواكه الميسرة للعامة[4]، لكن في وقت الأزمات كانت أثمان تلك الفواكه مرتفعة، فاستغنى عنها العامة.

أما وجبة الباقلاء فقد كانت طعامًا شعبيًّا من الدرجة الأولى، وكان البغاددة يتحلقون حول بائعي الباقلاء في الأسواق، وقد انتشرت حوانيت باعة الباقلاء في جميع أحياء بغداد الفقيرة والغنية على السواء، وكان طعامًا خاصًّا للشطّار أيضًا[5].

وكذلك نجد أن العامة من متوسطي الحال انتشر بينهم أكلة العدس والأرز مخلوطًا بما يسمى بالمجدرة، وهو طبخ العدس ويضاف إليه الأرز مع الماء على دفعات وهي من الأكلات الرخيصة والمشهورة[6].

---

(1) فهمي سعد، المرجع السابق، ص٣٩٩.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ٤٧ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢١٧.

(3) السويق نوع من الخبز المطحون دقيقه من الحمص مخلوطًا ببعض الحبوب الأخرى؛ انظر العمة، الخبز في الحضارة الإسلامية، ص٧٤.

(4) أبو المطهر الازدي، حكاية أبي القاسم، ص٤٤ و٤٥ ؛ وعرفوا أيضًا الفاكهة المجففة، وكانت في متناول العامة قبل الخاصة؛ انظر الخطيب البغدادي، التطفيل (حكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم)، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم للنشر، ب ت، ص١٥٨.

(5) نفس المصدر السابق، ص١٥٣.

(6) الكاتب البغدادي، كتاب الطبيخ، ص٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما الأسماك فقد كانت منتشرة بين العامة خاصة في الأماكن البحرية أو التي اشتهرت بها مثل الآبلة والبصرة،إذ تناول البصريون الأطعمة البحرية مثل الروبيان والسمك مشويًا ومقليًا ومطبوخًا، هذا غير طرائق عمل السمك النهري والتي تختلف عن السمك البحري[١].

أما الحلوى،فلم تعرف طريقًا لمعدة الفقراء، سوى بعض الحلوى البسيطة والرخيصة والمتوفرة مثل التمر، والذي جعلوا منه أساسا لوجبة الحلوى، فقد صنعوا منه عصيدة وسميت بعصيدة التمر[٢]، وكانت رخيصة الثمن نظرًا لشهرة العراق بمحصول التمر، أما في السنوات التي دُمرت فيها محاصيل التمر فكانت هذه الحلوى غير موجودة أو غالية الثمن على الأرجح.

وقد تناول البصريون مثلًا حلوي الجوازبة، وهي عبارة عن أرز ولبن مضاف إليه سكر وسميت، وكانت من الأطباق المشهورة عندهم[٣].

أما الأشربة، فقد استخدموا الماء المبرد صيفًا، وكان منتشرًا في الأسواق، وكذلك الألبان كلبن الأغنام والأبقار على السواء، وعصائر مثل الجزر والليمون والتمر وعرق السوس[٤].

وقد تسرب إلى العامة بعض ملذات الأغنياء كشرب النبيذ التمري والعسلي والعنبي، وكانت حوانيت الخمور والنبيذ تقدم هذه الأنواع للعامة في الأسواق في أواني العس، ويبدو أنها كانت رخيصة الثمن[٥].

وبشكل عام كان طعام الفقراء والمعدمين يفتقر إلى الترف، بل كان يتلخص فيهم قول المقدسي في أحسن التقاسيم: "عيشهم ضيق، إدامهم السمك وماؤهم حميم"، وهو ما يدل على معاناة العامة من الفقراء لجلب الطعام وقوت يومهم[٦].

أما أبناء السبيل والمساكين والمتسولون الذين اتخذوا من المساجد والأربطة بيوتًا، فقد كان جل طعامهم من الصدقات، خاصة في المناسبات الدينية كرمضان والعيدين[٧].

---

(١)نفس المصدر السابق، ص٦١ وما يليها؛ انظر أيضًا ريهان نجدي محروس إبراهيم، عامة البصرة من منتصف القرن الثالث الهجري حتى سقوط الخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة طنطا، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ١٧٨ و١٨٨.

(٢)التنوخي، نشوار المحاضرة، ج ٣، ص١٩٠ و١٩١.

(٣)ريهان نجدي، عامة البصرة، ص١٩٠.

(٤) الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٢٩٤.

(٥)البغدادي، التطفيل، ص١٥٧ و١٥٨؛ وأيضًا فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٤٠٦.

(٦)المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٠.

(٧)الراجحي، المرجع السابق، ص٢٩٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت هذه أطعمة الفقراء المشهورة، وقد آثر الباحث أن يتحدث عنها دون أطعمة الأغنياء، لأن الأغنياء لم يعانوا من الأزمة مثل الفقراء والمعدمين الذين كانوا لا يجدون الطعام في أحيان كثيرة، وانتشرت ظاهرة الجوع وسوء التغذية، بل كانوا لا يجدون قوت يومهم خاصة في أيام المجاعات.

- **العادات الصحية للعامة:**

أما عن العادات الصحية، فتجدر الإشارة أن العوامل الصحية الخاطئة للعامة كانت من مسببات الأزمات والمجاعات، فكم من تعامل صحي خاطئ تسبب في الأوبئة ومن ثم المجاعات والأزمات الاقتصادية، فستناقش هذه النقطة البحثية النظافة الشخصية والعامة للمجتمع العراقي خاصة عند العامة.

تجدر الإشارة إلى أن العراقيين كغيرهم من الأمم الإسلامية يحافظون على نظافتهم الشخصية بالذهاب إلى الحمامات العامة والاغتسال أيام الجمع كسنة إسلامية ضرورية، والاغتسال والاستحمام عمومًا والحفاظ على ملبسهم طاهرًا من كل دنس كجزء أصيل من العقيدة الإسلامية. فالحمامات العامة كانت بالآلاف عند تأسيس بغداد[1] وظلت على الوضع دهرًا، إلا أننا نجد أن في السنوات المتعاقبة في عهدي البويهيين والسلاجقة قلت الحمامات العامة عن عداد الآلاف حتى أصبحت بالمئات،فخربت العديد من الحمامات نتيجة الحرائق والكوارث الطبيعية من الفيضانات والزلازل والسيول،أو الحروب الداخلية والنزاعات بين الجند وغيرها من العوامل.

إذ وصل عدد حمامات بغداد الستين ألفًا في بداية العهد البويهي إلى سبعة عشر ألفا، ثم قل العدد في عهد عضد الدولة بن بويه إلى خمسة آلاف حمام فقط[2].

إلا أن هناك ملاحظة لا بد من ذكرها في هذا المقام، أن الحمامات العامة بالفعل كانت كثيرة عند بناء بغداد، إلا أنها كانت في المصادر المختلفة بأعداد فلكية لا تتناسب في بعض الأحيان مع سكان المدينة، إلا أن هذا لا يقلل من كثرتها وأهميتها بطبيعة الحال.

وكانت الحمامات من العوامل الصحية التي تحافظ على سلامة الفرد والمجتمع ومن كل الطبقات الغنية والفقيرة، فقد كانت حمامات بغداد تراعي في أغلب الأحيان معايير النظافة الشخصية وعدم العدوى،إذ يستخدمون الماء البارد والساخنوالأردية والمآزر بعناية فائقة حتى لا تسبب

---

[1]وصل عدد الحمامات عند بناء بغداد لحوالي ٦ آلاف حمام، وذلك حسب البغدادي في تأريخه لبناء المدينة؛ انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص٤٣٩.

[2]ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص٢٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العدوى، فقد كانت "الفوط" الثلاث التي يستخدمهم الفرد الواحد تغسل بعد كل استخدام جيدًا،حتى لا تسبب العدوى[1].

وقد قامت الدولة سواء في العهدين البويهي والسلجوقي أو ما قبلهما بالعناية بالحمامات، فجعلت للمحتسب جهة الإشراف الخاص على حمامات المدينة، من حيث الناحية الأخلاقية أو الناحية الصحية، فنجد أن من مهام المحتسب التفتيش على النواحي الصحية للحمام العام ومنع دخول المرضى خاصة من الأمراض الجلدية من الدخول حتى لا يسبب العدوى، فأمراض البرص والجذام وغيرهما كانت من مسببات عدم دخول المريض بهذه الأمراض إلى الحمام العام[2].

ومن المشكلات التي واجهت الحياة الصحية للسكان في الحمامات هي كيفية تصريف المياه الراكدة المستخدمة في الحمام إلى الخارج،حتى اضطرت السلطة البويهية أيام حاكم بغداد فخر الدولة عام ٤٦٧هـ/١٠٧٥م، بالأمر بعدم بتصريفها في نهر دجلة وفي القنوات المائية الأخربوصرفها في آبار مخصصةحتى لا تسبب الأمراض[3].

وفي بعض الأحيان استخدم العامة والخاصة على السواء الحمامات في معالجة بعض الأمراض المعدية، كنزلات البرد والزكام ووجع الحلق وأيضًا الملاريا والتي كان يسببها البعوض[4]، فالمياه المستخدمة في الحمامات كانت بلا شك تحارب مثل هذه الأمراض المعدية ما قلل في بعض الأحيان من الكوارث الصحية التي مرت على العراق.

وقد كانت الحمامات واستخدامها عمومًا علامة من علامات الشفاء من الأمراض خاصة لكبار رجال الدولة من الخلفاء والسلاطين وغيرهم، ما يدل علىأهميتها في الحفاظ على المجتمع من الأمراض[5].

وعلى الرغم من الدور الذي قامت به الحمامات من النظافة الشخصية والعامة، إلا أن بغداد وسائر المدن العراقية عانت من مسببات الأمراض والأوبئة،فأصبحت الأوساخ واقعًا مستمرًا في

---

(١)عبد الرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر الدكتور السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة،القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ص ٨٦.

(٢)عبد الكريم عز الدين صادق، الدور الاجتماعي لمحتسب بغداد في العصر العباسي الأخير، مجلة كلية الآداب، العدد ٩٧، جامعة بغداد، العراق، ص١٨٠.

(٣)ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٦.

(٤)الشيزري، نهاية الرتبة، ص٨٦.

(٥)الراجحي،الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٣٢٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شوارع بغداد، فعانت الشوارع من رمي المخلفات البشرية والغبار في الصيف[١]، أما شتاء فتتحول إلى وحول وطين ما يعوق الحركة في أحيان كثيرة، خاصة في الأحياء الفقيرة[٢].

وكانت الأسواق في بعض الأحيان تتعرض لمثل هذه المشكلات ما يسبب تلوث الطعام ومن ثم انتشار الأمراض، ويزيد الطين بلة أن في أوقات الوباء كانت الأسواق جزءًا من مشاكل العدوى بلا أدنى شك[٣].

أما مياه الشرب فقد كانت سببًا في انتشار الأمراض، فتجدر الإشارة إلى أن طريقة نقل المياه كانت مؤمنة تمامًا في بداية بناء بغداد، واستمر المحتسب في التفتيش على نظافة أوعية نقل المياه مع السقائين، وكانت من مهمة الحسبة أيضًا في هذا المقام منع سقيا الأبرص والمجذوم من الأوعية المستخدمة مخافة العدوي[٤]،لكن مع زيادة عدد سكان مدينة بغداد كمثال على المدن العراقية الأخرى،فقد تطورت تقنيات النقل إلى ما يشبه المواسير،إذ نقلت المياه من البثوق إلى الأحياء البغدادية عن طريق قنوات مياة جارية، وكانت من فترة إلى الأخرى تحتاج إلى التنظيف والتطهير، وهو ما تم مثلًا في عهد عضد الدولة[٥]، لكن يرجح الباحث أن مع استمرار المنازعات في الدولة البويهية ومن بعدها السلجوقية، وعدم استقرار العراق في هذين العهدين إلى سنوات قلائل، أدى بطبيعة الحال إلىاستمرار عدم نظافة المجاري المائية وعدم تطهيرها إلا بعد فترات كبيرة، ما أدى لانتشار الأوبئة والأمراض.

ويخبرنا نص لابن الجوزي الذي يذكر في حوادث عام ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، أن الحكومة قامت بتوصيل المياهإلى الأسواق والعقارات من الأنهار حتى هذه المناطق مقابل جباية أموال كبيرة يدفعها أصحاب العقارات والأسواق، فقد ذكر أن الحكومة جبت من أسواق وعقارات الكرخ في تلك السنة مقابل التوصيل مالًا جزيلًا دون أن يحدده بالضبط[٦]، وهذا يدل أن بغداد كانت تتميز بوجود شبكة مجاري مائية كما أوضحنا.

ولقد كان تصريف المجاري والمياه من البيوت - لا سيما الفقيرة منها - مشكلة من مشكلات المدن العراقية، فلقد كانت البيوت الفقيرة لا تملك بيت خلاء مناسب، وإن وجدت فقد كانت غير

---

[١]فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٣٣٩.
[٢]نفس المرجع السابق، ص ٣٣٨.
[٣]نفسه، ص٣٣٩.
[٤]الشيزري، نهاية الرتبة، ص١١٧.
[٥]مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص ٤٤٨.
[٦]ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظيفة،ما تسبب الأمراض والعدوى، كما نجد أن هذه البيوت كانت عرضة دائمًا للبعوض والحشرات، لا سيما القمل والبراغيث، ولذا تكون عرضة للفناء في أوقات الأوبئة، وهو مالا نجده في بيوت الأغنياء النظيفة والتي لا تعاني من هذه المشكلات[١].

أما في العموم فقد وجدت في المدن شبكات لتصريف الفضلات الإنسانية، لكنها كانت تتعرض للتدمير أثناء الأمطار الغزيرة أو الفيضانات التي تعرضت لها المدن العراقية، وهو ما أدىلأن تكون سببًا للأوبئة.

ومن المشكلات الصحية التي وجدت في تلك الفترة أو بالأدق قبل الفترة البويهية والسلجوقية؛ حوادث خطأ طبية، مثل الختان، بسبب استعمال أدوات غير نظيفة خاصة لأولاد الفقراء والمعدمين[٢]، إلا أننا لا نجد في المصادر المختلفة التي تحدثتعن الفترة مناط البحث عن تلك الظاهرة.

- ظاهرة الفقر والجوع والشحاذة:

من الظواهر التي انتشرت مع أوقات الأزمات والمحن الاقتصادية ظاهرة إظهار الفقر وانتشار الجوع في الطرقات وظاهرة التطفيل والتسول والشحاذة، فقد كانت تلك الظواهر نتيجة طبيعية لمجتمع يئن تحت وطأة المجاعات والأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية من ناحية، ومن ناحية أخرى الحروب والمنازعات الداخلية سواء سياسية أو فتن اجتماعية ومذهبية أو غيرها.

فظاهرة الفقر كانت منتشرة في العراق قبيل دخول البويهيين بغداد، بسبب الاضطرابات الاقتصادية والسياسية قبلها، وقد استمرت هذه الاضطرابات في العهدين البويهي والسلجوقي، ما صاحبه انتشار الفقر وإظهاره.

فقد انتشرت مظاهر المشي في الطرقات بملابس متسخة رثة تدل على فقر صاحبها، كما خاصة في الأعياد والمناسبات الاجتماعية والدينية،إذ كان يتعذر على الفقير شراء ملابس جديدة له ولأولاده،وكانت الكثير من العائلات خاصة في المدن الكبرى تعاني من هذه المظاهر، ما يدل علىانتشار الفقر[٣].

ومن مظاهر انتشار الجوع والفقر في الشوارع ما نجده في العهد السلجوقي من محاولة الخلفاء العباسيين من التخفيف من وطأة الأزمات، فنجد أن الخلفاء كانوا يأمرون بتوزيع الطعام في أزقة

---

(١)فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٣٦١.
(٢)نفس المرجع السابق، ص٣٧٠ و ٣٧١.
(٣)فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٣٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بغداد من أجل التقليل من الفقر، فنذكر في هذا المقام ما يعرف بالصدقات الرجبية والتي كانت توزع في شهر رجب من كل عام على الفقراء وساكني الأربطة وأبناء السبيل والمساكين وغيرهم من الفقراء والمعدمين، وقد اتخذت رسوم توزيع الصدقات بشكل رسمي في عهد السلاجقة خاصة في عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م[١].

كما انتشرت ظاهرة بناء الأربطة لسكني الصوفية والفقراء والعناية بهم،مثل رباط أبي الحسن الغزوني الذي بنته زوجة الخليفة المستظهر من أجل هذا الغرض[٢]، وأيضًا رباط بنت الأبري ورباط فخر الدولة بن عبد المطلب وغيره من الأربطة.

وعلى الرغم من أعمال الوقف والبر والإحسان على الفقراء إلا أن هذه الأعمال لم تكن كافية في وقت الأزمات والمحن الاقتصادية المتلاحقة، وهذا ما أدىإلى التحاق الفقراء والمعدمين بصفوف اللصوص والعياريين الشطّار، فهذه الحركة الاجتماعية كانت مظهرًا حقيقيًا ومعبرًا عن الأزمة الاقتصادية التي لا تنتهي، بل رافضة في بعض الأحيان للقهر والتسلط السياسي سواء البويهي أو السلجوقي.

وقد عرض الباحث بشكل مفصل عن هذه الظاهرة الاجتماعية في مبحث كامل من الفصل الثالث من الدراسة، لذلك لن نعيد الحديث مرة أخرى عن هذه الظاهرة، لكن على أي حال كانت هذه الظاهرة خطرًا على الأغنياء ومظهرًا طبيعيًا للفقر وانتشاره في طرقات وأزقة المدن الكبرى في العراق خلال هذا العصر.

ظاهرة أخرىارتبطت بالفقر، وهي التطفيل؛ وتعني أن الرجل الفقير يتحسس أماكن الغنى في الموائد والولائم العامة،أو يحاول أن ينادم غنيًا من أجل أن يأكل أو يلبس أو يقضي وقتًا بعيدًا عن عناء الفقر وبؤسه[٣].

وهذه الظاهرة ارتبطت بالفكاهة والظرف، وغالبًا ما يكون المتطفل يحمل صفات الفكاهة من أجل إيجاد قوت يومه، بل من الممكن أن يعيش بعض الفقراء حياتهم كلها على التطفيل[٤].

---

(١) الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ١٦٩.

(٢)أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص٢٦.

(٣)الخطيب البغدادي، التطفيل، ص٤٦ وما يليها.

(٤)ريهان نجدي، عامة البصرة، ص١٩٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن مظاهر التطفيل ما فعله "عليك" أحد نقباء الديلم، وكان يتطفل على جند وقادة الجيش البويهي من أجل الأكل والشراب، وكان يتطفل على موائد الوزراء والقادة العسكريين والأغنياء من التجار [١].

وعلى أي حال؛ ظهر الكثير من المتطفلين لا سيما في بغداد، خاصة مع انتشار الفقر، فكان الفقير إذا وجد في نفسه رفع الحرج في أن يتطفل كان يفعل بلا شك من أجل العيش بحد أدنى من الحياة.

ظاهرة أخرىارتبطت بالفقر والجوع، وهي ظاهرة الشحاذة والتسول في الشوارع،إذ لجأ الفقراء للتسول على أبواب الأغنياء وفي الشوارع ومنهم من جعلها حرفة له، وقد كان المتسولون يتفننون من أجل استخراج الأموال من جميع الفئات،حتىإن منهم من استغل الدين من أجل استدرار عطف الناس وأخذ أموالهم[٢].

أما الكدية، وتعني النصب على الناس، فقد لجأ العديد من الفقراء إلى النصب في مختلف المدن، وأصبحت حرفة ومهنة ولها شيوخ وطرق متعددة ووضع هؤلاء الشيوخ قواعد يمشي عليها النصاب من أجل تنظيم عمله، ومنهم من كون ثروات كبيرة من هذه الحرفة[٣]، ويبدو أنه لا يوجد خط فاصل بين الكدية والنصب بشكل عام بل ولا يوجد فرق كبير بين التسول والكدية، فكلها غاية واحدة هي استخراج الأموال من جيوب الأغنياء بأي طريقة كانت.

ولقد انتشرت هذه الفئة في المدن الكبرى في العراق، ففي البصرة مثلا انتشرت أعداد كبيرة منهم وكانوا يتفننون في الكدية وامتهنوها، بل وورثوها لأبنائهم وعلموهم أصول هذه الحرفة،حتى كثر عددهم في المدينة وأصبحت من الظواهر البينة فيها[٤].

ولقد كانت عائدات هذه الحرفة مقبولة في أوساط الفقراء، فمنهم من وصل لحد أدنى من الحياة الكريمة في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، ومنهم من أصبح من متوسطي الحال ويدخر أموال لوقت الأزمة، ومنهم وهؤلاء كانوا شيوخ المكدية كونوا ثروات كبيرة وأصبحوا في عداد الطبقة الغنية الموسرة[٥].

---

[١] فهمي سعد، العامة في بغداد، ٣١٩.
[٢] ريهان نجدي، عامة البصرة، ص٢٩٥.
[٣] نفس المرجع السابق، ص٢٩٥.
[٤] نفسه، ص٢٩٥.
[٥] نفسه، ٢٩٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولقد كانت عوامل الأزمة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية سببًا في ظهور هذه الحرف والظواهر التي ارتبطت بالفقر، فالفارق الطبقي الشاسع بين الأغنياء المترفين الذين يعيشون في القصور ويكدسون الأموال والذهب والجواهر ويستخدمون هذه الأموال في الحفاظ على مكانتهم والتقرب من الخلفاء والسلاطين والقادة العسكريين، وبين فقراء معدمين لا يجد فيهم الرجل قوت يومه أو مسكن يؤويه، كان سببًا جوهريًا في ظهور هذه الظاهرات المرتبطة بالفقر بلا أدنى شك. صحيح أن من الفقراء من وجد قوت يومه وعاش على الكفاف بما نسميه حديثًا الطبقة المتوسطة، إلا أن هذه الطبقة على سبيل المثال كانت تعيش في ضغط مستمر ويصبح أفرادها فقراء خاصة في وقت المجاعة والأزمة.

- **دور وأحياء الفقراء وعاداتهم اليومية:**

كانت دور العامة بسيطة كحالتهم العامة، فقد تكونت من بيت بسيط البناء لا يوجد في أغلب الأحيان المرافق الاساسية للعيش فيه، إما تكون مؤجرة من مالك وهذا في الأغلب، أو ملك خاص للعائلة[١].

فلم يكن العامة – خاصة الفقراء والمعدمين منهم – يملكون ثمن إيجار البيت أو المسكن، وهذا ما جعل أكثر من أسرة تشترك في السكنى في دار واحدة من أجل توفير الأجرة وتقسيمها على أكثر من عائلة، ومن الناس من لا يملك حتى هذا الخيار، فبنوا أكواخًا بجانب الأحياء كي يعيشوا فيها، وبالطبع لم تكن يتوفر فيها أدنىمتطلبات الحياة الكريمة[٢].

أما الزهاد والمتصوفة والمعدمون، فلم يكونوا يملكون بيتًا أو حتى ثمن إيجار بيت، وهو ما أدى إلى سكناهم الأربطة والزوايا التي انتشرت في بغداد[٣]، وقد عمل الأغنياء على الإنفاق عليها وعلى الفقراء فيها،خاصة في العصر السلجوقي.

وكانت دور العامة مجهزة بمرافق بسيطة للغاية، ومنها ما لا يوجد فيه مكان للخلاء ولو وجد فيها المكان لكنه يصعبعلى الإنسان استخدامه[٤]، ومن الدور ما كان يتكون من طابق واحد أو طابقين حسب مكانة من يسكن أو يملك هذا البيت.

---

[١] الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٢٥٧.
[٢] نفس المرجع السابق، ص٢٥٧.
[٣] نفسه، ص٢٥٧.
[٤] فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٣٦١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكانت غرف البيت مربعة الشكل متجاورة متلاصقة مشرفة على صحن الدار الفسيح المتصل في بعض الأحيان بدهليز يؤدي إلى باب خارجي للبيت أو عدة أبواب داخلية تؤدي إلى غرف خاصة أو درج إلى أعلى حيث الطابق الثاني أو السطح الخاص بالمنزل، وهذا في حالة البيت الكبير الحجم(١).

أما عن بناء هذه الدور فكان من الطين والآجر والجص والخشب والحديد، وكانت مواد البناء هذه مكلفة في بعض الأحيان خاصة في بغداد(٢)، أما في البصرة على سبيل المثال كانت هذه المواد رخيصة(٣)، وهذا يدل على أن العاصمة كانت أكثر غلاء من المدن الأصغر في أغلب الأحيان.

والسبب السابق من تكلفة مواد البناء جعل من بغداد الأشهر في تجارة العقار وتأجيره، وهذه كانت تجارة مربحة لأصحابها، لكن في العهد السلجوقي على سبيل المثال كانت تجارة العقار تعاني من الضريبة المعروفة بالعقار وهي ضريبة فرضت على أصحاب العقارات ومالكيها بدفع أموال للحكومة عن هذه العقارات وغالبًا ما كانت ضريبة مرتفعة ومجحفة(٤).

أما عن أماكن البناء أو الأحياء، فقد كانت أحياء الفقراء تدل على بؤس حالتهم، وبطبيعة الحال ليس كل العامة على وتيرة واحدة، فقد كان متوسطي الحال يسكنون في دور أكثر تجهيزًا وجمالًا واتساعًا، وبالتالي ظهر على الأحياء التي سكنوها أنها لا بأس بها من التنظيم، وهو العكس في أحياء الفقراء والمعدمين، فقد كانت البيوت متلاصقة ليس بينها فاصل أو سور(٥)، فمنطقة الكبش والأسد في بغداد كانت عبارة عن بيوت تشبه الأكواخ في المناطق الزراعية وإذا قام الشخص المار في الشارع برفع رأسه ربما يرى كل من في البيت(٦).

وكانت أزقة الأحياء ضيقة ومتعرجة، يعاني من يسكن فيها من الوحول خاصة في فصل الشتاء،إذ كانت ميازيب الصرف في هذه البيوت تصب في الأزقة أو التراب والعفار في فصل

---

(١)نفس المرجع السابق، ص٣٥٨.
(٢)الراجحي،الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٢٥٨.
(٣)ريهان نجدي، عامة البصرة، ص٢٢٧.
(٤)كانت ضريبة العقار من ضمن الضرائب المقررة في العصر السلجوقي خاصة؛ انظر حوادث عام ٥٢٦هـ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٢٠.
(٥)فهمي سعد، العامة في بغداد، ص٣٦٠.
(٦)نفس المرجع السابق، ص٣٦٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصيف، خاصة مع عدم وجود تهوية مناسبة في هذه البيوت الصغيرة ما يجعلها عرضة للأمراض والأوبئة[١].

هذا بالطبع ليس شاملًا فئات متوسطة وعاشت على الكفاف، فقد كانت بيوتهم مثلًا أوسع وبها وسائل تبريد في الصيف عن طريق الخيش المبلول، أو وسائل تهوية مناسبة يتمتع الجالس فيها بالهواء الرطب ليلًا[٢].

وكانت بعض البيوت تجهز ببئر ماء، خاصة البيوت الكبيرة، ومنها من امتلك بئرًا نظيفًا جعلهم يستغنون عن السقيا من السقاة المارين في الشوارع،أما بيوت الفقراء والمعدمون فلم يكونوا يمتلكون هذا البئر، واعتمدوا بشكل كلي على الساقي المار عليهم يوميًا[٣].

أما عن شبكة الصرف، فقد وجدت في المدن الكبرى شبكة صرف، لكنها كانت تتأثر بالكوارث الطبيعية خاصة السيول والفيضانات، ما يجعلها عرضة لطفح الفضلات البشرية التي قد تفيض في الشوارع وتدخل البيوت[٤].

أما تجهيز البيوت فقد كان بسيطًا بالنسبة للفقراء، فقد اعتمد التجهيز على أثاث بسيط متكون من الحصائر والمخاد والجرار والكيزان والصواني والأواني الفخارية وأدوات الشراب كالأقداح والطاسات[٥]، وغالبًا ما كانت هذه التجهيزات بسيطة للغاية ومصنوعة من مواد رديئة وهذا ما لا نجده في بيوت الفئات المتوسطة مثل التجار أو الموظفين أو الجنود التي كانت التجهيزات أكثر جودة وأكثر جمالًا ودقة.

وكانت تلك البيوت بها وسائل للإضاءة نهارًا عن طريق الشبابيك أو فتحات خاصة كالكوة من أجل دخول الضوء علويًا او أفقيًا على البيت أو ليلًا عن طريق الشموع والقناديل والسروج وهذا في بيوت الأغنياء والفقراء على السواء.

وعلى أي حال؛ كانت دور وبيوت العامة منعكسة على حياتهم اليومية التي كانت عبارة عن محاولة العيش بحد أدنى من الحياة الكريمة والتي كانت نادرة خاصة مع الأزمات الاقتصادية التي شهدتها العراق خلال تلك الفترة.

---

(١)نفسه، ص٣٦١.

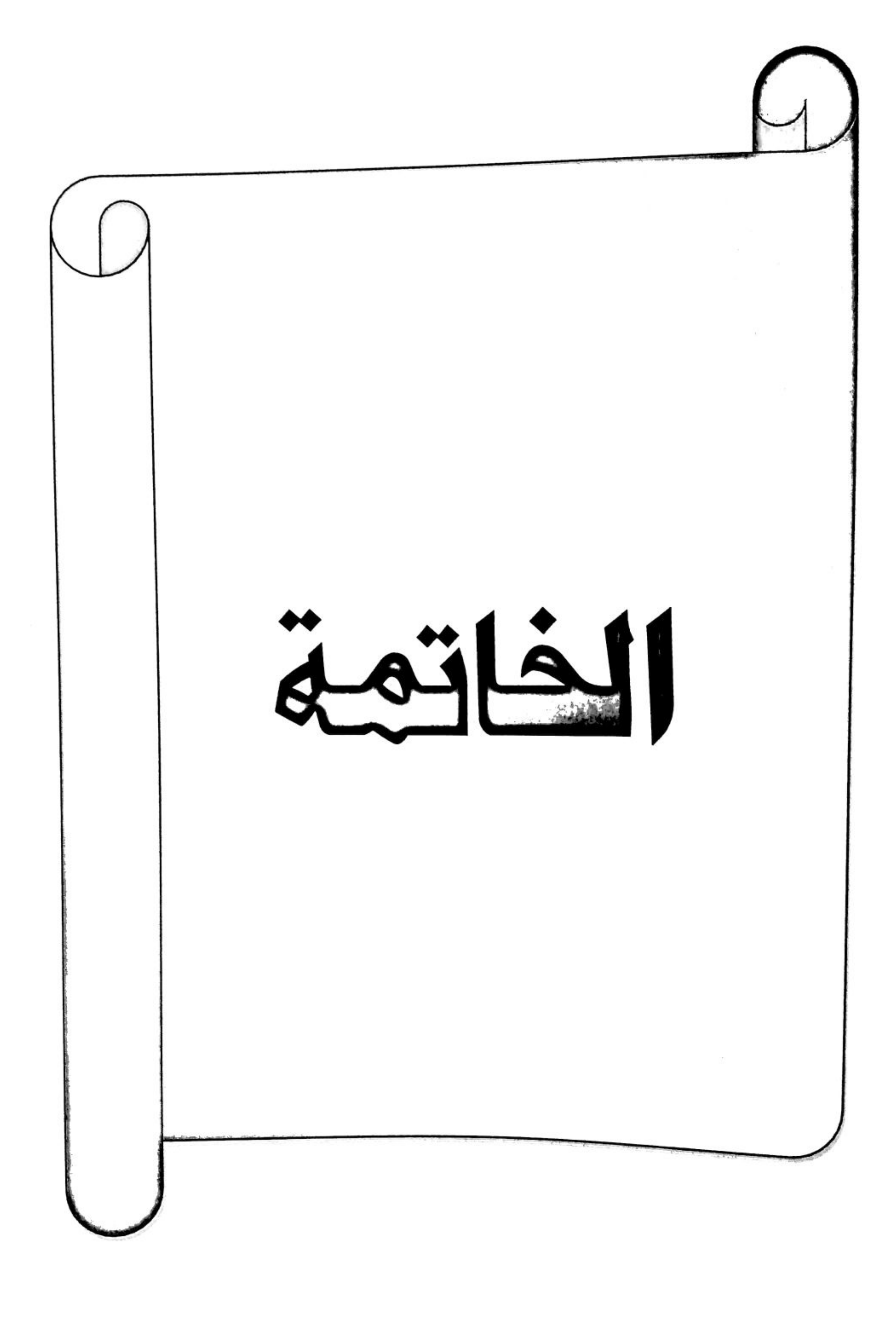
(٢)نفسه، ص٣٦١.

(٣)الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٢٦٠.

(٤)انظر حوادث ٣٣٠هـ قبيل العهد البويهي؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص ١٩.

(٥)الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد، ص٢٥٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في نهاية هذه الدراسة ، والتي كانت تمس موضوع هام من مواضيع التاريخ الاسلامي العام ، وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي أو الشعبي للبلدان الاسلامية خلال العصور الوسطي وفي قلبها العراق بلا شك ، نخرج ببعض النتائج وسنوردها في هذه الخاتمة .

العراق في بعض الأحيان وتسلط العناصر غير العربية علي مقدرات الخلافة العباسية سواء من الديلم البويهيين أو الأتراك السلاجقة ، كان هذا العامل سببا رئيسيا كبيرا للأزمات الاقتصادية المتلاحقة التي ضربت العراق ، لقد كان التسلط البويهي ومن بعده السلجوقي مؤسسًا لظهور الأزمات ، خاصة ما كان نتيجة لحكم هذين الدولتين وتسلطهما علي الخلافة العباسية الضعيفة .

التاريخ السياسي بلا شك مرتبطاً بالتاريخ الاقتصادي ، أو بالأحري نقول كنتيجة لهذه الدراسة ، كان التاريخ الاقتصادي معبراً عن التاريخ السياسي وإنعكاسا له ؛ فسياسة الإقطاع البويهية ومن ثم السلجوقية كانت معبرة عن سياسة التسلط السياسي وداعمة له ، وهو ما برزت له الدراسة التي بين أيدينا فصلاً كاملاً يأمل الباحث أن يكون وضح هذه الفكرة ؛ ان الاقتصاد وجه آخر للسياسة .

لقد كانت سياسة الاقطاع وفلسفته التي بناها نظام الملك أحد أبرز الأوجه في تاريخ العراق خلال تلك الفترة ، سببا في ظهور الأزمات الاقتصادية وتحكم العسكر في السياسة كانت نتيجة لهذه السياسة الاقتصادية والتي عانت منها العراق خلال الفترة السلجوقية بالذات .

ظهور نتائج الاقطاع كانت معبرة في السياسة المالية في الأسواق وظهور موجات الغلاء ، وكثرة الضرائب الاقطاعية ، ومن ثم تدهور الزراعة والصناعة والتجارة ، والتعسف والجور في جباية الضرائب ومعاناة العامة في المأكل والمشرب والملبس ، وظهور المجاعات وما صاحبها من مظاهر الفقر والجوع والشحاذة والكديّة كما عبرت عنه فصول الدراسة بإستفاضة .

لقد كان التاريخ السياسي ووجه الآخر الاقتصادي سببا في جرّ الباحث للحديث عن التاريخ الاجتماعي ، والذي يراه انه من أكثر مجالات التاريخ المعبرة عن طبقات الشعب الفقيرة والتي ذكرها المؤرخون القدامي بحساسية شديدة في بعض الأحيان أو وصمهم بالغوغاء والسوقة والسفلة ، مما أدي إلي تهميشهم وتهميش دورهم في حركة التاريخ الاسلامي في العصور الوسطي ومن ثم العصور الحديثة والحالية كنتيجة لذلك .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد شمل التاريخ الاجتماعي فصلان من فصول الدراسة وهما الفصل الثالث والذي تحدث عن الظواهر الاجتماعية المصاحبة للأزمات ، فقد تناول الفتنة المذهبية كنتاج للأزمة أو معبرا لها أو فاعلا رئيسا في وجودها ، وعن ظاهرة العياريين والشطّار والتي يراها الباحث حركة " ثورية " في بعض الأحيان " تلقائية غوغائية " في معظم الأحيان ، وهذا ليس تناقضا ، فقد كانت هذه الحركة تنظم نفسها كثورة ، لكن يصاحبها بعض الغوغائية وهو ما تسبب في الأزمات وظهورها ، وهو ما ناقشه الباحث إستفاضة ، كما ناقش دور العلماء والفقهاء كطبقة هامة من طبقات المجتمع أثناء الأزمات ، وهو ما نجده في مبحث كامل مخصص لذلك .

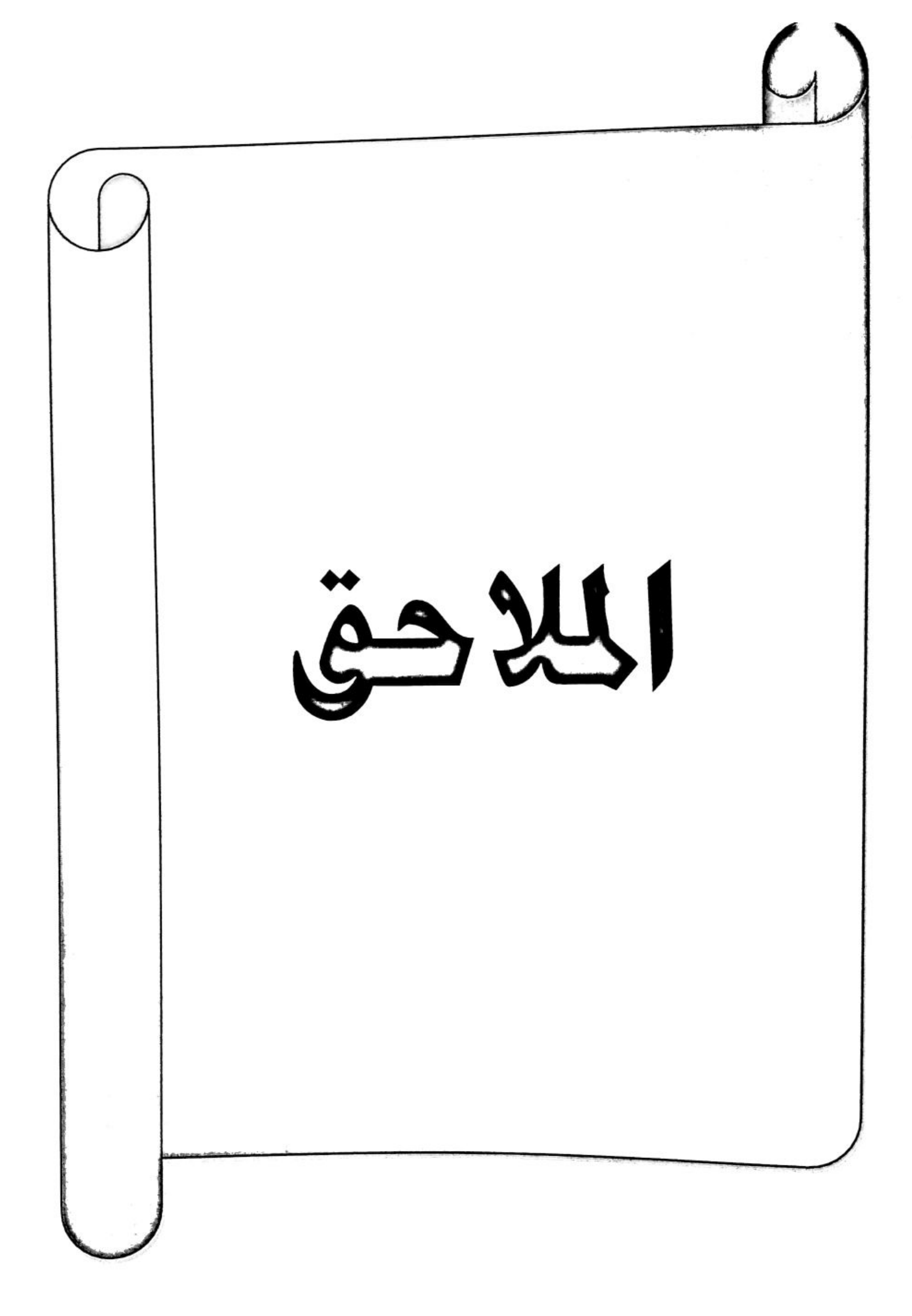
لقد شمل أيضا التاريخ الاجتماعي في هذه الدراسة مظاهر الأزمة علي أكثر الطبقات فقرا ومعاناة وهي طبقة العامة ، والتي تناولها الباحث من خلال امرين : دخولهم ومرتباتهم ومهنهم ، والثاني معيشتهم في المأكل والمشرب والملبس ونظافتهم ودورهم ومساكنهم ، وكيف كانوا يعانون في الأزمة .

لم تستثن الدراسة عامل الطبيعة ، والتي كانت لها كلمتها خلال تلك الفترة من الكوارث الطبيعية التي شملت الزلازل والفيضانات والسيول والبرّد والأمطار العنيفة والجدب والقحط ، بل وحتي تأثير الظواهر الفلكية علي نفسية الناس وتفكيرهم ، لقد عني الباحث بهذه النقاط لما رأه من أهميتها وخصص فصلاً كاملاً له وهو الفصل الرابع ، ولقد كانت تلك التغطية هامة في رأي الباحث لأنها معبرة عن الأزمة وسببا كبيرا له في كثير من الأحيان .

ولم ينس الباحث نقطة في غاية الأهمية وهو مدي تعامل الدولة مع الكوارث الطبيعية ، سواء من الخلفاء أو الأمراء البويهيين والسلاجقة أو الدولة كمؤسسات ، بل ومن الأطباء والمهندسين والفقهاء والعلماء وهذه كانت جزءً من نقطة دور العلماء في الأزمة المشار إليها سابقا .

يرجو الباحث أن تكون تلك الدراسة لبنة بسيطة في جدار التاريخ الحضاري والاجتماعي للتاريخ الاسلامي في العصور الوسطي آملاً من الله سبحانه وتعالي القبول والتوفيق والسداد والغفران ؛ والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل ...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملاحق الدراسة :

ملحق ١

٣٠٨هـ	ثمانية أرطال بدرهم	مسكويه ١/ ٧٥
٣٢٣هـ	كر الحنطة ثمنه ١٢٠ ديناراً	المنتظم ٦/ ٢٧٧
٣٢٧هـ	أربعة أرطال بدرهم	الصولي : أخبار ٦١
٣٢٩هـ	كر الدقيق ثمنه ١٣٠ ديناراً	المنتظم ٦/ ٣١٨
٣٣٠هـ	كر الحنطة ثمنه ٣١٦ ديناراً	المنتظم ٦/ ٣٢٦
٣٣٢هـ	ثلاثة أرطال بدرهم (خشكار)	المنتظم ٦/ ٣٣٥
٣٣٤هـ	رطل بدرهم وربع	ابن الأثير ٨/ ٤٥٤
٣٣٤هـ	خمسة أرطال بدرهم	ابن الأثير ٨/ ٤٥٤
٣٤٨هـ	غلاء في الأسعار	ابن الأثير ٨/ ٥٢٨
٣٤٩هـ	كر الحنطة بألف ومائتي درهم	ابن الأثير ٨/ ٥٣٣
	وكر الشعير بثمانمائة درهم	ابن الأثير ٨/ ٥٣٣
٣٥٨هـ	كر الحنطة بتسعين ديناراً (وكاد الخبز يعدم)	المنتظم ٧/ ٤٧
٣٦٤هـ	كر الدقيق الحواري بمائة ونيف وسبعين ديناراً	المنتظم ٧/ ٧٦
٣٧٣هـ	غلاء شديد ومجاعة	المنتظم ٧/ ١٢١
٣٧٦هـ	كارة(٦٠٠)١ الدقيق الخشكار أكثر من تسعين درهماً	المنتظم ٧/ ١٣٢
٣٧٧هـ	كارة الدقيق الخشكار ١٦٥ ردهماً	المنتظم ٧/ ١٣٦
٣٧٨هـ	كارة الدقيق الخشكار ٢٤٠ درهماً	المنتظم ٧/ ١٣٦
٣٨٢هـ	كارة الدقيق ٦٠ درهماً	المنتظم ٧/ ١٤٠
٤٤٨هـ	رطل الخبز بأربعين درهماً	المنتظم ٧/ ١٧٠
٤٤٩هـ	كر الحنطة بتسعين ديناراً	المنتظم ٨/ ١٧٠، ١٧١
٤٦٤هـ	غلاء شديد	المنتظم ٨/ ١٧٩
٤٩٣هـ	غلاء شديد	المنتظم ٨/ ٢٧٣
٤٩٩هـ	كر الحنطة بسبعين ديناراً وربما زاد كثيرا في بعض الأوقات	ابن الأثير ١٠/ ٣٠١
٥٠٢هـ	غلاء شديد	المنتظم ٩/ ١٤٦
٥١٧هـ	كارة الحنطة بثمانية دنانير	المنتظم ٩/ ١٥٩
٥٤٣هـ	كارة دقيق الشعير الخشكار بستة دنانير ونصف	المنتظم ٩/ ٢٤٦
٦٢٠هـ	غلاء وقحط	المنتظم ١٠/ ١٣٤
٦٢١هـ	غلاء	ابن الأثير ١٢/ ٤١٨
٦٣٥هـ	غلاء	ابن الأثير ١٢/ ٤٢٤
٦٤٦هـ	غلاء شديد	ابن الفوطي ١٠٩، ١١٣
٦٥٦هـ	غلاء	ابن الفوطي ٢٣٢
	غلاء شديد	ابن الفوطي ٣٢٢

أسعار الخبز والدقيق في العراق إبان الأزمات الاقتصادية ، نقلا عن كتاب الخبز في الحضارة الاسلامية ، ص١٣٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملحق ٢

الخلفاء العباسيون المعاصرين للفترة البويهية والسلجوقية :

الفترة البويهية :

- المستكفي بالله (٣٣٣هـ / ٩٤٤م)
- المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤هـ / ٩٤٥م)
- الطائع لله بن المطيع (٣٦٣هـ / ٩٧٤م)
- القادر بالله بن المقتدر (٣٨١هـ / ٩٩١م)
- القائم بأمر الله بن القادر (٤٢٢هـ / ١٠٣١م)
- المقتدي بأمر الله بن القائم (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م)

الفترة السلجوقية :

- المستظهر بالله (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)
- المسترشد بالله بن المستظهر (٥١٢هـ / ١١١٨م)
- الراشد بالله بن المسترشد (٥٢٩هـ / ١١٣٤م)
- المقتفي لأمر الله بن المستظهر (٥٣٢هـ / ١١٣٧م)
- المستضيء بالله (٥٥٦هـ / ١١٧٠م)
- الناصر لدين الله بن المستنجد (٥٧٥هـ / ١١٧٩م)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملحق ٣

السنة	عدد الدراهم في الدينار	المصدر
حوالي نهاية القرن الثالث	١٥/١٤	قدامة - ص ١٤٤، الصابي ص ٣٦ وص ٢٢٧
٣٠٠ هـ/٩١٢ م	١٥	التنوخي - نشوار ج ٨ ص ٢٦
٣٠٢ هـ/٩١٤ م	١٥	الصابي - وزراء ص ٨٠ - ١
٣٠٧ هـ/٩١٩ م	١٤ و٢/١	مسكويه - ج ١ ص ٧١
٣١٠ هـ/٩٢٢ م	١١ و٤/٣	الصابي - ص ٨٩
٣١٢ هـ/٩٢٤ م	١٢	مسكويه - ج ١ ص ١٤٦
٣١٥ هـ/٩٢٧ م	١٥	قدامة - الخراج ص ٢٣٩
٣١٥ هـ/٩٢٧ م	١٦	مسكويه - ج ١ ص ١٦٥
٣٢١ هـ/٩٣٣ م	١٤	ن.م. - ج ١ ص ٢٧٣ - ٤
٣٣٠ هـ/٩٤١ م	١٠	مسكويه - ج ٢ ص ١٣١
٣٣٠ هـ/٩٤١ م	١٣ (للدينار الابريزي)	ابن الأثير - ج ٨ ص ٢٨٨ - ٩
٣٣١ هـ/٩٤٢ م	١١	الصولي - أخبار الراضي ص ٢٣٤
٣٣٢ هـ/٩٤٣ م	١٥	مسكويه - ج ٢ ص ٥٤
٣٤٥ هـ/٩٥٦ م	١٤	ابن الجوزي - المنتظم ج ٨ ص ٣١
٣٥٨ هـ/٩٦٨ م	١٥	ابن حوقل - ص ٢١٨
٣٦٤ هـ/٩٧٥ م	١٤	الهمداني (تكملة) ص ٢٥٩
٣٩٠ هـ/٩٩٩ م	٢٠	الصابي - التاريخ ص ٣٩٥
٣٩٢ هـ/١٠٠١ م	٢٥ (للدينار الصاحبي)	الصابي - ص ٤٦٨
٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م	٤٠ (للدينار القاساني)	الصابي - ص ٤٨٤

أسعار الصرف في العراق خلال الفترة البويهية

نقلا عن كتاب تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ٢٤٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملحق ٤

رواتب بعض الموظفين والجند في الفترة البويهية

السنة		الدخل دينار في الشهر
٣١٥ هـ/٩٢٧ م	راتب محتسب بغداد[١]	١٠٠
٢٧٩ - ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ - ٩٠١ م	رواتب قاضي بغداد ونائبه وأولادهما، وعشرة من الفقهاء[٢]	٥٠٠
٣٥٠ هـ/٩٦١ م	رضي قاضي بغداد أن يدفع للأمير البويهي ٢٠٠,٠٠٠ درهم[٣] أو حوالى	١٣,٣٣٤
٣٥٢ هـ/٩٦٣ م	وافق قاضي بغداد الجديد أن يتولى المنصب دون راتب[٤]	-
ت ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م	راتب القاضي التنوخي[٥]	٦٠

الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٢٨٠.

السنة		دينار في الشهر
٢٩٦ - ٣٠٤ هـ ٩٠٨ - ٩١٦ م	راتب كل من الفرسان في جيش المقتدر[١]	١٢,٥
٣٠٤ هـ/٩١٦ م	خفض راتب الفارس إلى	٤,١٦
٣٠٤ هـ/٩١٦ م	راتب كل واحد من فرقة الرجالة المصافية يساوي[٢]	٤,٧٥
٣١٧ هـ/٩٢٩ م	راتب الفارس يساوي	٤١,٦٦
٣١٧ هـ/٩٢٩ م	راتب الجندي من الرجالة[٣]	٦

الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٢٨١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملحق ٥

جانب من المصادرات لبعض رجال الدولة خلال الفترة البويهية

السنة	الاسم	المبلغ	المصدر
٣٣٤ هـ	القهرمانة علم	٤٠,٠٠٠ دينار	ص ٨٨
٣٥٠ هـ	علي أبو مخلّد	٥٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٨٥
٣٥٠ هـ	العباس بن الحسين الشيرازي	٣٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٨٦
٣٥٠ هـ	أبو الفرج كاتب ديوان الخراج	٣٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٨٦
٣٥٩ هـ	أبو الفضل الشيرازي	٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٢٦٣
٣٦٠ هـ	محمد بن أحمد الجرجرائي	١٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٣١٣
٣٦٤ هـ	ابن السرّاج	١٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٣٥٨
٣٨١ هـ	الوزير أبو نصر سابور	٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم	أبو شجاع ص ١٩٨

نقلا عن ؛ الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٣٠١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

*القرآن الكريم

أولاً: المصادر العربية:

١) ابن الأثير ؛ (أبي الحسن علي بن أبي الكرم):

الكامل في التاريخ، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٢) آبادي؛ (محمد شمس الحق العظيم)

:عون المعبود في شرح سنن أبي داوود، ج١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م.

٣) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم الخزرجي)

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشره أوجست ميللر، ج١، القاهرة، ١٢٩٩هـ .

٤) ابن ابي الدنيا؛ (أبي بكر عبد الله بن محمد)

كتاب الجوع، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

٥) الأزدي؛ (محمد بن أحمد بن المطهر)

حكاية أبي القاسم البغدادي، نشر مكتبة هيدلبرج، ألمانيا، ١٩٠٢.

٦) البنداري ؛ (الفتح بن علي بن محمد)

إنشاء عماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، نشر شركة طبع الكتب العربية ، مصر ، ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م.

٧) البغدادي؛ (محمد بن الحسن بن الكاتب)

كتاب الطبيخ، نشر دار الكتاب الجديد، دمشق، ١٩٦٤م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٨) البلوي؛(أبي محمد عبد الله بن محمد المديني)

سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد علي كرد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٩) ابن تغري بردي ؛ (جمال الدين أبي المحاسن)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٤ ، نشر وزارة الثقافة ، مصر ، ١٣٦٣ هـ / ١٩٦٣م .

١٠) التنوخي ؛ (أبي علي المحسن بن علي)

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجي ، ج٣ ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥م.

١١) التوحيدي؛ (أبي حيان علي بن محمد)

الرسالة البغدادية، تحقيق عبود الشالجي، منشورات الجمل، بغداد، ١٩٩٧م.

١٢) التميمي؛ (محمد بن أحمد بن تميم)، كتاب المحن

تحقيق يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧ م.

١٣) ابن جبير؛ (أبو الحسين محمد بن أحمد)

رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ب ت .

١٤) ابن جماعة الشافعي الحموي

نصوص في الإقطاع، المكتبة الشاملة، ب ت.

١٥) ابن الجوزي ؛ (أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد)

- تلبيس إبليس، نشر دار القلم، بيروت، لبنان، ب ت.
- شذور العقود في تاريخ العهود ، تحقيق أحمد عبد الكريم نجيب ، نشر مركز نجيبويه للمخطوطات١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- القرامطة، نشر وتحقيق محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٨١م
- مناقب بغداد، مطبعة دار السلام، ١٣٤٢هـ .
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٤، ج١٥ ،ج١٦ ،ج١٧ ،ج١٨، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٦) أبو حامد الغزالي؛

التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق محمد أحمد دمج، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

– فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، ب ت.

١٧) ابن حوقل النصيبي؛ (أبي القاسم)

صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.

١٨) ابن حيان؛(أبو مروان حيان بن خلف بن حسين)

المقتبس من أنباء أهل الأندلس، نشر وتحقيق م أنطونيا، باريس، ١٩٣٧م .

١٩) ابن خرداذبة ؛ (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله)

المسالك والممالك، مطبعة بريل، طبعة ليدن، إنجلترا، ١٨٨٩م.

٢٠) الخطيب البغدادي؛ (أحمد بن علي بن ثابت)

- تاريخ مدينة السلام، تحقيق بشار عواد معروف، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م .
- التطفيل (حكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم)، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم للنشر، ب ت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢١) ابن خلدون؛ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد)

تاريخ المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، مراجعة خليل شحادة وسهيل زكار، ج٣، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

٢٢) الخوارزمي ؛ (محمد بن أحمد بن يوسف)

مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٩م.

٢٣) الذهبي؛ (محمد بن أحمد بن عثمان)

سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، مؤسسة الرسالة، طبعة ٢٠٠١ م.

- العبر في خبر من غبر ، تحقيق محمد السعيد بسيوني ، ج٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م .

٢٤) الرازي؛ (زين الدين أبو عبد الله محمد)

مختار الصحاح، تحقيق، يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٩م.

٢٥) ابن رسته؛ (أبي علي بن أحمد بن عمر)

الأعلاق النفيسة، مطبعة بريما، ليدن، إنجلترا، ١٨٩٢م، ص١٠٧.

٢٦) الرشيد ابن الزبير؛

الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٥٩م.

٢٧) الروذراوري ؛ (أبي شجاع محمد بن الحسين)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذيل تجارب الأمم ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

٢٨) الزبيدي ؛(محمد مرتضى الحسيني)

تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق حسين نصار، ج١٢، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٤م.

٢٩) ابن الساعي ؛ (تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب)

نساء الخلفاء والمسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، مصر ، د ت.

٣٠) سبط بن الجوزي ؛ (شمس الدين أبي المظفر يوسف البغدادي)

مرآة الزمان في تأريخ الأعيان ، تحقيق جنان جليل محمد الهمنودي ، الدار الوطنية ، بغداد ، ١٩٩٠م

٣١) السُلمي (أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين)

الفُتُوَّة، تحقيق إحسان ذنون الثامري ومحمد عبد الله القدحات، دار الرازي، عمان، الأردن ،٢٠٠٢ م.

٣٢) ابن سينا؛ (أبو علي الحسين بن الحسن)

القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

٣٣) السيوطي؛ (جلال الدين عبد الرحمن)

تاريخ الخلفاء، دار بن حزم، ط ١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

٣٤) الشاشي؛ (أبي بكر محمد بن أحمد)

حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، تحقيق سعيد عبد الفتاح، مكتبة الباز ، الرياض، السعودية، ١٩٩٨ م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٥) الشيزري؛ (عبد الرحمن بن نصر)

نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر الدكتور السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة،القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

٣٦) الأصفهاني؛ (أبي الفرج)

كتاب الأغاني، ج٢، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م.

٣٧) الصفدي؛ (صلاح الدين خليل بن أيبك)

الوافي بالوفيات ، ج١٠ ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٣٨) الصولي؛ (محمد بن يحيى)

أخبار الراضي والمتقي لله، تحقيق ج هيورث دن، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.

٣٩) الطبري ؛ (أبي جعفر محمد بن جرير)

تاريخ الرسل والملوك، ج٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧ م.

٤٠) عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام

الفتن والبلايا والمحن والرزايا، تحقيق إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر، بيروت، ب ت.

٤١) عماد الدين الأصفهاني

البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

٤٢) ابن العمراني ؛ (محمد بن علي بن محمد)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

٤٣) أبو الفدا ؛(عماد الدين إسماعيل)

المختصر في أخبار البشر ، ج٢ ، نشر المطبعة الحسينية المصرية ، مصر ، ب ت .

٤٤) ابن الفقيه؛ (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق)

مختصر البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.

٤٥) الفيروزآبادي؛ (مجد الدين محمد بن يعقوب)

القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م .

٤٦) أبي القاسم عبد الكريم القشيري

الرسالة القشيرية، ج ٢، تحقيق الإمام عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ب ت .

٤٧) قدامة بن جعفر

الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م .

٤٨) القزويني ؛ (زكريا بن محمد بن محمود)

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، ب ت.

٤٩) القفطي؛ (جمال الدين بن الحسن) ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.

٥٠) الماوردي؛

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، ١٩٨٩م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٥١) المحاسبي؛ (أبي الحارث)

الوصايا، تحقيق عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.

٥٢) المسعودي؛ (أبي الحسن بن علي)

٥٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، مراجعة كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ٢٠٠٥م.

٥٤) المقدسي؛ (المطهر بن طاهر)

البدء والتاريخ، ج٦، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب ت.

٥٥) المقدسي:

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

٥٦) المقريزي؛ (تقي الدين أحمد بن علي)

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد، نشر المجلس الأعلي للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م

- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٧ م .

٥٧) ابن كثير ؛ (أبي الفداء إسماعيل)

البداية والنهاية ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط و بشار عواد معروف ، الاجزاء ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ ؛ دار ابن كثير ، دمشق ، سوريا ، ١٤٣١هـ /٢٠١٠م .

٥٨) مسكويه ؛ (أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب)

تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج٥، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م.

٥٩) ناصر خسرو علوي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية للكتاب، ص١٩٩٣.

٦٠) نظام الملك الطوسي

كتاب سياست نامة ، ترجمة يوسف بكار ، مكتبة الأسرة الأردنية ، عمان ، الأردن ، ٢٠١٢ م.

٦١) الهمذاني ؛ (أبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحق)

كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٦٢) ياقوت الحموي ؛ (شهاب الدين أبي عبد الله)

معجم البلدان، مجلد ٣، دار صادر، بيروت، ب ت.

٦٣) اليعقوبي ؛ (أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح)

كتاب البلدان، طبعة ليدن، إنجلترا، ١٨٩٣م.

٦٤) أبي يعلى محمد بن الحسين الفرّاء الحنبلي

الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠ م .

٦٥) أبي يعلى؛ (أبو الحسين محمد)

طبقات الحنابلة، ج٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

٦٦) أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم

كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩ م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانيا: المراجع العربية:

١) أحمد أمين

- الصعلكة والفتوة في الإسلام

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢ م.

- ظهر الإسلام

- فجر الإسلام

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣ م.

٢) أحمد عدوان (دكتور)

- الحمدانيون

المنشأة العربية للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٩٨١م.

- موجز في تاريخ دويلات المشرق الاسلامي

دار عالم الكتب ، الرياض ، السعودية ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

٣) أحمد عيسى

تاريخ البيمارستانات في الإسلام

دار الرائد العربي، القاهرة، ١٩٨١م .

٤) إبراهيم القادر بوتشيش (دكتور)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي في منتصف القرن الثالث الهجري
حتى ظهور الخلافة
منشورات عكاظ، الرباط، ب ت.

٥) إبراهيم علي طرخان (دكتور)

النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨.

٦) حسن منيمنة (دكتور)
تاريخ الدولة البويهية (مقاطعة فارس)
الدار الجامعية، ١٩٨٧م
٧) خالد عزام (دكتور)
موسوعة التاريخ الاسلامي (العصر العباسي)
دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ٢٠٠٩م.
٨) سولاف فيض الله حسن (دكتور)
دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية
مكتبة عدنان، بغداد، العراق، ٢٠١٣ م.
٩) سيدة إسماعيل كاشف (دكتور)
أحمد بن طولون
المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ٢٠٠٠م.
١٠) ضيف الله يحيى الزهراني (دكتور)
النفقات وإداراتها في الدولة العباسية
مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١١) طه حسين (دكتور)

في الأدب الجاهلي

مطبعة فاروق، القاهرة، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م،

١٢) عبد الرازق الحسني

العراق قديما وحديثا

مطبعة العرفان، صيدا، لبنان، ١٩٥٨م.

١٣) عبد الرحمن زكي (دكتور)

الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع

الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.

١٤) عبد العزيز الدوري (دكتور)

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري

مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،١٩٩٥م.

١٥) فاروق عمر فوزي (دكتور)

تاريخ النظم الإسلامية (دراسة لتطور المؤسسات المركزية في الدولة في القرون الإسلامية الأولى)

دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠م

١٦) فهمي سعد (دكتور)

العامة في بغداد خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة

دار المنتخب للنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.

١٧) مجمع اللغة العربية

المعجم الوسيط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكتبة الشروق الدولية، ط ٤.

١٨) محمد أحمد عبد المولى (دكتور)

العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي

مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠ م

١٩) محمد الحسيني الشيرازي

عيد الغدير أعظم الأعياد في الاسلام

مؤسسة المجتبى ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٣هـ .

٢٠) محمد الخضري بك

محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية)

تحقيق محمد العثماني ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

٢١) محمد خميس الزوكة (دكتور)

الجغرافيا الاقتصادية

دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠ م

٢٢) محمد رجب النجار (دكتور)

الشطّار والعيارين (حكايات في التراث العربي)

عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م.

٢٣) محمد سهيل طقوش

- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام

دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م

- تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس، الطبعة السابعة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٤) محمد شعبان أيوب

آخر أيام العباسيين

مؤسسة اقرأ للنشر ، القاهرة ، ٢٠١٣ م.

٢٥) محمد صبري محسوب ومحمد إبراهيم ارباب

الأخطار والكوارث الطبيعية (الحدث والمواجهة)

دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٨م.

٢٦) محمد الطالبي

الدولة الأغلبية

تعريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م.

٢٧) محمد عبد الله عنان

- دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- دولة الإسلام في الأندلس (دويلات الطوائف)، مطبعة الخانجي، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧م، القاهرة.

٢٨) محمد عبد العظيم أبو النصر (دكتور)

- الأوقاف في بغداد في العصر العباسي الثاني

عين للدراسات الاجتماعية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري

عين للدراسات الحضارية والتاريخية ، القاهرة ، ٢٠٠١م.

٢٩) محمد فريد وجدي (دكتور)

الإسلام في عصر العلم

دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ب ت.

٣٠) محمد هيكل (دكتور)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مهارات إدارة الازمة والكوارث والمواقف الصعبة
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م.
٣١) محمود إسماعيل (دكتور)
سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج ٢ ، ج٦
سينا للنشر ، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.
٣٢) محمود شاكر
التاريخ الاسلامي (الدولة العباسية) ، ج٢
المكتب الاسلامي ، دمشق ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
٣٣) وفاء محمد علي (دكتور)
الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين
المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ، ب ت.

ثالثا :الرسائل الجامعية:

١) جيهان سعيد الراجحي :
الحياة الاجتماعية في بغداد من بداية القرن السادس حتى سقوط بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ٢٠٠٦م.
٢) ريهان نجدي محروس إبراهيم :
عامة البصرة من منتصف القرن الثالث الهجري حتى سقوط الخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة طنطا، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧ م،
٣) طه حسين عبد العال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكوارث الطبيعية في بلاد العراق وفارس إبان العصرين البويهي والسلجوقي، رسالة دكتوراه غير منشورة، عين شمس، القاهرة، ٢٠١٠ م
٤) مجدي سمير إبراهيم:
الدور الاجتماعي للشيعة في العراق في عصر سلاطين السلاجقة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م .

٥) مريزن سعيد مريزن عسيري
الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ١٤٠٥هـ .
٦) نادية عبد الصمد عبد الكريم مقلية:
دور العلماء في الحياة العامة في العراق خلال العصر السلجوقي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القري، مكة المكرمة، السعودية، ٢٠١٤م.

رابعا : الأبحاث والدوريات العلمية :

١) أحلام فاضل عبود :
مدينة الحلّة منذ تأسيسها حتي القرن التاسع عشر ، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية ، جامعة بابل ، العراق ، ٢٠١٠.
٢) إحسان صدقي العمة
الخبز في الحضارة العربية الإسلامية،حوليات كلية الآداب، حولية ١٢،جامعة الكويت، الكويت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م
٣) حسين محمد حسين الفقيه:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشطّار والعيارين في الدولة العباسية، دورية كان التاريخية، العدد ١٥، ٢٠١٢م.

٤) خالد يونس الخالدي:

الحرب الأهلية بين السنة والشيعة في العصر العباسي، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩.

٥) سوسن بهجت يونس:

الأسواق في المشرق الإسلامي من عهد الرسول حتى نهاية العصر البويهي، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد ٤٢، ج ١ ن جامعة بغداد، العراق، ٢٠١٥.

٦) طه حسين عوض هُديل:

العياريون وأثرهم في مدينة زبيد من القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع الهجريين، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد ٧، العدد ١، ٢٠١٣م.

٧) عبد الكريم عز الدين صادق:

الدور الاجتماعي لمحتسب بغداد في العصر العباسي الأخير، مجلة كلية الآداب، العدد ٩٧، جامعة بغداد، ب ت.

٨) علي محمد سعد الحاسي:

مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر السلجوقي (عصر السلاطين العظام)، مجلة العلوم والدراسات الإنسانية (مجلة علمية محكمة)، العدد الأول، المجلد الثاني، جامعة بنغازي، ليبيا، ٢٠١٤.

٩) عمر فلاح عبد الجبار:

الوزير السلجوقي نظام الملك إصلاحاته الإدارية وإسهاماته الفكرية، مجلة الجامعة العراقية، كلية الآداب، العدد ٢٨ ،العراق، ب ت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٠) مازن صباح الأعرجي:

الإقطاع العسكري وأثره على الأوضاع الاقتصادية في العراق بالعصر السلجوقي،كلية التربية، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق.

١١) محمد بن عنيزان بن قميش العازمي:

مظاهر الحياة السياسية والعلمية والاقتصادية في القرن الرابع الهجري من خلال أدب القاضي المحسن التنوخي، بحث منشور في جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠٠٣م.

١٢) مصعب حمادي الزيدي:

نظام الإقطاع العسكري نشأته وتطوره من العصر السلجوقي حتى العصر المملوكي، مجلة كلية التربية، مجلد ١١، العدد ٣، الموصل، ٢٠١١م.

١٣) مها سعيد حميد :

الكوارث والأوبئة في الموصل خلال العصر العباسي ،مجلة دراسات موصلية ، العدد ٣٣ ، جامعة الموصل ، العراق ، ٢٠١١م .

خامسا -المراجع الاجنبية المترجمة :

١) آدم متز :

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ترجمة محمد عبد الهادي أبو زيد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ب ت.

٢) جان موريس فييه:

أحوال النصارى في خلافة بني العباس، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٠م،

٣) زيغرد هينكه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شمس العرب تسطع علي الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م

٤) كي ليسترنج :

بلدان الخلافة الشرقية، تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، ب ب، ب ت .

٥) ميكال يان دي خويه:

القرامطة (نشأتهم، دولتهم، وعلاقاتهم بالفاطميين)، ترجمة وتحقيق حسني زينة، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨م .

٦) و. بارتولد:

تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.

٧) وليم و. لامبرت وولاس لامبرت:

علم النفس الاجتماعي، ترجمة سلوى الملا ومراجعة محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م .

سادسا -المراجع الاجنبية:

1) larry.p.pedigo,Entomology and pest management , prentice Hall.New Delhi,2002

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner